الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا

صور من حياة التابعين

دار الأدب الإسلامي
للنشر والتوزيع

صور من حياة التابعين

عنوان الكتاب: صور من حياة التابعين (١ - ٦)
المؤلف: الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا
اعتنى به: يمان بن عبد الرحمن الباشا
الغلاف والخطوط: منير الشعراني
الإعداد الفني والتنضيد الضوئي: دار الأدب الإسلامي

الطبعة الأولى: ٣/١/٢٠٠٦ م
رقم الإيداع: ١٥٢٦/٢٠٠٦
I.S.B.N.: 977-5827-13-2

ص. ب.: ٨١ - بريد بانوراما ١١٨١١ القاهرة
جمهورية مصر العربية
هاتف وناسوخ: ٢٠(٢)٥١٤٧٦٢٦ +
خلوي: ٢٠(١٠)٥١٠٥٥٧٧ +
P.O.Box: 81 - Panorama 11811
Cairo - Egypt
Tel.&Fax: +20(2)5147626
Mob.: +20(10)5105577
E.Mail: ilhonline@yahoo.com
Website: www.ilhonline.com

ILH
Islamic Literature House
For Pub. & Distr.

كلمة النّاشر

الحمد للّٰه رب العالمين ، والصّلاة والسّلام علىٰ سيد المرسلين وخاتم النّبيين ، وآله وأصحابه ، والّذين اتبعوهم واقتدوا بهم قولًا ، وفعلًا ، وعدلًا ، وإحسانًا ، وبعد ...

فها نحن ندخل في رحاب كتاب « صور من حياة التّابعين » الّذين عاشوا قريبًا من عصر النّبوة ، وتتلمذوا علىٰ أيدي رجال المدرسة المحمّديّة الأولىٰ ...

فإذا هم صورة لصحابة رسول اللّٰه ﷺ في رسوخ الإيمان ، والتّعالي عن عَرَض الدّنيا ، والتّفاني في مرضاة اللّٰه ...

وكانوا حلقة مُحكمة مُؤثرة بين جيل الصّحابة رضوان اللّٰه عليهم وجيل أئمة المذاهب ومَنْ جاء بعدهم .

وقد قسمهم علماء الحديث إلَىٰ طبقات ، أوّلهم مَنْ لَحِقَ العشرةَ المبشرين بالجنّة ، وآخرهم مَنْ لَقِيَ صغار الصَّحَابة أو مَنْ تأخرت وفاتهم .

إنّ هٰذا الكتاب بطبعته الجديدة ؛ جُمعت به الكتبُ السّتة الّتي سبق نشرها متضمنةً إضافاتٍ ، وتنقيحاتٍ ، تركها المؤلف ـ رحمه اللّٰه ـ وتنشر للمرّة الأولىٰ ... راجين العلي القدير أن يعيننا علىٰ إصدار بقية ما تركه المؤلف ـ رحمه اللّٰه ـ من صورٍ جديدةٍ .

ونزولًا عند رغبة القرآء الكرام ، ألحقنا بعد هٰذه الكلمة تعريفًا موجزًا بصاحب الكتاب ـ رحمه اللّٰه ـ .

ولا يفوتنا أن ننبهَ القارئَ الكريمَ إلىٰ أننا أصحاب الحقِّ الوحيدون لنشر، وطباعة، وتوزيع جميع كتب الدّكتور عبد الرّحمٰن رأفت الباشا.

كما نشكر قارئنا الكريم علىٰ اختيار أحد منشوراتنا، ونطلب منه العون في إبداء الرّأي، والإشارة لأي خطأ قد يرد تعميمًا للفائدة...

واللّٰه من وراء القصد.

النــاشـــــر

نبذة عن المؤلّف

● ولد الدّكتور عبد الرّحمٰن رأفت الباشا عام ١٩٢٠م في بلدة « أريحا » شمال « سوريّة » ، وتلقىٰ دراسته الابتدائيّة فيها ، ثمّ تخرج في المدرسة « الخسرويّة » بحلب ؛ وهي أقدم مدرسة شرعيّة رسميّة في « سوريّة » ... أمّا دراسته الجامعيّة ؛ فتلقاها في « القاهرة » ؛ حيث نال الشّهادة العاليّة لكليّة أصول الدّين في الأزهر المعمور ، وشهادة اللّيسانس أيضًا في الأدب العربيّ من كليّة الآداب بجامعة فؤاد الأوّل ، ثمّ درجتي الماجستير والدّكتوراه من هٰذه الجامعة الّتي أُطْلِقَ عليها فيما بعد اسم جامعة القاهرة .

● اشتغل ـ رحمه اللّٰه ـ مدرسًا فمفتشًا ، ثمّ كبيرًا لمفتشي اللّغة العربيّة في « سوريّة » ، ثمّ مديرًا لدار الكتب الظّاهريّة المنبثقة عن المجمع العلميّ العربيّ في « دمشق » ، وأستاذًا محاضرًا في كليّة الآداب في جامعة دمشق .

● ثمّ انتقل إلىٰ « المملكة العربيّة السّعوديّة » للتّدريس في كليّة اللّغة العربيّة بجامعة الإمام محمّد بن سعود الإسلاميّة [الرّئاسة العامّة للكليّات والمعاهد العلميّة سابقًا] سنة ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م ؛ وقد شغل منصب رئيس قسم البلاغة والنّقد ومنهج الأدب الإسلاميّ ، وكان عضوًا في المجلس العلميّ في الجامعة منذ أن وُجِدَ ، وعُهِدَ إليه بلجنة البحث والنّشر في الجامعة ذاتها ، ولقد أسهم ـ رحمه اللّٰه ـ إسهامًا كبيرًا في تطوير مناهج الدّراسة ، وإقرار مادّة البحوث في كليّة اللّغة العربيّة ؛ الّتي امتدّ عمله بها إلىٰ ثلاثين عامًا .

* * *

لقد أمضىٰ الدّكتور عبد الرّحمٰن رأفت الباشا حياته العلميّة والعمليّة منذ بدايتها مكافحًا ومنافحًا عن لغة القرآن ... داعيًا إلىٰ فنّ أدبيّ لا يكتفي بجمال التّعبير و إبداع التّصوير ؛ و إنّما يُشترط فيه أن يكون ممتعًا هادفًا نافعًا في وقتٍ معًا ... فنّ أدبي إسلاميّ يلتزم أمام إله متّصف بصفات الكمال كلّها ، منزّه عن صفات النّقص جميعها ...

ويكون بسماته هذه مغايرًا للتيارات الأدبيّة الأخرىٰ الّتي تلتزم أمام النّفوس البشريّة الأمّارة بالسّوء.

ومع أنّه ـ رحمه الله ـ لم يكن هو أوّل من دعا إلىٰ إيجاد هذا الأدب، فقد سبقه إلىٰ ذلك كثير من المفكرين، وهو ـ رحمه الله ـ يعترف بذلك ويقر بالفضل لأهله ...

لكنّه استطاع أن يجعل أماني أولئك العلماء حقيقة واقعة ...

فقد سعىٰ ـ رحمه الله ـ لإيجاد عمل موسوعي يخدم الأدب الإسلاميّ ويكون له بمثابة الخلفيّة التّاريخيّة، والقاعدة الصّلبة الّتي ينهض عليها بناؤه؛ ليساعد الدّارسين في معرفة هذا الأدب ودراسة خصائصه ورصد موضوعاته ... ومن هنا ظهرت فكرة «**موسوعة أدب الدّعوة الإسلاميّة**» الّتي تبنتها كليّة اللّغة العربيّة بالرّياض، والّتي تمّت تحت إشرافه وتوجيهه ـ رحمه الله ـ حيث كانت نتاج مادة البحث لطلبة السّنة النّهائيّة بكليّة اللّغة العربيّة، وصدر منها ستة أسفار:

١ - شعر الدّعوة الإسلاميّة «في عصر النّبوة والخلفاء الرّاشدين».

إعداد عبد الله حامد الحامد. «١٣٩١هـ - ١٩٧١م».

٢ - شعر الدّعوة الإسلاميّة «في العصر الأمويّ».

إعداد عبد العزيز محمّد الزّير، ومحمّد بن عبد الله الأطرم. «١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م».

٣ - شعر الدّعوة الإسلاميّة «في العصر العباسيّ الأوّل».

إعداد عبد الله عبد الرّحمٰن الجعيثن. «١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م».

٤ - شعر الدّعوة الإسلاميّة «في العصر العباسيّ الثّاني».

إعداد عائض بنية الرّداديّ. «١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م».

٥ - شعر الدّعوة الإسلاميّة «في العصر العباسيّ الثّالث».

إعداد محمّد بن عليّ الصّامل، وعبد الله بن صالح العرينيّ. «١٤٠١هـ - ١٩٨١م».

هذا في مجال الشّعر، أمّا في مجال النّثر، فقد صدرت «القَصص الإسلاميّة في

عهد النّبوة والخلفاء الرّاشدين » في مجلّدين اثنين كبيرين ؛ أربىٰ عدد صفحاتهما علىٰ الألف ... إعداد أحمد بن حافظ الحكميّ . « ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م » .

وقد كان لصدور هٰذه الأسفار من الموسوعة ؛ أثر ملموس في تغيير بعض المُسَلَّمَات الأدبيّة الخاطئة عن الشّعر الإسلاميّ ، ولا سيما في عصر النّبوة والخلفاء الرّاشدين ... فلقد كتبت الدّكتورة عائشة عبد الرّحمٰن « بنت الشّاطئ » مقالًا نُشر بالأهرام في عدد يوم الجمعة الواقع في ١٩٧٥/٧/١١م بعنوان : « الإسلام والشّعر والمستوىٰ الفني لشعر الصّحابة » ، وذلك بمناسبة الرّسالة الّتي أعدّها تحت إشرافها الأستاذ محمّد الرّاوندي ؛ المحاضر بدار الحديث الحسنيّة بالرّباط بعنوان : « الصّحابة الشّعراء » ، حيث نقلت فيها فِقَرًا من مقدّمة الجزء الأوّل من موسوعة أدب الدّعوة الإسلاميّة في عصر النّبوة والخلفاء الرّاشدين ، وقررت أنّ الجهود الجديّة قلبت المُسَلَّمَات الأدبيّة السّابقة قلبًا ؛ إذ كان الدّارسون - وهي منهم - يقيمون أحكامهم علىٰ حصر شعراء الدّعوة بما لا يزيد عن أصابع اليدين عددًا .

كما كان لهذه الأسفار أيضًا أثر كبير في إعداد الدّراسات الجامعيّة حول هٰذا الأدب ؛ حيث سُجّلت في جامعات الأزهر ، والقاهرة ، وبغداد ، والرّباط طائفة مِنَ البحوث حول هٰذا الأدب ؛ لنيل درجتي الماجستير والدّكتوراه .

* * *

هٰذا ، وقد عمل الدّكتور الباشا - رحمه اللّٰه - علىٰ توسيع نطاق التّعريف بهٰذا الأدب اليتيم - كما كان يُطْلِق عليه في بعض المناسبات - وذلك من خلال برنامج إذاعيّ سُجّلت حلقته الأولىٰ في شهر ربيع الآخر عام ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م وبثّته إذاعة « الرّياض » ، وقد أربىٰ عدد حلقاته علىٰ (٢٤٠) تحت اسم :

« مع أدب الدّعوة الإسلاميّة » .

* * *

وقد قام وحده - رحمه اللّٰه - برسم منهج إسلاميّ في الأدب والنّقد ، وعمل علىٰ إرساء قواعده ، وتبنّت جامعة الإمام محمّد بن سعود الإسلاميّة هٰذه الفكرة الرّائدة ، وأوسعت لها في المحاضرات الجامعيّة ... حتىٰ قُيِّض لمادّة منهج الأدب الإسلاميّ أن تقف علىٰ أرض صُلبة قويّة ، وأُنشئ علىٰ أثرها أوّل قسم خاص بها في العالم

الإسلاميّ ... وقد عبّر عن ذلك سماحة الشّيخ أبو الحسن النّدوي في التّقديم الّذي كتبه لكتاب « نحو مذهب إسلاميّ في الأدب والنّقد » حيث قال :

« كان الدّكتور عبد الرّحمٰن ممّن يتّصف بالعمل والتّطبيق ، فلم يستجب لهٰذه الفكرة استجابة فكريّة فحسب ، بل سَبَق إلىٰ تنفيذها وتجسيدها خلال تدريسه بجامعة الإمام محمّد بن سعود الإسلاميّة ، و إشرافه علىٰ البحوث الأدبيّة ، ثمّ تطوّرت آماله إلىٰ تأسيس رابطة تُعْنَىٰ بهٰذا الموضوع ، وعَقَدَ ندوات حول الموضوع ، والتفَّ حوله أساتذة وكتّاب كان بينهم وبينه انسجام فكري ، وتحوّلت هٰذه الفكرة إلىٰ منظّمة عالميّة » .

لقد مرّ إنشاء هٰذه المنظّمة الّتي دعيت برابطة الأدب الإسلاميّ العالميّة بمراحل عديدة ؛ كان أهمّها ذلك الاجتماع الّذي عُقد في منزل الدّكتور الباشا في مدينة « الرّياض » عام ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م والّذي ضم لفيفًا من العلماء ؛ في طليعتهم سماحة الشّيخ أبو الحسن النّدوي ، وفي هٰذا الاجتماع وُضعت الخطوط العريضة لعقد ندوة عالميّة ؛ تَلُم شَعْث الأدباء في مشرق العالم الإسلاميّ ومغربه ... وهو موضوع شغل بال الدّكتور الباشا - رحمه اللّٰه - منذ أمد طويل .

ثمّ كانت النّدوة العالميّة للأدب الإسلاميّ في « لِكْنُو » في شهر جمادى الآخرة عام ١٤٠١هـ - ١٩٨١م ، حيث دُعي إلىٰ هٰذه النّدوة عدد كبير من رجالات العالم الإسلاميّ المهتمين بالأدب ، وقد انتخب سماحة الشّيخ أبو الحسن النّدوي رئيسًا للرّابطة ؛ كما انتخب الدّكتور الباشا نائبًا لرئيسها ، وعضوًا في مجلس الأُمناء ، ورئيسًا لمكتب البلاد العربيّة ...

كما شارك - الدّكتور الباشا - أيضًا في العديد من النّدوات والمؤتمرات ، وناقش وأشرف علىٰ عدد من رسائل الماجستير والدّكتوراه .

* * *

تُوُفّي - رحمه اللّٰه - في يوم الجمعة ١٢/١١/١٤٠٦هـ الموافق ١٨/٧/١٩٨٦م إثر مرض عضال في مدينة « اسطنبول » بتركيا ، وشُجّي جثمانه بمقبرة « الفاتح » هناك ؛ حيث يرقد كثير من الصّحابة والتّابعين الّذين أحبهم في حياته وجاورهم في مدفنه .

سائلين العليّ القدير أن يصحبهم في جنّات الخلد أيضًا .

يمان بن عبد الرّحمٰن الباشا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اللَّهُمَّ إِنِّي أَحْبَبْتُ الصَّفْوَةَ المختارة مِن ثقات التَّابعين

حُبًّا لا يَفوقُه إِلَّا حُبِّي لِصَحابَةِ الرَّسولِ الكَريم

صَلَواتُ اللَّهِ وسَلامُه عَلَيْه وعَلَيْهِم أَجْمَعين

اللَّهُمَّ فَهَبْنِي يَومَ الفَزَعِ الأَكْبَرِ لِأَيٍّ مِنْ هَؤلاءِ أو هَؤلاء

فإِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي ما أَحْبَبْتُهُمْ إِلَّا فيكَ، يا أَكْرَمَ الأَكْرَمين

عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ

« مَا رَأَيْتُ أَحَدًا يُرِيدُ بِالْعِلْمِ وَجْهَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ
غَيْرَ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةِ : عَطَاءٌ ... وَطَاوُوسٌ ... وَمُجَاهِدٌ »

[سَلَمَةُ بْنُ كُهَيْلٍ]

هَا نَحْنُ أُولَاءِ فِي الْعَشْرِ الأَخِيرِ مِنْ شَهْرِ « ذِي الْحِجَّةِ » سَنَةَ سَبْعٍ وَتِسْعِينَ لِلْهِجْرَةِ ... وَهَٰذَا الْبَيْتُ الْعَتِيقُ يَمُوجُ بِالْوَافِدِينَ عَلَىٰ اللَّهِ مِنْ كُلِّ فَجٍّ[1].

مُشَاةً وَرُكْبَانًا .

وَشُيُوخًا وَشُبَّانًا ، وَرِجَالًا وَنِسَاءً .

فِيهِمُ الأَسْوَدُ وَالأَبْيَضُ .

وَالْعَرَبِيُّ وَالْعَجَمِيُّ .

وَالسَّيِّدُ وَالْمَسُودُ ...

لَقَدْ قَدِمُوا جَمِيعًا عَلَىٰ مَلِكِ النَّاسِ مُخْبِتِينَ[2] مُلَبِّينَ ، رَاجِينَ مُؤَمِّلِينَ .

وَهَٰذَا سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ[3] خَلِيفَةُ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَعْظَمُ مُلُوكِ الأَرْضِ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ حَاسِرَ[4] الرَّأْسِ حَافِيَ الْقَدَمَيْنِ لَيْسَ عَلَيْهِ إِلَّا إِزَارٌ وَرِدَاءٌ ...

شَأْنُهُ فِي ذَٰلِكَ كَشَأْنِ بَقِيَّةِ رَعَايَاهُ مِنْ إِخْوَتِهِ فِي اللَّهِ .

وَكَانَ مِنْ خَلْفِهِ وَلَدَاهُ .

---

(١) من كل فج : من كل طريق .

(٢) مُخْبِتين : متخشعين لله .

(٣) سُلَيْمَان بْن عَبْد الْمَلِك : أحد كبار خلفاء بني أُمَيَّة ، أخرج الْخلافة من أولاده وعهد بها للخليفة الزَّاهد عُمَر ابْن عَبْد الْعَزِيز .

(٤) حاسر الرَّأس : مكشوف الرَّأس .

وَهُمَا غُلَامَانِ كَطَلْعَةِ الْبَدْرِ بَهَاءً وَرُوَاءً ، وَكَأَكْمَامِ[1] الْوَرْدِ نَضَارَةً وَطِيبًا .

وَمَا إِنِ انْتَهَىٰ مِنْ طَوَافِهِ حَتَّىٰ مَالَ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْ خَاصَّتِهِ وَقَالَ :

أَيْنَ صَاحِبُكُمْ ؟ .

فَقَالَ : إِنَّهُ هُنَاكَ قَائِمٌ يُصَلِّي ...

وَأَشَارَ إِلَىٰ النَّاحِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ .

فَاتَّجَهَ الْخَلِيفَةُ وَمِنْ وَرَائِهِ وَلَدَاهُ إِلَىٰ حَيْثُ أُشِيرَ إِلَيْهِ ...

وَهَمَّ رِجَالُ الْحَاشِيَةِ[2] بِأَنْ يَتْبَعُوا الْخَلِيفَةَ لِيَفْسَحُوا لَهُ الطَّرِيقَ ، وَيَدْفَعُوا عَنْهُ أَذَىٰ الزِّحَامِ ؛ فَثَنَاهُمْ[3] عَنْ ذَٰلِكَ وَقَالَ :

هَٰذَا مَقَامٌ يَسْتَوِي فِيهِ الْمُلُوكُ وَالسُّوقَةُ ...

وَلَا يَفْضُلُ فِيهِ أَحَدٌ أَحَدًا إِلَّا بِالْقَبُولِ وَالتَّقْوَىٰ ...

وَرُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ[4] قَدِمَ عَلَىٰ اللَّهِ ؛ فَتَقَبَّلَهُ بِمَا لَمْ يَتَقَبَّلْ بِهِ الْمُلُوكَ .

ثُمَّ مَضَىٰ نَحْوَ الرَّجُلِ ؛ فَوَجَدَهُ مَا يَزَالُ دَاخِلًا فِي صَلَاتِهِ ، غَارِقًا فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ .

وَالنَّاسُ جُلُوسٌ وَرَاءَهُ ، وَعَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ ...

فَجَلَسَ حَيْثُ انْتَهَىٰ بِهِ الْمَجْلِسُ ...

وَأَجْلَسَ مَعَهُ وَلَدَيْهِ ...

---

(١) أكمام الورد : ما يغلّف الوَرْدَ من أوراق خضر أوّلَ تفتحه .

(٢) حاشية الخليفة : خاصّته ومعاونوه .

(٣) ثناهم عن ذلك : ردهم عن ذلك .

(٤) الأشعث : المتلبّد الشَّعر ، والأغبر : الَّذي تكاثر عليه الغبار .

وَطَفِقَ الْفَتَيَانِ «الْقُرَشِيَّانِ» يَتَأَمَّلَانِ ذَلِكَ الرَّجُلَ الَّذِي قَصَدَهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، وَجَلَسَ مَعَ عَامَّةِ النَّاسِ يَنْتَظِرُ فَرَاغَهُ مِنْ صَلَاتِهِ.

فَإِذَا هُوَ شَيْخٌ «حَبَشِيٌّ»، أَسْوَدُ الْبَشَرَةِ، مُفَلْفَلُ[1] الشَّعْرِ، أَفْطَسُ[2] الْأَنْفِ، إِذَا جَلَسَ بَدَا كَالْغُرَابِ الْأَسْوَدِ.

* * *

وَلَمَّا انْتَهَى الرَّجُلُ مِنْ صَلَاتِهِ؛ مَالَ بِشِقِّهِ[3] عَلَى الْجِهَةِ الَّتِي فِيهَا الْخَلِيفَةُ فَحَيَّاهُ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ فَرَدَّ التَّحِيَّةَ بِمِثْلِهَا.

وَهُنَا أَقْبَلَ عَلَيْهِ الْخَلِيفَةُ، وَجَعَلَ يَسْأَلُهُ عَنْ مَنَاسِكِ[4] الْحَجِّ مَنْسَكًا مَنْسَكًا وَهُوَ يَفِيضُ بِالْإِجَابَةِ عَنْ كُلِّ مَسْأَلَةٍ...

وَيُفَصِّلُ الْقَوْلَ فِيهَا تَفْصِيلًا لَا يَدَعُ سَبِيلًا لِمُسْتَزِيدٍ...

وَيُسْنِدُ كُلَّ قَوْلٍ يَقُولُهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

وَلَمَّا انْتَهَى الْخَلِيفَةُ مِنْ مُسَاءَلَتِهِ جَزَّاهُ[5] خَيْرًا، وَقَالَ لِوَلَدَيْهِ:

قُومَا، فَقَامَا... وَمَضَى الثَّلَاثَةُ نَحْوَ الْمَسْعَى.

وَفِيمَا هُمْ فِي طَرِيقِهِمْ إِلَى السَّعْيِ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ؛ سَمِعَ الْفَتَيَانِ الْمُنَادِينَ يُنَادُونَ: يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ...

لَا يُفْتِي النَّاسَ فِي هَذَا الْمَقَامِ إِلَّا عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ...

فَإِنْ لَمْ يُوجَدْ فَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي نَجِيحٍ.

فَالْتَفَتَ أَحَدُ الْغُلَامَيْنِ إِلَى أَبِيهِ وَقَالَ:

---

(١) مفلفل الشعر: شديد تجعيد الشعر.
(٢) أفطس الأنف: شديد انخفاض قصبة الأنف.
(٣) مال بشقه: مال بطرفه.
(٤) مناسك الحج: عبادات الحج.
(٥) جزّاه خيرًا: قال له: جزاك الله خيرًا.

كَيْفَ يَأْمُرُ عامِلُ[1] أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ النَّاسَ بِأَلَّا يَسْتَفْتُوا أَحَدًا غَيْرَ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ وَصَاحِبِهِ...

ثُمَّ جِئْنَا نَحْنُ نَسْتَفْتِي هَٰذَا الرَّجُلَ الَّذِي لَمْ يَأْبَهْ[2] لِلْخَلِيفَةِ، وَلَمْ يُوفِّهِ حَقَّهُ مِنَ التَّعْظِيمِ!!.

فَقَالَ سُلَيْمَانُ لِوَلَدِهِ:

هَٰذَا الَّذِي رَأَيْتَهُ - يَا بُنَيَّ - وَرَأَيْتَ ذُلَّنَا بَيْنَ يَدَيْهِ هُوَ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ صَاحِبُ الْفُتْيَا فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ...

وَوَارِثُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ فِي هَٰذَا الْمَنْصِبِ الْكَبِيرِ.

ثُمَّ أَرْدَفَ يَقُولُ: يَا بُنَيَّ... تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ...

فَبِالْعِلْمِ يَشْرُفُ الْوَضِيعُ...

وَيَنْبَهُ الْخَامِلُ...

وَيَعْلُو الْأَرِقَّاءُ عَلَىٰ مَرَاتِبِ الْمُلُوكِ...

* * *

لَمْ يَكُنْ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ مُبَالِغًا فِيمَا قَالَهُ لِابْنِهِ فِي شَأْنِ الْعِلْمِ.

فَقَدْ كَانَ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ فِي صِغَرِهِ عَبْدًا مَمْلُوكًا لِامْرَأَةٍ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ.

غَيْرَ أَنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَزَّ أَكْرَمَ الْغُلَامَ الْحَبَشِيَّ بِأَنْ وَضَعَ قَدَمَيْهِ مُنْذُ نُعُومَةِ أَظْفَارِهِ[3] فِي طَرِيقِ الْعِلْمِ، فَقَسَّمَ وَقْتَهُ أَقْسَامًا ثَلَاثَةً:

---

(١) عامل الخليفة: من يلي له عملاً كالوالي ونحوه.
(٢) لم يأبه للخليفة: لم يهتمّ به.
(٣) نعومة أظفاره: أي منذ طفولته.

قِسْمٌ جَعَلَهُ لِسَيِّدَتِهِ ؛ يَخْدِمُهَا فِيهِ أَحْسَنَ مَا تَكُونُ الْخِدْمَةُ ، وَيُؤَدِّي لَهَا حُقُوقَهَا عَلَيْهِ أَكْمَلَ مَا تُؤَدَّىٰ الْحُقُوقُ .

وَقِسْمٌ جَعَلَهُ لِرَبِّهِ ؛ يَفْرُغُ فِيهِ لِعِبَادَتِهِ أَصْفَىٰ مَا تَكُونُ الْعِبَادَةُ وَأَخْلَصَهَا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .

وَقِسْمٌ جَعَلَهُ لِطَلَبِ الْعِلْمِ ؛ حَيْثُ أَقْبَلَ عَلَىٰ مَنْ بَقِيَ حَيًّا مِنْ صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَطَفِقَ يَنْهَلُ مِنْ مَنَاهِلِهِمُ الثَّرَّةِ[1] الصَّافِيَةِ .

فَأَخَذَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ ، وَعَبْدِ اللَّهِ ابْنِ الزُّبَيْرِ[2]، وَغَيْرِهِمْ مِنَ الصَّحَابَةِ الْكِرَامِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ، حَتَّىٰ امْتَلَأَ صَدْرُهُ عِلْمًا وَفِقْهًا وَرِوَايَةً عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

* * *

وَلَمَّا رَأَتِ السَّيِّدَةُ الْمَكِّيَّةُ أَنَّ غُلَامَهَا قَدْ بَاعَ نَفْسَهُ لِلَّهِ ... وَوَقَفَ حَيَاتَهُ عَلَىٰ طَلَبِ الْعِلْمِ ...

تَخَلَّتْ عَنْ حَقِّهَا فِيهِ ، وَأَعْتَقَتْ رَقَبَتَهُ تَقَرُّبًا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ؛ لَعَلَّ اللَّهَ يَنْفَعُ بِهِ الْإِسْلَامَ وَالْمُسْلِمِينَ ...

وَمُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ اتَّخَذَ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ الْبَيْتَ الْحَرَامَ مَقَامًا لَهُ ...

فَجَعَلَهُ دَارَهُ الَّتِي يَأْوِي إِلَيْهَا ...

وَمَدْرَسَتَهُ الَّتِي يَتَعَلَّمُ فِيهَا ...

وَمُصَلَّاهُ الَّذِي يَتَقَرَّبُ فِيهِ إِلَىٰ اللَّهِ بِالتَّقْوَىٰ وَالطَّاعَةِ .

---

(١) الثَّرَّة : الْغزيرة .

(٢) انظرهم في كتاب «صور من حياة الصّحابة» للمؤلف ، النّاشر دار الْأدب الْإسلامي ، الطّبعة الشرعية .

حَتَّىٰ قَالَ الْمُؤَرِّخُونَ : كَانَ الْمَسْجِدُ فِرَاشَ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ نَحْوًا مِنْ عِشْرِينَ عَامًا ...

* * *

وَقَدْ بَلَغَ التَّابِعِيُّ الْجَلِيلُ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ مَنْزِلَةً فِي الْعِلْمِ ؛ فَاقَتْ كُلَّ تَقْدِيرٍ ...

وَسَمَا إِلَىٰ مَرْتَبَةٍ لَمْ يَنَلْهَا إِلَّا نَفَرٌ قَلِيلٌ مِنْ مُعَاصِرِيهِ ...

فَقَدْ رُوِيَ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَعَنْ أَبِيهِ ، أَمَّ « مَكَّةَ » مُعْتَمِرًا[1] ...

فَأَقْبَلَ النَّاسُ عَلَيْهِ يَسْأَلُونَهُ وَيَسْتَفْتُونَهُ ، فَقَالَ :

إِنِّي لَأَعْجَبُ لَكُمْ يَا أَهْلَ « مَكَّةَ » ...

أَتَجْمَعُونَ لِيَ الْمَسَائِلَ لِتَسْأَلُونِي عَنْهَا وَفِيكُمْ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ ؟! .

* * *

وَقَدْ وَصَلَ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ إِلَىٰ مَا وَصَلَ إِلَيْهِ مِنْ دَرَجَةٍ فِي الدِّينِ وَالْعِلْمِ بِخَصْلَتَيْنِ اثْنَتَيْنِ :

أُولَاهُمَا : أَنَّهُ أَحْكَمَ سُلْطَانَهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ؛ فَلَمْ يَدَعْ لَهَا سَبِيلًا لِتَرْتَعَ[2] فِيمَا لَا يَنْفَعُ ...

وَثَانِيَتُهُمَا : أَنَّهُ أَحْكَمَ سُلْطَانَهُ عَلَىٰ وَقْتِهِ ؛ فَلَمْ يَهْدِرْهُ فِي فُضُولِ[3] الْكَلَامِ وَالْعَمَلِ ...

حَدَّثَ مُحَمَّدُ بْنُ سُوقَةَ[4] جَمَاعَةً مِنْ زُوَّارِهِ قَالَ :

---

(١) أمَّ مكَّة مُعْتَمِرًا : جاء مَكَّة لأداء العمرة.
(٢) لترتع : لتتلذذ وتتنعَّم.
(٣) فضول الكلام : الزائد عن الحاجة من الكلام.
(٤) مُحَمَّد بْنُ سُوقَةَ : أحد علماء الكوفة وعُبَّادِهَا.

أَلَا أُسْمِعُكُمْ حَدِيثًا لَعَلَّهُ يَنْفَعُكُمْ كَمَا نَفَعَنِي ؟ .

قَالُوا : بَلَىٰ .

قَالَ : نَصَحَنِي عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ ذَاتَ يَوْمٍ ، فَقَالَ : يَا بْنَ أَخِي ...

إِنَّ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا كَانُوا يَكْرَهُونَ فُضُولَ الْكَلَامِ .

فَقُلْتُ : وَمَا فُضُولُ الْكَلَامِ عِنْدَهُمْ ؟ .

فَقَالَ : كَانُوا يَعُدُّونَ كُلَّ كَلَامٍ فُضُولًا مَا عَدَا كِتَابَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُقْرَأَ وَيُفْهَمَ ...

وَحَدِيثَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُرْوَىٰ وَيُدْرَىٰ[1] ...

أَوْ أَمْرًا بِمَعْرُوفٍ وَنَهْيًا عَنْ مُنْكَرٍ ...

أَوْ عِلْمًا يُتَقَرَّبُ بِهِ إِلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ ...

أَوْ أَنْ تَتَكَلَّمَ بِحَاجَتِكَ وَمَعِيشَتِكَ الَّتِي لَا بُدَّ لَكَ مِنْهَا .

ثُمَّ حَدَّقَ[2] إِلَىٰ وَجْهِي وَقَالَ :

أَتُنْكِرُونَ ﴿ **إِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ[3]** ﴾[4] ...

وَأَنَّ مَعَ كُلٍّ مِنْكُمْ مَلَكَيْنِ ﴿ **عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ[5] * مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ[6]** ﴾[7] .

---

(١) يُدْرَىٰ : يفهم .
(٢) حدّق إلىٰ وجهي : حدّد النظر إلىٰ وجهي .
(٣) الحافظون الكاتبون : الرقباء من الملائكة الذين يحفظون أعمالنا ويكتبون أقوالنا .
(٤) سورة الانفطار : من الآية ١٠ ـ ١١ .
(٥) قعيد : قاعدان .
(٦) رقيب عتيد : رقيب حاضر .
(٧) سورة ق : من الآية ١٧ ـ ١٨ .

ثُمَّ قَالَ : أَمَا يَسْتَحِي أَحَدُنَا لَوْ نُشِرَتْ عَلَيْهِ صَحِيفَتُهُ الَّتِي أَمْلَاهَا صَدْرَ[١] نَهَارِهِ ؛ فَوَجَدَ أَكْثَرَ مَا فِيهَا لَيْسَ مِنْ أَمْرِ دِينِهِ ، وَلَا أَمْرِ دُنْيَاهُ ...

* * *

وَلَقَدْ نَفَعَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِعِلْمِ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ طَوَائِفَ كَثِيرَةً مِنَ النَّاسِ :

مِنْهُمْ أَهْلُ الْعِلْمِ الْمُتَخَصِّصُونَ .

وَمِنْهُمْ أَرْبَابُ الصِّنَاعَاتِ الْمُحْتَرِفُونَ .

وَمِنْهُمْ غَيْرُ ذَلِكَ ...

حَدَّثَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ النُّعْمَانُ[٢] عَنْ نَفْسِهِ قَالَ :

أَخْطَأْتُ فِي خَمْسَةِ أَبْوَابٍ مِنَ الْمَنَاسِكِ بِمَكَّةَ فَعَلَّمَنِيهَا حَجَّامٌ[٣]... وَذَلِكَ أَنِّي أَرَدْتُ أَنْ أَحْلِقَ لِأَخْرُجَ مِنَ الْإِحْرَامِ ، فَأَتَيْتُ حَلَّاقًا ، وَقُلْتُ :

بِكَمْ تَحْلِقُ لِي رَأْسِي ؟ .

فَقَالَ : هَدَاكَ اللَّهُ ...

النُّسُكُ[٤] لَا يُشَارَطُ فِيهِ ، اِجْلِسْ وَأَعْطِ مَا يَتَيَسَّرُ لَكَ .

فَخَجِلْتُ وَجَلَسْتُ .

غَيْرَ أَنِّي جَلَسْتُ مُنْحَرِفًا عَنِ الْقِبْلَةِ .

فَأَوْمَأَ إِلَيَّ بِأَنْ أَسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةَ ؛ فَفَعَلْتُ ، وَازْدَدْتُ خَجَلًا عَلَى خَجَلِي .

ثُمَّ أَعْطَيْتُهُ رَأْسِي مِنَ الْجَانِبِ الْأَيْسَرِ لِيَحْلِقَهُ ، فَقَالَ :

أَدِرْ شِقَّكَ الْأَيْمَنَ ؛ فَأَدَرْتُهُ .

---

(١) صدر نهاره : أول نهاره .

(٢) أبو حنيفة النعمان : انظره ص ٤٨٣ ، ٤٩٣ .

(٣) المراد بالحجام هنا الحلاق .

(٤) النُّسُك : العبادة .

وَجَعَلَ يَحْلِقُ رَأْسِي وَأَنَا سَاكِتٌ أَنْظُرُ إِلَيْهِ وَأُعْجَبُ مِنْهُ ، فَقَالَ لِي :

مَا لِي أَرَاكَ سَاكِتًا ؟ ...

كَبِّرْ ...

فَجَعَلْتُ أُكَبِّرُ حَتَّىٰ قُمْتُ لِأَذْهَبَ .

فَقَالَ : أَيْنَ تُرِيدُ ؟ .

فَقُلْتُ : أُرِيدُ أَنْ أَمْضِيَ إِلَىٰ رَحْلِي .

فَقَالَ : صَلِّ رَكْعَتَيْنِ ، ثُمَّ امْضِ إِلَىٰ حَيْثُ تَشَاءُ .

فَصَلَّيْتُ رَكْعَتَيْنِ ، وَقُلْتُ فِي نَفْسِي :

مَا يَنْبَغِي أَنْ يَقَعَ مِثْلُ هَٰذَا مِنْ حَجَّامٍ إِلَّا إِذَا كَانَ ذَا عِلْمٍ .

فَقُلْتُ لَهُ :

مِنْ أَيْنَ لَكَ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ مِنَ الْمَنَاسِكِ ؟ .

فَقَالَ : لِلَّهِ أَنْتَ ...

لَقَدْ رَأَيْتُ عَطَاءَ بْنَ أَبِي رَبَاحٍ يَفْعَلُهُ ، فَأَخَذْتُهُ عَنْهُ ، وَوَجَّهْتُ إِلَيْهِ النَّاسَ .

* * *

وَلَقَدْ أَقْبَلَتِ الدُّنْيَا عَلَىٰ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ فَأَعْرَضَ[1] عَنْهَا أَشَدَّ الْإِعْرَاضِ ، وَأَبَاهَا أَعْظَمَ الْإِبَاءِ ... وَعَاشَ عُمُرَهُ كُلَّهُ يَلْبَسُ قَمِيصًا لَا يَزِيدُ ثَمَنُهُ عَلَىٰ خَمْسَةِ دَرَاهِمَ .

وَلَقَدْ دَعَاهُ الْخُلَفَاءُ إِلَىٰ مُصَاحَبَتِهِمْ ... فَلَمْ يُجِبْ دَعْوَتَهُمْ ؛ لِخَشْيَتِهِ

(١) أعرض عنها : صدَّ عنها ، ولم يعبأ بها .

عَلَىٰ دِينِهِ مِنْ دُنْيَاهُمْ ، لَكِنَّهُ ـ مَعَ ذَلِكَ ـ كَانَ يَفِدُ عَلَيْهِمْ ؛ إِذَا وَجَدَ فِي ذَلِكَ فَائِدَةً لِلْمُسْلِمِينَ ، أَوْ خَيْرًا لِلْإِسْلَامِ .

مِنْ ذَلِكَ مَا حَدَّثَ بِهِ عُثْمَانُ بْنُ عَطَاءٍ الْخُرَاسَانِيُّ قَالَ :

انْطَلَقْتُ مع أَبِي نُرِيدُ هِشَامَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ ، فَلَمَّا غَدَوْنَا قَرِيبًا مِنْ « دِمَشْقَ » ؛ إِذَا نَحْنُ بِشَيْخٍ عَلَىٰ حِمَارٍ أَسْوَدَ عَلَيْهِ قَمِيصٌ صَفِيقٌ[1] وَجُبَّةٌ بَالِيَةٌ ، وَقَلَنْسُوَةٌ[2] لَازِقَةٌ بِرَأْسِهِ ، وَرِكَابَاهُ مِنْ خَشَبٍ .

فَضَحِكْتُ مِنْهُ ، وَقُلْتُ لِأَبِي :

مَنْ هَٰذَا ؟ .

فَقَالَ : اسْكُتْ ، هَٰذَا سَيِّدُ فُقَهَاءِ الْحِجَازِ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ ...

فَلَمَّا قَرُبَ مِنَّا نَزَلَ أَبِي عَنْ بَغْلَتِهِ ، وَنَزَلَ هُوَ عَنْ حِمَارِهِ ، فَاعْتَنَقَا وَتَسَاءَلَا[3]، ثُمَّ عَادَا فَرَكِبَا ، وَانْطَلَقَا حَتَّىٰ وَقَفَا عَلَىٰ بَابِ قَصْرِ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ .

فَمَا إِنِ اسْتَقَرَّ بِهِمَا الْجُلُوسُ حَتَّىٰ أُذِنَ لَهُمَا ، فَلَمَّا خَرَجَ أَبِي قُلْتُ لَهُ :

حَدِّثْنِي بِمَا كَانَ مِنْكُمَا ، فَقَالَ :

لَمَّا عَلِمَ هِشَامٌ أَنَّ عَطَاءَ بْنَ أَبِي رَبَاحٍ بِالْبَابِ ؛ بَادَرَ[4] فَأَذِنَ لَهُ ـ وَوَاللَّهِ مَا دَخَلْتُ إِلَّا بِسَبَبِهِ ـ فَلَمَّا رَآهُ هِشَامٌ قَالَ :

مَرْحَبًا مَرْحَبًا ...

هَهُنَا هَهُنَا ... وَلَا زَالَ يَقُولُ لَهُ :

---

(١) قميص صفيق : قميصٌ خشِنٌ كثيف النسج.
(٢) القلنسوة : غطاء الرأس.
(٣) تساءلا : جعل كلٌّ منهما يسأل صاحبه.
(٤) بادر : سارع.

هَهُنَا هَهُنَا ...

حَتَّىٰ أَجْلَسَهُ مَعَهُ عَلَىٰ سَرِيرِهِ ، وَمَسَّ بِرُكْبَتِهِ رُكْبَتَهُ ...

وَكَانَ فِي الْمَجْلِسِ أَشْرَافُ النَّاسِ ، وَكَانُوا يَتَحَدَّثُونَ فَسَكَتُوا .

ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِ هِشَامٌ وَقَالَ :

مَا حَاجَتُكَ يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ؟ .

قَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَهْلُ الْحَرَمَيْنِ ... أَهْلُ اللَّهِ وَجِيرَانُ رَسُولِهِ ﷺ ؛ تُقَسِّمُ عَلَيْهِمْ أَرْزَاقَهُمْ وَأُعْطِيَاتِهِمْ ...

فَقَالَ : نَعَمْ ...

يَا غُلَامُ اكْتُبْ لِأَهْلِ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ بِعَطَايَاهُمْ وَأَرْزَاقِهِمْ لِسَنَةٍ .

ثُمَّ قَالَ : هَلْ مِنْ حَاجَةٍ غَيْرِهَا يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ؟ .

فَقَالَ : نَعَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَهْلُ الْحِجَازِ وَأَهْلُ « نَجْدٍ » أَصْلُ الْعَرَبِ ، وَقَادَةُ الْإِسْلَامِ ؛ تَرُدُّ فِيهِمْ فُضُولَ صَدَقَاتِهِمْ ...

فَقَالَ : نَعَمْ ... يَا غُلَامُ اكْتُبْ بِأَنْ تُرَدَّ فِيهِمْ فُضُولُ صَدَقَاتِهِمْ .

هَلْ مِنْ حَاجَةٍ غَيْرِ ذَلِكَ يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ؟ .

قَالَ : نَعَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .

أَهْلُ الثُّغُورِ(١) يَقِفُونَ فِي وُجُوهِ عَدُوِّكُمْ ، وَيَقْتُلُونَ مَنْ رَامَ(٢) الْمُسْلِمِينَ بِشَرٍّ ؛ تُجْرِي عَلَيْهِمْ أَرْزَاقًا تُدِرُّهَا عَلَيْهِمْ ...

فَإِنَّهُمْ إِنْ هَلَكُوا ضَاعَتِ الثُّغُورُ ...

---

(١) أهل الثُّغور : المرابطون عَلَىٰ تخوم البلاد في مواجهة العدو.

(٢) رام المسلمين بشر : قصدهم بشر.

فَقَالَ : نَعَمْ ... يَا غُلَامُ اكْتُبْ بِحَمْلِ أَرْزَاقِهِمْ إِلَيْهِمْ ...

هَلْ مِنْ حَاجَةٍ غَيْرِهَا يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ؟.

قَالَ : نَعَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَهْلُ ذِمَّتِكُمْ[1] لَا يُكَلَّفُونَ مَا لَا يُطِيقُونَ ، فَإِنَّ مَا تَجْبُونَهُ مِنْهُمْ مَعُونَةٌ لَكُمْ عَلَىٰ عَدُوِّكُمْ .

فَقَالَ : يَا غُلَامُ اكْتُبْ لِأَهْلِ الذِّمَّةِ بِأَلَّا يُكَلَّفُوا مَا لَا يُطِيقُونَ .

هَلْ مِنْ حَاجَةٍ غَيْرِهَا يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ؟.

قَالَ :

نَعَمْ ... اتَّقِ اللَّهَ فِي نَفْسِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ...

وَاعْلَمْ أَنَّكَ خُلِقْتَ وَحْدَكَ ...

وَتَمُوتُ وَحْدَكَ ...

وَتُحْشَرُ وَحْدَكَ ...

وَتُحَاسَبُ وَحْدَكَ ... وَلَا وَاللَّهِ مَا مَعَكَ مِمَّنْ تَرَىٰ أَحَدٌ .

فَأَكَبَّ هِشَامٌ يَنْكُتُ فِي الْأَرْضِ وَهُوَ يَبْكِي ...

فَقَامَ عَطَاءٌ ، فَقُمْتُ مَعَهُ .

فَلَمَّا صِرْنَا عِنْدَ الْبَابِ ، إِذَا رَجُلٌ قَدْ تَبِعَهُ بِكِيسٍ لَا أَدْرِي مَا فِيهِ وَقَالَ لَهُ :

إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بَعَثَ لَكَ بِهَٰذَا ...

فَقَالَ : هَيْهَاتَ[2]...

---

(١) أهل الذِّمَّة : من عاهدهم المسلمون من اليهود والنصارىٰ ونحوهم علىٰ حمايتهم.

(٢) هيهات : اسم فعل يعني بَعُدَ [أي إن قبول ذلك بعيدٌ].

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1].

فَوَاللَّهِ إِنَّهُ دَخَلَ عَلَى الْخَلِيفَةِ ... وَخَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ ... وَلَمْ يَشْرَبْ قَطْرَةَ مَاءٍ ...

* * *

وَبَعْدُ، فَقَدْ عُمِّرَ[2] عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ حَتَّىٰ بَلَغَ مِائَةَ عَامٍ ...

مَلَأَهَا بِالْعِلْمِ وَالْعَمَلِ ...

وَأَتْرَعَهَا[3] بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ...

وَزَكَّاهَا بِالزَّهَادَةِ بِمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ، وَالرَّغْبَةِ بِمَا عِنْدَ اللَّهِ ...

فَلَمَّا أَتَاهُ الْيَقِينُ[4] وَجَدَهُ خَفِيفَ الْحِمْلِ مِنْ أَثْقَالِ الدُّنْيَا ...

كَثِيرَ الزَّادِ مِنْ عَمَلِ الْآخِرَةِ ...

وَمَعَهُ فَوْقَ ذَٰلِكَ ...

سَبْعُونَ حَجَّةً ...

وَقَفَ خِلَالَهَا سَبْعِينَ مَرَّةً عَلَىٰ «عَرَفَاتٍ» ...

وَهُوَ يَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَىٰ رِضَاهُ وَالْجَنَّةَ ...

وَيَسْتَعِيذُ بِهِ مِنْ سَخَطِهِ وَالنَّارِ (*) ...

---

(١) سورة الشعراء: ١٠٩.

(٢) عُمِّر: طال عمره.

(٣) أترعها: ملأها.

(٤) اليقين: الموت.

(*) للاستزادة من أخبار عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ انظر:

١ - الطبقات الكبرىٰ لابن سعد: ٢/٣٨٦.
٢ - حلية الأولياء لأبي نعيم: ٣/٣١٠.
٣ - صفة الصفوة لابن الجوزي: ٢/٢١١.
٤ - وفيات الأعيان لابن خلكان: ٣/٢٦١.
٥ - غرر الخصائص: ١١٧.
٦ - طبقات الشيرازي: الورقة ١٧.
٧ - نكت الهميان: ١٩٩.
٨ - ميزان الاعتدال: ٢/١٩٧.
٩ - تذكرة الحفاظ: ١/٩٢.
١٠- تهذيب التهذيب: ٧/١٩٩.
١١- نزهة الخاطر: ١/٨٥.

عَامِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ التَّمِيمِيُّ

« انْتَهَىٰ الزُّهْدُ إِلَىٰ ثَمَانِيَةٍ فِي مُقَدِّمَتِهِمْ عَامِرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ التَّمِيمِيُّ »
[عَلْقَمَةُ بْنُ مَرْثَدٍ]

نَحْنُ الْآنَ فِي السَّنَةِ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ لِلْهِجْرَةِ .

وَهَا هُمْ أُولَاءِ الْهُدَاةُ الْبُنَاةُ مِنْ كِرَامِ الصَّحَابَةِ وَكِبَارِ التَّابِعِينَ ؛ يَخْتَطُّونَ(١) مَدِينَةَ « الْبَصْرَةِ » بِأَمْرٍ مِنْ خَلِيفَةِ الْمُسْلِمِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ .

فَلَقَدْ عَزَمُوا عَلَىٰ أَنْ يَجْعَلُوا مِنَ الْمَدِينَةِ الْجَدِيدَةِ مُعَسْكَرًا لِجُيُوشِ الْمُسْلِمِينَ الْغَازِيَةِ فِي بِلَادِ « فَارِسَ » ...

وَقَاعِدَةً(٢) لِلدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ...

وَمَنَارَةً لِإِعْلَاءِ كَلِمَتِهِ فِي الْأَرْضِ ...

وَهَا هِيَ ذِي جُمُوعُ الْمُسْلِمِينَ ؛ تَرْحَلُ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ الْفَتِيَّةِ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ :

مِنْ نَجْدٍ ... مِنَ الْحِجَازِ ... مِنَ الْيَمَنِ ...

لِيَكُونُوا عَلَىٰ ثَغْرٍ(٣) مِنْ ثُغُورِ الْمُسْلِمِينَ .

وَكَانَ فِي جُمْلَةِ الْمُهَاجِرِينَ إِلَيْهَا مِنْ « نَجْدٍ » فَتًى مِنْ بَنِي « تَمِيمٍ » يُدْعَىٰ عَامِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ التَّمِيمِيَّ الْعَنْبَرِيَّ .

* * *

(١) يختطون مدينة البصرة : يرسمون حدودها .
(٢) قاعدة للدعوة : منطلقًا للدعوة .
(٣) الثغر : المكان الذي يخاف أن يهجم منه العدو .

كَانَ عَامِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ فَتًى فِي بَوَاكِيرِ[1] الصِّبَا ، غَضَّ الْإِهَابِ[2] رَيَّانَ الشَّبَابِ ، وَضِيءَ الْوَجْهِ ، زَكِيَّ النَّفْسِ ، تَقِيَّ الْقَلْبِ ...

وَكَانَتِ « الْبَصْرَةُ » عَلَىٰ حَدَاثَتِهَا مِنْ أَغْنَىٰ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ غِنًى ، وَأَوْفَرِهَا ثَرْوَةً ؛ لِمَا كَانَ يَتَدَفَّقُ عَلَيْهَا مِنْ غَنَائِمِ الْحَرْبِ ، وَيَنْصَبُّ فِيهَا مِنَ الذَّهَبِ النُّضَارِ[3] ...

لَكِنَّ الْفَتَىٰ التَّمِيمِيَّ عَامِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَرَبٌ[4] فِي ذَٰلِكَ كُلِّهِ ...

فَلَقَدْ كَانَ زَهَّادًا بِمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ ، رَغَّابًا بِمَا عِنْدَ اللَّهِ ...

مُعْرِضًا عَنِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا ، مُقْبِلًا عَلَىٰ اللَّهِ وَمَرْضَاتِهِ ...

* * *

وَكَانَ رَجُلَ « الْبَصْرَةِ » وَمُقَدَّمَهَا يَوْمَئِذٍ الصَّحَابِيُّ الْجَلِيلُ أَبُو مُوسَىٰ الْأَشْعَرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَنَضَّرَ فِي الْجَنَّةِ وَجْهَهُ .

فَهُوَ وَالِي الْمَدِينَةِ الزَّاهِرَةِ ...

وَهُوَ قَائِدُ جُيُوشِ الْمُسْلِمِينَ الْمُنْطَلِقَةِ مِنْهَا فِي كُلِّ اتِّجَاهٍ ...

وَهُوَ إِمَامُ أَهْلِهَا ، وَمُعَلِّمُهُمْ ، وَمُرْشِدُهُمْ إِلَىٰ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ...

* * *

لَزِمَ عَامِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ أَبَا مُوسَىٰ الْأَشْعَرِيَّ فِي سِلْمِهِ وَحَرْبِهِ ...

وَصَحِبَهُ فِي حِلِّهِ وَتَرْحَالِهِ ...

فَأَخَذَ عَنْهُ كِتَابَ اللَّهِ رَطْبًا طَرِيًّا كَمَا نَزَلَ عَلَىٰ فُؤَادِ مُحَمَّدٍ ﷺ ...

وَرَوَىٰ عَنْهُ حَدِيثَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ صَحِيحًا مَوْصُولًا بِالنَّبِيِّ الْكَرِيمِ ...

---

(١) بواكير الصِّبا : أوائل الصِّبا .
(٢) غضُّ الإهاب : طري الجلد [كناية عن صباه] .
(٣) الذهب النُّضار : الذهب الخالص .
(٤) الأرب : الغاية والحاجة .

وَتَفَقَّهَ عَلَىٰ يَدَيْهِ فِي دِينِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ...

فَلَمَّا اكْتَمَلَ لَهُ مَا أَرَادَ مِنَ الْعِلْمِ ؛ جَعَلَ حَيَاتَهُ أَقْسَامًا ثَلَاثَةً :

فَشَطْرٌ[1] فِي حَلَقَاتِ الذِّكْرِ ؛ يُقْرِئُ فِيهِ النَّاسَ الْقُرْآنَ فِي مَسْجِدِ « الْبَصْرَةِ »...

وَشَطْرٌ فِي خَلَوَاتِ الْعِبَادَةِ ؛ يَنْتَصِبُ فِيهِ قَائِمًا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ حَتَّىٰ تَكِلَّ قَدَمَاهُ...

وَشَطْرٌ فِي سَاحَاتِ الْجِهَادِ ؛ يَسُلُّ فِيهِ سَيْفَهُ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ...

وَلَمْ يَتْرُكْ فِي حَيَاتِهِ مَوْضِعًا لِشَيْءٍ غَيْرِ ذَٰلِكَ أَبَدًا... حَتَّىٰ دُعِيَ بِعَابِدِ « الْبَصْرَةِ » وَزَاهِدِهَا...

* * *

وَكَانَ مِنْ أَخْبَارِ عَامِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ مَا حَدَّثَ بِهِ أَحَدُ أَبْنَاءِ « الْبَصْرَةِ » قَالَ :

سَافَرْتُ فِي قَافِلَةٍ فِيهَا عَامِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ، فَلَمَّا أَقْبَلَ عَلَيْنَا اللَّيْلُ ؛ نَزَلْنَا بِغَيْضَةٍ[2]...

فَجَمَعَ عَامِرٌ مَتَاعَهُ ، وَرَبَطَ فَرَسَهُ بِشَجَرَةٍ ، وَطَوَّلَ لَهُ زِمَامَهُ[3]، وَجَمَعَ لَهُ مِنْ حَشَائِشِ الْأَرْضِ مَا يُشْبِعُهُ وَطَرَحَهُ أَمَامَهُ... ثُمَّ دَخَلَ الْغَيْضَةَ وَأَوْغَلَ[4] فِيهَا فَقُلْتُ فِي نَفْسِي :

وَاللَّهِ لَأَتْبَعَنَّهُ ، وَلَأَنْظُرَنَّ مَا يَصْنَعُ فِي أَعْمَاقِ الْغَيْضَةِ فِي هَٰذِهِ اللَّيْلَةِ .

فَمَضَىٰ حَتَّىٰ انْتَهَىٰ إِلَىٰ رَابِيَةٍ مُلْتَفَّةِ الشَّجَرِ ، مَسْتُورَةٍ عَنِ الْأَعْيُنِ...

---

(١) الشطر : القسم .
(٢) الغيضة : مجتمع الشجر في مغيض الماء .
(٣) الزمام : الرسن ، وهو الحبل الذي تقاد به الدابة .
(٤) أوغل فيها : أبعد وتوارى .

فَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ ، وَانْتَصَبَ قَائِمًا يُصَلِّي ...

فَمَا رَأَيْتُ أَحْسَنَ مِنْ صَلَاتِهِ وَلَا أَكْمَلَ وَلَا أَخْشَعَ .

فَلَمَّا صَلَّىٰ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يُصَلِّيَ ، طَفِقَ[1] يَدْعُو اللَّهَ وَيُنَاجِيهِ ، فَكَانَ مِمَّا قَالَهُ :

« إِلَٰهِي لَقَدْ خَلَقْتَنِي بِأَمْرِكَ ، وَأَقَمْتَنِي فِي بَلَايَا هَٰذِهِ الدُّنْيَا بِمَشِيئَتِكَ ، ثُمَّ قُلْتَ لِي : اسْتَمْسِكْ[2]...

فَكَيْفَ أَسْتَمْسِكُ إِنْ لَمْ تُمْسِكْنِي بِلُطْفِكَ يَا قَوِيُّ يَا مَتِينُ ؟ .

إِلَٰهِي إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَوْ كَانَتْ لِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا بِمَا فِيهَا ، ثُمَّ طُلِبَتْ مِنِّي مَرْضَاةً لَكَ ؛ لَوَهَبْتُهَا لِطَالِبِهَا ...

فَهَبْ لِي نَفْسِي يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ ...

إِلَٰهِي إِنِّي أَحْبَبْتُكَ حُبًّا سَهَّلَ عَلَيَّ كُلَّ مُصِيبَةٍ ، وَرَضَّانِي بِكُلِّ قَضَاءٍ ...

فَمَا أُبَالِي مَعَ حُبِّي لَكَ مَا أَصْبَحْتُ عَلَيْهِ ، وَمَا أَمْسَيْتُ فِيهِ ...

* * *

قَالَ الرَّجُلُ الْبَصْرِيُّ :

ثُمَّ إِنَّهُ غَلَبَنِي النُّعَاسُ ، فَأَسْلَمْتُ جَفْنَيَّ إِلَى الْكَرَىٰ[3]...

ثُمَّ مَا زِلْتُ أَنَامُ وَأَسْتَيْقِظُ ، وَعَامِرٌ مُنْتَصِبٌ فِي مَوْقِفِهِ ، مَاضٍ فِي صَلَاتِهِ وَمُنَاجَاتِهِ ، حَتَّىٰ تَنَفَّسَ[4] الصُّبْحُ .

فَلَمَّا بَدَا لَهُ الْفَجْرُ أَدَّى الْمَكْتُوبَةَ[5]، ثُمَّ أَقْبَلَ يَدْعُو فَقَالَ :

---

(١) طفق يدعو : أخذ يدعو .

(٢) استَمْسِكْ : اضبط نفسك .

(٣) الكَرَىٰ : النوم .

(٤) تنفس الصبح : تبلّج الصبح وظهر .

(٥) المكتوبة : الصلاة المفروضة .

اللَّهُمَّ هَا قَدْ أَصْبَحَ الصُّبْحُ ، وَطَفِقَ النَّاسُ يَغْدُونَ وَيَرُوحُونَ ؛ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِكَ ...

وَإِنَّ لِكُلٍّ مِنْهُمْ حَاجَةً ...

وَإِنَّ حَاجَةَ عَامِرٍ عِنْدَكَ أَنْ تَغْفِرَ لَهُ ...

اللَّهُمَّ فَاقْضِ حَاجَتِي وَحَاجَاتِهِمْ يَا أَكْرَمَ الأَكْرَمِينَ ...

اللَّهُمَّ إِنِّي سَأَلْتُكَ ثَلَاثًا ؛ فَأَعْطَيْتَنِي اثْنَتَيْنِ ، وَمَنَعْتَنِي وَاحِدَةً ...

اللَّهُمَّ فَأَعْطِنِيهَا حَتَّىٰ أَعْبُدَكَ كَمَا أُحِبُّ وَأُرِيدُ ...

ثُمَّ نَهَضَ مِنْ مَجْلِسِهِ ، فَوَقَعَ بَصَرُهُ عَلَيَّ ... فَعَلِمَ بِمَكَانِي مِنْهُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ ، فَجَزِعَ[1] لِذَلِكَ أَشَدَّ الْجَزَعِ ، وَقَالَ لِي فِي أَسًى[2]:

أَرَاكَ كُنْتَ تَرْقُبُنِي اللَّيْلَةَ يَا أَخَا « الْبَصْرَةِ » ؟! .

فَقُلْتُ : نَعَمْ .

فَقَالَ : اسْتُرْ مَا رَأَيْتَ مِنِّي سَتَرَ اللَّهُ عَلَيْكَ .

فَقُلْتُ : وَاللَّهِ لَتُحَدِّثَنِّي بِهَٰذِهِ الثَّلَاثِ الَّتِي سَأَلْتَهَا رَبَّكَ ، أَوْ لَأُخْبِرَنَّ النَّاسَ بِمَا رَأَيْتُهُ مِنْكَ .

فَقَالَ :

وَيْحَكَ[3] لَا تَفْعَلْ .

فَقُلْتُ : هُوَ مَا أَقُولُ لَكَ ...

فَلَمَّا رَأَىٰ إِصْرَارِي قَالَ :

---

(١) جزع : خاف واغتمّ.

(٢) في أسًى : في حزن.

(٣) ويح : كلمة ترحّم وتوجّع.

أُحَدِّثُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعْطِيَنِي عَهْدَ اللَّهِ وَمِيثَاقَهُ أَلَّا تُخْبِرَ بِذَلِكَ أَحَدًا .

فَقُلْتُ : لَكَ عَلَيَّ عَهْدُ اللَّهِ وَمِيثَاقُهُ أَلَّا أُفْشِيَ لَكَ سِرًّا مَا دُمْتَ حَيًّا .

فَقَالَ :

لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أَخْوَفُ عَلَيَّ فِي دِينِي مِنَ النِّسَاءِ ، فَسَأَلْتُ رَبِّي أَنْ يَنْزَعَ مِنْ قَلْبِي حُبَّهُنَّ ، فَاسْتَجَابَ لِي حَتَّىٰ صِرْتُ مَا أُبَالِي(١) امْرَأَةً رَأَيْتُ أَمْ جِدَارًا ...

فَقُلْتُ : هَٰذِهِ وَاحِدَةٌ ؛ فَمَا الثَّانِيَةُ ؟ .

فَقَالَ : الثَّانِيَةُ أَنِّي سَأَلْتُ رَبِّي أَلَّا أَخَافَ أَحَدًا غَيْرَهُ ، فَاسْتَجَابَ لِي حَتَّىٰ أَنِّي وَاللَّهِ مَا أَرْهَبُ شَيْئًا فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ سِوَاهُ .

قُلْتُ : فَمَا الثَّالِثَةُ ؟ .

فَقَالَ : سَأَلْتُ رَبِّي أَنْ يُذْهِبَ عَنِّي النَّوْمَ حَتَّىٰ أَعْبُدَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ كَمَا أُرِيدُ فَمَنَعَنِي هَٰذِهِ الثَّالِثَةَ ...

فَلَمَّا سَمِعْتُ مِنْهُ ذَلِكَ قُلْتُ لَهُ :

رِفْقًا بِنَفْسِكَ ، فَإِنَّكَ تَقْضِي لَيْلَكَ قَائِمًا ، وَتَقْطَعُ نَهَارَكَ صَائِمًا ...

وَإِنَّ الْجَنَّةَ تُدْرَكُ بِأَقَلَّ مِمَّا تَصْنَعُ ...

وَإِنَّ النَّارَ تُتَّقَىٰ بِأَقَلَّ مِمَّا تُعَانِي .

فَقَالَ :

إِنِّي لَأَخْشَىٰ أَنْ أَنْدَمَ حَيْثُ لَا يَنْفَعُ النَّدَمُ ...

وَاللَّهِ لَأَجْتَهِدَنَّ فِي الْعِبَادَةِ مَا وَجَدْتُ إِلَىٰ الِاجْتِهَادِ سَبِيلًا ...

(١) ما أبالي : ما أهتم وما أكترث .

فَإِنْ نَجَوْتُ ؛ فَبِرَحْمَةِ اللَّهِ ...

وَإِنْ دَخَلْتُ النَّارَ ؛ فَبِتَقْصِيرِي ...

* * *

غَيْرَ أَنَّ عَامِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ لَمْ يَكُنْ رَاهِبًا مِنْ رُهْبَانِ[1] اللَّيْلِ فَحَسْبُ ، وَإِنَّمَا كَانَ فَارِسًا مِنْ فُرْسَانِ النَّهَارِ أَيْضًا ...

فَمَا أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ لِلْجِهَادِ[2] فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا كَانَ فِي طَلِيعَةِ مَنْ يُجِيبُ نِدَاءَهُ .

وَكَانَ إِذَا نَهَدَ[3] لِغَزْوَةٍ مِنَ الْغَزَوَاتِ مَعَ الْمُجَاهِدِينَ ، وَقَفَ يَتَوَسَّمُ[4] النَّاسَ لِيَخْتَارَ رِفَاقَهُ .

فَإِذَا وَقَعَ عَلَىٰ رِفْقَةٍ تُوَافِقُهُ ؛ قَالَ لَهُمْ :

يَا هَؤُلَاءِ ، إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَصْحَبَكُمْ عَلَىٰ أَنْ تُعْطُونِي مِنْ أَنْفُسِكُمْ ثَلَاثَ خِلَالٍ[5]...

فَيَقُولُونَ : مَا هُنَّ ؟ .

فَيَقُولُ : أُولَاهُنَّ أَنْ أَكُونَ لَكُمْ خَادِمًا ؛ فَلَا يُنَازِعُنِي أَحَدٌ مِنْكُمْ فِي الْخِدْمَةِ أَبَدًا .

وَالثَّانِيَةُ أَنْ أَكُونَ لَكُمْ مُؤَذِّنًا ؛ فَلَا يُنَازِعُنِي أَحَدٌ مِنْكُمُ النِّدَاءَ لِلصَّلَاةِ .

وَالثَّالِثَةُ أَنْ أُنْفِقَ عَلَيْكُمْ بِقَدْرِ طَاقَتِي ...

فَإِنْ قَالُوا : نَعَمْ ، انْضَمَّ إِلَيْهِمْ ...

---

(١) الرَّاهب : من يرهب الله وينقطع لعبادته .
(٢) أذَّن مؤذِّن الجهاد : دعا داعي الجهاد .
(٣) نهد لغزوة : أسرع لغزوة .
(٤) يتوسَّم النَّاس : يتفرَّس النَّاس ويتعرَّفهم .
(٥) خلال : خصال .

وَإِذَا نَازَعَهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ رَحَلَ عَنْهُمْ إِلَىٰ غَيْرِهِمْ .

* * *

وَلَقَدْ كَانَ عَامِرٌ مِنْ أُولَئِكَ الْمُجَاهِدِينَ الَّذِينَ يَكْثُرُونَ عِنْدَ الْفَزَعِ[١]، وَيَقِلُّونَ عِنْدَ الطَّمَعِ[٢]...

فَهُوَ يَغْشَىٰ[٣] الْوَغَىٰ كَمَا لَا يَغْشَاهَا أَحَدٌ سِوَاهُ ...

وَلَكِنَّهُ يَعِفُّ عِنْدَ الْمَغْنَمِ كَمَا لَا يَعِفُّ عَنْهُ أَحَدٌ غَيْرُهُ .

* * *

فَهَذَا سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ[٤] يَنْزِلُ بَعْدَ «الْقَادِسِيَّةِ»[٥] فِي إِيوَانِ[٦] «كِسْرَىٰ» :

وَيَأْمُرُ عَمْرَو بْنَ مُقَرِّنٍ بِأَنْ يَجْمَعَ الْغَنَائِمَ وَيُحْصِيَهَا ؛ لِيُرْسِلَ خُمُسَهَا إِلَىٰ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ ، وَيَقْسِمَ بَاقِيَهَا عَلَىٰ الْمُجَاهِدِينَ ... فَاجْتَمَعَ بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَعْلَاقِ[٧] وَالنَّفَائِسِ مَا يَفُوقُ الْوَصْفَ ، وَيَعِزُّ عَلَىٰ الْحَصْرِ ...

فَهُنَا سِلَالٌ كَبِيرَةٌ مُخَتَّمَةٌ بِالرَّصَاصِ مَمْلُوءَةٌ بِآنِيَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ كَانَ يَأْكُلُ بِهَا مُلُوكُ فَارِسَ ...

وَهُنَاكَ صَنَادِيقُ مِنْ نَفِيسِ الْخَشَبِ كُدِّسَتْ فِيهَا ثِيَابُ «كِسْرَىٰ» وَأَوْشِحَتُهُ[٨] وَدُرُوعُهُ الْمُحَلَّاةُ بِالْجَوْهَرِ وَالدُّرِّ ...

---

(١) عند الفزع : عند الخوف والحاجة إلىٰ النجدة .
(٢) عند الطمع : عند اقتسام المغانم .
(٣) تغشىٰ الوغىٰ : بخوض الحرب .
(٤) سعد بن أبي وقاص : أحد العشرة المبشرين بالجنة من الصحابة وقائد المسلمين في القادسية ، انظره في كتاب «صور من حياة الصحابة» للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة الشرعية .
(٥) القادسية : ناحية في العراق وقعت فيها معركة القادسية التي انتصر فيها المسلمون علىٰ الفرس نصرًا مؤزرًا .
(٦) إيوان كسرىٰ : قصر كسرىٰ .
(٧) العِلق : بكسر العين كل شيء ثمين نفيس ، وجمعه أعلاق .
(٨) الوُشاح : بضم الواو ، شبه قلادة من نسيج عريض يُرصّع بالجواهر .

وَهَاذِهِ أَسْفَاطٌ[1] مَمْلُوءَةٌ بِنَفَائِسِ الْحُلِيِّ وَرَوَائِعِ الْمُقْتَنَيَاتِ ...

وَتِلْكَ أَغْمَادٌ فِيهَا سُيُوفُ مُلُوكِ الْفُرْسِ مَلِكًا بَعْدَ مَلِكٍ ...

وَسُيُوفُ الْمُلُوكِ وَالْقُوَّادِ الَّذِينَ خَضَعُوا لِلْفُرْسِ خِلَالَ التَّارِيخِ ...

* * *

وَفِيمَا كَانَ الْعُمَّالُ يُحْصُونَ هَاذِهِ الْغَنَائِمَ عَلَىٰ مَرْأَى مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمَسْمَعٍ ... أَقْبَلَ عَلَىٰ الْقَوْمِ رَجُلٌ أَشْعَثُ أَغْبَرُ[2]، وَمَعَهُ حُقٌّ[3] كَبِيرُ الْحَجْمِ ثَقِيلُ الْوَزْنِ ؛ حَمَلَهُ بِيَدَيْهِ كِلْتَيْهِمَا ...

فَتَأَمَّلُوهُ ؛ فَإِذَا هُوَ حُقٌّ لَمْ تَقَعْ عُيُونُهُمْ عَلَىٰ مِثْلِهِ قَطُّ ، وَلَا وَجَدُوا فِيمَا جَمَعُوهُ شَيْئًا يَعْدِلُهُ أَوْ يُقَارِبُهُ ...

فَنَظَرُوا فِي دَاخِلِهِ ؛ فَإِذَا هُوَ قَدْ مُلِئَ بِرَوَائِعِ الدُّرِّ وَالْجَوْهَرِ ...

فَقَالُوا لِلرَّجُلِ :

أَيْنَ أَصَبْتَ هَاذَا الْكَنْزَ الثَّمِينَ ؟! .

فَقَالَ : غَنِمْتُهُ فِي مَعْرَكَةِ كَذَا ... فِي مَكَانِ كَذَا ...

فَقَالُوا : وَهَلْ أَخَذْتَ مِنْهُ شَيْئًا ؟ .

فَقَالَ : هَدَاكُمُ اللهُ ...

وَاللَّهِ إِنَّ هَاذَا الْحُقَّ ، وَجَمِيعَ مَا مَلَكَتْهُ مُلُوكُ « فَارِسَ » لَا يَعْدِلُ عِنْدِي قُلَامَةَ ظُفُرٍ[4] ...

---

(١) السَّفَط : وعاء يوضع فيه الطِّيب ، وما أشبه من زينة النساء وحليتهن .
(٢) الأشعث : المُلبَّد الشَّعر ، والأغبر : الَّذي علاه الغبار .
(٣) الحُقّ : وعاء الطِّيب ونحوه من النفائس .
(٤) قلامة الظُّفر : ما سقط من طرفه ، ويضرب بها المثل في الشَّيء الخسيس الحقير .

وَلَوْلَا حَقُّ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ[1] فِيهِ مَا رَفَعْتُهُ مِنْ أَرْضِهِ ...

وَلَا أَتَيْتُكُمْ بِهِ.

فَقَالُوا: مَنْ أَنْتَ أَكْرَمَكَ اللَّهُ؟!.

فَقَالَ:

لَا وَاللَّهِ لَا أُخْبِرُكُمْ لِتَحْمَدُونِي، وَلَا أُخْبِرُ غَيْرَكُمْ لِيُقَرِّظُونِي[2]...

وَلَكِنِّي أَحْمَدُ اللَّهَ تَعَالَىٰ وَأَرْجُو ثَوَابَهُ.

ثُمَّ تَرَكَهُمْ، وَمَضَىٰ ...

فَأَمَرُوا رَجُلًا مِنْهُمْ أَنْ يَتْبَعَهُ، وَأَنْ يَأْتِيَهُمْ بِخَبَرِهِ.

فَمَا زَالَ الرَّجُلُ يَمْضِي وَرَاءَهُ - وَهُوَ لَا يَعْلَمُ بِهِ - حَتَّىٰ بَلَغَ أَصْحَابَهُ، فَلَمَّا سَأَلَهُمْ عَنْهُ قَالُوا:

أَلَا تَعْرِفُهُ؟!.

إِنَّهُ زَاهِدُ «الْبَصْرَةِ» ... عَامِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ التَّمِيمِيُّ.

* * *

لَكِنَّ حَيَاةَ عَامِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ - عَلَىٰ الرَّغْمِ مِمَّا عَرَفْتَ مِنْ أَمْرِهِ - لَمْ تَخْلُ مِنَ الْمُنَغِّصَاتِ[3]، وَلَمْ تَسْلَمْ مِنْ أَذَىٰ النَّاسِ ...

فَلَقَدْ تَعَرَّضَ لِمَا يَلْقَاهُ الصَّادِعُونَ[4] بِكَلِمَةِ الْحَقِّ، الْمُنْكِرُونَ لِلْمُنْكَرِ، الْعَامِلُونَ عَلَىٰ إِزَالَتِهِ ...

وَكَانَ السَّبَبُ الْمُبَاشِرُ فِيمَا لَحِقَ بِهِ مِنْ أَذًى ... أَنَّهُ أَبْصَرَ رَجُلًا مِنْ أَعْوَانِ

(١) جعل الإسلام خمس غنائم الحرب لبيت مال المسلمين والباقي للمجاهدين.

(٢) ليقرظوني: ليثنوا عليّ.

(٣) المنغصات: المكدرات.

(٤) الصادعون بكلمة الحق: الجاهرون بكلمة الحق.

صَاحِبِ شُرَطِ[١] «الْبَصْرَةِ» وَقَدْ أَمْسَكَ بِخِنَاقِ[٢] رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ[٣]، وَجَعَلَ يَجُرُّهُ جَرًّا ...

وَالذِّمِّيُّ يَسْتَغِيثُ النَّاسَ وَيَقُولُ :

أَجِيرُونِي أَجَارَكُمُ اللَّهُ ...

أَجِيرُوا ذِمَّةَ نَبِيِّكُمْ[٤] يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ ...

فَأَقْبَلَ عَامِرٌ عَلَيْهِ وَقَالَ :

هَلْ أَدَّيْتَ جِزْيَتَكَ ؟ .

فَقَالَ : نَعَمْ ، أَدَّيْتُهَا .

فَالْتَفَتَ إِلَى الرَّجُلِ الْمُمْسِكِ بِخِنَاقِهِ وَقَالَ :

مَا تُرِيدُ مِنْهُ ؟! .

فَقَالَ : أُرِيدُ أَنْ يَذْهَبَ مَعِي لِيَكْسَحَ[٥] حَدِيقَةَ صَاحِبِ الشُّرَطِ ...

فَقَالَ لِلذِّمِّيِّ : أَتَطِيبُ نَفْسُكَ بِهَٰذَا الْعَمَلِ ؟ .

فَقَالَ : كَلَّا ...

فَذَلِكَ يَهُدُّ قُوَايَ ، وَيَشْغَلُنِي عَنْ كَسْبِ قُوتِ عِيَالِي ...

فَالْتَفَتَ عَامِرٌ إِلَى الرَّجُلِ وَقَالَ : دَعْهُ[٦] ...

فَقَالَ : لَا أَدَعُهُ ...

---

(١) صاحب الشُّرَط : مدير الشُّرَط ، والشُّرَط جمع مفرده شرطة وشرطي .
(٢) الخناق : العنق .
(٣) أهل الذِّمَّة : من دَخَلَ في عَهْدِ المسلمين وحمايَتِهم من اليهود والنصارىٰ وغيرهم .
(٤) أجيروا ذِمَّة نبيكم : احموا من دخل في ذِمَّة نبيِّكم .
(٥) يكسح الحديقة : ينظفها .
(٦) دَعْه : اتركه .

فَمَا كَانَ مِنْ عَامِرٍ إِلَّا أَنْ أَلْقَىٰ رِدَاءَهُ عَلَىٰ الذِّمِّيِّ وَقَالَ:

وَاللَّهِ، لَا تُخْفَرُ[1] ذِمَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ وَأَنَا حَيٌّ...

ثُمَّ تَجَمَّعَ النَّاسُ، وَأَعَانُوا عَامِرًا عَلَىٰ الرَّجُلِ، وَخَلَّصُوا الذِّمِّيَّ بِالْقُوَّةِ...

فَمَا كَانَ مِنْ أَعْوَانِ صَاحِبِ الشُّرَطِ إِلَّا أَنِ اتَّهَمُوا عَامِرًا بِنَبْذِ[2] الطَّاعَةِ...

وَرَمَوْهُ بِالْخُرُوجِ عَلَىٰ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ...

وَقَالُوا: إِنَّهُ امْرُؤٌ لَا يَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ...

وَلَا يَأْكُلُ لَحْمَ الْحَيَوَانَاتِ وَأَلْبَانَهَا...

وَيَتَعَالَىٰ عَلَىٰ غِشْيَانِ[3] مَجَالِسِ الْوُلَاةِ...

وَرَفَعُوا أَمْرَهُ إِلَىٰ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ[4] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

* * *

أَمَرَ الْخَلِيفَةُ وَالِيَهُ عَلَىٰ «الْبَصْرَةِ» بِأَنْ يَدْعُوَ عَامِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ إِلَىٰ مَجْلِسِهِ، وَأَنْ يَسْأَلَهُ عَمَّا نُسِبَ إِلَيْهِ...

وَأَنْ يَرْفَعَ لَهُ خَبَرَهُ...

فَاسْتَدْعَىٰ وَالِي «الْبَصْرَةِ» عَامِرًا وَقَالَ:

إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَهُ - أَمَرَنِي أَنْ أَسْأَلَكَ عَنْ أُمُورٍ نُسِبَتْ إِلَيْكَ...

(١) لَا تخفر ذِمَّة مُحَمَّد: لَا يُنْقَضُ عهد مُحَمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام.

(٢) نبذ الطَّاعة: ترك الطَّاعة.

(٣) غشيان مجالس الوُلاة: شهود مجالس الوُلاة.

(٤) عثمان بن عفان: انظره في كتاب «صور من حياة الصَّحابة» للمؤلف، النَّاشر دار الأدب الإسلامي، الطَّبعة الشرعية.

فَقَالَ : سَلْ عَمَّا أَمَرَ بِهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ .

فَقَالَ : مَا لَكَ تَعْزِفُ[1] عَنْ سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَتَأْبَىٰ أَنْ تَتَزَوَّجَ ؟! .

فَقَالَ : مَا تَرَكْتُ الزَّوَاجَ عُزُوفًا عَنْ سُنَّةِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ...

فَأَنَا أَشْهَدُ أَنَّهُ لَا رَهْبَانِيَّةَ[2] فِي الْإِسْلَامِ ...

وَ إِنَّمَا أَنَا امْرُؤٌ رَأَىٰ أَنَّ لَهُ نَفْسًا وَاحِدَةً ؛ فَجَعَلَهَا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَخَشِيَ أَنْ تَغْلِبَهُ الزَّوْجَةُ عَلَيْهَا ...

فَقَالَ : مَا لَكَ لَا تَأْكُلُ اللَّحْمَ ؟! .

فَقَالَ : بَلْ آكُلُهُ إِذَا اشْتَهَيْتُهُ وَوَجَدْتُهُ ...

أَمَّا إِذَا لَمْ أَشْتَهِهِ ، أَوِ اشْتَهَيْتُهُ وَلَمْ أَجِدْهُ فَإِنِّي لَا آكُلُهُ ...

فَقَالَ : مَا لَكَ لَا تَأْكُلُ الْجُبْنَ ؟! .

فَقَالَ : إِنَّا بِمِنْطَقَةٍ فِيهَا « مَجُوسٌ »[3] يَصْنَعُونَ الْجُبْنَ ...

وَهُمْ قَوْمٌ لَا يُفَرِّقُونَ بَيْنَ الْمَيْتَةِ وَالْمَذْبُوحَةِ ...

وَإِنِّي لَأَخْشَىٰ أَنْ تَكُونَ الْمِنْفَحَةُ[4] الَّتِي صُنِعَ بِهَا الْجُبْنُ مِنْ شَاةٍ غَيْرِ مُذَكَّاةٍ[5]، فَمَا شَهِدَ شَاهِدَانِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَىٰ أَنَّهُ جُبْنٌ صُنِعَ بِمِنْفَحَةِ شَاةٍ مَذْبُوحَةٍ أَكَلْتُهُ ...

فَقَالَ : وَمَا يَمْنَعُكَ مِنْ أَنْ تَأْتِيَ الْوُلَاةَ ، وَتَشْهَدَ مَجَالِسَهُمْ ؟! .

---

(١) تعزف : تزهد وتميل .
(٢) لَا رهبانية : لَا امتناع عن الزّواج .
(٣) المجوس : طائفة تَعْبُد الشّمس أو النّار .
(٤) الْمِنْفَحَة : مَادَّة تُسْتَخرج من بطن الجدي الصّغير وتوضع في الحليب فيصير جبنًا .
(٥) غير مذكاة : غير مذبوحة .

فَقَالَ : إِنَّ فِي أَبْوَابِكُمْ كَثِيرًا مِنْ طُلَّابِ الْحَاجَاتِ ؛ فَادْعُوهُمْ إِلَيْكُمْ ... وَاقْضُوا حَوَائِجَهُمْ لَدَيْكُمْ ...

وَاتْرُكُوا مَنْ لَا حَاجَةَ لَهُ عِنْدَكُمْ ...

* * *

رُفِعَتْ أَقْوَالُ عَامِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ إِلَىٰ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ ؛ فَلَمْ يَجِدْ فِيهَا نَبْذًا لِلطَّاعَةِ ... أَوْ خُرُوجًا عَلَىٰ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ ...

غَيْرَ أَنَّ ذَلِكَ لَمْ يُطْفِئْ نَارَ الشَّرِّ ...

وَكَثُرَ الْقِيلُ وَالْقَالُ حَوْلَ عَامِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ...

وَكَادَتْ تَكُونُ فِتْنَةٌ بَيْنَ أَنْصَارِ الرَّجُلِ وَخُصُومِهِ ...

فَأَمَرَ عُثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِتَسْيِيرِهِ[1] إِلَىٰ بِلَادِ الشَّامِ ، وَاتِّخَاذِهَا دَارَ إِقَامَةٍ لَهُ ... وَأَوْصَىٰ وَالِيَهُ عَلَىٰ الشَّامِ مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ أَنْ يُحْسِنَ اسْتِقْبَالَهُ ، وَأَنْ يَرْعَىٰ حُرْمَتَهُ .

* * *

وَفِي الْيَوْمِ الَّذِي عَزَمَ فِيهِ عَامِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ عَلَىٰ الرَّحِيلِ عَنِ « الْبَصْرَةِ » خَرَجَ خَلْقٌ كَثِيرٌ مِنْ إِخْوَانِهِ وَتَلَامِيذِهِ ؛ لِوَدَاعِهِ .

وَشَيَّعُوهُ[2] حَتَّىٰ بَلَغُوا مَعَهُ ظَاهِرَ « الْمَرْبَدِ »[3]...

وَهُنَاكَ قَالَ لَهُمْ : إِنِّي دَاعٍ فَأَمِّنُوا عَلَىٰ دُعَائِي ...

فَاشْرَأَبَّتْ[4] إِلَيْهِ أَعْنَاقُ النَّاسِ ، وَسَكَنَتْ حَرَكَتُهُمْ ، وَتَعَلَّقَتْ بِهِ عُيُونُهُمْ .

فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ :

---

(١) أمر بتسييره : أمر بترحيله .
(٢) شيعوه : خرجوا معه لوداعه .
(٣) المربد : محلة في ظاهر البصرة .
(٤) اشرأبت إليه الأعناق : امتدت إليه الأعناق لتراه .

اللَّهُمَّ مَنْ وَشَىٰ بِي وَكَذَبَ عَلَيَّ ، وَكَانَ سَبَبًا فِي إِخْرَاجِي مِنْ بَلَدِي ، وَالتَّفْرِيقِ بَيْنِي وَبَيْنَ صَحْبِي ... اللَّهُمَّ إِنِّي صَفَحْتُ عَنْهُ فَاصْفَحْ عَنْهُ ...

وَهَبْهُ الْعَافِيَةَ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ ...

وَتَغَمَّدْنِي وَإِيَّاهُ وَسَائِرَ الْمُسْلِمِينَ بِرَحْمَتِكَ وَعَفْوِكَ وَإِحْسَانِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ .

ثُمَّ وَجَّهَ مَطِيَّتَهُ[1] نَحْوَ دِيَارِ الشَّامِ ، وَمَضَىٰ لِسَبِيلِهِ ...

* * *

قَضَىٰ عَامِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بَقِيَّةَ حَيَاتِهِ فِي بِلَادِ الشَّامِ .

وَاخْتَارَ « بَيْتَ الْمَقْدِسِ » دَارًا لِإِقَامَتِهِ ... وَنَالَ مِنْ بِرِّ أَمِيرِ الشَّامِ مُعَاوِيَةَ ابْنِ أَبِي سُفْيَانَ وَإِجْلَالِهِ وَتَكْرِيمِهِ مَا هُوَ جَدِيرٌ بِهِ .

فَلَمَّا مَرِضَ مَرَضَ الْمَوْتِ دَخَلَ عَلَيْهِ أَصْحَابُهُ ؛ فَوَجَدُوهُ يَبْكِي .

فَقَالُوا : مَا يُبْكِيكَ ، وَقَدْ كُنْتَ ... وَكُنْتَ[2]؟! ...

فَقَالَ : وَاللَّهِ مَا أَبْكِي حِرْصًا عَلَىٰ الدُّنْيَا ... أَوْ جَزَعًا[3] مِنَ الْمَوْتِ .

وَإِنَّمَا أَبْكِي لِطُولِ السَّفَرِ وَقِلَّةِ الزَّادِ .

وَلَقَدْ أَمْسَيْتُ بَيْنَ صُعُودٍ وَهُبُوطٍ ...

إِمَّا إِلَىٰ الْجَنَّةِ ... وَإِمَّا إِلَىٰ النَّارِ ...

فَلَا أَدْرِي إِلَىٰ أَيِّهِمَا أَصِيرُ ...

ثُمَّ لَفَظَ أَنْفَاسَهُ ، وَلِسَانُهُ رَطْبٌ بِذِكْرِ اللَّهِ ...

---

(١) مطيته : راحلته .

(٢) وقد كنت وكنت : إشارة إلىٰ ما كان عليه من التقىٰ والصلاح . (٣) جزعًا : خوفًا .

وَهُنَاكَ ...

هُنَاكَ ... فِي أُولَى الْقِبْلَتَيْنِ(١) ...

وَثَالِثِ الْحَرَمَيْنِ(٢) ...

وَمَسْرَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ...

ثَوَىٰ(٣) عَامِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ التَّمِيمِيُّ ...

* * *

نَوَّرَ اللَّهُ لِعَامِرٍ فِي قَبْرِهِ ...

وَنَضَّرَ فِي جَنَّاتِ الْخُلْدِ وَجْهَهُ (*) ...

---

(١) أولى القبلتين: كناية عن بيت المقدس، لأن المسلمين كانوا يستقبلونه في الصلاة قبل أن يؤمروا بالتوجه إلى الكعبة المعظمة.

(٢) ثالث الحرمين: كناية عن بيت المقدس أيضًا.

(٣) ثوى: أقام في المكان.

(*) للاستزادة من أخبار عَامِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ التَّمِيمِيِّ انظر:

١ - الطبقات الكبرى لابن سعد: ٧/١٠٣ - ١١٢ «وانظر الفهارس في المجلد الأخير».
٢ - صفة الصفوة لابن الجوزي «طبعة حلب»: ٣/٢٠١ - ٢١١.
٣ - حلية الأولياء للأصبهاني: ٨٧ - ٩٥.
٤ - تاريخ الطبري لمحمد بن جرير الطبري: ٤/١٩، ٨٥، ٣٠٢، ٣٢٧، ٣٣٣.
٥ - البيان والتبيين للجاحظ: ١/٨٣، ٢٣١ - ٢٣٧، ٣٥٩-٣٦٣ و٢/١٩٦ و٣/١٤٣، ١٥٨، ١٦٠، ١٦٩، ١٧٠، ١٩٣ و٤/٢٩٩.
٦ - العقد الفريد لابن عبد ربه «تحقيق العريان»: ٣/٨٦، ١٠٥، ١٠٧، ٢٦٤، ٣٢٧ و٥/٣٣.
٧ - المعارف لابن قتيبة: ٤٣٨.
٨ - تهذيب التهذيب لابن حجر: ٥/٧٧.
٩ - رغبة الآمل في شرح الكامل للمرصفي: ٢/٣٧.
١٠ - كرامات الأولياء: ٢/٥١.

عُروَةُ بْنُ الزُّبَيرِ

« مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَلْيَنْظُرْ إِلَىٰ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ »

[عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ]

مَا كَادَتْ شَمْسُ الْأَصِيلِ(١) تُلَمْلِمُ خُيُوطَهَا الذَّهَبِيَّةَ عَنْ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ ، وَتَأْذَنُ لِلنَّسَمَاتِ النَّدِيَّةِ بِأَنْ تَتَرَدَّدَ فِي رِحَابِهِ الطَّاهِرَةِ ... حَتَّىٰ شَرَعَ الطَّائِفُونَ بِالْبَيْتِ مِنْ بَقَايَا صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَكِبَارِ التَّابِعِينَ ؛ يُعَطِّرُونَ الْأَجْوَاءَ بِالتَّهْلِيلِ(٢) وَالتَّكْبِيرِ ، وَيَتْرَعُونَ(٣) الْأَرْجَاءَ بِصَالِحِ الدُّعَاءِ .

وَحَتَّىٰ أَخَذَ النَّاسُ يَتَحَلَّقُونَ(٤) زُمَرًا زُمَرًا حَوْلَ الْكَعْبَةِ الْمُعَظَّمَةِ ، الرَّابِضَةِ(٥) وَسَطَ الْبَيْتِ فِي مَهَابَةٍ وَجَلَالٍ .

وَيَمْلَؤُونَ عُيُونَهُمْ مِنْ بَهَائِهَا الْأَسْنَىٰ ، وَيُدِيرُونَ بَيْنَهُمْ أَحَادِيثَ لَا لَغْوَ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمَ .

وَبِالْقُرْبِ مِنَ الرُّكْنِ الْيَمَانِيِّ(٦) جَلَسَ أَرْبَعَةُ فِتْيَانٍ صِبَاحِ الْوُجُوهِ ، كِرَامِ الْأَحْسَابِ(٧) ، مُعَطَّرِي الْأَرْدَانِ(٨) ... كَأَنَّهُمْ بَعْضُ حَمَامَاتِ الْمَسْجِدِ نَصَاعَةَ أَثْوَابٍ ، وَأُلْفَةَ قُلُوبٍ .

هُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ ، وَأَخُوهُ مُصْعَبُ بْنُ الزُّبَيْرِ ، وَأَخُوهُمَا عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ ، وَعَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ .

* * *

(١) الأصيل : بين العصر والمغرب .
(٢) التهليل : قول لا إله إلا الله .
(٣) يترعون : يملأون .
(٤) يتحلقون : يجلسون على هيئة الحلقة .
(٥) الرابضة : المستقرة .
(٦) الركن اليماني : أحد أركان الكعبة المعظمة .
(٧) الأحساب : الأنساب .
(٨) الردن : طرف الكم الواسع ، وجمعه أردان .

وَدَارَ الْحَدِيثُ رَهْوًا[1] بَيْنَ الْفِتْيَةِ الأَبْرَارِ ، ثُمَّ مَا لَبِثَ أَنْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ :

لِيَتَمَنَّ كُلٌّ مِنَّا عَلَىٰ اللَّهِ مَا يُحِبُّ ...

فَانْطَلَقَتْ أَخْيِلَتُهُمْ تُحَلِّقُ فِي عَالَمِ الْغَيْبِ الرَّحْبِ ، وَمَضَتْ أَحْلَامُهُمْ تَطُوفُ فِي رِيَاضِ الأَمَانِيِّ الْخُضْرِ ، ثُمَّ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ :

أُمْنِيَتِي أَنْ أَمْلِكَ « الْحِجَازَ » ، وَأَنْ أَنَالَ الْخِلَافَةَ ...

وَقَالَ أَخُوهُ مُصْعَبٌ :

أَمَا أَنَا فَأَتَمَنَّىٰ أَنْ أَمْلِكَ « الْعِرَاقَيْنِ »[2]، فَلَا يُنَازِعُنِي فِيهِمَا مُنَازِعٌ .

وَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ :

إِذَا كُنْتُمَا تَقْنَعَانِ بِذَاكَ ، فَأَنَا لَا أَقْنَعُ إِلَّا بِأَنْ أَمْلِكَ الأَرْضَ كُلَّهَا ... وَأَنْ أَنَالَ الْخِلَافَةَ بَعْدَ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ ...

وَسَكَتَ عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ فَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا ... فَالْتَفَتُوا إِلَيْهِ ، وَقَالُوا :

وَأَنْتَ مَاذَا تَتَمَنَّىٰ يَا عُرْوَةُ ؟ .

فَقَالَ : بَارَكَ اللَّهُ لَكُمْ فِيمَا تَمَنَّيْتُمْ مِنْ أَمْرِ دُنْيَاكُمْ ...

أَمَّا أَنَا فَأَتَمَنَّىٰ أَنْ أَكُونَ عَالِمًا عَامِلًا ؛ يَأْخُذُ النَّاسُ عَنِّي كِتَابَ رَبِّهِمْ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِمْ ﷺ ، وَأَحْكَامَ دِينِهِمْ ... وَأَنْ أَفُوزَ فِي الآخِرَةِ بِرِضَىٰ اللَّهِ ، وَأَحْظَىٰ بِجَنَّتِهِ ...

* * *

ثُمَّ دَارَتِ الأَيَّامُ دَوْرَتَهَا ؛ فَإِذَا بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ يُبَايَعُ لَهُ بِالْخِلَافَةِ عَقِبَ مَوْتِ يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ[3] فَيَحْكُمُ الْحِجَازَ ، وَمِصْرَ ، وَالْيَمَنَ ، وَخُرَاسَانَ ، وَالْعِرَاقَ ...

(١) رهوًا : ليِّنًا هادئًا . (٢) العراقين : الكوفة والبصرة . (٣) يزيد بن معاوية : ثاني خلفاء بني أمية .

ثُمَّ يُقْتَلُ عِنْدَ الْكَعْبَةِ غَيْرَ بَعِيدٍ عَنِ الْمَكَانِ الَّذِي تَمَنَّىٰ فِيهِ مَا تَمَنَّىٰ .

وَإِذَا بِمُصْعَبِ بْنِ الزُّبَيْرِ يَتَوَلَّىٰ إِمْرَةَ « الْعِرَاقِ » مِنْ قِبَلِ أَخِيهِ عَبْدِ اللَّهِ ، وَيُقْتَلُ هُوَ الْآخَرُ دُونَ[1] وِلَايَتِهِ أَيْضًا .

وَإِذَا بِعَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ تَؤُولُ[2] إِلَيْهِ الْخِلَافَةُ بَعْدَ مَوْتِ أَبِيهِ ، وَتَجْتَمِعُ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْمُسْلِمِينَ بَعْدَ مَقْتَلِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ وَأَخِيهِ مُصْعَبٍ عَلَىٰ أَيْدِي جُنُودِهِ ... ثُمَّ يَغْدُو[3] أَعْظَمَ مُلُوكِ الدُّنْيَا فِي زَمَانِهِ .

فَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ ؟ ...

تَعَالَوْا نَبْدَأْ قِصَّتَهُ مِنْ أَوَّلِهَا .

* * *

وُلِدَ عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ لِسَنَةٍ وَاحِدَةٍ بَقِيَتْ مِنْ خِلَافَةِ الْفَارُوقِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي بَيْتٍ مِنْ أَعَزِّ بُيُوتِ الْمُسْلِمِينَ شَأْنًا ، وَأَرْفَعِهَا مَقَامًا .

فَأَبُوهُ ، هُوَ الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ حَوَارِيُّ[4] رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَأَوَّلُ مَنْ سَلَّ سَيْفًا فِي الْإِسْلَامِ ، وَأَحَدُ الْعَشَرَةِ الْمُبَشَّرِينَ بِالْجَنَّةِ .

وَأُمُّهُ ، هِيَ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ الْمُلَقَّبَةُ بِذَاتِ النِّطَاقَيْنِ[5].

وَجَدُّهُ لِأُمِّهِ ، هُوَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ خَلِيفَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَصَاحِبُهُ فِي الْغَارِ .

وَجَدَّتُهُ لِأَبِيهِ ، هِيَ صَفِيَّةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ[6] عَمَّةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

---

(١) يقتل دون ولايته : يقتل دفاعًا عن ولايته .

(٢) تؤول إليه الخلافة : تصير إليه الخلافة .

(٣) يغدو : يصبح .

(٤) حواريو الرسل : الخاصّة من أصحابهم .

(٥) ذات النّطاقين : لقبت بذلك لأنها شقت نطاقها يوم الهجرة شقين لتربط بأحدهما مزود رسول الله ﷺ وبالثّاني سقاءه... انظرها في كتاب « صور من حياة الصّحابيات » للمؤلف .

(٦) صَفِيَّةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ : انظرها في كتاب « صور من حياة الصّحابيات » للمؤلف .

وَخَالَتُهُ ، هِيَ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ عَلَيْهَا رِضْوَانُ اللَّهِ .

فَقَدْ نَزَلَ إِلَىٰ قَبْرِهَا حِينَ دُفِنَتْ بِنَفْسِهِ ، وَسَوَّىٰ عَلَيْهَا لَحْدَهَا بِيَدَيْهِ .

أَفَتَظُنُّ أَنَّ بَعْدَ هَـٰذَا الْحَسَبِ حَسَبًا ...

وَأَنَّ فَوْقَ هَـٰذَا الشَّرَفِ شَرَفًا غَيْرَ شَرَفِ الْإِيمَانِ وَعِزَّةِ الْإِسْلَامِ ؟ .

* * *

وَلَكِيْ يُحَقِّقَ عُرْوَةُ أُمْنِيَّتَهُ الَّتِي تَمَنَّاهَا عَلَى اللَّهِ عِنْدَ الْكَعْبَةِ الْمُعَظَّمَةِ أَكَبَّ[1] عَلَىٰ طَلَبِ الْعِلْمِ وَانْقَطَعَ لَهُ ، وَاغْتَنَمَ الْبَقِيَّةَ الْبَاقِيَةَ مِنْ صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ... فَطَفِقَ يَؤُمُّ[2] بُيُوتَهُمْ ، وَيُصَلِّي خَلْفَهُمْ ، وَيَتَتَبَّعُ مَجَالِسَهُمْ ، حَتَّىٰ رَوَىٰ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، وَعَبْدِ الرَّحْمَـٰنِ بْنِ عَوْفٍ ، وَزَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ ، وَأَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ ...

وَأُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ ، وَسَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ ، وَالنُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ ...

وَأَخَذَ كَثِيرًا عَنْ خَالَتِهِ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ ، حَتَّىٰ غَدَا أَحَدَ فُقَهَاءِ الْمَدِينَةِ السَّبْعَةِ الَّذِينَ يَفْزَعُ[3] إِلَيْهِمُ الْمُسْلِمُونَ فِي دِينِهِمْ .

وَيَسْتَعِينُ بِهِمُ الْوُلَاةُ الصَّالِحُونَ عَلَىٰ مَا اسْتَرْعَاهُمُ اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ مِنْ أَمْرِ الْعِبَادِ وَالْبِلَادِ .

مِنْ ذَلِكَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ[4] حِينَ قَدِمَ الْمَدِينَةَ وَالِيًا عَلَيْهَا مِنْ قِبَلِ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ جَاءَهُ النَّاسُ فَسَلَّمُوا عَلَيْهِ ... فَلَمَّا صَلَّى الظُّهْرَ دَعَا عَشَرَةً مِنْ فُقَهَاءِ الْمَدِينَةِ ، وَعَلَىٰ رَأْسِهِمْ عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ ...

---

(١) أكب على طلب العلم: عكف على طلب العلم، وانقطع له .

(٢) يؤم بيوتهم : يأتي بيوتهم .

(٣) يفزع إليه المسلمون : يلجأون إليه ، ويلوذون به . (٤) عمر بن عبد العزيز : انظره ص ٨٧، ٢٥٧، ٣٢٩.

فَلَمَّا صَارُوا عِنْدَهُ رَحَّبَ بِهِمْ، وَأَكْرَمَ مَجَالِسَهُمْ، ثُمَّ حَمِدَ اللَّهَ جَلَّ وَعَزَّ وَأَثْنَىٰ عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ قَالَ:

إِنِّي دَعَوْتُكُمْ لِأَمْرٍ تُؤْجَرُونَ عَلَيْهِ وَتَكُونُونَ لِي فِيهِ أَعْوَانًا عَلَىٰ الْحَقِّ...

فَأَنَا لَا أُرِيدُ أَنْ أَقْطَعَ أَمْرًا إِلَّا بِرَأْيِكُمْ، أَوْ بِرَأْيِ مَنْ حَضَرَ مِنْكُمْ.

فَإِنْ رَأَيْتُمْ أَحَدًا يَتَعَدَّىٰ عَلَىٰ أَحَدٍ، أَوْ بَلَغَكُمْ عَنْ عَامِلٍ لِي مَظْلَمَةٌ فَأَسْأَلُكُمْ بِاللَّهِ أَنْ تُبْلِغُونِي ذَلِكَ.

فَدَعَا لَهُ عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ بِخَيْرٍ، وَرَجَا لَهُ مِنَ اللَّهِ السَّدَادَ[1] وَالرَّشَادَ.

* * *

وَقَدْ جَمَعَ عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ الْعِلْمَ إِلَىٰ الْعَمَلِ، فَقَدْ كَانَ صَوَّامًا فِي الْهَوَاجِرِ[2]... قَوَّامًا فِي الْعَتَمَاتِ، رَطْبَ اللِّسَانِ دَائِمًا بِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَىٰ.

وَكَانَ إِلَىٰ ذَلِكَ خَدِينًا[3] لِكِتَابِ اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ، عَاكِفًا عَلَىٰ تِلَاوَتِهِ...

فَكَانَ يَقْرَأُ رُبْعَ الْقُرْآنِ كُلَّ نَهَارٍ نَظَرًا فِي الْمُصْحَفِ...

ثُمَّ يَقُومُ بِهِ اللَّيْلَ تِلَاوَةً عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ...

وَلَمْ يُعْرَفْ عَنْهُ أَنَّهُ تَرَكَ ذَلِكَ مُنْذُ صَدْرِ[4] شَبَابِهِ إِلَىٰ يَوْمِ وَفَاتِهِ غَيْرَ مَرَّةٍ وَاحِدَةٍ لِخَطْبٍ نَزَلَ بِهِ سَيَأْتِيكَ نَبَؤُهُ بَعْدَ قَلِيلٍ.

* * *

وَلَقَدْ كَانَ عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ يَجِدُ فِي الصَّلَاةِ رَاحَةَ نَفْسِهِ، وَقُرَّةَ عَيْنِهِ، وَجَنَّتَهُ عَلَىٰ الْأَرْضِ، فَيُحْسِنُهَا كُلَّ الْإِحْسَانِ، وَيُتْقِنُ شَعَائِرَهَا أَتَمَّ الْإِتْقَانِ، وَيُطِيلُهَا غَايَةَ الطُّولِ...

---

(١) السَّداد: الصَّواب والاستقامة.
(٢) الهاجرة: شِدَّة القيظ، والجمع هواجر.
(٣) خدينًا: مصاحبًا.
(٤) صدر شبابه: أوّل شبابه.

رُوِيَ عَنْهُ أَنَّهُ رَأَىٰ رَجُلًا يُصَلِّي صَلَاةً خَفِيفَةً ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ صَلَاتِهِ دَعَاهُ إِلَيْهِ وَقَالَ لَهُ : يَا بْنَ أَخِي ، أَمَا كَانَتْ لَكَ عِنْدَ رَبِّكَ جَلَّ وَعَزَّ حَاجَةٌ ؟! ...

وَاللَّهِ إِنِّي لَأَسْأَلُ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي صَلَاتِي كُلَّ شَيْءٍ حَتَّىٰ الْمِلْحَ .

* * *

وَقَدْ كَانَ عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ سَخِيَّ الْيَدِ سَمْحًا جَوَادًا ...

وَمِمَّا أُثِرَ عَنْ جُودِهِ أَنَّهُ كَانَ لَهُ بُسْتَانٌ مِنْ أَعْظَمِ بَسَاتِينِ الْمَدِينَةِ ...

عَذْبُ الْمِيَاهِ ، ظَلِيلُ الْأَشْجَارِ ، بَاسِقُ النَّخِيلِ ...

وَكَانَ يُسَوِّرُ[1] بُسْتَانَهُ طَوَالَ الْعَامِ ؛ لِحِمَايَةِ أَشْجَارِهِ مِنْ أَذَىٰ الْمَاشِيَةِ وَعَبَثِ الصِّبْيَةِ ، حَتَّىٰ إِذَا آنَ أَوَانُ الرُّطَبِ[2] وَأَيْنَعَتِ الثِّمَارُ وَطَابَتْ ، وَاشْتَهَتْهَا النُّفُوسُ ... كَسَرَ حَائِطَ بُسْتَانِهِ فِي أَكْثَرَ مِنْ جِهَةٍ لِيُجِيزَ لِلنَّاسِ دُخُولَهُ ...

فَكَانُوا يُلِمُّونَ[3] بِهِ ذَاهِبِينَ آيِبِينَ ، وَيَأْكُلُونَ مِنْ ثَمَرِهِ مَا لَذَّ لَهُمُ الْأَكْلُ ، وَيَحْمِلُونَ مِنْهُ مَا طَابَ لَهُمُ الْحَمْلُ .

وَكَانَ كُلَّمَا دَخَلَ بُسْتَانَهُ هَـٰذَا رَدَّدَ قَوْلَهُ جَلَّ وَعَزَّ :

﴿ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾[4].

* * *

وَفِي ذَاتِ سَنَةٍ مِنْ خِلَافَةِ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ[5] شَاءَ اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ أَنْ يَمْتَحِنَ عُرْوَةَ بْنَ الزُّبَيْرِ امْتِحَانًا لَا يَثْبُتُ لَهُ إِلَّا ذَوُو الْأَفْئِدَةِ الَّتِي عَمَرَهَا الْإِيمَانُ وَأَتْرَعَهَا[6] الْيَقِينُ .

(١) يسور بستانه : يجعل لبستانه سورًا.
(٢) الرطب : ثمر النخيل قبل أن يصير تمرًا.
(٣) يُلِمُّون به : يدخلونه.
(٤) سورة الكهف : آية ٣٩.
(٥) الْوَلِيد بْن عَبْد الْمَلِك : سادس خلفاء بني أمية وقد بلغت دولة الإسلام في عهده أوج عزها.
(٦) أترعها : ملأها.

فَلَقَدْ دَعَا خَلِيفَةُ الْمُسْلِمِينَ عُرْوَةَ بْنَ الزُّبَيْرِ لِزِيَارَتِهِ فِي « دِمَشْقَ » ؛ فَلَبَّىٰ دَعْوَتَهُ ، وَصَحِبَ مَعَهُ أَكْبَرَ بَنِيهِ ... وَلَمَّا قَدِمَ عَلَىٰ الْخَلِيفَةِ رَحَّبَ بِمَقْدَمِهِ أَعْظَمَ التَّرْحِيبِ ، وَأَكْرَمَ وِفَادَتَهُ أَوْفَىٰ الْإِكْرَامِ ، وَبَالَغَ فِي الْحَفَاوَةِ بِهِ .

ثُمَّ شَاءَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِأَنْ تَجْرِيَ الرِّيَاحُ بِمَا لَا تَشْتَهِي السُّفُنُ .

ذَلِكَ أَنَّ ابْنَ عُرْوَةَ دَخَلَ عَلَىٰ إِصْطَبْلِ[1] الْوَلِيدِ لِيَتَفَرَّجَ عَلَىٰ جِيَادِهِ الصَّافِنَاتِ[2]، فَرَمَحَتْهُ[3] دَابَّةٌ رَمْحَةً قَاضِيَةً أَوْدَتْ بِحَيَاتِهِ .

وَلَمْ يَكَدِ الْأَبُ الْمَفْجُوعُ يَنْفُضُ يَدَيْهِ مِنْ تُرَابِ قَبْرِ وَلَدِهِ ، حَتَّىٰ أَصَابَتْ إِحْدَىٰ قَدَمَيْهِ « الْآكِلَةُ »[4].

فَتَوَرَّمَتْ سَاقُهُ ، وَجَعَلَ الْوَرَمُ يَشْتَدُّ وَيَمْتَدُّ بِسُرْعَةٍ مُذْهِلَةٍ .

فَاسْتَدْعَىٰ الْخَلِيفَةُ لِضَيْفِهِ الْأَطِبَّاءَ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ ...

وَحَضَّهُمْ عَلَىٰ مُعَالَجَتِهِ بِأَيِّ وَسِيلَةٍ ...

لَكِنَّ الْأَطِبَّاءَ أَجْمَعُوا عَلَىٰ أَنَّهُ لَا مَنْدُوحَةَ[5] مِنْ بَتْرِ سَاقِ عُرْوَةَ قَبْلَ أَنْ يَسْرِيَ الْوَرَمُ إِلَىٰ جَسَدِهِ كُلِّهِ ، وَيَكُونَ سَبَبًا فِي الْقَضَاءِ عَلَيْهِ ...

فَلَمْ يَجِدْ بُدًّا مِنَ الْإِذْعَانِ لِذَلِكَ .

وَلَمَّا حَضَرَ الْجَرَّاحُ لِبَتْرِ السَّاقِ ، وَأَحْضَرَ مَعَهُ مَبَاضِعَهُ[6] لِشَقِّ اللَّحْمِ ، وَمَنَاشِيرَهُ لِنَشْرِ الْعَظْمِ ، قَالَ الطَّبِيبُ لِعُرْوَةَ :

أَرَىٰ أَنْ نُسْقِيَكَ جُرْعَةً مِنْ مُسْكِرٍ لِكَيْ لَا تَشْعُرَ بِآلَامِ الْبَتْرِ الْمُبَرِّحَةِ .

---

(١) الإصطبل : مربط الخيل ونحوها من الدواب .
(٢) الجياد الصافنات : الجياد التي تقف علىٰ ثلاث وترفع الرابعة ، وهي صفة من صفات الجياد الكريمة .
(٣) رمحته : رفسته .
(٤) الآكلة : داءٌ يصيب العضو فيأتكل منه .
(٥) لا مندوحة : لَا بُدَّ وَلَا مَفَرَّ .
(٦) المبضع : آلة يشق بها الطبيب الجلد .

فَقَالَ : هَيْهَاتَ[1]... لَا أَسْتَعِينُ بِحَرَامٍ عَلَىٰ مَا أَرْجُوهُ مِنَ الْعَافِيَةِ .

فَقَالَ لَهُ : إِذَنْ نَسْقِيكَ الْمُخَدِّرَ ، فَقَالَ :

مَا أُحِبُّ أَنْ أُسْلَبَ عُضْوًا مِنْ أَعْضَائِي دُونَ أَنْ أَشْعُرَ بِأَلَمِهِ ، وَأَحْتَسِبَ[2] ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ .

وَلَمَّا هَمَّ الْجَرَّاحُ بِقَطْعِ السَّاقِ ، تَقَدَّمَ نَحْوَ عُرْوَةَ طَائِفَةٌ مِنَ الرِّجَالِ فَقَالَ :

مَا هَؤُلَاءِ ؟! ... فَقِيلَ لَهُ :

لَقَدْ جِيءَ بِهِمْ لِيُمْسِكُوكَ ، فَلَرُبَّمَا اشْتَدَّ عَلَيْكَ الْأَلَمُ ؛ فَجَذَبْتَ قَدَمَكَ جَذْبَةً أَضَرَّتْ بِكَ .

فَقَالَ : رُدُّوهُمْ ...

لَا حَاجَةَ لِي بِهِمْ ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَكْفِيَكُمْ[3] ذَلِكَ بِالذِّكْرِ وَالتَّسْبِيحِ ...

ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِ الطَّبِيبُ ؛ فَقَطَعَ اللَّحْمَ بِالْمِبْضَعِ ... وَلَمَّا بَلَغَ الْعَظْمَ ، وَضَعَ عَلَيْهِ الْمِنْشَارَ وَطَفِقَ يَنْشُرُهُ بِهِ ، وَعُرْوَةُ يَقُولُ :

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ .

وَمَا فَتِئَ الْجَرَّاحُ يَنْشُرُ ، وَعُرْوَةُ يُهَلِّلُ وَيُكَبِّرُ حَتَّىٰ بُتِرَتِ السَّاقُ بَتْرًا .

ثُمَّ أُغْلِيَ[4] الزَّيْتُ فِي مَغَارِفِ الْحَدِيدِ ، وَغُمِسَتْ بِهِ سَاقُ عُرْوَةَ لِإِيقَافِ تَدَفُّقِ الدِّمَاءِ ، وَحَسْمِ الْجِرَاحِ ، فَأُغْمِيَ عَلَيْهِ إِغْمَاءَةً طَوِيلَةً حَالَتْ دُونَهُ وَدُونَ أَنْ يَقْرَأَ حِصَّتَهُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ ...

وَكَانَتِ الْمَرَّةَ الْوَحِيدَةَ الَّتِي فَاتَهُ فِيهَا ذَلِكَ الْخَيْرُ مُنْذُ صَدْرِ شَبَابِهِ .

---

(١) هيهات : اسم فعل بمعنى بَعُدَ ، [أي لا أفعل] .
(٢) احْتَسَبَ الشَّيءَ : نَوَىٰ به وَجْهَ اللَّهِ .
(٣) أكفيكم ذلك : أغنيكم عن ذلك .
(٤) أُغْلي الزيت : حُمي الزيت على النار .

وَلَمَّا صَحَا عُرْوَةُ ، دَعَا بِقَدَمِهِ الْمَبْتُورَةِ ، فَنَاوَلُوهُ إِيَّاهَا ...

فَجَعَلَ يُقَلِّبُهَا بِيَدِهِ وَهُوَ يَقُولُ : أَمَا وَالَّذِي حَمَلَنِي عَلَيْكِ فِي عَتَمَاتِ اللَّيْلِ إِلَىٰ الْمَسَاجِدِ ؛ إِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنَّنِي مَا مَشَيْتُ بِكِ إِلَىٰ حَرَامٍ قَطُّ ...

ثُمَّ تَمَثَّلَ بِأَبْيَاتٍ «لِمَعْنِ بْنِ أَوْسٍ»[1] يَقُولُ فِيهَا :

لَعَمْرُكَ مَا أَهْوَيْتُ كَفِّي لِرِيبَةٍ[2] وَلَا حَمَلَتْنِي نَحْوَ فَاحِشَةٍ رِجْلِي
وَلَا قَادَنِي سَمْعِي وَلَا بَصَرِي لَهَا وَلَا دَلَّنِي رَأْيِي عَلَيْهَا وَلَا عَقْلِي
وَأَعْلَمُ أَنِّي لَمْ تُصِبْنِي مُصِيبَةٌ مِنَ الدَّهْرِ إِلَّا قَدْ أَصَابَتْ فَتًى قَبْلِي

* * *

وَقَدْ شَقَّ عَلَىٰ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ مَا نَزَلَ بِضَيْفِهِ الْكَبِيرِ مِنَ النَّوَازِلِ ...

فَقَدِ احْتَسَبَ ابْنَهُ ، وَفَقَدَ سَاقَهُ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ ؛ فَجَعَلَ يَحْتَالُ لِتَعْزِيَتِهِ وَتَصْبِيرِهِ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُ .

وَصَادَفَ أَنْ نَزَلَ بِدَارِ الْخِلَافَةِ جَمَاعَةٌ مِنْ بَنِي «عَبْسٍ» فِيهِمْ رَجُلٌ ضَرِيرٌ ، فَسَأَلَهُ الْوَلِيدُ عَنْ سَبَبِ كَفِّ بَصَرِهِ ، فَقَالَ :

يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَمْ يَكُنْ فِي بَنِي «عَبْسٍ» رَجُلٌ أَوْفَرُ مِنِّي مَالًا ، وَلَا أَكْثَرُ أَهْلًا وَوَلَدًا .

فَنَزَلْتُ مَعَ مَالِي وَعِيَالِي فِي بَطْنِ وَادٍ مِنْ مَنَازِلِ قَوْمِي ، فَطَرَقَنَا سَيْلٌ لَمْ نَرَ مِثْلَهُ قَطُّ ...

فَذَهَبَ السَّيْلُ بِمَا كَانَ لِي مِنْ مَالٍ ، وَأَهْلٍ ، وَوَلَدٍ ...

وَلَمْ يَتْرُكْ لِي غَيْرَ بَعِيرٍ وَاحِدٍ ، وَطِفْلٍ صَغِيرٍ حَدِيثِ الْوِلَادَةِ .

(١) مَعْنُ بْنُ أَوْسٍ : شَاعِرٌ مُخَضْرَمٌ مِنْ بَنِي مُزَيْنَةَ . (٢) الرِّيبَةُ : الشَّكُّ وَالتُّهْمَةُ .

وَكَانَ الْبَعِيرُ صَعْبًا[1] فَنَدَّ[2] مِنِّي ...

فَتَرَكْتُ الصَّبِيَّ عَلَىٰ الْأَرْضِ وَلَحِقْتُ بِالْبَعِيرِ ...

فَلَمْ أُجَاوِزْ مَكَانِي قَلِيلًا حَتَّىٰ سَمِعْتُ صَيْحَةَ الطِّفْلِ ...

فَالْتَفَتُّ ... فَإِذَا رَأْسُهُ فِي فَمِ الذِّئْبِ وَهُوَ يَأْكُلُهُ ...

فَبَادَرْتُ إِلَيْهِ ، غَيْرَ أَنِّي لَمْ أَسْتَطِعْ إِنْقَاذَهُ إِذْ كَانَ قَدْ أَتَىٰ عَلَيْهِ ...

فَلَحِقْتُ بِالْبَعِيرِ فَلَمَّا دَنَوْتُ مِنْهُ ؛ رَمَانِي بِرِجْلِهِ عَلَىٰ وَجْهِي رَمْيَةً حَطَّمَتْ جَبِينِي ، وَذَهَبَتْ بِبَصَرِي ...

وَهَكَذَا وَجَدْتُ نَفْسِي قَدْ غَدَوْتُ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ غَيْرِ أَهْلٍ ، وَلَا وَلَدٍ ، وَلَا مَالٍ ، وَلَا بَصَرٍ ... فَقَالَ الْوَلِيدُ لِحَاجِبِهِ :

انْطَلِقْ بِهَٰذَا الرَّجُلِ إِلَىٰ ضَيْفِنَا عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ ، وَلْيَقُصَّ عَلَيْهِ قِصَّتَهُ ؛ لِيَعْلَمَ أَنَّ فِي النَّاسِ مَنْ هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ بَلَاءً .

* * *

وَلَمَّا حُمِلَ عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ وَأُدْخِلَ عَلَىٰ أَهْلِهِ ، بَادَرَهُمْ قَائِلًا :

لَا يَهُولَنَّكُمْ مَا تَرَوْنَ ... فَلَقَدْ وَهَبَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَرْبَعَةً مِنَ الْبَنِينَ ، ثُمَّ أَخَذَ مِنْهُمْ وَاحِدًا وَأَبْقَىٰ لِي ثَلَاثَةً ...

فَلَهُ الْحَمْدُ .

وَأَعْطَانِي أَرْبَعَةً مِنَ الْأَطْرَافِ ، ثُمَّ أَخَذَ مِنْهَا وَاحِدًا وَأَبْقَىٰ لِي ثَلَاثَةً ...

فَلَهُ الْحَمْدُ ...

وَأَيْمُ[3] اللَّهِ ، لَئِنْ أَخَذَ اللَّهُ مِنِّي قَلِيلًا ، فَلَقَدْ أَبْقَىٰ لِي كَثِيرًا ...

---

(١) الْبَعِيرُ الصَّعْبُ : الجمل العَسِير.   (٢) نَدَّ : شَرَدَ .   (٣) أيم الله : أحلف بالله .

وَلَئِنِ ابْتَلَانِي مَرَّةً ، فَلَطَالَمَا عَافَانِي مَرَّاتٍ ...

* * *

وَلَمَّا عَرَفَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ بِوُصُولِ إِمَامِهِمْ وَعَالِمِهِمْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ تَسَايَلُوا[١] عَلَىٰ بَيْتِهِ لِيُوَاسُوا وَيُعَزُّوا ...

فَكَانَ مِنْ أَحْسَنِ مَا عُزِّيَ بِهِ كَلِمَةُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ طَلْحَةَ ، حَيْثُ قَالَ لَهُ :

أَبْشِرْ - يَا أَبَا عَبْدِ اللّٰهِ - فَقَدْ سَبَقَكَ عُضْوٌ مِنْ أَعْضَائِكَ ، وَوَلَدٌ مِنْ أَبْنَائِكَ إِلَىٰ الْجَنَّةِ ...

وَالْكُلُّ يَتْبَعُ الْبَعْضَ إِنْ شَاءَ اللّٰهُ تَعَالَىٰ ...

وَلَقَدْ أَبْقَىٰ اللّٰهُ لَنَا مِنْكَ مَا نَحْنُ إِلَيْهِ فُقَرَاءُ وَعَنْهُ غَيْرُ أَغْنِيَاءَ مِنْ عِلْمِكَ ، وَفِقْهِكَ ، وَرَأْيِكَ ... نَفَعَكَ اللّٰهُ وَإِيَّانَا بِهِ ...

وَاللّٰهُ وَلِيُّ ثَوَابِكَ ، وَالضَّمِينُ بِحُسْنِ حِسَابِكَ .

* * *

ظَلَّ عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ لِلْمُسْلِمِينَ مَنَارَةَ هُدًى ، وَدَلِيلَ فَلَاحٍ ، وَدَاعِيَةَ خَيْرٍ طَوَالَ حَيَاتِهِ ...

وَلَقَدِ اهْتَمَّ أَكْثَرَ مَا اهْتَمَّ بِتَرْبِيَةِ أَوْلَادِهِ خَاصَّةً ، وَسَائِرِ أَبْنَاءِ الْمُسْلِمِينَ عَامَّةً ؛ فَلَمْ يَتْرُكْ فُرْصَةً لِتَوْجِيهِهِمْ إِلَّا اغْتَنَمَهَا ، وَلَمْ يَدَعْ سَانِحَةً[٢] لِنُصْحِهِمْ إِلَّا أَفَادَ مِنْهَا .

مِنْ ذَٰلِكَ أَنَّهُ دَأَبَ عَلَىٰ حَضِّ[٣] بَنِيهِ عَلَىٰ طَلَبِ الْعِلْمِ ، إِذْ كَانَ يَقُولُ لَهُمْ :

---

(١) تسايلوا علَى بيته : تواردوا عليه من كل جهة .
(٢) لم يدع سانحة : لم يترك فرصة .
(٣) حض بنيه : حثَّ أولاده .

يَا بَنِيَّ تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ ، وَابْذُلُوا لَهُ حَقَّهُ ...

فَإِنَّكُمْ إِنْ تَكُونُوا صِغَارَ قَوْمٍ ؛ فَعَسَىٰ أَنْ يَجْعَلَكُمُ اللَّهُ بِالْعِلْمِ كُبَرَاءَهُمْ .

ثُمَّ يَقُولُ : وَاسَوْأَتَاهُ[1]، هَلْ فِي الدُّنْيَا شَيْءٌ أَقْبَحُ مِنْ شَيْخٍ جَاهِلٍ ؟!! .

* * *

وَكَانَ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَدِّ الصَّدَقَةِ هَدِيَّةً تُهْدَىٰ لِلَّهِ جَلَّ وَعَزَّ ، فَيَقُولُ :

يَا بَنِيَّ ، لَا يُهْدِيَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَا يَسْتَحِي أَنْ يُهْدِيَهُ إِلَىٰ عَزِيزِ قَوْمِهِ ...

فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ أَعَزُّ الأَعِزَّاءِ ، وَأَكْرَمُ الْكُرَمَاءِ ، وَأَحَقُّ مَنْ يُخْتَارُ لَهُ .

* * *

وَكَانَ يُبَصِّرُهُمْ بِالنَّاسِ ، وَيَنْفُذُ بِهِمْ إِلَىٰ جَوْهَرِهِمْ فَيَقُولُ :

يَا بَنِيَّ إِذَا رَأَيْتُمْ مِنْ رَجُلٍ فَعْلَةَ خَيْرٍ رَائِعَةً فَأَمِّلُوا بِهِ خَيْرًا ، وَلَوْ كَانَ فِي نَظَرِ النَّاسِ رَجُلَ سُوءٍ ؛ فَإِنَّ لَهَا عِنْدَهُ أَخَوَاتٍ ...

وَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْ رَجُلٍ فَعْلَةَ شَرٍّ فَظِيعَةً فَاحْذَرُوهُ ، وَإِنْ كَانَ فِي نَظَرِ النَّاسِ رَجُلَ خَيْرٍ ؛ فَإِنَّ لَهَا عِنْدَهُ أَخَوَاتٍ أَيْضًا .

وَاعْلَمُوا أَنَّ الْحَسَنَةَ تَدُلُّ عَلَىٰ أَخَوَاتِهَا ...

وَأَنَّ السَّيِّئَةَ تَدُلُّ عَلَىٰ أَخَوَاتِهَا أَيْضًا .

* * *

وَكَانَ يُوصِيهِمْ بِلِينِ[2] الْجَانِبِ ، وَطِيبِ الْكَلَامِ ، وَبِشْرِ[3] الْوَجْهِ فَيَقُولُ :

يَا بَنِيَّ ، مَكْتُوبٌ فِي الْحِكْمَةِ ، « لِتَكُنْ كَلِمَتُكَ طَيِّبَةً ، وَلْيَكُنْ وَجْهُكَ

(١) واسوأتاه : أسلوب يستعمل لإستقباح الأمر.
(٢) لين الجانب : سهولة المعاشرة.
(٣) بشر الوجه : طلاقة الوجه ، وبشاشته .

طَلْقًا ، تَكُنْ أَحَبَّ إِلَىٰ النَّاسِ مِمَّنْ يَبْذُلُ لَهُمُ الْعَطَاءَ » .

* * *

وَكَانَ إِذَا رَأَىٰ النَّاسَ يَجْنَحُونَ[1] إِلَىٰ التَّرَفِ ، وَيَسْتَمْرِئُونَ[2] النَّعِيمَ يُذَكِّرُهُمْ بِمَا كَانَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ شَظَفِ الْعَيْشِ ، وَخُشُونَةِ الْحَيَاةِ .

مِنْ ذَلِكَ مَا حَكَاهُ مُحَمَّدُ بْنُ الْمُنْكَدِرِ[3] قَالَ :

لَقِيَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ فَأَخَذَ بِيَدِي وَقَالَ : يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ .

فَقُلْتُ : لَبَّيْكَ .

فَقَالَ : دَخَلْتُ عَلَىٰ أُمِّي عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَقَالَتْ :

يَا بُنَيَّ ...

فَقُلْتُ : لَبَّيْكِ .

فَقَالَتْ : وَاللَّهِ إِنْ كُنَّا[4] لَنَمْكُثُ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً مَا نُوقِدُ فِي بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِنَارٍ مِصْبَاحًا وَلَا غَيْرَهُ .

فَقُلْتُ : يَا أُمَّهْ ، فِيمَ كُنْتُمْ تَعِيشُونَ ؟! .

فَقَالَتْ : بِالْأَسْوَدَيْنِ ... التَّمْرِ وَالْمَاءِ .

* * *

وَبَعْدُ ... فَقَدْ عَاشَ عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ وَاحِدًا وَسَبْعِينَ عَامًا مُتْرَعَةً[5] بِالْخَيْرِ ، حَافِلَةً بِالْبِرِّ ، مُكَلَّلَةً بِالتُّقَىٰ .

فَلَمَّا جَاءَهُ الْأَجَلُ الْمَحْتُومُ أَدْرَكَهُ وَهُوَ صَائِمٌ ...

---

(١) يجنحون : يميلون .

(٢) يستمرئون النعيم : يستطيبون النعيم .

(٣) مُحَمَّد بْن الْمُنْكَدِر : تابعي من أهل المدينة تُوفي سنة ١٣٠هـ .

(٤) إنْ كنّا : لقد كنّا.

(٥) مترعة : مملوءة .

وَلَقَدْ أَلَحَّ عَلَيْهِ أَهْلُهُ أَنْ يُفْطِرَ فَأَبَىٰ ...

لَقَدْ أَبَىٰ ، لِأَنَّهُ كَانَ يَرْجُو أَنْ يَكُونَ فِطْرُهُ عَلَىٰ شُرْبَةٍ مِنْ نَهْرِ الْكَوْثَرِ(١) ...

فِي قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ ...

بِأَيْدِي الْحُورِ الْعِينِ (*) ...

(١) نَهْرُ الْكَوْثَرِ : نَهْرٌ فِي الْجَنَّةِ .

(*) للاستزادة من أخبار عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ انظر :

١ - الطَّبقاتِ الكُبرىٰ لِابن سعد: ١/٤٠٦ و٢/ ٣٨٢، ٣٨٧ و٣/١٠٠ و٤/١٦٧ و٥/٣٣٤ و٨/ ١٠٢.

٢ - حلية الأولياء لأبي نعيم: ٢/ ١٧٦.

٣ - صفة الصَّفوة لابن الجوزي: ٢/ ٨٧.

٤ - وفيات الأعيان لابن خلكان: ٣/ ٢٥٥.

٥ - أنساب الأشراف للبلاذري: «انظر الفهارس».

٦ - جمهرة أنساب العرب لابن حزم: «انظر الفهارس».

الرَّبِيعُ بْنُ خُثَيْمٍ

«يَا أَبَا يَزِيدَ، لَوْ رَآكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَأَحَبَّكَ»

[عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ]

قَالَ هِلَالُ[1] بْنُ إِسَافٍ لِضَيْفِهِ مُنْذِرٍ[2] الثَّوْرِيِّ:

أَلَا أَمْضِي بِكَ يَا مُنْذِرُ إِلَى الشَّيْخِ لَعَلَّنَا نُؤْمِنُ سَاعَةً[3]؟!.

فَقَالَ مُنْذِرٌ: بَلَىٰ ...

فَوَاللَّهِ مَا أَقْدَمَنِي «الْكُوفَةَ» إِلَّا الرَّغْبَةُ فِي لِقَاءِ شَيْخِكَ الرَّبِيعِ بْنِ خُثَيْمٍ، وَالْحَنِينُ لِلْعَيْشِ سَاعَةً فِي رِحَابِ إِيمَانِهِ.

وَلَكِنْ هَلِ اسْتَأْذَنْتَ لَنَا عَلَيْهِ؟...

فَقَدْ قِيلَ لِي: إِنَّهُ مُنْذُ أُصِيبَ بِالْفَالِجِ[4] لَزِمَ بَيْتَهُ، وَانْصَرَفَ إِلَىٰ رَبِّهِ ... وَعَزَفَ[5] عَنْ لِقَاءِ النَّاسِ.

فَقَالَ هِلَالٌ: إِنَّهُ لَكَذَلِكَ مُنْذُ عَرَفَتْهُ «الْكُوفَةُ»، وَإِنَّ الْمَرَضَ لَمْ يُغَيِّرْ مِنْهُ شَيْئًا.

فَقَالَ مُنْذِرٌ: لَا بَأْسَ ...

وَلَكِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّ لِهَؤُلَاءِ الْأَشْيَاخِ[6] أَمْزِجَةً[7] رَقِيقَةً؛ فَهَلْ تَرَىٰ أَنْ نُبَادِرَ الشَّيْخَ فَنَسْأَلَهُ عَمَّا نُرِيدُ؟...

---

(١) هِلَال بْن إِسَاف: هو هلال بن يساف «بالياء» أو هلال بن إساف «بالهمزة» الأشجعي، أحد ثقات التابعين ومتقدميهم.

(٢) مُنْذِر الثَّوْرِيّ: هو المنذر بن يَعْلَى الثوري أحد متأخري التابعين.

(٣) لعلنا نؤمن ساعة: لعلنا نتعظ فلا نشغل أنفسنا إلا بالإيمان.

(٤) الفالج: مرض، هو ما يُعرف الآن بالشلل النصفي.

(٥) عزف عن لقاء الناس: زهد في لقاء الناس وملَّ منه.

(٦) الأشياخ: جمعٌ مفرده شيخ.

(٧) أمزجة: طبائع وأحوال.

أَمْ نَلْتَزِمُ الصَّمْتَ فَنَسْمَعَ مِنْهُ مَا يُرِيدُ ؟ ...

فَقَالَ هِلَالٌ : لَوْ جَلَسْتَ مَعَ الرَّبِيعِ بْنِ خُثَيْمٍ عَامًا بِأَكْمَلِهِ ، فَإِنَّهُ لَا يُكَلِّمُكَ إِذَا لَمْ تُكَلِّمْهُ ...

وَلَا يُبَادِرُكَ إِذَا لَمْ تَسْأَلْهُ ...

فَهُوَ قَدْ جَعَلَ كَلَامَهُ ذِكْرًا ، وَصَمْتَهُ فِكْرًا .

فَقَالَ مُنْذِرٌ : فَلْنَمْضِ إِلَيْهِ إِذًا عَلَىٰ بَرَكَةِ اللَّهِ .

ثُمَّ مَضَيَا إِلَىٰ الشَّيْخِ ... فَلَمَّا صَارَا عِنْدَهُ سَلَّمَا وَقَالَا :

كَيْفَ أَصْبَحَ الشَّيْخُ ؟ .

فَقَالَ : أَصْبَحَ ضَعِيفًا مُذْنِبًا ، يَأْكُلُ رِزْقَهُ ...

وَيَنْتَظِرُ أَجَلَهُ .

فَقَالَ لَهُ هِلَالٌ :

لَقَدْ أَمَّ[1] « الْكُوفَةَ » طَبِيبٌ حَاذِقٌ ، أَفَتَأْذَنُ بِأَنْ أَدْعُوَهُ لَكَ ؟ .

فَقَالَ : يَا هِلَالُ إِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّ الدَّوَاءَ حَقٌّ ...

وَلَكِنِّي تَأَمَّلْتُ عَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ[2] وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ...

وَنَظَرْتُ فِي حِرْصِهِمْ عَلَىٰ الدُّنْيَا ، وَرَغْبَتِهِمْ فِي مَتَاعِهَا ...

وَقَدْ كَانُوا أَشَدَّ مِنَّا بَأْسًا[3]، وَأَعْظَمَ قُدْرَةً ...

وَقَدْ كَانَ فِيهِمْ أَطِبَّاءُ ...

---

(١) أَمَّ الْكُوفَةَ : جاءَ الْكُوفَةَ .

(٢) عَاد ، وَثَمُود ، وَأَصْحَاب الرَّسّ : من الأمم الخالية الّتي كان لها شأن .

(٣) بأسًا : قُوَّة .

وَفِيهِمْ مَرْضَىٰ ...

فَلَا الْمُدَاوِي بَقِيَ وَلَا الْمُدَاوَىٰ !! .

ثُمَّ تَنَهَّدَ الرَّبِيعُ تَنَهُّدًا عَمِيقًا وَقَالَ :

وَلَوْ كَانَ هَٰذَا هُوَ الدَّاءَ لَتَدَاوَيْنَا مِنْهُ .

فَاسْتَأْذَنَ مُنْذِرٌ وَقَالَ :

فَمَا الدَّاءُ إِذًا يَا سَيِّدِي الشَّيْخُ ؟! .

فَقَالَ : الدَّاءُ الذُّنُوبُ ...

فَقَالَ مُنْذِرٌ : وَمَا الدَّوَاءُ ؟! .

فَقَالَ : الدَّوَاءُ الِاسْتِغْفَارُ .

فَقَالَ مُنْذِرٌ : وَكَيْفَ يَكُونُ الشِّفَاءُ ؟ .

فَقَالَ : بِأَنْ تَتُوبَ ثُمَّ لَا تَعُودَ ...

ثُمَّ حَدَّقَ فِينَا وَقَالَ : السَّرَائِرَ ... السَّرَائِرَ ...

عَلَيْكُمْ بِالسَّرَائِرِ اللَّاتِي تَخْفَىٰ عَلَىٰ النَّاسِ ؛ وَهُنَّ عَلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ بَوَادٍ[1] ...

الْتَمِسُوا دَوَاءَهُنَّ .

فَقَالَ مُنْذِرٌ : وَمَا دَوَاؤُهُنَّ ؟ .

فَقَالَ الشَّيْخُ : التَّوْبَةُ النَّصُوحُ[2] ...

---

(١) بوادٍ : ظاهرة .

(٢) التوبة النَّصوح : التوبة الصادقة المقترنة بالعزم على عدم العودة .

ثُمَّ بَكَىٰ حَتَّىٰ بَلَّلَتْ دُمُوعُهُ لِحْيَتَهُ .

فَقَالَ لَهُ مُنْذِرٌ : أَتَبْكِي وَأَنْتَ أَنْتَ[١]؟! .

فَقَالَ : هَيْهَاتَ[٢]...

لِمَ لَا أَبْكِي ؟! ... وَقَدْ أَدْرَكْتُ قَوْمًا نَحْنُ فِي جَنْبِهِمْ[٣] لُصُوصٌ [يُرِيدُ الصَّحَابَةَ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ] .

قَالَ هِلَالٌ :

وَفِيمَا نَحْنُ كَذَلِكَ إِذْ دَخَلَ عَلَيْنَا ابْنُ الشَّيْخِ ، فَحَيَّا وَقَالَ :

يَا أَبَتِ إِنَّ أُمِّي قَدْ صَنَعَتْ لَكَ خَبِيصًا[٤] وَجَوَّدَتْهُ ...

وَإِنَّهُ لَيَجْبُرُ قَلْبَهَا أَنْ تَأْكُلَ مِنْهُ ، فَهَلْ آتِيكَ بِهِ ؟ .

فَقَالَ : هَاتِهِ .

فَلَمَّا خَرَجَ لِيُحْضِرَهُ ... طَرَقَ الْبَابَ سَائِلٌ ، فَقَالَ : أَدْخِلُوهُ .

فَلَمَّا صَارَ فِي صَحْنِ[٥] الدَّارِ نَظَرْتُ إِلَيْهِ ؛ فَإِذَا هُوَ رَجُلٌ كَهْلٌ مُمَزَّقُ الثِّيَابِ قَدْ سَالَ لُعَابُهُ عَلَىٰ ذَقَنِهِ ، وَبَدَا مِنْ مَلَامِحِ وَجْهِهِ أَنَّهُ مَعْتُوهٌ .

فَمَا كِدْتُ أَرْفَعُ بَصَرِي عَنْهُ حَتَّىٰ أَقْبَلَ ابْنُ الشَّيْخِ بِصَحْفَةِ[٦] الْخَبِيصِ ؛ فَأَشَارَ إِلَيْهِ أَبُوهُ : أَنْ ضَعْهَا بَيْنَ يَدَيِ السَّائِلِ .

فَوَضَعَهَا بَيْنَ يَدَيْهِ ... فَأَقْبَلَ عَلَيْهَا الرَّجُلُ ، وَجَعَلَ يَلْتَهِمُ مَا فِيهَا الْتِهَامًا ...

---

(١) وأنت أنت : إشارة إِلَىٰ مَا عُرِف من صلاحه وعبادته وزهادته .
(٢) هيهات : اسم فعل معناه لقد أبعدْتَ .
(٣) نحن في جنبهم : نحن بالنسبة إليهم .
(٤) الخبيص : لون من الحَلْوَىٰ .
(٥) صحن الدّار : بَاحتها .
(٦) الصَّحْفَة : وعاء منبسط يشبع الخمسة ، وجمعه صِحاف .

وَلُعَابُهُ يَسِيلُ فَوْقَهَا ...

فَمَا زَالَ يَأْكُلُ حَتَّىٰ أَتَىٰ عَلَىٰ مَا فِي الصَّحْفَةِ كُلِّهِ .

فَقَالَ لَهُ ابْنُهُ :

رَحِمَكَ اللَّهُ يَا أَبَتِ ، لَقَدْ تَكَلَّفَتْ أُمِّي وَصَنَعَتْ لَكَ هَٰذَا الْخَبِيصَ ...

وَكُنَّا نَشْتَهِي أَنْ تَأْكُلَ مِنْهُ ...

فَأَطْعَمْتَهُ لِهَٰذَا الرَّجُلِ الَّذِي لَا يَدْرِي مَاذَا أَكَلَ .

فَقَالَ : يَا بُنَيَّ ...

إِذَا كَانَ هُوَ لَا يَدْرِي ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يَدْرِي ... ثُمَّ تَلَا قَوْلَهُ جَلَّ وَعَزَّ :

﴿ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾[1].

وَفِيمَا هُوَ كَذَلِكَ ؛ إِذْ دَخَلَ عَلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ ذَوِي قُرْبَاهُ وَقَالَ :

يَا أَبَا يَزِيدَ ، قُتِلَ الْحُسَيْنُ[2] بْنُ فَاطِمَةَ[3] عَلَيْهِ وَعَلَىٰ أُمِّهِ السَّلَامُ .

فَقَالَ : إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ...

ثُمَّ تَلَا قَوْلَهُ تَعَالَىٰ :

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ[4] السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ

(١) سورة آل عِمران : آية ٩٢.

(٢) هو الْحسين بن عَليّ بن أبي طالب سبط الرّسُول صلوات اللّه عَلَيْهِ ، قتله جنود بني أُمَيَّة وهو في طريقه إِلَىٰ الْكوفة .

(٣) فاطمة الزّهراء : ابنة الرّسول ﷺ ، وزوج عَليّ بن أبي طالب ... انظرها في كتاب «صور من حياة الصّحابيات» ، للمؤلف .

(٤) فاطر السّموات والأرض : مُبدع السّموات والأرض .

تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾[١].

لَكِنَّ الرَّجُلَ لَمْ يَشْفِهِ كَلَامُهُ، فَقَالَ لَهُ:

مَا تَقُولُ فِي قَتْلِهِ؟.

فَقَالَ: أَقُولُ إِلَىٰ اللَّهِ إِيَابُهُمْ، وَعَلَىٰ اللَّهِ حِسَابُهُمْ.

قَالَ هِلَالٌ:

ثُمَّ إِنِّي رَأَيْتُ وَقْتَ الظُّهْرِ قَدِ اقْتَرَبَ، فَقُلْتُ لِلشَّيْخِ: أَوْصِنِي.

فَقَالَ: لَا يَغُرَّنَّكَ - يَا هِلَالُ - كَثْرَةُ ثَنَاءِ النَّاسِ عَلَيْكَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَا يَعْلَمُونَ مِنْكَ إِلَّا ظَاهِرَكَ...

وَاعْلَمْ أَنَّكَ صَائِرٌ إِلَىٰ عَمَلِكَ...

وَأَنَّ كُلَّ عَمَلٍ لَا يُبْتَغَىٰ بِهِ وَجْهُ اللَّهِ يَضْمَحِلُّ[٢].

فَقَالَ لَهُ مُنْذِرٌ: وَأَوْصِنِي أَنَا أَيْضًا جُزِيتَ خَيْرًا.

فَقَالَ: يَا مُنْذِرُ، اتَّقِ اللَّهَ فِيمَا عَلِمْتَ... وَمَا اسْتُؤْثِرَ[٣] عَلَيْكَ بِعِلْمِهِ؛ فَكِلْهُ إِلَىٰ عَالِمِهِ...

يَا مُنْذِرُ، لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَتُوبُ إِلَيْكَ، ثُمَّ لَا يَتُوبُ، فَتَكُونَ كِذْبَةً...

وَلَكِنْ لِيَقُلْ: اللَّهُمَّ تُبْ عَلَيَّ، فَيَكُونُ دُعَاءً.

وَاعْلَمْ يَا مُنْذِرُ أَنَّهُ لَا خَيْرَ فِي كَلَامٍ إِلَّا فِي تَهْلِيلِ اللَّهِ[٤]...

(١) سورة الزُّمَر: آية ٤٦.
(٢) يضمحل: يتلاشىٰ.
(٣) ما استُؤْثِر عليك بعلمه: ما أُخفِيَ عنك عِلْمُه.
(٤) تهليل الله: قول لا إله إلا الله.

وَتَحْمِيدِ اللَّهِ ...

وَتَكْبِيرِ اللَّهِ ...

وَتَسْبِيحِ اللَّهِ ...

وَسُؤَالِكَ مِنَ الْخَيْرِ ...

وَتَعَوُّذِكَ مِنَ الشَّرِّ ...

وَأَمْرِكَ بِالْمَعْرُوفِ ...

وَنَهْيِكَ عَنِ الْمُنْكَرِ ...

وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ ...

فَقَالَ لَهُ مُنْذِرٌ: لَقَدْ جَالَسْنَاكَ فَمَا سَمِعْنَاكَ تَتَمَثَّلُ بِالشِّعْرِ، وَقَدْ رَأَيْنَا بَعْضَ أَصْحَابِكَ يَتَمَثَّلُونَ بِهِ.

فَقَالَ: مَا مِنْ شَيْءٍ تَقُولُهُ هُنَا إِلَّا كُتِبَ وَقُرِئَ عَلَيْكَ هُنَاكَ(١)...

وَأَنَا أَكْرَهُ أَنْ أَجِدَ فِي كِتَابِي بَيْتَ شِعْرٍ يُقْرَأُ عَلَيَّ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ.

ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيْنَا جَمِيعًا وَقَالَ:

أَكْثِرُوا مِنْ ذِكْرِ الْمَوْتِ؛ فَهُوَ غَائِبُكُمُ الْمُرْتَقَبُ ...

وَإِنَّ الْغَائِبَ إِذَا طَالَتْ غَيْبَتُهُ أَوْشَكَتْ(٢) أَوْبَتُهُ، وَتَرَقُّبَهُ ذَوُوهُ.

ثُمَّ اسْتَعْبَرَ(٣) وَقَالَ:

(١) هنا: إشارة إلى الدُّنيا، وهناك: إشارة إلى الآخرة.
(٢) أوشكت أوبته: قربت عودته.
(٣) استعبر: بكى وسالت عبراته.

مَاذَا نَصْنَعُ غَدًا ﴿ إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا[1]...

وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا...

وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ﴾[2]؟!.

قَالَ هِلَالٌ:

وَمَا كَادَ الرَّبِيعُ يَنْتَهِي مِنْ كَلَامِهِ حَتَّىٰ أُذِّنَ لِلظُّهْرِ، فَأَقْبَلَ عَلَىٰ ابْنِهِ وَقَالَ: هَيَّا نُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ...

فَقَالَ لَنَا ابْنُهُ:

أَعِينُونِي عَلَىٰ حَمْلِهِ إِلَىٰ الْمَسْجِدِ جُزِيتُمْ خَيْرًا.

فَرَفَعْنَاهُ، فَوَضَعَ يُمْنَاهُ عَلَىٰ كَتِفِ ابْنِهِ وَيُسْرَاهُ عَلَىٰ كَتِفِي، وَجَعَلَ يَتَهَادَىٰ[3] بَيْنَنَا، وَرِجْلَاهُ تَخُطَّانِ عَلَىٰ الْأَرْضِ خَطًّا.

فَقَالَ لَهُ مُنْذِرٌ: يَا أَبَا يَزِيدَ، لَقَدْ رَخَّصَ اللَّهُ لَكَ فَلَوْ صَلَّيْتَ فِي بَيْتِكَ!!.

فَقَالَ: إِنَّهُ كَمَا تَقُولُ...

وَلَكِنِّي سَمِعْتُ الْمُنَادِيَ يُنَادِي: حَيَّ عَلَىٰ الْفَلَاحِ[4]...

حَيَّ عَلَىٰ الْفَلَاحِ...

فَمَنْ سَمِعَ مِنْكُمُ الْمُنَادِيَ يَدْعُوهُ إِلَىٰ الْفَلَاحِ؛ فَلْيُجِبْهُ وَلَوْ حَبْوًا[5].

* * *

وَبَعْدُ... فَمَنِ الرَّبِيعُ بْنُ خُثَيْمٍ هَٰذَا؟!.

---

(١) دُكَّت الأرض دكًّا: زلزلت الأرض وانهدم كل بناءٍ عليها.
(٢) سورة الفجر: من الآية ٢١ - ٢٣.
(٣) يتهادَىٰ: يقَالُ جاء فلان يتهادَىٰ بين اثنين أي مَشَىٰ وهو يعتمد عليهما في مَشْيه.
(٤) حَيَّ علَىٰ الفلاح: أَقْبلوا علَىٰ الفَوْزِ وَالنّجاة.
(٥) حبوًا: زحفًا علىٰ اليدين والبطن.

إِنَّهُ عَلَمٌ مِنْ أَعْلَامِ التَّابِعِينَ ...

وَأَحَدُ الثَّمَانِيَةِ الَّذِينَ انْتَهَىٰ إِلَيْهِمُ الزُّهْدُ فِي عَصْرِهِمْ.

عَرَبِيُّ الْأَصْلِ ...

مُضَرِيُّ الْأَرُومَةِ[1] ...

يَلْتَقِي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ فِي جَدَّيْهِ إِلْيَاسَ وَمُضَرَ.

نَشَأَ مُنْذُ نُعُومَةِ أَظْفَارِهِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ ...

وَفَطَمَ نَفْسَهُ مُنْذُ حَدَاثَتِهَا عَلَىٰ تَقْوَاهُ ...

كَانَتْ أُمُّهُ تَنَامُ فِي اللَّيْلِ ثُمَّ تَصْحُو، فَتَجِدُ ابْنَهَا الْيَافِعَ[2] مَا زَالَ صَافًّا فِي مِحْرَابِهِ ...

سَابِحًا فِي مُنَاجَاتِهِ ...

مُسْتَغْرِقًا فِي صَلَاتِهِ ...

فَتُنَادِيهِ وَتَقُولُ:

يَا بُنَيَّ - يَا رَبِيعُ - أَلَا تَنَامُ!؟.

فَيَقُولُ: كَيْفَ يَسْتَطِيعُ النَّوْمَ مَنْ جَنَّ[3] عَلَيْهِ اللَّيْلُ، وَهُوَ يَخْشَىٰ الْبَيَاتَ[4]؟!.

فَتَتَحَدَّرُ الدُّمُوعُ عَلَىٰ خَدَّيِ الشَّيْخَةِ الْعَجُوزِ وَتَدْعُو لَهُ بِالْخَيْرِ.

وَلَمَّا شَبَّ الرَّبِيعُ وَنَمَا؛ شَبَّ مَعَهُ وَرَعُهُ وَنَمَتْ بِنُمُوِّهِ خَشْيَتُهُ مِنَ اللَّهِ ...

---

(١) الأرومة: الأصل، ومضري الأرومة: أي إنَّ أصله ينتهي إلىٰ مضر أحد أجداد رسول الله ﷺ.

(٢) اليافع: من قارب البلوغ.

(٣) جنَّ عليه الليل: غشَّاه الليل وأظلم عليه.

(٤) البيات: هجوم الخصوم.

وَلَقَدْ أَرَّقَ أُمَّهُ كَثْرَةُ تَضَرُّعِهِ، وَشِدَّةُ نَحِيبِهِ فِي عَتَمَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ حَتَّىٰ ظَنَّتْ بِهِ الظُّنُونَ...

فَصَارَتْ تُنَادِيهِ قَائِلَةً:

مَا الَّذِي أَصَابَكَ يَا بُنَيَّ؟!...

لَعَلَّكَ أَتَيْتَ جُرْمًا...

لَعَلَّكَ قَتَلْتَ نَفْسًا.

فَقَالَ: نَعَمْ يَا أُمَّهْ، لَقَدْ قَتَلْتُ نَفْسًا.

فَقَالَتْ فِي لَهْفَةٍ: وَمَنْ هَٰذَا الْقَتِيلُ - يَا بُنَيَّ - حَتَّىٰ نَجْعَلَ النَّاسَ يَسْعَوْنَ إِلَىٰ أَهْلِهِ لَعَلَّهُمْ يَعْفُونَ عَنْكَ؟...

وَاللَّهِ لَوْ عَلِمَ أَهْلُ الْقَتِيلِ مَا تُعَانِي مِنَ الْبُكَاءِ، وَمَا تُكَابِدُ مِنَ السَّهَرِ لَرَحِمُوكَ.

فَقَالَ: لَا تُكَلِّمِي أَحَدًا...

فَإِنَّمَا قَتَلْتُ نَفْسِي...

لَقَدْ قَتَلْتُهَا بِالذُّنُوبِ...

* * *

وَلَقَدْ تَتَلْمَذَ الرَّبِيعُ بْنُ خُثَيْمٍ عَلَىٰ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ(١) صَاحِبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَقْرَبِ الصَّحَابَةِ هَدْيًا وَسَمْتًا(٢) مِنَ النَّبِيِّ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ.

وَقَدْ تَعَلَّقَ الرَّبِيعُ بِأُسْتَاذِهِ تَعَلُّقَ الْوَلِيدِ بِأُمِّهِ...

وَأَحَبَّ الْأُسْتَاذُ تِلْمِيذَهُ حُبَّ الْأَبِ لِوَحِيدِهِ.

---

(١) انظره في كتاب «صور من حياة الصحابة» للمؤلف، الناشر دار الأدب الإسلامي، الطبعة الشرعية.
(٢) سمتًا: هيئة.

فَكَانَ الرَّبِيعُ يَدْخُلُ عَلَىٰ ابْنِ مَسْعُودٍ مِنْ غَيْرِ إِذْنٍ ، فَإِذَا صَارَ عِنْدَهُ لَمْ يُؤْذَنْ لِأَحَدٍ بِالدُّخُولِ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَخْرُجَ الرَّبِيعُ .

وَكَانَ ابْنُ مَسْعُودٍ يَرَىٰ مِنْ صَفَاءِ نَفْسِ الرَّبِيعِ ، وَإِخْلَاصِ قَلْبِهِ ، وَإِحْسَانِ عِبَادَتِهِ مَا يَمْلَأُ فُؤَادَهُ أَسًى عَلَىٰ تَأَخُّرِ زَمَانِهِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، وَحِرْمَانِهِ مِنْ صُحْبَتِهِ ...

وَكَانَ يَقُولُ لَهُ :

يَا أَبَا يَزِيدَ ، لَوْ رَآكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَأَحَبَّكَ .

كَمَا كَانَ يَقُولُ لَهُ :

مَا رَأَيْتُكَ مَرَّةً إِلَّا ذَكَرْتُ الْمُخْبِتِينَ[1]...

* * *

وَلَمْ يَكُنْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ مُغَالِيًا فِي ذَٰلِكَ .

فَقَدْ بَلَغَ الرَّبِيعُ بْنُ خُثَيْمٍ مِنَ الْخَشْيَةِ ، وَالْوَرَعِ ، وَالتَّقْوَىٰ مَبْلَغًا قَلَّمَا سَمَا إِلَيْهِ أَحَدٌ مِنْ طَبَقَتِهِ .

وَأُثِرَتْ عَنْهُ فِي ذَٰلِكَ أَخْبَارٌ مَا تَزَالُ تَزْهُو بِهَا صَفَحَاتُ التَّارِيخِ ...

مِنْ ذَٰلِكَ مَا رَوَاهُ أَحَدُ أَصْحَابِهِ قَالَ :

صَحِبْتُ الرَّبِيعَ بْنَ خُثَيْمٍ عِشْرِينَ سَنَةً ؛ فَمَا سَمِعْتُهُ يَتَكَلَّمُ إِلَّا بِكَلِمَةٍ تَصْعَدُ ... وَتَلَا قَوْلَهُ جَلَّ وَعَزَّ :

﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾[2].

وَأَخْبَرَ عَنْهُ عَبْدُ الرَّحْمَٰنِ بْنُ عَجْلَانَ قَالَ :

---

(١) المخبتون : الخاشعون.

(٢) سورة فاطر : آية ١٠.

بِتُّ عِنْدَ الرَّبِيعِ لَيْلَةً ؛ فَلَمَّا أَيْقَنَ أَنِّي دَخَلْتُ فِي النَّوْمِ قَامَ يُصَلِّي ، فَقَرَأَ قَوْلَهُ جَلَّ وَعَزَّ :

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا[1] السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾[2].

فَمَكَثَ لَيْلَتَهُ يُصَلِّي بِهَا ...

يَبْدَؤُهَا وَيُعِيدُهَا حَتَّىٰ طَلَعَ عَلَيْهِ الْفَجْرُ ...

وَعَيْنَاهُ تَسُحَّانِ الدُّمُوعَ سَحًّا .

* * *

وَلِلرَّبِيعِ فِي خَوْفِ اللَّهِ وَخَشْيَتِهِ أَخْبَارٌ كَثِيرَةٌ ...

مِنْ ذَلِكَ مَا رَوَاهُ طَائِفَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ قَالُوا :

خَرَجْنَا يَوْمًا بِصُحْبَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ وَمَعَنَا الرَّبِيعُ بْنُ خُثَيْمٍ ، فَلَمَّا صِرْنَا عَلَىٰ شَاطِئِ « الْفُرَاتِ » ... مَرَرْنَا بِأَتُّونٍ[3] كَبِيرٍ قَدْ سُعِّرَتْ نَارُهُ ...

فَتَطَايَرَ شَرَرُهَا ...

وَتَصَاعَدَتْ أَلْسِنَةُ لَهَبِهَا ...

وَسُمِعَ زَفِيرُهَا ...

وَقَدْ أُلْقِيَتْ فِي الْأَتُّونِ الْحِجَارَةُ لِتَحْتَرِقَ حَتَّىٰ تُصْبِحَ كِلْسًا .

فَلَمَّا رَأَىٰ الرَّبِيعُ النَّارَ تَوَقَّفَ فِي مَكَانِهِ ...

وَعَرَتْهُ[4] رِعْدَةٌ شَدِيدَةٌ ...

---

(١) اجترحوا : ارتكبوا واكتسبوا.
(٢) سورة الجاثية : آية ٢١.
(٣) الأتون : موقد تحرق فيه الحجارة حتىٰ تصير كِلْسًا .
(٤) عَرَتْه : أصابته .

وَتَلَا قَوْلَهُ جَلَّ وَعَزَّ :

﴿ إِذَا رَأَتْهُمْ(١) مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا(٢) وَزَفِيرًا(٣) ۞ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ(٤) دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا(٥) ﴾(٦).

ثُمَّ سَقَطَ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ .

فَرَابَطْنَا مَعَهُ حَتَّىٰ أَفَاقَ مِنْ غَشْيَتِهِ ، وَمَضَيْنَا بِهِ إِلَىٰ بَيْتِهِ .

* * *

وَبَعْدُ ...

فَقَدْ ظَلَّ الرَّبِيعُ بْنُ خُثَيْمٍ حَيَاتَهُ كُلَّهَا يَتَرَقَّبُ الْمَوْتَ وَيَسْتَعِدُّ لِلِقَائِهِ .

فَلَمَّا احْتُضِرَ ؛ جَعَلَتْ بِنْتُهُ تَبْكِي ، فَقَالَ :

مَا يُبْكِيكِ يَا بُنَيَّةُ وَقَدْ أَقْبَلَ عَلَىٰ أَبِيكِ الْخَيْرُ ؟! ...

ثُمَّ أَسْلَمَ رُوحَهُ إِلَىٰ بَارِئِهَا (*) ...

---

(١) إذا رأتهم : الضمير في رأتهم يعود علىٰ نار السعير .
(٢) تَغَيُّظًا : غليانًا كغليان صدر الغضبان .
(٣) زفيرًا : صوتًا شديدًا .
(٤) مقرنين : مُصَفَّدين [أي جمعت أيديهم إلىٰ أعناقهم بالأغلال] .
(٥) ثبورًا : هلاكًا .
(٦) سورة الفرقان : من الآية ١٢ - ١٣.

(*) للاستزادة من أخبار الرّبيع بْن خُثَيْم انظر :
١ - تهذيب التهذيب لابن حجر : ٣/٢٤٢.
٢ - حلية الأولياء لأبي نعيم : ٢/١٠٥ - ١١٨.
٣ - صفة الصفوة : ٣/٥٩ - ٦٨.
٤ - كتاب الزّهد لأحمد بن حنبل : ٣٣٦ وما بعدها .
٥ - العقد الفريد : «انظر الفهارس في الثامن» .
٦ - المعارف لابن قتيبة طبعة دار المعارف : «انظر الفهارس» .
٧ - جمهرة أنساب العرب : ٢٠١.
٨ - الطبقات الكبرىٰ : ٦/١٠ «وانظر الفهرس» .

إِيَاسُ بْنُ مُعَاوِيَةَ الْمُزَنِيُّ

«إِقْدَامُ عَمْرٍو فِي سَمَاحَةِ حَاتِمٍ
فِي حِلْمِ أَحْنَفَ فِي ذَكَاءِ إِيَاسِ»

[أبو تمّام]

بَاتَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ[١] لَيْلَتَهُ تِلْكَ أَرِقًا[٢] مُسَهَّدًا لَمْ يَغْتَمِضْ لَهُ جَفْنٌ، وَلَمْ يَطْمَئِنَّ لَهُ جَنْبٌ[٣].

فَلَقَدْ كَانَ يَشْغَلُهُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ الْبَارِدَةِ مِنْ لَيَالِي «دِمَشْقَ» أَمْرُ اخْتِيَارِ قَاضٍ «لِلْبَصْرَةِ»[٤] يُقِيمُ بَيْنَ النَّاسِ مَوَازِينَ الْعَدْلِ، وَيَحْكُمُ فِيهِمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ، وَلَا تَأْخُذُهُ فِي الْحَقِّ رَهْبَةٌ وَلَا رَغْبَةٌ.

وَلَقَدْ وَقَعَ اخْتِيَارُهُ عَلَى رَجُلَيْنِ اثْنَيْنِ كَانَا كَفَرَسَيْ[٥] رِهَانٍ:

فِقْهًا فِي الدِّينِ، وَصَلَابَةً فِي الْحَقِّ...

وَوَضَاءَةً[٦] فِي الْفِكْرِ...

وَثُقُوبًا فِي النَّظَرِ[٧]...

وَكَانَ كُلَّمَا وَجَدَ فِي أَحَدِهِمَا مَزِيَّةً تُرَجِّحُهُ عَلَى صَاحِبِهِ، أَلْفَى[٨] فِي الْآخَرِ مَا يُقَابِلُ هَذِهِ الْمَزِيَّةَ.

---

(١) عمر بن عبد العزيز: انظره ص ٨٧، ٢٥٧، ٣٢٩.
(٢) أرقًا مُسَهَّدًا: أي ذَهَبَ عنه النَّوْمُ.
(٣) لم يطمئنَّ له جنب: كناية عن القلق وشغل البال.
(٤) البَصْرَة: مدينة اختطها المسلمون بعد فتح العراق.
(٥) كفرسي رِهانٍ: مَثَلٌ يضرب للمتساويين المتقاربين في الفضل وغيره، أو للمتسابقين في المجاراة.
(٦) وضاءة في الفكر: نورًا في الفكر.
(٧) ثقوبًا في النَّظَر: حدَّة في النظر، وعمقًا في الفهم.
(٨) ألفى في الآخر: وجد في الآخر.

فَلَمَّا أَصْبَحَ دَعَا وَالِيَهُ عَلَىٰ « الْعِرَاقِ » عَدِيَّ بْنَ أَرْطَاةَ ـ وَكَانَ يَوْمَئِذٍ عِنْدَهُ فِي « دِمَشْقَ » ـ وَقَالَ لَهُ :

يَا عَدِيُّ ...

اجْمَعْ بَيْنَ إِيَاسِ بْنِ مُعَاوِيَةَ الْمُزَنِيِّ ، وَالْقَاسِمِ بْنِ رَبِيعَةَ الْحَارِثِيِّ ... وَكَلِّمْهُمَا فِي أَمْرِ قَضَاءِ « الْبَصْرَةِ » ، وَوَلِّ أَحَدَهُمَا عَلَيْهِ .

فَقَالَ : سَمْعًا وَطَاعَةً يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .

* * *

جَمَعَ عَدِيُّ بْنُ أَرْطَاةَ بَيْنَ إِيَاسٍ وَالْقَاسِمِ وَقَالَ :

إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ـ أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَهُ ـ أَمَرَنِي أَنْ أُوَلِّيَ أَحَدَكُمَا قَضَاءَ « الْبَصْرَةِ » ...

فَمَاذَا تَرَيَانِ ؟ .

فَقَالَ كُلٌّ مِنْهُمَا عَنْ صَاحِبِهِ : أَنَّهُ أَوْلَىٰ مِنْهُ بِهَٰذَا الْمَنْصِبِ ...

وَذَكَرَ مِنْ فَضْلِهِ ، وَعِلْمِهِ ، وَفِقْهِهِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَذْكُرَ .

فَقَالَ عَدِيٌّ : لَنْ تَخْرُجَا مِنْ مَجْلِسِي هَٰذَا حَتَّىٰ تَحْسِمَا(١) هَٰذَا الْأَمْرَ .

فَقَالَ لَهُ إِيَاسٌ :

أَيُّهَا الْأَمِيرُ ، سَلْ عَنِّي وَعَنِ الْقَاسِمِ فَقِيهَيِ « الْعِرَاقِ » : الْحَسَنَ الْبَصْرِيَّ(٢) ، وَمُحَمَّدَ بْنَ سِيرِينَ(٣) ... فَهُمَا أَقْدَرُ النَّاسِ عَلَىٰ التَّمْيِيزِ بَيْنَنَا .

وَكَانَ الْقَاسِمُ يَزُورُهُمَا وَيَزُورَانِهِ ، وَإِيَاسٌ لَا تَرْبِطُهُ بِهِمَا رَابِطَةٌ .

---

(١) حسَمَ الأمرَ : قطعَه .

(٢) الحسن البصري : انظره ص ١٠١ .

(٣) محمد بن سيرين : انظره ص ١٣١ .

فَعَلِمَ الْقَاسِمُ أَنَّ إِيَاسًا أَرَادَ أَنْ يُوَرِّطَهُ ...

وَأَنَّ الْأَمِيرَ إِذَا اسْتَشَارَهُمَا أَشَارَا بِهِ دُونَ صَاحِبِهِ ...

فَمَا كَانَ مِنْهُ إِلَّا أَنِ الْتَفَتَ إِلَى الْأَمِيرِ ، وَقَالَ :

لَا تَسَلْ أَحَدًا عَنِّي وَلَا عَنْهُ - أَيُّهَا الْأَمِيرُ - فَوَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِنَّ إِيَاسًا أَفْقَهُ مِنِّي فِي دِينِ اللَّهِ ...

وَأَعْلَمُ بِالْقَضَاءِ ...

فَإِنْ كُنْتُ كَاذِبًا فِي قَسَمِي هَٰذَا ؛ فَمَا يَحِلُّ لَكَ أَنْ تُوَلِّيَنِي الْقَضَاءَ وَأَنَا أَقْتَرِفُ[1] الْكَذِبَ ...

وَإِنْ كُنْتُ صَادِقًا ؛ فَلَا يَجُوزُ لَكَ أَنْ تَعْدِلَ[2] عَنِ الْفَاضِلِ إِلَى الْمَفْضُولِ[3]...

فَالْتَفَتَ إِيَاسٌ إِلَى الْأَمِيرِ ، وَقَالَ : أَيُّهَا الْأَمِيرُ ...

إِنَّكَ جِئْتَ بِرَجُلٍ وَدَعَوْتَهُ إِلَى الْقَضَاءِ ؛ فَأَوْقَفْتَهُ عَلَى شَفِيرِ[4] جَهَنَّمَ ، فَنَجَّى نَفْسَهُ مِنْهَا ، بِيَمِينٍ كَاذِبَةٍ ؛ لَا يَلْبَثُ أَنْ يَسْتَغْفِرَ اللَّهَ مِنْهَا ، وَيَنْجُوَ بِنَفْسِهِ مِمَّا يَخَافُ .

فَقَالَ لَهُ عَدِيٌّ :

إِنَّ مَنْ يَفْهَمُ مِثْلَ فَهْمِكَ هَٰذَا لَجَدِيرٌ بِالْقَضَاءِ ، حَرِيٌّ[5] بِهِ .

ثُمَّ وَلَّاهُ قَضَاءَ « الْبَصْرَةِ » .

* * *

(١) أقترف الكَذِب : أختلق الكذب .
(٢) عَدَل عن الأمر : مال عنه وتركه .
(٣) المفضول : الأقل فضلًا .
(٤) شفير جهنم : حافة جهنم .
(٥) حَرِيٌّ به : أهلٌ له .

فَمَنْ هَٰذَا الَّذِي اخْتَارَهُ الْخَلِيفَةُ الزَّاهِدُ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ قَاضِيًا لَهُ عَلَىٰ « الْبَصْرَةِ » ؟ .

مَنْ ذَٰلِكَ الَّذِي ضُرِبَتْ بِذَكَائِهِ وَفِطْنَتِهِ وَبَدِيهَتِهِ(١) الْأَمْثَالُ ؛ كَمَا ضُرِبَتِ الْأَمْثَالُ بِجُودِ حَاتِمٍ الطَّائِيِّ ...

وَحِلْمِ الْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ(٢)...

وَإِقْدَامِ عَمْرِو بْنِ مَعْدِي كَرِبَ(٣)...

حَتَّىٰ قَالَ أَبُو تَمَّامٍ(٤) فِي مَدْحِ أَحْمَدَ بْنِ الْمُعْتَصِمِ :

إِقْدَامُ عَمْرٍو فِي سَمَاحَةِ حَاتِمٍ ‏ ‏ ‏ فِي حِلْمِ أَحْنَفَ فِي ذَكَاءِ إِيَاسِ

تَعَالَ نَبْدَأْ قِصَّةَ حَيَاةِ الرَّجُلِ مِنْ أَوَّلِهَا ...

فَلِلرَّجُلِ سِيرَةٌ مُثِيرَةٌ فَذَّةٌ(٥) مِنْ رَوَائِعِ السِّيَرِ .

* * *

وُلِدَ إِيَاسُ بْنُ مُعَاوِيَةَ بْنِ قُرَّةَ الْمُزَنِيُّ سَنَةَ سِتٍّ وَأَرْبَعِينَ لِلْهِجْرَةِ فِي مِنْطَقَةِ « الْيَمَامَةِ » فِي « نَجْدٍ » .

وَانْتَقَلَ مَعَ أُسْرَتِهِ إِلَىٰ « الْبَصْرَةِ » وَفِيهَا نَشَأَ وَتَعَلَّمَ ...

وَتَرَدَّدَ عَلَىٰ « دِمَشْقَ » فِي يَفَاعَتِهِ(٦)، وَأَخَذَ عَمَّنْ أَدْرَكَهُ مِنْ بَقَايَا الصَّحَابَةِ الْكِرَامِ ، وَجِلَّةِ(٧) التَّابِعِينَ .

---

(١) الْبَدِيهة : سُرْعَةُ الْفهم.
(٢) الأَحْنَفُ بْنُ قَيس : تابعي جليل ، وقائدٌ عظيم ، وخطيب مفوّه ساد قومه بني تميم ، وَضُرِبَ المثل بحِلْمِهِ ، تُوفي سنة ٧٢هـ... انظره: ص ٤٥٧، ٤٦٧.
(٣) عَمْرو بْن مَعْدِي كَرِب : أحد شجعان الْعرب المشهورين، كَان يُقَال لكل فارس من الْعرب فارس بني فلان إِلَّا هو فكان يُقَال له فارس الْعرب جميعًا، تُوفي في الْقادسية عطشًا.
(٤) أبو تمام : هو حبيب بن أوس الطّائي « ٧٨٨ - ٨٤٥» شاعر عباسي ، اشتهر بمدحه الخلفاء ، له ديوان مشهور .
(٥) فَذَّة : فَريدَة ، نَادِرَة .
(٦) الْيفاعة : أوائل الصِّبَا .
(٧) جِلَّة التَّابِعِين : أكابر التَّابِعِين .

وَلَقَدْ ظَهَرَتْ عَلَىٰ الْغُلَامِ الْمُزَنِيِّ عَلَائِمُ النَّجَابَةِ وَأَمَارَاتُ[1] الذَّكَاءِ مُنْذُ نُعُومَةِ أَظْفَارِهِ[2]...

وَجَعَلَ النَّاسُ يَتَنَاقَلُونَ أَخْبَارَهُ وَنَوَادِرَهُ وَهُوَ مَا زَالَ صَبِيًّا صَغِيرًا...

* * *

رُوِيَ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَتَعَلَّمُ الْحِسَابَ فِي كُتَّابٍ[3] لِرَجُلٍ يَهُودِيٍّ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ[4]... فَاجْتَمَعَ عِنْدَ الْمُعَلِّمِ أَصْحَابُهُ مِنَ الْيَهُودِ، وَجَعَلُوا يَتَكَلَّمُونَ فِي أُمُورِ الدِّينِ وَهُوَ يُنْصِتُ إِلَيْهِمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَدْرُونَ...

فَقَالَ الْمُعَلِّمُ لِأَصْحَابِهِ:

أَلَا تَعْجَبُونَ لِلْمُسْلِمِينَ، فَهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَأْكُلُونَ فِي الْجَنَّةِ وَلَا يَتَغَوَّطُونَ[5]!!.

فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ إِيَاسٌ وَقَالَ:

أَتَأْذَنُ لِي يَا مُعَلِّمُ بِالْكَلَامِ فِيمَا تَخُوضُونَ[6] فِيهِ؟.

فَقَالَ الْمُعَلِّمُ: نَعَمْ.

فَقَالَ الْفَتَىٰ: أَكُلُّ مَا يُؤْكَلُ فِي الدُّنْيَا يَخْرُجُ غَائِطًا؟.

فَقَالَ الْمُعَلِّمُ: لَا.

فَقَالَ الْفَتَىٰ: فَأَيْنَ يَذْهَبُ الَّذِي لَا يَخْرُجُ؟.

---

(١) أمارات الذّكاء: علامات الذّكاء.
(٢) منذ نعومة أظفاره: كناية عن صغر السّنّ.
(٣) الكُتّاب: مكان التعليم، وجمعه كتاتيب.
(٤) أهل الذّمّة: من دَخَلَ في عَهْدِ المسلمين وحمايتهم من اليهود والنصارىٰ وغيرهم.
(٥) لا يتغوّطون: لا يقضون الحاجة ولا يتبرّزون.
(٦) تخوضون فيه: تتناقشون فيه وتتبادلون الآراء.

فَقَالَ الْمُعَلِّمُ : يَذْهَبُ فِي غِذَاءِ الْجِسْمِ .

فَقَالَ الْفَتَىٰ : فَمَا وَجْهُ الِاسْتِنْكَارِ مِنْكُمْ إِذَا كَانَ يَذْهَبُ بَعْضُ مَا نَأْكُلُهُ فِي الدُّنْيَا غِذَاءً ، أَنْ يَذْهَبَ كُلُّهُ فِي الْجَنَّةِ فِي الْغِذَاءِ ؟ .

فَأَلْوَىٰ الْمُعَلِّمُ يَدَهُ وَقَالَ لَهُ : قَاتَلَكَ اللَّهُ مِنْ فَتًى .

* * *

وَيَتَقَدَّمُ الْغُلَامُ فِي السِّنِّ سَنَةً فَسَنَةً ...

وَتَتَقَدَّمُ مَعَهُ أَخْبَارُ ذَكَائِهِ أَيْنَمَا حَلَّ .

فَقَدْ رُوِيَ أَنَّهُ دَخَلَ « دِمَشْقَ » وَهُوَ مَا يَزَالُ غُلَامًا ، فَاخْتَلَفَ مَعَ شَيْخٍ مِنْ أَهْلِ « دِمَشْقَ » فِي حَقٍّ مِنَ الْحُقُوقِ ، وَلَمَّا يَئِسَ مِنْ إِقْنَاعِهِ بِالْحُجَّةِ ؛ دَعَاهُ إِلَىٰ الْقَضَاءِ ...

فَلَمَّا صَارَا بَيْنَ يَدَيِ الْقَاضِي ، احْتَدَّ إِيَاسٌ وَرَفَعَ صَوْتَهُ عَلَىٰ خَصْمِهِ ...

فَقَالَ لَهُ الْقَاضِي : اخْفِضْ صَوْتَكَ يَا غُلَامُ ...

فَإِنَّ خَصْمَكَ شَيْخٌ كَبِيرُ السِّنِّ وَالْقَدْرِ .

فَقَالَ إِيَاسٌ : وَلَكِنَّ الْحَقَّ أَكْبَرُ مِنْهُ .

فَغَضِبَ الْقَاضِي وَقَالَ : اسْكُتْ ...

فَقَالَ الْفَتَىٰ : وَمَنْ يَنْطِقُ بِحُجَّتِي إِذَا سَكَتُّ ؟! .

فَازْدَادَ الْقَاضِي غَضَبًا وَقَالَ :

مَا أَرَاكَ تَقُولُ مُنْذُ دَخَلْتَ مَجْلِسَ الْقَضَاءِ إِلَّا بَاطِلًا .

فَقَالَ إِيَاسٌ : لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ...

أَحَقٌّ هَٰذَا أَمْ بَاطِلٌ ؟ .

فَهَدَأَ الْقَاضِي وَقَالَ :

حَقٌّ ... وَرَبِّ الْكَعْبَةِ حَقٌّ ...

* * *

وَأَكَبَّ[١] الْفَتَىٰ الْمُزَنِيُّ عَلَىٰ الْعِلْمِ ، وَنَهَلَ[٢] مِنْهُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَنْهَلَ حَتَّىٰ بَلَغَ فِيهِ مَبْلَغًا جَعَلَ الشُّيُوخَ يَخْضَعُونَ لَهُ ، وَيَأْتَمُّونَ بِهِ ، وَيَتَتَلْمَذُونَ عَلَىٰ يَدَيْهِ ، عَلَىٰ الرَّغْمِ مِنْ صِغَرِ سِنِّهِ .

فَفِي ذَاتِ سَنَةٍ ، زَارَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ « الْبَصْرَةَ » قَبْلَ أَنْ يَلِيَ الْخِلَافَةَ ، فَرَأَىٰ إِيَاسًا وَكَانَ يَوْمَئِذٍ فَتًى يَافِعًا[٣] لَمْ يَطُرَّ شَارِبُهُ[٤] بَعْدُ ...

وَرَأَىٰ خَلْفَهُ أَرْبَعَةً مِنَ الْقُرَّاءِ مِنْ ذَوِي اللِّحَىٰ فِي طَيَالِسَتِهِمُ[٥] الْخُضْرِ ، وَهُوَ يَتَقَدَّمُهُمْ ...

فَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ : أُفٍّ لِأَصْحَابِ هَٰذِهِ اللِّحَىٰ ...

أَمَا فِيهِمْ شَيْخٌ يَتَقَدَّمُهُمْ ؛ فَقَدَّمُوا هَٰذَا الْغُلَامَ ؟! .

ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَىٰ إِيَاسٍ وَقَالَ : كَمْ سِنُّكَ يَا فَتَىٰ ؟ .

فَقَالَ إِيَاسٌ : سِنِّي - أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَ الْأَمِيرِ - كَسِنِّ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ[٦] حِينَ وَلَّاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَيْشًا فِيهِ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ[٧].

فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الْمَلِكِ : تَقَدَّمْ يَا فَتَىٰ ... تَقَدَّمْ ...

---

(١) أَكَبَّ عَلَىٰ الْعلم : عكف عليه وانقطع له .
(٢) نَهَل منه : شَرِبَ منه .
(٣) فَتًى يافعًا : فَتًى في بواكير الصِّبا .
(٤) لم يطر شاربُه : لم يظهر شعر شاربه [كناية عن حداثة السّن] .
(٥) الطيلسان : كساء أخضر يلبسه المشايخ ، وجمعُه : طيالسة .
(٦) أسامة بن زَيْد : انظره في كتاب « صور من حياة الصَّحابة » للمؤلف ، النّاشر دار الأدب الإسلامي ، الطّبعة الشرعية .
(٧) كانت سِنُّ أسامة يومئذ دون العشرين .

بَارَكَ اللَّهُ فِيكَ .

* * *

وَفِي ذَاتِ سَنَةٍ خَرَجَ النَّاسُ يَلْتَمِسُونَ[1] هِلَالَ رَمَضَانَ ، وَعَلَىٰ رَأْسِهِمُ الصَّحَابِيُّ الْجَلِيلُ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ الْأَنْصَارِيُّ[2]...

وَكَانَ يَوْمَئِذٍ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ قَارَبَ الْمِائَةَ ...

فَنَظَرَ النَّاسُ إِلَىٰ السَّمَاءِ فَلَمْ يَرَوْا شَيْئًا ،

لَكِنَّ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ جَعَلَ يُحَدِّقُ فِي السَّمَاءِ وَيَقُولُ :

لَقَدْ رَأَيْتُ الْهِلَالَ ... هَا هُوَ ذَا ...

وَجَعَلَ يُشِيرُ إِلَيْهِ بِيَدِهِ ... فَلَمْ يَرَهُ أَحَدٌ .

عِنْدَ ذَلِكَ نَظَرَ إِيَاسٌ إِلَىٰ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فَإِذَا شَعْرَةٌ طَوِيلَةٌ فِي حَاجِبِهِ قَدِ انْثَنَتْ حَتَّىٰ غَدَتْ قُبَالَةَ[3] عَيْنِهِ .

فَاسْتَأْذَنَهُ فِي أَدَبٍ ، وَمَدَّ يَدَهُ إِلَىٰ الشَّعْرَةِ فَمَسَحَهَا وَسَوَّاهَا ، ثُمَّ قَالَ لَهُ :

أَتَرَىٰ الْهِلَالَ الْآنَ أَيْضًا يَا صَاحِبَ رَسُولِ اللَّهِ ؟ .

فَجَعَلَ أَنَسٌ يَنْظُرُ وَيَقُولُ :

كَلَّا مَا أَرَاهُ ، كَلَّا مَا أَرَاهُ .

* * *

وَشَاعَتْ أَخْبَارُ ذَكَاءِ إِيَاسٍ وَذَاعَتْ ، وَصَارَ النَّاسُ يَأْتُونَهُ مِنْ كُلِّ

(١) يلتمسون الهلال : يتحرّون رؤيته .
(٢) أنس بن مالك الأنصاري: انظره في كتاب «صور من حياة الصّحابة» للمؤلف، النّاشر دار الأدب الإسلامي ، الطّبعة الشرعية .
(٣) قُبالة عينه : أمام عينه .

صَوْبٍ[1] وَيُلْقُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ مَا يَعْتَرِضُهُمْ مِنْ مُشْكِلَاتٍ فِي الْعِلْمِ وَالدِّينِ...

بَعْضُهُمْ يُرِيدُ الْمَعْرِفَةَ...

وَبَعْضُهُمُ الْآخَرُ يَبْتَغِي التَّعْجِيزَ وَالْمُمَارَاةَ[2] بِالْبَاطِلِ...

مِنْ ذَلِكَ مَا رُوِيَ أَنَّ دُهْقَانًا[3] أَتَىٰ مَجْلِسَهُ فَقَالَ:

يَا أَبَا وَائِلَةَ... مَا تَقُولُ فِي الْمُسْكِرِ؟.

قَالَ: حَرَامٌ.

قَالَ: وَمَا وَجْهُ حُرْمَتِهِ، وَهُوَ لَا يَزِيدُ عَنْ كَوْنِهِ ثَمَرًا وَمَاءً غُلِيَا عَلَىٰ النَّارِ، وَكُلُّ ذَلِكَ مُبَاحٌ لَا شَيْءَ فِيهِ.

فَقَالَ: أَفَرَغْتَ مِنْ قَوْلِكَ يَا دُهْقَانُ أَمْ بَقِيَ لَدَيْكَ مَا تَقُولُهُ؟.

فَقَالَ: بَلْ فَرَغْتُ.

فَقَالَ: لَوْ أَخَذْتُ كَفًّا مِنْ مَاءٍ وَضَرَبْتُكَ بِهِ أَكَانَ يُوجِعُكَ؟.

قَالَ: لَا.

فَقَالَ: وَلَوْ أَخَذْتُ كَفًّا مِنْ تُرَابٍ فَضَرَبْتُكَ بِهِ أَكَانَ يُوجِعُكَ؟.

قَالَ: لَا.

فَقَالَ: وَلَوْ أَخَذْتُ كَفًّا مِنْ تِبْنٍ فَضَرَبْتُكَ بِهِ أَكَانَ يُوجِعُكَ؟.

قَالَ: لَا.

فَقَالَ: فَلَوْ أَخَذْتُ التُّرَابَ ثُمَّ طَرَحْتُ عَلَيْهِ التِّبْنَ، وَصَبَبْتُ فَوْقَهُمَا الْمَاءَ

(١) الصَّوْب: الجهة.
(٢) الْمُمَارَاة بِالْبَاطِل: المجادلة بالباطل.
(٣) الدُّهْقَان: كلمة فارسية معناها رئيس الإقليم وغيره.

ثُمَّ مَزَجْتُهَا مَزْجًا ، ثُمَّ جَعَلْتُ الْكُتْلَةَ فِي الشَّمْسِ ، حَتَّىٰ يَبِسَتْ ، ثُمَّ ضَرَبْتُكَ بِهَا أَكَانَتْ تُوجِعُكَ ؟ .

قَالَ : نَعَمْ ... وَقَدْ تَقْتُلُنِي .

فَقَالَ : هَكَذَا شَأْنُ الْخَمْرِ ، فَهُوَ حِينَ جُمِعَتْ أَجْزَاؤُهُ وَخُمِّرَ ؛ حَرُمَ .

* * *

وَلَمَّا وَلِيَ إِيَاسٌ الْقَضَاءَ ظَهَرَتْ لَهُ فِيهِ مَوَاقِفُ تَدُلُّ عَلَىٰ فَرْطِ ذَكَائِهِ ، وَسَعَةِ حِيلَتِهِ ، وَقُدْرَتِهِ الْفَذَّةِ فِي الْكَشْفِ عَنِ الْحَقَائِقِ .

مِنْ ذَلِكَ أَنَّ رَجُلَيْنِ تَقَاضَيَا عِنْدَهُ ، فَادَّعَىٰ أَحَدُهُمَا أَنَّهُ أَوْدَعَ لَدَىٰ صَاحِبِهِ مَالًا ، فَلَمَّا طَلَبَهُ مِنْهُ جَحَدَهُ[1] .

فَسَأَلَ إِيَاسٌ الرَّجُلَ الْمُدَّعَىٰ عَلَيْهِ عَنْ أَمْرِ الْوَدِيعَةِ ، فَأَنْكَرَهَا وَقَالَ :

إِنْ كَانَتْ لِصَاحِبِي بَيِّنَةٌ[2] فَلْيَأْتِ بِهَا ...

وَإِلَّا فَلَيْسَ لَهُ عَلَيَّ إِلَّا الْيَمِينُ .

فَلَمَّا خَافَ إِيَاسٌ أَنْ يَأْكُلَ الرَّجُلُ الْمَالَ بِيَمِينِهِ ، الْتَفَتَ إِلَىٰ الْمُودِعِ وَقَالَ لَهُ : فِي أَيِّ مَكَانٍ أَوْدَعْتَهُ الْمَالَ ؟ .

قَالَ : فِي مَكَانِ كَذَا ...

فَقَالَ : وَمَاذَا يُوجَدُ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ ؟ .

فَقَالَ : شَجَرَةٌ كَبِيرَةٌ جَلَسْنَا تَحْتَهَا ، وَتَنَاوَلْنَا الطَّعَامَ مَعًا فِي ظِلِّهَا ...

وَلَمَّا هَمَمْنَا بِالِانْصِرَافِ دَفَعْتُ إِلَيْهِ الْمَالَ .

فَقَالَ لَهُ إِيَاسٌ :

(١) جحده : أنكره.

(٢) بيّنة : دليل وحُجّة.

انْطَلِقْ إِلَىٰ الْمَكَانِ الَّذِي فِيهِ الشَّجَرَةُ ؛ فَلَعَلَّكَ إِذَا أَتَيْتَهَا ذَكَّرَتْكَ أَيْنَ وَضَعْتَ مَالَكَ ، وَنَبَّهَتْكَ إِلَىٰ مَا فَعَلْتَهُ بِهِ ...

ثُمَّ عُدْ إِلَيَّ لِتُخْبِرَنِي بِمَا رَأَيْتَ .

فَانْطَلَقَ الرَّجُلُ إِلَىٰ الْمَكَانِ ، وَقَالَ إِيَاسٌ لِلْمُدَّعَىٰ عَلَيْهِ :

اجْلِسْ إِلَىٰ أَنْ يَجِيءَ صَاحِبُكَ ... فَجَلَسَ .

ثُمَّ الْتَفَتَ إِيَاسٌ إِلَىٰ مَنْ عِنْدَهُ مِنَ الْمُتَقَاضِينَ ، وَطَفِقَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ ، وَهُوَ يَرْقُبُ الرَّجُلَ بِطَرْفٍ خَفِيٍّ ...

حَتَّىٰ إِذَا رَآهُ قَدْ سَكَنَ وَاطْمَأَنَّ ، الْتَفَتَ إِلَيْهِ وَبَادَرَهُ[1] قَائِلًا :

أَتُقَدِّرُ أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ بَلَغَ الْمَوْضِعَ الَّذِي أَوْدَعَكَ فِيهِ الْمَالَ ؟ .

فَقَالَ الرَّجُلُ مِنْ غَيْرِ رَوِيَّةٍ[2]: كَلَّا ...

إِنَّهُ بَعِيدٌ مِنْ هُنَا .

فَقَالَ لَهُ إِيَاسٌ :

يَا عَدُوَّ اللَّهِ تَجْحَدُ الْمَالَ ، وَتَعْرِفُ الْمَكَانَ الَّذِي أَخَذْتَهُ فِيهِ ؟! ...

وَاللَّهِ إِنَّكَ لَخَائِنٌ .

فَبُهِتَ[3] الرَّجُلُ ، وَأَقَرَّ بِخِيَانَتِهِ ... فَحَبَسَهُ حَتَّىٰ جَاءَ صَاحِبُهُ ، وَأَمَرَهُ بِرَدِّ وَدِيعَتِهِ إِلَيْهِ .

* * *

---

(١) بادره : عاجله وفاجأه .

(٢) من غير رَوِيَّة : من غير تفكُّر .

(٣) فَبُهِت : دَهِش وسكت متحيّرًا .

وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضًا مَا رُوِيَ مِنْ أَنَّ رَجُلَيْنِ اخْتَصَمَا إِلَيْهِ فِي قَطِيفَتَيْنِ[1] مِمَّا يُوضَعُ عَلَىٰ الرَّأْسِ وَيُسْدَلُ عَلَىٰ الْكَتِفَيْنِ...

إِحْدَاهُمَا خَضْرَاءُ جَدِيدَةٌ ثَمِينَةٌ، وَالْأُخْرَىٰ حَمْرَاءُ بَالِيَةٌ.

فَقَالَ الْمُدَّعِي: نَزَلْتُ إِلَىٰ الْحَوْضِ لِأَغْتَسِلَ، وَوَضَعْتُ قَطِيفَتِي الْخَضْرَاءَ مَعَ ثِيَابِي عَلَىٰ حَافَّةِ الْحَوْضِ، وَجَاءَ خَصْمِي فَوَضَعَ قَطِيفَتَهُ الْحَمْرَاءَ إِلَىٰ جَانِبِ قَطِيفَتِي، وَنَزَلَ إِلَىٰ الْحَوْضِ، وَخَرَجَ قَبْلِي... فَلَبِسَ ثِيَابَهُ وَأَخَذَ قَطِيفَتِي، فَأَلْقَاهَا عَلَىٰ رَأْسِهِ وَكَتِفَيْهِ وَمَضَىٰ بِهَا.

فَخَرَجْتُ عَلَىٰ إِثْرِهِ وَتَبِعْتُهُ، وَطَالَبْتُهُ بِقَطِيفَتِي، فَزَعَمَ أَنَّهَا لَهُ...

فَقَالَ إِيَاسٌ لِلرَّجُلِ الْمُدَّعَىٰ عَلَيْهِ:

وَمَا تَقُولُ أَنْتَ ؟!.

فَقَالَ: هِيَ قَطِيفَتِي وَفِي يَدِي.

فَقَالَ إِيَاسٌ لِلرَّجُلِ الْمُدَّعِي: أَلَكَ بَيِّنَةٌ ؟.

فَقَالَ: كَلَّا.

فَقَالَ لِحَاجِبِهِ[2]: أَحْضِرْ لِي مِشْطًا، فَأُحْضِرَ لَهُ...

فَمَشَطَ شَعْرَ رَأْسِ الرَّجُلَيْنِ، فَخَرَجَ مِنْ رَأْسِ أَحَدِهِمَا زَغَبٌ[3] أَحْمَرُ مِنْ نُثَارِ[4] صُوفِ الْقَطِيفَةِ، وَخَرَجَ مِنْ رَأْسِ الْآخَرِ زَغَبٌ أَخْضَرُ... فَقَضَىٰ

(١) القطيفة: قطعة من المخمل يلقيها المرء على نفسه.
(٢) الحاجب: البوّاب الذي يقف بأبواب الخلفاء والوزراء ونحوهم.
(٣) الزّغب: صغار الريش والشّعر.
(٤) النّثار: ما يتناثر من الشّيء إذا نثرته.

بِالْقَطِيفَةِ الْحَمْرَاءِ لِصَاحِبِ الزَّغَبِ الْأَحْمَرِ ، وَبِالْقَطِيفَةِ الْخَضْرَاءِ لِصَاحِبِ الزَّغَبِ الْأَخْضَرِ .

* * *

وَمِنْ أَخْبَارِ فِطْنَتِهِ وَذَكَائِهِ أَيْضًا أَنَّهُ كَانَ فِي « الْكُوفَةِ » رَجُلٌ يُظْهِرُ لِلنَّاسِ الصَّلَاحَ ، وَيُبْدِي لَهُمُ الْوَرَعَ وَالتُّقَىٰ ... حَتَّىٰ كَثُرَ الثَّنَاءُ عَلَيْهِ ، وَاتَّخَذَهُ بَعْضُ النَّاسِ أَمِينًا لَهُمْ يَأْتَمِنُونَهُ عَلَىٰ مَالِهِمْ إِذَا سَافَرُوا ...

وَيَجْعَلُونَهُ وَصِيًّا عَلَىٰ أَوْلَادِهِمْ إِذَا أَحَسُّوا بِدُنُوِّ الْأَجَلِ .

فَأَتَاهُ رَجُلٌ وَاسْتَوْدَعَهُ مَالًا ، وَلَمَّا احْتَاجَ الرَّجُلُ إِلَىٰ مَالِهِ طَلَبَهُ مِنْهُ فَأَنْكَرَهُ .

فَمَضَىٰ إِلَىٰ إِيَاسٍ وَشَكَا لَهُ الرَّجُلَ ، فَقَالَ لِلْمُشْتَكِي :

أَعَلِمَ صَاحِبُكَ أَنَّكَ تُرِيدُ أَنْ تَأْتِيَنِي ؟ .

قَالَ : كَلَّا .

فَقَالَ لَهُ : انْصَرِفْ وَعُدْ إِلَيَّ غَدًا ...

ثُمَّ أَرْسَلَ إِيَاسٌ إِلَىٰ الرَّجُلِ الْمُؤْتَمَنِ ، وَقَالَ لَهُ :

لَقَدِ اجْتَمَعَ لَدَيَّ مَالٌ كَثِيرٌ لِأَيْتَامٍ لَا كَافِلَ لَهُمْ ، وَقَدْ رَأَيْتُ أَنْ أُودِعَهُ لَدَيْكَ ، وَأَنْ أَجْعَلَكَ وَصِيًّا عَلَيْهِمْ ، فَهَلْ مَنْزِلُكَ حَصِينٌ وَوَقْتُكَ مُتَّسِعٌ ؟ .

فَقَالَ : نَعَمْ أَيُّهَا الْقَاضِي .

فَقَالَ : تَعَالَ إِلَيَّ بَعْدَ غَدٍ ، وَأَعِدَّ مَوْضِعًا لِلْمَالِ ...

وَأَحْضِرْ مَعَكَ حَمَّالِينَ يَحْمِلُونَهُ ...

وَفِي الْيَوْمِ التَّالِي جَاءَ الرَّجُلُ الْمُشْتَكِي ؛ فَقَالَ لَهُ إِيَاسٌ :

انْطَلِقْ إِلَىٰ صَاحِبِكَ وَاطْلُبْ مِنْهُ الْمَالَ ، فَإِنْ أَنْكَرَهُ فَقُلْ لَهُ :

أَشْكُوكَ إِلَىٰ الْقَاضِي .

فَأَتَاهُ الرَّجُلُ فَطَلَبَ مِنْهُ مَالَهُ ، فَامْتَنَعَ عَنْ إِعْطَائِهِ لَهُ وَجَحَدَهُ .

فَقَالَ لَهُ : إِذَنْ أَشْكُوكَ إِلَىٰ الْقَاضِي .

فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ مِنْهُ دَفَعَ إِلَيْهِ الْمَالَ ، وَطَيَّبَ خَاطِرَهُ .

فَرَجَعَ الرَّجُلُ إِلَىٰ إِيَاسٍ وَقَالَ :

لَقَدْ أَعْطَانِي صَاحِبِي حَقِّي وَجَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا .

ثُمَّ جَاءَ الرَّجُلُ الْمُؤْتَمَنُ إِلَىٰ إِيَاسٍ فِي مَوْعِدِهِ وَمَعَهُ الْحَمَّالُونَ ، فَزَجَرَهُ وَأَشْهَرَهُ[1] وَقَالَ لَهُ :

بِئْسَ الرَّجُلُ أَنْتَ يَا عَدُوَّ اللَّهِ ، لَقَدْ جَعَلْتَ الدِّينَ مَصْيَدَةً لِلدُّنْيَا ...

* * *

لَكِنَّ إِيَاسًا عَلَىٰ شِدَّةِ ذَكَائِهِ ، وَقُوَّةِ عَارِضَتِهِ[2] وَسُرْعَةِ بَدِيهَتِهِ ... رُبَّمَا صَادَفَ مَنْ يُقَارِعُهُ الْحُجَّةَ بِالْحُجَّةِ ، وَيَقْطَعُ عَلَيْهِ سُبُلَ الْكَلَامِ وَيُفْحِمُهُ[3]...

حَدَّثَ عَنْ نَفْسِهِ قَالَ :

مَا غَلَبَنِي أَحَدٌ قَطُّ سِوَىٰ رَجُلٍ وَاحِدٍ ، وَذَلِكَ أَنِّي كُنْتُ فِي مَجْلِسِ الْقَضَاءِ « بِالْبَصْرَةِ » فَدَخَلَ عَلَيَّ رَجُلٌ ، فَشَهِدَ عِنْدِي أَنَّ الْبُسْتَانَ الْفُلَانِيَّ هُوَ مِلْكُ فُلَانٍ ، وَحَدَّدَهُ لِي ...

فَأَرَدْتُ أَنْ أَمْتَحِنَ شَهَادَتَهُ .

فَقُلْتُ لَهُ : وَكَمْ عَدَدُ شَجَرِ الْبُسْتَانِ ؟ .

فَأَطْرَقَ قَلِيلًا ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَقَالَ :

---

(١) أَشْهَرَه : فضحه . (٢) قوة عارضته : قوة تفكيره . (٣) يُفْحِمه : يسكته بالحجة .

مُنْذُ كَمْ يَحْكُمُ سَيِّدُنَا الْقَاضِي فِي هَٰذَا الْمَجْلِسِ ؟ .

فَقُلْتُ : مُنْذُ كَذَا سَنَةً .

فَقَالَ : كَمْ عَدَدُ خَشَبِ سَقْفِ هَٰذَا الْمَجْلِسِ ؟ .

فَلَمْ أَعْرِفْ ، وَقُلْتُ : الْحَقُّ مَعَكَ ...

ثُمَّ أَجَزْتُ شَهَادَتَهُ ...

* * *

وَلَمَّا بَلَغَ إِيَاسُ بْنُ مُعَاوِيَةَ السَّادِسَةَ وَالسَّبْعِينَ مِنْ عُمُرِهِ ، رَأَىٰ نَفْسَهُ وَأَبَاهُ فِي الْمَنَامِ رَاكِبَيْنِ عَلَىٰ فَرَسَيْنِ ، فَجَرَيَا مَعًا ... فَلَمْ يَسْبِقْ أَبَاهُ وَلَمْ يَسْبِقْهُ أَبُوهُ ، وَكَانَ وَالِدُهُ قَدْ مَاتَ عَنْ سِتٍّ وَسَبْعِينَ سَنَةً .

وَفِي ذَاتِ لَيْلَةٍ أَوَىٰ إِيَاسٌ إِلَىٰ فِرَاشِهِ وَقَالَ لِأَهْلِهِ :

أَتَدْرُونَ أَيُّ لَيْلَةٍ هَٰذِهِ ؟ .

قَالُوا : كَلَّا .

قَالَ : فِي هَٰذِهِ اللَّيْلَةِ اسْتَكْمَلَ أَبِي عُمُرَهُ .

فَلَمَّا أَصْبَحُوا ، وَجَدُوهُ مَيِّتًا .

* * *

رَحِمَ اللَّهُ إِيَاسًا الْقَاضِيَ ، فَقَدْ كَانَ نَادِرَةً مِنْ نَوَادِرِ الزَّمَانِ ، وَأُعْجُوبَةً مِنْ أَعَاجِيبِ الدَّهْرِ فِي الْفِطْنَةِ والذَّكَاءِ ، وَالْبَحْثِ عَنِ الْحَقِّ وَالْوُصُولِ إِلَيْهِ (ه) .

(ه) للاستزادة من أخبار إياس بن معاوية المزني انظر :
١ – وفيات الأعيان لابن خلكان : ١/٢٤٧ وما بعدها .
٢ – البيان والتبيين للجاحظ : ١/٥٦ « انظر الفهارس » .
٣ – شرح المقامات للشريشي : ١/١١٣ ـ ١١٥ .
٤ – العقد الفريد لابن عبد ربه : « انظر الفهارس » .
٥ – حلية الأولياء : ٣/١٢٣ وما بعدها .
٦ – أخبار القضاة لوكيع : ٣١٢ ـ ٣٧٤ .
٧ – ثمار القلوب للثعالبي : ٩٢ ـ ٩٤ .
٨ – تهذيب التهذيب : ١/٣٩٠ .

عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَابْنُهُ عَبْدُ الْمَلِكِ

«أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ لِكُلِّ قَوْمٍ نَجِيبًا ... وَأَنَّ نَجِيبَ بَنِي أُمَيَّةَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ، وَأَنَّهُ يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أُمَّةً وَحْدَهُ»

[مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ]

مَا كَادَ التَّابِعِيُّ الْجَلِيلُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ يَنْفُضُ يَدَيْهِ مِنْ تُرَابِ قَبْرِ سَلَفِهِ(١) سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ، حَتَّىٰ سَمِعَ لِلْأَرْضِ - مِنْ حَوْلِهِ - رَجَّةً.

فَقَالَ: مَا هَٰذِهِ ؟!.

فَقَالُوا: هَٰذِهِ مَرَاكِبُ الْخِلَافَةِ - يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - قَدْ أُعِدَّتْ لَكَ لِتَرْكَبَهَا ... فَنَظَرَ إِلَيْهَا عُمَرُ بِطَرَفِ عَيْنِهِ، وَقَالَ بِصَوْتِهِ الْمُتَهَدِّجِ(٢) الَّذِي نَهَكَهُ(٣) التَّعَبُ، وأَذْبَلَهُ السَّهَرُ: مَا لِي وَلَهَا ؟! ...

نَحُّوهَا عَنِّي بَارَكَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ...

وَقَرِّبُوا لِي بَغْلَتِي؛ فَإِنَّ لِي فِيهَا بَلَاغًا(٤).

ثُمَّ إِنَّهُ مَا كَادَ يَسْتَوِي عَلَىٰ ظَهْرِ الْبَغْلَةِ حَتَّىٰ جَاءَ صَاحِبُ الشُّرَطِ(٥)؛ لِيَمْشِيَ بَيْنَ يَدَيْهِ ... وَمَعَهُ ثُلَّةٌ(٦) مِنْ رِجَالِهِ اصْطَفُّوا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ.

وَفِي أَيْدِيهِمْ حِرَابُهُمُ اللَّامِعَةُ.

---

(١) سلفه: الخليفة الَّذي قبْله.
(٢) المتهدج: المرتعش المتقطع.
(٣) نهكه: أضناه.
(٤) بلاغًا: كفاية.
(٥) صاحب الشُّرط: رئيس الشُّرط ومديرهم.
(٦) ثلة: جماعة.

فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ وَقَالَ: مَا لِي بِكَ وَبِهِمْ حَاجَةٌ ...

فَمَا أَنَا إِلَّا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ...

أَغْدُو كَمَا يَغْدُونَ، وَأَرُوحُ كَمَا يَرُوحُونَ.

ثُمَّ سَارَ وَسَارَ النَّاسُ مَعَهُ حَتَّىٰ دَخَلَ الْمَسْجِدَ، وَنُودِيَ فِي النَّاسِ:

الصَّلَاةَ جَامِعَةً ... الصَّلَاةَ جَامِعَةً ...

فَتَسَايَلَ النَّاسُ عَلَىٰ الْمَسْجِدِ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ.

فَلَمَّا اكْتَمَلَتْ جُمُوعُهُمْ، قَامَ فِيهِمْ خَطِيبًا.

فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَىٰ عَلَيْهِ، وَصَلَّىٰ عَلَىٰ نَبِيِّهِ، ثُمَّ قَالَ:

أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي قَدِ ابْتُلِيتُ بِهَٰذَا الْأَمْرِ[١] عَلَىٰ غَيْرِ رَأْيٍ[٢] مِنِّي فِيهِ ... وَلَا طَلَبٍ لَهُ ...

وَلَا مَشُورَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ[٣] ...

وَإِنِّي خَلَعْتُ مَا فِي أَعْنَاقِكُمْ مِنْ بَيْعَتِي[٤] ...

فَاخْتَارُوا لِأَنْفُسِكُمْ خَلِيفَةً تَرْضَوْنَهُ ...

فَصَاحَ النَّاسُ صَيْحَةً وَاحِدَةً:

قَدِ اخْتَرْنَاكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَرَضِينَا بِكَ ...

فَلِ[٥] أَمْرَنَا بِالْيُمْنِ وَالْبَرَكَةِ.

---

(١) بهذا الأمر: أي بالخلافة.

(٢) علىٰ غير رأي مني: إشارة إلىٰ أنه لم يكن طالبًا للخلافة، أو عارفًا بأن سلفه عهد بها إليه.

(٣) ولا مشورة المسلمين: إشارة إلىٰ أن سلفه أخذ البيعة له دون أن يسميه ... انظر خبر البيعة لعمر بن عبد العزيز في رجاء بن حيوة ص ١٦١.

(٤) وإني خلعت ما في أعناقكم من بيعتي: جعلتكم في حِلٍّ منها.

(٥) فَلِ أمرنا: فتولَّ أمرنا.

فَلَمَّا رَأَىٰ أَنَّ الْأَصْوَاتَ قَدْ هَدَأَتْ ، وَالْقُلُوبَ قَدِ اطْمَأَنَّتْ ، حَمِدَ اللَّهَ كَرَّةً[1] أُخْرَىٰ وَأَثْنَىٰ عَلَيْهِ ، وَصَلَّىٰ وَسَلَّمَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ .

وَطَفِقَ يَحُضُّ النَّاسَ عَلَىٰ التَّقْوَىٰ ...

وَيُزَهِّدُهُمْ فِي الدُّنْيَا ...

وَيُرَغِّبُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ...

وَيُذَكِّرُهُمْ بِالْمَوْتِ بِلَهْجَةٍ تَسْتَلِينُ الْقُلُوبَ الْقَاسِيَةَ ، وَتَسْتَدِرُّ الدُّمُوعَ الْعَاصِيَةَ ، وَتَخْرُجُ مِنْ فُؤَادِ صَاحِبِهَا فَتَسْتَقِرُّ فِي أَفْئِدَةِ السَّامِعِينَ .

ثُمَّ رَفَعَ صَوْتَهُ الْمُتْعَبَ حَتَّىٰ أَسْمَعَ النَّاسَ جَمِيعًا ، وَقَالَ :

أَيُّهَا النَّاسُ ، مَنْ أَطَاعَ اللَّهَ وَجَبَتْ طَاعَتُهُ ...

وَمَنْ عَصَىٰ اللَّهَ فَلَا طَاعَةَ لَهُ عَلَىٰ أَحَدٍ ...

أَيُّهَا النَّاسُ ، أَطِيعُونِي مَا أَطَعْتُ اللَّهَ فِيكُمْ ...

فَإِذَا عَصَيْتُ اللَّهَ فَلَا طَاعَةَ لِي عَلَيْكُمْ .

ثُمَّ نَزَلَ عَنِ الْمِنْبَرِ ، وَاتَّجَهَ إِلَىٰ بَيْتِهِ ، وَأَوَىٰ إِلَىٰ حُجْرَتِهِ .

فَقَدْ كَانَ يَبْتَغِي أَنْ يُصِيبَ سَاعَةً مِنَ الرَّاحَةِ ؛ بَعْدَ ذَلِكَ الْجُهْدِ الْجَاهِدِ[2] الَّذِي كَانَ فِيهِ مُنْذُ وَفَاةِ الْخَلِيفَةِ .

* * *

لَكِنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ مَا كَادَ يُسْلِمُ جَنْبَهُ إِلَىٰ مَضْجَعِهِ ، حَتَّىٰ أَقْبَلَ عَلَيْهِ ابْنُهُ عَبْدُ الْمَلِكِ ـ وَكَانَ يَوْمَئِذٍ يَتَّجِهُ نَحْوَ السَّابِعَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمُرِهِ ـ وَقَالَ :

مَاذَا تُرِيدُ أَنْ تَصْنَعَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟!! .

(١) كرّة أخرىٰ : مرة ثانية .

(٢) الجهد الجاهد : العَناء الشديد .

فَقَالَ : أَيْ بُنَيَّ[1]، أُرِيدُ أَنْ أَغْفُوَ[2] قَلِيلًا ؛ فَلَمْ تَبْقَ فِي جَسَدِي طَاقَةٌ[3].

فَقَالَ : أَتَغْفُو قَبْلَ أَنْ تَرُدَّ الْمَظَالِمَ[4] إِلَىٰ أَهْلِهَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟!! .

فَقَالَ : أَيْ بُنَيَّ ، إِنِّي قَدْ سَهِرْتُ الْبَارِحَةَ[5] فِي عَمِّكَ سُلَيْمَانَ ...

وَإِنِّي إِذَا حَانَ الظُّهْرُ صَلَّيْتُ فِي النَّاسِ ، وَرَدَدْتُ الْمَظَالِمَ إِلَىٰ أَهْلِهَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

فَقَالَ : وَمَنْ لَكَ[6] يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنْ تَعِيشَ إِلَىٰ الظُّهْرِ ؟! .

فَأَلْهَبَتْ هَٰذِهِ الْكَلِمَةُ عَزِيمَةَ عُمَرَ ...

وَأَطَارَتِ النَّوْمَ مِنْ عَيْنَيْهِ ...

وَبَعَثَتِ الْقُوَّةَ وَالْعَزْمَ فِي جَسَدِهِ الْمُتْعَبِ ، وَقَالَ :

أُدْنُ مِنِّي أَيْ بُنَيَّ .

فَدَنَا مِنْهُ ، فَضَمَّهُ إِلَيْهِ وَقَبَّلَ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، وَقَالَ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَخْرَجَ مِنْ صُلْبِي[7] مَنْ يُعِينُنِي عَلَىٰ دِينِي .

ثُمَّ قَامَ ، وَأَمَرَ أَنْ يُنَادَىٰ فِي النَّاسِ :

أَلَا مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ[8] فَلْيَرْفَعْهَا ...

* * *

فَمَنْ عَبْدُ الْمَلِكِ هَٰذَا ؟! .

---

(١) أيْ بُنَيَّ : يا بُنَيَّ .
(٢) أغفو : أنام نومةً خفيفة .
(٣) طاقة : قوَّةٌ .
(٤) المظالم : جمع مَظْلَمَة ، وهي ما أُخِذَ من مال النَّاس ظُلْمًا .
(٥) البارحة : اللَّيلة السابقة .
(٦) ومن لك : ومن يَضْمَنُ لك .
(٧) من صُلْبي : مِن نَسْلي .
(٨) المظلمة : ما أُخِذ ظلمًا .

مَا خَبَرُ هَٰذَا الْفَتَىٰ الَّذِي قَالَ عَنْهُ النَّاسُ :

إِنَّهُ هُوَ الَّذِي أَدْخَلَ أَبَاهُ فِي الْعِبَادَةِ ...

وَسَلَكَهُ مَسْلَكَ الزَّهَادَةِ ...

تَعَالَوْا نُلِمَّ بِقِصَّةِ هَٰذَا الْفَتَىٰ الصَّالِحِ مِنْ أَوَّلِهَا ...

* * *

كَانَ لِعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ خَمْسَةَ عَشَرَ وَلَدًا فِيهِمْ ثَلَاثُ بَنَاتٍ ...

وَكَانُوا جَمِيعًا عَلَىٰ حَظٍّ مَوْفُورٍ مِنَ التُّقَىٰ ، وَمَقَامٍ كَبِيرٍ مِنَ الصَّلَاحِ ... لَكِنَّ عَبْدَ الْمَلِكِ كَانَ وَاسِطَةَ عِقْدِ[1] إِخْوَتِهِ ، وَكَوْكَبَهُمُ الْمُتَأَلِّقَ ...

لَقَدْ كَانَ أَدِيبًا أَرِيبًا[2]... لَهُ سِنُّ الْفِتْيَانِ ، وَعَقْلُ الْكُهُولِ .

ثُمَّ إِنَّهُ نَشَأَ فِي طَاعَةِ اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ مُنْذُ نُعُومَةِ أَظْفَارِهِ ؛ فَكَانَ أَقْرَبَ النَّاسِ سَمْتًا[3] إِلَىٰ آلِ الْخَطَّابِ عَامَّةً ، وَأَشْبَهَهُمْ بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ خَاصَّةً فِي تَقْوَاهُ لِلَّهِ ، وَتَخَوُّفِهِ مِنْ مَعَاصِيهِ ، وَتَقَرُّبِهِ إِلَيْهِ بِالطَّاعَةِ .

* * *

حَدَّثَ ابْنُ عَمِّهِ عَاصِمٌ[4] قَالَ :

وَفَدْتُ عَلَىٰ « دِمَشْقَ » ، فَنَزَلْتُ عَلَىٰ ابْنِ عَمِّي عَبْدِ الْمَلِكِ وَهُوَ عَزَبٌ[5] فَصَلَّيْنَا الْعِشَاءَ ، وَأَوَىٰ كُلٌّ مِنَّا إِلَىٰ فِرَاشِهِ .

فَقَامَ عَبْدُ الْمَلِكِ إِلَىٰ الْمِصْبَاحِ فَأَطْفَأَهُ .

وَأَسْلَمَ كُلٌّ مِنَّا جَفْنَيْهِ إِلَىٰ الْكَرَىٰ[6]...

(١) الْعِقْد : الْقِلادة .
(٢) أريبًا : ماهرًا فَطِنًا .
(٣) سمتًا : هَيْئة .
(٤) هو عاصم بن أبي بكر بن عبد العزيز بن مروان وهو ابن أخي عمر بن عبد العزيز .
(٥) عَزَب : غير متزوج .
(٦) الكَرَىٰ : النعاس .

ثُمَّ إِنِّي اسْتَيْقَظْتُ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ ، فَإِذَا عَبْدُ الْمَلِكِ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْعَتْمَةِ وَهُوَ يَقْرَأُ قَوْلَهُ جَلَّ وَعَزَّ :

﴿ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴾[1].

فَمَا رَاعَنِي مِنْهُ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ يُرَدِّدُ الْآيَةَ وَيَنْشِجُ[2] نَشِيجًا مَكْبُوتًا ؛ يُقَطِّعُ نِيَاطَ الْقُلُوبِ[3]...

وَكَانَ كُلَّمَا فَرَغَ مِنَ الْآيَةِ عَادَ إِلَيْهَا ، حَتَّىٰ قُلْتُ : سَيَقْتُلُهُ الْبُكَاءُ .

فَلَمَّا رَأَيْتُ ذَلِكَ قُلْتُ :

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ .

كَمَا يَفْعَلُ الْمُسْتَيْقِظُ مِنَ النَّوْمِ ؛ لِأَقْطَعَ عَلَيْهِ الْبُكَاءَ .

فَلَمَّا سَمِعَنِي سَكَتَ ، فَلَمْ أَسْمَعْ لَهُ حِسًّا ...

* * *

وَقَدْ تَتَلْمَذَ الْفَتَىٰ الْعُمَرِيُّ عَلَىٰ أَكَابِرِ عُلَمَاءِ عَصْرِهِ حَتَّىٰ تَمَلَّىٰ[4] مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ...

وَتَضَلَّعَ[5] بِحَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ...

وَتَفَقَّهَ فِي الدِّينِ ...

فَغَدَا عَلَىٰ حَدَاثَةِ سِنِّهِ ؛ يُزَاحِمُ الطَّبَقَةَ الْأُولَىٰ مِنْ فُقَهَاءِ أَهْلِ الشَّامِ فِي زَمَانِهِ .

(١) سورة الشُّعراء : من الآية ٢٠٥ - ٢٠٧.
(٢) ينشج : يغصُّ بالبكاء من غير انتحاب .
(٣) نياطُ القلوب : العروق الّتي تتعلّق بها القلوب .
(٤) تملّىٰ من كتاب الله : استمتع بالقرآن الكريم .
(٥) تضلّع : امتلأ شبعًا وريًّا ، وتضلّع من العلوم : نال منها حظًّا وافرًا .

فَقَدْ رُوِيَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ جَمَعَ قُرَّاءَ الشَّامِ وَفُقَهَاءَهَا وَقَالَ :

إِنِّي قَدْ دَعَوْتُكُمْ لِأَمْرِ هَٰذِهِ الْمَظَالِمِ الَّتِي فِي أَيْدِي أَهْلِ بَيْتِي ؛ فَمَا تَرَوْنَ فِيهَا ؟ .

فَقَالُوا :

يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّ ذَٰلِكَ أَمْرٌ كَانَ فِي غَيْرِ وِلَايَتِكَ ...

وَإِنَّ وِزْرَ[1] هَٰذِهِ الْمَظَالِمِ عَلَىٰ مَنْ غَصَبَهَا .

فَلَمْ يَرْتَحْ إِلَىٰ مَا قَالُوهُ ؟ ...

فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ أَحَدُهُمْ مِمَّنْ كَانَ يَرَىٰ غَيْرَ رَأْيِهِمْ ، وَقَالَ :

ابْعَثْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَىٰ عَبْدِ الْمَلِكِ ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بِدُونِ مَنْ دَعَوْتَ عِلْمًا ، أَوْ فِقْهًا ، أَوْ عَقْلًا .

فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ عَبْدُ الْمَلِكِ قَالَ لَهُ عُمَرُ :

مَا تَرَىٰ فِي هَٰذِهِ الْأَمْوَالِ الَّتِي أَخَذَهَا بَنُو عَمِّنَا مِنَ النَّاسِ ظُلْمًا ؟ ...

وَقَدْ حَضَرَ أَصْحَابُهَا وَجَعَلُوا يَطْلُبُونَهَا ، وَقَدْ عَرَفْنَا حَقَّهُمْ فِيهَا ؟! .

فَقَالَ : أَرَىٰ أَنْ تَرُدَّهَا إِلَىٰ أَصْحَابِهَا مَا دُمْتَ قَدْ عَرَفْتَ أَمْرَهَا ...

وَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ ؛ كُنْتَ شَرِيكًا لِلَّذِينَ أَخَذُوهَا ظُلْمًا .

فَانْبَسَطَتْ[2] أَسَارِيرُ عُمَرَ ، وَارْتَاحَتْ نَفْسُهُ ، وَزَالَ عَنْهُ مَا أَهَمَّهُ .

* * *

(١) وزرها : إثمها.
(٢) انبسطت : انشرحت.

وَلَقَدْ آثَرَ الْفَتَىٰ الْعُمَرِيُّ الْمُرَابَطَةَ عَلَىٰ الثُّغُورِ[1] وَالْإِقَامَةَ فِي إِحْدَىٰ الْمُدُنِ الْقَرِيبَةِ مِنْهَا عَلَىٰ الْبَقَاءِ فِي بِلَادِ الشَّامِ.

فَمَضَىٰ إِلَيْهَا ... وَخَلَّفَ وَرَاءَهُ «دِمَشْقَ» ذَاتَ الرِّيَاضِ النَّضِرَةِ، وَالظِّلَالِ الظَّلِيلَةِ، وَالْأَنْهَارِ السَّبْعَةِ.

وَكَانَ أَبُوهُ - عَلَىٰ الرَّغْمِ مِنْ كُلِّ مَا عَرَفَهُ مِنْ صَلَاحِهِ وَتُقَاهُ - شَدِيدَ الْخَوْفِ عَلَيْهِ مِنْ نَزَغَاتِ[2] الشَّيْطَانِ، كَثِيرَ الْإِشْفَاقِ عَلَيْهِ مِنْ نَزَوَاتِ[3] الشَّبَابِ، حَرِيصًا عَلَىٰ أَنْ يَعْلَمَ مِنْ أَمْرِهِ كُلَّ مَا يَجُوزُ لَهُ أَنْ يَعْلَمَ ...

وَكَانَ لَا يَغْفُلُ عَنْ ذَلِكَ أَبَدًا، وَلَا يُهْمِلُهُ.

* * *

حَدَّثَ مَيْمُونُ بْنُ مَهْرَانَ وَزِيرُ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَقَاضِيهِ وَمُسْتَشَارُهُ، قَالَ:

دَخَلْتُ عَلَىٰ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ، فَوَجَدْتُهُ يَكْتُبُ رِسَالَةً إِلَىٰ ابْنِهِ عَبْدِ الْمَلِكِ يَعِظُهُ فِيهَا وَيَنْصَحُهُ، وَيُبَصِّرُهُ وَيُحَذِّرُهُ، وَيُنْذِرُهُ وَيُبَشِّرُهُ ...

وَكَانَ مِمَّا جَاءَ فِيهَا قَوْلُهُ:

أَمَّا بَعْدُ ... فَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ وَعَىٰ عَنِّي وَفَهِمَ قَوْلِي لَأَنْتَ.

وَإِنَّ اللَّهَ - وَلَهُ الْحَمْدُ - قَدْ أَحْسَنَ إِلَيْنَا فِي صَغِيرِ الْأَمْرِ وَكَبِيرِهِ.

فَاذْكُرْ يَا بُنَيَّ فَضْلَ اللَّهِ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَيْكَ.

وَإِيَّاكَ وَالْكِبْرَ[4] وَالْعَظَمَةَ؛ فَإِنَّهَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ.

(١) الثُّغور: جمع ثغر، وهو المكان الَّذي يهجم منه الأعداء.
(٢) نزغات الشَّيطان: وساوسه وما يحمل به الإنسان علىٰ المعاصي.
(٣) نزوات الشَّباب: وثبات الشَّباب.
(٤) الْكِبْرَ: التَّجبر.

وَهُوَ لِلْمُؤْمِنِينَ عَدُوٌّ مُبِينٌ ...

وَاعْلَمْ أَنِّي لَمْ أَبْعَثْ إِلَيْكَ بِكِتَابِي هَٰذَا لِأَمْرٍ بَلَغَنِي عَنْكَ ؛ فَمَا عَرَفْتُ مِنْ أَمْرِكَ إِلَّا خَيْرًا ...

غَيْرَ أَنَّهُ بَلَغَنِي عَنْكَ شَيْءٌ مِنْ إِعْجَابِكَ بِنَفْسِكَ ...

وَلَوْ أَنَّ هَٰذَا الْإِعْجَابَ خَرَجَ بِكَ إِلَىٰ مَا أَكْرَهُ ، لَرَأَيْتَ مِنِّي مَا تَكْرَهُ .

قَالَ مَيْمُونٌ :

ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيَّ عُمَرُ وَقَالَ :

يَا مَيْمُونُ ، إِنَّ ابْنِي عَبْدَ الْمَلِكِ قَدْ زُيِّنَ فِي عَيْنِي ، وَإِنِّي أَتَّهِمُ نَفْسِي فِي ذَٰلِكَ ، وَأَخَافُ أَنْ يَكُونَ حُبِّي لَهُ قَدْ غَلَبَ عَلَىٰ عِلْمِي بِهِ ... وَأَدْرَكَنِي مَا يُدْرِكُ الْآبَاءَ مِنَ الْعَمَىٰ عَنْ عُيُوبِ أَوْلَادِهِمْ ...

فَسِرْ إِلَيْهِ ، وَاسْبِرْ غَوْرَهُ[1] ، وَانْظُرْ هَلْ تَرَىٰ فِيهِ مَا يُشْبِهُ الْكِبْرَ وَالْفَخْرَ ... فَإِنَّهُ غُلَامٌ حَدَثٌ ، وَلَا آمَنُ عَلَيْهِ الشَّيْطَانَ .

قَالَ مَيْمُونٌ :

فَشَدَدْتُ الرِّحَالَ[2] إِلَىٰ عَبْدِ الْمَلِكِ حَتَّىٰ قَدِمْتُ عَلَيْهِ ، فَاسْتَأْذَنْتُ وَدَخَلْتُ ، فَإِذَا غُلَامٌ فِي مُقْتَبَلِ الْعُمُرِ ... رَيَّانُ الشَّبَابِ ، بَهِيُّ الطَّلْعَةِ ، جَمُّ[3] التَّوَاضُعِ ، قَدْ جَلَسَ عَلَىٰ حَشِيَّةٍ[4] بَيْضَاءَ فَوْقَ بِسَاطٍ مِنْ شَعْرٍ .

فَرَحَّبَ بِي ، ثُمَّ قَالَ :

---

(١) اسْبِرْ غَوْرَه : اختبر حقيقته وانفذ إِلَىٰ خفاياه.

(٢) شددت الرِّحال : سافرت.

(٣) جمُّ التَّواضع : شديد التَّواضع.

(٤) الْحشيَّة : الْفراش الْمحشوُّ.

لَقَدْ سَمِعْتُ أَبِي يَذْكُرُكَ بِمَا أَنْتَ أَهْلٌ لَهُ مِنَ الْخَيْرِ ، وَ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَنْفَعَ اللَّهُ بِكَ .

فَقُلْتُ لَهُ : كَيْفَ تَجِدُ نَفْسَكَ ؟ .

فَقَالَ : بِخَيْرٍ مِنَ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - وَنِعْمَةٍ ...

غَيْرَ أَنِّي أَخْشَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدْ غَرَّنِي حُسْنُ ظَنِّ وَالِدِي بِي ، وَأَنَا لَمْ أَبْلُغْ مِنَ الْفَضْلِ كُلَّ مَا يَظُنُّ ...

وَ إِنِّي لَأَخَافُ أَنْ يَكُونَ حُبُّهُ لِي قَدْ غَلَبَهُ عَلَىٰ مَعْرِفَتِهِ بِي ...

فَأَكُونَ آفَةً عَلَيْهِ .

فَعَجِبْتُ مِنِ اتِّفَاقِهِمَا ... ثُمَّ قُلْتُ لَهُ :

أَعْلِمْنِي مِنْ أَيْنَ مَعِيشَتُكَ ؟ .

فَقَالَ : مِنْ غَلَّةِ أَرْضٍ اشْتَرَيْتُهَا مِمَّنْ وَرِثَهَا عَنْ أَبِيهِ ، وَدَفَعْتُ ثَمَنَهَا مِنْ مَالٍ لَا شُبْهَةَ[1] فِيهِ ، فَاسْتَغْنَيْتُ بِذَلِكَ عَنْ فَيْءِ[2] الْمُسْلِمِينَ .

قُلْتُ : فَمَا طَعَامُكَ ؟ .

فَقَالَ : لَيْلَةً لَحْمٌ ... وَلَيْلَةً عَدَسٌ وَزَيْتٌ ... وَلَيْلَةً خَلٌّ وَزَيْتٌ ...

وَفِي هَٰذَا بَلَاغٌ[3].

فَقُلْتُ لَهُ : أَفَمَا تُعْجِبُكَ نَفْسُكَ ؟ .

فَقَالَ : قَدْ كَانَ فِيَّ شَيْءٌ مِنْ ذَٰلِكَ ...

(١) الشُّبْهَةُ : كُلُّ ما يلتبس فيه الحقُّ بالباطل والحلالُ بالحرام.
(٢) الفَيء : الخراج.
(٣) وفي هذا بَلاغ : وفي هذا ما يكفي من العَيْش.

فَلَمَّا وَعَظَنِي أَبِي بَصَّرَنِي بِحَقِيقَةِ نَفْسِي ، وَصَغَّرَهَا عِنْدِي ، وَحَطَّ مِنْ قَدْرِهَا فِي عَيْنِي ...

فَنَفَعَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِذَلِكَ ، فَجَزَاهُ اللَّهُ مِنْ وَالِدٍ خَيْرًا .

فَقَعَدْتُ سَاعَةً أُحَدِّثُهُ ، وَأَسْتَمْتِعُ بِمَنْطِقِهِ ، فَلَمْ أَرَ فَتًى كَانَ أَجْمَلَ وَجْهًا ...

وَلَا أَكْمَلَ عَقْلًا ...

وَلَا أَحْسَنَ أَدَبًا مِنْهُ عَلَىٰ حَدَاثَةِ سِنِّهِ ، وَقِلَّةِ تَجْرِبَتِهِ .

فَلَمَّا كَانَ آخِرُ النَّهَارِ ، أَتَاهُ غُلَامٌ فَقَالَ :

أَصْلَحَكَ اللَّهُ قَدْ فَرَغْنَا ...

فَسَكَتَ ...

فَقُلْتُ : مَا هَٰذَا الَّذِي فَرَغُوا مِنْهُ ؟! .

قَالَ : الْحَمَّامُ .

قُلْتُ : وَكَيْفَ ؟ .

قَالَ : أَخْلَوْهُ لِي مِنَ النَّاسِ .

فَقُلْتُ : لَقَدْ كُنْتَ وَقَعْتَ مِنْ نَفْسِي مَوْقِعًا عَظِيمًا حَتَّىٰ سَمِعْتُ هَٰذَا ...

فَذُعِرَ[1] وَاسْتَرْجَعَ[2] وَقَالَ :

وَمَا فِي ذَلِكَ يَا عَمِّ يَرْحَمُكَ اللَّهُ ؟! .

قُلْتُ : الْحَمَّامُ لَكَ ؟! .

---

(١) ذُعِرَ : خاف .

(٢) اسْتَرْجَعَ : قال إنَّا لِلَّهِ وإنا إليه راجعون .

قَالَ : لَا ...

قُلْتُ : فَمَا دَعَاكَ إِلَىٰ أَنْ تُخْرِجَ مِنْهُ النَّاسَ ؟! ...

كَأَنَّكَ تُرِيدُ بِذَٰلِكَ أَنْ تَرْفَعَ نَفْسَكَ فَوْقَهُمْ ، وَأَنْ تَجْعَلَ لَهَا قَدْرًا يَعْلُو عَلَىٰ أَقْدَارِهِمْ ...

ثُمَّ إِنَّكَ تُؤْذِي صَاحِبَ الْحَمَّامِ فِي غَلَّةِ[1] يَوْمِهِ ، وَتُرْجِعُ مَنْ أَتَىٰ حَمَّامَهُ خَائِبًا .

قَالَ : أَمَّا صَاحِبُ الْحَمَّامِ فَأَنَا أُرْضِيهِ وَأُعْطِيهِ غَلَّةَ يَوْمِهِ .

قُلْتُ : هَٰذِهِ نَفَقَةُ سَرَفٍ خَالَطَهَا كِبْرٌ ...

وَمَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَدْخُلَ الْحَمَّامَ مَعَ النَّاسِ ، وَأَنْتَ كَأَحَدِهِمْ ؟! .

قَالَ :

يَمْنَعُنِي مِنْ ذَٰلِكَ أَنَّ طَائِفَةً مِنْ رَعَاعِ النَّاسِ[2] يَدْخُلُونَ الْحَمَّامَ بِغَيْرِ أُزُرٍ[3] فَأَكْرَهُ رُؤْيَةَ عَوْرَاتِهِمْ ...

وَأَكْرَهُ أَنْ أُجْبِرَهُمْ عَلَىٰ وَضْعِ الْأُزُرِ ، فَيَأْخُذُوا ذَٰلِكَ عَلَىٰ أَنَّهُ اقْتِدَارٌ مِنِّي عَلَيْهِمْ بِالسُّلْطَانِ الَّذِي أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُخَلِّصَنَا مِنْهُ كَفَافًا لَا عَلَيْنَا وَلَا لَنَا ...

فَعِظْنِي رَحِمَكَ اللَّهُ عِظَةً أَنْتَفِعُ بِهَا ...

وَاجْعَلْ لِي مَخْرَجًا مِنْ هَٰذَا الْأَمْرِ .

فَقُلْتُ :

انْتَظِرْ حَتَّىٰ يَخْرُجَ النَّاسُ مِنَ الْحَمَّامِ لَيْلًا وَيَعُودُوا إِلَىٰ بُيُوتِهِمْ ثُمَّ ادْخُلْهُ ...

---

(١) الغَلَّةُ : الدَّخْلُ من كِراءِ دارٍ وفائدة أرضٍ ودكان وغيرهما .

(٢) رعاع النَّاس : سَفَلَةُ النَّاس .

(٣) الأُزُر : الأستار .

قَالَ : لَا جَرَمَ[1]...

لَا أَدْخُلُهُ نَهَارًا أَبَدًا بَعْدَ الْيَوْمِ ، وَلَوْلَا شِدَّةُ بَرْدِ هَٰذِهِ الْبِلَادِ مَا دَخَلْتُهُ أَبَدًا .

وَأَطْرَقَ قَلِيلًا كَأَنَّمَا يُفَكِّرُ فِي أَمْرٍ .

ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَيَّ وَقَالَ :

أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ لَتَطْوِيَنَّ هَٰذَا الْخَبَرَ[2] عَنْ أَبِي ، فَإِنِّي أَكْرَهُ أَنْ يَظَلَّ سَاخِطًا عَلَيَّ ...

وَإِنِّي لَأَخْشَىٰ أَنْ يَحُولَ الْأَجَلُ دُونَ الرِّضَا مِنْهُ .

قَالَ مَيْمُونٌ :

فَأَرَدْتُ عِنْدَ ذَٰلِكَ أَنْ أَسْبِرَ عَقْلَهُ ، فَقُلْتُ لَهُ :

إِنْ سَأَلَنِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ : هَلْ رَأَيْتَ مِنْهُ شَيْئًا ؟... فَهَلْ تَرْضَىٰ لِي أَنْ أَكْذِبَ عَلَيْهِ ؟! .

فَقَالَ : لَا ... مَعَاذَ اللَّهِ ... وَلَٰكِنْ قُلْ لَهُ :

رَأَيْتُ مِنْهُ شَيْئًا فَوَعَظْتُهُ وَكَبَّرْتُهُ فِي عَيْنِهِ ، فَسَارَعَ إِلَىٰ الرُّجُوعِ عَنْهُ ، فَإِنَّ أَبِي لَا يَسْأَلُكَ عَنْ كَشْفِ مَا لَمْ تُظْهِرْهُ لَهُ .

لِأَنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَزَّ قَدْ أَعَاذَهُ مِنَ الْبَحْثِ عَمَّا اسْتَتَرَ .

قَالَ مَيْمُونٌ : فَلَمْ أَرَ وَالِدًا قَطُّ وَلَا وَلَدًا مِثْلَهُمَا يَرْحَمُهُمَا اللَّهُ .

* * *

رَضِيَ اللَّهُ عَنْ خَامِسِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَأَرْضَاهُ ...

---

(١) لا جرم : أعاهد وأقسم .

(٢) لتطوينَّ هذا الخبر : لتكتمنَّ هذا الخبر .

وَنَضَّرَ ضَرِيحَهُ وَضَرِيحَ ابْنِهِ وَفِلْذَةِ كَبِدِهِ عَبْدِ الْمَلِكِ ...

وَسَلَامٌ عَلَيْهِمَا يَوْمَ لَحِقَا بِالرَّفِيقِ الْأَعْلَىٰ ...

وَسَلَامٌ عَلَيْهِمَا يَوْمَ يُبْعَثَانِ مَعَ الْأَخْيَارِ الْأَبْرَارِ (*) ...

(*) للاستزادة من أخبار عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ وولده عَبْدِ الْمَلِكِ انظر:

١ - سيرة عُمَر بن عَبْد الْعَزِيز لابن الجوزي.

٢ - سيرة عُمَر بن عَبْد الْعَزِيز لابن عَبْد الحكم.

٣ - الطَّبقات الْكبرىٰ لابن سعد، المجلدات: ١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٧، ٨، وانظر المجلد الخاص بالْفهارس للوقوف علَىٰ أرقام الصَّفحات في كل مجلد.

٤ - صفة الصَّفوة لابن الجوزي: ٢/١١٣ - ١٢٦، وفي ص ١٢٧ وما يليها ترجمة خاصة بابنه عبد الملك.

٥ - حلية الأولياء للأصبهاني: ٥/٣٠٢ - ٣٥٣، وفي ص ٣٥٣ وما يليها ترجمة خاصة باسه عبد الملك.

٦ - وفيات الأعيان لابن خلكان: المجلدات ٢، ٣، ٤، ٥، «وانظر المجلد الخاص بالْفهارس».

٧ - تاريخ الطَّبري: «انظر الْفهارس بالجزء الْعاشر».

٨ - الْعقد الْفريد لابن عبد ربه: «انظر الْفهارس بالجزء الثَّامن».

٩ - الْبيان والتَّبيين للجاحظ: انظر فهارس الأجزاء ١، ٢، ٣، ٤.

١٠- تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر: ٢/١١٥ - ١٢٧.

١١- تهذيب التَّهذيب لابن حجر الْعسقلاني: ٧/٤٧٥ - ٤٧٨.

الكتاب الثاني

الحَسَنُ البَصْرِيُّ

« كَيْفَ يَضِلُّ قَوْمٌ فِيهِمْ مِثْلُ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ ؟! »

[مَسْلَمَةُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ]

جَاءَ الْبَشِيرُ يُبَشِّرُ زَوْجَ النَّبِيِّ أُمَّ سَلَمَةَ(١) بِأَنَّ مَوْلَاتَهَا(٢) « خَيْرَةَ » قَدْ وَضَعَتْ حَمْلَهَا وَوَلَدَتْ غُلَامًا .

فَغَمَرَتِ الْفَرْحَةُ فُؤَادَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهَا ، وَطَفَحَ الْبِشْرُ(٣) عَلَىٰ مُحَيَّاهَا(٤) النَّبِيلِ الْوَقُورِ .

وَبَادَرَتْ فَأَرْسَلَتْ رَسُولًا لِيَحْمِلَ إِلَيْهَا الْوَالِدَةَ وَمَوْلُودَهَا ، لِتَقْضِيَ فَتْرَةَ النِّفَاسِ فِي بَيْتِهَا .

فَقَدْ كَانَتْ « خَيْرَةُ » أَثِيرَةً(٥) لَدَىٰ أُمِّ سَلَمَةَ ، حَبِيبَةً إِلَىٰ قَلْبِهَا ...

وَكَانَ بِهَا لَهْفَةٌ وَتَشَوُّقٌ ؛ لِرُؤْيَةِ وَلِيدِهَا الْبِكْرِ ...

* * *

وَمَا هُوَ إِلَّا قَلِيلٌ حَتَّىٰ جَاءَتْ « خَيْرَةُ » تَحْمِلُ طِفْلَهَا عَلَىٰ يَدَيْهَا ...

فَلَمَّا وَقَعَتْ عَيْنَا أُمِّ سَلَمَةَ عَلَىٰ الطِّفْلِ امْتَلَأَتْ نَفْسُهَا أُنْسًا بِهِ ، وَارْتِيَاحًا لَهُ ...

فَقَدْ كَانَ الْوَلِيدُ الصَّغِيرُ قَسِيمًا وَسِيمًا(٦)، بَهِيَّ الطَّلْعَةِ ، تَامَّ الْخِلْقَةِ ؛ يَمْلَأُ عَيْنَ مُجْتَلِيهِ(٧)، وَيَأْسِرُ فُؤَادَ رَائِيهِ(٨).

---

(١) أُمّ سَلَمَة : انظرها في كتاب « صور من حياة الصحابيات » للمؤلف .

(٢) مولاتها : أمتها .

(٣) طفح البشر : فاض السرور .

(٤) المحيا : الوجه .

(٥) أثيرة : عزيزة مكرمة .

(٦) قسيمًا وسيمًا : جميلًا حسن الوجه .

(٧) يملأ عين مُجتليه : يسر الناظر إليه .

(٨) يأسر فؤاد رائيه : يملك قلب رائيه .

ثُمَّ الْتَفَتَتْ أُمُّ سَلَمَةَ إِلَىٰ مَوْلَاتِهَا وَقَالَتْ :

أَسَمَّيْتِ غُلَامَكِ يَا « خَيْرَةُ » ؟ .

فَقَالَتْ : كَلَّا يَا أُمَّاهُ ...

لَقَدْ تَرَكْتُ ذَٰلِكَ لَكِ ؛ لِتَخْتَارِي لَهُ مِنَ الْأَسْمَاءِ مَا تَشَائِينَ .

فَقَالَتْ : نُسَمِّيهِ ـ عَلَىٰ بَرَكَةِ اللَّهِ ـ الْحَسَنَ .

ثُمَّ رَفَعَتْ يَدَيْهَا وَدَعَتْ لَهُ بِصَالِحِ الدُّعَاءِ .

* * *

لَكِنَّ الْفَرْحَةَ بِالْحَسَنِ لَمْ تَقْتَصِرْ عَلَىٰ بَيْتِ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أُمِّ سَلَمَةَ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهَا ، وَإِنَّمَا شَارَكَهَا فِيهَا بَيْتٌ آخَرُ مِنْ بُيُوتِ الْمَدِينَةِ .

هُوَ بَيْتُ الصَّحَابِيِّ الْجَلِيلِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ[1] كَاتِبِ وَحْيِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

ذَٰلِكَ أَنَّ « يَسَارًا » وَالِدَ الصَّبِيِّ كَانَ مَوْلًى لَهُ أَيْضًا ...

وَكَانَ مِنْ آثَرِ[2] النَّاسِ عِنْدَهُ ، وَأَحَبِّهِمْ إِلَيْهِ .

* * *

دَرَجَ[3] الْحَسَنُ بْنُ يَسَارٍ [الَّذِي عُرِفَ فِيمَا بَعْدُ بِالْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ] فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ...

وَرُبِّيَ فِي حِجْرِ زَوْجَةٍ مِنْ زَوْجَاتِ النَّبِيِّ ﷺ هِيَ هِنْدُ بِنْتُ سُهَيْلٍ الْمَعْرُوفَةُ بِأُمِّ سَلَمَةَ .

---

(١) زيد بن ثابت : انظره في كتاب « صور من حياة الصحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة الشرعيه .

(٢) من آثر النّاس عنده : من أعزّ النّاس وأكرمهم عنده .

(٣) درج : نشأ وترعرع .

وَأُمُّ سَلَمَةَ - إِنْ كُنْتَ لَا تَعْلَمُ - كَانَتْ مِنْ أَكْمَلِ نِسَاءِ الْعَرَبِ عَقْلًا، وَأَوْفَرِهِنَّ[1] فَضْلًا، وَأَشَدِّهِنَّ حَزْمًا.

كَمَا كَانَتْ مِنْ أَوْسَعِ زَوْجَاتِ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ ﷺ عِلْمًا، وَأَكْثَرِهِنَّ رِوَايَةً عَنْهُ...

حَيْثُ رَوَتْ عَنِ النَّبِيِّ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ ثَلَاثَمِائَةٍ وَسَبْعَةً وَثَمَانِينَ حَدِيثًا...

وَكَانَتْ إِلَىٰ ذَٰلِكَ كُلِّهِ مِنَ النِّسَاءِ الْقَلِيلَاتِ النَّادِرَاتِ اللَّوَاتِي يَكْتُبْنَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ...

وَلَمْ تَقِفْ صِلَةُ الصَّبِيِّ الْمَحْظُوظِ بِأُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أُمِّ سَلَمَةَ عِنْدَ هَٰذَا الْحَدِّ...

وَإِنَّمَا امْتَدَّتْ إِلَىٰ أَبْعَدَ مِنْ ذَٰلِكَ...

فَكَثِيرًا مَا كَانَتْ «خَيْرَةُ» أُمُّ الْحَسَنِ تَخْرُجُ مِنَ الْبَيْتِ لِقَضَاءِ بَعْضِ حَاجَاتِ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ، فَكَانَ الطِّفْلُ الرَّضِيعُ يَبْكِي مِنْ جُوعِهِ، وَيَشْتَدُّ بُكَاؤُهُ فَتَأْخُذُهُ أُمُّ سَلَمَةَ إِلَىٰ حِجْرِهَا، وَتُلْقِمُهُ[2] ثَدْيَهَا؛ لِتُصَبِّرَهُ بِهِ وَتُعَلِّلَهُ[3] عَنْ غِيَابِ أُمِّهِ...

فَكَانَتْ لِشِدَّةِ حُبِّهَا إِيَّاهُ يَدُرُّ ثَدْيُهَا لَبَنًا سَائِغًا فِي فَمِهِ فَيَرْضَعُهُ الصَّبِيُّ وَيَسْكُتُ عَلَيْهِ.

وَبِذَٰلِكَ غَدَتْ أُمُّ سَلَمَةَ أُمًّا لِلْحَسَنِ مِنْ جِهَتَيْنِ:

فَهِيَ أُمُّهُ بِوَصْفِهِ أَحَدَ الْمُؤْمِنِينَ...

وَهِيَ أُمُّهُ مِنَ الرَّضَاعِ أَيْضًا...

* * *

(١) أوفرهن: أكثرهن. (٢) تلقمه ثديها: تضع ثديها في فمه. (٣) تُعلّله: تشغله.

وَقَدْ أَتَاحَتِ الصِّلَاتُ الْوَاشِجَةُ[١] بَيْنَ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَقُرْبُ بُيُوتِ بَعْضِهِنَّ مِنْ بَعْضٍ لِلْغُلَامِ السَّعِيدِ أَنْ يَتَرَدَّدَ عَلَىٰ هَٰذِهِ الْبُيُوتِ كُلِّهَا ...

وَأَنْ يَتَخَلَّقَ بِأَخْلَاقِ رَبَّاتِهَا[٢] جَمِيعًا ...

وَأَنْ يَهْتَدِيَ بِهَدْيِهِنَّ ...

وَقَدْ كَانَ ـ كَمَا يُحَدِّثُ عَنْ نَفْسِهِ ـ يَمْلَأُ هَٰذِهِ الْبُيُوتَ بِحَرَكَتِهِ الدَّائِبَةِ ، وَيُتْرِعُهَا بِلَعِبِهِ النَّشِيطِ ...

حَتَّىٰ إِنَّهُ كَانَ يَنَالُ سُقُوفَ بُيُوتِ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ بِيَدَيْهِ وَهُوَ يَقْفِزُ فِيهَا قَفْزًا .

* * *

ظَلَّ الْحَسَنُ يَتَقَلَّبُ فِي هَٰذِهِ الْأَجْوَاءِ الْعَبِقَةِ[٣] بِطُيُوبِ النُّبُوَّةِ ، الْمُتَأَلِّقَةِ[٤] بِسَنَاهَا ...

وَيَنْهَلُ مِنْ تِلْكَ الْمَوَارِدِ الْعَذْبَةِ الَّتِي حَفَلَتْ بِهَا بُيُوتُ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ ...

وَيَتَتَلْمَذُ عَلَىٰ أَيْدِي كِبَارِ الصَّحَابَةِ فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ...

حَيْثُ رَوَىٰ عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ ، وَعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، وَأَبِي مُوسَىٰ الْأَشْعَرِيِّ ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ ...

وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ ، وَأَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ، وَجَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ، وَغَيْرِهِمْ وَغَيْرِهِمْ[٥] ...

---

(١) الصلات الواشجة : الصلات الوثيقة المتينة .
(٢) ربّاتها : صاحباتها .
(٣) العبقة : العطرة .
(٤) المتألقة : الملتمعة .
(٥) عثمان بن عفان ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عباس ، وأنس بن مالك ، وجابر بن عبد الله : انظرهم في كتاب «صور من حياة الصحابة» للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة الشرعية .

لَكِنَّهُ أُولِعَ أَكْثَرَ مَا أُولِعَ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

فَقَدْ رَاعَهُ مِنْهُ صَلَابَتُهُ فِي دِينِهِ ، وَإِحْسَانُهُ لِعِبَادَتِهِ ، وَزَهَادَتُهُ بِزِينَةِ الدُّنْيَا وَزُخْرُفِهَا ...

وَخَلَبَهُ(١) مِنْهُ بَيَانُهُ الْمُشْرِقُ ، وَحِكْمَتُهُ الْبَالِغَةُ ، وَأَقْوَالُهُ الْجَامِعَةُ ، وَعِظَاتُهُ الَّتِي تَهُزُّ الْقُلُوبَ هَزًّا .

فَتَخَلَّقَ بِأَخْلَاقِهِ فِي التُّقَىٰ وَالْعِبَادَةِ ...

وَنَسَجَ عَلَىٰ مِنْوَالِهِ(٢) فِي الْبَيَانِ وَالْفَصَاحَةِ ...

وَلَمَّا بَلَغَ الْحَسَنُ أَرْبَعَةَ عَشَرَ رَبِيعًا مِنْ عُمُرِهِ ، وَدَخَلَ فِي مَدَاخِلِ الرِّجَالِ انْتَقَلَ مَعَ أَبَوَيْهِ إِلَىٰ « الْبَصْرَةِ » وَاسْتَقَرَّ فِيهَا مَعَ أُسْرَتِهِ .

وَمِنْ هُنَا نُسِبَ الْحَسَنُ إِلَىٰ « الْبَصْرَةِ » ...

وَعُرِفَ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ ...

* * *

كَانَتِ « الْبَصْرَةُ » يَوْمَ أَمَّهَا الْحَسَنُ ؛ قَلْعَةً مِنْ أَكْبَرِ قِلَاعِ الْعِلْمِ فِي دَوْلَةِ الْإِسْلَامِ ...

وَكَانَ مَسْجِدُهَا الْعَظِيمُ ؛ يَمُوجُ بِمَنِ ارْتَحَلَ إِلَيْهَا مِنْ كِبَارِ الصَّحَابَةِ ، وَجِلَّةِ التَّابِعِينَ ...

وَكَانَتْ حَلَقَاتُ الْعِلْمِ عَلَىٰ اخْتِلَافِ أَلْوَانِهَا ؛ تَعْمُرُ بَاحَاتِ الْمَسْجِدِ وَمُصَلَّاهُ .

وَقَدْ لَزِمَ الْحَسَنُ الْمَسْجِدَ ، وَانْقَطَعَ إِلَىٰ حَلْقَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ حَبْرِ أُمَّةِ

---

(١) خلبه : فتنه وسحره.

(٢) نسج على منواله : سار على طريقته.

مُحَمَّدٍ ﷺ[١]، وَأَخَذَ عَنْهُ التَّفْسِيرَ وَالْحَدِيثَ وَالْقِرَاءَاتِ .

كَمَا أَخَذَ عَنْهُ وَعَنْ غَيْرِهِ الْفِقْهَ ، وَاللُّغَةَ ، وَالْأَدَبَ ، وَغَيْرَهَا وَغَيْرَهَا ...

حَتَّىٰ غَدَا عَالِمًا جَامِعًا فَقِيهًا ثِقَةً[٢].

فَأَقْبَلَ النَّاسُ عَلَيْهِ يَنْهَلُونَ مِنْ عِلْمِهِ الْغَزِيرِ ...

وَالْتَفُّوا حَوْلَهُ يُصِيخُونَ[٣] إِلَىٰ مَوَاعِظِهِ الَّتِي تَسْتَلِينُ الْقُلُوبَ الْقَاسِيَةَ ، وَتَسْتَدِرُّ الدُّمُوعَ الْعَاصِيَةَ .

وَيَعُونَ[٤] حِكْمَتَهُ الَّتِي تَخْلِبُ الْأَلْبَابَ ...

وَيَتَأَسَّوْنَ بِسِيرَتِهِ الَّتِي كَانَتْ أَطْيَبَ مِنْ نَشْرِ الْمِسْكِ[٥]...

وَلَقَدِ انْتَشَرَ أَمْرُ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ فِي الْبِلَادِ وَفَشَا ذِكْرُهُ[٦] بَيْنَ الْعِبَادِ ...

فَجَعَلَ الْخُلَفَاءُ وَالْأُمَرَاءُ يَتَسَاءَلُونَ عَنْهُ وَيَتَسَقَّطُونَ[٧] أَخْبَارَهُ ...

* * *

حَدَّثَ خَالِدُ بْنُ صَفْوَانَ[٨] قَالَ :

لَقِيتُ مَسْلَمَةَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ[٩] فِي « الْحِيرَةِ »[١٠] فَقَالَ لِي :

---

(١) حبر أمّة مُحَمَّد : عالِمُ أُمّة مُحَمَّد ﷺ وعابدها .
(٢) الثّقة : من يعتمد عليه ، ويوثق بدينه وعلمه .
(٣) يصيخون : ينصتون .
(٤) يَعُون حكمته : يحفظون حكمته ويتدبَّرونها .
(٥) نشر المسك : ريح المسك .
(٦) فشا ذكره : شاع ذكره وانتشر .
(٧) يتسقطون أخباره : يتتبعون أخباره .
(٨) خالد بن صفوان : من فصحاء العرب ، جالس عمر بن عبد العزيز وهشام بن عبد الملك ، وعاش حتى أدرك السّفاح العباسي وحظي عنده .
(٩) مَسْلَمَة بْن عَبْدِ الْمَلِكِ : أَمِيرٌ قائدٌ من أبطالِ بني أميّة ، غزا القسطنطينية ، وبنى فيها مسجد مَسْلَمَة .
(١٠) الحيرة بلدة قديمة في العراق على بعد ثلاثة أميال من الكوفة ، اندثرت ولم يبق لها وجود اليوم .

أَخْبِرْنِي يَا خَالِدُ عَنْ حَسَنِ الْبَصْرَةِ فَإِنِّي أَظُنُّ أَنَّكَ تَعْرِفُ مِنْ أَمْرِهِ مَا لَا يَعْرِفُ سِوَاكَ .

فَقُلْتُ : أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ ...

أَنَا خَيْرُ مَنْ يُخْبِرُكَ عَنْهُ بِعِلْمٍ ...

فَأَنَا جَارُهُ فِي بَيْتِهِ ، وَجَلِيسُهُ فِي مَجْلِسِهِ ، وَأَعْلَمُ أَهْلِ « الْبَصْرَةِ » بِهِ .

فَقَالَ مَسْلَمَةُ : هَاتِ مَا عِنْدَكَ .

فَقُلْتُ : إِنَّهُ امْرُؤٌ سَرِيرَتُهُ كَعَلَانِيَتِهِ ...

وَقَوْلُهُ كَفِعْلِهِ ...

إِذَا أَمَرَ بِمَعْرُوفٍ كَانَ أَعْمَلَ النَّاسِ بِهِ ...

وَإِذَا نَهَىٰ عَنْ مُنْكَرٍ كَانَ أَتْرَكَ النَّاسِ لَهُ ...

وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ مُسْتَغْنِيًا عَنِ النَّاسِ ؛ زَاهِدًا بِمَا فِي أَيْدِيهِمْ ...

وَرَأَيْتُ النَّاسَ مُحْتَاجِينَ إِلَيْهِ ؛ طَالِبِينَ مَا عِنْدَهُ ...

فَقَالَ مَسْلَمَةُ : حَسْبُكَ[1] يَا خَالِدُ حَسْبُكَ !! .

كَيْفَ يَضِلُّ قَوْمٌ فِيهِمْ مِثْلُ هَٰذَا ؟! .

* * *

وَلَمَّا وَلِيَ الْحَجَّاجُ بْنُ يُوسُفَ الثَّقَفِيُّ « الْعِرَاقَ » ، وَطَغَىٰ فِي وِلَايَتِهِ وَتَجَبَّرَ ...

كَانَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ أَحَدَ الرِّجَالِ الْقَلَائِلِ الَّذِينَ تَصَدَّوْا لِطُغْيَانِهِ[2]،

---

(١) حسبك : يكفيك.

(٢) تصدوا لطغيانه : ناهضوا طغيانه وعارضوه.

وَجَهَرُوا بَيْنَ النَّاسِ بِسُوءِ أَفْعَالِهِ ، وَصَدَعُوا[1] بِكَلِمَةِ الْحَقِّ فِي وَجْهِهِ .

مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الْحَجَّاجَ بَنَىٰ لِنَفْسِهِ بِنَاءً فِي « وَاسِطَ »[2].

فَلَمَّا فَرَغَ مِنْهُ ، نَادَىٰ فِي النَّاسِ أَنْ يَخْرُجُوا لِلْفُرْجَةِ عَلَيْهِ وَالدُّعَاءِ لَهُ بِالْبَرَكَةِ .

فَلَمْ يَشَإِ الْحَسَنُ أَنْ يُفَوِّتَ عَلَىٰ نَفْسِهِ فُرْصَةَ اجْتِمَاعِ النَّاسِ هَٰذِهِ ...

فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ لِيَعِظَهُمْ وَيُذَكِّرَهُمْ ، وَيُزَهِّدَهُمْ بِعَرَضِ الدُّنْيَا ، وَيُرَغِّبَهُمْ بِمَا عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ...

وَلَمَّا بَلَغَ الْمَكَانَ ، وَنَظَرَ إِلَىٰ جُمُوعِ النَّاسِ وَهِيَ تَطُوفُ بِالْقَصْرِ الْمُنِيفِ مَأْخُوذَةً بِرَوْعَةِ بِنَائِهِ ، مَدْهُوشَةً بِسَعَةِ أَرْجَائِهِ[3] مَشْدُودَةً إِلَىٰ بَرَاعَةِ زَخَارِفِهِ ... وَقَفَ فِيهِمْ خَطِيبًا ، وَكَانَ فِي جُمْلَةِ مَا قَالَهُ :

لَقَدْ نَظَرْنَا فِيمَا ابْتَنَىٰ أَخْبَثُ الْأَخْبَثِينَ ؛ فَوَجَدْنَا أَنَّ « فِرْعَوْنَ » شَيَّدَ أَعْظَمَ مِمَّا شَيَّدَ ، وَبَنَىٰ أَعْلَىٰ مِمَّا بَنَىٰ ...

ثُمَّ أَهْلَكَ اللَّهُ « فِرْعَوْنَ » ، وَأَتَىٰ عَلَىٰ مَا بَنَىٰ[4] وَشَيَّدَ ...

لَيْتَ الْحَجَّاجَ يَعْلَمُ أَنَّ أَهْلَ السَّمَاءِ قَدْ مَقَتُوهُ ، وَأَنَّ أَهْلَ الْأَرْضِ قَدْ غَرُّوهُ[5]...

وَمَضَىٰ يَتَدَفَّقُ عَلَىٰ هَٰذَا الْمِنْوَالِ[6] حَتَّىٰ أَشْفَقَ عَلَيْهِ أَحَدُ السَّامِعِينَ مِنْ نِقْمَةِ الْحَجَّاجِ ، فَقَالَ لَهُ :

حَسْبُكَ يَا أَبَا سَعِيدٍ ... حَسْبُكَ .

فَقَالَ لَهُ الْحَسَنُ :

---

(١) صَدَعوا بكلمة الحق : جهروا بكلمة الحق.
(٢) واسط : مدينة متوسطة بين البصرة والكوفة.
(٣) أرجائه : نواحيه.
(٤) أَتَىٰ عَلَىٰ مَا بَنَىٰ : دمَّر ما بَنَىٰ.
(٥) قَدْ غَرُّوه : خدعوه ، ونافقوه حتى امتلأ غرورًا.
(٦) عَلَىٰ هَٰذَا المنوال : عَلَىٰ هَٰذَا الأسلوب.

لَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ الْمِيثَاقَ عَلَىٰ أَهْلِ الْعِلْمِ لَيُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا يَكْتُمُونَهُ ...

* * *

وَفِي الْيَوْمِ التَّالِي دَخَلَ الْحَجَّاجُ إِلَىٰ مَجْلِسِهِ وَهُوَ يَتَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ[١] وَقَالَ لِجُلَّاسِهِ :

تَبًّا لَكُمْ وَسُحْقًا[٢] ...

يَقُومُ عَبْدٌ مِنْ عَبِيدِ أَهْلِ « الْبَصْرَةِ » وَيَقُولُ فِينَا مَا شَاءَ أَنْ يَقُولَ ، ثُمَّ لَا يَجِدُ فِيكُمْ مَنْ يَرُدُّهُ أَوْ يُنْكِرُ عَلَيْهِ !! ...

وَاللَّهِ لَأَسْقِيَنَّكُمْ مِنْ دَمِهِ يَا مَعْشَرَ الْجُبَنَاءِ .

ثُمَّ أَمَرَ بِالسَّيْفِ وَالنِّطْعِ[٣] ... فَأُحْضِرَا ...

وَدَعَا بِالْجَلَّادِ ؛ فَمَثَلَ وَاقِفًا بَيْنَ يَدَيْهِ .

ثُمَّ وَجَّهَ إِلَىٰ الْحَسَنِ بَعْضَ شُرَطِهِ ...

وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَأْتُوهُ بِهِ ...

وَمَا هُوَ إِلَّا قَلِيلٌ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَسَنُ ، فَشَخَصَتْ[٤] نَحْوَهُ الْأَبْصَارُ ...

وَوَجِفَتْ[٥] عَلَيْهِ الْقُلُوبُ .

فَلَمَّا رَأَىٰ الْحَسَنُ السَّيْفَ وَالنِّطْعَ وَالْجَلَّادَ ، حَرَّكَ شَفَتَيْهِ ...

ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَىٰ الْحَجَّاجِ وَعَلَيْهِ جَلَالُ الْمُؤْمِنِ ، وَعِزَّةُ الْمُسْلِمِ ، وَوَقَارُ الدَّاعِيَةِ إِلَىٰ اللَّهِ .

---

(١) يتميز من الغيظ : يتقطع من الغضب .
(٢) تبًّا لكم وسحقًا : هلاكًا لكم وبُعْدًا .
(٣) النّطع : بساط من الجلد يفرش تحت المحكوم عليه بقطع الرأس .
(٤) شَخَصت الأبصار : فتحت العيون .
(٥) وَجِفت القلوب : خفقت القلوب .

فَلَمَّا رَآهُ الْحَجَّاجُ عَلَىٰ حَالِهِ هَٰذِهِ ؛ هَابَهُ أَشَدَّ الْهَيْبَةِ وَقَالَ لَهُ :

هَا هُنَا يَا أَبَا سَعِيدٍ ... هَا هُنَا ...

ثُمَّ مَا زَالَ يُوَسِّعُ لَهُ وَيَقُولُ :

هَا هُنَا ... وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ فِي دَهْشَةٍ وَاسْتِغْرَابٍ حَتَّىٰ أَجْلَسَهُ عَلَىٰ فِرَاشِهِ .

وَلَمَّا أَخَذَ الْحَسَنُ مَجْلِسَهُ الْتَفَتَ إِلَيْهِ الْحَجَّاجُ ، وَجَعَلَ يَسْأَلُهُ عَنْ بَعْضِ أُمُورِ الدِّينِ ، وَالْحَسَنُ يُجِيبُهُ عَنْ كُلِّ مَسْأَلَةٍ بِجَنَانٍ ثَابِتٍ ، وَبَيَانٍ سَاحِرٍ ، وَعِلْمٍ وَاسِعٍ .

فَقَالَ لَهُ الْحَجَّاجُ :

أَنْتَ سَيِّدُ الْعُلَمَاءِ يَا أَبَا سَعِيدٍ .

ثُمَّ دَعَا بِغَالِيَةٍ[1] وَطَيَّبَ لَهُ بِهَا لِحْيَتَهُ وَوَدَّعَهُ .

وَلَمَّا خَرَجَ الْحَسَنُ مِنْ عِنْدِهِ ، تَبِعَهُ حَاجِبُ[2] الْحَجَّاجِ وَقَالَ لَهُ :

يَا أَبَا سَعِيدٍ ، لَقَدْ دَعَاكَ الْحَجَّاجُ لِغَيْرِ مَا فَعَلَ بِكَ ، وَإِنِّي رَأَيْتُكَ عِنْدَمَا أَقْبَلْتَ وَرَأَيْتَ السَّيْفَ وَالنَّطْعَ ؛ قَدْ حَرَّكْتَ شَفَتَيْكَ ، فَمَاذَا قُلْتَ ؟ .

فَقَالَ الْحَسَنُ :

لَقَدْ قُلْتُ : يَا وَلِيَّ نِعْمَتِي وَمَلَاذِي عِنْدَ كُرْبَتِي ؛ اجْعَلْ نِقْمَتَهُ بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَيَّ كَمَا جَعَلْتَ النَّارَ بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ .

* * *

(١) الْغَالِيَة : أنواع من الطِّيب تُمزج ويُتطيب بها.
(٢) حاجبُ الحجاج : بوّاب الحجاج .

وَلَقَدْ كَثُرَتْ مَوَاقِفُ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ هَٰذِهِ مَعَ الْوُلَاةِ وَالْأُمَرَاءِ ، فَكَانَ يَخْرُجُ مِنْ كُلٍّ مِنْهَا عَظِيمًا فِي أَعْيُنِ ذَوِي السُّلْطَانِ ، عَزِيزًا بِاللَّهِ ، مَحْفُوظًا بِحِفْظِهِ ...

مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ بَعْدَ أَنِ انْتَقَلَ الْخَلِيفَةُ الزَّاهِدُ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ[1] إِلَىٰ جِوَارِ رَبِّهِ وَآلَتِ[2] الْخِلَافَةُ إِلَىٰ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، وَلَّىٰ عَلَىٰ « الْعِرَاقِ » عُمَرَ بْنَ هُبَيْرَةَ الْفَزَارِيَّ ...

ثُمَّ زَادَهُ بَسْطَةً فِي السُّلْطَانِ فَأَضَافَ إِلَيْهِ « خُرَاسَانَ » أَيْضًا .

وَسَارَ يَزِيدُ فِي النَّاسِ سِيرَةً غَيْرَ سِيرَةِ سَلَفِهِ الْعَظِيمِ ...

فَكَانَ يُرْسِلُ إِلَىٰ عُمَرَ بْنِ هُبَيْرَةَ بِالْكِتَابِ تِلْوَ الْكِتَابِ ، وَيَأْمُرُهُ بِإِنْفَاذِ[3] مَا فِيهَا وَلَوْ كَانَ مُجَافِيًا لِلْحَقِّ أَحْيَانًا ...

فَدَعَا عُمَرُ بْنُ هُبَيْرَةَ كُلًّا مِنَ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ ، وَعَامِرِ بْنِ شُرَاحِيلَ الْمَعْرُوفِ بِالشَّعْبِيِّ[4] وَقَالَ لَهُمَا :

إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَزِيدَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ قَدِ اسْتَخْلَفَهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِبَادِهِ ، وَأَوْجَبَ طَاعَتَهُ عَلَىٰ النَّاسِ .

وَقَدْ وَلَّانِي مَا تَرَوْنَ مِنْ أَمْرِ « الْعِرَاقِ » ثُمَّ زَادَنِي فَوَلَّانِي « فَارِسَ » .

وَهُوَ يُرْسِلُ إِلَيَّ أَحْيَانًا كُتُبًا يَأْمُرُنِي فِيهَا بِإِنْفَاذِ مَا لَا أَطْمَئِنُّ إِلَىٰ عَدَالَتِهِ .

فَهَلْ تَجِدَانِ لِي فِي مُتَابَعَتِي إِيَّاهُ وَ إِنْفَاذِ أَوَامِرِهِ مَخْرَجًا فِي الدِّينِ ؟ .

فَأَجَابَ الشَّعْبِيُّ جَوَابًا فِيهِ مُلَاطَفَةٌ لِلْخَلِيفَةِ ، وَمُسَايَرَةٌ لِلْوَالِي ...

وَالْحَسَنُ سَاكِتٌ ...

---

(١) عمر بن عبد العزيز : انظره ص ٨٧، ٢٥٧، ٣٢٩.

(٢) آلت الخلافة إلى فلان : صارت إليه وتولاها .

(٣) إنفاذ ما فيها : إجراء ما فيها .

(٤) عامر بن شراحيل : انظره ص ١٧٧.

فَالْتَفَتَ عُمَرُ بْنُ هُبَيْرَةَ إِلَىٰ الْحَسَنِ وَقَالَ :

وَمَا تَقُولُ أَنْتَ يَا أَبَا سَعِيدٍ ؟ .

فَقَالَ : يَا بْنَ هُبَيْرَةَ خَفِ اللَّهَ فِي يَزِيدَ ؛ وَلَا تَخَفْ يَزِيدَ فِي اللَّهِ ...

وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَزَّ يَمْنَعُكَ[1] مِنْ يَزِيدَ ، وَأَنَّ يَزِيدَ لَا يَمْنَعُكَ مِنَ اللَّهِ ...

يَا بْنَ هُبَيْرَةَ إِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَنْزِلَ بِكَ مَلَكٌ غَلِيظٌ شَدِيدٌ لَا يَعْصِي اللَّهَ مَا أَمَرَهُ ، فَيُزِيلَكَ عَنْ سَرِيرِكَ هَٰذَا ، وَيَنْقُلَكَ مِنْ سَعَةِ قَصْرِكَ إِلَىٰ ضِيقِ قَبْرِكَ ...

حَيْثُ لَا تَجِدُ هُنَاكَ يَزِيدَ ، وَ إِنَّمَا تَجِدُ عَمَلَكَ الَّذِي خَالَفْتَ فِيهِ رَبَّ يَزِيدَ ...

يَا بْنَ هُبَيْرَةَ إِنَّكَ إِنْ تَكُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَفِي طَاعَتِهِ ؛ يَكْفِكَ[2] بَائِقَةَ يَزِيدَ ابْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ...

وَ إِنْ تَكُ مَعَ يَزِيدَ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يَكِلُكَ[3] إِلَىٰ يَزِيدَ .

وَاعْلَمْ يَا بْنَ هُبَيْرَةَ أَنَّهُ لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ كَائِنًا مَنْ كَانَ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ عَزَّ وَجَلَّ .

فَبَكَىٰ عُمَرُ بْنُ هُبَيْرَةَ حَتَّىٰ بَلَّلَتْ دُمُوعُهُ لِحْيَتَهُ ...

وَمَالَ عَنِ الشَّعْبِيِّ إِلَىٰ الْحَسَنِ ...

وَبَالَغَ فِي إِعْظَامِهِ وَ إِكْرَامِهِ ...

فَلَمَّا خَرَجَا مِنْ عِنْدِهِ تَوَجَّهَا إِلَىٰ الْمَسْجِدِ ، فَاجْتَمَعَ عَلَيْهِمَا النَّاسُ ، وَجَعَلُوا يَسْأَلُونَهُمَا عَنْ خَبَرِهِمَا مَعَ أَمِيرِ « الْعِرَاقَيْنِ »[4].

---

(١) يمنعك من يزيد : يحميك من يزيد .
(٢) يكفيك بائقة يزيد : يمنع عنك أذى يزيد .
(٣) يكلك : يتركك .
(٤) العراقان : الكوفة والبصرة .

فَالْتَفَتَ الشَّعْبِيُّ إِلَيْهِمْ وَقَالَ :

أَيُّهَا النَّاسُ مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يُؤْثِرَ[1] اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ عَلَىٰ خَلْقِهِ فِي كُلِّ مَقَامٍ فَلْيَفْعَلْ ...

فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا قَالَ الْحَسَنُ لِعُمَرَ بْنِ هُبَيْرَةَ قَوْلًا أَجْهَلُهُ ...

وَلَكِنِّي أَرَدْتُ فِيمَا قُلْتُهُ وَجْهَ ابْنِ هُبَيْرَةَ ، وَأَرَادَ فِيمَا قَالَهُ وَجْهَ اللَّهِ ...

فَأَقْصَانِي اللَّهُ مِنِ ابْنِ هُبَيْرَةَ وَأَدْنَاهُ مِنْهُ وَحَبَّبَهُ إِلَيْهِ .

* * *

وَقَدْ عَاشَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ نَحْوًا مِنْ ثَمَانِينَ عَامًا مَلَأَ الدُّنْيَا خِلَالَهَا عِلْمًا وَحِكْمَةً وَفِقْهًا .

وَكَانَ مِنْ أَجَلِّ مَا وَرَّثَهُ لِلْأَجْيَالِ رَقَائِقُهُ[2] الَّتِي ظَلَّتْ عَلَىٰ الْأَيَّامِ رَبِيعًا لِلْقُلُوبِ ...

وَمَوَاعِظُهُ الَّتِي هَزَّتْ وَمَا زَالَتْ تَهُزُّ الْأَفْئِدَةَ ، وَتَسْتَدِرُّ الشُّئُونَ[3]، وَتَدُلُّ التَّائِهِينَ عَلَىٰ اللَّهِ ، وَتُنَبِّهُ الْغَارِّينَ الْغَافِلِينَ[4] إِلَىٰ حَقِيقَةِ الدُّنْيَا ، وَحَالِ النَّاسِ مَعَهَا .

مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ لِسَائِلٍ سَأَلَهُ عَنِ الدُّنْيَا وَحَالِهَا :

تَسْأَلُنِي عَنِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ !! ...

إِنَّ مَثَلَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ كَمَثَلِ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ...

مَتَىٰ ازْدَدْتَ مِنْ أَحَدِهِمَا قُرْبًا ازْدَدْتَ مِنَ الْآخَرِ بُعْدًا .

---

(١) يؤثر : يفضل .

(٢) الرقائق : المواعظ والوصايا ، سميت كذلك لرقتها أو لأنها ترقق القلوب .

(٣) الشئون : العروق التي تجري منها الدموع . (٤) الغارين الغافلين : المهملين .

وَتَقُولُ لِي صِفْ لِي هَٰذِهِ الدَّارَ !! ...

فَمَاذَا أَصِفُ لَكَ مِنْ دَارٍ أَوَّلُهَا عَنَاءٌ[1] وَآخِرُهَا فَنَاءٌ ...

وَفِي حَلَالِهَا حِسَابٌ ، وَفِي حَرَامِهَا عِقَابٌ ...

مَنِ اسْتَغْنَىٰ فِيهَا فُتِنَ ، وَمَنِ افْتَقَرَ فِيهَا حَزِنَ ...

وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضًا قَوْلُهُ لِآخَرَ سَأَلَهُ عَنْ حَالِهِ وَحَالِ النَّاسِ :

وَيْحَنَا مَاذَا فَعَلْنَا بِأَنْفُسِنَا ؟!! ...

لَقَدْ أَهْزَلْنَا دِينَنَا ، وَسَمَّنَّا دُنْيَانَا ...

وَأَخْلَقْنَا[2] أَخْلَاقَنَا ، وَجَدَّدْنَا فُرُشَنَا وَثِيَابَنَا ...

يَتَّكِئُ أَحَدُنَا عَلَىٰ شِمَالِهِ ، وَيَأْكُلُ مِنْ مَالِ غَيْرِ مَالِهِ ...

طَعَامُهُ غَصْبٌ ...

وَخِدْمَتُهُ سُخْرَةٌ[3] ...

يَدْعُو بِحُلْوٍ بَعْدَ حَامِضٍ ...

وَبِحَارٍّ بَعْدَ بَارِدٍ ...

وَبِرَطْبٍ بَعْدَ يَابِسٍ ...

حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتْهُ الْكِظَّةُ[4] تَجَشَّأَ[5] مِنَ الْبَشَمِ[6] ثُمَّ قَالَ :

يَا غُلَامُ ...

(١) عناء : تعب ونصب

(٢) أخلق أخلاقنا : أبليا أخلاقنا .

(٣) السُّخْرة : العمل قهرًا وبلا أجرة .

(٤) الكظّة : ما يعتري الإنسان عند الامتلاء من الطّعام من الضّيق والألم .

(٥) تجشّأ : أخرج ريحًا من فمه مع صوت من شدّة الشّبع . (٦) البَشَم : التّخمة .

هَاتِ هَاضُومًا يَهْضِمُ الطَّعَامَ ...

يَا أُخَيْمِقُ[١] - وَاللَّهِ - لَنْ تَهْضِمَ إِلَّا دِينَكَ ...

أَيْنَ جَارُكَ الْمُحْتَاجُ ؟!! .

أَيْنَ يَتِيمُ قَوْمِكَ الْجَائِعُ ؟!! .

أَيْنَ مِسْكِينُكَ الَّذِي يَنْظُرُ إِلَيْكَ ؟!! .

أَيْنَ مَا وَصَّاكَ بِهِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ؟!! .

لَيْتَكَ تَعْلَمُ أَنَّكَ عَدَدٌ ...

وَأَنَّهُ كُلَّمَا غَابَتْ عَنْكَ شَمْسُ يَوْمٍ نَقَصَ شَيْءٌ مِنْ عَدَدِكَ ...

وَمَضَىٰ بَعْضُكَ مَعَهُ ...

* * *

وَفِي لَيْلَةِ الْجُمُعَةِ مِنْ غُرَّةِ رَجَبٍ[٢] سَنَةَ مِائَةٍ وَعَشْرٍ ، لَبَّىٰ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ نِدَاءَ رَبِّهِ ...

فَلَمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ وَشَاعَ فِيهِمْ نَعْيُهُ ؛ ارْتَجَّتِ « الْبَصْرَةُ » لِمَوْتِهِ رَجًّا ...

فَغُسِّلَ وَكُفِّنَ وَصُلِّيَ عَلَيْهِ بَعْدَ الْجُمُعَةِ فِي الْجَامِعِ الَّذِي قَضَىٰ فِي رِحَابِهِ جُلَّ حَيَاتِهِ عَالِمًا وَمُعَلِّمًا ، وَدَاعِيًا إِلَىٰ اللَّهِ .

ثُمَّ تَبِعَ النَّاسُ جَمِيعًا جَنَازَتَهُ ...

فَلَمْ تُقَمْ صَلَاةُ الْعَصْرِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ فِي جَامِعِ « الْبَصْرَةِ » ...

لِأَنَّهُ لَمْ يَبْقَ فِيهِ أَحَدٌ يُقِيمُ الصَّلَاةَ ...

---

(١) الأخيمق : تصغير أحمق وهو القليل العقل الفاسد الرأي .

(٢) غرة رجب : الغرة من كل شيء أوله وطلعته ، وغرة رجب : أول رجب .

وَلَا يَعْلَمُ النَّاسُ أَنَّ الصَّلَاةَ عُطِّلَتْ فِي جَامِعِ «الْبَصْرَةِ» مُنْذُ ابْتَنَاهُ الْمُسْلِمُونَ إِلَّا فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ ...

يَوْمِ انْتِقَالِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ إِلَى جِوَارِ رَبِّهِ (*) ...

(*) للاستزادة من أخبار الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ انظر:

١ - الطبقات الكبرى لابن سعد: ٧/١٥٦، ١٧٩، ١٨٢، ١٨٨، ١٩٥، ١٩٧، ٢٠٢، وغيرها من الصفحات «انظر فهارس الكتاب في المجلد الأخير».

٢ - صفة الصفوة لابن الجوزي: ٣/٢٣٣ - ٢٣٧ «طبعة دار الناشر بحلب».

٣ - حلية الأولياء للأصفهاني: ٢/١٣١ - ١٦١.

٤ - تاريخ خليفة بن خياط: ١٢٣، ١٨٩، ٢٨٧، ٣٣١، ٣٥٤.

٥ - وفيات الأعيان لابن خلكان: ١/٣٥٤ - ٣٥٦.

٦ - شذرات الذهب: ١/١٣٨ - ١٣٩.

٧ - ميزان الاعتدال: ١/٢٥٤ وما بعدها.

٨ - أمالي المرتضى: ١/١٥٢، ١٥٣، ١٥٨، ١٦٠.

٩ - البيان والتبيين: ٢/١٧٣ و٣/١٤٤.

١٠- المحبر لمحمد بن حبيب: ٢٣٥، ٣٧٨.

١١- كتاب الوفيات لأحمد بن حسن بن علي بن الخطيب: ١٠٨، ١٠٩.

١٢- الحسن البصري لإحسان عباس.

شُرَيْحٌ الْقَاضِي

«قِيلَ لِشُرَيْحٍ : بِأَيِّ شَيْءٍ أَصَبْتَ هَـٰذَا الْعِلْمَ ؟ ...

فَقَالَ : بِمُذَاكَرَةِ الْعُلَمَاءِ : آخُذُ مِنْهُمْ وَأُعْطِيهِمْ»

[سُفْيَانُ الْأَوْسِيُّ]

ابْتَاعَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَرَسًا مِنْ رَجُلٍ مِنَ الْأَعْرَابِ وَنَقَدَهُ[1] ثَمَنَهُ ، ثُمَّ امْتَطَىٰ[2] صَهْوَتَهُ وَمَضَىٰ بِهِ .

لَكِنَّهُ مَا كَادَ يَبْتَعِدُ بِالْفَرَسِ طَوِيلًا حَتَّىٰ ظَهَرَ فِيهِ عَطَبٌ عَاقَهُ عَنْ مُوَاصَلَةِ الْجَرْيِ ، فَانْثَنَىٰ[3] بِهِ عَائِدًا مِنْ حَيْثُ انْطَلَقَ ، وَقَالَ لِلرَّجُلِ :

خُذْ فَرَسَكَ فَإِنَّهُ مَعْطُوبٌ .

فَقَالَ الرَّجُلُ : لَا آخُذُهُ - يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - وَقَدْ بِعْتُهُ مِنْكَ سَلِيمًا صَحِيحًا .

فَقَالَ عُمَرُ : اجْعَلْ بَيْنِي وَبَيْنَكَ حَكَمًا .

فَقَالَ الرَّجُلُ : يَحْكُمُ بَيْنَنَا شُرَيْحُ بْنُ الْحَارِثِ الْكِنْدِيُّ .

فَقَالَ عُمَرُ : رَضِيتُ بِهِ .

* * *

احْتَكَمَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَصَاحِبُ الْفَرَسِ إِلَىٰ شُرَيْحٍ ، فَلَمَّا سَمِعَ شُرَيْحٌ مَقَالَةَ الْأَعْرَابِيِّ ؛ الْتَفَتَ إِلَىٰ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ وَقَالَ :

هَلْ أَخَذْتَ الْفَرَسَ سَلِيمًا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ .

فَقَالَ عُمَرُ : نَعَمْ .

---

(١) نقده ثمنه : دفع له ثمنه .

(٢) امتطىٰ صهوته : ركب علىٰ ظهره ، والصهوة : مَقْعَدُ الْفَارِس من الْفَرَس . (٣) انْثَنَىٰ : انعطف .

فَقَالَ شُرَيْحٌ : احْتَفِظْ بِمَا اشْتَرَيْتَ - يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - أَوْ رُدَّ كَمَا أَخَذْتَ .

فَنَظَرَ عُمَرُ إِلَىٰ شُرَيْحٍ مُعْجَبًا ، وَقَالَ :

وَهَلِ الْقَضَاءُ إِلَّا هَكَذَا ؟! ...

قَوْلٌ فَصْلٌ[١]، وَحُكْمٌ عَدْلٌ .

سِرْ إِلَىٰ « الْكُوفَةِ » فَقَدْ وَلَّيْتُكَ قَضَاءَهَا .

* * *

لَمْ يَكُنْ شُرَيْحُ بْنُ الْحَارِثِ يَوْمَ وَلَّاهُ عُمَرُ الْقَضَاءَ ، رَجُلًا مَجْهُولَ الْمَقَامِ فِي الْمُجْتَمَعِ الْمَدَنِيِّ ، أَوِ امْرَءًا مَغْمُورَ[٢] الْمَنْزِلَةِ بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ وَأَصْحَابِ الرَّأْيِ مِنْ جِلَّةِ[٣] الصَّحَابَةِ وَكِبَارِ التَّابِعِينَ .

فَقَدْ كَانَ أَصْحَابُ الْفَضْلِ وَأَهْلُ السَّابِقَةِ[٤] يُقَدِّرُونَ لِشُرَيْحٍ فِطْنَتَهُ الْحَادَّةَ وَذَكَاءَهُ الْفَذَّ ، وَخُلُقَهُ الرَّفِيعَ ، وَطُولَ تَجْرِبَتِهِ فِي الْحَيَاةِ وَعُمْقَهَا ...

فَهُوَ رَجُلٌ « يَمَنِيُّ » الْمَوْطِنِ ، « كِنْدِيُّ »[٥] الْعَشِيرَةِ ، قَضَىٰ شَطْرًا غَيْرَ يَسِيرٍ مِنْ حَيَاتِهِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ .

فَلَمَّا أَشْرَقَتِ الْجَزِيرَةُ الْعَرَبِيَّةُ بِنُورِ الْهِدَايَةِ ، وَنَفَذَتْ أَشِعَّةُ الْإِسْلَامِ إِلَىٰ أَرْضِ « الْيَمَنِ » ، كَانَ شُرَيْحٌ مِنْ أَوَائِلِ الْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ ، الْمُسْتَجِيبِينَ لِدَعْوَةِ الْهُدَىٰ وَالْحَقِّ .

---

(١) قولٌ فَصْلٌ : قَوْل حقٌ لا باطِلَ فيه .
(٢) المغمور : المجهول الخامِلُ الذِّكر .
(٣) جلة الصّحابة : سادة الصّحابة وعظماؤهم .
(٤) أهل السّابقة : أصْحاب التقدُّم .
(٥) كِنْدي العشيرة : منسوب إلى كِنْدة [بكسر الكاف وسكون النّون] وهي قبيلة عربية عظيمة ظهر منها كثير من المحدثين والعلماء .

وَكَانَ عَارِفُو فَضْلِهِ وَمُقَدِّرُو شَمَائِلِهِ[١] وَمَزَايَاهُ ؛ يَأْسَوْنَ عَلَيْهِ أَشَدَّ الْأَسَىٰ ، وَيَتَمَنَّوْنَ أَنْ لَوْ أُتِيحَ[٢] لَهُ أَنْ يَفِدَ عَلَىٰ الْمَدِينَةِ مُبَكِّرًا لِيَلْقَىٰ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ أَنْ يَلْحَقَ بِالرَّفِيقِ الْأَعْلَىٰ ، وَلِيَنْهَلَ مِنْ مَوَارِدِهِ[٣] الصَّافِيَةِ الْمُصَفَّاةِ مُبَاشَرَةً لَا بِالْوَسَاطَةِ ...

وَلِكَيْ يَحْظَىٰ بِشَرَفِ الصُّحْبَةِ بَعْدَ أَنْ حَظِيَ بِنِعْمَةِ الْإِيمَانِ ...

وَبِذَلِكَ يَجْمَعُ الْخَيْرَ مِنْ أَطْرَافِهِ ...

وَلَكِنَّ مَا قُدِّرَ كَانَ ...

* * *

وَلَمْ يَكُنِ الْفَارُوقُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، مُتَعَجِّلًا حِينَ عَهِدَ بِمَنْصِبٍ مِنْ مَنَاصِبِ الْقَضَاءِ الْكُبْرَىٰ لِرَجُلٍ مِنَ التَّابِعِينَ ، عَلَىٰ الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ سَمَاءَ الْإِسْلَامِ كَانَتْ يَوْمَئِذٍ مَا تَزَالُ تَتَأَلَّقُ بِالنُّجُومِ الزُّهْرِ[٤] مِنْ صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ... فَقَدْ أَثْبَتَتِ الْأَيَّامُ صِدْقَ فِرَاسَةِ[٥] عُمَرَ ، وَصَوَابَ تَدْبِيرِهِ ...

إِذْ ظَلَّ شُرَيْحٌ يَقْضِي بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ نَحْوًا مِنْ سِتِّينَ عَامًا مُتَتَابِعَةً مِنْ غَيْرِ انْقِطَاعٍ ...

وَقَدْ تَعَاقَبَ عَلَىٰ إِقْرَارِهِ فِي مَنْصِبِهِ كُلٌّ مِنْ عُمَرَ ، وَعُثْمَانَ[٦] ، وَعَلِيٍّ ، وَمُعَاوِيَةَ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ ...

---

(١) شمائله : أخلاقه ومزاياه .
(٢) أتيح له : قُدّر له .
(٣) ينهل من موارده : يرتوي من ينابيعه .
(٤) النّجوم الزُّهر : النّجوم المضيئة المتلألئة .
(٥) الفراسة : دِقّة التّوقّع .
(٦) عثمان بن عفان : انظره في كتاب « صور من حياة الصحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطّبعة الشرعية .

كَمَا أَقَرَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ مَنْ جَاءَ بَعْدَ مُعَاوِيَةَ مِنْ خُلَفَاءِ بَنِي « أُمَيَّةَ » ، حَتَّىٰ طَلَبَ الرَّجُلُ إِعْفَاءَهُ مِنْ مَنْصِبِهِ إِبَّانَ[1] وَلَايَةِ الْحَجَّاجِ .

وَكَانَ قَدْ بَلَغَ السَّابِعَةَ بَعْدَ الْمِائَةِ مِنْ حَيَاتِهِ الْمَدِيدَةِ الرَّشِيدَةِ الْحَافِلَةِ بِالْمَفَاخِرِ وَالْمَآثِرِ[2].

وَلَقَدِ ازْدَانَ تَارِيخُ الْقَضَاءِ فِي الْإِسْلَامِ بِبَدَائِعَ مِنْ مَوَاقِفِ شُرَيْحٍ ، وَزَهَا بِرَوَائِعَ مِنِ انْصِيَاعِ[3] خَاصَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ لِشَرْعِ اللَّهِ الَّذِي يُمَثِّلُهُ شُرَيْحٌ ، وَنُزُولِهِمْ عِنْدَ أَحْكَامِهِ ...

وَامْتَلَأَتْ بُطُونُ الْكُتُبِ بِطَرَائِفِ هَٰذَا الرَّجُلِ الْفَذِّ وَأَخْبَارِهِ ، وَأَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ .

* * *

مِنْ ذَلِكَ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ افْتَقَدَ دِرْعًا لَهُ كَانَتْ أَثِيرَةً[4] عِنْدَهُ غَالِيَةً عَلَيْهِ ...

ثُمَّ مَا لَبِثَ أَنْ وَجَدَهَا فِي يَدِ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ[5] يَبِيعُهَا فِي سُوقِ « الْكُوفَةِ » ...

فَلَمَّا رَآهَا عَرَفَهَا وَقَالَ :

هَٰذِهِ دِرْعِي سَقَطَتْ عَنْ جَمَلٍ لِي فِي لَيْلَةِ كَذَا ... وَفِي مَكَانِ كَذَا ...

فَقَالَ الذِّمِّيُّ : بَلْ هِيَ دِرْعِي وَفِي يَدِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ...

(١) إبَّان : حين .
(٢) المآثر : الأفعال الحميدة ذوات الآثار الجليلة .
(٣) الانصياع : الاتباع .
(٤) أثيرة عنده : عزيزة عليه .
(٥) أهل الذمة : من يعيشون في ديار الإسلام من النصارىٰ واليهود .

فَقَالَ عَلِيٌّ : إِنَّمَا هِيَ دِرْعِي لَمْ أَبِعْهَا مِنْ أَحَدٍ ، وَلَمْ أَهَبْهَا لِأَحَدٍ حَتَّىٰ تَصِيرَ إِلَيْكَ ...

فَقَالَ الذِّمِّيُّ : بَيْنِي وَبَيْنَكَ قَاضِي الْمُسْلِمِينَ ...

فَقَالَ عَلِيٌّ : أَنْصَفْتَ ؛ فَهَلُمَّ إِلَيْهِ[1] ...

ثُمَّ إِنَّهُمَا ذَهَبَا إِلَىٰ شُرَيْحٍ الْقَاضِي ، فَلَمَّا صَارَا عِنْدَهُ فِي مَجْلِسِ الْقَضَاءِ ، قَالَ شُرَيْحٌ لِعَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :

مَا تَقُولُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ .

فَقَالَ : لَقَدْ وَجَدْتُ دِرْعِي هَٰذِهِ مَعَ هَٰذَا الرَّجُلِ ، وَقَدْ سَقَطَتْ مِنِّي فِي لَيْلَةِ كَذَا وَفِي مَكَانِ كَذَا ، وَهِيَ لَمْ تَصِلْ إِلَيْهِ لَا بِبَيْعٍ وَلَا هِبَةٍ .

فَقَالَ شُرَيْحٌ لِلذِّمِّيِّ : وَمَا تَقُولُ أَنْتَ أَيُّهَا الرَّجُلُ ؟ .

فَقَالَ : الدِّرْعُ دِرْعِي وَهِيَ فِي يَدِي ...

وَلَا أَتَّهِمُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْكَذِبِ ...

فَالْتَفَتَ شُرَيْحٌ إِلَىٰ عَلِيٍّ وَقَالَ :

لَا رَيْبَ[2] عِنْدِي فِي أَنَّكَ صَادِقٌ فِيمَا تَقُولُهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَنَّ الدِّرْعَ دِرْعُكَ ، وَلَٰكِنْ لَا بُدَّ لَكَ مِنْ شَاهِدَيْنِ يَشْهَدَانِ عَلَىٰ صِحَّةِ مَا ادَّعَيْتَ .

فَقَالَ عَلِيٌّ : نَعَمْ ...

مَوْلَايَ[3] «قَنْبَرٌ» ، وَوَلَدِي الْحَسَنُ يَشْهَدَانِ لِي ...

فَقَالَ شُرَيْحٌ :

---

(١) فهلم إليه : فبادر إليه .
(٢) لا ريب : لا شك .
(٣) مولاي : عبدي .

وَلَكِنَّ شَهَادَةَ الِابْنِ لِأَبِيهِ لَا تَجُوزُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .

فَقَالَ عَلِيٌّ : يَا سُبْحَانَ اللَّهِ !! ...

رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ لَا تَجُوزُ شَهَادَتُهُ !! ...

أَمَا سَمِعْتَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ :

(الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ) .

فَقَالَ شُرَيْحٌ : بَلَىٰ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ...

غَيْرَ أَنِّي لَا أُجِيزُ شَهَادَةَ الْوَلَدِ لِوَالِدِهِ .

عِنْدَ ذَٰلِكَ الْتَفَتَ عَلِيٌّ إِلَىٰ الذِّمِّيِّ وَقَالَ :

خُذْهَا ، فَلَيْسَ عِنْدِي شَاهِدٌ غَيْرُهُمَا ...

فَقَالَ الذِّمِّيُّ :

وَلَكِنِّي أَشْهَدُ بِأَنَّ الدِّرْعَ لَكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ...

ثُمَّ أَرْدَفَ[1] قَائِلًا : يَاللَّهِ ...

أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ يُقَاضِينِي أَمَامَ قَاضِيهِ !! ...

وَقَاضِيهِ يَقْضِي لِي عَلَيْهِ !! ...

أَشْهَدُ أَنَّ الدِّينَ الَّذِي يَأْمُرُ بِهَٰذَا لَحَقٌّ ...

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ...

اعْلَمْ أَيُّهَا الْقَاضِي أَنَّ الدِّرْعَ دِرْعُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَنَّنِي اتَّبَعْتُ الْجَيْشَ

(١) أردف : أضاف .

وَهُوَ مُنْطَلِقٌ إِلَىٰ « صِفِّينَ »[١]، فَسَقَطَتِ الدِّرْعُ عَنْ جَمَلِهِ الْأَوْرَقِ[٢] فَأَخَذْتُهَا .

فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :

أَمَا وَإِنَّكَ قَدْ أَسْلَمْتَ فَإِنِّي وَهَبْتُهَا لَكَ ...

وَوَهَبْتُ لَكَ مَعَهَا هَٰذَا الْفَرَسَ أَيْضًا .

وَلَمْ يَمْضِ عَلَىٰ هَٰذَا الْحَادِثِ زَمَنٌ طَوِيلٌ ، حَتَّىٰ شُوهِدَ الرَّجُلُ يُقَاتِلُ الْخَوَارِجَ[٣] تَحْتَ رَايَةِ عَلِيٍّ فِي يَوْمِ « النَّهْرَوَانِ »[٤]، وَيُمْعِنُ فِي الْقِتَالِ حَتَّىٰ كُتِبَتْ لَهُ الشَّهَادَةُ .

* * *

وَمِنْ رَوَائِعِ شُرَيْحٍ أَيْضًا أَنَّ ابْنَهُ قَالَ لَهُ يَوْمًا :

يَا أَبَتِ إِنَّ بَيْنِي وَبَيْنَ قَوْمٍ خُصُومَةً ، فَانْظُرْ فِيهَا ... فَإِنْ كَانَ الْحَقُّ لِي قَاضَيْتُهُمْ[٥]، وَإِنْ كَانَ لَهُمْ صَالَحْتُهُمْ ... ثُمَّ قَصَّ عَلَيْهِ قِصَّتَهُ .

فَقَالَ لَهُ : انْطَلِقْ فَقَاضِهِمْ ...

فَمَضَىٰ إِلَىٰ خُصُومِهِ وَدَعَاهُمْ إِلَىٰ الْمُقَاضَاةِ ، فَاسْتَجَابُوا لَهُ .

وَلَمَّا مَثُلُوا[٦] بَيْنَ يَدَيْ شُرَيْحٍ ، قَضَىٰ لَهُمْ عَلَىٰ وَلَدِهِ ...

فَلَمَّا رَجَعَ شُرَيْحٌ وَابْنُهُ إِلَىٰ الْبَيْتِ قَالَ الْوَلَدُ لِأَبِيهِ :

فَضَحْتَنِي يَا أَبَتِ ...

---

(١) صِفِّين : موضع بقرب الرَّقَّة من سورية وقعت فيه وقعة كبيرة بين علي ومعاوية رضي اللَّهُ عنهما .
(٢) الأورق : الذي لونُه لون الرماد .
(٣) الخوارج : كانوا من أتباع عليّ بن أبي طالب ، وخرجوا عليه لخلاف في الآراء ، وتطلق علَى من خرج علَى الخلفاء ، ونحوهم .
(٤) يوم النهروان : واقعة جرت بين الإمام عليّ رضي الله عنه وبين الخوارج .
(٥) قاضيتُهم : رفعت أمرهم إلى القضاء .
(٦) مثلوا : يقالُ مَثَل فلان بين يدي فلان أي قام مُنتصبًا بين يديه .

وَاللَّهِ لَوْ لَمْ أَسْتَشِرْكَ مِنْ قَبْلُ لَمَا لُمْتُكَ .

فَقَالَ شُرَيْحٌ :

يَا بُنَيَّ ، وَاللَّهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ مِلْءِ الْأَرْضِ مِنْ أَمْثَالِهِمْ ؛ وَلَكِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَعَزُّ عَلَيَّ مِنْكَ ...

لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ أُخْبِرَكَ بِأَنَّ الْحَقَّ لَهُمْ ؛ فَتُصَالِحَهُمْ صُلْحًا يُفَوِّتُ عَلَيْهِمْ بَعْضَ حَقِّهِمْ ، فَقُلْتُ لَكَ مَا قُلْتُ .

* * *

وَقَدْ كَفِلَ وَلَدٌ لِشُرَيْحٍ رَجُلًا فَقَبِلَ كَفَالَتَهُ ، فَمَا كَانَ مِنَ الرَّجُلِ إِلَّا أَنْ فَرَّ هَارِبًا مِنْ يَدِ الْقَضَاءِ .

فَسَجَنَ شُرَيْحٌ وَلَدَهُ بِالرَّجُلِ الْفَارِّ ...

وَكَانَ يَنْقُلُ لَهُ طَعَامَهُ بِيَدِهِ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى السِّجْنِ .

* * *

وَكَانَتِ الشُّكُوكُ تُسَاوِرُ[1] شُرَيْحًا ـ أَحْيَانًا ـ فِي بَعْضِ الشُّهُودِ ...

غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَجِدُ سَبِيلًا لِدَفْعِ شَهَادَتِهِمْ ؛ لِمَا تَوَافَرَ لَهُمْ مِنْ شُرُوطِ الْعَدَالَةِ ، فَكَانَ يَقُولُ لَهُمْ قَبْلَ أَنْ يُدْلُوا[2] بِشَهَادَتِهِمْ :

اسْمَعُوا مِنِّي هَدَاكُمُ اللَّهُ .

إِنَّمَا يَقْضِي عَلَى هَذَا الرَّجُلِ أَنْتُمْ ...

وَإِنِّي لَأَتَّقِي النَّارَ بِكُمْ ، وَأَنْتُمْ بِاتِّقَائِهَا أَوْلَى ...

وَإِنَّ فِي وُسْعِكُمُ الْآنَ أَنْ تَدَعُوا الشَّهَادَةَ وَتَمْضُوا .

(١) تُسَاوِرُ شُرَيْحًا : تُلِمُّ بشريح وتستولي على فكره. (٢) يدلون بشهادتهم : يحضرون شهادتهم ويُقلونها .

فَإِذَا أَصَرُّوا عَلَىٰ الشَّهَادَةِ ، الْتَفَتَ إِلَىٰ الَّذِي يَشْهَدُونَ لَهُ وَقَالَ :

اعْلَمْ يَا هَٰذَا أَنِّي أَقْضِي لَكَ بِشَهَادَتِهِمْ ...

وَإِنِّي لأَرَىٰ أَنَّكَ ظَالِمٌ ...

وَلَكِنِّي لَسْتُ أَقْضِي بِالظَّنِّ ، وَإِنَّمَا أَقْضِي بِشَهَادَةِ الشُّهُودِ ...

وَإِنَّ قَضَائِي مَا يُحِلُّ لَكَ شَيْئًا حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ .

* * *

وَكَانَ الشِّعَارُ[١] الَّذِي يُرَدِّدُهُ شُرَيْحٌ فِي مَجَالِسِ قَضَائِهِ قَوْلَهُ :

غَدًا سَيَعْلَمُ الظَّالِمُ مَنِ الْخَاسِرُ ؟ .

إِنَّ الظَّالِمَ يَنْتَظِرُ الْعِقَابَ ...

وَإِنَّ الْمَظْلُومَ يَنْتَظِرُ النَّصَفَةَ[٢]...

وَإِنِّي أَحْلِفُ بِاللَّهِ ، أَنَّهُ مَا مِنْ أَحَدٍ تَرَكَ شَيْئًا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ثُمَّ أَحَسَّ بِفَقْدِهِ ...

* * *

وَلَمْ يَكُنْ شُرَيْحٌ نَاصِحًا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِكِتَابِهِ فَحَسْبُ ، وَإِنَّمَا كَانَ نَاصِحًا لِعَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَخَاصَّتِهِمْ أَيْضًا .

رَوَىٰ أَحَدُهُمْ قَالَ :

سَمِعَنِي شُرَيْحٌ وَأَنَا أَشْتَكِي بَعْضَ مَا غَمَّنِي لِصَدِيقٍ ، فَأَخَذَنِي مِنْ يَدِي وَانْتَحَىٰ[٣] بِي جَانِبًا ، وَقَالَ :

---

(١) الشِّعار : كلمة مخصوصةٌ يعبر بها المرء عن فِكْرِه واعتقاده .
(٢) النّصفة : الإنصاف والعدل .
(٣) انتحىٰ بي : مال بي .

يَا بْنَ أَخِي ... إِيَّاكَ وَالشَّكْوَىٰ لِغَيْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ...

فَإِنَّ مَنْ تَشْكُو إِلَيْهِ لَا يَخْلُو أَنْ يَكُونَ صَدِيقًا أَوْ عَدُوًّا ...

فَأَمَّا الصَّدِيقُ فَتُحْزِنُهُ ...

وَأَمَّا الْعَدُوُّ فَيَشْمَتُ بِكَ ...

ثُمَّ قَالَ :

انْظُرْ إِلَىٰ عَيْنِي هَـٰذِهِ ـ وَأَشَارَ إِلَىٰ إِحْدَىٰ عَيْنَيْهِ ـ فَوَاللَّهِ مَا أَبْصَرْتُ بِهَا شَخْصًا وَلَا طَرِيقًا مُنْذُ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً ...

وَلَـٰكِنِّي مَا أَخْبَرْتُ أَحَدًا بِذَلِكَ إِلَّا أَنْتَ فِي هَـٰذِهِ السَّاعَةِ ...

أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ الْعَبْدِ الصَّالِحِ[1]:

﴿ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾[2].

فَاجْعَلِ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ مَشْكَاكَ[3] وَمَحْزَنَكَ عِنْدَ كُلِّ نَائِبَةٍ[4] تَنُوبُكَ ...

فَإِنَّهُ أَكْرَمُ مَسْئُولٍ وَأَقْرَبُ مَدْعُوٍّ ...

* * *

وَقَدْ رَأَىٰ ذَاتَ يَوْمٍ رَجُلًا يَسْأَلُ آخَرَ شَيْئًا فَقَالَ لَهُ :

يَا بْنَ أَخِي مَنْ سَأَلَ إِنْسَانًا حَاجَةً فَقَدْ عَرَضَ نَفْسَهُ عَلَى الرِّقِّ .

فَإِنْ قَضَاهَا لَهُ الْمَسْئُولُ فَقَدِ اسْتَعْبَدَهُ بِهَا ...

وَإِنْ رَدَّهُ عَنْهَا رَجَعَ كِلَاهُمَا ذَلِيلًا ...

(١) الْعَبْدُ الصَّالِحُ : هو يعقوب أبو يوسف عليهما السلام .
(٢) سورة يُوسُف : ٨٦.
(٣) مَشْكَاكَ ومَحْزَنَكَ : من تشكو إليه وتحزن لديه .
(٤) نائبة : مصيبة .

هَـٰذَا بِذُلِّ الْبُخْلِ ...

وَذَاكَ بِذُلِّ الرَّدِّ ...

فَإِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ .

وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ .

وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ وَلَا عَوْنَ إِلَّا بِاللَّهِ .

* * *

وَقَدْ وَقَعَ « بِالْكُوفَةِ » طَاعُونٌ[١] فَخَرَجَ صَدِيقٌ لِشُرَيْحٍ مِنْهَا إِلَىٰ « النَّجَفِ »[٢] يَبْتَغِي الْمَهْرَبَ مِنَ الْوَبَاءِ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ شُرَيْحٌ :

أَمَّا بَعْدُ ... فَإِنَّ الْمَوْضِعَ الَّذِي تَرَكْتَهُ لَا يُقَرِّبُ حِمَامَكَ[٣]؛ وَلَا يَسْلُبُ مِنْكَ أَيَّامَكَ ...

وَإِنَّ الْمَوْضِعَ الَّذِي صِرْتَ إِلَيْهِ فِي قَبْضَةِ مَنْ لَا يُعْجِزُهُ طَلَبٌ ، وَلَا يَفُوتُهُ هَرَبٌ ...

وَإِنَّا وَإِيَّاكَ لَعَلَىٰ بِساطِ مَلِكٍ وَاحِدٍ ...

وَإِنَّ « النَّجَفَ » مِنْ ذِي قُدْرَةٍ لَقَرِيبٌ ...

* * *

وَكَانَ شُرَيْحٌ إِلَىٰ ذَلِكَ كُلِّهِ شَاعِرًا قَرِيبَ الْمَأْخَذِ حُلْوَ الْأَدَاءِ طَرِيفَ الْمَوْضُوعَاتِ .

رُوِيَ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ لَهُ صَبِيٌّ فِي نَحْوِ الْعَاشِرَةِ مِنْ عُمُرِهِ ؛ وَكَانَ الصَّبِيُّ مُؤْثِرًا اللَّهْوَ ، مُولَعًا بِاللَّعِبِ .

---

(١) الطَّاعون : نَوْعٌ من الوباء .

(٢) النّجف : من أعمال العراق .

(٣) حِمامك : موتك ومنيتك .

فَافْتَقَدَهُ ذَاتَ يَوْمٍ ، فَإِذَا هُوَ قَدْ تَرَكَ الْكُتَّابَ وَمَضَىٰ يَتَفَرَّجُ عَلَىٰ الْكِلَابِ .

فَلَمَّا عَادَ إِلَىٰ الْمَنْزِلِ سَأَلَهُ : أَصَلَّيْتَ ؟ .

فَقَالَ : لَا .

فَدَعَا بِقِرْطَاسٍ[1] وَقَلَمٍ ، وَكَتَبَ إِلَىٰ مُؤَدِّبِهِ يَقُولُ :

تَرَكَ الصَّلَاةَ لِأَكْلُبٍ[2] يَسْعَىٰ لَهَا ... يَبْغِي الْهِرَاشَ[3] مَعَ الْغُوَاةِ الرُّجَّسِ[4]

فَلَيَأْتِيَنَّكَ غُدْوَةً بِصَحِيفَةٍ ... كُتِبَتْ لَهُ كَصَحِيفَةِ الْمُتَلَمِّسِ[5]

فَإِذَا أَتَاكَ فَدَاوِهِ بِمَلَامَةٍ ... أَوْ عِظْهُ مَوْعِظَةَ الْأَدِيبِ الْكَيِّسِ[6]

وَإِذَا هَمَمْتَ بِضَرْبِهِ فَبِدِرَّةٍ[7] ... وَإِذَا بَلَغْتَ ثَلَاثَةً لَكَ فَاحْبِسِ

وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ - مَا أَتَيْتَ - فَنَفْسُهُ ... - مَعَ مَا يُجَرِّعُنِي - أَعَزُّ الْأَنْفُسِ

* * *

رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْفَارُوقِ ، فَقَدْ زَانَ مَفْرِقَ[8] الْقَضَاءِ فِي الْإِسْلَامِ بِلُؤْلُؤَةٍ كَرِيمَةِ الْأَعْرَاقِ[9] ...

صَافِيَةِ الْجَوْهَرِ ...

رَائِعَةِ الْمُجْتَلَىٰ ...

(١) دعا بقرطاس : طلب ورقًا .
(٢) الأكلب : الكلاب .
(٣) الهراش : مهارشة بعض الكلاب على بعض .
(٤) الرُّجس : ممارسو الأعمال القبيحة .
(٥) صحيفة المتلمس : يضرب بها المثل في الشؤم وكان مكتوبًا فيها : « إذا جاءك حامل هذه الصحيفة فاقتله » .
(٦) الكيّس : الذكي اللبق .
(٧) الدِّرّة : ما يُضرب به .
(٨) المفرق : مفرد وجمعه مفارق ... ومفارق القضاء : وجوهه الواضحة .
(٩) الأعراق : الأصول .

وَحَبَا[1] الْمُسْلِمِينَ مِصْبَاحًا مُنِيرًا؛ مَا زَالُوا حَتَّى الْيَوْمَ يَسْتَضِيئُونَ بِسَنَا فِقْهِهِ لِشَرْعِ اللَّهِ...

وَيَهْتَدُونَ بِنُورِ فَهْمِهِ لِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ...

وَيُبَاهُونَ بِهِ الْأُمَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَرَحِمَ اللَّهُ شُرَيْحًا الْقَاضِيَ...

فَقَدْ أَقَامَ الْعَدْلَ بَيْنَ النَّاسِ سِتِّينَ عَامًا.

فَمَا حَافَ[2] عَلَى أَحَدٍ.

وَلَا حَادَ[3] عَنْ حَقٍّ.

وَلَا مَيَّزَ بَيْنَ مَلِكٍ وَسُوقَةٍ[4](*)...

---

(١) حبا المسلمين: منح المسلمين.
(٢) حاف: جار وظلم.
(٣) حاد: مال.
(٤) السّوقة: عامّة النّاس.

(*) للاستزادة من أخبار شُرَيْح القَاضي انظر:
١ - الطّبقات الكبرى لابن سعد: ٦/ ١١، ٣٤، ٩٤، ١٠٨، ١٠٩، ١٧٠، ٢٠٦، ٢٦٨ و٧/ ١٥١، ١٩٤، ٤٥٣ و٨/ ٤٩٤.
٢ - صفة الصّفوة لابن الجوزي «طبعة حلب»: ٣/ ٣٨.
٣ حلية الأولياء للأصفهاني: ٤/ ٢٥٦ - ٢٥٨.
٤ - تاريخ الطّبري لابن جرير الطّبري: الأجزاء الرّابع والخامس والسّادس «انظر الفهارس في الجزء العاشر».
٥ - تاريخ خليفة بن خياط: ١٢٩، ١٥٨، ١٨٤، ٢١٧، ٢٥١، ٢٦٦، ٢٩٨، ٣٠٤.
٦ - شذرات الذّهب: ١/ ٨٥ - ٨٦.
٧ - فوات الوفيات: ٢/ ١٦٧ - ١٦٩.
٨ - كتاب الوفيات لأحمد بن حسن بن علي بن الخطيب: ٨٠ - ٨١.
٩ - المحبّر لمحمد بن حبيب: ٣٠٥، ٣٨٧.
١٠ - دائرة المعارف لفريد وجدي: ٥/ ٣٧٢، ٤٧٣.

مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ

« مَا رَأَيْتُ رَجُلًا أَفْقَهَ فِي وَرَعِهِ ، وَلَا أَوْرَعَ فِي فِقْهِهِ مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ »
[مُورِقٌ الْعِجْلِيُّ]

عَزَمَ سِيرِينُ عَلَىٰ أَنْ يَسْتَكْمِلَ شَطْرَ دِينِهِ[١] بَعْدَ أَنْ حَرَّرَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ[٢] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رَقَبَتَهُ ، وَبَعْدَ أَنْ غَدَتْ حِرْفَتُهُ تُدِرُّ[٣] عَلَيْهِ الرِّبْحَ الْوَفِيرَ وَالْخَيْرَ الْكَثِيرَ ... فَقَدْ كَانَ نَحَّاسًا مَاهِرًا يُتْقِنُ صِنَاعَةَ الْقُدُورِ .

وَقَدْ وَقَعَ اخْتِيَارُهُ عَلَىٰ مَوْلَاةٍ[٤] لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تُدْعَىٰ صَفِيَّةَ لِتَكُونَ زَوْجَةً لَهُ .

* * *

كَانَتْ صَفِيَّةُ جَارِيَةً فِي بَوَاكِيرِ[٥] الشَّبَابِ ، وَضِيئَةَ الْوَجْهِ ، ذَكِيَّةَ الْفُؤَادِ ، كَرِيمَةَ الشَّمَائِلِ ، نَبِيلَةَ الْخِصَالِ ، مُحَبَّبَةً إِلَىٰ كُلِّ مَنْ عَرَفَهَا مِنْ نِسَاءِ الْمَدِينَةِ .

لَا فَرْقَ فِي ذَٰلِكَ بَيْنَ الشَّوَابِّ[٦] اللَّوَاتِي تَرْبِطُهُنَّ بِهَا وَشَائِجُ الْيَفَاعَةِ[٧] ، وَبَيْنَ الْمُسِنَّاتِ اللَّوَاتِي كُنَّ يَرَيْنَهَا صِنْوًا[٨] لَهُنَّ فِي رَجَاحَةِ الْعَقْلِ ، وَرَصَانَةِ السُّلُوكِ .

وَكَانَتْ أَشَدَّ النِّسَاءِ حُبًّا لَهَا زَوْجَاتُ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ، وَلَا سِيَّمَا السَّيِّدَةُ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا .

* * *

---

(١) يستكمل شَطْرَ دينه : يَتَزَوَّج .
(٢) انظره في كتاب « صور من حياة الصحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة الشرعية .
(٣) تُدرُّ عليه : تفيض عليه .
(٤) مولاة : أمَة .
(٥) البواكير : جمع باكورة ، وهي أوّل الشيء .
(٦) الشَّوَابُّ : جمع شابة وهي المرأة في مقتبل العمر .
(٧) وشائج اليفاعة : روابط الفتوة .
(٨) صنوًا : مثيلًا .

تَقَدَّمَ سِيرِينُ إِلَىٰ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فَخَطَبَ مِنْهُ مَوْلَاتَهُ صَفِيَّةَ .

فَبَادَرَ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَىٰ الْبَحْثِ عَنْ دِينِ الْخَاطِبِ وَخُلُقِهِ ، كَمَا يُبَادِرُ الْأَبُ الشَّفِيقُ الْحَانِي لِلْبَحْثِ عَنْ حَالِ خَاطِبِ بِنْتِهِ ...

وَلَا غَرْوَ[1]، فَقَدْ كَانَتْ صَفِيَّةُ تَحْتَلُّ مِنْ نَفْسِ أَبِي بَكْرٍ مَنْزِلَةَ الْوَلَدِ مِنْ أَبِيهِ ... ثُمَّ إِنَّهَا بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ أَمَانَةٌ أَوْدَعَهَا اللَّهُ فِي عُنُقِهِ .

فَمَضَىٰ يَسْتَقْصِي أَحْوَالَ سِيرِينَ أَشَدَّ الِاسْتِقْصَاءِ ، وَيَتَتَبَّعُ سِيرَتَهُ أَدَقَّ التَّتَبُّعِ .

وَكَانَ فِي طَلِيعَةِ مَنْ سَأَلَهُمْ عَنْهُ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فَقَالَ لَهُ أَنَسٌ :

زَوِّجْهَا مِنْهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلَا تَخْشَ عَلَيْهَا بَأْسًا ، فَمَا عَرَفْتُهُ إِلَّا صَحِيحَ الدِّينِ رَضِيَّ الْخُلُقِ ، مَوْفُورَ الْمُرُوءَةِ[2]...

وَلَقَدِ ارْتَبَطَتْ أَسْبَابُهُ بِأَسْبَابِي مُنْذُ سَبَاهُ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ فِي مَعْرَكَةِ « عَيْنِ التَّمْرِ »[3] مَعَ أَرْبَعِينَ غُلَامًا ، وَجَاءَ بِهِمْ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ ...

فَكَانَ سِيرِينُ مِنْ نَصِيبِي ، وَكُنْتُ مَحْظُوظًا بِهِ ...

* * *

وَافَقَ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَىٰ تَزْوِيجِ صَفِيَّةَ مِنْ سِيرِينَ .

وَعَزَمَ عَلَىٰ أَنْ يَبَرَّهَا كَمَا يَبَرُّ الْأَبُ الشَّفِيقُ ابْنَتَهُ الْأَثِيرَةَ[4] فَأَقَامَ لِإِمْلَاكِهَا[5] حَفْلًا قَلَّمَا ظَفِرَتْ بِمِثْلِهِ فَتَاةٌ مِنْ فَتَيَاتِ الْمَدِينَةِ ...

(١) ولا غرو : ولا عجب .
(٢) موفور المروءة : تام النخوة كامل الرجولة .
(٣) عين التمر : بلدة غربي الكوفة ، افتتحها خالد بن الوليد في خلافة الصديق .
(٤) الأثيرة : المفضلة المحببة .
(٥) إملاكها : تزويجها .

فَقَدْ شَهِدَ إِمْلَاكَهَا طَائِفَةٌ كَبِيرَةٌ مِنْ كِرَامِ الصَّحَابَةِ .

وَكَانَ فِيهِمْ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ بَدْرِيًّا[1]...

وَدَعَا لَهَا كَاتِبُ وَحْيِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ ...

وَأَمَّنَ عَلَىٰ دُعَائِهِ الْحَاضِرُونَ ...

وَطَيَّبَتْهَا وَزَيَّنَتْهَا ثَلَاثٌ مِنْ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِنَّ حِينَ زُفَّتْ إِلَىٰ زَوْجِهَا ...

وَقَدْ كَانَ مِنْ ثَمَرَاتِ هَٰذَا الزَّوَاجِ الْمُبَارَكِ أَنْ رُزِقَ الْأَبَوَانِ غُلَامًا ؛ غَدَا بَعْدَ عِقْدَيْنِ[2] مِنَ الزَّمَانِ عَلَمًا مِنْ أَعْلَامِ التَّابِعِينَ ، وَرَجُلًا مِنْ أَفْذَاذِ الْمُسْلِمِينَ هُوَ مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ .

فَتَعَالَوْا نَبْدَأْ قِصَّةَ حَيَاةِ هَٰذَا التَّابِعِيِّ الْجَلِيلِ مِنْ أَوَّلِهَا ...

* * *

وُلِدَ مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ لِسَنَتَيْنِ بَقِيَتَا مِنْ خِلَافَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

وَرُبِّيَ فِي بَيْتٍ يَتَضَوَّعُ[3] الْوَرَعُ وَالتُّقَىٰ مِنْ كُلِّ رُكْنٍ مِنْ أَرْكَانِهِ ...

وَلَمَّا أَيْفَعَ[4] الْغُلَامُ الْأَرِيبُ اللَّبِيبُ ، وَجَدَ مَسْجِدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَزْخَرُ[5] بِالْبَقِيَّةِ الْبَاقِيَةِ مِنْ كِرَامِ الصَّحَابَةِ وَكِبَارِ التَّابِعِينَ مِنْ أَمْثَالِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ ، وَأَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ، وَعِمْرَانَ بْنِ الْحُصَيْنِ ...

وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ .

(١) الْبدري : من شهِدَ يَوْمَ بَدْرٍ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .
(٢) العقد : عشر سنوات .
(٣) يتضوَّع : ينتشر انتشار المسك .
(٤) أيفع : ترعرع وقارب البلوغ .
(٥) يزخر : يمتلئ .

فَأَقْبَلَ عَلَيْهِمْ إِقْبَالَ الظَّامِئِ عَلَىٰ الْمَوْرِدِ الْعَذْبِ ...

وَنَهَلَ مِنْ عِلْمِهِمْ بِكِتَابِ اللَّهِ، وَفِقْهِهِمْ بِدِينِ اللَّهِ، وَرِوَايَتِهِمْ لِحَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا أَفْعَمَ[1] عَقْلَهُ حِكْمَةً وَعِلْمًا، وَأَتْرَعَ نَفْسَهُ صَلَاحًا وَهَدْيًا ...

ثُمَّ انْتَقَلَتِ الْأُسْرَةُ مَعَ فَتَاهَا الْفَذِّ[2] إِلَىٰ «الْبَصْرَةِ» وَاتَّخَذَتْهَا لَهَا مَوْطِنًا ...

* * *

كَانَتِ «الْبَصْرَةُ» يَوْمَئِذٍ مَدِينَةً شَابَّةً بِكْرًا ...

فَقَدِ اخْتَطَّهَا الْمُسْلِمُونَ فِي أَوَاخِرِ خِلَافَةِ الْفَارُوقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَكَانَتْ تُمَثِّلُ جُلَّ[3] خَصَائِصِ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ.

فَهِيَ قَاعِدَةٌ عَسْكَرِيَّةٌ لِجُيُوشِ الْمُسْلِمِينَ الْغَازِيَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ...

وَهِيَ مَرْكَزٌ مِنْ مَرَاكِزِ التَّعْلِيمِ وَالتَّوْجِيهِ لِلدَّاخِلِينَ فِي دِينِ اللَّهِ مِنْ أَهْلِ «الْعِرَاقِ» وَ«فَارِسَ» ...

وَهِيَ صُورَةٌ لِلْمُجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ الْجَادِّ الَّذِي يَعْمَلُ لِدُنْيَاهُ كَأَنَّهُ يَعِيشُ أَبَدًا، وَيَعْمَلُ لِأُخْرَاهُ كَأَنَّهُ يَمُوتُ غَدًا ...

* * *

سَلَكَ مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ فِي حَيَاتِهِ الْجَدِيدَةِ فِي «الْبَصْرَةِ» طَرِيقَيْنِ مُتَوَازِيَيْنِ مُتَوَازِنَيْنِ:

فَجَعَلَ شَطْرًا مِنْ يَوْمِهِ لِلْعِلْمِ وَالْعِبَادَةِ ...

وَشَطْرًا آخَرَ لِلْكَسْبِ وَالتِّجَارَةِ.

---

(١) أفعم: ملأ.

(٢) الفذ: الفريد المتميز.

(٣) جُلُّ: أكثر.

فَكَانَ إِذَا انْبَلَجَ الْفَجْرُ وَأَشْرَقَتِ الدُّنْيَا بِنُورِ رَبِّهَا ؛ غَدَا إِلَىٰ مَسْجِدِ « الْبَصْرَةِ » يُعَلِّمُ وَيَتَعَلَّمُ .

حَتَّىٰ إِذَا ارْتَفَعَ النَّهَارُ مَضَىٰ مِنَ الْمَسْجِدِ إِلَىٰ السُّوقِ يَبِيعُ وَيَشْتَرِي ...

فَإِذَا جَاءَ اللَّيْلُ وَأَرْخَىٰ عَلَىٰ الْكَوْنِ سُدُولَهُ(١) صَفَّ فِي مِحْرَابِ بَيْتِهِ ، وَانْحَنَىٰ عَلَىٰ أَجْزَاءِ الْقُرْآنِ بِصُلْبِهِ ، وَبَكَىٰ مِنْ خَشْيَةِ الرَّحْمَٰنِ بِدُمُوعِ عَيْنَيْهِ وَقَلْبِهِ ...

حَتَّىٰ يُشْفِقَ عَلَيْهِ أَهْلُهُ وَجِيرَانُهُ الْأَدْنَوْنَ(٢) لِمَا يَسْمَعُونَهُ مِنْ نَحِيبِهِ الَّذِي يُقَطِّعُ نِيَاطَ الْقُلُوبِ(٣).

* * *

وَكَانَ - وَهُو يَطُوفُ بِالسُّوقِ فِي النَّهَارِ لِلْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ - لَا يَفْتَأُ يُذَكِّرُ النَّاسَ بِالْآخِرَةِ ... وَيُبَصِّرُهُمْ بِالدُّنْيَا ...

وَيُرْشِدُهُمْ إِلَىٰ مَا يُقَرِّبُهُمْ إِلَىٰ اللَّهِ ...

وَيَفْصِلُ فِيمَا يَشْجُرُ(٤) بَيْنَهُمْ مِنْ خِلَافٍ .

وَكَانَ يُطْرِفُهُمْ(٥) بَيْنَ الْحِينِ وَالْحِينِ بِالْمُلْحَةِ(٦) الَّتِي تَمْسَحُ الْهَمَّ عَنْ نُفُوسِهِمُ الْمَكْدُودَةِ ؛ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْقِصَ ذَٰلِكَ مِنْ هَيْبَتِهِ وَوَقَارِهِ عِنْدَهُمْ شَيْئًا .

فَقَدْ وَهَبَهُ اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ هَدْيًا وَسَمْتًا(٧)، وَمَنَحَهُ قَبُولًا وَتَأْثِيرًا ...

(١) سُدُوله : أستاره .
(٢) جيرانه الأدنون : جيرانه الأقربون الملاصقون .
(٣) النِّياط : جمعٌ مفرده نوطٌ ، وهو عرق معلق بالقلب إذا انقطع مات الإنسان .
(٤) فيما يشجر بينهم : فيما يتنازعون فيه .
(٥) يطرفهم : يأتيهم بالحديث المستحسن .
(٦) المُلحة : ما لَذَّ من الأحاديث .
(٧) السَّمْتُ : هيئة أهل الخير .

فَكَانَ النَّاسُ إِذَا رَأَوْهُ فِي السُّوقِ ـ وَهُمْ غَارِقُونَ غَافِلُونَ ـ انْتَبَهُوا ؛ فَذَكَرُوا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ ، وَهَلَّلُوا وَكَبَّرُوا ...

* * *

وَكَانَتْ سِيرَتُهُ الْعَمَلِيَّةُ خَيْرَ مُرْشِدٍ لِلنَّاسِ ... فَمَا عَرَضَ لَهُ أَمْرَانِ فِي تِجَارَتِهِ إِلَّا أَخَذَ بِأَوْثَقِهِمَا فِي دِينِهِ ...

وَلَوْ كَانَتْ فِيهِ خَسَارَةٌ تُصِيبُ دُنْيَاهُ ...

* * *

وَكَانَتْ دِقَّةُ فَهْمِهِ لِأَسْرَارِ الدِّينِ ، وَصِحَّةُ نَظْرَتِهِ إِلَىٰ مَا يَحِلُّ وَمَا لَا يَحِلُّ تَدْفَعُهُ أَحْيَانًا إِلَىٰ بَعْضِ الْمَوَاقِفِ الَّتِي تَبْدُو غَرِيبَةً لِعُيُونِ النَّاسِ ...

مِنْ ذَلِكَ أَنَّ رَجُلًا ادَّعَىٰ عَلَيْهِ ـ كَذِبًا ـ أَنَّ لَهُ فِي ذِمَّتِهِ دِرْهَمَيْنِ ...

فَأَبَىٰ أَنْ يُعْطِيَهُ إِيَّاهُمَا .

فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ : أَتَحْلِفُ ؟ ...

وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّهُ لَا يَحْلِفُ مِنْ أَجْلِ دِرْهَمَيْنِ .

فَقَالَ : نَعَمْ ، وَحَلَفَ لَهُ .

فَقَالَ لَهُ النَّاسُ : يَا أَبَا بَكْرٍ أَتَحْلِفُ مِنْ أَجْلِ دِرْهَمَيْنِ ؟! ...

وَأَنْتَ ، الَّذِي تَرَكْتَ أَمْسِ أَرْبَعِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ فِي شَيْءٍ رَابَكَ[1] مِمَّا لَا يَرْتَابُ فِيهِ أَحَدٌ غَيْرُكَ ...

فَقَالَ : نَعَمْ أَحْلِفُ ...

فَإِنِّي لَا أُرِيدُ أَنْ أُطْعِمَهُ حَرَامًا ، وَأَنَا أَعْلَمُ أَنَّهُ حَرَامٌ .

* * *

(١) رابك : شككت فيه .

وَكَانَ مَجْلِسُ ابْنِ سِيرِينَ ؛ مَجْلِسَ خَيْرٍ وَبِرٍّ وَمَوْعِظَةٍ ...

فَإِذَا ذُكِرَ عِنْدَهُ رَجُلٌ بِسَيِّئَةٍ ، بَادَرَ فَذَكَرَهُ بِأَحْسَنِ مَا يَعْلَمُ مِنْ أَمْرِهِ .

بَلْ إِنَّهُ سَمِعَ أَحَدَهُمْ يَسُبُّ الْحَجَّاجَ[١] بَعْدَ وَفَاتِهِ ؛ فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ وَقَالَ :

صَهْ ، يَا بْنَ أَخِي ...

فَإِنَّ الْحَجَّاجَ مَضَىٰ إِلَىٰ رَبِّهِ ...

وَإِنَّكَ حِينَ تَقْدُمُ عَلَىٰ اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ ؛ سَتَجِدُ أَنَّ أَحْقَرَ ذَنْبٍ ارْتَكَبْتَهُ فِي الدُّنْيَا أَشَدُّ عَلَىٰ نَفْسِكَ مِنْ أَعْظَمِ ذَنْبٍ اجْتَرَحَهُ الْحَجَّاجُ ...

فَلِكُلٍّ مِنْكُمَا يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ .

وَاعْلَمْ يَا بْنَ أَخِي أَنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَزَّ سَوْفَ يَقْتَصُّ مِنَ الْحَجَّاجِ لِمَنْ ظَلَمَهُمْ كَمَا سَيَقْتَصُّ لِلْحَجَّاجِ مِمَّنْ يَظْلِمُونَهُ ...

فَلَا تَشْغَلَنَّ نَفْسَكَ بَعْدَ الْيَوْمِ بِسَبِّ أَحَدٍ ...

وَكَانَ إِذَا جَاءَهُ رَجُلٌ مُوَدِّعًا فِي سَفَرٍ لِتِجَارَةٍ قَالَ لَهُ :

يَا بْنَ أَخِي ، اتَّقِ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ ...

وَاطْلُبْ مَا قُدِّرَ لَكَ مِنْ طَرِيقٍ حَلَالٍ ... وَاعْلَمْ أَنَّكَ إِنْ تَطْلُبْهُ مِنْ غَيْرِ حِلِّهِ لَمْ تُصِبْ[٢] أَكْثَرَ مِمَّا قُدِّرَ لَكَ .

* * *

وَلَقَدْ كَانَتْ لِمُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ مَعَ وُلَاةِ بَنِي « أُمَيَّةَ » مَوَاقِفُ مَشْهُودَةٌ صَدَعَ[٣] فِيهَا بِكَلِمَةِ الْحَقِّ ، وَأَخْلَصَ النُّصْحَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ .

---

(١) الحجاج : هو الحجاج بن يوسف الثقفي أحد ولاة بني أمية الغتاة الأشداء ، أفاض المؤرخون في ذكر بطشه وقسوته وفتكه .

(٢) لم تصب : لم تنل . (٣) صدع : جهر .

مِنْ ذَلِكَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ هُبَيْرَةَ الْفَزَارِيَّ رَجُلَ بَنِي «أُمَيَّةَ» الْكَبِيرَ وَوَالِيَهُمْ عَلَىٰ «الْعِرَاقَيْنِ» بَعَثَ إِلَيْهِ يَدْعُوهُ إِلَىٰ زِيَارَتِهِ، فَمَضَىٰ إِلَيْهِ وَمَعَهُ ابْنُ أَخِيهِ.

فَلَمَّا قَدِمَ عَلَيْهِ، رَحَّبَ بِهِ الْوَالِي وَأَكْرَمَ وِفَادَتَهُ وَرَفَعَ مَجْلِسَهُ، وَسَأَلَهُ عَنْ كَثِيرٍ مِنْ شُئُونِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا، ثُمَّ قَالَ لَهُ:

كَيْفَ تَرَكْتَ أَهْلَ مِصْرِكَ[1] يَا أَبَا بَكْرٍ؟.

فَقَالَ: تَرَكْتُهُمْ وَالظُّلْمُ فِيهِمْ فَاشٍ[2] وَأَنْتَ عَنْهُمْ لَاهٍ...

فَغَمَزَهُ ابْنُ أَخِيهِ بِمَنْكِبِهِ... فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ وَقَالَ:

إِنَّكَ لَسْتَ الَّذِي تُسْأَلُ عَنْهُمْ وَإِنَّمَا أَنَا الَّذِي أُسْأَلُ...

وَإِنَّهَا لَشَهَادَةٌ... ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾[3].

وَلَمَّا انْفَضَّ الْمَجْلِسُ، وَدَّعَهُ عُمَرُ بْنُ هُبَيْرَةَ بِمِثْلِ مَا اسْتَقْبَلَهُ بِهِ مِنْ حَفَاوَةٍ وَإِجْلَالٍ...

وَبَعَثَ إِلَيْهِ بِكِيسٍ فِيهِ ثَلَاثَةُ آلَافِ دِينَارٍ، فَلَمْ يَأْخُذْهَا.

فَقَالَ لَهُ ابْنُ أَخِيهِ: مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَقْبَلَ هِبَةَ الْأَمِيرِ؟!.

فَقَالَ: إِنَّمَا أَعْطَانِي لِخَيْرٍ ظَنَّهُ بِي...

فَإِنْ كُنْتُ مِنْ أَهْلِ الْخَيْرِ كَمَا ظَنَّ، فَمَا يَنْبَغِي لِي أَنْ أَقْبَلَ...

وَإِنْ لَمْ أَكُنْ كَمَا ظَنَّ، فَأَحْرَىٰ[4] بِي أَلَّا أَسْتَبِيحَ قَبُولَ ذَلِكَ...

* * *

(١) أهل مصرك: أهل بلدك.
(٢) فاشٍ: منتشر.
(٣) سورة البقرة: الآية ٢٨٣.
(٤) أحرىٰ بي: أولىٰ بي وأجدر.

وَلَقَدْ شَاءَ اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ أَنْ يَبْلُوَ صِدْقَ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ وَصَبْرَهُ، فَعَرَّضَهُ[1] لِمَا يَتَعَرَّضُ لَهُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ الْمِحَنِ...

مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ اشْتَرَىٰ ذَاتَ مَرَّةٍ زَيْتًا بِأَرْبَعِينَ أَلْفًا مُؤَجَّلَةً[2]...

فَلَمَّا فَتَحَ أَحَدَ زِقَاقِ[3] الزَّيْتِ؛ وَجَدَ فِيهِ فَأْرًا مَيِّتًا مُتَفَسِّخًا.

فَقَالَ فِي نَفْسِهِ: إِنَّ الزَّيْتَ كُلَّهُ كَانَ فِي الْمَعْصَرَةِ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ، وَإِنَّ النَّجَاسَةَ لَيْسَتْ خَاصَّةً بِهَٰذَا الزِّقِّ دُونَ سِوَاهُ...

وَإِنِّي إِنْ رَدَدْتُهُ لِلْبَائِعِ بِالْعَيْبِ[4] فَرُبَّمَا بَاعَهُ لِلنَّاسِ...

ثُمَّ أَرَاقَهُ كُلَّهُ...

وَقَدْ وَقَعَ ذَلِكَ فِي وَقْتٍ كَانَ يَشْكُو فِيهِ مِنْ خَسَارَةٍ كَبِيرَةٍ حَلَّتْ بِهِ.

فَرَكِبَهُ الدَّيْنُ، وَطَالَبَهُ صَاحِبُ الزَّيْتِ بِمَالِهِ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ سَدَادَهُ...

فَرَفَعَ أَمْرَهُ إِلَىٰ الْوَالِي، فَأَمَرَ بِحَبْسِهِ حَتَّىٰ يُسَدِّدَ مَا عَلَيْهِ.

فَلَمَّا صَارَ فِي السِّجْنِ وَطَالَ مُكُوثُهُ[5] فِيهِ، أَشْفَقَ عَلَيْهِ السَّجَّانُ لِمَا عَلِمَ مِنْ أَمْرِ دِينِهِ، وَمَا رَأَىٰ مِنْ شِدَّةِ وَرَعِهِ وَطُولِ عِبَادَتِهِ، فَقَالَ لَهُ:

أَيُّهَا الشَّيْخُ، إِذَا كَانَ اللَّيْلُ فَاذْهَبْ إِلَىٰ أَهْلِكَ وَبِتْ مَعَهُمْ...

فَإِذَا أَصْبَحْتَ فَعُدْ إِلَيَّ...

وَاسْتَمِرَّ عَلَىٰ ذَلِكَ حَتَّىٰ يُطْلَقَ سَرَاحُكَ.

---

(١) عَرَّضه للمِحْنَةِ: جعله هدفًا لها.
(٢) مُؤَجَّلة: مؤخرة الثمن.
(٣) الزِّقاق: جمع زِق، وهو وعاء من جلد يوضع فيه الماء ونحوه من السوائل.
(٤) بالْعيب: بسبب الْعيب، والرّدُّ بسبب الْعيب من حقوق المشتري.
(٥) مكوثه: إقامته.

فَقَالَ لَهُ: لَا وَاللَّهِ لَا أَفْعَلُ...

فَقَالَ السَّجَّانُ: وَلِمَ، هَدَاكَ اللَّهُ؟!.

فَقَالَ لَهُ: حَتَّىٰ لَا أُعَاوِنَكَ عَلَىٰ خِيَانَةِ وَلِيِّ الْأَمْرِ...

* * *

وَلَمَّا احْتُضِرَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَوْصَىٰ بِأَنْ يَغْسِلَهُ مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ وَيُصَلِّيَ عَلَيْهِ، وَكَانَ مَا يَزَالُ سَجِينًا.

فَلَمَّا تُوُفِّيَ جَاءَ النَّاسُ إِلَىٰ الْوَالِي وَأَخْبَرُوهُ بِوَصِيَّةِ صَاحِبِ رَسُولِ اللَّهِ وَخَادِمِهِ، وَاسْتَأْذَنُوهُ فِي أَنْ يُخْلِيَ سَبِيلَ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ لِإِنْفَاذِ الْوَصِيَّةِ فَأَذِنَ لَهُ.

فَقَالَ لَهُمْ مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ: لَا أَخْرُجُ حَتَّىٰ تَسْتَأْذِنُوا صَاحِبَ الدَّيْنِ؛ فَإِنَّمَا حُبِسْتُ بِمَا لَهُ عَلَيَّ مِنَ الْحَقِّ...

فَأَذِنَ لَهُ الدَّائِنُ أَيْضًا.

عِنْدَ ذَلِكَ خَرَجَ مِنْ سِجْنِهِ فَغَسَلَ أَنَسًا، وَكَفَّنَهُ، وَصَلَّىٰ عَلَيْهِ...

ثُمَّ رَجَعَ إِلَىٰ السِّجْنِ كَمَا هُوَ...

وَلَمْ يَذْهَبْ لِرُؤْيَةِ أَهْلِهِ...

* * *

عُمِّرَ مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ حَتَّىٰ بَلَغَ السَّابِعَةَ وَالسَّبْعِينَ...

فَلَمَّا أَتَاهُ الْيَقِينُ[1] وَجَدَهُ خَفِيفَ الْحِمْلِ مِنْ أَعْبَاءِ الدُّنْيَا... كَثِيرَ الزَّادِ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ...

(١) الْيَقِين: الموت.

حَدَّثَتْ حَفْصَةُ بِنْتُ رَاشِدٍ، وَكَانَتْ مِنَ الْعَابِدَاتِ فَقَالَتْ:

كَانَ مَرْوَانُ الْمَحْمَلِيُّ لَنَا جَارًا، وَكَانَ نَاصِبًا[١] فِي الْعِبَادَةِ مُجْتَهِدًا فِي الطَّاعَةِ...

فَلَمَّا مَاتَ؛ حَزِنَّا عَلَيْهِ حُزْنًا شَدِيدًا، فَرَأَيْتُهُ فِي الْمَنَامِ... فَقُلْتُ:

يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، مَا صَنَعَ بِكَ رَبُّكَ؟.

فَقَالَ: أَدْخَلَنِي الْجَنَّةَ.

قُلْتُ: ثُمَّ مَاذَا؟.

فَقَالَ: ثُمَّ رُفِعْتُ إِلَىٰ أَصْحَابِ الْيَمِينِ.

قُلْتُ: ثُمَّ مَاذَا؟.

قَالَ: ثُمَّ رُفِعْتُ إِلَىٰ الْمُقَرَّبِينَ[٢].

قُلْتُ: فَمَنْ رَأَيْتَ هُنَاكَ؟.

قَالَ: الْحَسَنَ الْبَصْرِيَّ[٣]، وَمُحَمَّدَ بْنَ سِيرِينَ (*)...

---

(١) ناصبًا في العبادة: جادًّا في العبادة.
(٢) المقربون: السابقون.
(٣) الحسن البصري: انظره ص ١٠١.

(*) للاستزادة من أخبار مُحَمَّد بْن سِيرِين انظر:
١ - الطبقات الكبرى لابن سعد: ١٩٣/٧ وانظر المجلد الخاص بالفهارس.
٢ - صفة الصفوة لابن الجوزي: ٢٤١/٣ - ٢٤٨.
٣ - حلية الأولياء للأصفهاني: ٢٦٣/٢ - ٢٨٢.
٤ - تاريخ بغداد للخطيب البغدادي: ٥/ ١٣١.
٥ - شذرات الذهب: ١٣٨/١ - ١٣٩.
٦ - وفيات الأعيان لابن خلكان: ٤/ ١٨١.
٧ - تهذيب التهذيب: ٩/ ٢١٤.
٨ - الوافي بالوفيات للصفدي: ١٤٦/٣.
٩ - طبقات الحفاظ: ٩/٣.

رَبِيعَةُ الرَّأْيِ

« مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَحْفَظَ لِلسُّنَّةِ مِنْ رَبِيعَةَ »

[ابْنُ الْمَاجِشُونِ]

« أ »

هَا نَحْنُ أُولَاءِ فِي سَنَةِ إِحْدَىٰ وَخَمْسِينَ لِلْهِجْرَةِ .

وَهَا هِيَ ذِي كَتَائِبُ[1] الْمُسْلِمِينَ تَضْرِبُ فِي فِجَاجِ[2] الْأَرْضِ مُشَرِّقَةً مُغَرِّبَةً .

تَحْمِلُ لِلْبَشَرِيَّةِ الْعَقِيدَةَ الْبَانِيَةَ ...

وَتَمُدُّ إِلَيْهَا الْيَدَ الْمُصْلِحَةَ الْحَانِيَةَ ...

وَتَنْشُرُ فِي رُبُوعِهَا الشِّرْعَةَ الَّتِي تُحَرِّرُ الْإِنْسَانَ مِنْ عُبُودِيَّةِ الْإِنْسَانِ ...

وَتَجْعَلُ وَلَاءَهُ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ...

وَهَٰذَا الصَّحَابِيُّ الْجَلِيلُ « الرَّبِيعُ بْنُ زِيَادٍ الْحَارِثِيُّ »[3] أَمِيرُ « خُرَاسَانَ » ، وَفَاتِحُ « سِجِسْتَانَ » ، وَالْقَائِدُ الْمُظَفَّرُ ؛ يَمْضِي عَلَىٰ رَأْسِ جَيْشِهِ الْغَازِي فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

وَمَعَهُ غُلَامُهُ الشُّجَاعُ فَرُّوخٌ .

فَلَقَدْ عَزَمَ بَعْدَ أَنْ أَكْرَمَهُ اللَّهُ بِفَتْحِ « سِجِسْتَانَ » وَغَيْرِهَا مِنَ الْأَصْقَاعِ[4]

---

(١) الْكتائب : جمع كتيبة ، وهي الْقطعة من الجيش.

(٢) فجاج الأرض : مسالك الأرض الْوعرة بين الجبال.

(٣) الرَّبيع بن زياد الحارثي : انظره في كتاب « صور من حياة الصَّحابة » للمؤلف ، النَّاشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة الشرعية.

(٤) الأصقاع : جمع صُقع بضم الصاد : النَّاحية من الأرض.

عَلَىٰ أَنْ يَخْتِمَ حَيَاتَهُ الْحَافِلَةَ بِعُبُورِ نَهْرِ « سَيْحُونَ »[١]، وَرَفْعِ رَايَاتِ التَّوْحِيدِ فَوْقَ ذُرَىٰ[٢] تِلْكَ الْأَصْقَاعِ الَّتِي كَانَتْ تُدْعَىٰ بِبِلَادِ مَا وَرَاءِ النَّهْرِ.

* * *

أَعَدَّ الرَّبِيعُ بْنُ زِيَادٍ لِلْمَعْرَكَةِ الْمَوْعُودَةِ عُدَّتَهَا، وَاتَّخَذَ لَهَا أُهْبَتَهَا ...

وَفَرَضَ عَلَىٰ عَدُوِّ اللَّهِ زَمَانَهَا وَمَكَانَهَا فَرْضًا ...

وَلَمَّا نَشِبَ[٣] الْقِتَالُ أَبْلَىٰ فِيهِ الرَّبِيعُ وَجُنْدُهُ الْمَغَاوِيرُ بَلَاءً مَا يَزَالُ يَذْكُرُهُ التَّارِيخُ بِلِسَانٍ نَدِيٍّ بِالْحَمْدِ، رَطِيبٍ بِالْإِكْبَارِ.

وَأَظْهَرَ غُلَامُهُ فَرُّوخٌ فِي سَاحَاتِ الْوَغَىٰ[٤] مِنْ ضُرُوبِ الْبَسَالَةِ وَصُنُوفِ الْإِقْدَامِ مَا زَادَ الرَّبِيعَ إِعْجَابًا بِهِ، وَإِكْبَارًا لَهُ، وَتَقْدِيرًا لِمَزَايَاهُ.

وَانْجَلَتِ الْمَعْرَكَةُ عَنْ نَصْرٍ مُؤَزَّرٍ[٥] لِلْمُسْلِمِينَ.

فَزَلْزَلُوا أَقْدَامَ عَدُوِّهِمْ، وَمَزَّقُوا صُفُوفَهُ، وَفَرَّقُوا جُمُوعَهُ ...

ثُمَّ عَبَرُوا النَّهْرَ الَّذِي كَانَ يَحُولُ دُونَهُمْ وَدُونَ الِانْسِيَاحِ[٦] فِي بِلَادِ « التُّرْكِ » ...

وَيَمْنَعُهُمْ مِنَ الِانْدِفَاعِ نَحْوَ أَرْضِ « الصِّينِ »، وَالْإِيغَالِ[٧] فِي مَمْلَكَةِ « الصُّغْدِ »[٨] ...

وَمَا إِنْ عَبَرَ الْقَائِدُ الْعَظِيمُ النَّهْرَ، وَاسْتَقَرَّتْ قَدَمَاهُ عَلَىٰ ضَفَّتِهِ الثَّانِيَةِ حَتَّىٰ بَادَرَ فَتَوَضَّأَ هُوَ وَجُنُودُهُ مِنْ مَائِهِ؛ فَأَحْسَنُوا الْوُضُوءَ ...

وَاسْتَقْبَلُوا الْقِبْلَةَ، وَصَلَّوا رَكْعَتَيْنِ شُكْرًا لِلَّهِ وَاهِبِ النَّصْرِ ...

---

(١) نهر سَيْحُون: نهر كبير بعد سمرقند في حدود تركستان.
(٢) الذرىٰ: القِمم، وذروة كل شيء: أعلاه.
(٣) نشب القتال: ثار القتال.
(٤) ساحات الوغىٰ: ساحات الحرب.
(٥) نصر مؤزر: نصر قويّ شديد.
(٦) الانسياح في الأرض: الذهاب فيها في كل اتجاه.
(٧) الإيغال: الذهاب بعيدًا.
(٨) الصغد: منطقة في أواسط آسيا.

ثُمَّ كَافَأَ الْقَائِدُ الْكَبِيرُ غُلَامَهُ فَرُّوخًا عَلَىٰ حُسْنِ بَلَائِهِ[1]:

فَأَعْتَقَ رَقَبَتَهُ ... وَقَسَمَ لَهُ نَصِيبَهُ مِنَ الْغَنَائِمِ الْكَثِيرَةِ الْوَفِيرَةِ.

ثُمَّ زَادَهُ مِنْ عِنْدِهِ شَيْئًا كَثِيرًا ...

* * *

لَمْ تَطُلِ الْحَيَاةُ بَعْدَ ذَلِكَ الْيَوْمِ الْأَبْلَجِ[2] الْأَغَرِّ[3] بِالرَّبِيعِ بْنِ زِيَادٍ الْحَارِثِيِّ ... حَيْثُ وَافَاهُ الْأَجَلُ الْمَحْتُومُ بَعْدَ سَنَتَيْنِ اثْنَتَيْنِ مِنْ تَحْقِيقِ حُلُمِهِ الْكَبِيرِ ... فَمَضَىٰ إِلَىٰ رَبِّهِ رَاضِيًا مَرْضِيًّا.

أَمَّا الْفَتَىٰ الْبَاسِلُ الشُّجَاعُ فَرُّوخٌ فَقَدْ عَادَ إِلَىٰ «الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ» يَحْمِلُ مَعَهُ سَهْمَهُ الْكَبِيرَ مِنَ الْغَنَائِمِ ...

وَالْهِبَةَ السَّخِيَّةَ الَّتِي وَهَبَهَا لَهُ قَائِدُهُ الْعَظِيمُ ...

وَيَحْمِلُ فَوْقَ ذَلِكَ حُرِّيَّتَهُ الْغَالِيَةَ ...

وَذِكْرَيَاتِهِ الْغَنِيَّةَ بِرَوَائِعِ الْبُطُولَاتِ ...

الْمُكَلَّلَةَ[4] بِغُبَارِ الْوَقَائِعِ ...

* * *

كَانَ فَرُّوخٌ حِينَ هَبَطَ مَدِينَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ شَابًّا مَوْفُورَ الشَّبَابِ، دَفَّاقَ الْحَيَوِيَّةِ، مُمْتَلِئًا فُتُوَّةً وَفُرُوسِيَّةً ...

وَكَانَ يَخْطُو نَحْوَ الثَّلَاثِينَ مِنْ عُمُرِهِ ...

وَقَدْ عَزَمَ فَرُّوخٌ عَلَىٰ أَنْ يَتَّخِذَ لِنَفْسِهِ مَنْزِلًا يَسْتَقِرُّ فِيهِ، وَزَوْجَةً يَسْكُنُ إِلَيْهَا ... فَابْتَاعَ دَارًا مِنْ أَوْسَطِ دُورِ الْمَدِينَةِ ...

---

(١) حُسْن بلائه: حُسْن فِعْلِهِ في القتال.
(٢) الأبلج: الناصع الواضح المتألق.
(٣) الأغر: الأبيض.
(٤) المُكَلَّلَة: المتوّجة.

وَاخْتَارَ امْرَأَةً رَاجِحَةَ الْعَقْلِ ، كَامِلَةَ الْفَضْلِ ، صَحِيحَةَ الدِّينِ ، تُقَارِبُهُ فِي السِّنِّ ... وَاقْتَرَنَ بِهَا .

* * *

نَعِمَ فَرُّوخٌ بِدَارِهِ الَّتِي أَكْرَمَهُ اللَّهُ بِهَا .

وَلَقِيَ فِي صُحْبَةِ زَوْجَتِهِ مِنْ هَنَاءَةِ الْعَيْشِ وَطِيبِ الْعِشْرَةِ وَنَضَارَةِ الْحَيَاةِ فَوْقَ مَا كَانَ يَرْجُو وَيَأْمُلُ .

لَكِنَّ تِلْكَ الدَّارَ الْعَامِرَةَ عَلَىٰ كُلِّ مَا تَوَافَرَ لَهَا مِنَ الْمَزَايَا ...

وَتِلْكَ الزَّوْجَةَ الصَّالِحَةَ عَلَىٰ كُلِّ مَا حَبَاهَا(١) اللَّهُ مِنْ كَرِيمِ الشَّمَائِلِ(٢) وَجَلِيلِ الْخَصَائِلِ ، لَمْ يَسْتَطِيعَا أَنْ يَتَغَلَّبَا عَلَىٰ حَنِينِ الْفَارِسِ الْمُؤْمِنِ إِلَىٰ خَوْضِ الْمَعَارِكِ ... وَشَوْقِهِ إِلَىٰ سَمَاعِ وَقْعِ النِّصَالِ عَلَىٰ النِّصَالِ(٣)...

وَوَلَعِهِ بِاسْتِئْنَافِ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ...

فَكَانَ كُلَّمَا تَرَدَّدَتْ فِي الْمَدِينَةِ أَخْبَارُ انْتِصَارَاتِ الْجُيُوشِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْغَازِيَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَأَجَّجَتْ(٤) أَشْوَاقُهُ إِلَىٰ الْجِهَادِ ، وَاشْتَدَّ حَنِينُهُ إِلَىٰ الِاسْتِشْهَادِ .

* * *

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الْجُمَعِ سَمِعَ فَرُّوخٌ خَطِيبَ الْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ يَزُفُّ(٥) لِلْمُسْلِمِينَ بُشْرَىٰ انْتِصَارَاتِ الْجُيُوشِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي أَكْثَرَ مِنْ مَيْدَانٍ .

وَيَحُضُّ(٦) النَّاسَ عَلَىٰ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ... وَيُرَغِّبُهُمْ فِي الِاسْتِشْهَادِ إِعْزَازًا لِدِينِهِ ، وَابْتِغَاءَ(٧) لِمَرْضَاتِهِ ، فَعَادَ إِلَىٰ بَيْتِهِ وَقَدْ عَقَدَ الْعَزْمَ عَلَىٰ الِانْضِوَاءِ

(١) حباها الله : منحها الله .
(٢) الشمائل : الصفات الطيبة .
(٣) النصال : جمع نصل ، ونصل السيف : حديدته .
(٤) تأججت : اتقدت واشتعلت .
(٥) يزف البشرىٰ : يسوقها ويهديها .
(٦) يحضّ : يحث .
(٧) ابتغاء : طلبًا .

تَحْتَ رَايَةٍ مِنْ رَايَاتِ الْمُسْلِمِينَ الْمُنْتَشِرَةِ تَحْتَ كُلِّ نَجْمٍ .

وَأَعْلَنَ عَزْمَهُ هَٰذَا لِزَوْجَتِهِ .

فَقَالَتْ لَهُ : يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَٰنِ ، لِمَنْ تَتْرُكُنِي وَتَتْرُكُ هَٰذَا الْجَنِينَ[1] الَّذِي أَحْمِلُهُ بَيْنَ جَوَانِحِي ؟! ...

فَأَنْتَ رَجُلٌ غَرِيبٌ عَنِ الْمَدِينَةِ ، لَا أَهْلَ لَكَ فِيهَا وَلَا عَشِيرَةَ .

فَقَالَ : أَتْرُكُكِ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ... ثُمَّ إِنِّي خَلَّفْتُ لَكِ ثَلَاثِينَ أَلْفَ دِينَارٍ جَمَعْتُهَا مِنْ غَنَائِمِ الْحَرْبِ ... فَصُونِيهَا ، وَثَمِّرِيهَا[2] ، وَأَنْفِقِي مِنْهَا عَلَىٰ نَفْسِكِ وَوَلِيدِكِ بِالْمَعْرُوفِ حَتَّىٰ أَعُودَ إِلَيْكِ سَالِمًا غَانِمًا ...

أَوْ يَرْزُقَنِي اللَّهُ الشَّهَادَةَ الَّتِي أَتَمَنَّاهَا ...

ثُمَّ وَدَّعَهَا وَمَضَىٰ إِلَىٰ غَايَتِهِ ...

* * *

وَضَعَتِ السَّيِّدَةُ الرَّزَانُ[3] حَمْلَهَا بَعْدَ رَحِيلِ زَوْجِهَا بِبِضْعَةِ أَشْهُرٍ ، فَإِذَا هُوَ غُلَامٌ مُشْرِقُ الْوَجْهِ ، حُلْوُ الْقَسَمَاتِ ، رَائِعُ الْمُجْتَلَىٰ[4] ...

فَفَرِحَتْ بِهِ فَرَحًا عَظِيمًا كَادَ يُنْسِيهَا فِرَاقَ أَبِيهِ ...

وَأَطْلَقَتْ عَلَيْهِ اسْمَ رَبِيعَةَ .

* * *

بَدَتْ عَلَىٰ الْغُلَامِ الصَّغِيرِ عَلَامَاتُ النَّجَابَةِ مُنْذُ نُعُومَةِ أَظْفَارِهِ ...

وَظَهَرَتْ أَمَارَاتُ[5] الذَّكَاءِ فِي أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ .

فَأَسْلَمَتْهُ أُمُّهُ إِلَىٰ الْمُعَلِّمِينَ ، وَأَوْصَتْهُم بِأَنْ يُحْسِنُوا تَعْلِيمَهُ ...

(١) الجنين : الولد ما دام في رحم أمّه .
(٢) ثمّريها : كثّريها بالتجارة ونحوها .
(٣) المرأة الرزان : المرأة الرصينة الرزينة .
(٤) رائع المجتلى : يروع عين رائيه .
(٥) الأمارات : الدلائل والعلامات .

وَاسْتَدْعَتْ لَهُ الْمُؤَدِّبِينَ وَحَضَّتْهُمْ عَلَىٰ أَنْ يُحْكِمُوا تَأْدِيبَهُ .

فَمَا لَبِثَ كَثِيرًا حَتَّىٰ أَتْقَنَ الْكِتَابَةَ وَالْقِرَاءَةَ ...

ثُمَّ حَفِظَ كِتَابَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَجَعَلَ يُرَتِّلُهُ نَدِيًّا طَرِيًّا كَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ فُؤَادِ مُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ...

وَوَعَىٰ مَا تَيَسَّرَ لَهُ مِنْ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ...

وَاسْتَظْهَرَ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ مَا يَحْسُنُ بِمِثْلِهِ أَنْ يَسْتَظْهِرَ ...

وَعَرَفَ مِنْ أُمُورِ الدِّينِ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَعْرِفَ .

* * *

وَقَدْ أَغْدَقَتْ(١) أُمُّ رَبِيعَةَ عَلَىٰ مُعَلِّمِي وَلَدِهَا وَمُؤَدِّبِيهِ الْمَالَ وَالْجَوَائِزَ إِغْدَاقًا .

فَكَانَتْ كُلَّمَا رَأَتْهُ يَزْدَادُ عِلْمًا ؛ تَزِيدُهُمْ بِرًّا وَ إِكْرَامًا ...

وَكَانَتْ تَتَرَقَّبُ عَوْدَةَ أَبِيهِ الْغَائِبِ ، وَتَجْتَهِدُ فِي أَنْ تَجْعَلَهُ قُرَّةَ(٢) عَيْنٍ لَهَا وَلَهُ .

لَكِنَّ فَرُّوخًا طَالَتْ غَيْبَتُهُ .

ثُمَّ تَضَارَبَتِ الْأَقْوَالُ فِيهِ .

فَقَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّهُ وَقَعَ أَسِيرًا فِي أَيْدِي الْأَعْدَاءِ .

وَقَالَ آخَرُونَ : إِنَّهُ مَا زَالَ طَلِيقًا يُوَاصِلُ الْجِهَادَ .

وَقَالَ فَرِيقٌ ثَالِثٌ عَائِدٌ مِنْ سَاحَاتِ الْقِتَالِ : إِنَّهُ نَالَ الشَّهَادَةَ الَّتِي تَمَنَّاهَا .

---

(١) أغدقت : أكثرت وأجزلت .

(٢) قرة عين : مبعث فرح وسرور .

فَتَرَجَّحَ هَـٰذَا الْقَوْلُ الْأَخِيرُ عِنْدَ أُمِّ رَبِيعَةَ لِانْقِطَاعِ أَخْبَارِهِ ، فَحَزِنَتْ عَلَيْهِ حُزْنًا أَمَضَّ[1] فُؤَادَهَا .

ثُمَّ احْتَسَبَتْهُ عِنْدَ اللَّهِ[2].

* * *

كَانَ رَبِيعَةُ يَوْمَئِذٍ قَدْ أَيْفَعَ[3] وَكَادَ يَدْخُلُ فِي مَدَاخِلِ الشَّبَابِ .

فَقَالَ النَّاصِحُونَ لِأُمِّهِ :

هَا هُوَ ذَا رَبِيعَةُ قَدِ اسْتَكْمَلَ مَا يَنْبَغِي لِفَتًى مِثْلِهِ أَنْ يَسْتَكْمِلَهُ مِنَ الْقِرَاءَةِ وَالْكِتَابَةِ ...

وَزَادَ عَلَىٰ أَقْرَانِهِ[4] فَحَفِظَ الْقُرْآنَ وَرَوَىٰ الْحَدِيثَ .

فَلَوْ تَخَيَّرْتِ لَهُ حِرْفَةً[5] مِنَ الْحِرَفِ ؛ فَإِنَّهُ لَا يَلْبَثُ أَنْ يُتْقِنَهَا ، وَيُنْفِقَ عَلَيْكِ وَعَلَىٰ نَفْسِهِ مِمَّا تَدُرُّهُ مِنْ خَيْرٍ ، فَقَالَتْ :

أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَخِيرَ[6] لَهُ مَا فِيهِ صَلَاحُ مَعَاشِهِ وَمَعَادِهِ[7]...

إِنَّ رَبِيعَةَ قَدِ اخْتَارَ لِنَفْسِهِ الْعِلْمَ ...

وَعَزَمَ عَلَىٰ أَنْ يَعِيشَ مُتَعَلِّمًا وَمُعَلِّمًا مَا امْتَدَّتْ بِهِ الْحَيَاةُ .

* * *

مَضَىٰ رَبِيعَةُ فِي الطَّرِيقِ الَّتِي اخْتَطَّهَا لِنَفْسِهِ غَيْرَ وَانٍ وَلَا مُقَصِّرٍ .

---

(١) أمضّ فؤادها : أحزنه وأوجعه .
(٢) احتسبته عند الله : طلبت أجرها عليه من الله .
(٣) أيفع : قارب البلوغ .
(٤) أقرانه : نظرائه وأمثاله .
(٥) الحرفة : الصنعة .
(٦) يخير له : يختار له .
(٧) معاشه ومعاده : أي معاشه في الدنيا ، ومعاده في الآخرة .

وَأَقْبَلَ عَلَىٰ حَلَقَاتِ الْعِلْمِ الَّتِي كَانَ يَزْخَرُ[١] بِهَا مَسْجِدُ الْمَدِينَةِ كَمَا يُقْبِلُ الظِّمَاءُ[٢] عَلَىٰ الْمَوَارِدِ الْعِذَابِ[٣].

وَلَزِمَ الْبَقِيَّةَ الْبَاقِيَةَ مِنَ الصَّحَابَةِ الْكِرَامِ، وَعَلَىٰ رَأْسِهِمْ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ[٤] خَادِمُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ...

وَأَخَذَ عَنِ الرَّعِيلِ الْأَوَّلِ[٥] مِنَ التَّابِعِينَ وَفِي مُقَدِّمَتِهِمْ:

سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ[٦]، وَمَكْحُولٌ الشَّامِيُّ، وَسَلَمَةُ بْنُ دِينَارٍ[٧]...

وَوَاصَلَ كَلَالَ[٨] لَيْلِهِ بِكَلَالِ نَهَارِهِ حَتَّىٰ أَنْهَكَهُ الْجُهْدُ.

فَإِذَا كَلَّمَهُ أَحَدٌ فِي ذَلِكَ وَدَعَاهُ إِلَىٰ الرِّفْقِ بِنَفْسِهِ، قَالَ:

سَمِعْنَا أَشْيَاخَنَا يَقُولُونَ:

«إِنَّ الْعِلْمَ لَا يُعْطِيكَ بَعْضَهُ إِلَّا إِذَا أَعْطَيْتَهُ نَفْسَكَ كُلَّهَا» ...

ثُمَّ مَا لَبِثَ[٩] كَثِيرًا حَتَّىٰ ارْتَفَعَ ذِكْرُهُ، وَبَزَغَ نَجْمُهُ، وَكَثُرَ إِخْوَانُهُ.

وَأُولِعَ بِهِ تَلَامِيذُهُ، وَسَوَّدَهُ[١٠] قَوْمُهُ.

وَلَقَدْ سَارَتْ حَيَاةُ عَالِمِ الْمَدِينَةِ هَادِئَةً وَادِعَةً ...

فَشَطْرٌ مِنْ يَوْمِهِ فِي دَارِهِ لِأَهْلِهِ وَإِخْوَانِهِ ...

وَآخَرُ فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِمَجَالِسِ الْعِلْمِ وَحَلَقَاتِهِ ...

وَلَقَدْ مَضَتْ حَيَاتُهُ مُتَشَابِهَةً حَتَّىٰ وَقَعَ فِيهَا مَا لَمْ يَكُنْ فِي الْحُسْبَانِ ...

---

(١) يزخر بها: يموج بها.
(٢) الظِّماء: العطاش.
(٣) العِذاب: العذبة الحلوة.
(٤) أنس بن مالك الأنصاري: انظره في كتاب «صور من حياة الصحابة» للمؤلف، الناشر دار الأدب الإسلامي، الطبعة الشرعية.
(٥) الرَّعيل الأوَّل: الفريق المتقدِّم.
(٦) سعيد بن المسيّب: انظره ص ١٩٩.
(٧) سلَمة بن دينار: انظره ص ١٨٧.
(٨) الكلال: التعب والنَّصب.
(٩) ما لبث: ما أبطأ.
(١٠) سوَّده قومه: جعلوه سيدًا عليهم.

رَبِيعَةُ الرَّأْيِ

« ب »

فِي ذَاتِ عَشِيَّةٍ مِنْ عَشِيَّاتِ الصَّيْفِ الْمُقْمِرَةِ ؛ بَلَغَ الْمَدِينَةَ الْمُنَوَّرَةَ فَارِسٌ فِي أَوَاخِرِ الْعِقْدِ السَّادِسِ مِنْ عُمُرِهِ .

وَمَضَىٰ فِي أَزِقَّتِهَا رَاكِبًا جَوَادَهُ قَاصِدًا دَارَهُ .

وَهُوَ لَا يَدْرِي إِنْ كَانَتْ دَارُهُ مَا تَزَالُ قَائِمَةً عَلَىٰ عَهْدِهِ بِهَا ، أَمْ أَنَّ الْأَيَّامَ قَدْ فَعَلَتْ بِهَا فِعْلَهَا ...

فَلَقَدْ مَضَىٰ عَلَىٰ غِيَابِهِ عَنْهَا ثَلَاثُونَ عَامًا أَوْ نَحْوًا[1] مِنْ ذَلِكَ .

وَكَانَ يُسَائِلُ نَفْسَهُ عَنْ زَوْجَتِهِ الشَّابَّةِ الَّتِي خَلَّفَهَا فِي تِلْكَ الدَّارِ مَا فَعَلَتْ ؟ ...

وَعَنْ جَنِينِهَا الَّذِي كَانَتْ تَحْمِلُهُ بَيْنَ جَوَانِحِهَا :

أَوَضَعَتْهُ ذَكَرًا أَمْ أُنْثَىٰ ؟ ... أَحَيٌّ هُوَ أَمْ مَيِّتٌ ؟ .

وَإِذَا كَانَ حَيًّا ؛ فَمَا شَأْنُهُ ؟ .

وَعَنْ ذَلِكَ الْمَبْلَغِ الْكَبِيرِ الَّذِي جَمَعَهُ مِنْ غَنَائِمِ الْجِهَادِ ، وَتَرَكَهُ وَدِيعَةً عِنْدَهَا حِينَ مَضَىٰ مُجَاهِدًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَعَ الْجُيُوشِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْمُتَوَجِّهَةِ لِفَتْحِ « بُخَارَىٰ » وَ« سَمَرْقَنْدَ » وَمَا جَاوَرَهُمَا ...

---

(١) نحوًا من ذلك : قريبًا من ذلك .

وَلَقَدْ كَانَتْ أَزِقَّةُ الْمَدِينَةِ وَشَوَارِعُهَا مَا تَزَالُ عَامِرَةً بِالْغَادِينَ وَالرَّائِحِينَ ...

فَالنَّاسُ لَمْ يَفْرَغُوا مِنْ صَلَاةِ الْعِشَاءِ إِلَّا وَشِيكًا[1]، لَكِنَّ أَحَدًا مِنْ هَؤُلَاءِ النَّاسِ الَّذِينَ مَرَّ بِهِمْ لَمْ يَعْرِفْهُ، وَلَمْ يَأْبَهْ[2] لَهُ، وَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَىٰ جَوَادِهِ الْمُطَهَّمِ، وَلَا إِلَىٰ سَيْفِهِ الْمُتَدَلِّي مِنْ عَاتِقِهِ ...

فَسُكَّانُ الْمُدُنِ الْإِسْلَامِيَّةِ كَانُوا قَدْ أَلِفُوا مَنْظَرَ الْمُجَاهِدِينَ الْغَادِينَ إِلَىٰ الْقِتَالِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوِ الْعَائِدِينَ مِنْهُ.

لَكِنَّ ذَلِكَ كَانَ سَبَبًا فِي إِثَارَةِ حُزْنِ الْفَارِسِ وَازْدِيَادِ وَسَاوِسِهِ.

وَفِيمَا كَانَ الْفَارِسُ سَابِحًا فِي أَفْكَارِهِ هَذِهِ، مَاضِيًا يَتَلَمَّسُ طَرِيقَهُ فِي تِلْكَ الْأَزِقَّةِ الَّتِي عَرَاهَا[3] التَّغْيِيرُ ... وَجَدَ نَفْسَهُ فَجْأَةً أَمَامَ دَارِهِ ...

وَأَلْفَىٰ[4] بَابَهَا مَشْقُوقًا، فَأَعْجَلَتْهُ الْفَرْحَةُ عَنِ الِاسْتِئْذَانِ عَلَىٰ أَهْلِهَا ...

وَوَلَجَ مِنَ الْبَابِ، وَأَوْغَلَ فِي صَحْنِ الدَّارِ ...

* * *

سَمِعَ رَبُّ الدَّارِ صَرِيرَ الْبَابِ، فَأَطَلَّ مِنْ عُلِّيَّتِهِ[5] فَرَأَىٰ فِي ضَوْءِ الْقَمَرِ رَجُلًا مُتَوَشِّحًا سَيْفَهُ مُتَقَلِّدًا رُمْحَهُ، يَقْتَحِمُ عَلَيْهِ فِي اللَّيْلِ دَارَهُ.

وَكَانَتْ زَوْجَتُهُ الشَّابَّةُ تَقِفُ غَيْرَ بَعِيدٍ عَنْ مَرْمَىٰ بَصَرِ الرَّجُلِ الْغَرِيبِ.

فَهَبَّ مُغْضَبًا، وَنَزَلَ إِلَيْهِ حَافِيًا وَهُوَ يَقُولُ:

أَتَتَسَتَّرُ بِجُنْحِ اللَّيْلِ يَا عَدُوَّ اللَّهِ، وَتَقْتَحِمُ مَنْزِلِي، وَتَهْجُمُ عَلَىٰ حَرِيمِي؟!.

وَانْدَفَعَ نَحْوَهُ كَمَا يَنْدَفِعُ الْأَسَدُ الضَّارِي إِذَا أُرِيدَ عَرِينُهُ[6] بِسُوءٍ ...

---

(١) وشيكًا: قريبًا.

(٢) لم يأبه له: لم يهتم به.

(٣) عراها: أصابها.

(٤) ألفى: وجد.

(٥) العُلِّية: بيت في الطبقة الثانية من الدار.

(٦) العرين: بيت الأسد.

وَلَمْ يَدَعْ لَهُ فُرْصَةً لِلْكَلَامِ ...

وَتَوَاثَبَ كُلٌّ مِنَ الرَّجُلَيْنِ عَلَىٰ صَاحِبِهِ؛ وَعَلَتْ جَلَبَتُهُمَا[1]، وَارْتَفَعَ ضَجِيجُهُمَا، وَتَدَفَّقَ الْجِيرَانُ عَلَى الْبَيْتِ مِنْ كُلِّ صَوْبٍ.

فَأَحَاطُوا بِالرَّجُلِ الْغَرِيبِ إِحَاطَةَ الْغُلِّ[2] بِالْعُنُقِ، وَأَعَانُوا جَارَهُمْ عَلَيْهِ...

فَأَمْسَكَ بِهِ صَاحِبُ الدَّارِ وَأَحْكَمَ قَبْضَتَهُ عَلَىٰ خِنَاقِهِ[3] وَقَالَ:

وَاللَّهِ لَا أُطْلِقُكَ - يَا عَدُوَّ اللَّهِ - إِلَّا عِنْدَ الْوَالِي.

فَقَالَ الرَّجُلُ: مَا أَنَا بِعَدُوِّ اللَّهِ... وَلَمْ أَرْتَكِبْ ذَنْبًا...

وَإِنَّمَا هُوَ بَيْتِي، وَمِلْكُ يَمِينِي، وَجَدْتُ بَابَهُ مَفْتُوحًا فَدَخَلْتُهُ...

ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَىٰ النَّاسِ وَقَالَ:

يَا قَوْمُ... اسْمَعُوا مِنِّي...

هَٰذَا الْبَيْتُ بَيْتِي... شَرَيْتُهُ بِمَالِي...

يَا قَوْمُ... أَنَا فَرُّوخٌ.

أَلَمْ يَبْقَ فِي الْجِيرَانِ أَحَدٌ يَعْرِفُ فَرُّوخًا الَّذِي غَدَا[4] مُنْذُ ثَلَاثِينَ عَامًا مُجَاهِدًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟!.

وَكَانَتْ وَالِدَةُ صَاحِبِ الدَّارِ نَائِمَةً، فَاسْتَيْقَظَتْ عَلَىٰ الضَّجِيجِ، وَأَطَلَّتْ مِنْ نَافِذَةِ عُلِّيَّتِهَا؛ فَرَأَتْ زَوْجَهَا بِشَحْمِهِ وَلَحْمِهِ.

(١) جَلَبتهما: ضوضاؤهما.
(٢) الغُل: طوق من حديد يجعل في العنق أو اليد، وجمعه أغلال.
(٣) خِناقه: رقبته.
(٤) غدا: مَضَىٰ وذهب.

فَكَادَتْ تَعْقِدُ الدَّهْشَةُ لِسَانَهَا ...

لَكِنَّهَا مَا لَبِثَتْ أَنْ قَالَتْ :

دَعُوهُ ...

دَعْهُ يَا رَبِيعَةُ ...

دَعْهُ يَا وَلَدِي ... إِنَّهُ أَبُوكَ ...

انْصَرِفُوا عَنْهُ يَا قَوْمُ ، بَارَكَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ .

حَذَارِ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَٰنِ ...

إِنَّ هَٰذَا الَّذِي تَتَصَدَّىٰ لَهُ وَلَدُكَ وَفِلْذَةُ كَبِدِكَ[1].

فَمَا كَادَتْ كَلِمَاتُهَا تُلَامِسُ الْآذَانَ حَتَّىٰ أَقْبَلَ فَرُّوخٌ عَلَىٰ رَبِيعَةَ ، وَجَعَلَ يَضُمُّهُ وَيُعَانِقُهُ ..

وَأَقْبَلَ رَبِيعَةُ عَلَىٰ فَرُّوخٍ ، وَطَفِقَ يُقَبِّلُ يَدَيْهِ وَعُنُقَهُ وَرَأْسَهُ ...

وَانْفَضَّ عَنْهُمَا النَّاسُ ...

وَنَزَلَتْ أُمُّ رَبِيعَةَ تُسَلِّمُ عَلَىٰ زَوْجِهَا الَّذِي مَا كَانَتْ تَظُنُّ ظَنًّا أَنَّهَا سَتَلْقَاهُ عَلَىٰ هَٰذِهِ الْأَرْضِ بَعْدَ أَنِ انْقَطَعَتْ أَخْبَارُهُ مُدَّةً تُقَارِبُ ثُلُثَ قَرْنٍ مِنَ الزَّمَانِ .

* * *

جَلَسَ فَرُّوخٌ إِلَىٰ زَوْجَتِهِ ، وَطَفِقَ يُحَدِّثُهَا عَنْ أَحْوَالِهِ ...

وَيَكْشِفُ لَهَا عَنْ أَسْبَابِ انْقِطَاعِ أَخْبَارِهِ ...

وَلَكِنَّهَا كَانَتْ فِي شُغْلٍ شَاغِلٍ عَنْ كَثِيرٍ مِمَّا يَقُولُ ، فَلَقَدْ نَغَّصَ[2] عَلَيْهَا

---

(١) فِلْذَة كَبِدِك : قطعة كَبِدِك .
(٢) نَغَّص : كدَّر .

فَرْحَتَهَا بِلِقَائِهِ وَاجْتِمَاعِ شَمْلِهِ بِوَلَدِهِ؛ خَوْفُهَا مِنْ غَضْبَتِهِ عَلَىٰ إِضَاعَةِ كُلِّ مَا أَوْدَعَهُ لَدَيْهَا مِنْ مَالٍ ... كَانَتْ تَقُولُ فِي نَفْسِهَا :

مَاذَا لَوْ سَأَلَنِي الْآنَ عَنْ ذَلِكَ الْمَبْلَغِ الْكَبِيرِ الَّذِي تَرَكَهُ أَمَانَةً عِنْدِي، وَأَوْصَانِي أَنْ أُنْفِقَ مِنْهُ بِالْمَعْرُوفِ ؟! ...

مَاذَا سَيَكُونُ مِنْهُ لَوْ أَخْبَرْتُهُ أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْهُ شَيْءٌ ؟! ... أَيُقْنِعُهُ قَوْلِي لَهُ :

إِنَّنِي أَنْفَقْتُ مَا تَرَكَهُ عِنْدِي عَلَىٰ تَرْبِيَةِ ابْنِهِ وَتَعْلِيمِهِ ؟ ...

وَهَلْ تَبْلُغُ نَفَقَةُ وَلَدٍ ثَلَاثِينَ أَلْفَ دِينَارٍ ؟! .

أَيُصَدِّقُ أَنَّ يَدَ ابْنِهِ أَنْدَىٰ مِنَ السَّحَابِ[1]، وَأَنَّهُ لَا يُبْقِي عَلَىٰ دِينَارٍ وَلَا دِرْهَمٍ، وَأَنَّ الْمَدِينَةَ كُلَّهَا تَعْلَمُ أَنَّهُ أَنْفَقَ عَلَىٰ إِخْوَانِهِ الْآلَافَ الْمُؤَلَّفَةَ ؟ .

وَفِيمَا كَانَتْ أُمُّ رَبِيعَةَ غَارِقَةً فِي هَوَاجِسِهَا[2] هَاذِهِ، الْتَفَتَ إِلَيْهَا زَوْجُهَا وَقَالَ : لَقَدْ جِئْتُكِ - يَا أُمَّ رَبِيعَةَ - بِأَرْبَعَةِ آلَافِ دِينَارٍ ...

فَأَخْرِجِي الْمَالَ الَّذِي أَوْدَعْتُهُ عِنْدَكِ لِنَضُمَّ هَاذَا إِلَيْهِ، وَنَشْتَرِيَ بِالْمَالِ كُلِّهِ بُسْتَانًا أَوْ عَقَارًا[3] نَعِيشُ مِنْ غَلَّتِهِ مَا امْتَدَّتْ بِنَا الْحَيَاةُ .

فَتَشَاغَلَتْ عَنْهُ، وَلَمْ تُجِبْهُ بِشَيْءٍ .

فَأَعَادَ عَلَيْهَا الطَّلَبَ وَقَالَ : هَيَّا ... أَيْنَ الْمَالُ حَتَّىٰ أَضُمَّ إِلَيْهِ مَا مَعِي ؟ .

فَقَالَتْ : لَقَدْ وَضَعْتُهُ حَيْثُ يَجِبُ أَنْ يُوضَعَ ...

وَسَأُخْرِجُهُ لَكَ بَعْدَ أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

وَقَطَعَ صَوْتُ الْمُؤَذِّنِ عَلَيْهِمَا الْحَدِيثَ ... فَهَبَّ فَرُّوخٌ إِلَىٰ إِبْرِيقِهِ فَتَوَضَّأَ .

---

(١) أندىٰ من السحاب : أكرم من الغيم الممطر .
(٢) هواجسها : خواطرها .
(٣) العقار : الدّار والضيعة ونحوهما .

ثُمَّ مَضَىٰ مُسْرِعًا نَحْوَ الْبَابِ وَهُوَ يَقُولُ : أَيْنَ رَبِيعَةُ ؟ .

فَقَالُوا : سَبَقَكَ إِلَىٰ الْمَسْجِدِ مُنْذُ النِّدَاءِ الْأَوَّلِ .

وَلَا نَحْسَبُ أَنَّكَ تُدْرِكُ الْجَمَاعَةَ .

* * *

بَلَغَ فَرُّوخُ الْمَسْجِدَ ؛ فَوَجَدَ أَنَّ الْإِمَامَ قَدْ فَرَغَ وَشِيكًا مِنَ الصَّلَاةِ ، فَأَدَّىٰ الْمَكْتُوبَةَ .

ثُمَّ مَضَىٰ نَحْوَ الضَّرِيحِ الشَّرِيفِ فَسَلَّمَ عَلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ .

ثُمَّ انْثَنَىٰ نَحْوَ الرَّوْضَةِ[1] الْمُطَهَّرَةِ ، فَقَدْ كَانَتْ فِي فُؤَادِهِ أَشْوَاقٌ إِلَيْهَا ، وَحَنِينٌ إِلَىٰ الصَّلَاةِ فِيهَا .

فَتَخَيَّرَ لِنَفْسِهِ مَكَانًا فِي رِحَابِهَا النَّضِرَةِ .

ثُمَّ جَعَلَ يَتَنَفَّلُ[2] ، فَصَلَّىٰ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يُصَلِّيَ ، ثُمَّ دَعَا بِمَا أُلْهِمَ أَنْ يَدْعُوَ .

وَلَمَّا هَمَّ بِمُغَادَرَةِ الْمَسْجِدِ ؛ وَجَدَ بَاحَتَهُ قَدْ غُصَّتْ عَلَىٰ رَحْبِهَا بِمَجْلِسٍ مِنْ مَجَالِسِ الْعِلْمِ لَمْ يَشْهَدْ لَهُ نَظِيرًا مِنْ قَبْلُ .

وَرَأَىٰ النَّاسَ قَدْ تَحَلَّقُوا حَوْلَ شَيْخِ الْمَجْلِسِ حَلْقَةً إِثْرَ حَلْقَةٍ ، حَتَّىٰ لَمْ يَتْرُكُوا فِي السَّاحَةِ مَوْطِئًا لِقَدَمٍ .

وَأَجَالَ بَصَرَهُ فِي النَّاسِ ؛ فَإِذَا فِيهِمْ شُيُوخٌ مُعَمَّمُونَ ذَوُو أَسْنَانٍ[3] ...

وَرِجَالٌ مُتَوَقِّرُونَ[4] تَدُلُّ هَيْئَاتُهُمْ عَلَىٰ أَنَّهُمْ ذَوُو أَقْدَارٍ[5] ...

---

(١) الرَّوضة : ما بين قبر الرسول ﷺ ومنبره .

(٢) يتنفَّل : يصلي نفلًا ، والنَّفل : ما زاد على الفرائض .

(٣) ذوو أسنان : ذوو أعمار ، [أي كبار السن] .

(٤) متوقرون : مُظهِرون الوقار .

(٥) ذوو أقدار : لهم منزلة وشأنٌ .

وَشُبَّانٌ كَثِيرُونَ قَدْ جَثَوْا عَلَىٰ رُكَبِهِمْ ، وَأَخَذُوا أَقْلَامَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ ، وَجَعَلُوا يَلْتَقِطُونَ مَا يَقُولُهُ الشَّيْخُ كَمَا تُلْتَقَطُ الدُّرَرُ ...

وَيَحْفَظُونَهُ فِي دَفَاتِرِهِمْ كَمَا تُحْفَظُ الْأَعْلَاقُ[1] النَّفِيسَةُ .

وَكَانَ النَّاسُ مُتَّجِهِينَ بِأَبْصَارِهِمْ إِلَىٰ حَيْثُ يَجْلِسُ الشَّيْخُ ، مُنْصِتِينَ إِلَىٰ كُلِّ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ حَتَّىٰ لَكَأَنَّ عَلَىٰ رُؤُوسِهِمُ الطَّيْرَ[2]...

وَكَانَ الْمُبَلِّغُونَ يَنْقُلُونَ مَا يَقُولُهُ الشَّيْخُ فِقْرَةً فِقْرَةً ، فَلَا يَفُوتُ أَحَدًا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِهِ مَهْمَا كَانَ بَعِيدًا .

وَحَاوَلَ فَرُّوخٌ أَنْ يَتَبَيَّنَ صُورَةَ الشَّيْخِ ... فَلَمْ يُفْلِحْ لِمَوْقِعِهِ مِنْهُ ، وَبُعْدِهِ عَنْهُ .

لَقَدْ رَاعَهُ مِنْهُ بَيَانُهُ الْمُشْرِقُ ، وَعِلْمُهُ الْمُتَدَفِّقُ ، وَحَافِظَتُهُ الْعَجِيبَةُ .

وَأَدْهَشَهُ خُضُوعُ النَّاسِ بَيْنَ يَدَيْهِ .

وَمَا هُوَ إِلَّا قَلِيلٌ حَتَّىٰ خَتَمَ الشَّيْخُ مَجْلِسَهُ وَنَهَضَ وَاقِفًا ...

فَهَبَّ النَّاسُ مُتَّجِهِينَ نَحْوَهُ ، وَتَزَاحَمُوا عَلَيْهِ ، وَأَحَاطُوا بِهِ ، وَانْدَفَعُوا وَرَاءَهُ يُشَيِّعُونَهُ[3] إِلَىٰ خَارِجِ الْمَسْجِدِ .

وَهُنَا الْتَفَتَ فَرُّوخٌ إِلَىٰ رَجُلٍ كَانَ يَجْلِسُ بِجَانِبِهِ وَقَالَ :

قُلْ لِي - بِرَبِّكَ - مَنِ الشَّيْخُ ؟! .

فَقَالَ الرَّجُلُ بِاسْتِغْرَابٍ : أَوَ لَسْتَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ؟ .

فَقَالَ فَرُّوخٌ : بَلَىٰ .

---

(١) الأعلاق : النفائس الّتي تُقتنَىٰ .

(٢) كأن علىٰ رؤوسهم الطير : كناية عن سكونهم ، وصمتهم . (٣) يشيعونه : يودعونه .

فَقَالَ الرَّجُلُ: وَهَلْ فِي الْمَدِينَةِ رَجُلٌ وَاحِدٌ لَا يَعْرِفُ الشَّيْخَ ؟!.

فَقَالَ فَرُّوخٌ: اعْذُرْنِي إِذَا كُنْتُ لَا أَعْرِفُهُ.

فَلَقَدْ أَمْضَيْتُ نَحْوًا مِنْ ثَلَاثِينَ عَامًا بَعِيدًا عَنِ الْمَدِينَةِ، وَلَمْ أَعُدْ إِلَيْهَا إِلَّا أَمْسِ... فَقَالَ الرَّجُلُ:

لَا بَأْسَ... اجْلِسْ إِلَيَّ قَلِيلًا أُحَدِّثْكَ عَنِ الشَّيْخِ.

ثُمَّ قَالَ:

إِنَّ الشَّيْخَ الَّذِي اسْتَمَعْتَ إِلَيْهِ سَيِّدٌ مِنْ سَادَاتِ التَّابِعِينَ، وَعَلَمٌ مِنْ أَعْلَامِ الْمُسْلِمِينَ.

وَهُوَ مُحَدِّثُ الْمَدِينَةِ، وَفَقِيهُهَا، وَإِمَامُهَا عَلَىٰ الرَّغْمِ مِنْ حَدَاثَةِ سِنِّهِ.

فَقَالَ فَرُّوخٌ: مَا شَاءَ اللَّهُ، لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ...

فَأَتْبَعَ الرَّجُلُ يَقُولُ:

وَإِنَّ مَجْلِسَهُ يَضُمُّ - كَمَا رَأَيْتَ - مَالِكَ بْنَ أَنَسٍ[1]، وَأَبَا حَنِيفَةَ النُّعْمَانَ[2]، وَيَحْيَىٰ بْنَ سَعِيدٍ الْأَنْصَارِيَّ، وَسُفْيَانَ الثَّوْرِيَّ، وَعَبْدَ الرَّحْمَٰنِ بْنَ عَمْرٍو الْأَوْزَاعِيَّ، وَاللَّيْثَ بْنَ سَعْدٍ، وَغَيْرَهُمْ وَغَيْرَهُمْ.

فَقَالَ فَرُّوخٌ:

غَيْرَ أَنَّكَ...

فَلَمْ يُتِحْ لَهُ الرَّجُلُ فُرْصَةً لِإِتْمَامِ كَلَامِهِ، وَأَرْدَفَ[3] يَقُولُ:

وَهُوَ فَوْقَ ذَلِكَ كُلِّهِ سَيِّدٌ كَرِيمُ الشَّمَائِلِ، مُوَطَّأُ الْأَكْنَافِ[4]، سَخِيُّ الْيَدِ...

---

(١) مالك بن أنس: صاحب المذهب المعروف.
(٢) أبو حنيفة النعمان: انظره ص ٤٨٣، ٤٩٣.
(٣) أردف: أتبع.
(٤) موطأ الأكناف: متواضع رضيّ الخلق.

فَمَا عَرَفَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ أَحَدًا أَوْفَرَ مِنْهُ جُودًا لِصَدِيقٍ وَابْنِ صَدِيقٍ ... وَلَا أَزْهَدَ مِنْهُ فِي مَتَاعِ الدُّنْيَا ، وَلَا أَرْغَبَ مِنْهُ بِمَا عِنْدَ اللَّهِ .

فَقَالَ فَرُّوخٌ : وَلَكِنَّكَ لَمْ تَذْكُرْ لِيَ اسْمَهُ .

فَقَالَ الرَّجُلُ : إِنَّهُ رَبِيعَةُ الرَّأْيِ .

فَقَالَ فَرُّوخٌ : رَبِيعَةُ الرَّأْيِ !! .

فَقَالَ الرَّجُلُ : نَعَمْ ، إِنَّ اسْمَهُ رَبِيعَةُ ...

لَكِنَّ عُلَمَاءَ الْمَدِينَةِ وَشُيُوخَهَا دَعَوْهُ رَبِيعَةَ الرَّأْيِ لِأَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا لَمْ يَجِدُوا لِقَضِيَّةٍ نَصًّا فِي كِتَابِ اللَّهِ أَوْ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَجَؤُوا إِلَيْهِ ...

فَيَجْتَهِدُ فِي الْأَمْرِ ...

وَيَقِيسُ مَا لَمْ يَرِدْ فِيهِ نَصٌّ عَلَىٰ مَا وَرَدَ فِيهِ نَصٌّ ...

وَيَأْتِيهِمْ بِالْحُكْمِ فِيمَا أَشْكَلَ عَلَيْهِمْ عَلَىٰ وَجْهٍ تَرْكَنُ[1] إِلَيْهِ النُّفُوسُ وَتَطْمَئِنُّ لَهُ الْقُلُوبُ .

فَقَالَ فَرُّوخٌ فِي لَهْفَةٍ : وَلَكِنَّكَ لَمْ تَنْسِبْهُ لِي ...

فَقَالَ الرَّجُل : إِنَّهُ رَبِيعَةُ بْنُ فَرُّوخٍ الْمُكَنَّىٰ بِأَبِي عَبْدِ الرَّحْمَٰنِ ...

لَقَدْ وُلِدَ بَعْدَ أَنْ غَادَرَ أَبُوهُ الْمَدِينَةَ مُجَاهِدًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ... فَتَوَلَّتْ أُمُّهُ تَرْبِيَتَهُ وَتَنْشِئَتَهُ ...

وَلَقَدْ سَمِعْتُ النَّاسَ قُبَيْلَ الصَّلَاةِ يَقُولُونَ :

إِنَّ أَبَاهُ عَادَ اللَّيْلَةَ الْمَاضِيَةَ .

---

(١) تركن إليه : ترتاح إليه وتطمئن .

عِنْدَ ذَلِكَ تَحَدَّرَتْ مِنْ عَيْنَيْ فَرُّوخٍ دَمْعَتَانِ كَبِيرَتَانِ لَمْ يَعْرِفْ لَهُمَا الرَّجُلُ سَبَبًا ...

وَمَضَىٰ يَحُثُّ[1] الْخُطَىٰ نَحْوَ بَيْتِهِ ...

فَلَمَّا رَأَتْهُ أُمُّ رَبِيعَةَ وَالدُّمُوعُ تَمْلأُ عَيْنَيْهِ قَالَتْ :

مَا بِكَ يَا أَبَا رَبِيعَةَ ؟ .

فَقَالَ : مَا بِي إِلَّا الْخَيْرُ ...

لَقَدْ رَأَيْتُ وَلَدَنَا رَبِيعَةَ فِي مَقَامٍ مِنَ الْعِلْمِ وَالشَّرَفِ وَالْمَجْدِ مَا رَأَيْتُهُ لِأَحَدٍ مِنْ قَبْلُ .

فَاغْتَنَمَتْ أُمُّ رَبِيعَةَ الْفُرْصَةَ وَقَالَتْ : أَيُّمَا أَحَبُّ إِلَيْكَ ...

ثَلَاثُونَ أَلْفَ دِينَارٍ أَمْ هَٰذَا الَّذِي بَلَغَهُ وَلَدُكَ مِنَ الْعِلْمِ وَالشَّرَفِ ؟ .

فَقَالَ : بَلْ ـ وَاللَّهِ ـ هَٰذَا أَحَبُّ إِلَيَّ ، وَآثَرُ[2] عِنْدِي مِنْ مَالِ الدُّنْيَا كُلِّهِ .

فَقَالَتْ : لَقَدْ أَنْفَقْتُ مَا تَرَكْتَهُ عِنْدِي عَلَيْهِ ...

فَهَلْ طَابَتْ نَفْسُكَ بِمَا فَعَلْتُ ؟! .

فَقَالَ : نَعَمْ ...

وَجُزِيتِ عَنِّي وَعَنْهُ وَعَنِ الْمُسْلِمِينَ خَيْرَ الْجَزَاءِ ...(*) .

---

(١) يحث الخطى : يُسْرِع الخطى .
(٢) آثَرُ : أفضل وأحبُّ .

(*) للاستزادة من أخبار ربيعة الرأي انظر :
١ - تذكرة الحفّاظ : ١/ ١٤٨.
٢ - حلية الأولياء : ٣/ ٢٥٩.
٣ - صفة الصفوة : ٢/ ٨٣.
٤ - ذيل الذّيل : ١٠١.
٥ - تاريخ بغداد : ٨/ ٤٢٠.
٦ - ميزان الاعتدال : ١/ ١٣٦.
٧ - التّاج : ١/ ١٤١.
٨ - وفيات الأعيان : ٢/ ٢٨٨.
٩ - تاريخ الطّبري : «انظر الفهارس في العاشر».

رَجَاءُ بْنُ حَيْوَةَ

« إِنَّ فِي كِنْدَةَ لَثَلَاثَةَ رِجَالٍ يُنْزِلُ اللَّهُ بِهِمُ الْغَيْثَ ...
وَيَنْصُرُ بِهِمْ عَلَى الْأَعْدَاءِ ... أَحَدُهُمْ رَجَاءُ بْنُ حَيْوَةَ »

[مَسْلَمَةُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ]

كَانَ فِي قَرْنِ[١] التَّابِعِينَ ثَلَاثَةُ رِجَالٍ مَا عَرَفَ أَهْلُ زَمَانِهِمْ لَهُمْ مَثِيلًا ، وَلَا رَأَوْا لَهُمْ ضَرِيبًا .

كَأَنَّهُمُ الْتَقَوْا عَلَى مِيعَادٍ ؛ فَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَالصَّبْرِ ...

وَتَعَاهَدُوا عَلَى الْخَيْرِ وَالْبِرِّ .

وَوَقَفُوا حَيَاتَهُمْ عَلَى التُّقَى وَالْعِلْمِ .

وَجَعَلُوا أَنْفُسَهُمْ فِي خِدْمَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ ، وَعَامَّةِ الْمُؤْمِنِينَ وَخَاصَّتِهِمْ ، هُمْ :

مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ[٢] بِالْعِرَاقِ .

وَالْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ[٣] بِالْحِجَازِ .

وَرَجَاءُ بْنُ حَيْوَةَ بِالشَّامِ .

فَتَعَالَوْا نَقْضِ هَذِهِ اللَّحَظَاتِ الْمُبَارَكَاتِ فِي رِحَابِ ثَالِثِ هَؤُلَاءِ الْأَخْيَارِ الْأَبْرَارِ رَجَاءِ بْنِ حَيْوَةَ .

* * *

وُلِدَ رَجَاءُ بْنُ حَيْوَةَ فِي « بِيسَانَ » مِنْ أَرْضِ « فِلَسْطِينَ » ...

---

(١) الْقرن : مدة من الزّمان قدرها مائة سنة ، والمراد هنا جيل التّابعين .

(٢) محمد بن سيرين : انظره ص ١٣١.

(٣) الْقاسم بن محمد بن أبي بكر : انظره ص ٣٠٣.

وَكَانَتْ وِلَادَتُهُ فِي أَوَاخِرِ خِلَافَةِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ[١] أَوْ نَحْوٍ مِنْ ذَلِكَ ...

وَكَانَ يَنْتَمِي إِلَىٰ قَبِيلَةِ « كِنْدَةَ » الْعَرَبِيَّةِ .

وَعَلَىٰ هَٰذَا فَرَجَاءٌ « فِلَسْطِينِيُّ » الْوَطَنِ ...

عَرَبِيُّ الْأَرُومَةِ[٢] ... « كِنْدِيُّ » الْعَشِيرَةِ .

* * *

وَقَدْ نَشَأَ الْفَتَىٰ الْكِنْدِيُّ فِي طَاعَةِ اللَّهِ مُنْذُ حَدَاثَةِ سِنِّهِ ؛ فَأَحَبَّهُ اللَّهُ وَحَبَّبَهُ إِلَىٰ خَلْقِهِ .

وَأَقْبَلَ عَلَىٰ طَلَبِ الْعِلْمِ مِنْ نُعُومَةِ أَظْفَارِهِ[٣] فَوَجَدَ الْعِلْمُ فُؤَادَهُ غَضًّا طَرِيًّا خَالِيًا ، فَتَمَكَّنَ مِنْهُ ، وَاسْتَقَرَّ فِيهِ .

وَجَعَلَ هَمَّهُ الْأَكْبَرَ التَّضَلُّعَ[٤] مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ، وَالتَّزَوُّدَ مِنْ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

فَاسْتَضَاءَ فِكْرُهُ بِنُورِ الْقُرْآنِ ...

وَاسْتَنَارَتْ بَصِيرَتُهُ بِهَدْيِ النُّبُوَّةِ ...

وَامْتَلَأَ صَدْرُهُ بِالْمَوْعِظَةِ وَالْحِكْمَةِ ... وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ...

وَقَدْ أُتِيحَ لَهُ أَنْ يَأْخُذَ عَنْ طَائِفَةٍ كَبِيرَةٍ مِنْ جِلَّةِ الصَّحَابَةِ مِنْ أَمْثَالِ : أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ، وَأَبِي الدَّرْدَاءِ[٥] ، وَأَبِي أُمَامَةَ ، وَعُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ ...

---

(١) عثمان بن عفان : انظره في كتاب « صور من حياة الصحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة الشرعية .

(٢) الأرومة : الأصل .

(٣) نعومة أظفاره : كناية عن صغر سنّه .

(٤) التضلّع : يقال تضلع من العلم أي شبع منه وروي .

(٥) أبو الدرداء : انظره في كتاب « صور من حياة الصحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة الشرعية .

وَمُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ، وَالنَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ ، وَغَيْرِهِمْ .

فَكَانُوا لَهُ مَصَابِيحَ هِدَايَةٍ ، وَمَشَاعِلَ عِرْفَانٍ .

* * *

وَقَدْ وَضَعَ الْفَتَىٰ الْمَحْظُوظُ لِنَفْسِهِ دُسْتُورًا ظَلَّ يَلْتَزِمُ بِهِ وَيُرَدِّدُهُ مَا امْتَدَّتْ بِهِ الْحَيَاةُ ، حَيْثُ كَانَ يَقُولُ :

مَا أَحْسَنَ الْإِسْلَامَ يَزِينُهُ الْإِيمَانُ ...

وَمَا أَحْسَنَ الْإِيمَانَ يَزِينُهُ التُّقَىٰ ...

وَمَا أَحْسَنَ التُّقَىٰ يَزِينُهُ الْعِلْمُ ...

وَمَا أَحْسَنَ الْعِلْمَ يَزِينُهُ الْعَمَلُ ...

وَمَا أَحْسَنَ الْعَمَلَ يَزِينُهُ الرِّفْقُ ...

* * *

وَقَدْ وَزَرَ[1] رَجَاءُ بْنُ حَيْوَةَ لِطَائِفَةٍ مِنْ خُلَفَاءِ بَنِي « أُمَيَّةَ » ابْتِدَاءً مِنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ ، وَانْتِهَاءً بِعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ[2].

لَكِنَّ صِلَتَهُ بِسُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ وَعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ فَاقَتْ صِلَاتِهِ بِمَنْ سَبَقَهُمَا مِنَ الْخُلَفَاءِ .

* * *

وَقَدْ أَدْنَاهُ مِنْ قُلُوبِ خُلَفَاءِ بَنِي « أُمَيَّةَ » رَجَاحَةٌ فِي رَأْيِهِ ...

وَصِدْقٌ فِي لَهْجَتِهِ ...

وَإِخْلَاصٌ فِي نِيَّتِهِ ...

وَحِكْمَةٌ فِي مُعَالَجَتِهِ الْأُمُورَ ...

---

(١) وَزَرَ : صار وزيرًا.

(٢) عمر بن عبد العزيز : انظره ص ٨٧، ٢٥٧، ٣٢٩.

ثُمَّ تَوَّجَ ذَلِكَ كُلَّهُ بِزُهْدِهِ بِمَا فِي أَيْدِيهِمْ مِنْ عَرَضِ الدُّنْيَا مِمَّا كَانَ يَتَزَاحَمُ عَلَيْهِ الْمُتَزَاحِمُونَ .

* * *

وَقَدْ كَانَ اتِّصَالُهُ بِخُلَفَاءِ بَنِي « أُمَيَّةَ » مِنْ عَظِيمِ رَحْمَةِ اللَّهِ بِهِمْ ، وَجَزِيلِ إِكْرَامِهِ لَهُمْ .

فَلَقَدْ دَعَاهُمْ إِلَىٰ الْخَيْرِ ، وَدَلَّهُمْ عَلَىٰ طُرُقِهِ ...

وَثَنَاهُمْ(١) عَنِ الشَّرِّ ، وَأَوْصَدَ دُونَهُمْ أَبْوَابَهُ ...

وَأَرَاهُمُ الْحَقَّ وَزَيَّنَ لَهُمُ اتِّبَاعَهُ ...

وَبَصَّرَهُمْ بِالْبَاطِلِ وَكَرَّهَ إِلَيْهِمْ إِتْيَانَهُ ...

فَنَصَحَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ .

وَلَقَدْ وَقَعَتْ لِرَجَاءٍ قِصَّةٌ أَنَارَتْ لَهُ طَرِيقَهُ فِي مُخَالَطَةِ الْخُلَفَاءِ ، وَحَدَّدَتْ لَهُ مُهِمَّتَهُ مَعَهُمْ رَوَاهَا بِنَفْسِهِ فَقَالَ :

إِنِّي لَوَاقِفٌ مَعَ سُلَيْمَانَ(٢) بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ فِي جُمُوعٍ مِنَ النَّاسِ ؛ إِذْ رَأَيْتُ رَجُلًا يَتَّجِهُ نَحْوَنَا وَسَطَ الزِّحَامِ ...

وَكَانَ حَسَنَ الصُّورَةِ جَلِيلَ الْهَيْئَةِ ، فَمَا زَالَ يَشُقُّ الصُّفُوفَ وَأَنَا مَا أَشُكُّ أَنَّهُ يَرُومُ(٣) الْخَلِيفَةَ حَتَّىٰ حَاذَانِي(٤) ، وَوَقَفَ إِلَىٰ جَانِبِي ، ثُمَّ حَيَّانِي وَقَالَ :

يَا رَجَاءُ ... إِنَّكَ قَدِ ابْتُلِيتَ بِهَٰذَا الرَّجُلِ .

وَأَشَارَ إِلَىٰ الْخَلِيفَةِ .

---

(١) ثناهم عن الشرّ : صرفهم عن الشرّ .

(٢) سُلَيْمَان بْن عَبْد الْمَلِك : من أكابر خلفاء بني أمية ، أسس مدينة « الرملة » بفلسطين ، حارب البيزنطيين وحاصر « القسطنطينية » .

(٣) يروم الخليفة : يريد الخليفة .

(٤) حاذاني : صار إزائي .

وَإِنَّ فِي الْقُرْبِ مِنْهُ الْخَيْرَ الْكَثِيرَ، أَوِ الشَّرَّ الْكَثِيرَ...

فَاجْعَلْ قُرْبَكَ مِنْهُ خَيْرًا لَكَ وَلَهُ وَلِلنَّاسِ...

وَاعْلَمْ يَا رَجَاءُ أَنَّهُ مَنْ كَانَتْ لَهُ مَنْزِلَةٌ مِنَ السُّلْطَانِ؛ فَرَفَعَ إِلَيْهِ حَاجَةَ امْرِئٍ ضَعِيفٍ لَا يَسْتَطِيعُ رَفْعَهَا؛ لَقِيَ اللَّهَ جَلَّ وَعَزَّ يَوْمَ يَلْقَاهُ وَقَدْ ثَبَّتَ قَدَمَيْهِ لِلْحِسَابِ[1]...

وَاذْكُرْ يَا رَجَاءُ أَنَّ مَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ.

وَاعْلَمْ يَا رَجَاءُ أَنَّ مِنْ أَحَبِّ الْأَعْمَالِ إِلَىٰ اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ؛ إِدْخَالَ الْفَرَحِ عَلَىٰ قَلْبِ امْرِئٍ مُسْلِمٍ.

وَفِيمَا كُنْتُ أَتَأَمَّلُ كَلَامَهُ وَأَتَرَقَّبُ أَنْ يَزِيدَنِي مِنْهُ، نَادَىٰ الْخَلِيفَةُ قَائِلًا: أَيْنَ رَجَاءُ بْنُ حَيْوَةَ؟.

فَانْعَطَفْتُ[2] نَحْوَهُ وَقُلْتُ: هَأَنَذَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ.

فَسَأَلَنِي عَنْ شَيْءٍ؛ فَمَا كِدْتُ أَفْرُغُ مِنْ جَوَابِهِ حَتَّىٰ الْتَفَتُّ إِلَىٰ صَاحِبِي فَلَمْ أَجِدْهُ...

فَتَفَضْتُ الْمَكَانَ عَنْهُ نَفْضًا[3]؛ فَلَمْ أَقَعْ لَهُ عَلَىٰ أَثَرٍ بَيْنَ النَّاسِ...

* * *

وَلَقَدْ كَانَتْ لِرَجَاءِ بْنِ حَيْوَةَ مَعَ خُلَفَاءِ بَنِي «أُمَيَّةَ» مَوَاقِفُ صِدْقٍ مَا زَالَ يُكِنُّهَا[4] التَّارِيخُ فِي أَزْهَىٰ صَفَحَاتِهِ، وَيَرْوِيهَا الْخَلَفُ عَنِ السَّلَفِ.

مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي مَجْلِسِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ فَوُصِفَ لِلْخَلِيفَةِ رَجُلٌ بِسُوءِ طَوِيَّتِهِ[5] عَلَىٰ بَنِي «أُمَيَّةَ»، وَقِيلَ لَهُ:

---

(١) ثبّت قدميه للحساب: أمكنه من الحساب وبشره له.

(٢) انعطفت: ملْتُ.

(٣) نفضت المكان عنه: تحريت المكان بحثًا عنه.

(٤) يكنها: يحفظها.

(٥) طويته: ما يطويه في صدره من نية.

إِنَّهُ يُشَايِعُ ابْنَ الزُّبَيْرِ(١)، وَيَنْتَصِرُ لَهُ ... وَذَكَرَ الْوَاشِي لَهُ مِنْ أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ مَا أَثَارَ حَفِيظَتَهُ(٢) فَقَالَ :

وَاللَّهِ لَئِنْ أَمْكَنَنِي اللَّهُ مِنْهُ لَأَفْعَلَنَّ ، وَلَأَفْعَلَنَّ ...

وَلَأَضَعَنَّ السَّيْفَ فِي عُنُقِهِ .

وَلَمْ يَمْضِ طَوِيلُ وَقْتٍ حَتَّىٰ أَمْكَنَهُ اللَّهُ مِنَ الرَّجُلِ ، وَسِيقَ إِلَيْهِ سَوْقًا ...

فَلَمَّا وَقَعَتْ عَيْنَاهُ عَلَيْهِ ، كَادَ يَتَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ، وَهَمَّ بِأَنْ يُنَفِّذَ وَعِيدَهُ بِهِ ...

فَقَامَ إِلَيْهِ رَجَاءُ بْنُ حَيْوَةَ وَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ...

إِنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَزَّ قَدْ صَنَعَ لَكَ مَا تُحِبُّهُ مِنَ الْقُدْرَةِ ، فَاصْنَعْ لِلَّهِ مَا يُحِبُّهُ مِنَ الْعَفْوِ ...

فَسَكَنَتْ نَفْسُ الْخَلِيفَةِ ، وَسَكَتَ عَنْهُ غَضَبُهُ ...

وَعَفَا عَنِ الرَّجُلِ ، وَأَطْلَقَ سَرَاحَهُ ، وَأَحْسَنَ إِلَيْهِ ...

* * *

وَفِي سَنَةِ إِحْدَىٰ وَتِسْعِينَ حَجَّ الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ وَبِصُحْبَتِهِ رَجَاءُ بْنُ حَيْوَةَ .

فَلَمَّا بَلَغَا الْمَدِينَةَ زَارَا مَسْجِدَهَا النَّبَوِيَّ الشَّرِيفَ يُرَافِقُهُمَا عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ .

وَقَدْ رَغِبَ الْخَلِيفَةُ فِي أَنْ يَنْظُرَ إِلَىٰ الْحَرَمِ النَّبَوِيِّ نَظْرَةَ أَنَاةٍ وَرَوِيَّةٍ .

إِذْ كَانَ قَدْ عَقَدَ الْعَزْمَ عَلَىٰ تَوْسِعَتِهِ حَتَّىٰ يَكُونَ مِائَتَيْ ذِرَاعٍ .

فَأُخْرِجَ النَّاسُ مِنَ الْمَسْجِدِ لِيَتَمَكَّنَ الْخَلِيفَةُ مِنْ تَأَمُّلِهِ .

وَلَمْ يَبْقَ فِيهِ غَيْرُ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ(٣)، إِذْ لَمْ يَجْرُؤِ الْحَرَسُ عَلَىٰ إِخْرَاجِهِ .

---

(١) ابن الزبير : هو عبد الله بن الزبير منافس عبد الملك بن مروان على الخلافة .

(٢) الحفيظة : الغضب .

(٣) سعيد بن المسيب : انظره ص ١٩٩.

فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ ـ وَكَانَ يَوْمَئِذٍ وَالِيًا عَلَىٰ الْمَدِينَةِ ـ رَسُولًا يَقُولُ لَهُ : لَوْ خَرَجْتَ مِنَ الْمَسْجِدِ كَمَا خَرَجَ النَّاسُ .

فَقَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ : لَا أُغَادِرُ الْمَسْجِدَ إِلَّا فِي الْوَقْتِ الَّذِي اعْتَدْتُ أَنْ أُغَادِرَهُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ .

فَقِيلَ لَهُ : لَوْ قُمْتَ فَسَلَّمْتَ عَلَىٰ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ .

فَقَالَ : إِنَّمَا جِئْتُ إِلَىٰ هُنَا لِأَقُومَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ .

فَلَمَّا عَرَفَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ مَا دَارَ بَيْنَ رَسُولِهِ وَسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ ، جَعَلَ يَعْدِلُ[1] بِالْخَلِيفَةِ عَنِ الْمَكَانِ الَّذِي فِيهِ سَعِيدٌ ...

وَأَخَذَ رَجَاءُ بْنُ حَيْوَةَ يُشَاغِلُهُ بِالْكَلَامِ ، لِمَا كَانَا يَعْلَمَانِ مِنْ شِدَّةِ عُنْفُوَانِ[2] الْخَلِيفَةِ .

فَقَالَ لَهُمَا الْوَلِيدُ : مَنْ ذَلِكَ الشَّيْخُ ؟ ...

أَلَيْسَ هُوَ سَعِيدَ بْنَ الْمُسَيَّبِ ؟ .

فَقَالَا : بَلَىٰ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .

وَطَفِقَا يَصِفَانِ مِنْ دِينِهِ وَعِلْمِهِ ، وَفَضْلِهِ وَتَقْوَاهُ الشَّيْءَ الْكَثِيرَ .

ثُمَّ قَالَا : وَلَوْ عَلِمَ الشَّيْخُ بِمَكَانِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ لَقَامَ إِلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ ؛ وَلَكِنَّهُ ضَعِيفُ الْبَصَرِ .

فَقَالَ الْوَلِيدُ : إِنِّي لَأَعْلَمُ مِنْ حَالِهِ مِثْلَمَا تَذْكُرَانِ ...

وَهُوَ أَحَقُّ أَنْ نَأْتِيَهُ وَنُسَلِّمَ عَلَيْهِ .

ثُمَّ دَارَ فِي الْمَسْجِدِ حَتَّىٰ أَتَاهُ ، وَوَقَفَ عَلَيْهِ ، وَحَيَّاهُ وَقَالَ :

(١) جعل يعدل بالخليفة : أخذ يميل بالخليفة ويبعده.

(٢) العنفوان : الشدة .

كَيْفَ الشَّيْخُ؟.

فَلَمْ يَنْهَضْ مِنْ مَكَانِهِ، وَقَالَ:

بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ، وَلَهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ...

فَكَيْفَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، وَفَّقَهُ اللَّهُ لِمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ...

فَانْصَرَفَ الْوَلِيدُ وَهُوَ يَقُولُ:

هَٰذَا بَقِيَّةُ النَّاسِ... هَٰذَا بَقِيَّةُ سَلَفِ هَٰذِهِ الْأُمَّةِ...

* * *

وَلَمَّا أَفْضَتِ[1] الْخِلَافَةُ إِلَىٰ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ كَانَ لِرَجَاءِ بْنِ حَيْوَةَ عِنْدَهُ شَأْنٌ[2] يَفُوقُ شَأْنَهُ عِنْدَ سَابِقِيهِ.

فَقَدْ كَانَ سُلَيْمَانُ عَظِيمَ الثِّقَةِ بِهِ، شَدِيدَ الِاعْتِمَادِ عَلَيْهِ، حَرِيصًا عَلَىٰ أَنْ يَأْخُذَ بِرَأْيِهِ فِي صَغِيرِ الْأُمُورِ وَكَبِيرِهَا...

وَمَوَاقِفُ رَجَاءِ بْنِ حَيْوَةَ مَعَ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ كَثِيرَةٌ مُثِيرَةٌ.

بَيْدَ[3] أَنَّ أَكْبَرَهَا شَأْنًا وَأَعْظَمَهَا عَلَىٰ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ خَطَرًا؛ مَوْقِفُهُ مِنْ أَمْرِ وِلَايَةِ الْعَهْدِ، وَأَثَرُهُ فِي الْبَيْعَةِ لِعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ.

* * *

حَدَّثَ رَجَاءُ بْنُ حَيْوَةَ قَالَ:

لَمَّا كَانَ أَوَّلُ يَوْمِ جُمُعَةٍ مِنْ شَهْرِ صَفَرَ سَنَةَ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ كُنَّا مَعَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ «بِدَابِقَ»[4].

---

(١) أفضت الخلافة إلى فلان: آلت إليه وصارت له.

(٢) الشَّأن: ما عَظُم من الأمور والأحوال.

(٣) بيد أنَّ: غيرَ أنَّ.

(٤) دابق: قرية قرب حلب في سورية كان ينزلها بنو أمية إذا غزوا بلاد الرُّوم، وبها قبر سليمان بن عبد الملك.

وَكَانَ قَدْ أَرْسَلَ جَيْشًا لَجِبًا[1] إِلَىٰ « الْقِسْطَنْطِينِيَّةِ » بِقِيَادَةِ أَخِيهِ مَسْلَمَةَ ابْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، وَمَعَهُ ابْنُهُ دَاوُدُ ، وَطَائِفَةٌ كَبِيرَةٌ مِنْ آلِ بَيْتِهِ .

وَقَدْ آلَىٰ[2] عَلَىٰ أَلَّا يَبْرَحَ « مَرْجَ دَابِقَ » حَتَّىٰ يَفْتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ « الْقِسْطَنْطِينِيَّةَ » أَوْ يَمُوتَ .

فَلَمَّا اقْتَرَبَ مَوْعِدُ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ ؛ تَوَضَّأَ الْخَلِيفَةُ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ ، ثُمَّ لَبِسَ حُلَّةً خَضْرَاءَ ، وَاعْتَمَّ بِعِمَامَةٍ خَضْرَاءَ .

وَنَظَرَ فِي الْمِرْآةِ نَظْرَةَ مُعْجَبٍ بِنَفْسِهِ ، مَزْهُوٍّ بِشَبَابِهِ .

وَكَانَ فِي نَحْوِ الْأَرْبَعِينَ مِنْ عُمُرِهِ ...

ثُمَّ خَرَجَ لِيُصَلِّيَ بِالنَّاسِ الْجُمُعَةَ ؛ فَلَمْ يَرْجِعْ مِنَ الْمَسْجِدِ إِلَّا وَهُوَ مَوْعُوكٌ[3] ... ثُمَّ أَخَذَ يَثْقُلُ عَلَيْهِ الْمَرَضُ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ .

وَقَدْ سَأَلَنِي أَنْ أَظَلَّ قَرِيبًا مِنْهُ ...

فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ ذَاتَ مَرَّةٍ فَوَجَدْتُهُ يَكْتُبُ كِتَابًا .

فَقُلْتُ : مَا تَصْنَعُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ .

فَقَالَ : أَكْتُبُ كِتَابًا أَعْهَدُ[4] بِهِ إِلَىٰ ابْنِي أَيُّوبَ .

فَقُلْتُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ...

إِنَّ مِمَّا يَحْفَظُ الْخَلِيفَةَ فِي قَبْرِهِ ، وَيُبْرِئُ ذِمَّتَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ؛ أَنْ يَسْتَخْلِفَ عَلَىٰ النَّاسِ الرَّجُلَ الصَّالِحَ .

(١) جيشًا لجبًا : جيشًا كبيرًا ذا جَلَبَة .
(٢) آلى : حلَفَ .
(٣) الموعوك : من أصابته الحُمَّى .
(٤) أعهد به لابني : أي أعهد له بالخلافة .

وَإِنَّ ابْنَكَ أَيُّوبَ غُلَامٌ لَمْ يَبْلُغِ الْحُلُمَ بَعْدُ، وَلَمْ يَتَبَيَّنْ لَكَ صَلَاحُهُ مِنْ طَلَاحِهِ[١]...

فَتَرَاجَعَ وَقَالَ: إِنَّهُ كِتَابٌ كَتَبْتُهُ...

وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَسْتَخِيرَ اللَّهَ فِيهِ... وَلَمْ أَعْزِمْ عَلَيْهِ...

ثُمَّ مَزَّقَ الْكِتَابَ...

وَمَكَثَ بَعْدَ ذَلِكَ يَوْمًا أَوْ يَوْمَيْنِ، ثُمَّ دَعَانِي وَقَالَ:

مَا رَأْيُكَ فِي وَلَدِي دَاوُدَ يَا أَبَا الْمِقْدَامِ؟.

فَقُلْتُ: هُوَ غَائِبٌ مَعَ جُيُوشِ الْمُسْلِمِينَ فِي «الْقِسْطَنْطِينِيَّةِ»...

وَأَنْتَ لَا تَدْرِي الْآنَ أَحَيٌّ هُوَ أَمْ مَيِّتٌ؟.

فَقَالَ: فَمَنْ تَرَىٰ إِذَنْ يَا رَجَاءُ؟.

فَقُلْتُ: الرَّأْيُ لَكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ...

وَكُنْتُ أُرِيدُ أَنْ أَنْظُرَ فِيمَنْ يَذْكُرُهُمْ لِكَيْ أَسْتَبْعِدَهُمْ وَاحِدًا وَاحِدًا؛ حَتَّىٰ أَصِلَ إِلَىٰ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ.

فَقَالَ: كَيْفَ تَرَىٰ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ؟.

فَقُلْتُ: مَا عَلِمْتُهُ - وَاللَّهِ - إِلَّا فَاضِلًا، كَامِلًا، عَاقِلًا، دَيِّنًا...

فَقَالَ: صَدَقْتَ... إِنَّهُ - وَاللَّهِ - لَكَذَلِكَ...

وَلَكِنَّنِي إِنْ وَلَّيْتُهُ وَأَغْفَلْتُ أَوْلَادَ عَبْدِ الْمَلِكِ[٢] لَتَكُونَنَّ فِتْنَةٌ، وَلَا يَتْرُكُونَهُ يَلِي عَلَيْهِمْ أَبَدًا...

---

(١) الطَّلَاح: ضِدُّ الصَّلَاح.

(٢) أولاد عبد الملك: يعني إخوته.

فَقُلْتُ : أَشْرِكْ وَاحِدًا مِنْهُمْ وَاجْعَلْهُ بَعْدَهُ .

فَقَالَ : أَصَبْتَ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا يُسَكِّنُهُمْ ، وَيَجْعَلُهُمْ يَرْضَوْنَهُ ...

ثُمَّ أَخَذَ الْكِتَابَ وَكَتَبَ بِيَدِهِ :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

هَٰذَا كِتَابٌ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ لِعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ ، إِنِّي وَلَّيْتُهُ الْخِلَافَةَ مِنْ بَعْدِي ، وَجَعَلْتُهَا مِنْ بَعْدِهِ لِيَزِيدَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ .

فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، وَلَا تَخْتَلِفُوا فَيَطْمَعَ الطَّامِعُونَ فِيكُمْ ...

ثُمَّ خَتَمَ الْكِتَابَ ، وَنَاوَلَنِي إِيَّاهُ ...

ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَىٰ كَعْبِ بْنِ حَامِزٍ صَاحِبِ الشُّرْطَةِ(١) وَقَالَ لَهُ :

ادْعُ آلَ بَيْتِي فَلْيَجْتَمِعُوا ...

وَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ الْكِتَابَ الَّذِي فِي يَدِ رَجَاءِ بْنِ حَيْوَةَ هُوَ كِتَابِي ... وَمُرْهُمْ بِأَنْ يُبَايِعُوا لِمَنْ فِيهِ .

قَالَ رَجَاءُ :

فَلَمَّا اجْتَمَعُوا قُلْتُ لَهُمْ : هَٰذَا كِتَابُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَهِدَ فِيهِ لِلْخَلِيفَةِ مِنْ بَعْدِهِ ، وَقَدْ أَمَرَنِي أَنْ آخُذَ مِنْكُمُ الْبَيْعَةَ لِمَنْ وَلَّاهُ ، فَقَالُوا :

سَمْعًا لِأَمْرِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَطَاعَةً لِخَلِيفَتِهِ مِنْ بَعْدِهِ ...

وَطَلَبُوا أَنْ أَسْتَأْذِنَ لَهُمْ عَلَىٰ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ لِلسَّلَامِ عَلَيْهِ .

---

(١) صاحب الشُّرطة : مدير الشُّرطة .

فَقُلْتُ : نَعَمْ .

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالَ لَهُمْ :

إِنَّ هَٰذَا الْكِتَابَ الَّذِي فِي يَدِ رَجَاءِ بْنِ حَيْوَةَ هُوَ كِتَابِي ، وَفِيهِ عَهْدِي لِلْخَلِيفَةِ مِنْ بَعْدِي ، فَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا لِمَنْ وَلَّيْتُ ، وَبَايِعُوا لِمَنْ سَمَّيْتُ فِي هَٰذَا الْكِتَابِ .

فَطَفِقُوا يُبَايِعُونَ رَجُلًا رَجُلًا ...

ثُمَّ خَرَجْتُ بِالْكِتَابِ مَخْتُومًا ... لَا يَعْلَمُ أَحَدٌ مِنَ الْخَلْقِ مَا فِيهِ غَيْرِي وَغَيْرُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ .

فَلَمَّا تَفَرَّقَ النَّاسُ ، جَاءَنِي عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ فَقَالَ :

يَا أَبَا الْمِقْدَامِ ...

إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ رَجُلٌ حَسَنُ الظَّنِّ بِي ، وَكَانَ يُولِينِي[1] مِنْ كَرِيمِ بِرِّهِ وَصَافِي وِدَادِهِ الشَّيْءَ الْكَثِيرَ ...

وَأَنَا أَخْشَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَسْنَدَ إِلَيَّ مِنْ هَٰذَا الْأَمْرِ شَيْئًا ، فَأَنْشُدُكَ اللَّهَ[2] وَأَسْأَلُكَ بِحُرْمَتِي وَمَوَدَّتِي أَنْ تُعْلِمَنِي إِنْ كَانَ فِي كِتَابِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ شَيْءٌ يَخُصُّنِي حَتَّىٰ أَسْتَعْفِيَهُ مِنْ ذَلِكَ قَبْلَ فَوَاتِ الْفُرْصَةِ .

فَقُلْتُ لَهُ :

لَا وَاللَّهِ مَا أَنَا بِمُخْبِرِكَ حَرْفًا وَاحِدًا مِمَّا سَأَلْتَ عَنْهُ ...

فَتَوَلَّىٰ عَنِّي وَهُوَ غَضْبَانُ .

---

(١) يُولِيني : يمنحني .
(٢) أنشدك الله : أستحلفك بالله .

ثُمَّ مَا لَبِثَ أَنْ جَاءَنِي هِشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ، وَقَالَ:

يَا أَبَا الْمِقْدَامِ، إِنَّ لِي عِنْدَكَ حُرْمَةً وَمَوَدَّةً قَدِيمَةً، وَإِنَّ لَكَ عِنْدِي شُكْرًا جَزِيلًا؛ فَأَعْلِمْنِي بِمَا فِي كِتَابِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ.

فَإِنْ كَانَ هَـٰذَا الْأَمْرُ[1] إِلَيَّ سَكَتُّ...

وَإِنْ كَانَ لِغَيْرِي تَكَلَّمْتُ... فَلَيْسَ مِثْلِي مَنْ يُنَحَّىٰ عَنْ هَـٰذَا الْأَمْرِ.

وَلَكَ عَهْدُ اللَّهِ أَلَّا أَذْكُرَ اسْمَكَ أَبَدًا.

فَقُلْتُ لَهُ:

لَا وَاللَّهِ لَا أُخْبِرُكَ بِحَرْفٍ وَاحِدٍ مِمَّا أَسَرَّ بِهِ إِلَيَّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ.

فَانْصَرَفَ وَهْوَ يَضْرِبُ كَفًّا بِكَفٍّ وَيَقُولُ:

لِمَنْ يَكُونُ هَـٰذَا الْأَمْرُ إِذَا أَنَا نُحِّيتُ عَنْهُ؟!...

أَتَخْرُجُ الْخِلَافَةُ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْمَلِكِ؟!...

وَاللَّهِ إِنِّي لَعَيْنُ[2] أَوْلَادِ عَبْدِ الْمَلِكِ.

ثُمَّ دَخَلْتُ عَلَىٰ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ فَإِذَا هُوَ يَجُودُ بِرُوحِهِ، فَجَعَلْتُ إِذَا أَخَذَتْهُ السَّكْرَةُ مِنْ سَكَرَاتِ الْمَوْتِ أَحْرِفُهُ نَحْوَ الْقِبْلَةِ، فَكَانَ يَقُولُ لِي وَهُوَ يَشْهَقُ:

لَمْ يَأْنِ[3] ذَلِكَ بَعْدُ يَا رَجَاءُ.

حَتَّىٰ فَعَلْتُ ذَلِكَ مَرَّتَيْنِ؛ فَلَمَّا كَانَتِ الثَّالِثَةُ قَالَ:

الْآنَ يَا رَجَاءُ... إِنْ كُنْتَ تُرِيدُ أَنْ تَفْعَلَ شَيْئًا فَافْعَلْهُ...

---

(١) هذا الأمر: أي الخلافة..

(٢) عين أولاد عبد الملك: سيّد أولاد عبد الملك وأفضلهم.

(٣) لم يأن: لم يحن.

أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ.

فَحَرَفْتُهُ نَحْوَ الْقِبْلَةِ، فَمَا لَبِثَ أَنْ أَسْلَمَ رُوحَهُ.

* * *

عِنْدَ ذَلِكَ أَغْمَضْتُ عَيْنَيْهِ، وَسَجَّيْتُهُ[1] بِقَطِيفَةٍ خَضْرَاءَ، وَأَغْلَقْتُ الْبَابَ عَلَيْهِ، وَخَرَجْتُ.

فَأَرْسَلَتْ إِلَيَّ زَوْجَتُهُ تَسْأَلُنِي عَنْهُ، وَتَطْلُبُ أَنْ تَنْظُرَ إِلَيْهِ.

فَشَقَقْتُ عَنْهُ الْبَابَ وَقُلْتُ لِرَسُولِهَا:

انْظُرْ إِلَيْهِ، لَقَدْ نَامَ السَّاعَةَ بَعْدَ سَهَرٍ طَوِيلٍ، فَدَعُوهُ.

فَرَجَعَ فَأَخْبَرَهَا، فَقَبِلَتْ ذَلِكَ، وَأَيْقَنَتْ أَنَّهُ نَائِمٌ.

ثُمَّ أَحْكَمْتُ إِغْلَاقَ الْبَابِ، وَأَجْلَسْتُ عِنْدَهُ حَارِسًا أَثِقُ بِهِ، وَأَوْصَيْتُهُ أَلَّا يَتَزَحْزَحَ عَنْ مَكَانِهِ حَتَّىٰ أَعُودَ، وَأَلَّا يُدْخِلَ عَلَىٰ الْخَلِيفَةِ أَحَدًا أَبَدًا كَائِنًا مَنْ كَانَ...

وَمَضَيْتُ، فَلَقِيَنِي النَّاسُ وَقَالُوا: كَيْفَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ؟.

فَقُلْتُ: لَمْ يَكُنْ مُنْذُ مَرِضَ أَسْكَنَ مِنْهُ الْآنَ وَلَا أَهْدَأَ.

فَقَالُوا: الْحَمْدُ لِلَّهِ.

ثُمَّ أَرْسَلْتُ إِلَىٰ كَعْبِ بْنِ حَامِزٍ صَاحِبِ الشُّرْطَةِ؛ فَجَمَعَ أَهْلَ بَيْتِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ جَمِيعًا فِي مَسْجِدِ «دَابِقَ».

فَقُلْتُ: بَايِعُوا لِمَنْ فِي كِتَابِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ.

فَقَالُوا: قَدْ بَايَعْنَا مَرَّةً وَنُبَايِعُ أُخْرَىٰ؟!.

(١) سجَّيته: غطيته.

فَقُلْتُ : هَٰذَا أَمْرُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ...

بَايِعُوا عَلَىٰ مَا أَمَرَ بِهِ ...

وَلِمَنْ سَمَّىٰ فِي هَٰذَا الْكِتَابِ الْمَخْتُومِ .

فَبَايَعُوا رَجُلًا رَجُلًا .

فَلَمَّا رَأَيْتُ أَنِّي قَدْ أَحْكَمْتُ الْأَمْرَ ... قُلْتُ :

إِنَّ صَاحِبَكُمْ قَدْ مَاتَ ، وَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ .

وَقَرَأْتُ عَلَيْهِمُ الْكِتَابَ ، فَلَمَّا انْتَهَيْتُ إِلَىٰ ذِكْرِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ ؛ نَادَىٰ هِشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ :

لَا نُبَايِعُهُ أَبَدًا ... فَقُلْتُ :

إِذَنْ - وَاللَّهِ - أَضْرِبُ عُنُقَكَ ...

قُمْ فَبَايِعْ .

فَقَامَ يَجُرُّ رِجْلَيْهِ ... فَلَمَّا انْتَهَىٰ إِلَىٰ عُمَرَ قَالَ :

إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ [وَهُوَ يَسْتَرْجِعُ[1] لِمَصِيرِ الْخِلَافَةِ إِلَىٰ عُمَرَ دُونَهُ وَدُونَ إِخْوَتِهِ مِنْ أَوْلَادِ عَبْدِ الْمَلِكِ] .

وَقَالَ عُمَرُ : إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ [وَكَانَ يَسْتَرْجِعُ لِمَصِيرِ الْخِلَافَةِ إِلَيْهِ عَلَىٰ كُرْهٍ مِنْهُ] .

فَكَانَتْ بَيْعَةً جَدَّدَ اللَّهُ فِيهَا لِلْإِسْلَامِ شَبَابَهُ ، وَرَفَعَ لِلدِّينِ مَنَارَهُ .

* * *

(١) يسترجع : يقول إنا لله وإنا إليه راجعون .

فَطُوبَىٰ(١) لِخَلِيفَةِ الْمُسْلِمِينَ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ...

فَقَدْ أَبْرَأَ ذِمَّتَهُ أَمَامَ اللَّهِ بِتَوْلِيَتِهِ الرَّجُلَ الصَّالِحَ....

وَهَنِيئًا لِوَزِيرِ الصِّدْقِ رَجَاءِ بْنِ حَيْوَةَ...

فَقَدْ نَصَحَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ.

وَجَزَىٰ اللَّهُ الْبِطَانَةَ(٢) الصَّالِحَةَ الْخَيْرَ...

وَلَقَّاهَا الْأَجْرَ...

فَبِسَنَا(٣) رَأْيِهَا يَهْتَدِي الْأَخْيَارُ الْمَحْظُوظُونَ الْمُوَفَّقُونَ مِنْ ذَوِي السُّلْطَانِ (*).

---

(١) طوبىٰ: الجنّة والسّعادة.
(٢) بطانة الرّجل: خاصّته ومستشاروه.
(٣) بسَنا رأيها: بنور رأيها.

(*) للاستزادة من أخبار رَجاءِ بْنِ حَيْوَةَ انظر:
١ - الطّبقات الكبرىٰ لابن سعد: ٣٣٥/٥ ـ ٣٣٩، ٣٩٥، ٤٠٧.
٢ - صفة الصّفوة لابن الجوزي: ٤/ ٢١٣.
٣ - حلية الأولياء للأصفهاني: ٥/ ١٧٠.
٤ - البيان والتّبيين للجاحظ: ٣٩٧/١ و٢/ ١٠٧، ٣٢٢.
٥ - تهذيب التهذيب لابن حجر: ٣/ ٢٦٥.
٦ - تاريخ الطّبري لابن جرير الطّبري: ٣٦٥/٦ ـ ٣٧٠.
٧ - وفيات الأعيان لابن خلكان: ٤٣٠/١ و٣٠١/٢ ـ ٣٠٣ و٣١٦/٧.
٨ - تاريخ خليفة بن خيّاط: ٣٥٧.
٩ - العقد الفريد لابن عبد ربه: ٢/ ٥٠، ٨٢، ٢٣٥ و٣/ ٨٦، ١٠٥، ٣٠٦ و٤/ ١٥٦، ٢١٩ و٥/ ١٣٩، ١٦٦ و٧/ ٩٦.
١٠ - تهذيب التهذيب: ٣/ ٢٦٥.

عَامِرُ بْنُ شُرَاحِيلَ

الْمَعْرُوفُ بِالشَّعْبِيِّ

«كَانَ الشَّعْبِيُّ وَاسِعَ الْعِلْمِ ، عَظِيمَ الْحِلْمِ ...
وَإِنَّهُ مِنَ الْإِسْلَامِ بِمَكَانٍ ...»

[الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ]

لِسِتٍّ سَنَوَاتٍ خَلَتْ مِنْ خِلَافَةِ الْفَارُوقِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، وُلِدَ لِلْمُسْلِمِينَ مَوْلُودٌ نَحِيلُ الْجِسْمِ ، ضَئِيلُ الْجِرْمِ(١).

ذَلِكَ لِأَنَّ أَخَاهُ زَاحَمَهُ عَلَى رَحِمِ أُمِّهِ ؛ فَلَمْ يَدَعْ لَهُ مَجَالًا لِلنُّمُوِّ ...

لَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ يُزَاحِمَهُ لَا هُوَ وَلَا غَيْرُهُ فِي مَجَالَاتِ الْعِلْمِ ، وَالْحِلْمِ ، وَالْحِفْظِ ، وَالْفَهْمِ ، وَالْعَبْقَرِيَّةِ(٢).

ذَلِكُمْ هُوَ عَامِرُ بْنُ شُرَاحِيلَ الْحِمْيَرِيُّ الْمَعْرُوفُ بِالشَّعْبِيِّ ...

نَابِغَةُ الْمُسْلِمِينَ فِي عَصْرِهِ .

* * *

وُلِدَ الشَّعْبِيُّ فِي « الْكُوفَةِ » وَفِيهَا نَشَأَ .

لَكِنَّ الْمَدِينَةَ الْمُنَوَّرَةَ كَانَتْ مَهْوَى(٣) فُؤَادِهِ وَمَطْمَحَ نَفْسِهِ ، فَكَانَ يَؤُمُّهَا(٤) مِنْ حِينٍ لِآخَرَ لِيَلْقَى صَحَابَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَلِيَأْخُذَ عَنْهُمْ ، كَمَا كَانَ الصَّحَابَةُ الْكِرَامُ يَؤُمُّونَ « الْكُوفَةَ » لِيَتَّخِذُوهَا مُنْطَلَقًا لِلْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أَوْ دَارًا لِإِقَامَتِهِمْ .

---

(١) ضئيل الجرم : صغير الجسد .
(٢) العبقرية : قوة الإبداع .
(٣) مهوى فؤاده : مشتهى نفسه .
(٤) يؤمها : يقصدها ويمضي إليها .

فَأُتِيحَ[1] لَهُ أَنْ يَلْقَىٰ نَحْوًا مِنْ خَمْسِمِائَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ الْكِرَامِ، وَأَنْ يَرْوِيَ عَنْ عَدَدٍ كَبِيرٍ مِنْ جِلَّتِهِمْ مِنْ أَمْثَالِ: عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، وَسَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، وَزَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ...

وَعُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، وَأَبِي مُوسَىٰ الْأَشْعَرِيِّ، وَأَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ...

وَالنُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ...

وَعَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ، وَعَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ، وَغَيْرِهِمْ وَغَيْرِهِمْ.

* * *

وَقَدْ كَانَ الشَّعْبِيُّ فَتًى مُتَوَقِّدَ الذَّكَاءِ[2]، يَقِظَ الْفُؤَادِ[3]، مُرْهَفَ الذِّهْنِ[4]، دَقِيقَ الْفَهْمِ، آيَةً فِي قُوَّةِ الْحَافِظَةِ وَالذَّاكِرَةِ...

فَقَدْ رُوِيَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ:

مَا كَتَبْتُ سَوْدَاءَ فِي بَيْضَاءَ[5] قَطُّ، وَلَا حَدَّثَنِي رَجُلٌ بِحَدِيثٍ إِلَّا حَفِظْتُهُ، وَلَا سَمِعْتُ مِنِ امْرِئٍ كَلَامًا ثُمَّ أَحْبَبْتُ أَنْ يُعِيدَهُ عَلَيَّ.

وَقَدْ كَانَ الْفَتَىٰ مُولَعًا بِالْعِلْمِ، مَشْغُوفًا[6] بِالْمَعْرِفَةِ، يَبْذُلُ فِي سَبِيلِهِمَا النَّفْسَ وَالنَّفِيسَ، وَيَسْتَسْهِلُ مِنْ أَجْلِهِمَا الْمَصَاعِبَ... إِذْ كَانَ يَقُولُ:

لَوْ أَنَّ رَجُلًا سَافَرَ مِنْ أَقْصَىٰ الشَّامِ إِلَىٰ أَقْصَىٰ الْيَمَنِ؛ فَحَفِظَ كَلِمَةً وَاحِدَةً تَنْفَعُهُ فِيمَا يَسْتَقْبِلُ مِنْ عُمْرِهِ، لَرَأَيْتُ أَنَّ سَفَرَهُ لَمْ يَضِعْ.

وَقَدْ بَلَغَ مِنْ عِلْمِهِ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ:

أَقَلُّ شَيْءٍ تَعَلَّمْتُهُ الشِّعْرُ...

---

(١) أتيح له: يُسِّرَ لَهُ.

(٢) متوقد الذكاء: مشتعل الذكاء.

(٣) يقظ الفؤاد: منتبه الفؤاد، فطن القلب.

(٤) مرهف الذهن: دقيق الذهن.

(٥) ما كتبت سوداء في بيضاء: ما سجلت كلامًا في ورق.

(٦) مشغوفًا بالمعرفة: محبًا للمعرفة مولعًا بها.

وَلَوْ شِئْتُ لَأَنْشَدْتُكُمْ مِنْهُ شَهْرًا دُونَ أَنْ أُعِيدَ شَيْئًا مِمَّا أَنْشَدْتُهُ .

* * *

وَكَانَتْ تُعْقَدُ لَهُ حَلْقَةٌ فِي جَامِعِ « الْكُوفَةِ » ، فَيَلْتَفُّ النَّاسُ حَوْلَهُ زُمَرًا زُمَرًا ، وَأَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَحْيَاءٌ يَرُوحُونَ وَيَغْدُونَ بَيْنَ أَظْهُرِ النَّاسِ .

بَلْ إِنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَمِعَهُ ذَاتَ مَرَّةٍ يَقُصُّ عَلَىٰ النَّاسِ أَخْبَارَ الْمَغَازِي(١) بِخَفَايَاهَا وَدَقَائِقِهَا ، فَأَرْهَفَ إِلَيْهِ سَمْعَهُ وَقَالَ :

لَقَدْ شَهِدْتُ بَعْضَ مَا يَقُصُّهُ بِعَيْنَيَّ وَسَمِعْتُهُ بِأُذُنَيَّ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَهُوَ أَرْوَىٰ(٢) لَهُ مِنِّي .

وَشَوَاهِدُ سَعَةِ عِلْمِ الشَّعْبِيِّ وَحُضُورِ ذِهْنِهِ ، غَزِيرَةٌ وَفِيرَةٌ .

مِنْ ذَلِكَ مَا رَوَاهُ عَنْ نَفْسِهِ قَالَ :

أَتَانِي رَجُلَانِ يَتَفَاخَرَانِ ، أَحَدُهُمَا مِنْ بَنِي « عَامِرٍ » ، وَالْآخَرُ مِنْ بَنِي « أَسَدٍ » ، وَقَدْ غَلَبَ الْعَامِرِيُّ صَاحِبَهُ وَعَلَا عَلَيْهِ ... وَأَخَذَهُ مِنْ ثَوْبِهِ وَجَعَلَ يَجُرُّهُ نَحْوِي جَرًّا ، وَالْأَسَدِيُّ مَخْذُولٌ أَمَامَهُ يَقُولُ لَهُ : دَعْنِي دَعْنِي .

وَالْعَامِرِيُّ يَقُولُ لَهُ : وَاللَّهِ لَا أَدَعُكَ حَتَّىٰ يَحْكُمَ الشَّعْبِيُّ لِي عَلَيْكَ ...

فَالْتَفَتُّ إِلَىٰ الْعَامِرِيِّ وَقُلْتُ لَهُ : دَعْ صَاحِبَكَ حَتَّىٰ أَحْكُمَ بَيْنَكُمَا .

ثُمَّ نَظَرْتُ إِلَىٰ الْأَسَدِيِّ وَقُلْتُ : مَا لِي أَرَاكَ تَتَخَاذَلُ لَهُ(٣)؟ .

وَلَقَدْ كَانَتْ لَكُمْ مَفَاخِرُ سِتٌّ لَمْ تَكُنْ لِأَحَدٍ مِنَ الْعَرَبِ :

أَوَّلُهَا : أَنَّهُ كَانَتْ مِنْكُمُ امْرَأَةٌ خَطَبَهَا سَيِّدُ الْخَلْقِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ فَزَوَّجَهُ اللَّهُ إِيَّاهَا مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ ...

---

(١) الْمَغَازِي : الْغَزَوَاتُ الْإِسْلَامِيَّةُ .

(٢) أَرْوَىٰ مِنِّي : أَحْسَنُ رِوَايَةً مِنِّي .

(٣) تَتَخَاذَلُ لَهُ : تَضْعُفُ أَمَامَهُ وَتَفْشَلُ .

وَكَانَ السَّفِيرُ بَيْنَهُمَا « جِبْرِيلُ » عَلَيْهِ السَّلَامُ ...

إِنَّهَا أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ .

فَكَانَتْ هَٰذِهِ الْمَأْثَرَةُ[١] لِقَوْمِكَ ، وَلَمْ تَكُنْ لِأَحَدٍ مِنَ الْعَرَبِ غَيْرِكُمْ .

وَالثَّانِيَةُ : أَنَّهُ كَانَ مِنْكُمْ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَمْشِي عَلَىٰ الْأَرْضِ ، هُوَ عُكَاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ[٢].

وَكَانَتْ هَٰذِهِ لَكُمْ يَا بَنِي « أَسَدٍ » وَلَمْ تَكُنْ لِسِوَاكُمْ مِنَ النَّاسِ .

وَالثَّالِثَةُ : أَنَّ أَوَّلَ لِوَاءٍ عُقِدَ فِي الْإِسْلَامِ كَانَ لِرَجُلٍ مِنْكُمْ ، هُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَحْشٍ[٣].

وَالرَّابِعَةُ : أَنَّ أَوَّلَ مَغْنَمٍ قُسِمَ فِي الْإِسْلَامِ كَانَ مَغْنَمَهُ .

وَالْخَامِسَةُ : أَنَّ أَوَّلَ مَنْ بَايَعَ بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ[٤] كَانَ مِنْكُمْ ؛ فَقَدْ جَاءَ صَاحِبُكُمْ أَبُو سِنَانِ بْنِ وَهْبٍ إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ :

يَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، ابْسُطْ يَدَكَ أُبَايِعْكَ .

قَالَ ﷺ : (عَلَىٰ مَاذَا ؟) .

قَالَ : عَلَىٰ مَا فِي نَفْسِكَ .

قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : (وَمَا فِي نَفْسِي ؟!) .

قَالَ : فَتْحٌ ، أَوْ شَهَادَةٌ ؟ .

---

(١) المأثرة : المكرمة المتوارثة ، والفعل الحميد .
(٢) عكاشة بن محصن : صحابي شهد المشاهد كلها ، واستشهد في حرب الردّة .
(٣) عبد الله بن جحش : صحابي من أمراء السرايا ، وهو صهر رسول الله ﷺ ... انظره في كتاب « صور من حياة الصحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة الشرعية .
(٤) بيعة الرضوان : كانت في آخر سنة ستٍّ للهجرة .

قَالَ : (نَعَمْ) ، فَبَايَعَهُ ...

فَجَعَلَ النَّاسُ يُبَايِعُونَ عَلَىٰ بَيْعَةِ أَبِي سِنَانٍ .

وَالسَّادِسَةُ : أَنَّ قَوْمَكَ بَنِي « أَسَدٍ » كَانُوا سُبُعَ الْمُهَاجِرِينَ يَوْمَ « بَدْرٍ » .

فَبُهِتَ الْعَامِرِيُّ وَسَكَتَ .

وَلَا رَيْبَ فِي أَنَّ الشَّعْبِيَّ أَرَادَ أَنْ يَنْصُرَ الضَّعِيفَ الْمَغْلُوبَ عَلَىٰ الْقَوِيِّ الْغَالِبِ ... وَلَوْ كَانَ الْعَامِرِيُّ هُوَ الْمَخْذُولَ ؛ لَذَكَرَ لَهُ مِنْ مَآثِرِ قَوْمِهِ مَا لَمْ يُحِطْ بِهِ خُبْرًا .

* * *

وَلَمَّا آلَتِ[1] الْخِلَافَةُ إِلَىٰ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ ، كَتَبَ إِلَىٰ الْحَجَّاجِ عَامِلِهِ[2] عَلَىٰ « الْعِرَاقِ » :

أَنِ ابْعَثْ إِلَيَّ رَجُلًا يَصْلُحُ لِلدِّينِ وَالدُّنْيَا ؛ أَتَّخِذْهُ سَمِيرًا وَجَلِيسًا ...

فَبَعَثَ إِلَيْهِ بِالشَّعْبِيِّ ، فَجَعَلَهُ مِنْ خَاصَّتِهِ[3]، وَأَخَذَ يَفْزَعُ إِلَىٰ عِلْمِهِ فِي الْمُعْضِلَاتِ[4]، وَيُعَوِّلُ عَلَىٰ رَأْيِهِ[5] فِي الْمُلِمَّاتِ ، وَيَبْعَثُهُ سَفِيرًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُلُوكِ .

* * *

أَرْسَلَهُ مَرَّةً فِي مُهِمَّةٍ إِلَىٰ « جِسْتِنْيَانَ » مَلِكِ « الرُّومِ » ... فَلَمَّا وَفَدَ عَلَيْهِ وَاسْتَمَعَ إِلَيْهِ ، أُخِذَ بِذَكَائِهِ[6]، وَدُهِشَ مِنْ دَهَائِهِ ، وَأُعْجِبَ بِسَعَةِ اطِّلَاعِهِ وَقُوَّةِ عَارِضَتِهِ[7]... فَاسْتَبْقَاهُ عِنْدَهُ أَيَّامًا كَثِيرَةً عَلَىٰ غَيْرِ عَادَتِهِ مَعَ السُّفَرَاءِ .

---

(١) آلت الخلافة إلى فلان : صارت إليه .
(٢) عامله : واليه .
(٣) خاصة الخليفة : المقربون إليه .
(٤) يفزع إلى علمه في المعضلات : يلجأ إلى علمه في الأمور الصعبة .
(٥) يعوّل على رأيه : يعتمد على فكره .
(٦) أخذ بذكائه : سُحِرَ بفطنته وتوقُّدِ ذهنه .
(٧) قوّة عارضته : قوّة بيانه وسُرْعَةُ بديهته .

فَلَمَّا أَلَحَّ عَلَيْهِ بِأَنْ يَأْذَنَ لَهُ بِالْعَوْدَةِ إِلَىٰ « دِمَشْقَ » سَأَلَهُ الْمَلِكُ الرُّومِيُّ : أَمِنْ أَهْلِ بَيْتِ الْمُلْكِ أَنْتَ ؟.

فَقَالَ : لَا ، وَإِنَّمَا أَنَا رَجُلٌ مِنْ جُمْلَةِ الْمُسْلِمِينَ .

فَلَمَّا أَذِنَ لَهُ بِالرَّحِيلِ قَالَ لَهُ : إِذَا رَجَعْتَ إِلَىٰ صَاحِبِكَ [يَعْنِي عَبْدَ الْمَلِكِ بْنَ مَرْوَانَ] وَأَبْلَغْتَهُ جَمِيعَ مَا يُرِيدُ مَعْرِفَتَهُ ، فَادْفَعْ إِلَيْهِ هَٰذِهِ الرُّقْعَةَ(١) .

فَلَمَّا عَادَ الشَّعْبِيُّ إِلَىٰ « دِمَشْقَ » بَادَرَ إِلَىٰ لِقَاءِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، وَأَفْضَىٰ إِلَيْهِ بِكُلِّ مَا رَآهُ وَسَمِعَهُ ، وَأَجَابَهُ عَنْ جَمِيعِ مَا سَأَلَهُ عَنْهُ .

وَلَمَّا نَهَضَ لِيَنْصَرِفَ قَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّ مَلِكَ « الرُّومِ » حَمَّلَنِي لَكَ هَٰذِهِ الرُّقْعَةَ ... وَدَفَعَهَا إِلَيْهِ وَانْصَرَفَ .

فَلَمَّا قَرَأَهَا عَبْدُ الْمَلِكِ قَالَ لِغِلْمَانِهِ : رُدُّوهُ عَلَيَّ ؛ فَرَدُّوهُ .

فَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ لِلشَّعْبِيِّ : أَعَلِمْتَ مَا فِي هَٰذِهِ الرُّقْعَةِ ؟ .

فَقَالَ : لَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .

فَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ : لَقَدْ كَتَبَ إِلَيَّ مَلِكُ « الرُّومِ » يَقُولُ :

عَجِبْتُ لِلْعَرَبِ كَيْفَ مَلَّكَتْ عَلَيْهَا رَجُلًا غَيْرَ هَٰذَا الْفَتَىٰ ؟ .

فَبَادَرَهُ(٢) الشَّعْبِيُّ قَائِلًا :

إِنَّمَا قَالَ هَٰذَا لِأَنَّهُ لَمْ يَرَكَ ، وَلَوْ رَآكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَمَا قَالَهُ .

فَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ : أَفَتَدْرِي لِمَ كَتَبَ إِلَيَّ مَلِكُ « الرُّومِ » بِهَٰذَا ؟ .

فَقَالَ الشَّعْبِيُّ : لَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .

فَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ : إِنَّمَا كَتَبَ إِلَيَّ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ حَسَدَنِي عَلَيْكَ ، فَأَرَادَ أَنْ

(١) الرقعة : الخطاب والرّسالة .

(٢) بادره : عاجله وأسرع إليه .

يُغْرِيَنِي[١] بِقَتْلِكَ وَالتَّخَلُّصِ مِنْكَ .

فَبَلَغَ ذَلِكَ مَلِكَ « الرُّومِ » فَقَالَ : لِلَّهِ أَبُوهُ ...

وَاللَّهِ مَا أَرَدْتُ غَيْرَ ذَلِكَ ...

* * *

وَلَقَدْ بَلَغَ الشَّعْبِيُّ فِي الْعِلْمِ مَنْزِلَةً جَعَلَتْهُ رَابِعَ ثَلَاثَةٍ فِي عَصْرِهِ .

فَقَدْ كَانَ الزُّهْرِيُّ يَقُولُ : الْعُلَمَاءُ أَرْبَعَةٌ ...

سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ[٢] فِي الْمَدِينَةِ .

وَعَامِرٌ الشَّعْبِيُّ فِي الْكُوفَةِ .

وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ[٣] فِي الْبَصْرَةِ .

وَمَكْحُولٌ فِي الشَّامِ .

لَكِنَّ الشَّعْبِيَّ كَانَ ـ لِتَوَاضُعِهِ ـ يَخْجَلُ إِذَا خَلَعَ[٤] عَلَيْهِ أَحَدٌ لَقَبَ « الْعَالِمِ » ... فَقَدْ خَاطَبَهُ أَحَدُهُمْ قَائِلًا : أَجِبْنِي أَيُّهَا الْفَقِيهُ الْعَالِمُ .

فَقَالَ : وَيْحَكَ[٥]...

لَا تُطْرِنَا[٦] بِمَا لَيْسَ فِينَا ... الْفَقِيهُ مَنْ تَوَرَّعَ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ ، وَالْعَالِمُ مَنْ خَشِيَ اللَّهَ ، وَأَيْنَ نَحْنُ مِنْ ذَلِكَ ؟! .

وَلَقَدْ سَأَلَهُ آخَرُ عَنْ مَسْأَلَةٍ ، فَأَجَابَ :

قَالَ فِيهَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ كَذَا ...

---

(١) يغريني : يَحُضُّني .
(٢) سَعِيد بْن الْمُسَيِّب : انظره ص ١٩٩.
(٣) الْحَسَن الْبَصْرِيّ : انظره ص ١٠١.
(٤) خلع عَلَيْه : أَلْقى عَلَيْه .
(٥) ويحك : كلمة ترحُّم وتوجُّع ، والمعنى : أترحم عليك وأتوجَّع لك .
(٦) لَا تُطْرِنا : لَا تبالغ في مدحنا وإكبارنا .

وَقَالَ فِيهَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ كَذَا ...

فَقَالَ لَهُ السَّائِلُ : وَأَنْتَ مَاذَا تَقُولُ يَا أَبَا عَمْرٍو ؟ .

فَابْتَسَمَ - فِي اسْتِحْيَاءٍ - وَقَالَ :

وَمَا تَصْنَعُ بِقَوْلِي بَعْدَ أَنْ سَمِعْتَ مَقَالَةَ عُمَرَ وَعَلِيٍّ .

* * *

وَقَدْ كَانَ الشَّعْبِيُّ يَتَحَلَّىٰ بِكَرِيمِ الشَّمَائِلِ[١] وَجَلِيلِ الْخَصَائِلِ[٢]... مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ يَكْرَهُ الْمِرَاءَ[٣] وَيَتَصَاوَنُ[٤] مِنَ الْخَوْضِ فِيمَا لَا يَعْنِيهِ .

فَلَقَدْ كَلَّمَهُ أَحَدُ أَصْحَابِهِ ذَاتَ يَوْمٍ فَقَالَ : يَا أَبَا عَمْرٍو ...

فَقَالَ : لَبَّيْكَ .

فَقَالَ : مَا تَقُولُ فِيمَا يَتَكَلَّمُ فِيهِ النَّاسُ مِنْ أَمْرِ هَٰذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ ؟ .

فَقَالَ الشَّعْبِيُّ : أَيَّ رَجُلَيْنِ تَعْنِي ؟ .

فَقَالَ : عُثْمَانُ وَعَلِيٌّ .

فَقَالَ الشَّعْبِيُّ : إِنِّي - وَاللَّهِ - لَفِي غِنًى عَنْ أَنْ أَجِيءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خَصِيمًا[٥] لِعُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ أَوْ لِعَلِيِّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا .

* * *

وَلَقَدْ جَمَعَ الشَّعْبِيُّ إِلَىٰ الْعِلْمِ الْحِلْمَ .

فَقَدْ رُوِيَ أَنَّ رَجُلًا شَتَمَهُ أَقْبَحَ الشَّتْمِ ، وَأَسْمَعَهُ أَقْذَعَ[٦] الْكَلَامِ ، فَلَمْ يَرُدَّ عَلَىٰ أَنْ قَالَ لَهُ : إِنْ كُنْتَ صَادِقًا فِيمَا تَرْمِينِي بِهِ غَفَرَ اللَّهُ لِي ...

(١) كريم الشمائل : سامي الطِّباع .
(٢) جليل الخصائل : عالي الصفات .
(٣) المِراء : الجَدَل .
(٤) تَصاوَنَ من الأمر : حفظ نفسه منه .
(٥) خصيمًا : مخاصِمًا .
(٦) أقذع الكلام : أفحش الكلام .

وَإِنْ كُنْتَ كَاذِبًا غَفَرَ اللَّهُ لَكَ.

* * *

وَلَمْ يَكُنِ الشَّعْبِيُّ عَلَىٰ جَلَالَةِ قَدْرِهِ وَجَزَالَةِ[1] فَضْلِهِ يَأْنَفُ أَنْ يَأْخُذَ الْمَعْرِفَةَ، أَوْ يَتَلَقَّىٰ الْحِكْمَةَ عَنْ أَهْوَنِ النَّاسِ شَأْنًا...

فَلَقَدْ دَأَبَ أَعْرَابِيٌّ عَلَىٰ حُضُورِ مَجَالِسِهِ، غَيْرَ أَنَّهُ كَانَ يَلُوذُ[2] بِالصَّمْتِ دَائِمًا، فَقَالَ لَهُ الشَّعْبِيُّ: أَلَا تَتَكَلَّمُ؟!.

فَقَالَ: أَسْكُتُ فَأَسْلَمُ، وَأَسْمَعُ فَأَعْلَمُ...

وَإِنَّ حَظَّ الْمَرْءِ مِنْ أُذُنِهِ يَعُودُ عَلَيْهِ...

أَمَّا حَظُّهُ مِنْ لِسَانِهِ فَيَعُودُ عَلَىٰ غَيْرِهِ...

فَظَلَّ الشَّعْبِيُّ يُرَدِّدُ كَلِمَةَ الْأَعْرَابِيِّ مَا امْتَدَّتْ بِهِ الْحَيَاةُ.

* * *

وَلَقَدْ أُوتِيَ الشَّعْبِيُّ مِنْ بَلَاغَةِ الْكَلَامِ، وَحُسْنِ التَّصَرُّفِ فِيهِ مَا لَمْ يُؤْتَهُ إِلَّا الْقِلَّةُ النَّادِرَةُ مِنَ الْفُصَحَاءِ الْأَبْيِنَاءِ[3]...

مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ كَلَّمَ أَمِيرَ «الْعِرَاقَيْنِ» عُمَرَ بْنَ هُبَيْرَةَ الْفَزَارِيَّ فِي جَمَاعَةٍ حَبَسَهُمْ فَقَالَ: أَيُّهَا الْأَمِيرُ...

إِنْ كُنْتَ حَبَسْتَهُمْ بِالْبَاطِلِ؛ فَالْحَقُّ يُخْرِجُهُمْ...

وَإِنْ كُنْتَ حَبَسْتَهُمْ بِالْحَقِّ؛ فَالْعَفْوُ يَسَعُهُمْ.

فَأُعْجِبَ بِقَوْلِهِ، وَأَطْلَقَهُمْ كَرَامَةً لَهُ.

* * *

وَعَلَىٰ الرَّغْمِ مِنْ كَمَالِ مُرُوءَةِ الشَّعْبِيِّ وَعُلُوِّ مَنْزِلَتِهِ فِي الدِّينِ وَالْعِلْمِ، فَقَدْ كَانَ عَذْبَ الرُّوحِ حُلْوَ الْمُفَاكَهَةِ، لَا يُفَوِّتُ النُّكْتَةَ إِذَا لَاحَتْ لَهُ.

---

(١) جزالة فضله: سمو فضله، وعظمة مقامه.
(٢) يلوذ بالصمت: يعتصم به.
(٣) الأبيناء: الذين يبينون ما يقولون بأوضح ما يكون.

فَقَدْ دَخَلَ عَلَيْهِ رَجُلٌ وَهُوَ جَالِسٌ مَعَ امْرَأَتِهِ ، فَقَالَ :

أَيُّكُمَا الشَّعْبِيُّ ؟ .

فَقَالَ : هَٰذِهِ ، وَأَشَارَ إِلَىٰ امْرَأَتِهِ .

وَسَأَلَهُ آخَرُ :

مَاذَا كَانَتْ تُسَمَّىٰ زَوْجَةُ إِبْلِيسَ ؟ .

فَقَالَ : ذَلِكَ عُرْسٌ لَمْ نَشْهَدْهُ .

وَلَعَلَّ خَيْرَ مَا يُصَوِّرُ خِلَالَ الشَّعْبِيِّ مَا حَكَاهُ عَنْ نَفْسِهِ حَيْثُ قَالَ :

مَا حَلَلْتُ حَبْوَتِي[1] إِلَىٰ شَيْءٍ مِمَّا يَنْظُرُ إِلَيْهِ النَّاسُ ...

وَلَا ضَرَبْتُ غُلَامًا لِي قَطُّ ...

وَمَا مَاتَ ذُو قَرَابَةٍ لِي وَعَلَيْهِ دَيْنٌ ، إِلَّا قَضَيْتُهُ عَنْهُ .

* * *

وَبَعْدُ ، فَقَدْ عُمِّرَ الشَّعْبِيُّ حَتَّىٰ نَيَّفَ[2] عَلَىٰ الثَّمَانِينَ .

فَلَمَّا لَبَّىٰ نِدَاءَ رَبِّهِ ، وَنُعِيَ إِلَىٰ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ قَالَ :

« يَرْحَمُهُ اللَّهُ فَلَقَدْ كَانَ وَاسِعَ الْعِلْمِ ...

عَظِيمَ الْحِلْمِ ...

وَإِنَّهُ مِنَ الْإِسْلَامِ بِمَكَانٍ » (*) .

---

(١) ما حَلَلْتُ حَبْوَتِي : ما قمت من مكاني.

(٢) نَيَّفَ : زادَ.

(*) للاستزادة من أخبار الشَّعْبِيّ انظر :

١ – الطَّبقات الكُبرىٰ لابن سعد : ٦/ ٢٤٧.
٢ – تاريخ بغداد : ١٢/ ٢٢٧.
٣ – تهذيب التَّهذيب : ٥/ ٦٥.
٤ – حلية الأولياء : ٤/ ٣١٠.
٥ – صفة الصَّفوة : ٣/ ٧٥.
٦ – وفيات الأعيان : ٣/ ١٢.
٧ – شرح المقامات للشريشي : ٢/ ٢٤٥.
٨ – المعارف لابن قتيبة : ٤٤٩.
٩ – التهذيب لابن عساكر : ٧/ ١٣٨.
١٠ – سمط اللآلئ : ٧٥١.

الكتاب الثالث

سلمة بن دينار

المَعْرُوفُ بِأَبِي حَازِمٍ الْأَعْرَجِ

« مَا رَأَيْتُ أَحَدًا الْحِكْمَةُ أَقْرَبُ إِلَىٰ فَمِهِ مِنْ أَبِي حَازِمٍ »

[عَبْدُ الرَّحْمَـٰنِ بْنُ زَيْدٍ]

فِي السَّنَةِ السَّابِعَةِ وَالتِّسْعِينَ لِلْهِجْرَةِ ، شَدَّ خَلِيفَةُ الْمُسْلِمِينَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ الرِّحَالَ إِلَىٰ الدِّيَارِ الْمُقَدَّسَةِ ؛ مُلَبِّيًا نِدَاءَ أَبِي الْأَنْبِيَاءِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ... وَمَضَتْ رَكَائِبُهُ[١] تَحُثُّ الْخُطَىٰ[٢] مِنْ « دِمَشْقَ » عَاصِمَةِ « الْأُمَوِيِّينَ » إِلَىٰ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ .

فَقَدْ كَانَ فِي نَفْسِهِ شَوْقٌ إِلَىٰ الصَّلَاةِ فِي الرَّوْضَةِ الْمُطَهَّرَةِ ...

وَتَوْقٌ[٣] إِلَىٰ السَّلَامِ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ .

وَقَدْ حَفِلَ مَوْكِبُ الْخَلِيفَةِ بِالْقُرَّاءِ ، وَالْمُحَدِّثِينَ ، وَالْفُقَهَاءِ ، وَالْعُلَمَاءِ ، وَالْأُمَرَاءِ ، وَالْقَادَةِ .

فَلَمَّا بَلَغَ الْمَدِينَةَ الْمُنَوَّرَةَ ، وَحَطَّ رِحَالَهُ فِيهَا ، أَقْبَلَ وُجُوهُ النَّاسِ وَذَوُو الْأَقْدَارِ[٤] لِلسَّلَامِ عَلَيْهِ وَالتَّرْحِيبِ بِهِ .

لَكِنَّ سَلَمَةَ بْنَ دِينَارٍ قَاضِيَ الْمَدِينَةِ وَعَالِمَهَا الْحُجَّةَ[٥]، وَإِمَامَهَا الثِّقَةَ[٦]؛ لَمْ يَكُنْ فِي عِدَادِ مَنْ زَارُوا الْخَلِيفَةَ مُرَحِّبِينَ مُسَلِّمِينَ .

* * *

(١) ركائبه : إبله .
(٢) تحث الخطى : تمضي مسرعة .
(٣) توق : شوق .
(٤) ذوو الأقدار : أصحاب الحرمة والمكانة .
(٥) الحجة : العالم الذي يُحتجّ بعلمه .
(٦) الثقة : الذي يثق النّاس برأيه وفكره .

وَلَمَّا فَرَغَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ مِنَ اسْتِقْبَالِ الْمُرَحِّبِينَ بِهِ ، قَالَ لِبَعْضِ جُلَسَائِهِ :

إِنَّ النُّفُوسَ لَتَصْدَأُ كَمَا تَصْدَأُ الْمَعَادِنُ إِذَا لَمْ تَجِدْ مَنْ يُذَكِّرُهَا الْفَيْنَةَ بَعْدَ الْفَيْنَةِ(١)، وَيَجْلُو عَنْهَا صَدَأَهَا .

فَقَالُوا : نَعَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .

فَقَالَ : أَمَا فِي الْمَدِينَةِ رَجُلٌ أَدْرَكَ طَائِفَةً مِنْ صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُذَكِّرُنَا(٢)؟ .

فَقَالُوا : بَلَىٰ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ...

هَا هُنَا أَبُو حَازِمٍ الْأَعْرَجُ .

فَقَالَ : وَمَنْ أَبُو حَازِمٍ الْأَعْرَجُ ؟ .

فَقَالُوا : سَلَمَةُ بْنُ دِينَارٍ عَالِمُ الْمَدِينَةِ وَ إِمَامُهَا ، وَأَحَدُ التَّابِعِينَ الَّذِينَ أَدْرَكُوا عَدَدًا مِنَ الصَّحَابَةِ الْكِرَامِ .

فَقَالَ : ادْعُوهُ لَنَا ، وَتَلَطَّفُوا فِي دَعْوَتِهِ .

فَذَهَبُوا إِلَيْهِ وَدَعَوْهُ .

فَلَمَّا أَتَاهُ ... رَحَّبَ بِهِ وَأَدْنَىٰ مَجْلِسَهُ(٣) وَقَالَ لَهُ مُعَاتِبًا :

مَا هَٰذَا الْجَفَاءُ(٤) يَا أَبَا حَازِمٍ ؟ .

فَقَالَ : وَأَيُّ جَفَاءٍ رَأَيْتَ مِنِّي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ .

فَقَالَ : زَارَنِي وُجُوهُ النَّاسِ وَلَمْ تَزُرْنِي !! .

(١) الْفَيْنَة بعد الْفَيْنَة : من حين إلى آخر.
(٢) يُذَكِّرُنَا : يعظنا.
(٣) أدنَىٰ مجلسه : قرّب مجلسه.
(٤) الجفاء : الإعراض.

فَقَالَ : إِنَّمَا يَكُونُ الْجَفَاءُ بَعْدَ الْمَعْرِفَةِ ...

وَأَنْتَ مَا عَرَفْتَنِي قَبْلَ الْيَوْمِ ، وَلَا أَنَا رَأَيْتُكَ ، فَأَيُّ جَفَاءٍ وَقَعَ مِنِّي ؟ .

فَقَالَ الْخَلِيفَةُ لِجُلَسَائِهِ : أَصَابَ الشَّيْخُ فِي اعْتِذَارِهِ ، وَأَخْطَأَ الْخَلِيفَةُ فِي عَتْبِهِ عَلَيْهِ .

ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَىٰ أَبِي حَازِمٍ وَقَالَ :

إِنَّ فِي النَّفْسِ شُئُونًا[١] أَحْبَبْتُ أَنْ أُفْضِيَ[٢] بِهَا إِلَيْكَ يَا أَبَا حَازِمٍ .

فَقَالَ : هَاتِهَا ـ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ـ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ .

فَقَالَ الْخَلِيفَةُ : يَا أَبَا حَازِمٍ ، مَا لَنَا نَكْرَهُ الْمَوْتَ ؟! .

فَقَالَ : لِأَنَّنَا عَمَّرْنَا دُنْيَانَا ، وَخَرَّبْنَا آخِرَتَنَا ...

فَنَكْرَهُ الْخُرُوجَ مِنَ الْعَمَارِ إِلَىٰ الْخَرَابِ .

فَقَالَ الْخَلِيفَةُ : صَدَقْتَ ... ثُمَّ أَرْدَفَ قَائِلًا :

يَا أَبَا حَازِمٍ ـ لَيْتَ شِعْرِي[٣] ـ مَا لَنَا عِنْدَ اللَّهِ غَدًا ؟ .

فَقَالَ : اعْرِضْ عَمَلَكَ عَلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ تَجِدْ ذَلِكَ .

قَالَ : وَأَيْنَ أَجِدُهُ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَىٰ ؟ .

قَالَ : تَجِدُهُ فِي قَوْلِهِ ـ عَلَتْ كَلِمَتُهُ ـ :

﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾[٤].

فَقَالَ الْخَلِيفَةُ : إِذَنْ فَأَيْنَ رَحْمَةُ اللَّهِ ؟ .

---

(١) شئونًا : أمورًا هامّة .

(٢) أفضي بها : أعلنها .

(٣) ليت شعري : ليتني أعلم .

(٤) سورة الانفطار : ١٣ ـ ١٤.

فَقَالَ أَبُو حَازِمٍ: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[1].

فَقَالَ الْخَلِيفَةُ: لَيْتَ شِعْرِي، كَيْفَ الْقُدُومُ عَلَىٰ اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ غَدًا؟.

فَقَالَ أَبُو حَازِمٍ: أَمَّا الْمُحْسِنُ؛ فَكَالْغَائِبِ يَقْدَمُ عَلَىٰ أَهْلِهِ...

وَأَمَّا الْمُسِيءُ؛ فَكَالْعَبْدِ الْآبِقِ[2] يُسَاقُ إِلَىٰ مَوْلَاهُ سَوْقًا.

فَبَكَىٰ الْخَلِيفَةُ حَتَّىٰ عَلَا نَحِيبُهُ، وَاشْتَدَّ بُكَاؤُهُ.

ثُمَّ قَالَ: يَا أَبَا حَازِمٍ، كَيْفَ لَنَا أَنْ نَصْلُحَ؟.

فَقَالَ: تَدَعُونَ عَنْكُمُ الصَّلَفَ[3]، وَتَتَحَلَّوْنَ بِالْمُرُوءَةِ.

فَقَالَ الْخَلِيفَةُ: وَهَـٰذَا الْمَالُ، مَا السَّبِيلُ إِلَىٰ تَقْوَىٰ اللَّهِ فِيهِ؟.

فَقَالَ أَبُو حَازِمٍ:

إِذَا أَخَذْتُمُوهُ بِحَقِّهِ...

وَوَضَعْتُمُوهُ فِي أَهْلِهِ...

وَقَسَمْتُمُوهُ بِالسَّوِيَّةِ...

وَعَدَلْتُمْ فِيهِ بَيْنَ الرَّعِيَّةِ.

فَقَالَ الْخَلِيفَةُ: يَا أَبَا حَازِمٍ، أَخْبِرْنِي مَنْ أَفْضَلُ النَّاسِ؟.

فَقَالَ: أُولُو الْمُرُوءَةِ[4] وَالتُّقَىٰ.

فَقَالَ الْخَلِيفَةُ: وَمَا أَعْدَلُ الْقَوْلِ يَا أَبَا حَازِمٍ؟.

فَقَالَ: كَلِمَةُ حَقٍّ يَقُولُهَا الْمَرْءُ عِنْدَ مَنْ يَخَافُهُ، وَعِنْدَ مَنْ يَرْجُوهُ.

---

(١) سورة الأعراف: ٥٦.
(٢) الآبق: الهارب.
(٣) الصلف: التكبر.
(٤) المروءة: النخوة والالتزام.

فَقَالَ الْخَلِيفَةُ : فَمَا أَسْرَعُ الدُّعَاءِ إِجَابَةً يَا أَبَا حَازِمٍ ؟ .

فَقَالَ : دُعَاءُ الْمُحْسِنِ لِلْمُحْسِنِينَ .

فَقَالَ الْخَلِيفَةُ : وَمَا أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ ؟ .

فَقَالَ : جُهْدُ الْمُقِلِّ[1] يَضَعُهُ فِي يَدِ الْبَائِسِ الْفَقِيرِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتْبَعَهُ مَنٌّ وَلَا أَذًى .

فَقَالَ الْخَلِيفَةُ : مَنْ أَكْيَسُ النَّاسِ[2] يَا أَبَا حَازِمٍ ؟ .

فَقَالَ : رَجُلٌ ظَفِرَ بِطَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ فَعَمِلَ بِهَا ، ثُمَّ دَلَّ النَّاسَ عَلَيْهَا .

فَقَالَ الْخَلِيفَةُ : فَمَنْ أَحْمَقُ النَّاسِ[3]؟ .

فَقَالَ : رَجُلٌ انْسَاقَ مَعَ هَوَىٰ صَاحِبِهِ ، وَصَاحِبُهُ ظَالِمٌ ، فَبَاعَ آخِرَتَهُ بِدُنْيَا غَيْرِهِ .

فَقَالَ الْخَلِيفَةُ : هَلْ لَكَ أَنْ تَصْحَبَنَا ـ يَا أَبَا حَازِمٍ ـ فَتُصِيبَ مِنَّا وَنُصِيبَ مِنْكَ[4]؟ .

فَقَالَ : كَلَّا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .

فَقَالَ الْخَلِيفَةُ : وَلِمَ ؟! .

فَقَالَ : أَخْشَىٰ أَنْ أَرْكَنَ[5] إِلَيْكُم قَلِيلًا ؛ فَيُذِيقَنِي اللَّهُ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ[6].

فَقَالَ الْخَلِيفَةُ : ارْفَعْ إِلَيْنَا حَاجَتَكَ يَا أَبَا حَازِمٍ .

---

(١) المقل : القليل المال .
(٢) أكيس الناس : أكثر الناس فطنة وتعقُّلاً .
(٣) أحمق الناس : أفسد الناس فكرًا وعقلاً .
(٤) تصيب منا ونصيب منك : تأخذ منا وتعطينا .
(٥) أركن إليكم : أعتمد عليكم .
(٦) ضعف الحياة وضعف الممات : عناء الدنيا ، وعذاب الآخرة .

فَسَكَتَ وَلَمْ يُجِبْ ...

فَأَعَادَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ : ارْفَعْ إِلَيْنَا حَاجَتَكَ يَا أَبَا حَازِمٍ نَقْضِهَا لَكَ مَهْمَا كَانَتْ .

فَقَالَ : حَاجَتِي أَنْ تُنْقِذَنِي مِنَ النَّارِ ، وَتُدْخِلَنِي الْجَنَّةَ ...

فَقَالَ الْخَلِيفَةُ : ذَلِكَ لَيْسَ مِنْ شَأْنِي[1] يَا أَبَا حَازِمٍ .

فَقَالَ أَبُو حَازِمٍ : مَا لِي مِنْ حَاجَةٍ سِوَاهَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .

فَقَالَ الْخَلِيفَةُ : ادْعُ لِي يَا أَبَا حَازِمٍ .

فَقَالَ : اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ عَبْدُكَ سُلَيْمَانُ مِنْ أَوْلِيَائِكَ ؛ فَيَسِّرْهُ إِلَىٰ خَيْرَيِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ...

وَإِنْ كَانَ مِنْ أَعْدَائِكَ ؛ فَأَصْلِحْهُ وَاهْدِهِ إِلَىٰ مَا تُحِبُّ وَتَرْضَىٰ .

فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْحَاضِرِينَ :

بِئْسَ[2] مَا قُلْتَ مُنْذُ دَخَلْتَ عَلَىٰ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ...

فَلَقَدْ جَعَلْتَ خَلِيفَةَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَعْدَاءِ اللَّهِ وَآذَيْتَهُ .

فَقَالَ أَبُو حَازِمٍ : بَلْ بِئْسَ مَا قُلْتَ أَنْتَ ، فَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ عَلَىٰ الْعُلَمَاءِ الْمِيثَاقَ[3] بِأَنْ يَقُولُوا كَلِمَةَ الْحَقِّ ، فَقَالَ تَعَالَىٰ :

﴿ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ ﴾[4].

ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَىٰ الْخَلِيفَةِ وَقَالَ :

يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّ الَّذِينَ مَضَوْا قَبْلَنَا مِنَ الأُمَمِ الْخَالِيَةِ ظَلُّوا فِي خَيْرٍ وَعَافِيَةٍ مَا دَامَ أُمَرَاؤُهُمْ يَأْتُونَ عُلَمَاءَهُمْ رَغْبَةً فِيمَا عِنْدَهُمْ ...

(١) من شأني : من فعلي .
(٢) بئس ما قلت : ما أسوأ ما قلت .
(٣) الميثاق : العهد .
(٤) سورة آل عمران : ١٨٧.

ثُمَّ وُجِدَ قَوْمٌ مِنْ أَرَاذِلِ[1] النَّاسِ تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ وَأَتَوْا بِهِ الْأُمَرَاءَ ؛ يُرِيدُونَ أَنْ يَنَالُوا بِهِ شَيْئًا مِنْ عَرَضِ الدُّنْيَا ...

فَاسْتَغْنَتِ الْأُمَرَاءُ عَنِ الْعُلَمَاءِ ...

فَتَعِسُوا وَنُكِسُوا[2]، وَسَقَطُوا مِنْ عَيْنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .

وَلَوْ أَنَّ الْعُلَمَاءَ زَهِدُوا فِيمَا عِنْدَ الْأُمَرَاءِ ؛ لَرَغِبَ الْأُمَرَاءُ فِي عِلْمِهِمْ ...

وَلَكِنَّهُمْ رَغِبُوا فِيمَا عِنْدَ الْأُمَرَاءِ ؛ فَزَهِدُوا فِيهِمْ ...

وَهَانُوا عَلَيْهِمْ[3].

فَقَالَ الْخَلِيفَةُ : صَدَقْتَ ...

زِدْنِي مِنْ مَوْعِظَتِكَ يَا أَبَا حَازِمٍ ؛ فَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا الْحِكْمَةُ أَقْرَبُ إِلَىٰ فَمِهِ مِنْكَ .

فَقَالَ : إِنْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ الِاسْتِجَابَةِ[4]؛ فَقَدْ قُلْتُ لَكَ مَا فِيهِ الْكِفَايَةُ ...

وَإِنْ لَمْ تَكُنْ مِنْ أَهْلِهَا ؛ فَمَا يَنْبَغِي لِي أَنْ أَرْمِيَ عَنْ قَوْسٍ لَيْسَ لَهَا وَتَرٌ[5]...

فَقَالَ الْخَلِيفَةُ : عَزَمْتُ[6] عَلَيْكَ أَنْ تُوصِيَنِي يَا أَبَا حَازِمٍ .

فَقَالَ : نَعَمْ ... سَوْفَ أُوصِيكَ وَأُوجِزُ ...

عَظِّمْ رَبَّكَ عَزَّ وَجَلَّ وَنَزِّهْهُ أَنْ يَرَاكَ حَيْثُ نَهَاكَ ...

وَأَنْ يَفْقِدَكَ حَيْثُ أَمَرَكَ .

---

(١) أراذل النّاس : سفهاء النّاس .
(٢) نُكِسُوا : عَجَزوا .
(٣) هانوا عليهم : استخفوهم .
(٤) الاستجابة : قبول الطّلب وتنفيذه .
(٥) الوَتَر : شِرعَة القوس .
(٦) عزمت عليك : أقسمت عليك .

ثُمَّ سَلَّمَ وَانْصَرَفَ .

فَقَالَ لَهُ الْخَلِيفَةُ : جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا مِنْ عَالِمٍ نَاصِحٍ .

* * *

مَا كَادَ أَبُو حَازِمٍ يَبْلُغُ بَيْتَهُ ، حَتَّىٰ وَجَدَ أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ بَعَثَ إِلَيْهِ بِصُرَّةٍ مُلِئَتْ دَنَانِيرَ ، وَكَتَبَ إِلَيْهِ يَقُولُ :

أَنْفِقْهَا ، وَلَكَ مِثْلُهَا كَثِيرٌ عِنْدِي .

فَرَدَّهَا وَكَتَبَ إِلَيْهِ يَقُولُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ يَكُونَ سُؤَالُكَ إِيَّايَ هَزْلًا ، وَرَدِّي عَلَيْكَ بَاطِلًا .

فَوَاللَّهِ مَا أَرْضَىٰ ذَلِكَ ـ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ـ لَكَ ...

فَكَيْفَ أَرْضَاهُ لِنَفْسِي ؟! .

يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنْ كَانَتْ هَٰذِهِ الدَّنَانِيرُ لِقَاءَ حَدِيثِي الَّذِي حَدَّثْتُكَ بِهِ ، فَالْمَيْتَةُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ فِي حَالِ الِاضْطِرَارِ أَحَلُّ مِنْهَا ...

وَإِنْ كَانَتْ حَقًّا لِي فِي بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ ، فَهَلْ سَوَّيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ جَمِيعًا فِي هَٰذَا الْحَقِّ ؟! .

* * *

وَلَقَدْ كَانَ مَنْزِلُ سَلَمَةَ بْنِ دِينَارٍ مَوْرِدًا عَذْبًا[1] لِطُلَّابِ الْعِلْمِ ، وَرُغَّابِ الصَّلَاحِ ...

لَا فَرْقَ فِي ذَلِكَ بَيْنَ إِخْوَانِهِ وَطُلَّابِهِ ...

فَقَدْ دَخَلَ عَلَيْهِ ذَاتَ مَرَّةٍ عَبْدُ الرَّحْمَٰنِ بْنُ جَرِيرٍ وَمَعَهُ ابْنُهُ ، وَأَخَذَا مَجْلِسَيْهِمَا عِنْدَهُ ، وَسَلَّمَا عَلَيْهِ وَدَعَوَا لَهُ بِخَيْرَيِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

(١) موردًا عذبًا : ينبوعًا حلو الماء .

فَرَدَّ التَّحِيَّةَ بِأَحْسَنَ مِنْهَا ، وَرَحَّبَ بِهِمَا ، ثُمَّ دَارَ بَيْنَهُمُ الْحَدِيثُ ؛ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَٰنِ بْنُ جَرِيرٍ :

كَيْفَ نَحْظَىٰ بِالْفُتُوحِ[1] يَا أَبَا حَازِمٍ ؟ .

فَقَالَ : عِنْدَ تَصْحِيحِ الضَّمَائِرِ تُغْفَرُ الْكَبَائِرُ ...

وَإِذَا عَزَمَ الْعَبْدُ عَلَىٰ تَرْكِ الْآثَامِ أَمَّهُ[2] الْفُتُوحُ ...

وَلَا تَنْسَ يَا عَبْدَ الرَّحْمَٰنِ أَنَّ يَسِيرَ الدُّنْيَا يَشْغَلُنَا عَنْ كَثِيرِ الْآخِرَةِ ...

وَكُلُّ نِعْمَةٍ لَا تُقَرِّبُكَ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَهِيَ نِقْمَةٌ .

فَقَالَ لَهُ ابْنُهُ : إِنَّ أَشْيَاخَنَا[3] كَثِيرُونَ ؛ فَبِمَنْ نَقْتَدِي مِنْهُمْ ؟ .

فَقَالَ : يَا بُنَيَّ ، اقْتَدِ بِمَنْ يَخَافُ اللَّهَ فِي ظَهْرِ الْغَيْبِ ، وَيَعِفُّ عَنِ التَّلَبُّسِ بِالْعَيْبِ ...

وَيُصْلِحُ نَفْسَهُ فِي أَوَانِ الصِّبَا ، وَلَا يُرْجِئُ ذَٰلِكَ إِلَىٰ عَهْدِ الشَّيْبِ .

وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّهُ مَا مِنْ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ إِلَّا وَيُقْبِلُ عَلَىٰ طَالِبِ الْعِلْمِ هَوَاهُ[4] وَعِلْمُهُ ، ثُمَّ يَتَغَالَبَانِ[5] فِي صَدْرِهِ تَغَالُبَ الْمُتَخَاصِمَيْنِ .

فَإِذَا غَلَبَ عِلْمُهُ هَوَاهُ كَانَ يَوْمُهُ يَوْمَ غُنْمٍ لَهُ ...

وَإِذَا غَلَبَ هَوَاهُ عِلْمَهُ كَانَ يَوْمُهُ يَوْمَ خُسْرَانٍ عَلَيْهِ .

فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَٰنِ بْنُ جَرِيرٍ : كَثِيرًا مَا حَضَضْتَنَا عَلَىٰ الشُّكْرِ يَا أَبَا حَازِمٍ ، فَمَا حَقِيقَةُ الشُّكْرِ ؟ .

فَقَالَ لِكُلِّ عُضْوٍ مِنْ أَعْضَائِنَا حَقٌّ عَلَيْنَا مِنَ الشُّكْرِ .

---

(١) الفتوح : يقظة القلب .
(٢) أمّه الفتوح : فُتح عليه .
(٣) أشياخنا : شيوخنا ومُوَجِّهونا .
(٤) هواه : شهواته .
(٥) يتغالبان : يتصارعان .

فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَٰنِ : مَا شُكْرُ الْعَيْنَيْنِ ؟ .

فَقَالَ : إِنْ رَأَيْتَ بِهِمَا خَيْرًا أَعْلَنْتَهُ ، وَإِنْ رَأَيْتَ بِهِمَا شَرًّا سَتَرْتَهُ .

فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَٰنِ : فَمَا شُكْرُ الْأُذُنَيْنِ ؟ .

فَقَالَ : إِنْ سَمِعْتَ بِهِمَا خَيْرًا وَعَيْتَهُ ، وَإِنْ سَمِعْتَ بِهِمَا شَرًّا دَفَنْتَهُ .

فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَٰنِ : فَمَا شُكْرُ الْيَدَيْنِ ؟ .

فَقَالَ : أَنْ لَا تَأْخُذَ بِهِمَا مَا لَيْسَ لَكَ ...

وَأَنْ لَا تَمْنَعَ بِهِمَا حَقًّا مِنْ حُقُوقِ اللَّهِ ...

وَلَا يَفُتْكَ يَا عَبْدَ الرَّحْمَٰنِ أَنَّ مَنْ يَقْصِرُ شُكْرَهُ عَلَىٰ لِسَانِهِ ، وَلَا يُشْرِكُ مَعَهُ جَمِيعَ أَعْضَائِهِ وَجَنَانِهِ[1] ... فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ رَجُلٍ لَهُ كِسَاءٌ غَيْرَ أَنَّهُ أَخَذَ بِطَرَفِهِ ، وَلَمْ يَلْبَسْهُ ...

فَإِنَّ ذَٰلِكَ لَا يَقِيهِ مِنَ الْحَرِّ وَلَا يَصُونُهُ مِنَ الْبَرْدِ .

* * *

وَفِي ذَاتِ سَنَةٍ نَفَرَ[2] سَلَمَةُ بْنُ دِينَارٍ مَعَ جُيُوشِ الْمُسْلِمِينَ الْمُتَّجِهَةِ إِلَىٰ بِلَادِ « الرُّومِ » يَبْتَغِي الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَعَ الْمُجَاهِدِينَ ...

فَلَمَّا بَلَغَ الْجَيْشُ آخِرَ مَرْحَلَةٍ مِنْ مَرَاحِلِ السَّفَرِ ، آثَرَ[3] الرَّاحَةَ وَالِاسْتِجْمَامَ[4] قَبْلَ لِقَاءِ الْعَدُوِّ ، وَخَوْضِ الْمَعَارِكِ .

وَقَدْ كَانَ فِي الْجَيْشِ أَمِيرٌ مِنْ أُمَرَاءِ بَنِي « أُمَيَّةَ » .

فَأَرْسَلَ رَسُولًا إِلَىٰ أَبِي حَازِمٍ يَقُولُ لَهُ :

---

(١) جنانه : قلبه .

(٢) نفر : مضى وذهب .

(٣) آثر : اختار وفضّل .

(٤) الاستجمام : الاستراحة .

إِنَّ الْأَمِيرَ يَدْعُوكَ إِلَيْهِ لِتُحَدِّثَهُ وَتُفَقِّهَهُ .

فَكَتَبَ إِلَىٰ الْأَمِيرِ يَقُولُ : أَيُّهَا الْأَمِيرُ ، لَقَدْ أَدْرَكْتُ أَهْلَ الْعِلْمِ وَهُمْ لَا يَحْمِلُونَ الدِّينَ إِلَىٰ أَهْلِ الدُّنْيَا .

وَلَا أَحْسَبُكَ تُرِيدُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ يَفْعَلُ ذَٰلِكَ ...

فَإِنْ كَانَتْ لَكَ بِنَا حَاجَةٌ فَأْتِنَا ...

وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ مَنْ مَعَكَ .

فَلَمَّا قَرَأَ الْأَمِيرُ رِسَالَتَهُ مَضَىٰ إِلَيْهِ ، وَحَيَّاهُ وَبَيَّاهُ[1] وَقَالَ :

يَا أَبَا حَازِمٍ ، لَقَدْ وَقَفْنَا عَلَىٰ مَا كَتَبْتَهُ لَنَا ؛ فَازْدَدْتَ بِهِ كَرَامَةً[2] عِنْدَنَا ، وَعِزَّةً لَدَيْنَا ...

فَذَكِّرْنَا وَعِظْنَا ، جُزِيتَ عَنَّا خَيْرَ الْجَزَاءِ .

فَطَفِقَ أَبُو حَازِمٍ يَعِظُهُ وَيُذَكِّرُهُ ، وَكَانَ فِي جُمْلَةِ مَا قَالَهُ لَهُ :

انْظُرْ مَا تُحِبُّ أَنْ يَكُونَ مَعَكَ فِي الْآخِرَةِ ؛ فَاحْرِصْ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا ...

وَانْظُرْ مَا تَكْرَهُ أَنْ يَكُونَ مَعَكَ هُنَاكَ ؛ فَازْهَدْ فِيهِ هُنَا ...

وَاعْلَمْ - أَيُّهَا الْأَمِيرُ - أَنَّهُ إِنْ نَفَقَ[3] الْبَاطِلُ عِنْدَكَ وَرَاجَ ؛ أَقْبَلَ عَلَيْكَ الْمُبْطِلُونَ الْمُنَافِقُونَ ، وَالْتَفُّوا حَوْلَكَ ...

وَإِنْ نَفَقَ عِنْدَكَ الْحَقُّ وَرَاجَ ؛ الْتَفَّ حَوْلَكَ أَهْلُ الْخَيْرِ ، وَأَعَانُوكَ عَلَيْهِ ...

فَاخْتَرْ لِنَفْسِكَ مَا يَحْلُو .

* * *

(١) بياه : دعا له برفعة المقام .
(٢) كرامة : عِزًّا ومكانة .
(٣) نفق : رَغِب فيه .

وَلَمَّا أَقْبَلَ الْمَوْتُ عَلَىٰ أَبِي حَازِمٍ الْأَعْرَجِ ، قَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ :

كَيْفَ تَجِدُكَ[1] يَا أَبَا حَازِمٍ ؟ .

فَقَالَ :

لَئِنْ نَجَوْنَا مِنْ شَرِّ مَا أَصَبْنَاهُ مِنَ الدُّنْيَا ؛ فَمَا يَضُرُّنَا مَا زَوَىٰ عَنَّا[2] مِنْهَا .

ثُمَّ قَرَأَ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا[3] ﴾[4] ...

وَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّىٰ أَتَاهُ الْيَقِينُ (*) .

(١) كيف تجدك : كيف ترَىٰ نفسك .
(٢) زَوَىٰ عنَّا : صُرِفَ عنَّا وطُوِيَ .
(٣) ودًّا : حبًّا ومودَّة .
(٤) سورة مريم : ٩٦.

(*) للاستزادة من أخبار سَلَمَة بْنِ دينار انظر :
١ - طبقات خليفة : ٢٦٤.
٢ - تاريخ البخاري : ٢/ ٧٨.
٣ - التاريخ الصغير : ٢/ ٤٧.
٤ - الجرح والتعديل : ٤/ ١٥٩.
٥ - حلية الأولياء : ٣/ ٢٢٩.
٦ - تهذيب التهذيب : ٤/ ١٤٣.
٧ - تهذيب ابن عساكر : ٦/ ٢١٦، ٢٢٨.
٨ - خلاصة تذهيب الكمال : ١٤٧.

سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ

« كَانَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ يُفْتِي وَالصَّحَابَةُ أَحْيَاءٌ »

[الْمُؤَرِّخُونَ]

عَقَدَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ الْعَزْمَ عَلَىٰ حَجِّ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ ...

وَزِيَارَةِ ثَانِي الْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ .

وَالسَّلَامِ عَلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ .

فَلَمَّا أَقْبَلَ شَهْرُ ذِي الْقِعْدَةِ ، زَمَّ الْخَلِيفَةُ الْعَظِيمُ رَكَائِبَهُ(١) ، وَتَوَجَّهَ إِلَىٰ أَرْضِ الْحِجَازِ يَصْحَبُهُ السَّادَةُ الْأَمَاجِدُ مِنْ أُمَرَاءِ بَنِي « أُمَيَّةَ » ...

وَنَفَرٌ مِنْ كِبَارِ رِجَالِ دَوْلَتِهِ ... وَبَعْضُ أَوْلَادِهِ ...

وَمَضَىٰ الرَّكْبُ فِي طَرِيقِهِ مِنْ « دِمَشْقَ » إِلَىٰ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ مِنْ غَيْرِ رَيْثٍ(٢) وَلَا عَجَلٍ ...

فَكَانُوا كُلَّمَا نَزَلُوا مَنْزِلًا نُصِبَتْ لَهُمُ الْخِيَامُ ، وَفُرِشَتْ لَهُمُ الْفُرُشُ ، وَعُقِدَتْ لَهُمْ مَجَالِسُ الْعِلْمِ وَالتَّذْكِرَةِ ؛ لِيَزْدَادُوا تَفَقُّهًا فِي الدِّينِ .

وَيَتَعَهَّدُوا قُلُوبَهُمْ وَنُفُوسَهُمْ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ .

* * *

وَلَمَّا بَلَغَ الْخَلِيفَةُ الْمَدِينَةَ الْمُنَوَّرَةَ ، أَمَّ حَرَمَهَا الشَّرِيفَ ...

وَتَشَرَّفَ بِالسَّلَامِ عَلَىٰ سَاكِنِهَا مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَأَزْكَىٰ

---

(١) زم ركائبه : أعد نوقه للرحيل .

(٢) ريث : بطء .

التَّسْلِيمِ، وَسَعِدَ بِالصَّلَاةِ فِي الرَّوْضَةِ الْمُطَهَّرَةِ الْغَرَّاءِ.

فَذَاقَ مِنْ بَرْدِ الرَّاحَةِ[1]، وَسَلَامِ النَّفْسِ مَا لَمْ يَذُقْ مِثْلَهُمَا مِنْ قَبْلُ...

وَعَزَمَ عَلَىٰ أَنْ يُطِيلَ إِقَامَتَهُ فِي مَدِينَةِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَا وَجَدَ إِلَىٰ ذَٰلِكَ سَبِيلًا.

* * *

وَكَانَ مِنْ أَشَدِّ مَا اسْتَأْثَرَ[2] بِاهْتِمَامِهِ فِي الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ حَلَقَاتُ الْعِلْمِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمُرُ الْمَسْجِدَ النَّبَوِيَّ الشَّرِيفَ.

وَيَتَأَلَّقُ فِيهَا الْعُلَمَاءُ الْأَفْذَاذُ مِنْ كِبَارِ التَّابِعِينَ كَمَا تَتَأَلَّقُ النُّجُومُ الزُّهْرُ[3] فِي كَبِدِ السَّمَاءِ... فَهَٰذِهِ حَلْقَةُ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ[4]...

وَتِلْكَ حَلْقَةُ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ...

وَهُنَاكَ حَلْقَةُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ[5]...

* * *

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ صَحَا الْخَلِيفَةُ مِنْ قَيْلُولَتِهِ[6] فِي وَقْتٍ كَانَ لَا يَصْحُو فِيهِ عَادَةً، فَنَادَىٰ حَاجِبَهُ وَقَالَ: يَا مَيْسَرَةُ.

قَالَ: لَبَّيْكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ.

قَالَ: امْضِ إِلَىٰ مَسْجِدِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَادْعُ لَنَا أَحَدَ الْعُلَمَاءِ لِيُحَدِّثَنَا...

* * *

مَضَىٰ مَيْسَرَةُ إِلَى الْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ، وَأَجَالَ نَظَرَهُ فِيهِ فَلَمْ يَرَ غَيْرَ

---

(١) بَرْدِ الرَّاحَة: سعادة الطمأنينة.
(٢) استأثر: سيطر واستبد.
(٣) الزُّهر: المتلألئة.
(٤) عروة بن الزّبير: انظره ص ٤٣.
(٥) عبد الله بن عتبة: أحد كبار التّابعين.
(٦) القيلولة: نومة بعد الظهر.

حَلْقَةٍ وَاحِدَةٍ تَوَسَّطَهَا شَيْخٌ نَيَّفَ[1] عَلَىٰ السِّتِّينَ مِنْ عُمُرِهِ فِيهِ بَسَاطَةُ الْعُلَمَاءِ ...

وَعَلَيْهِ هَيْبَتُهُمْ وَوَقَارُهُمْ ...

فَوَقَفَ غَيْرَ بَعِيدٍ مِنَ الْحَلْقَةِ، وَأَشَارَ لِلشَّيْخِ بِإِصْبَعِهِ ...

فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِ الشَّيْخُ، وَلَمْ يَأْبَهْ لَهُ[2].

فَاقْتَرَبَ مِنْهُ وَقَالَ: أَلَمْ تَرَ أَنِّي أُشِيرُ إِلَيْكَ ؟!.

قَالَ: إِلَيَّ أَنَا ؟!.

قَالَ: نَعَمْ ...

قَالَ: وَمَا حَاجَتُكَ ؟.

قَالَ: اسْتَيْقَظَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَقَالَ: امْضِ إِلَىٰ الْمَسْجِدِ وَانْظُرْ هَلْ تَرَىٰ أَحَدًا مِنْ حُدَّاثِي[3]، فَأْتِنِي بِهِ.

فَقَالَ لَهُ الشَّيْخُ: مَا أَنَا مِنْ حُدَّاثِهِ.

فَقَالَ لَهُ مَيْسَرَةُ: وَلَكِنَّهُ يَبْغِي مُحَدِّثًا يُحَدِّثُهُ.

فَقَالَ الشَّيْخُ: إِنَّ مَنْ يَبْغِي شَيْئًا يَأْتِي إِلَيْهِ ...

وَإِنَّ فِي حَلْقَةِ الْمَسْجِدِ مُتَّسَعًا لَهُ إِذَا كَانَ رَاغِبًا فِي ذَٰلِكَ.

وَالْحَدِيثُ يُؤْتَىٰ إِلَيْهِ، وَلَكِنَّهُ لَا يَأْتِي ...

فَعَادَ الْحَاجِبُ أَدْرَاجَهُ وَقَالَ لِلْخَلِيفَةِ: مَا وَجَدْتُ أَحَدًا فِي الْمَسْجِدِ غَيْرَ شَيْخٍ أَشَرْتُ إِلَيْهِ فَلَمْ يَقُمْ، فَدَنَوْتُ مِنْهُ وَقُلْتُ: إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ اسْتَيْقَظَ فِي هَٰذَا الْوَقْتِ وَقَالَ لِي: انْظُرْ هَلْ تَرَىٰ أَحَدًا مِنْ حُدَّاثِي فِي الْمَسْجِدِ فَادْعُهُ لِي ...

---

(١) نيف: زاد.

(٢) لم يأبه له: لم يلتفت إليه ولم يهتم به.

(٣) حُدَّاثي: الذين يحدثونني.

فَقَالَ لِي فِي هُدُوءٍ وَحَزْمٍ : إِنَّنِي لَسْتُ مِنْ حُدَّاثِهِ ...

وَإِنَّ فِي حَلْقَةِ الْمَسْجِدِ مُتَّسَعًا لَهُ إِذَا كَانَ رَاغِبًا فِي الْحَدِيثِ .

فَتَنَهَّدَ(١) عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ ...

وَهَبَّ قَائِمًا ، وَاتَّجَهَ إِلَىٰ دَاخِلِ الْمَنْزِلِ وَهْوَ يَقُولُ :

ذَلِكَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ ...

لَيْتَكَ لَمْ تَأْتِهِ ، وَلَمْ تُكَلِّمْهُ ...

فَلَمَّا ابْتَعَدَ عَنِ الْمَجْلِسِ وَصَارَ فِي الدَّاخِلِ ، الْتَفَتَ أَصْغَرُ أَوْلَادِ عَبْدِ الْمَلِكِ إِلَىٰ أَخٍ لَهُ أَكْبَرَ مِنْهُ وَقَالَ :

مَنْ هَٰذَا الَّذِي يَمْتَنِعُ(٢) عَلَىٰ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَيَسْتَكْبِرُ عَلَىٰ الْمُثُولِ(٣) بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَحُضُورِ مَجْلِسِهِ ...

وَقَدْ دَانَتْ(٤) لَهُ الدُّنْيَا ، وَخَضَعَتْ لِهَيْبَتِهِ ، مُلُوكُ « الرُّومِ » .

فَقَالَ الْأَخُ الْأَكْبَرُ : ذَاكَ الَّذِي خَطَبَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِنْتَهُ لِأَخِيكَ الْوَلِيدِ ؛ فَأَبَىٰ أَنْ يُزَوِّجَهَا مِنْهُ .

فَقَالَ الْأَخُ الْأَصْغَرُ : أَبَىٰ أَنْ يُزَوِّجَهَا مِنَ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ؟!! .

وَهَلْ كَانَ يَرُومُ لَهَا بَعْلًا(٥) أَسْمَىٰ(٦) مِنْ وَلِيِّ عَهْدِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ؟! ...

وَخَلِيفَةِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ بَعْدِهِ .

فَسَكَتَ الْأَخُ الْأَكْبَرُ وَلَمْ يُجِبْهُ بِشَيْءٍ ...

---

(١) تَنَهَّدَ : أخرج نَفَسَهُ بَعْدَ مَدِّهِ حزنًا وألمًا.

(٢) يمتنع : يتعالىٰ .

(٣) المثول : الوقوف .

(٤) دانت : خضعت .

(٥) بعلًا : زوجًا .

(٦) أسمىٰ : أعز وأكرم .

فَقَالَ الأَخُ الأَصْغَرُ : إِذَا كَانَ قَدْ ضَنَّ بِابْنَتِهِ عَلَىٰ وَلِيِّ عَهْدِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَهَلْ وَجَدَ لَهَا الْكُفْءَ[1] الَّذِي يَلِيقُ بِهَا ؟ ...

أَمْ إِنَّهُ حَالَ دُونَهَا وَدُونَ الزَّوَاجِ كَمَا يَفْعَلُ بَعْضُ النَّاسِ ...

وَتَرَكَهَا قَعِيدَةَ بَيْتٍ[2].

فَقَالَ لَهُ أَخُوهُ الأَكْبَرُ :

الْحَقُّ أَنَّنِي لَا أَعْرِفُ شَيْئًا مِنْ خَبَرِهَا ، وَخَبَرِهِ مَعَهَا ...

فَالْتَفَتَ إِلَيْهِمَا أَحَدُ الْجُلَّاسِ مِنْ أَبْنَاءِ الْمَدِينَةِ وَقَالَ :

إِذَا أَذِنَ لِيَ الأَمِيرُ قَصَصْتُ عَلَيْهِ خَبَرَهَا كُلَّهُ ...

فَقَدْ تَزَوَّجَتْ فَتًى مِنْ فِتْيَانِ حَيِّنَا يُقَالُ لَهُ : أَبُو وَدَاعَةَ .

وَهُوَ جَارُنَا بَيْتَ بَيْتَ[3]...

وَلِزَوَاجِهِ مِنْهَا قِصَّةٌ طَرِيفَةٌ رَوَاهَا لِي بِنَفْسِهِ .

فَقَالَ لَهُ الأَخَوَانِ : هَاتِهَا ...

فَقَالَ الرَّجُلُ : حَدَّثَنِي أَبُو وَدَاعَةَ قَالَ :

كُنْتُ ـ كَمَا تَعْلَمُ ـ أُلَازِمُ مَسْجِدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ طَلَبًا لِلْعِلْمِ .

وَكُنْتُ أُدَاوِمُ عَلَىٰ حَلْقَةِ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ ، وَأُزَاحِمُ النَّاسَ عَلَيْهَا بِالْمَنَاكِبِ ... فَتَغَيَّبْتُ عَنْ حَلْقَةِ الشَّيْخِ أَيَّامًا ، فَتَفَقَّدَنِي ، وَظَنَّ أَنَّ بِي مَرَضًا ، أَوْ عَرَضَ لِي عَارِضٌ ...

فَسَأَلَ عَنِّي مَنْ حَوْلَهُ ، فَلَمْ يَجِدْ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْهُمْ خَبَرًا .

---

(١) الْكُفْء : المثيل والنظير.
(٢) قعيدة بيت : ملازمة للبيت.
(٣) جارنا بيت بيت : ملاصق لنا.

فَلَمَّا عُدْتُ إِلَيْهِ بَعْدَ أَيَّامٍ حَيَّانِي ، وَرَحَّبَ بِي وَقَالَ :

أَيْنَ كُنْتَ يَا أَبَا وَدَاعَةَ ؟ .

فَقُلْتُ : تُوُفِّيَتْ زَوْجَتِي ، فَاشْتَغَلْتُ بِأَمْرِهَا .

فَقَالَ : هَلَّا أَخْبَرْتَنَا يَا أَبَا وَدَاعَةَ فَنُوَاسِيَكَ[1]، وَنَشْهَدَ جَنَازَتَهَا مَعَكَ ، وَنُعِينَكَ عَلَىٰ مَا أَنْتَ فِيهِ .

فَقُلْتُ : جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا ... وَهَمَمْتُ أَنْ أَقُومَ ...

فَاسْتَبْقَانِي حَتَّىٰ انْصَرَفَ جَمِيعُ مَنْ كَانَ فِي الْمَجْلِسِ ، ثُمَّ قَالَ لِي :

أَمَا فَكَّرْتَ فِي اسْتِحْدَاثِ زَوْجَةٍ[2] لَكَ يَا أَبَا وَدَاعَةَ ؟ .

فَقُلْتُ : يَرْحَمُكَ اللَّهُ ...

وَمَنْ يُزَوِّجُنِي ابْنَتَهُ وَأَنَا شَابٌّ نَشَأَ يَتِيمًا ، وَعَاشَ فَقِيرًا ...

فَأَنَا لَا أَمْلِكُ غَيْرَ دِرْهَمَيْنِ ، أَوْ ثَلَاثَةِ دَرَاهِمَ .

فَقَالَ : أَنَا أُزَوِّجُكَ ابْنَتِي .

فَانْعَقَدَ[3] لِسَانِي وَقُلْتُ : أَنْتَ ؟! ...

أَتُزَوِّجُنِي ابْنَتَكَ بَعْدَ أَنْ عَرَفْتَ مِنْ أَمْرِي مَا عَرَفْتَ ؟! .

فَقَالَ : نَعَمْ ...

فَنَحْنُ إِذَا جَاءَنَا مَنْ نَرْضَىٰ دِينَهُ وَخُلُقَهُ زَوَّجْنَاهُ ، وَأَنْتَ عِنْدَنَا مَرْضِيُّ الدِّينِ وَالْخُلُقِ ...

---

(١) نواسيك : نعاونك .

(٢) استحداث زوجة لك : تجديد زواجك .

(٣) انعقد لساني : ارتبط لساني وعجزت عن الإفصاح .

ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَىٰ مَنْ كَانَ قَرِيبًا مِنَّا، وَنَادَاهُمْ ...

فَلَمَّا أَقْبَلُوا عَلَيْهِ، وَصَارُوا عِنْدَهُ؛ حَمِدَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَأَثْنَىٰ عَلَيْهِ، وَصَلَّىٰ عَلَىٰ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ.

وَعَقَدَ لِي عَلَىٰ ابْنَتِهِ ...

وَجَعَلَ مَهْرَهَا دِرْهَمَيْنِ اثْنَيْنِ ...

فَقُمْتُ وَأَنَا لَا أَدْرِي مَا أَقُولُ مِنَ الدَّهْشَةِ وَالْفَرَحِ ...

ثُمَّ قَصَدْتُ بَيْتِي، وَكُنْتُ يَوْمَئِذٍ صَائِمًا؛ فَنَسِيتُ صَوْمِي وَجَعَلْتُ أَقُولُ:

وَيْحَكَ[1] يَا أَبَا وَدَاعَةَ ...

مَا الَّذِي صَنَعْتَ بِنَفْسِكَ؟! ...

مِمَّنْ تَسْتَدِينُ؟! ...

وَمِمَّنْ تَطْلُبُ الْمَالَ؟!.

وَظَلَلْتُ عَلَىٰ حَالِي هَٰذِهِ حَتَّىٰ أُذِّنَ لِلْمَغْرِبِ ...

فَأَدَّيْتُ الْمَكْتُوبَةَ[2]، وَجَلَسْتُ إِلَىٰ فُطُورِي، وَكَانَ خُبْزًا، وَزَيْتًا ...

فَمَا إِنْ تَنَاوَلْتُ مِنْهُ لُقْمَةً أَوْ لُقْمَتَيْنِ حَتَّىٰ سَمِعْتُ الْبَابَ يُقْرَعُ.

فَقُلْتُ: مَنِ الطَّارِقُ؟.

فَقَالَ: سَعِيدٌ ...

فَوَاللَّهِ لَقَدْ مَرَّ بِخَاطِرِي كُلُّ إِنْسَانٍ اسْمُهُ سَعِيدٌ أَعْرِفُهُ إِلَّا سَعِيدَ بْنَ الْمُسَيِّبِ ...

---

(١) وَيْح: كلمة ترحُّم وتوجع.

(٢) المكتوبة: أي صلاة المغرب.

ذَلِكَ لِأَنَّهُ لَمْ يُرَ مُنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً إِلَّا بَيْنَ بَيْتِهِ وَالْمَسْجِدِ.

فَفَتَحْتُ الْبَابَ، فَإِذَا بِي أَمَامَ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ ...

فَظَنَنْتُ أَنَّهُ قَدْ بَدَا لَهُ[1] فِي أَمْرِ زَوَاجِي مِن ابْنَتِهِ شَيْءٌ ...

وَقُلْتُ لَهُ: أَبَا مُحَمَّدٍ ؟! ... هَلَّا أَرْسَلْتَ إِلَيَّ فَآتِيكَ.

فَقَالَ: بَلْ أَنْتَ أَحَقُّ بِأَنْ آتِيَ إِلَيْكَ الْيَوْمَ.

فَقُلْتُ: تَفَضَّلْ عَلَيَّ ...

فَقَالَ: كَلَّا، وَإِنَّمَا جِئْتُ لِأَمْرٍ ...

فَقُلْتُ: وَمَا هُوَ يَرْحَمُكَ اللَّهُ؟ ...

فَقَالَ: إِنَّ ابْنَتِي أَصْبَحَتْ زَوْجَةً لَكَ بِشَرْعِ اللَّهِ مُنْذُ الْغَدَاةِ[2]، وَأَنَا أَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ مَعَكَ أَحَدٌ يُؤْنِسُ وَحْشَتَكَ، فَكَرِهْتُ أَنْ تَبِيتَ أَنْتَ فِي مَكَانٍ وَزَوْجَتُكَ فِي مَكَانٍ آخَرَ؛ فَجِئْتُكَ بِهَا.

فَقُلْتُ: وَيْحِي ... جِئْتَنِي بِهَا ؟!.

فَقَالَ: نَعَمْ ...

فَنَظَرْتُ، فَإِذَا هِيَ قَائِمَةٌ بِطُولِهَا.

فَالْتَفَتَ إِلَيْهَا وَقَالَ: أُدْخُلِي إِلَى بَيْتِ زَوْجِكِ يَا بِنْتِي عَلَى اسْمِ اللَّهِ، وَبَرَكَتِهِ ...

فَلَمَّا أَرَادَتْ أَنْ تَخْطُوَ؛ تَعَثَّرَتْ[3] بِمُلَاءَتِهَا[4] مِنَ الْحَيَاءِ حَتَّى كَادَتْ تَسْقُطُ عَلَى الْأَرْضِ.

---

(١) بدا له شيء: ظهر له ما غير رأيه.
(٢) الغداة: الضُّحَى.
(٣) تعثرت: كَبَتْ حَتَّى كَادَتْ تقع.
(٤) بملاءتها: بثوبها.

أَمَّا أَنَا فَقَدْ وَقَفْتُ أَمَامَهَا مَشْدُوهًا[1] لَا أَدْرِي مَا أَقُولُ ...

ثُمَّ إِنِّي بَادَرْتُ فَسَبَقْتُهَا إِلَىٰ الْقَصْعَةِ[2] الَّتِي فِيهَا الْخُبْزُ وَالزَّيْتُ ؛ فَنَحَّيْتُهَا مِنْ ضَوْءِ السِّرَاجِ حَتَّىٰ لَا تَرَاهَا .

ثُمَّ صَعِدْتُ إِلَىٰ السَّطْحِ وَنَادَيْتُ الْجِيرَانَ ، فَأَقْبَلُوا عَلَيَّ وَقَالُوا : مَا شَأْنُكَ ؟ .

فَقُلْتُ : عَقَدَ لِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ عَلَىٰ ابْنَتِهِ الْيَوْمَ فِي الْمَسْجِدِ ...

وَقَدْ جَاءَنِي بِهَا الْآنَ عَلَىٰ غَفْلَةٍ ...

فَتَعَالَوْا آنِسُوهَا[3] حَتَّىٰ أَدْعُوَ أُمِّي ، فَهْيَ بَعِيدَةُ الدَّارِ .

فَقَالَتْ عَجُوزٌ مِنْهُنَّ : وَيْحَكَ أَتَدْرِي مَا تَقُولُ ؟! ...

أَزَوَّجَكَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ ابْنَتَهُ ...

وَحَمَلَهَا لَكَ إِلَىٰ الْبَيْتِ بِنَفْسِهِ ؟! ...

وَهْوَ الَّذِي ضَنَّ بِهَا عَلَىٰ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ !! .

فَقُلْتُ : نَعَمْ ...

وَهَا هِيَ ذِي عِنْدِي فِي بَيْتِي ، فَهَلُمُّوا[4] إِلَيْهَا ، وَانْظُرُوهَا .

فَتَوَجَّهَ الْجِيرَانُ إِلَىٰ الْبَيْتِ ، وَهُمْ لَا يَكَادُونَ يُصَدِّقُونَنِي ، وَرَحَّبُوا بِهَا ، وَآنَسُوا وَحْشَتَهَا ...

* * *

وَمَا هُوَ إِلَّا قَلِيلٌ حَتَّىٰ جَاءَتْ أُمِّي ، فَلَمَّا رَأَتْهَا الْتَفَتَتْ إِلَيَّ وَقَالَتْ :

---

(١) مشدوهًا : ذاهلًا حائرًا .

(٢) القصعة : الصَّحفة الَّتي يوضع فيها الطَّعام .

(٣) آنسوها : سَلُّوها وأزيلوا وحشتها .

(٤) هلموا : بادروا .

وَجْهِي مِنْ وَجْهِكَ حَرَامٌ[1] إِنْ لَمْ تَتْرُكْهَا لِي حَتَّىٰ أُصْلِحَ شَأْنَهَا...

ثُمَّ أَزُفُّهَا[2] إِلَيْكَ كَمَا تُزَفُّ كَرَائِمُ النِّسَاءِ.

فَقُلْتُ: أَنْتِ وَمَا تُرِيدِينَ...

فَضَمَّتْهَا[3] إِلَيْهَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، ثُمَّ زَفَّتْهَا إِلَيَّ.

فَإِذَا هِيَ مِنْ أَبْهَىٰ نِسَاءِ الْمَدِينَةِ جَمَالًا...

وَأَحْفَظِ النَّاسِ لِكِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ...

وَأَرْوَاهُمْ لِحَدِيثِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ...

وَأَعْرَفِ النِّسَاءِ بِحُقُوقِ الزَّوْجِ.

فَمَكَثْتُ مَعَهَا أَيَّامًا لَا يَزُورُنِي أَبُوهَا أَوْ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِهَا.

ثُمَّ إِنِّي أَتَيْتُ حَلْقَةَ الشَّيْخِ فِي الْمَسْجِدِ؛ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَرَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ، وَلَمْ يُكَلِّمْنِي.

فَلَمَّا انْفَضَّ[4] الْمَجْلِسُ، وَلَمْ يَبْقَ غَيْرِي قَالَ:

مَا حَالُ زَوْجَتِكَ يَا أَبَا وَدَاعَةَ؟.

فَقُلْتُ: هِيَ عَلَىٰ مَا يُحِبُّ الصَّدِيقُ وَيَكْرَهُ الْعَدُوُّ...

فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ.

فَلَمَّا عُدْتُ إِلَىٰ بَيْتِي، وَجَدْتُهُ قَدْ وَجَّهَ إِلَيْنَا مَبْلَغًا وَفِيرًا مِنَ الْمَالِ لِنَسْتَعِينَ بِهِ عَلَىٰ حَيَاتِنَا.

* * *

(١) وجهي من وجهك حرام: أخاصمك ولا أنظر إليك.

(٢) أزُفُّها إليك: أهديها لك. (٣) ضمتها إليها: استصحبتها. (٤) انفض المجلس: غادر الحضور المجلس.

فَقَالَ ابْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ: عَجِيبٌ أَمْرُ هَٰذَا الرَّجُلِ...

فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ: وَمَا وَجْهُ الْعَجَبِ فِيهِ أَيُّهَا الْأَمِيرُ؟...

إِنَّهُ امْرُؤٌ جَعَلَ دُنْيَاهُ مَطِيَّةً[1] لِأُخْرَاهُ...

وَاشْتَرَىٰ لِنَفْسِهِ وَلِأَهْلِهِ الْبَاقِيَةَ بِالْفَانِيَةِ[2]...

فَوَاللَّهِ إِنَّهُ مَا ضَنَّ[3] عَلَىٰ ابْنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِابْنَتِهِ...

وَلَا رَآهُ غَيْرَ كُفْءٍ لَهَا، وَإِنَّمَا خَافَ عَلَيْهَا فِتْنَةَ الدُّنْيَا...

وَلَقَدْ سَأَلَهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: أَتَرُدُّ خِطْبَةَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَتُزَوِّجُ ابْنَتَكَ مِنْ رَجُلٍ مِنْ عَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ؟!.

فَقَالَ: إِنَّ ابْنَتِي أَمَانَةٌ فِي عُنُقِي، وَقَدْ تَحَرَّيْتُ[4] فِيمَا صَنَعْتُهُ لَهَا صَلَاحَ أَمْرِهَا.

فَقِيلَ لَهُ: وَكَيْفَ؟!.

فَقَالَ: مَا ظَنُّكُمْ بِهَا إِذَا انْتَقَلَتْ إِلَىٰ قُصُورِ بَنِي «أُمَيَّةَ»...

وَتَقَلَّبَتْ بَيْنَ رِيَاشِهَا[5] وَأَثَاثِهَا[6]...

وَقَامَ الْخَدَمُ وَالْحَشَمُ وَالْجَوَارِي بَيْنَ يَدَيْهَا، وَعَنْ يَمِينِهَا، وَعَنْ شِمَالِهَا...

ثُمَّ وَجَدَتْ نَفْسَهَا بَعْدَ ذَٰلِكَ زَوْجَةً لِلْخَلِيفَةِ؟.

أَيْنَ يُصْبِحُ دِينُهَا يَوْمَئِذٍ؟.

---

(١) مطية: مركبًا ووسيلة.
(٢) الباقية بالفانية: الآخرة بالدنيا.
(٣) ما ضنّ: ما بخل.
(٤) تحريت: توخيت وبحثت.
(٥) الرِّياش: ما كان فاخرًا من اللّباس ونحوه.
(٦) الأثاث: متاع البيت.

فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ : يَبْدُو أَنَّ صَاحِبَكُمْ طِرَازٌ فَرِيدٌ[١] مِنَ النَّاسِ .

فَقَالَ الرَّجُلُ الْمَدَنِيُّ : وَاللَّهِ مَا عَدَوْتَ[٢] الْحَقَّ أَبَدًا ...

فَهْوَ صَوَّامُ نَهَارٍ ...

قَوَّامُ لَيْلٍ ...

حَجَّ نَحْوًا مِنْ أَرْبَعِينَ حِجَّةً ...

وَمَا فَاتَتْهُ التَّكْبِيرَةُ الْأُولَىٰ فِي مَسْجِدِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُنْذُ أَرْبَعِينَ عَامًا ...

وَلَا عُرِفَ عَنْهُ أَنَّهُ نَظَرَ إِلَىٰ قَفَا رَجُلٍ فِي الصَّلَاةِ خِلَالَ ذَلِكَ أَبَدًا ؛ لِمُحَافَظَتِهِ عَلَىٰ الصَّفِّ الْأَوَّلِ .

وَقَدْ كَانَ فِي وُسْعِهِ أَنْ يَتَزَوَّجَ بِمَنْ يَشَاءُ مِنْ نِسَاءِ قُرَيْشٍ ، فَآثَرَ[٣] بِنْتَ أَبِي هُرَيْرَةَ[٤] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَىٰ سَائِرِ النِّسَاءِ .

وَذَلِكَ لِمَنْزِلَتِهِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ...

وَسَعَةِ رِوَايَتِهِ لِحَدِيثِهِ ...

وَشِدَّةِ رَغْبَتِهِ فِي الْأَخْذِ عَنْهُ .

وَلَقَدْ نَذَرَ نَفْسَهُ لِلْعِلْمِ مُنْذُ نُعُومَةِ أَظْفَارِهِ ...

فَدَخَلَ عَلَىٰ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَتَأَثَّرَ[٥] بِهِنَّ ...

(١) طراز فريد : نَوْعٌ نادر.

(٢) ما عدوت الحق : ما بَعُدْت عن الحق ولا خرجت عليه.

(٣) آثر : اختار وفضَّل.

(٤) أبو هُرَيْرَة : انظره في كتاب «صور من حياة الصحابة» للمؤلف، الناشر دار الأدب الإسلامي، الطبعة الشرعية.

(٥) تأثر بهن : انتفع منهن وسلك مسلكهن.

وَتَتَلْمَذَ عَلَىٰ يَدَيْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ...

وَسَمِعَ مِنْ عُثْمَانَ، وَعَلِيٍّ، وَصُهَيْبٍ[1]، وَغَيْرِهِمْ مِنْ صَحَابَةِ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ ﷺ.

وَتَخَلَّقَ بِأَخْلَاقِهِمْ...

وَتَحَلَّىٰ بِشَمَائِلِهِمْ[2]...

وَلَقَدْ كَانَتْ لَهُ كَلِمَةٌ يُرَدِّدُهَا عَلَى الدَّوَامِ حَتَّىٰ غَدَتْ وَكَأَنَّهَا شِعَارٌ لَهُ، وَهِيَ قَوْلُهُ:

مَا أَعَزَّتِ الْعِبَادُ نَفْسَهَا بِمِثْلِ طَاعَةِ اللَّهِ...

وَلَا أَهَانَتْ نَفْسَهَا بِمِثْلِ مَعْصِيَتِهِ (*)...

(١) انظرهم في كتاب «صور من حياة الصّحابة» للمؤلف، النّاشر دار الأدب الإسلامي، الطّبعة الشرعية.
(٢) تحلّىٰ بشمائلهم: استمسك بأخلاقهم وصفاتهم وازدان بها.

(*) للاستزادة من أخبار سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ انظر:
١ - الطّبقات الكبرىٰ لابن سعد: ٥/١١٩.
٢ - تاريخ البخاري.
٣ - المعارف: ٤٣٧.
٤ - حلية الأولياء: ٢/ ١٦١.
٥ - تهذيب الأسماء واللّغات القسم الأول، الجزء الأول: ٢١٩.
٦ - وفيات الأعيان لابن خلكان: ٢/ ٣٧٥.
٧ - تذكرة الحفاظ: ١/ ٥١.
٨ - العبر: ١/ ١١٠.
٩ - النّجومُ الزّاهرة: ١/ ٢٢٨.
١٠ - شذَرَاتُ الذّهب: ١/ ١٠٢.

سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ

«لَقَدْ قُتِلَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَمَا عَلَىٰ الْأَرْضِ أَحَدٌ إِلَّا وَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَىٰ عِلْمِهِ»

[أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ]

كَانَ فَتًى وَثِيقَ[1] الْجِسْمِ، مُكْتَمِلَ الْخَلْقِ، مُتَدَفِّقًا حَيَوِيَّةً وَنَشَاطًا.

وَكَانَ إِلَىٰ ذَٰلِكَ ذَكِيَّ الْفُؤَادِ، حَادَّ الْفِطْنَةِ، نَزَّاعًا[2] إِلَىٰ الْمَكَارِمِ، مُتَأَثِّمًا[3] مِنَ الْمَحَارِمِ...

وَلَمْ يَكُنْ سَوَادُ لَوْنِهِ، وَفَلْفَلَةُ[4] شَعْرِهِ، وَحَبَشِيَّةُ أَصْلِهِ؛ لِتَنَالَ مِنْ شَخْصِيَّتِهِ الْمُتَمَيِّزَةِ الْفَذَّةِ، وَذَٰلِكَ عَلَىٰ الرَّغْمِ مِنْ حَدَاثَةِ سِنِّهِ.

* * *

وَلَقَدْ أَدْرَكَ الْفَتَىٰ الْحَبَشِيُّ أَصْلًا، الْعَرَبِيُّ وَلَاءً[5]، أَنَّ الْعِلْمَ إِنَّمَا هُوَ طَرِيقُهُ الْقَوِيمُ الَّذِي يُوصِلُهُ إِلَىٰ اللَّهِ.

وَأَنَّ التُّقَىٰ إِنَّمَا هِيَ سَبِيلُهُ الْمُمَهَّدَةُ الَّتِي تَبْلُغُ بِهِ الْجَنَّةَ؛ فَجَعَلَ التُّقَىٰ فِي يَمِينِهِ... وَالْعِلْمَ فِي شِمَالِهِ...

وَشَدَّ عَلَيْهِمَا يَدَيْهِ كِلْتَيْهِمَا...

وَانْطَلَقَ يَقْطَعُ بِهِمَا رِحْلَةَ الْحَيَاةِ غَيْرَ وَانٍ[6]، وَلَا مُتَمَهِّلٍ.

فَمُنْذُ نُعُومَةِ أَظْفَارِهِ كَانَ النَّاسُ يَرَوْنَهُ إِمَّا عَاكِفًا عَلَىٰ كِتَابِهِ يَتَعَلَّمُ...

أَوْ صَافًّا فِي مِحْرَابِهِ يَتَعَبَّدُ...

---

(١) وثيق الجسم: قوي الجسم محكمه.
(٢) نزّاعًا: شديد الرغبة قوي التعلّق.
(٣) متأثّمًا من المحارم: مبتعدًا عما حرمه الله.
(٤) فلفلة شعره: تجعد شعره.
(٥) العربي ولاءً: العربي تبعًا لا نسبًا.
(٦) وانٍ: فاتر مهمل.

ذَلِكُمْ هُوَ رَائِعَةُ الْمُسْلِمِينَ فِي عَصْرِهِ ...

سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَأَرْضَاهُ .

* * *

أَخَذَ الْفَتَىٰ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ الْعِلْمَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْ جِلَّةِ الصَّحَابَةِ[1] مِنْ أَمْثَالِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، وَعَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ الطَّائِيِّ ...

وَأَبِي مُوسَىٰ الْأَشْعَرِيِّ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ الدَّوْسِيِّ ...

وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، وَعَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وَعَنْهُمْ أَجْمَعِينَ .

بَيْدَ أَنَّ أُسْتَاذَهُ الْأَكْبَرَ، وَمُعَلِّمَهُ الْأَعْظَمَ كَانَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ[2]، حَبْرَ[3] أُمَّةِ مُحَمَّدٍ، وَبَحْرَ عِلْمِهَا الزَّاخِرَ ...

* * *

لَزِمَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ لُزُومَ الظِّلِّ لِصَاحِبِهِ ... فَأَخَذَ عَنْهُ الْقُرْآنَ وَتَفْسِيرَهُ، وَالْحَدِيثَ وَغَرِيبَهُ ...

وَتَفَقَّهَ عَلَىٰ يَدَيْهِ فِي الدِّينِ، وَتَعَلَّمَ مِنْهُ التَّأْوِيلَ[4] ...

وَدَرَسَ عَلَيْهِ اللُّغَةَ، فَتَمَكَّنَ مِنْهَا أَعْظَمَ التَّمَكُّنِ ...

حَتَّىٰ غَدَا وَمَا عَلَىٰ ظَهْرِ الْأَرْضِ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ زَمَانِهِ إِلَّا وَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَىٰ عِلْمِهِ .

ثُمَّ طَوَّفَ[5] فِي دِيَارِ الْمُسْلِمِينَ بَحْثًا عَنِ الْمَعْرِفَةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يُطَوِّفَ .

فَلَمَّا اكْتَمَلَ لَهُ مَا أَرَادَ مِنَ الْعِلْمِ، اتَّخَذَ «الْكُوفَةَ» دَارًا لَهُ وَمَقَامًا .

---

(١) جِلَّة الصَّحابة : كبار الصَّحابة .

(٢) عبد اللَّه بن عباس : انظره في كتاب «صور من حياة الصحابة» للمؤلف .

(٣) الحبر : العالم الصَّالح .

(٤) التَّأويل : التَّفسير .

(٥) طَوَّف : تنقل .

وَغَدَا لِأَهْلِهَا مُعَلِّمًا وَإِمَامًا .

* * *

كَانَ يَؤُمُّ النَّاسَ فِي رَمَضَانَ ؛ فَيَقْرَأُ لَيْلَةً بِقِرَاءَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ[١]...

وَأُخْرَىٰ بِقِرَاءَةِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ[٢]...

وَثَالِثَةً بِقِرَاءَةِ غَيْرِهِمَا ، وَهَكَذَا ...

وَكَانَ إِذَا صَلَّىٰ مُنْفَرِدًا فَرُبَّمَا قَرَأَ الْقُرْآنَ كُلَّهُ فِي صَلَاةٍ وَاحِدَةٍ ، وَكَانَ إِذَا مَرَّ بِقَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿... **فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ * فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ**[٣]﴾[٤].

أَوْ مَرَّ بِنَحْوِهَا مِنْ آيَاتِ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ ، اقْشَعَرَّ جِلْدُهُ ...

وَتَصَدَّعَ فُؤَادُهُ ... وَهَمَتْ[٥] عَيْنَاهُ ...

ثُمَّ لَا يَزَالُ يَبْدَأُ فِيهَا وَيُعِيدُ حَتَّىٰ يُوشِكَ أَنْ يَقْضِيَ نَحْبَهُ[٦].

* * *

وَقَدْ دَأَبَ عَلَىٰ شَدِّ رِحَالِهِ[٧] إِلَى الْبَيْتِ الْحَرَامِ كُلَّ عَامٍ مَرَّتَيْنِ ...

مَرَّةً فِي رَجَبٍ مُحْرِمًا بِعُمْرَةٍ ، وَأُخْرَىٰ فِي ذِي الْقِعْدَةِ مُحْرِمًا بِحَجٍّ .

وَقَدْ كَانَ طُلَّابُ الْعِلْمِ وَشُدَاةُ[٨] الْخَيْرِ وَالْبِرِّ وَالنُّصْحِ ؛ يَتَوَافَدُونَ عَلَىٰ

---

(١) عَبْد اللَّه بن مَسْعُود : صحابي خدم الرَّسُول عليه الصّلاة والسّلام ، وكانَ أوّل من جهر بالقُرآن ، انظره في كتاب « صور من حياة الصّحابة » للمؤلف ، النّاشر دار الأدب الإسلامي ، الطّبعة الشرعية .

(٢) زَيْد بن ثَابت : صحابي من كتّاب الوحي كان متقدمًا في القراءة والقضاء والفتوىٰ ، انظره في كتاب « صور من حياة الصّحابة » للمؤلف ، النّاشر دار الأدب الإسلامي ، الطّبعة الشرعية .

(٣) يسجرون : يوقدون ويحرقون .

(٤) سورة غافر : ٧٠ ـ ٧٢.

(٥) همت عيناه : سالت دموعه .

(٦) يقضي نحبه : يَتَوَفَّىٰ .

(٧) شدّ رِحاله : رَحَل .

(٨) شُداة الخير : طُلّاب الصّلاح .

« الْكُوفَةِ » لِيَنْهَلُوا مِنْ مَنَاهِلِ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ الثَّرَّةِ[1] الْعَذْبَةِ ...

وَيَغْتَرِفُوا مِنْ هَدْيِهِ الْقَوِيمِ ...

فَهَٰذَا يَسْأَلُهُ عَنِ الْخَشْيَةِ[2] مَا هِيَ ؟ .

فَيُجِيبُهُ بِقَوْلِهِ : الْخَشْيَةُ أَنْ تَخْشَىٰ اللَّهَ جَلَّ وَعَزَّ حَتَّىٰ تَحُولَ خَشْيَتُهُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ .

وَذَاكَ يَسْأَلُهُ عَنِ الذِّكْرِ مَا هُوَ ؟ .

فَيَقُولُ : الذِّكْرُ هُوَ طَاعَةُ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا ...

فَمَنْ أَقْبَلَ عَلَىٰ اللَّهِ وَأَطَاعَهُ فَقَدْ ذَكَرَهُ ...

وَمَنْ أَعْرَضَ[3] عَنْهُ وَلَمْ يُطِعْهُ فَلَيْسَ بِذَاكِرٍ لَهُ وَلَوْ بَاتَ لَيْلَهُ يُسَبِّحُ وَيَتْلُو .

* * *

وَقَدْ كَانَتِ « الْكُوفَةُ » حِينَ اتَّخَذَهَا سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ دَارَ إِقَامَةٍ لَهُ ، خَاضِعَةً لِلْحَجَّاجِ بْنِ يُوسُفَ الثَّقَفِيِّ ...

إِذْ كَانَ الْحَجَّاجُ يَوْمَئِذٍ وَالِيًا عَلَىٰ « الْعِرَاقِ » ، وَالْمَشْرِقِ ، وَبِلَادِ مَا وَرَاءَ النَّهْرِ ، وَكَانَ يَتَرَبَّعُ[4] حِينَئِذٍ عَلَىٰ ذُرْوَةِ[5] سَطْوَتِهِ وَسُلْطَانِهِ ...

وَذَٰلِكَ بَعْدَ أَنْ قَتَلَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزُّبَيْرِ[6] ، وَقَضَىٰ عَلَىٰ حَرَكَتِهِ ...

وَأَخْضَعَ « الْعِرَاقَ » لِسُلْطَانِ بَنِي « أُمَيَّةَ » ، وَأَخْمَدَ[7] نِيرَانَ الثَّوْرَاتِ الْقَائِمَةِ هُنَا وَهُنَاكَ ... وَأَعْمَلَ السَّيْفَ فِي رِقَابِ الْعِبَادِ ...

---

(١) الثرة : الغزيرة المتدفقة .
(٢) الخشية : الخوف .
(٣) أعرض عنه : ابتعد عنه .
(٤) يتربع في جلوسه : يثني قدميه تحت فخذيه مخالفًا لهما .
(٥) ذروة سطوته : قمة سلطانه .
(٦) عبد الله بن الزبير بن العوام بويع بالخلافة ، ثم قضى الحجاج عليه .
(٧) أخمد : أطفأ النيران .

وَأَشَاعَ الرُّعْبَ فِي أَرْجَاءِ[1] الْبِلَادِ...

حَتَّىٰ امْتَلَأَتِ الْقُلُوبُ رَهْبَةً مِنْهُ وَخَشْيَةً مِنْ بَطْشِهِ[2].

* * *

ثُمَّ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقَعَ صِدَامٌ بَيْنَ الْحَجَّاجِ بْنِ يُوسُفَ الثَّقَفِيِّ وَبَيْنَ عَبْدِ الرَّحْمَـٰنِ بْنِ الْأَشْعَثِ أَحَدِ كِبَارِ قُوَّادِهِ.

وَأَنْ يَتَحَوَّلَ الصِّدَامُ إِلَىٰ فِتْنَةٍ أَكَلَتِ الْأَخْضَرَ وَالْيَابِسَ...

وَتَرَكَتْ فِي جِسْمِ الْمُسْلِمِينَ جِرَاحَاتٍ غَائِرَةً[3].

وَكَانَ مِنْ خَبَرِ هَـٰذِهِ الْفِتْنَةِ، أَنَّ الْحَجَّاجَ سَيَّرَ ابْنَ الْأَشْعَثِ بِجَيْشٍ لِغَزْوِ «رَتْبِيلَ» مَلِكِ «التُّرْكِ» عَلَىٰ الْمَنَاطِقِ الْوَاقِعَةِ وَرَاءَ «سِجِسْتَانَ»[4].

فَغَزَا الْقَائِدُ الْبَاسِلُ الْمُظَفَّرُ شَطْرًا كَبِيرًا مِنْ بِلَادِ «رَتْبِيلَ»، وَاحْتَلَّ حُصُونًا مَنِيعَةً[5] مِنْ دِيَارِهِ...

وَغَنِمَ مَغَانِمَ كَثِيرَةً مِنْ مُدُنِهِ وَقُرَاهُ...

ثُمَّ بَعَثَ إِلَىٰ الْحَجَّاجِ رُسُلًا زَفُّوا[6] لَهُ بَشَائِرَ النَّصْرِ الْكَبِيرِ، وَحَمَلُوا مَعَهُمْ خُمُسَ الْغَنَائِمِ لِتَسْتَقِرَّ فِي خَزَائِنِ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ.

وَكَتَبَ لَهُ كِتَابًا اسْتَأْذَنَهُ فِيهِ بِالتَّوَقُّفِ عَنِ الْقِتَالِ مُدَّةً مِنَ الزَّمَنِ؛ لِيَخْتَبِرَ مَدَاخِلَ الْبِلَادِ وَمَخَارِجَهَا، وَيَقِفَ عَلَىٰ طَبِيعَتِهَا وَأَحْوَالِهَا.

وَذَٰلِكَ قَبْلَ التَّوَغُّلِ[7] فِي شِعَابِهَا[8] الْقَاصِيَةِ الْمَجْهُولَةِ...

وَتَعْرِيضِ الْجَيْشِ الظَّافِرِ لِلْمَخَاطِرِ.

---

(1) أرجاء البلاد: أنحاء البلاد.
(2) بطشه: فتكه.
(3) غائرة: عميقة.
(4) سجستان: بلاد واقعة بين إيران وأفغانستان.
(5) الحصون المنيعة: الحصون التي يتعذر الوصول إليها.
(6) زفوا البشائر: نقلوا الأفراح.
(7) التوغل: البعد والتعمق.
(8) الشعاب: الطرق بين الجبال.

فَاغْتَاظَ الْحَجَّاجُ مِنْهُ ...

وَأَرْسَلَ إِلَيْهِ كِتَابًا يَصِفُهُ فِيهِ بِالْجُبْنِ وَالْخُنُوعِ(١) ...

وَيُنْذِرُهُ بِالْوَيْلِ وَالثُّبُورِ(٢)، وَيُهَدِّدُهُ بِالتَّنْحِيَةِ عَنْ قِيَادَةِ الْجَيْشِ.

فَجَمَعَ عَبْدُ الرَّحْمَٰنِ وُجُوهَ الْجُنْدِ، وَقَادَةَ الْكَتَائِبِ ... وَقَرَأَ عَلَيْهِمْ كِتَابَ الْحَجَّاجِ، وَاسْتَشَارَهُمْ فِيهِ ...

فَدَعَوْهُ إِلَىٰ الْخُرُوجِ عَلَيْهِ، وَالْمُبَادَرَةِ إِلَىٰ نَبْذِ(٣) طَاعَتِهِ.

فَقَالَ لَهُمْ عَبْدُ الرَّحْمَٰنِ:

أَتُبَايِعُونَنِي عَلَىٰ ذَلِكَ وَتُؤَازِرُونَنِي(٤) عَلَىٰ جِهَادِهِ حَتَّىٰ يُطَهِّرَ اللَّهُ أَرْضَ «الْعِرَاقِ» مِنْ رِجْسِهِ(٥)؟.

فَبَايَعَهُ الْجُنْدُ عَلَىٰ مَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ.

* * *

هَبَّ عَبْدُ الرَّحْمَٰنِ بْنُ الْأَشْعَثِ بِجَيْشِهِ الْمُمْتَلِئِ كَرَاهَةً لِلْحَجَّاجِ.

وَنَشِبَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ جُيُوشِ ابْنِ يُوسُفَ الثَّقَفِيِّ مَعَارِكُ طَاحِنَةٌ انْتَصَرَ فِيهَا نَصْرًا مُؤَزَّرًا.

فَتَمَّ لَهُ الِاسْتِيلَاءُ عَلَىٰ «سِجِسْتَانَ»، وَجُلِّ بِلَادِ «فَارِسَ» ...

ثُمَّ أَقْبَلَ يُرِيدُ انْتِزَاعَ «الْكُوفَةِ» وَ«الْبَصْرَةِ» مِنْ يَدَيِ الْحَجَّاجِ.

* * *

وَفِيمَا كَانَتْ نِيرَانُ الْحَرْبِ مُشْتَعِلَةً بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ ...

(١) الخنوع: الضّعف والذّل.
(٢) الويل والثّبور: الهلاك والدّمار.
(٣) نبذ طاعته: خلع طاعته.
(٤) تؤازرونني: تتعاونون معي.
(٥) رجسه: قبحه وسوء فعله.

وَكَانَ ابْنُ الْأَشْعَثِ يَنْتَقِلُ مِنْ ظَفَرٍ إِلَىٰ ظَفَرٍ...

وَقَعَ لِلْحَجَّاجِ خَطْبٌ[1] زَادَ خَصْمَهُ قُوَّةً.

ذَلِكَ أَنَّ وُلَاةَ الْأَمْصَارِ كَتَبُوا إِلَىٰ الْحَجَّاجِ كُتُبًا قَالُوا فِيهَا:

إِنَّ أَهْلَ الذِّمَّةِ[2] قَدْ طَفِقُوا يَدْخُلُونَ فِي الْإِسْلَامِ لِيَتَخَلَّصُوا مِنْ دَفْعِ الْجِزْيَةِ[3]، وَقَدْ تَرَكُوا الْقُرَىٰ الَّتِي يَعْمَلُونَ فِيهَا وَاسْتَقَرُّوا فِي الْمُدُنِ...

وَإِنَّ الْخَرَاجَ[4] قَدِ اضْمَحَلَّ[5]...

وَإِنَّ الْجِبَايَاتِ قَدْ أَفْلَسَتْ.

فَكَتَبَ الْحَجَّاجُ إِلَىٰ وُلَاتِهِ فِي «الْبَصْرَةِ» وَغَيْرِهَا كُتُبًا يَأْمُرُهُمْ فِيهَا بِأَنْ يَجْمَعُوا كُلَّ مَنْ نَزَحَ[6] إِلَىٰ الْمُدُنِ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ...

وَأَنْ يُعِيدُوهُمْ إِلَىٰ الْقُرَىٰ مَهْمَا طَالَ نُزُوحُهُمْ عَنْهَا.

فَصَدَعَ[7] الْوُلَاةُ بِالْأَمْرِ، وَأَجْلَوْا أَعْدَادًا كَبِيرَةً مِنْ هَؤُلَاءِ عَنْ دِيَارِهِمْ...

وَأَبْعَدُوهُمْ عَنْ مَوَارِدِ أَرْزَاقِهِمْ، وَحَشَدُوهُمْ[8] فِي أَطْرَافِ الْمُدُنِ...

وَأَخْرَجُوا مَعَهُمْ نِسَاءَهُمْ وَأَطْفَالَهُمْ...

وَدَفَعُوهُمْ دَفْعًا إِلَىٰ الرَّحِيلِ إِلَىٰ الْقُرَىٰ...

بَعْدَ أَنْ مَضَىٰ عَلَىٰ فِرَاقِهِمْ لَهَا حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ.

---

(١) خطب: أمر مكروه.
(٢) أهل الذّمّة: هم اليهود والنصارىٰ، ممن يعيشون بين المسلمين في ذمة الله ورسوله.
(٣) الجزية: ما يدفعه أهل الذّمة للمسلمين من ضريبة.
(٤) الخراج: المال الّذي يؤخذ عن الأرض.
(٥) اضمحل: انحل.
(٦) نزح: انتقل.
(٧) صدعوا بالأمر: جهروا بالأمر وأنفذوه.
(٨) حشدوهم: جمعوهم.

فَأَخَذَ النِّسَاءُ وَالْوِلْدَانُ وَالشُّيُوخُ يَبْكُونَ، وَيَسْتَصْرِخُونَ، وَيَسْتَغِيثُونَ، وَيُنَادُونَ: وَامُحَمَّدَاهُ...

وَامُحَمَّدَاهُ...

وَحَارُوا فِيمَا يَفْعَلُونَ، وَإِلَىٰ أَيْنَ يَذْهَبُونَ؟.

فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ فُقَهَاءُ «الْبَصْرَةِ» وَقُرَّاؤُهَا لِيُغِيثُوهُمْ، وَيَشْفَعُوا لَهُمْ.

فَلَمْ يَتَمَكَّنُوا مِنْ ذَلِكَ.

فَطَفِقُوا يَبْكُونَ لِبُكَائِهِمْ، وَيَسْتَغِيثُونَ لِمُصَابِهِمْ.

* * *

اغْتَنَمَ عَبْدُ الرَّحْمَٰنِ بْنُ الْأَشْعَثِ هَٰذِهِ الْفُرْصَةَ، وَدَعَا الْفُقَهَاءَ وَالْقُرَّاءَ[١] إِلَىٰ مُؤَازَرَتِهِ.

فَاسْتَجَابَتْ لَهُ كَوْكَبَةٌ[٢] مِنْ جِلَّةِ[٣] التَّابِعِينَ وَأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَعَلَىٰ رَأْسِهِمْ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَعَبْدُ الرَّحْمَٰنِ بْنُ أَبِي لَيْلَىٰ[٤]...

وَالشَّعْبِيُّ[٥]، وَأَبُو الْبَخْتَرِيِّ[٦]، وَغَيْرُهُمْ، وَغَيْرُهُمْ.

وَدَارَتْ رَحَىٰ الْحَرْبِ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ، وَكَانَ النَّصْرُ فِيهَا أَوَّلَ الْأَمْرِ لِابْنِ الْأَشْعَثِ وَمَنْ مَعَهُ عَلَىٰ الْحَجَّاجِ وَجُنُودِهِ.

ثُمَّ بَدَأَتْ كَفَّةُ الْحَجَّاجِ تَرْجَحُ شَيْئًا فَشَيْئًا... حَتَّىٰ هُزِمَ ابْنُ الْأَشْعَثِ هَزِيمَةً مُنْكَرَةً... وَفَرَّ نَاجِيًا بِنَفْسِهِ...

(١) القراء: العبّاد الزّهاد حملة القرآن.
(٢) كوكبة: جماعة.
(٣) جِلّة التابعين: فضلاء التابعين.
(٤) عبد الرّحمٰن بن أبي ليلىٰ: أحد فضلاء التابعين.
(٥) الشّعبي: أحد فقهاء التابعين وشعرائهم وأذكيائهم النادرين... انظره ص ١٧٧.
(٦) أبو البختري: تابعي عابد زاهد.

وَاسْتَسْلَمَ جَيْشُهُ لِلْحَجَّاجِ وَجُنُودِهِ .

* * *

أَمَرَ الْحَجَّاجُ مُنَادِيَهُ أَنْ يُنَادِيَ فِي الْمُقَاتِلِينَ الْمَهْزُومِينَ ، وَأَنْ يَدْعُوَهُمْ لِتَجْدِيدِ بَيْعَتِهِ[1].

فَاسْتَجَابَ أَكْثَرُهُمْ لَهُ ، وَتَوَارَىٰ بَعْضُهُمْ عَنْهُ .

وَكَانَ بَيْنَ الْمُتَوَارِينَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ .

فَلَمَّا أَخَذَ الْمُسْتَسْلِمُونَ يَتَقَدَّمُونَ تِبَاعًا لِبَيْعَتِهِ ، فُوجِئُوا بِمَا لَمْ يَكُنْ فِي حُسْبَانِهِمْ ...

فَلَقَدْ جَعَلَ يَقُولُ لِلْوَاحِدِ مِنْهُمْ : أَتَشْهَدُ عَلَىٰ نَفْسِكَ بِأَنَّكَ قَدْ كَفَرْتَ بِنَقْضِ بَيْعَتِكَ لِوَالِي أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ؟ ...

فَإِذَا قَالَ : نَعَمْ ... قَبِلَ مِنْهُ تَجْدِيدَ بَيْعَتِهِ ، وَأَطْلَقَ سَرَاحَهُ .

وَإِذَا قَالَ : لَا ... قَتَلَهُ .

فَكَانَ بَعْضُهُمْ يَخْضَعُ لَهُ وَيُقِرُّ عَلَىٰ نَفْسِهِ بِالْكُفْرِ ؛ لِيُنْقِذَ نَفْسَهُ مِنَ الْقَتْلِ .

وَكَانَ بَعْضُهُمْ يَسْتَكْبِرُ[2] ذَلِكَ وَيَسْتَنْكِرُهُ[3] ... فَيَدْفَعُ رَقَبَتَهُ ثَمَنًا لِإِبَائِهِ وَاسْتِنْكَارِهِ .

وَلَقَدْ ذَاعَتْ أَخْبَارُ تِلْكَ الْمَجْزَرَةِ[4] الرَّهِيبَةِ الَّتِي قُتِلَ فِيهَا بِضْعَةُ آلَافٍ مِنَ الرِّجَالِ ...

---

(١) بيعته : مبايعته بالولاية عليهم.
(٢) يستكبر ذلك : يجده أمرًا كبيرًا علىٰ نفسه.
(٣) يستنكره : يستغربه .
(٤) المجزرة : المذبحة .

وَنَجَا مِنْهَا بِضْعَةُ آلَافٍ بَعْدَ أَنْ دَمَغُوا[1] أَنْفُسَهُمْ بِالْكُفْرِ ...

* * *

مِنْ ذَلِكَ ... أَنَّ شَيْخًا مُعَمَّرًا[2] مِنْ قَبِيلَةِ « خَثْعَمٍ » كَانَ مُعْتَزِلًا[3] لِلْفَرِيقَيْنِ ... مُقِيمًا وَرَاءَ الْفُرَاتِ[4].

فَسِيقَ إِلَىٰ الْحَجَّاجِ مَعَ مَنْ سِيقُوا إِلَيْهِ ...

فَلَمَّا أُدْخِلَ عَلَيْهِ سَأَلَهُ عَنْ حَالِهِ ، فَقَالَ :

مَا زِلْتُ مُنْذُ شَبَّتْ هَٰذِهِ النَّارُ مُعْتَزِلًا وَرَاءَ هَٰذَا النَّهْرِ ...

مُنْتَظِرًا مَا يُسْفِرُ[5] عَنْهُ الْقِتَالُ ...

فَلَمَّا ظَهَرْتَ وَظَفِرْتَ أَتَيْتُكَ مُبَايِعًا .

فَقَالَ لَهُ : تَبًّا لَكَ[6] ... أَتَقْعُدُ مُتَرَبِّصًا[7] ...

وَلَا تُقَاتِلُ مَعَ أَمِيرِكَ ؟! .

ثُمَّ زَجَرَهُ قَائِلًا : أَتَشْهَدُ عَلَىٰ نَفْسِكَ بِأَنَّكَ كَافِرٌ ؟ .

فَقَالَ : بِئْسَ الرَّجُلُ أَنَا إِنْ كُنْتُ عَبَدْتُ اللَّهَ ثَمَانِينَ عَامًا ، ثُمَّ أَشْهَدُ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَىٰ نَفْسِي بِالْكُفْرِ .

فَقَالَ لَهُ : إِذَنْ أَقْتُلُكَ .

فَقَالَ : وَإِنْ قَتَلْتَنِي ... فَوَاللَّهِ مَا بَقِيَ مِنْ عُمُرِي إِلَّا ظِمْءُ حِمَارٍ[8] ...

فَإِنَّهُ يَشْرَبُ غُدْوَةً ، وَيَمُوتُ عَشِيَّةً ...

(1) دمغوا أنفسهم : أقروا علىٰ أنفسهم .
(2) معمّرًا : متقدمًا في السن .
(3) معتزلًا للفريقين : مبتعدًا عن الفريقين غير موالٍ لأي منهما .
(4) الفرات : نهر يجتاز سورية والعراق .
(5) يسفر : يكشف .
(6) تبًّا لك : هلاكًا لك .
(7) متربّصًا : منتظرًا .
(8) ظِمْءُ حِمَار : مُدّة صبر الحمار علىٰ العطش .

وَإِنِّي لَأَنْتَظِرُ الْمَوْتَ صَبَاحَ مَسَاءَ، فَافْعَلْ مَا بَدَا لَكَ.

فَقَالَ الْحَجَّاجُ لِجَلَّادِهِ: اِضْرِبْ عُنُقَهُ...

فَضَرَبَ الْجَلَّادُ عُنُقَهُ؛ فَلَمْ يَبْقَ أَحَدٌ فِي الْمَجْلِسِ مِنْ شِيعَةِ[1] الْحَجَّاجِ أَوْ مِنْ عَدُوِّهِ إِلَّا أَكْبَرَ الشَّيْخَ الْمُعَمَّرَ، وَرَثَىٰ لَهُ... وَتَرَحَّمَ عَلَيْهِ...

* * *

ثُمَّ إِنَّهُ دَعَا بِكَمِيلِ بْنِ زِيَادٍ النَّخَعِيِّ[2] وَقَالَ لَهُ:

أَتَشْهَدُ عَلَىٰ نَفْسِكَ بِالْكُفْرِ؟!.

فَقَالَ: وَاللَّهِ لَا أَشْهَدُ.

فَقَالَ: إِذَنْ أَقْتُلُكَ.

فَقَالَ: اِقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ[3]...

وَإِنَّ الْمَوْعِدَ فِيمَا بَيْنَنَا عِنْدَ اللَّهِ... وَبَعْدَ الْقَتْلِ الْحِسَابُ.

فَقَالَ لَهُ الْحَجَّاجُ: سَتَكُونُ الْحُجَّةُ يَوْمَئِذٍ عَلَيْكَ لَا لَكَ.

فَقَالَ لَهُ:

ذَلِكَ إِذَا كُنْتَ أَنْتَ الْقَاضِيَ يَوْمَئِذٍ.

فَقَالَ الْحَجَّاجُ: اقْتُلُوهُ...

فَقُدِّمَ وَقُتِلَ...

* * *

(١) شيعة الحجاج: أنصار الحجاج وأتباعه.

(٢) كميل بن زياد النخعي: تابعي ثقة، مطاع في قومه، شهد صفين مع علي.

(٣) اقض ما أنت قاض: افعل ما تريد.

ثُمَّ قُدِّمَ إِلَيْهِ رَجُلٌ آخَرُ كَانَ يَكْرَهُهُ وَيَشْتَهِي أَنْ يَظْفَرَ بِقَتْلِهِ ؛ لِمَا كَانَ يُنْقَلُ إِلَيْهِ مِنْ سُخْرِيَتِهِ بِهِ ... فَبَادَرَهُ قَائِلًا :

إِنِّي أَرَىٰ أَمَامِي رَجُلًا مَا أَظُنُّهُ يَشْهَدُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بِالْكُفْرِ .

فَقَالَ الرَّجُلُ : لَا تُوَرِّطْنِي[1] وَتَخْدَعْنِي عَنْ نَفْسِي ، فَأَنَا أَكْفَرُ أَهْلِ الْأَرْضِ ، وَأَكْفَرُ مِنْ فِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ .

فَخَلَّىٰ سَبِيلَهُ ... وَهُوَ يَتَحَرَّقُ ظَمَأً لِقَتْلِهِ .

* * *

ذَاعَتْ أَخْبَارُ تِلْكَ الْمَهْلَكَةِ[2] الرَّهِيبَةِ الَّتِي قُتِلَ فِيهَا بِضْعَةُ آلَافٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الرَّاسِخِينَ[3] ...

وَنَجَا مِنْهَا بِضْعَةُ آلَافٍ مِمَّنْ أُكْرِهُوا عَلَىٰ دَمْغِ[4] أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ ...

فَأَيْقَنَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ أَنَّهُ إِنْ وَقَعَ بَيْنَ يَدَيِ الْحَجَّاجِ ؛ غَدَا بَيْنَ اثْنَتَيْنِ لَا ثَالِثَةَ لَهُمَا :

فَإِمَّا أَنْ تُدَقَّ[5] عُنُقُهُ ...

وَإِمَّا أَنْ يُقِرَّ عَلَىٰ نَفْسِهِ بِالْكُفْرِ ...

وَهُمَا أَمْرَانِ أَحْلَاهُمَا مُرٌّ ... فَآثَرَ[6] أَنْ يَخْرُجَ مِنْ بِلَادِ « الْعِرَاقِ » ...

وَأَنْ يَتَوَارَىٰ عَنِ الْأَنْظَارِ .

وَظَلَّ يَضْرِبُ فِي أَرْضِ اللَّهِ الْوَاسِعَةِ مُسْتَخْفِيًا عَنِ الْحَجَّاجِ وَعُيُونِهِ[7] حَتَّىٰ لَجَأَ إِلَىٰ قَرْيَةٍ صَغِيرَةٍ فِي أَرَاضِي مَكَّةَ .

---

(١) لَا تُوَرِّطْنِي : لَا تُوقِعْنِي فِي الْهَلَاكِ .
(٢) الْمَهْلَكَة : مكان الهلاك وموضعه .
(٣) الرَّاسِخِين : الثابتين المتعمقين .
(٤) دَمْغ أنفسهم : وَسْم أنفسهم .
(٥) تدق عنقه : تقطع رقبته .
(٦) آثَرَ : فضل واختار .
(٧) عيونه : جواسيسه .

وَبَقِيَ عَلَىٰ حَالِهِ هَٰذِهِ عَشْرَ حِجَجٍ[١] كَامِلَاتٍ كَانَتْ كَافِيَةً لِأَنْ تُطْفِئَ نِيرَانَ الْحَجَّاجِ الْمُتَّقِدَةَ فِي قَلْبِهِ، وَأَنْ تُزِيلَ مَا فِي نَفْسِهِ مِنْ ضِغْنٍ[٢] عَلَيْهِ.

* * *

بَيْدَ أَنَّهُ حَدَثَ مَا لَمْ يَكُنْ يَتَوَقَّعُهُ أَحَدٌ... ذَٰلِكَ أَنَّهُ قَدِمَ عَلَىٰ مَكَّةَ وَالٍ جَدِيدٌ مِنْ وُلَاةِ بَنِي «أُمَيَّةَ»... هُوَ خَالِدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْقَسْرِيُّ.

فَتَوَجَّسَ[٣] أَصْحَابُ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ خِيفَةً مِنْهُ؛ لِمَا كَانُوا يَعْرِفُونَ مِنْ سُوءِ سِيرَتِهِ، وَتَوَقَّعُوا الشَّرَّ عَلَىٰ يَدَيْهِ.

فَجَاءَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ سَعِيدٍ وَقَالُوا لَهُ:

إِنَّ هَٰذَا الرَّجُلَ قَدِمَ مَكَّةَ، وَإِنَّا - وَاللَّهِ - لَا نَأْمَنُهُ عَلَيْكَ...

فَاسْتَجِبْ لِطَلَبِنَا؛ وَاخْرُجْ مِنْ هَٰذَا الْبَلَدِ.

فَقَالَ: وَاللَّهِ لَقَدْ فَرَرْتُ حَتَّىٰ صِرْتُ أَسْتَحِي مِنَ اللَّهِ...

وَلَقَدْ عَزَمْتُ عَلَىٰ أَنْ أَبْقَىٰ فِي مَكَانِي هَٰذَا...

وَلْيَفْعَلِ اللَّهُ بِي مَا يَشَاءُ.

* * *

لَمْ يُكَذِّبْ خَالِدٌ ظَنَّ السُّوءِ الَّذِي ظَنَّهُ النَّاسُ بِهِ، فَمَا إِنْ عَلِمَ بِمَكَانِ سَعِيدِ ابْنِ جُبَيْرٍ حَتَّىٰ أَرْسَلَ إِلَيْهِ سَرِيَّةً[٤] مِنْ جُنُودِهِ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَسُوقُوهُ مُقَيَّدًا إِلَىٰ الْحَجَّاجِ فِي مَدِينَةِ «وَاسِطَ»[٥].

فَأَطْبَقَ الْجُنْدُ عَلَىٰ بَيْتِ الشَّيْخِ...

---

(١) عشر حجج: عشر سنوات.
(٢) ضغن: حقد.
(٣) توجس خيفة: شعر بفزع وخوف.
(٤) السَّرِيَّة: القطعة من الجيش.
(٥) واسط: مدينة واقعة بين البصرة والكوفة، وقد سميت بذلك لأنها تقع في وسطهما، فتبعد عن كل منهما خمسين ميلًا.

وَأَلْقَوْا الْقَيْدَ فِي يَدَيْهِ عَلَىٰ مَرْأَى مِنْ بَعْضِ أَصْحَابِهِ ...

وَآذَنُوهُ[١] بِالرَّحِيلِ إِلَىٰ الْحَجَّاجِ ، فَتَلَقَّاهُمْ هَادِئَ النَّفْسِ مُطْمَئِنَّ الْقَلْبِ .

ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَىٰ أَصْحَابِهِ وَقَالَ :

مَا أَرَانِي إِلَّا مَقْتُولًا عَلَىٰ يَدَيْ ذَٰلِكَ الظَّالِمِ ...

وَلَقَدْ كُنْتُ أَنَا وَصَاحِبَانِ لِي فِي لَيْلَةِ عِبَادَةٍ ، فَاسْتَشْعَرْنَا حَلَاوَةَ الدُّعَاءِ فَدَعَوْنَا اللَّهَ بِمَا دَعَوْنَا ، وَتَضَرَّعْنَا[٢] إِلَيْهِ بِمَا شَاءَ أَنْ نَتَضَرَّعَ ...

ثُمَّ سَأَلْنَا اللَّهَ جَلَّ وَعَزَّ أَنْ يَكْتُبَ لَنَا الشَّهَادَةَ ، وَقَدْ رَزَقَهَا اللَّهُ لِصَاحِبَيَّ كِلَيْهِمَا ، وَبَقِيتُ أَنَا أَنْتَظِرُهَا ...

ثُمَّ إِنَّهُ مَا كَادَ يَنْتَهِي مِنْ كَلَامِهِ حَتَّىٰ طَلَعَتْ عَلَيْهِ بُنَيَّةٌ صَغِيرَةٌ لَهُ ، فَرَأَتْهُ مُقَيَّدًا وَالْجُنْدُ يَسُوقُونَهُ ، فَتَشَبَّثَتْ[٣] بِهِ ، وَجَعَلَتْ تَبْكِي وَتَنْشِجُ[٤]...

فَنَحَّاهَا عَنْهُ بِرِفْقٍ ، وَقَالَ لَهَا :

قُولِي لِأُمِّكِ يَا بُنَيَّةُ : إِنَّ مَوْعِدَنَا الْجَنَّةُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَىٰ ...

ثُمَّ مَضَىٰ ...

* * *

بَلَغَ الْجُنْدُ بِالْإِمَامِ الْحَبْرِ[٥] الْعَابِدِ الزَّاهِدِ ؛ التَّقِيِّ النَّقِيِّ الْوَرِعِ مَدِينَةَ « وَاسِطَ » ، وَأَدْخَلُوهُ عَلَىٰ الْحَجَّاجِ .

فَلَمَّا صَارَ عِنْدَهُ نَظَرَ إِلَيْهِ فِي حِقْدٍ وَقَالَ : مَا اسْمُكَ ؟ .

---

(١) آذنوه : دَعَوْه وأعلموه .
(٢) تضرَّعْنا : ابتهلنا .
(٣) تشبثت : تعلقت .
(٤) تنشِّج : تغصُّ بالبكاء .
(٥) الحبر : العالم العامل .

فَقَالَ : سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ .

فَقَالَ : بَلْ شَقِيُّ بْنُ كُسَيْرٍ[1] .

فَقَالَ : بَلْ كَانَتْ أُمِّي أَعْلَمَ بِاسْمِي مِنْكَ .

فَقَالَ : مَا تَقُولُ فِي مُحَمَّدٍ ؟ .

قَالَ : تَعْنِي مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ؟! .

فَقَالَ : نَعَمْ .

قَالَ : سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ ، النَّبِيُّ الْمُصْطَفَىٰ[2] ...

خَيْرُ مَنْ بَقِيَ مِنَ الْبَشَرِ ، وَخَيْرُ مَنْ مَضَىٰ ...

حَمَلَ الرِّسَالَةَ ، وَأَدَّىٰ الْأَمَانَةَ ...

وَنَصَحَ لِلَّهِ ، وَلِكِتَابِهِ ، وَلِعَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ ، وَخَاصَّتِهِمْ .

قَالَ : فَمَا تَقُولُ فِي أَبِي بَكْرٍ ؟ .

قَالَ : هُوَ الصِّدِّيقُ خَلِيفَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، ذَهَبَ حَمِيدًا ، وَعَاشَ سَعِيدًا ...

وَمَضَىٰ عَلَىٰ مِنْهَاجِ[3] النَّبِيِّ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ، لَمْ يُغَيِّرْ وَلَمْ يُبَدِّلْ .

قَالَ : فَمَا تَقُولُ فِي عُمَرَ ؟! .

قَالَ : هُوَ الْفَارُوقُ الَّذِي فَرَّقَ[4] اللَّهُ بِهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ...

---

(١) كسير : ضدُّ جبير .
(٢) المصطفى : المختار .
(٣) المنهاج : الخطة والطَّريقة .
(٤) فرق : ميَّز .

وَخِيرَةُ[١] اللَّهِ وَخِيرَةُ رَسُولِهِ ، وَلَقَدْ مَضَىٰ عَلَىٰ مِنْهَاجِ[٢] صَاحِبَيْهِ ...

فَعَاشَ حَمِيدًا ، وَقُتِلَ شَهِيدًا .

قَالَ : فَمَا تَقُولُ فِي عُثْمَانَ[٣]؟! .

قَالَ : هُو الْمُجَهِّزُ لِجَيْشِ الْعُسْرَةِ[٤]...

الْحَافِرُ بِئْرَ[٥] رُومَةَ ...

الْمُشْتَرِي بَيْتًا لِنَفْسِهِ فِي الْجَنَّةِ ...

صِهْرُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَىٰ ابْنَتَيْهِ .

وَلَقَدْ زَوَّجَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِوَحْيٍ مِنَ السَّمَاءِ ، وَهُو الْمَقْتُولُ ظُلْمًا .

قَالَ : فَمَا تَقُولُ فِي عَلِيٍّ ؟! .

قَالَ : ابْنُ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَأَوَّلُ مَنْ أَسْلَمَ مِنَ الْفِتْيَانِ ...

وَهُوَ زَوْجُ فَاطِمَةَ الْبَتُولِ[٦]...

وَأَبُو الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ سَيِّدَيْ شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ .

قَالَ : فَأَيُّ خُلَفَاءِ بَنِي « أُمَيَّةَ » أَعْجَبُ لَكَ ؟ .

قَالَ : أَرْضَاهُمْ لِخَالِقِهِمْ .

قَالَ : فَأَيُّهُمْ أَرْضَىٰ لِلْخَالِقِ ؟ .

---

(١) خيرة اللّه وَرَسُوله : الّذي اختار اللّه وَرَسُوله .

(٢) منهاج صاحبيه : خطة الرّسول ﷺ وأبي بكر .

(٣) عثمان بن عفان : انظره في كتاب « صور من حياة الصّحابة » للمؤلف ، النّاشر دار الأدب الإسلامي ، الطّبعة الشرعية .

(٤) جيش العسرة : جيش غزوة تبوك .

(٥) بئر رُومَة : بئر في عقيق المدينة المنورة اشتراها عُثمان بن عفّان بمائة ناقة ، وتصدق بها علىٰ المسلمين .

(٦) البتول : النّقية الطّاهرة .

قَالَ : عِلْمُ ذَلِكَ عِنْدَ الَّذِي يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ .

قَالَ : فَمَا تَقُولُ فِيَّ ؟ .

قَالَ : أَنْتَ أَعْلَمُ بِنَفْسِكَ .

قَالَ : بَلْ أُرِيدُ عِلْمَكَ أَنْتَ .

قَالَ : إِذَنْ يَسُوءُكَ[1] وَلَا يَسُرُّكَ .

قَالَ : لَا بُدَّ مِنْ أَنْ أَسْمَعَ مِنْكَ .

قَالَ : إِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّكَ مُخَالِفٌ لِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَىٰ ...
تُقْدِمُ عَلَىٰ أُمُورٍ تُرِيدُ بِهَا الْهَيْبَةَ ، وَهِيَ تُقْحِمُكَ[2] فِي الْهَلَكَةِ ...
وَتَدْفَعُكَ إِلَىٰ النَّارِ دَفْعًا .

قَالَ : أَمَا وَاللَّهِ لَأَقْتُلَنَّكَ .

قَالَ : إِذَنْ تُفْسِدَ عَلَيَّ دُنْيَايَ ، وَأُفْسِدَ عَلَيْكَ آخِرَتَكَ .

قَالَ : اخْتَرْ لِنَفْسِكَ أَيَّ قِتْلَةٍ شِئْتَ .

قَالَ : بَلِ اخْتَرْهَا أَنْتَ لِنَفْسِكَ يَا حَجَّاجُ ...
فَوَاللَّهِ مَا تَقْتُلُنِي قِتْلَةً إِلَّا قَتَلَكَ اللَّهُ مِثْلَهَا فِي الْآخِرَةِ .

قَالَ : أَفَتُرِيدُ أَنْ أَعْفُوَ عَنْكَ ؟ .

قَالَ : إِنْ كَانَ عَفْوٌ فَمِنَ اللَّهِ تَعَالَىٰ ...
أَمَّا أَنْتَ فَلَا بَرَاءَةَ[3] لَكَ وَلَا عُذْرَ .

---

(١) يسوءك : يحزنك .

(٢) تُقْحِمُكَ : تدفعك وتدخلك .

(٣) لا براءة لك : لا عفو من عندك

فَاغْتَاظَ الْحَجَّاجُ وَقَالَ : السَّيْفَ وَالنِّطْعَ[1] يَا غُلَامُ .

فَتَبَسَّمَ سَعِيدٌ ، فَقَالَ لَهُ الْحَجَّاجُ :

وَمَا تَبَسُّمُكَ ؟! .

قَالَ : عَجِبْتُ مِنْ جَرَاءَتِكَ[2] عَلَى اللَّهِ وَحِلْمِ اللَّهِ عَلَيْكَ .

فَقَالَ : اُقْتُلْهُ يَا غُلَامُ .

فَاسْتَقْبَلَ سَعِيدٌ الْقِبْلَةَ وَقَالَ :

﴿ وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ[3] السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا[4] وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾[5].

فَقَالَ : احْرِفُوا[6] وَجْهَهُ عَنِ الْقِبْلَةِ .

فَقَالَ : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا[7] فَثَمَّ[8] وَجْهُ اللَّهِ ﴾[9].

فَقَالَ : كُبُّوهُ[10] عَلَى الْأَرْضِ .

فَقَالَ : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾[11].

فَقَالَ : اذْبَحُوا عَدُوَّ اللَّهِ ، فَمَا رَأَيْتُ رَجُلًا أَدْعَى[12] مِنْهُ لِآيَاتِ الْقُرْآنِ ...

فَرَفَعَ سَعِيدٌ كَفَّيْهِ وَقَالَ :

---

(١) النِّطع : بساط من الجلد يفرش تحت المحكوم عليه بالقتل.
(٢) جَرَاءَتك : إقدامك.
(٣) فطر : خلق وأنشأ.
(٤) حنيفًا : مائلًا إلى الدِّين القيم.
(٥) سورة الأنعام : ٧٩.
(٦) احرفوا وجهه : أميلوا وجهه.
(٧) تَوَلُّوا : تتجهوا.
(٨) ثَمّ وَجه اللَّهُ : هناك قبلة اللَّه الَّتي ترضاها.
(٩) سورة البقرة : ١١٥.
(١٠) كبُّوه عَلَى الأرض : اقلبوه عَلَى الأرض.
(١١) سورة طه : ٥٥.
(١٢) أدْعَى منه : أقوى استحضارًا منه.

اللَّهُمَّ : لَا تُسَلِّطِ الْحَجَّاجَ عَلَىٰ أَحَدٍ بَعْدِي .

* * *

لَمْ يَمْضِ عَلَىٰ مَصْرَعِ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ غَيْرُ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا حَتَّىٰ حُمَّ[١] الْحَجَّاجُ ، وَاشْتَدَّتْ عَلَيْهِ وَطْأَةُ الْمَرَضِ .

فَكَانَ يَغْفُو[٢] سَاعَةً وَيُفِيقُ أُخْرَىٰ ...

فَإِذَا غَفَا غَفْوَةً صَغِيرَةً ؛ اسْتَيْقَظَ مَذْعُورًا[٣] وَهُوَ يَصِيحُ :

هَٰذَا سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ آخِذٌ بِخِنَاقِي[٤] ...

هَٰذَا سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ يَقُولُ : فِيمَ قَتَلْتَنِي ؟! .

ثُمَّ يَبْكِي وَيَقُولُ :

مَا لِي وَلِسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ ؟!! رُدُّوا عَنِّي سَعِيدَ بْنَ جُبَيْرٍ ...

فَلَمَّا قَضَىٰ نَحْبَهُ[٥] وَوُورِيَ تُرَابَهُ ، رَآهُ بَعْضُهُمْ فِي الْحُلْمِ فَقَالَ لَهُ :

مَا فَعَلَ اللَّهُ بِكَ فِي مَنْ قَتَلْتَهُمْ يَا حَجَّاجُ ؟ .

فَقَالَ : قَتَلَنِي اللَّهُ بِكُلِّ امْرِئٍ قَتْلَةً وَاحِدَةً ...

وَقَتَلَنِي بِسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ سَبْعِينَ قَتْلَةً (*) .

---

(١) حُمَّ : أصابته الحمىٰ .
(٢) يغفو : يرقد رقدة خفيفة .
(٣) مذعورًا : فزعًا خائفًا .
(٤) بخناقي : بعنقي .
(٥) قضىٰ نحبه : هلك ومات .

(*) للاستزادة من أخبار سعيد بن جُبَيْر انظر :
١ – الطبقات الكبرىٰ لابن سعد : ٦/ ٢٥٦.
٢ – الزهد للإمام أحمد بن حنبل : ٣٧٠.
٣ – طبقات الفقهاء للشيرازي : ٨٢.
٤ – البداية والنهاية : ٩/٩٦ ـ ٩٨.
٥ – تاريخ البخاري : ٣/ ٤٦١.
٦ – وفيات الأعيان : ٢/ ٣٧١.
٧ – تاريخ الإسلام : ٤/ ٢.
٨ – تذكرة الحفاظ : ١/ ٧١.
٩ – العبر : ١/ ١١٢.
١٠– أخبار القضاة : ٢/ ٤١١.
١١– العقد الثمين : ٤/ ٥٤٩.
١٢– النجوم الزاهرة : ١/ ٢٢٨.
١٣– طبقات المفسرين : ١/ ١٨١.
١٤– شذرات الذهب : ١/ ١٠٨.

مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعٍ الأَزْدِيُّ

شَيْخُ الزَّاهِدِينَ فِي عَصْرِهِ

« لِلْأُمَرَاءِ قُرَّاءٌ وَلِلْأَغْنِيَاءِ قُرَّاءٌ ، وَإِنَّ مُحَمَّدَ بْنَ وَاسِعٍ لَمِنْ قُرَّاءِ الرَّحْمَٰنِ »

[مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ]

نَحْنُ الْآنَ فِي خِلَافَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ...

وَهَٰذَا يَزِيدُ بْنُ الْمُهَلَّبِ بْنِ أَبِي صُفْرَةَ ، أَحَدُ سُيُوفِ الْإِسْلَامِ الْمَسْلُولَةِ ... وَوَالِي « خُرَاسَانَ » الْعَتِيدُ[١] ...

يَنْهَدُ[٢] بِجَيْشِهِ الْبَالِغِ مِائَةَ أَلْفِ مُقَاتِلٍ ، عَدَا الْمُتَطَوِّعِينَ مِنْ طُلَّابِ الشَّهَادَةِ ، وَرُغَّابِ الْمَثُوبَةِ ...

وَقَدْ عَقَدَ الْعَزْمَ عَلَىٰ فَتْحِ « جُرْجَانَ » ، « وَطَبَرِسْتَانَ »[٣] ... وَكَانَ فِي طَلِيعَةِ الْمُتَطَوِّعِينَ مَعَهُ التَّابِعِيُّ الْجَلِيلُ مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعٍ الْأَزْدِيُّ الْبَصْرِيُّ ...

الْمُلَقَّبُ بِزَيْنِ الْفُقَهَاءِ ...

الْمَعْرُوفُ بِعَابِدِ « الْبَصْرَةِ » ...

وَتِلْمِيذُ الصَّحَابِيِّ الْجَلِيلِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ الْأَنْصَارِيِّ[٤]، خَادِمِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

* * *

(١) الْعتيد : الْقوي المستعد .

(٢) يَنْهد : يسرع إِلَىٰ الْعدو ، ويبرز له .

(٣) جُرجَان وطبرسْتان : فتحهما يزيد بن الْمُهَلَّب ، وهما منطقتان من مناطق بلاد فارس .

(٤) أنس بن مالك الأنصاري : انظره في كتاب « صور من حياة الصحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة الشرعية .

نَزَلَ يَزِيدُ بْنُ الْمُهَلَّبِ بِجَيْشِهِ عَلَىٰ « دِهِسْتَانَ » .

وَكَانَ يَقْطُنُهَا قَوْمٌ مِنَ « التُّرْكِ » ، شَدِيدٌ بَأْسُهُمْ ...

قَوِيٌّ مِرَاسُهُمْ[1] ...

مَنِيعَةٌ حُصُونُهُمْ[2] ...

فَكَانُوا يَخْرُجُونَ لِقِتَالِ الْمُسْلِمِينَ كُلَّ يَوْمٍ ... فَإِذَا نَالَ مِنْهُمُ الْجُهْدُ أَوِ اشْتَدَّ عَلَيْهِمُ الْبَأْسُ ، انْحَازُوا[3] إِلَىٰ مَعَاقِلِهِمْ[4] فِي شِعَابِ[5] الْجِبَالِ ...

وَتَحَصَّنُوا بِحُصُونِهَا الْمَنِيعَةِ ، وَلَاذُوا بِذُرَاهَا[6] الرَّفِيعَةِ ...

* * *

وَقَدْ كَانَ لِمُحَمَّدِ بْنِ وَاسِعٍ الْأَزْدِيِّ مَقَامٌ كَبِيرٌ فِي هَٰذِهِ الْحَرْبِ ؛ عَلَىٰ الرَّغْمِ مِنْ ضَعْفِ بِنْيَتِهِ ، وَتَقَدُّمِ سِنِّهِ ... فَلَقَدْ كَانَ جُنْدُ الْمُسْلِمِينَ يَسْتَرْوِحُونَ[7] بِنُورِ الْإِيمَانِ الَّذِي يَتَهَلَّلُ مِنْ وَجْهِهِ السَّمْحِ ...

وَيَنْشَطُونَ لِحَرَارَةِ الذِّكْرِ الَّتِي تَشِعُّ مِنْ لِسَانِهِ الْعَذْبِ ...

وَيَطْمَئِنُّونَ إِلَىٰ دَعَوَاتِهِ الْمُسْتَجَابَةِ فِي لَحَظَاتِ الشِّدَّةِ وَالْكَرْبِ ...

وَكَانَ مِنْ شَأْنِهِ[8] إِذَا أَنْشَبَ قَائِدُ الْجَيْشِ الْقِتَالَ ، أَنْ يُنَادِيَ :

يَا خَيْلَ اللَّهِ ارْكَبِي ...

يَا خَيْلَ اللَّهِ ارْكَبِي ...

فَلَا يَكَادُ جُنْدُ الْمُسْلِمِينَ يَسْمَعُونَ نِدَاءَهُ ، حَتَّىٰ يَهُبُّوا إِلَىٰ قِتَالِ عَدُوِّهِمْ

---

(١) مراسهم : بأسهم وقوتهم .
(٢) الحصون : الأماكن المنيعة المحمية .
(٣) انحازوا : لجأوا .
(٤) معاقلهم : جبالهم المرتفعة .
(٥) شعاب الجبال : المنفرجات بين الجبال .
(٦) ذراها : مرتفعاتها .
(٧) يستروحون : يجدون الراحة ويطلبونها .
(٨) من شأنه : من خطته وطريقته .

كَمَا تَهُبُّ الأُسُودُ الْمُسْتَنْفَرَةُ[1]... وَيُقْبِلُوا عَلَىٰ سَاحَةِ الْوَغَىٰ إِقْبَالَ الظِّمَاءِ عَلَىٰ الْمَاءِ الْبَرُودِ[2] فِي الْيَوْمِ الْقَائِظِ...

* * *

وَفِي ذَاتِ مَعْرَكَةٍ مِنْ تِلْكَ الْمَعَارِكِ الطَّاحِنَةِ الضَّرُوسِ[3]، بَرَزَ مِنْ صُفُوفِ الأَعْدَاءِ فَارِسٌ لَمْ تَقَعِ الْعَيْنُ عَلَىٰ أَجْسَمَ مِنْهُ جَسَامَةً[4]...

وَلَا أَشَدَّ مِنْهُ قُوَّةً...

وَلَا أَوْفَىٰ جُرْأَةً...

وَلَا أَمْضَىٰ[5] عَزْمًا...

وَطَفِقَ يَصُولُ[6] بَيْنَ الصُّفُوفِ وَيَجُولُ، حَتَّىٰ نَحَّىٰ الْمُسْلِمِينَ عَنْ مَوَاقِعِهِمْ... وَبَعَثَ الْخَشْيَةَ وَالْهَيْبَةَ فِي قُلُوبِهِمْ...

ثُمَّ جَعَلَ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ الْمُبَارَزَةِ مُتَحَدِّيًا مُسْتَكْبِرًا، وَيُلِحُّ[7] فِي الدُّعَاءِ.

فَمَا كَانَ مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ وَاسِعٍ إِلَّا أَنْ هَمَّ بِأَنْ يَبْرُزَ لَهُ.

عِنْدَ ذَلِكَ دَبَّتِ الْحَمِيَّةُ[8] فِي نُفُوسِ فُرْسَانِ الْمُسْلِمِينَ...

وَأَقْبَلَ عَلَىٰ الشَّيْخِ وَاحِدٌ مِنْهُمْ، وَأَقْسَمَ عَلَيْهِ بِأَلَّا يَفْعَلَ، وَسَأَلَهُ بِأَنْ يَتْرُكَ لَهُ ذَلِكَ...

فَأَبَرَّ[9] الشَّيْخُ قَسَمَهُ، وَدَعَا لَهُ بِالنَّصْرِ وَالتَّأْيِيدِ...

* * *

(١) المستنفرة: الهائجة المستثارة.
(٢) البرود: البارد الصافي.
(٣) الضروس: الشديدة المهلكة.
(٤) أجسم جسامة: أضخم ضخامة وأشدّ عظمة.
(٥) أمضىٰ: أقوىٰ.
(٦) طفق يصول: أخذ يجول في ساحة الحرب.
(٧) يُلِحُّ: يُلْحِفُ ويُكَرِّرُ.
(٨) الحمية: الأنفة والإباء.
(٩) أبر قسمه: أمضىٰ يمينه ونفذها.

أَقْبَلَ كُلٌّ مِنَ الْفَارِسَيْنِ عَلَىٰ عَدُوِّهِ إِقْبَالَ الْمَنُونِ ...

وَتَصَاوَلَا مُصَاوَلَةَ أَسَدَيْنِ خَادِرَيْنِ[1] ...

فَتَعَلَّقَتْ بِهِمَا عُيُونُ الْجُنْدِ وَقُلُوبُهُمْ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ.

وَاسْتَمَرَّا سَاعَةً يَتَصَاوَلَانِ وَيَتَجَاوَلَانِ، حَتَّىٰ أَخَذَ الْجُهْدُ مِنْهُمَا كُلَّ مَأْخَذٍ.

ثُمَّ اخْتَلَفَا ضَرْبَتَيْنِ بِسَيْفَيْهِمَا عَلَىٰ رَأْسَيْهِمَا فِي لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ ...

فَنَبَتَ سَيْفُ «التُّرْكِيِّ» فِي حَدِيدِ بَيْضَةِ[2] الْفَارِسِ الْمُسْلِمِ ...

وَنَزَلَ سَيْفُ الْمُسْلِمِ عَلَىٰ جَبِينِ الْفَارِسِ «التُّرْكِيِّ»، فَشَطَرَ رَأْسَهُ شَطْرَيْنِ ...

وَفَلَقَ هَامَتَهُ[3] فِلْقَتَيْنِ ...

ثُمَّ عَادَ الْفَارِسُ الْمُنْتَصِرُ إِلَىٰ صُفُوفِ الْمُسْلِمِينَ؛ فِي مَنْظَرٍ لَمْ تَشْهَدِ الْعَيْنُ مِثْلَهُ قَطُّ.

فَسَيْفٌ فِي يَدِهِ يَقْطُرُ دَمًا ...

وَسَيْفٌ مُثَبَّتٌ فِي خُوذَتِهِ[4] يَلْتَمِعُ تَحْتَ أَشِعَّةِ الشَّمْسِ.

فَاسْتَقْبَلَهُ الْمُسْلِمُونَ بِالتَّهْلِيلِ، وَالتَّكْبِيرِ، وَالتَّحْمِيدِ.

وَنَظَرَ يَزِيدُ بْنُ الْمُهَلَّبِ إِلَىٰ ائْتِلَاقِ[5] السَّيْفَيْنِ، وَالْبَيْضَةِ، وَالسِّلَاحِ عَلَىٰ الرَّجُلِ ... فَقَالَ: لِلَّهِ أَبُوهُ مِنْ فَارِسٍ !! ...

أَيُّ رَجُلٍ هَٰذَا ؟!.

---

(١) خادرين: شديدين، قويين.

(٢) البيضة: الخوذة المصنوعة من الحديد.

(٣) هامته: هامة الإنسان رأسه.

(٤) الخوذة: ما يضعه المحارب علىٰ رأسه ليقيه ضربات السيوف.

(٥) الائتلاق: اللمعان

فَقِيلَ لَهُ : إِنَّهُ رَجُلٌ بَارَكَتْهُ دَعَوَاتُ مُحَمَّدِ بْنِ وَاسِعٍ الأَزْدِيِّ ...

* * *

انْقَلَبَ مِيزَانُ الْقُوَىٰ بَعْدَ مَصْرَعِ الْفَارِسِ « التُّرْكِيِّ » ... فَسَرَىٰ الْجَزَعُ وَالْهَلَعُ[1] فِي نُفُوسِ الْمُشْرِكِينَ سَرَيَانَ النَّارِ فِي الْهَشِيمِ[2]...

وَاضْطَرَمَتْ نِيرَانُ النَّخْوَةِ وَالْعِزَّةِ فِي صُدُورِ الْمُسْلِمِينَ.

فَأَقْبَلُوا عَلَىٰ أَعْدَاءِ اللَّهِ إِقْبَالَ السَّيْلِ ...

وَأَحَاطُوا بِهِمْ إِحَاطَةَ الْغُلِّ[3] بِالْعُنُقِ ...

وَقَطَعُوا عَنْهُمُ الْمَاءَ وَالْمِيرَةَ[4].

فَلَمْ يَجِدْ مَلِكُهُمْ بُدًّا مِنَ الْمُصَالَحَةِ ...

فَبَعَثَ إِلَىٰ يَزِيدَ يَعْرِضُ عَلَيْهِ الصُّلْحَ ، وَيُعْلِنُ اسْتِعْدَادَهُ لِتَسْلِيمِهِ مَا فِي يَدِهِ مِنَ الْبِلَادِ بِكُلِّ مَا فِيهَا وَمَنْ فِيهَا ، عَلَىٰ أَنْ يُؤَمِّنَهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ، وَمَالِهِ ، وَأَهْلِ بَيْتِهِ .

فَقَبِلَ يَزِيدُ مُصَالَحَتَهُ ، وَاشْتَرَطَ عَلَيْهِ أَنْ يُقَدِّمَ لَهُ سَبْعَمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ مُقَسَّطَةً[5]...

وَأَنْ يَنْقُدَهُ أَرْبَعَمِائَةِ أَلْفٍ مُعَجَّلَةً ...

وَأَنْ يُقَدِّمَ لَهُ أَرْبَعَمِائَةِ دَابَّةٍ مُحَمَّلَةٍ زَعْفَرَانًا[6]...

وَأَنْ يَسُوقَ لَهُ أَرْبَعَمِائَةِ رَجُلٍ ؛ فِي يَدِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ جَامٌ[7] مِنَ الْفِضَّةِ ...

---

(١) الهلع : الخوف .
(٢) الهشيم : الكلأ اليابس .
(٣) الغُلّ : طوق من جلد أو حديد يجعل في اليد أو العنق .
(٤) الميرة : الطعام الذي يدخره الإنسان .
(٥) مقسطة : مجزأة أجزاء محددة تُدفع في أوقاتٍ معلومة .
(٦) الزعفران : نبات يستخدم لتطييب الطعام وتلوينه .
(٧) الجام : الكأس .

وَعَلَىٰ رَأْسِهِ بُرْنُسٌ مِنَ الْخَزِّ[1]...

وَعَلَىٰ الْبُرْنُسِ طَيْلَسَانٌ مِنَ الْقَطِيفَةِ[2]، وَسَرَقَةٌ[3] مِنَ الْحَرِيرِ لِتَلْبَسَهَا نِسَاءُ الْجُنْدِ...

* * *

وَلَمَّا وَضَعَتِ الْمَعَارِكُ أَوْزَارَهَا[4] قَالَ يَزِيدُ بْنُ الْمُهَلَّبِ لِخَازِنِهِ[5]:

أَحْصِ لَنَا الْغَنَائِمَ حَتَّىٰ نُعْطِيَ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ...

فَحَاوَلَ الْخَازِنُ وَمَنْ مَعَهُ أَنْ يُحْصُوهَا؛ فَعَجِزُوا عَنْ ذَٰلِكَ...

فَقُسِمَتِ الْغَنَائِمُ بَيْنَ الْجُنْدِ قِسْمَةً قَائِمَةً عَلَىٰ التَّسَامُحِ...

* * *

وَقَدْ وَجَدَ الْمُسْلِمُونَ فِي هَٰذِهِ الْغَنَائِمِ تَاجًا مَصُوغًا مِنْ خَالِصِ الذَّهَبِ...

مُحَلًّى بِالدُّرِّ وَالْجَوْهَرِ...

مُزَخْرَفًا بِرَوَائِعِ النُّقُوشِ.

فَتَطَاوَلَتْ[6] نَحْوَهُ الرِّقَابُ...

وَتَسَمَّرَتْ[7] عَلَىٰ لَأْلَائِهِ الْعُيُونُ.

فَأَخَذَهُ يَزِيدُ بِيَدِهِ، وَرَفَعَهُ حَتَّىٰ يَرَاهُ مَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ رُؤْيَتَهُ مِنَ الْجُنْدِ، ثُمَّ قَالَ:

أَتَرَوْنَ أَنَّ أَحَدًا يَزْهَدُ[8] فِي هَٰذَا التَّاجِ ؟!.

فَقَالُوا: أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ...

---

(١) الْبُرْنُس: ثوب يكون غطاء الرأس جزءًا منه، والخز: الحرير.
(٢) الْقطيفة: دِثارٌ مخمل يلقيه الرجل علىٰ نفسه.
(٣) سرقة من الحرير: شقة من حرير تلبسها النساء.
(٤) أوزارها: أثقالَها.
(٥) الخازن: الَّذي يتولَّىٰ حفظ المال وإنفاقه.
(٦) تطاولت: امتدت.
(٧) تسمرت: تعلقت.
(٨) يزهد: يتخلىٰ ويستهين.

وَمَنْ ذَا الَّذِي يَزْهَدُ بِهِ ؟! .

فَقَالَ :

سَتَرَوْنَ أَنَّهُ مَا زَالَ فِي أُمَّةِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَنْ يَزْهَدُ بِهِ ...

وَبِمِلْءِ الْأَرْضِ مِنْ مِثْلِهِ .

ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَىٰ حَاجِبِهِ وَقَالَ :

الْتَمِسْ[1] لَنَا مُحَمَّدَ بْنَ وَاسِعٍ الْأَزْدِيَّ .

فَانْطَلَقَ الْحَاجِبُ يَبْحَثُ عَنْهُ فِي كُلِّ جِهَةٍ ...

فَأَلْفَاهُ قَدِ انْتَحَىٰ مَكَانًا قَصِيًّا[2] عَنِ النَّاسِ ، وَانْتَصَبَ قَائِمًا يَتَنَفَّلُ[3] وَيَدْعُو ، وَيَبْتَهِلُ وَيَسْتَغْفِرُ ...

فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ وَقَالَ :

إِنَّ الْأَمِيرَ يَدْعُوكَ لِلِقَائِهِ ، وَيَسْأَلُكَ أَنْ تَمْضِيَ إِلَيْهِ السَّاعَةَ ...

فَمَضَىٰ مَعَ الْحَاجِبِ ، حَتَّىٰ إِذَا صَارَ عِنْدَ الْأَمِيرِ حَيَّا وَجَلَسَ قَرِيبًا مِنْهُ ، فَرَدَّ الْأَمِيرُ التَّحِيَّةَ بِأَحْسَنَ مِنْهَا ...

ثُمَّ رَفَعَ التَّاجَ بِيَدِهِ وَقَالَ :

يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ، إِنَّ جُنْدَ الْمُسْلِمِينَ قَدْ ظَفِرُوا بِهَٰذَا التَّاجِ الثَّمِينِ ...

وَقَدْ رَأَيْتُ أَنْ أُوثِرَكَ[4] بِهِ ، وَأَنْ أَجْعَلَهُ مِنْ نَصِيبِكَ ؛ فَطَابَتْ نُفُوسُ الْجُنْدِ بِذَٰلِكَ ...

---

(١) التمس فلانًا : ابحث عن فلان واطلبه .
(٢) قصيًّا : بعيدًا .
(٣) يتنفَّل : يصلِّي النوافل ، والنوافل : ما لم يفرض علىٰ المسلم .
(٤) أوثرك به : أكرمك به .

فَقَالَ: تَجْعَلُهُ مِنْ نَصِيبِي أَنَا أَيُّهَا الْأَمِيرُ؟!.

فَقَالَ: نَعَمْ مِنْ نَصِيبِكَ أَنْتَ.

فَقَالَ: لَا حَاجَةَ لِي بِهِ أَيُّهَا الْأَمِيرُ...

وَجُزِيتَ وَإِيَّاهُمْ عَنِّي خَيْرًا.

فَقَالَ: أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ بِاللَّهِ لَتَأْخُذَنَّهُ.

فَلَمَّا وَقَعَ قَسَمُ الْأَمِيرِ أَخَذَ مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعٍ التَّاجَ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَهُ وَانْصَرَفَ.

فَقَالَ بَعْضُ الَّذِينَ لَا يَعْرِفُونَ الشَّيْخَ:

هَا هُوَ ذَا قَدِ اسْتَأْثَرَ[1] بِالتَّاجِ، وَمَضَىٰ بِهِ.

فَأَمَرَ يَزِيدُ غُلَامًا مِنْ غِلْمَانِهِ أَنْ يَتْبَعَهُ مُسْتَخْفِيًا[2] عَنْهُ...

وَأَنْ يَنْظُرَ مَاذَا يَصْنَعُ بِالتَّاجِ...

وَأَنْ يَأْتِيَهُ بِخَبَرِهِ...

فَتَبِعَهُ الْغُلَامُ، وَهُوَ لَا يَدْرِي بِهِ.

* * *

مَضَىٰ مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعٍ فِي طَرِيقِهِ، وَالتَّاجُ فِي يَدِهِ...

فَعَرَضَ لَهُ رَجُلٌ أَشْعَثُ أَغْبَرُ[3] زَرِيُّ الْهَيْئَةِ فَسَأَلَهُ قَائِلًا:

مِنْ مَالِ اللَّهِ...

فَنَظَرَ الشَّيْخُ عَنْ يَمِينِهِ، وَعَنْ شِمَالِهِ، وَمِنْ خَلْفِهِ...

فَلَمَّا اسْتَيْقَنَ أَنَّ أَحَدًا لَا يَرَاهُ، دَفَعَ بِالتَّاجِ إِلَىٰ السَّائِلِ...

---

(١) استأثر بالتاج: آثر به نفسه، واختص به.

(٢) مستخفيًا: مستترًا عنه.

(٣) أشعث أغبر: مُتَلَبِّدُ الشعر مُغبرُّه.

ثُمَّ انْطَلَقَ فَرِحًا جَذِلًا[١]...

كَأَنَّمَا أَلْقَىٰ عَنْ كَاهِلِهِ عِبْئًا كَانَ يُثْقِلُ ظَهْرَهُ...

فَأَمْسَكَ الْغُلَامُ بِيَدِ السَّائِلِ، وَأَتَىٰ بِهِ الْأَمِيرَ، وَقَصَّ عَلَيْهِ خَبَرَهُ...

فَأَخَذَ الْأَمِيرُ التَّاجَ مِنَ السَّائِلِ، وَعَوَّضَ عَلَيْهِ بِمَالٍ وَفِيرٍ حَتَّىٰ أَرْضَاهُ.

ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَىٰ الْجُنْدِ وَقَالَ:

أَمَا قُلْتُ لَكُمْ: إِنَّهُ مَا زَالَ فِي أُمَّةِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَنْ يَزْهَدُ بِهَٰذَا التَّاجِ، وَأَمْثَالِ أَمْثَالِهِ.

* * *

ظَلَّ مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعٍ الْأَزْدِيُّ يُجَاهِدُ الْمُشْرِكِينَ تَحْتَ رَايَةِ يَزِيدَ بْنِ الْمُهَلَّبِ حَتَّىٰ اقْتَرَبَ مَوْعِدُ الْحَجِّ.

فَلَمَّا لَمْ يَبْقَ أَمَامَهُ غَيْرُ وَقْتٍ قَصِيرٍ؛ دَخَلَ عَلَىٰ يَزِيدَ، وَاسْتَأْذَنَهُ فِي الِانْصِرَافِ إِلَىٰ الْقِيَامِ بِالنُّسُكِ[٢].

فَقَالَ لَهُ يَزِيدُ:

إِذْنُكَ بِيَدِكَ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، فَامْضِ مَتَىٰ شِئْتَ...

وَقَدْ أَمَرْنَا لَكَ بِمَبْلَغٍ مِنَ الْمَالِ يُعِينُكَ عَلَىٰ حَجِّكَ.

فَقَالَ لَهُ:

وَهَلْ سَتَأْمُرُ بِمِثْلِ هَٰذَا الْمَالِ لِكُلِّ جُنْدِيٍّ مِنْ جُنُودِكَ أَيُّهَا الْأَمِيرُ؟!.

فَقَالَ: لَا...

فَقَالَ: لَا حَاجَةَ لِي بِشَيْءٍ أُخَصُّ بِهِ[٣] مِنْ دُونِ جُنْدِ الْمُسْلِمِينَ.

---

(١) جذلًا: فرحًا.

(٢) النُّسك: الحج تطوعًا وذلك بعد أداء الفريضة.	(٣) أُخصُّ به: أُميَّز به علىٰ الآخرين.

ثُمَّ وَدَّعَهُ وَانْصَرَفَ ...

* * *

شَقَّ[1] سَفَرُ مُحَمَّدِ بْنِ وَاسِعٍ الأَزْدِيِّ عَلَىٰ يَزِيدَ بْنِ الْمُهَلَّبِ كَمَا شَقَّ عَلَىٰ جُنْدِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ حَظُوا بِصُحْبَتِهِ[2].

وَأَسِفُوا لِحِرْمَانِ جَيْشِهِمُ الظَّافِرِ مِنْ بَرَكَاتِهِ، وَتَمَنَّوْا عَلَيْهِ أَنْ يَعُودَ إِلَيْهِمْ حِينَ يَفْرُغُ مِنْ قَضَاءِ نُسُكِهِ.

وَلَا غَرْوَ[3] فَقَدْ كَانَ قُوَّادُ الْمُسْلِمِينَ الْمُنْتَشِرُونَ فِي أَرْجَاءِ الْمَعْمُورَةِ يَحْرِصُونَ أَشَدَّ الْحِرْصِ عَلَىٰ أَنْ يَكُونَ عَابِدُ «الْبَصْرَةِ» مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعٍ الأَزْدِيُّ فِي عِدَادِ جَيْشِهِمْ ...

وَكَانُوا يَسْتَبْشِرُونَ بِوُجُودِهِ مَعَهُمْ خَيْرًا كَثِيرًا ...

وَيَرْجُونَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَهَبَهُمُ النَّصْرَ الْمُؤَزَّرَ بِصَالِحِ دَعَوَاتِهِ ...

وَجَزِيلِ[4] بَرَكَاتِهِ ...

* * *

وَبَعْدُ؛ فَمَا أَكْرَمَ هَٰذِهِ النُّفُوسَ الَّتِي كَانَتْ صَغِيرَةً فِي عُيُونِ أَنْفُسِهَا ... كَبِيرَةً عِنْدَ اللَّهِ وَالنَّاسِ.

وَمَا أَجَلَّ هَٰذَا التَّارِيخَ الَّذِي ظَفِرَ بِهَؤُلَاءِ الأَفْذَاذِ[5] مِنْ رَوَائِعِ الرِّجَالِ.

وَإِلَىٰ لِقَاءٍ آخَرَ مَعَ عَابِدِ «الْبَصْرَةِ» مُحَمَّدِ بْنِ وَاسِعٍ الأَزْدِيِّ.

(١) شق: صَعُب.
(٢) بصُحبته: بمرافقته.
(٣) لا غرو: لا عجب.
(٤) جزيل بركاته: وافر تقاه وصلاحه.
(٥) الأفذاذ: النادرون الَّذين لا نظير لهم.

مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعٍ الأَزْدِيُّ

عَابِدُ البَصْرَةِ وَزَيْنُ الفُقَهَاءِ

«إِنَّ إِصْبَعَ مُحَمَّدِ بْنِ وَاسِعٍ الْأَزْدِيِّ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَلْفِ سَيْفٍ شَهِيرٍ ... يَحْمِلُهَا أَلْفُ شَابٍّ طَرِيرٍ ...»

[قُتَيْبَةُ بْنُ مُسْلِمٍ]

نَحْنُ الْآنَ فِي سَنَةِ سَبْعٍ وَثَمَانِينَ لِلْهِجْرَةِ ...

وَهَٰذَا مَفْخَرَةُ الْمُسْلِمِينَ الْقَائِدُ الْفَاتِحُ قُتَيْبَةُ بْنُ مُسْلِمٍ الْبَاهِلِيُّ ، يَنْهَدُ[١] بِجَيْشِهِ اللَّجِبِ[٢] مِنْ مَدِينَةِ « مَرْوَ »[٣] مُتَوَجِّهًا إِلَىٰ مِنْطَقَةِ « بُخَارَىٰ »[٤].

فَقَدْ عَقَدَ الْعَزْمَ عَلَىٰ أَنْ يَفْتَحَ مَا تَبَقَّىٰ مِنْ بِلَادِ مَا وَرَاءَ النَّهْرِ[٥]...

وَأَنْ يَغْزُوَ أَطْرَافَ « الصِّينِ »...

وَأَنْ يَضْرِبَ عَلَىٰ أَهْلِهَا الْجِزْيَةَ[٦].

لَكِنَّ قُتَيْبَةَ بْنَ مُسْلِمٍ مَا كَادَ يَعْبُرُ نَهْرَ « سَيْحُونَ »[٧] حَتَّىٰ نَذِرَ[٨] بِهِ أَهْلُ « بُخَارَىٰ » ، فَهَبُّوا يَدُقُّونَ طُبُولَ الْحَرْبِ فِي كُلِّ مَكَانٍ .

وَطَفِقُوا يَسْتَصْرِخُونَ الْأَقْوَامَ الَّذِينَ حَوْلَهُمْ مِنَ « الصُّغْدِ »[٩]...

(١) ينهد : يخرج .
(٢) اللّجب : الجرار ذو الجَلَبة .
(٣) مَرْو : هي « مَرْو الرّوذ » إحدىٰ حواضر الفرس ، مات فيها المهلب بن أبي صفرة .
(٤) بخارىٰ : مدينة في أوزبكستان علىٰ ملتقىٰ الطرق بين فارس وروسيا والهند والصين .
(٥) ما وراء النّهر : ما وراء نهر « جيحون » في خراسان .
(٦) الجزية : ما يؤخذ من أهل الذّمّة .
(٧) نهر سيحون : نهر شهير كبير واقع بعد سمرقند .
(٨) نذر به : علم به واستعد له .
(٩) الصُّغد : أمة دخلت في طاعة الفرس .

وَ« التُّرْكِ » ... وَ« الصِّينِ » ... وَغَيْرِهِمْ ، وَغَيْرِهِمْ ...

فَتَدَفَّقَتْ عَلَيْهِمْ جُمُوعُ الْمُقَاتِلِينَ مِنْ كُلِّ لَوْنٍ وَعِرْقٍ ، وَلُغَةٍ وَدِينٍ ... حَتَّىٰ بَلَغُوا أَضْعَافَ أَضْعَافِ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ عُدَّةً وَعَدَدًا .

ثُمَّ إِنَّهُمْ بَادَرُوا فَسَدُّوا فِي وُجُوهِ الْمُسْلِمِينَ أَفْوَاهَ الطُّرُقِ ...

وَأَغْلَقُوا دُونَهُمُ الثُّغُورَ وَالْمَسَالِكَ ...

حَتَّىٰ إِنَّ قُتَيْبَةَ بْنَ مُسْلِمٍ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُسَرِّبَ[1] إِلَيْهِمْ سَرِيَّةً صَغِيرَةً مِنْ سَرَايَاهُ لِتَتَحَسَّسَ أَحْوَالَهُمْ ، وَتَأْتِيَهُ بِأَخْبَارِهِمْ ...

كَمَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ مِنْ عُيُونِهِ الْمُنْبَثِّينَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَنْفُذَ إِلَيْهِ .

* * *

عَسْكَرَ قُتَيْبَةُ بْنُ مُسْلِمٍ بِجَيْشِهِ بِالْقُرْبِ مِنْ مَدِينَةِ « بِيكَنْدَ »[2]، وَتَسَمَّرَ فِي مَكَانِهِ لَا يَتَقَدَّمُ وَلَا يَتَأَخَّرُ ... فَأَخَذَ الْعَدُوُّ يَبْرُزُ لَهُ مَعَ إِشْرَاقَةِ كُلِّ صَبَاحٍ بِطَلِيعَةٍ مِنْ طَلَائِعِهِ ، فَتُنَاوِشُ جَيْشَهُ سَحَابَةَ النَّهَارِ كُلِّهِ ...

فَإِذَا جَنَّ[3] عَلَيْهَا اللَّيْلُ عَادَتْ إِلَىٰ قَوَاعِدِهَا الْحَصِينَةِ الْأَمِينَةِ .

وَقَدِ اسْتَمَرَّ الْأَمْرُ عَلَىٰ هَٰذِهِ الْحَالِ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ ...

وَقُتَيْبَةُ فِي حَيْرَةٍ مِنْ أَمْرِهِ .

فَهُوَ لَا يَدْرِي أَيُحْجِمُ[4] أَمْ يُقْدِمُ ؟ .

ثُمَّ مَا لَبِثَتْ أَنْ بَلَغَتْ أَخْبَارُ قُتَيْبَةَ وَجُنْدِهِ أَسْمَاعَ الْمُسْلِمِينَ فِي كُلِّ مَكَانٍ .

فَجَزِعَ النَّاسُ أَشَدَّ الْجَزَعِ عَلَىٰ الْجَيْشِ الْكَبِيرِ الَّذِي لَمْ يُقْهَرْ ...

وَالْقَائِدِ الْعَظِيمِ الَّذِي لَمْ يُغْلَبْ .

---

(١) يُسَرِّب : يُدخل خفية .
(٢) بيكند : إحدىٰ مدن ما وراء النهر .
(٣) جَن الليل : أظلم .
(٤) أحجم عن الأمر : رجع عنه وتأخر عن فعله .

وَصَدَرَتِ التَّوْجِيهَاتُ إِلَىٰ الْوُلَاةِ فِي الْأَمْصَارِ بِأَنْ يُدْعَىٰ لِجُنْدِ الْمُسْلِمِينَ الْمُتَرَبِّصِينَ[1] فِي بِلَادِ مَا وَرَاءَ النَّهْرِ إِثْرَ كُلِّ صَلَاةٍ .

فَأَخَذَتْ مَسَاجِدُ الْمُسْلِمِينَ تَضِجُّ[2] مِنْ أَجْلِهِمْ بِالدُّعَاءِ ...

وَطَفِقَتْ مَآذِنُهُمْ تَعِجُّ[3] بِالضَّرَاعَةِ وَالِابْتِهَالِ ...

وَدَأَبَ الْأَئِمَّةُ يَقْنُتُونَ[4] فِي كُلِّ صَلَاةٍ .

وَهَبَّ لِنَجْدَةِ الْجَيْشِ الْعَتِيدِ[5] خَلْقٌ كَثِيرٌ ...

وَكَانَ يَتَقَدَّمُهُمُ التَّابِعِيُّ الْجَلِيلُ مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعٍ الْأَزْدِيُّ .

* * *

كَانَ لِقُتَيْبَةَ بْنِ مُسْلِمٍ الْبَاهِلِيِّ عَيْنٌ[6] مِنْ أَبْنَاءِ الْعَجَمِ ؛ مَشْهُودٌ لَهُ بِالْحُنْكَةِ وَالْحِكْمَةِ وَالدَّهَاءِ يُقَالُ لَهُ « تَيْذَرُ » ...

فَاسْتَمَالَهُ الْأَعْدَاءُ إِلَيْهِمْ ، وَبَذَلُوا لَهُ الْمَالَ بِسَخَاءٍ ...

وَطَلَبُوا مِنْهُ أَنْ يَسْتَعْمِلَ حِيلَتَهُ وَذَكَاءَهُ فِي تَوْهِينِ[7] قُوَىٰ الْمُسْلِمِينَ ، وَحَمْلِهِمْ عَلَىٰ مُغَادَرَةِ الْبِلَادِ مِنْ غَيْرِ حَرْبٍ ...

* * *

دَخَلَ « تَيْذَرُ » عَلَىٰ قُتَيْبَةَ بْنِ مُسْلِمٍ الْبَاهِلِيِّ .

وَكَانَ مَجْلِسُهُ حَافِلًا بِكِبَارِ الْقُوَّادِ وَوُجُوهِ الْجُنْدِ ، فَأَخَذَ مَكَانَهُ إِلَىٰ جَانِبِهِ ، ثُمَّ مَالَ عَلَيْهِ وَهَمَسَ فِي أُذُنِهِ قَائِلًا :

أَخْلِ[8] مَجْلِسَكَ أَيُّهَا الْأَمِيرُ إِذَا شِئْتَ .

---

(١) المتربصين : المنتظرين حتى تتكشف الأمور .
(٢) تضج بالدعاء : ترفع أصواتها بالدعاء ، وتملأ به الأرض .
(٣) تعج بالضراعة : تصيح تذللا لله .
(٤) يقنتون : يدعون الله ويسألونه النصر .
(٥) العتيد : القوي .
(٦) عين : جاسوس .
(٧) توهين القوى : إضعاف القوى وصعضعتها .
(٨) أخل مجلسك : فرغ مجلسك من الناس .

فَأَشَارَ قُتَيْبَةُ إِلَىٰ مَنْ فِي الْمَجْلِسِ ؛ فَانْصَرَفُوا جَمِيعًا إِلَّا ضِرَارَ بْنَ الْحُصَيْنِ فَقَدِ اسْتَبْقَاهُ قُتَيْبَةُ .

عِنْدَ ذَلِكَ الْتَفَتَ « تَيْذَرُ » إِلَىٰ قُتَيْبَةَ وَقَالَ :

لَكَ عِنْدِي أَخْبَارٌ أَيُّهَا الأَمِيرُ ...

فَقَالَ قُتَيْبَةُ - فِي لَهْفَةٍ - : هَاتِهَا .

فَقَالَ « تَيْذَرُ » : إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - فِي دِمَشْقَ - قَدْ عَزَلَ الْحَجَّاجَ بْنَ يُوسُفَ الثَّقَفِيَّ ...

وَعَزَلَ الْقُوَّادَ الَّذِينَ يَتْبَعُونَهُ ، وَأَنْتَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ ...

وَوَلَّىٰ عَلَى الْجُيُوشِ قُوَّادًا جُدُدًا ، وَوَجَّهَهُمْ إِلَىٰ أَعْمَالِهِمْ ...

وَإِنَّ خَلَفَكَ[1] قَادِمٌ عَلَيْكَ بَيْنَ عَشِيَّةٍ وَضُحَاهَا .

وَالرَّأْيُ عِنْدِي أَنْ تَنْصَرِفَ بِجَيْشِكَ عَنْ هَٰذِهِ الدِّيَارِ ...

وَأَنْ تَعُودَ إِلَىٰ « مَرْوَ » لِتَتَدَبَّرَ أَمْرَكَ بَعِيدًا عَنْ سَاحَاتِ الْمَعَارِكِ .

* * *

مَا كَادَ « تَيْذَرُ » يُتِمُّ كَلَامَهُ حَتَّىٰ دَعَا قُتَيْبَةُ بْنُ مُسْلِمٍ غُلَامَهُ « سِيَاهْ » ، فَلَمَّا صَارَ بَيْنَ يَدَيْهِ قَالَ لَهُ : اضْرِبْ عُنُقَ هَٰذَا الْخَائِنِ يَا « سِيَاهْ » ...

فَضَرَبَ « سِيَاهْ » عُنُقَهُ ، وَعَادَ مِنْ حَيْثُ أَتَىٰ ...

وَهُنَا الْتَفَتَ قُتَيْبَةُ إِلَىٰ ضِرَارِ بْنِ الْحُصَيْنِ وَقَالَ : لَيْسَ فِي هَٰذِهِ الأَرْضِ أَحَدٌ سَمِعَ هَٰذَا الْخَبَرَ غَيْرِي وَغَيْرُكَ ، وَإِنَّنِي أُقْسِمُ بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ لَئِنْ ظَهَرَ هَٰذَا الأَمْرُ مِنْ أَحَدٍ قَبْلَ أَنْ تَنْقَضِيَ حَرْبُنَا هَٰذِهِ لأُلْحِقَنَّكَ بِهَٰذَا الْغَادِرِ ...

(١) خَلَفَك : الَّذِي سيخلفك ويحل محلك .

فَإِذَا كَانَتْ لَكَ فِي نَفْسِكَ حَاجَةٌ ؛ فَاحْفَظْ[١] عَلَيْكَ لِسَانَكَ ، وَاعْلَمْ أَنَّ انْتِشَارَ هَٰذَا الْحَدِيثِ يَفُتُّ[٢] فِي عَضُدِ الْجُنْدِ ...

وَيُنْزِلُ بِنَا هَزِيمَةً مُنْكَرَةً .

ثُمَّ أَذِنَ لِلنَّاسِ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ .

فَلَمَّا رَأَوْا « تَيْذَرَ » مُجَنْدَلًا[٣] عَلَىٰ الْأَرْضِ ، غَارِقًا فِي دِمَائِهِ ... وَقَفُوا وَاجِمِينَ[٤] مُطْرِقِينَ[٥] مُرْتَاعِينَ ...

فَقَالَ لَهُمْ قُتَيْبَةُ : مَا يَرُوعُكُمْ[٦] مِنْ قَتْلِ رَجُلٍ غَادِرٍ خَائِنٍ ؟! .

فَقَالُوا : كُنَّا نَظُنُّهُ نَاصِحًا لِلْمُسْلِمِينَ .

فَقَالَ : بَلْ كَانَ غَاشًّا لَهُمْ ، فَأَخَذَهُ اللَّهُ بِذَنْبِهِ .

ثُمَّ رَفَعَ صَوْتَهُ وَقَالَ : وَالْآنَ انْصَرِفُوا إِلَىٰ قِتَالِ عَدُوِّكُمْ ... وَالْقَوْهُ بِقُلُوبٍ غَيْرِ الْقُلُوبِ الَّتِي كُنْتُمْ تَلْقَوْنَهُ بِهَا مِنْ قَبْلُ .

* * *

صَدَعَ[٧] الْجُنْدُ بِأَمْرِ قَائِدِهِمْ قُتَيْبَةَ بْنِ مُسْلِمٍ ، وَعَبَرُوا الثُّغُورَ لِلِقَاءِ الْعَدُوِّ ...

فَلَمَّا تَصَافَّ الْجَيْشَانِ[٨] رَأَىٰ الْمُسْلِمُونَ مِنْ كَثْرَةِ عَدُوِّهِمْ ، وَوَفْرَةِ عُدَّتِهِ وَعَتَادِهِ مَا مَلَأَ نُفُوسَهُمْ خَشْيَةً مِنْهُ ... وَهَيْبَةً لَهُ ...

وَأَحَسَّ قُتَيْبَةُ بْنُ مُسْلِمٍ بِمَا يَعْتَمِلُ[٩] فِي أَفْئِدَةِ جُنْدِهِ ، فَجَعَلَ يَطُوفُ بَيْنَ الْكَتَائِبِ وَيَشْحَذُ[١٠] الْهِمَمَ ، وَيَشُدُّ الْعَزَائِمَ ...

---

(١) احفظ لسانك : اكتم الأمر ولا تحدث به أحدًا .
(٢) يفت في عضد الجند : يوهن قوة الجند .
(٣) مجندلًا : صريعًا .
(٤) واجمين : دهشين متحيرين .
(٥) مطرقين : ساكتين .
(٦) ما يروعكم : ما يفزعكم .
(٧) صدع الجند بالأمر : مضوا فيه ، وحققوه .
(٨) تصاف الجيشان : اجتمعا صفين .
(٩) يعتمل : يضطرب وينفعل .
(١٠) يشحذ الهمم : يقوي الهمم ويثيرها .

ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَىٰ مَنْ حَوْلَهُ وَقَالَ:

أَيْنَ مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعٍ الأَزْدِيُّ ؟!.

فَقَالُوا: إِنَّهُ هُنَاكَ فِي الْمَيْمَنَةِ أَيُّهَا الأَمِيرُ.

فَقَالَ: وَمَا يَفْعَلُ ؟.

فَقَالُوا: إِنَّهُ مُتَّكِئٌ عَلَىٰ رُمْحِهِ، شَاخِصٌ بِبَصَرِهِ، يُحَرِّكُ إِصْبَعَهُ نَحْوَ السَّمَاءِ... أَفَنُنَادِيهِ لَكَ أَيُّهَا الأَمِيرُ ؟.

فَقَالَ: بَلْ دَعُوهُ...

ثُمَّ أَرْدَفَ يَقُولُ: وَاللَّهِ إِنَّ تِلْكَ الإِصْبَعَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَلْفِ سَيْفٍ شَهِيرٍ؛ يَحْمِلُهَا أَلْفُ شَابٍّ طَرِيرٍ[1]...

اتْرُكُوهُ يَدْعُو... فَمَا عَرَفْنَاهُ إِلَّا مُسْتَجَابَ الدُّعَاءِ...

* * *

تَزَاحَفَ جَيْشُ الْمُسْلِمِينَ وَجَيْشُ عَدُوِّهِمْ كَمَا تَتَزَاحَفُ الأُسُودُ الضَّوَارِي[2]...

وَالْتَقَىٰ الْجَمْعَانِ كَمَا تَلْتَقِي أَمْوَاجُ الْبَحْرِ الْمُتَلَاطِمَةُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ...

وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُسْلِمِينَ السَّكِينَةَ... وَأَمَدَّهُمْ بِرُوحٍ مِنْ عِنْدِهِ.

فَمَا زَالُوا يُجَالِدُونَ[3] عَدُوَّهُمْ نَهَارَهُمْ كُلَّهُ حَتَّىٰ إِذَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ زَلْزَلَ[4] اللَّهُ أَقْدَامَ الْمُشْرِكِينَ، وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ...

فَمَنَحُوا[5] ظُهُورَهُمْ لِلْمُسْلِمِينَ...

---

(١) طرير: ذو شارب.

(٢) الضَّوَاري: الَّتي تلهج بالصَّيد، وتندفع إليه.

(٣) يجالدون: يضاربون بالسّيوف.

(٤) زَلْزل أقدامهم: أرجف أقدامهم.

(٥) منحوا ظهورهم: ولّوا هاربين.

فَرَكِبَهُمُ الْمُجَاهِدُونَ قَتْلًا ، وَأَسْرًا ، وَتَشْرِيدًا .

عِنْدَ ذَلِكَ سَأَلُوا قُتَيْبَةَ الصُّلْحَ وَالْفِدْيَةَ(١)... فَصَالَحَهُمْ .

* * *

كَانَ فِي جُمْلَةِ أَسْرَىٰ الأَعْدَاءِ رَجُلٌ خَبِيثُ النَّفْسِ ، مُسْتَطِيرُ(٢) الشَّرِّ ، شَدِيدُ الأَثَرِ فِي تَأْلِيبِ(٣) قَوْمِهِ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ... فَقَالَ لِقُتَيْبَةَ بْنِ مُسْلِمٍ :

أَنَا أَفْدِي نَفْسِي أَيُّهَا الأَمِيرُ .

فَقِيلَ لَهُ : وَكَمْ تَبْذُلُ ؟! .

فَقَالَ : خَمْسَةَ آلَافِ حَرِيرَةٍ « صِينِيَّةٍ »(٤) ثَمَنُهَا أَلْفُ أَلْفٍ .

فَالْتَفَتَ قُتَيْبَةُ إِلَىٰ وُجُوهِ الْجُنْدِ ، وَقَالَ : مَا تَرَوْنَ ؟ .

فَقَالُوا : نَرَىٰ أَنَّ هَٰذَا الْمَالَ سَيَزِيدُ فِي غَنَائِمِ الْمُسْلِمِينَ...

ثُمَّ إِنَّنَا بَعْدَ أَنْ أَحْرَزْنَا هَٰذَا النَّصْرَ لَمْ نَعُدْ نَخْشَىٰ بَأْسَ هَٰذَا الرَّجُلِ ، وَأَمْثَالِهِ...

فَالْتَفَتَ قُتَيْبَةُ إِلَىٰ مُحَمَّدِ بْنِ وَاسِعٍ الأَزْدِيِّ وَقَالَ :

وَمَا تَقُولُ أَنْتَ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ؟ .

فَقَالَ : أَيُّهَا الأَمِيرُ ، إِنَّ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يَخْرُجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ لِجَمْعِ الْغَنَائِمِ ، وَتَكْدِيسِ(٥) الأَمْوَالِ ، وَإِنَّمَا خَرَجُوا مَرْضَاةً(٦) لِلَّهِ...

وَنَشْرًا لِدِينِهِ فِي الأَرْضِ...

وَقَهْرًا لِأَعْدَائِهِ .

---

(١) الفدية : استنقاذ أنفسهم بالمال .
(٢) مستطير الشر : شديد الشر قويه .
(٣) تأليب قومه : إثارة قومه .
(٤) صينية : من صنع الصين .
(٥) تكديس الأموال : الاستكثار من الأموال ، وجعلها أكداسا .
(٦) مرضاة لله : لإرضاء الله ونيل ثوابه .

فَقَالَ قُتَيْبَةُ : جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا ...

وَاللَّهِ لَا أَدَعُهُ يُرَوِّعُ امْرَأَةً مُسْلِمَةً بَعْدَ السَّاعَةِ ، وَلَوْ بَذَلَ مَالَ الدُّنْيَا فِدَاءً لِنَفْسِهِ ...

ثُمَّ أَمَرَ بِقَتْلِهِ .

* * *

لَمْ تَقْتَصِرْ صِلَةُ مُحَمَّدِ بْنِ وَاسِعٍ الأَزْدِيِّ بِأُمَرَاءِ بَنِي « أُمَيَّةَ » عَلَىٰ يَزِيدَ بْنِ الْمُهَلَّبِ ، وَقُتَيْبَةَ بْنِ مُسْلِمٍ الْبَاهِلِيِّ ...

وَإِنَّمَا امْتَدَّتْ إِلَىٰ غَيْرِهِمَا مِنَ الْوُلَاةِ وَالأُمَرَاءِ .

وَكَانَ مِنْ أَبْرَزِ مَنِ اتَّصَلَ بِهِمْ وَالِي « الْبَصْرَةِ » بِلَالُ بْنُ أَبِي بُرْدَةَ .

وَلَقَدْ كَانَ لَهُ مَعَ هَـٰذَا الْوَالِي مَوَاقِفُ مُتَدَاوَلَةٌ(١) مَشْهُورَةٌ ، وَأَخْبَارٌ مَرْوِيَّةٌ مَأْثُورَةٌ(٢) ...

مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ دَخَلَ عَلَيْهِ ذَاتَ يَوْمٍ ، وَهُوَ لَابِسٌ مِدْرَعَةً(٣) خَشِنَةً مِنَ الصُّوفِ ، فَقَالَ لَهُ بِلَالٌ :

مَا يَدْعُوكَ إِلَىٰ لُبْسِ هَـٰذَا الْكِسَاءِ الْخَشِنِ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ؟! .

فَتَشَاغَلَ عَنْهُ الشَّيْخُ ، وَلَمْ يُجِبْهُ ...

فَنَظَرَ إِلَيْهِ وَقَالَ : مَا لَكَ لَا تُجِيبُنِي يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ؟! .

فَقَالَ :

أَكْرَهُ أَنْ أَقُولَ زُهْدًا ؛ فَأُزَكِّيَ(٤) نَفْسِي ...

---

(١) متداولة : متناقلة .

(٢) مأثورة : محفوظة متداولة بين النّاس .

(٣) المدرعة : جبة مشقوقة المقدّم ، وجمعها مدارع .　(٤) أُزَكِّي نفسي : أرفع من شأن نفسي .

وَأَكْرَهُ أَنْ أَقُولَ فَقْرًا ؛ فَأَشْكُوَ رَبِّي ...

وَأَنَا لَا أُرِيدُ هَٰذَا وَلَا ذَاكَ .

فَقَالَ لَهُ : أَلَكَ مِنْ حَاجَةٍ فَنَقْضِيَهَا يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ؟ .

فَقَالَ : أَمَّا أَنَا فَمَا لِي مِنْ حَاجَةٍ أَسْأَلُهَا[١] أَحَدًا مِنَ النَّاسِ ...

وَإِنَّمَا أَتَيْتُكَ فِي حَاجَةٍ لِأَخٍ مُسْلِمٍ ...

فَإِنْ أَذِنَ اللَّهُ فِي قَضَائِهَا قَضَيْتَهَا ، وَكُنْتَ مَحْمُودًا ...

وَإِنْ لَمْ يَأْذَنْ فِي قَضَائِهَا لَمْ تَقْضِهَا ، وَكُنْتَ مَعْذُورًا .

فَقَالَ : بَلْ نَقْضِيهَا بِإِذْنِ اللَّهِ .

ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيْهِ الْوَالِي وَقَالَ :

مَا تَقُولُ فِي الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ؟ .

فَقَالَ : أَيُّهَا الأَمِيرُ ...

إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَسْأَلُ عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنِ الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ ...

وَإِنَّمَا يَسْأَلُهُمْ عَنْ أَعْمَالِهِمْ .

فَاسْتَحَىٰ مِنْهُ الْوَالِي وَلَاذَ[٢] بِالصَّمْتِ .

وَفِيمَا هُوَ جَالِسٌ عِنْدَهُ حَانَ مَوْعِدُ غَدَائِهِ ، فَدَعَاهُ الْوَالِي إِلَىٰ طَعَامِهِ ، فَأَبَىٰ ذَلِكَ ... فَأَلَحَّ عَلَيْهِ ؛ فَجَعَلَ يَتَعَلَّلُ[٣] بِشَتَّىٰ الْعِلَلِ ...

فَغَضِبَ الْوَالِي وَقَالَ :

(١) أسألها أحدًا : أطلبها من أحدٍ .
(٢) لاذ بالصمت : التجأ إلى الصمت .
(٣) يتعلل : يبدي المعاذير ويظهر الحجج .

أَرَاكَ تَكْرَهُ أَنْ تُصِيبَ(١) شَيْئًا مِنْ طَعَامِنَا يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ !!! .

فَقَالَ لَهُ : لَا تَقُلْ ذَلِكَ أَيُّهَا الْأَمِيرُ ...

فَوَاللَّهِ إِنَّ خِيَارَكُمْ - مَعْشَرَ الْأُمَرَاءِ - لَأَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ أَبْنَائِنَا وَخَاصَّةِ(٢) أَهْلِينَا .

* * *

وَلَقَدْ دُعِيَ مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعٍ الْأَزْدِيُّ لِتَوَلِّي مَنْصِبِ الْقَضَاءِ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ فَأَبَى(٣) ذَلِكَ أَشَدَّ الْإِبَاءِ ...

وَعَرَّضَ نَفْسَهُ بِسَبَبِ إِبَائِهِ لِلْإِيذَاءِ ...

مِنْ ذَلِكَ أَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ الْمُنْذِرِ صَاحِبَ شُرْطَةِ « الْبَصْرَةِ » دَعَاهُ إِلَيْهِ ، وَقَالَ :

إِنَّ أَمِيرَ « الْعِرَاقِ » طَلَبَ مِنِّي أَنْ أَدْعُوَكَ لِتَوَلِّي الْقَضَاءِ ، فَقَالَ :

اعْفُونِي مِنْ ذَلِكَ عَافَاكُمُ اللَّهُ .

فَعَاوَدَهُ(٤) مَثْنَى وَثُلَاثَ ، فَأَصَرَّ عَلَى إِبَائِهِ .

فَقَالَ لَهُ : وَاللَّهِ لَتَتَوَلَّيَنَّ الْقَضَاءَ ، أَوْ لَأَجْلِدَنَّكَ(٥) ثَلَاثَمِائَةِ جَلْدَةٍ ، وَلَأُعَذِّرَنَّكَ(٦) .

فَقَالَ لَهُ : إِنْ تَفْعَلْ فَإِنَّكَ مُسَلَّطٌ(٧) ...

وَإِنَّ مُعَذَّبَ الدُّنْيَا خَيْرٌ مِنْ مُعَذَّبِ الْآخِرَةِ ...

---

(١) تصيب من طعامنا : تتناول شيئًا من طعامنا .
(٢) خاصّة أهلينا : أقرب ذوي قربانا .
(٣) أبى ذلك : امتنع عن ذلك ورفضه .
(٤) فعاوده : طلب منه مرة بعد مرة .
(٥) أجلدنّك : أضربنّك .
(٦) أعذرنّك : أفضحنك وأشهّرنّ بك .
(٧) مسلط : مطلق اليد .

فَخَجِلَ مِنْهُ، وَصَرَفَهُ بِالْحُسْنَىٰ.

* * *

وَقَدْ كَانَ مَجْلِسُ مُحَمَّدِ بْنِ وَاسِعٍ فِي مَسْجِدِ «الْبَصْرَةِ» مَوْئِلًا[1] لِطُلَّابِ الْعِلْمِ... وَمَنْهَلًا[2] لِشُدَاةِ[3] الْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ.

وَقَدْ حَفِلَتْ كُتُبُ التَّارِيخِ وَالسِّيَرِ بِأَخْبَارِ مَجَالِسِهِ هَٰذِهِ.

مِنْ ذَٰلِكَ أَنَّ أَحَدَهُمْ قَالَ لَهُ:

أَوْصِنِي يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ.

فَقَالَ: أُوصِيكَ أَنْ تَكُونَ مَلِكًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

فَدُهِشَ السَّائِلُ وَقَالَ:

وَكَيْفَ لِي بِذَٰلِكَ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ؟!.

فَقَالَ: ازْهَدْ بِعَرَضِ[4] الدُّنْيَا تَكُنْ مَلِكًا هُنَا بِالِاسْتِغْنَاءِ عَمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ...

وَمَلِكًا هُنَاكَ بِالْفَوْزِ بِمَا عِنْدَ اللَّهِ مِنْ حُسْنِ الثَّوَابِ...

وَقَالَ لَهُ آخَرُ:

إِنِّي لَأُحِبُّكَ فِي اللَّهِ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ.

فَقَالَ: أَحَبَّكَ اللَّهُ الَّذِي أَحْبَبْتَنِي مِنْ أَجْلِهِ...

ثُمَّ وَلَّىٰ وَهُوَ يَقُولُ:

---

(١) موئلًا: ملاذًا ومرجعًا.

(٢) منهلًا: موردًا.

(٣) شُداة الحكمة: طلَّاب الحكمة ورغابها.

(٤) عرض الدّنيا: الزّائل الَّذي لَا بقاء له.

اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُحَبَّ فِيكَ وَأَنْتَ لِي مَاقِتٌ[1].

وَكَانَ كُلَّمَا سَمِعَ ثَنَاءَ النَّاسِ عَلَيْهِ ، وَإِطْرَاءَهُمْ[2] لِتَقْوَاهُ وَعِبَادَتِهِ ، يَقُولُ لَهُمْ :

لَوْ كَانَ لِلذُّنُوبِ رَائِحَةٌ تَفُوحُ مَا اسْتَطَاعَ أَحَدٌ مِنْكُمْ أَنْ يَدْنُوَ مِنِّي لِمَا يُصِيبُهُ مِنْ أَذَىٰ رَائِحَتِي .

* * *

وَقَدْ كَانَ مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعٍ لَا يَفْتَأُ يَحُضُّ[3] طُلَّابَهُ عَلَىٰ الْتِزَامِ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالْعَيْشِ فِي أَكْنَافِهِ[4] وَيَقُولُ :

الْقُرْآنُ بُسْتَانُ الْمُؤْمِنِ ... فَأَيْنَمَا حَلَّ مِنْهُ ؛ نَزَلَ فِي رَوْضَةٍ ...

كَمَا كَانَ يُوصِيهِمْ بِقِلَّةِ الطَّعَامِ فَيَقُولُ :

مَنْ قَلَّ طَعَامُهُ فَهِمَ ، وَأَفْهَمَ ...

وَصَفَا وَرَقَّ ...

وَإِنَّ كَثْرَةَ الطَّعَامِ لَتُثْقِلُ[5] الرَّجُلَ عَنْ كَثِيرٍ مِمَّا يُرِيدُ .

* * *

وَقَدْ بَلَغَ مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعٍ مِنَ التُّقَىٰ وَالْوَرَعِ مَبْلَغًا عَظِيمًا ... وَرُوِيَتْ لَهُ فِي ذَلِكَ أَخْبَارٌ كَثِيرَةٌ ...

مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ رُئِيَ فِي السُّوقِ ، وَهُوَ يَعْرِضُ لِلْبَيْعِ حِمَارًا لَهُ ؛ فَسَأَلَهُ رَجُلٌ :

أَتَرْضَاهُ لِي أَيُّهَا الشَّيْخُ ؟ .

(١) ماقت : كاره .
(٢) إطراءهم : مدحهم .
(٣) يحض طلابه : يحث تلاميذه .
(٤) أكنافه : رحابه .
(٥) تثقل الرجل : تعوق الرجل .

فَقَالَ : لَوْ رَضِيتُهُ لِنَفْسِي مَا بِعْتُهُ .

* * *

وَقَدْ عَاشَ مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعٍ حَيَاتَهُ كُلَّهَا فِي وَجَلٍ[١] مِنْ ذُنُوبِهِ ...

وَ إِشْفَاقٍ[٢] مِنَ الْعَرْضِ عَلَىٰ رَبِّهِ ...

فَكَانَ إِذَا قِيلَ لَهُ : كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ؟ .

أَجَابَ قَائِلًا :

أَصْبَحْتُ قَرِيبًا أَجَلِي ...

بَعِيدًا أَمَلِي ...

سَيِّئًا عَمَلِي ...

فَإِذَا رَأَىٰ شَيْئًا مِنَ الدَّهْشَةِ يَبْدُو عَلَىٰ مَلَامِحِ[٣] سَائِلِيهِ قَالَ :

مَا ظَنُّكُمْ بِرَجُلٍ يَقْطَعُ إِلَىٰ الْآخِرَةِ كُلَّ يَوْمٍ مَرْحَلَةً ؟! .

* * *

وَلَمَّا مَرِضَ مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعٍ الْأَزْدِيُّ مَرَضَ الْمَوْتِ ؛ تَكَاثَرَ النَّاسُ عَلَىٰ عِيَادَتِهِ حَتَّىٰ غَصَّ مَنْزِلُهُ بِالدَّاخِلِينَ عَلَيْهِ وَالْخَارِجِينَ ...

وَالْقَائِمِينَ فِي مَنْزِلِهِ وَالْقَاعِدِينَ ...

فَمَالَ بِشِقِّهِ[٤] عَلَىٰ أَحَدِ خَوَاصِّهِ وَقَالَ :

أَخْبِرْنِي مَا يُغْنِي عَنِّي هَؤُلَاءِ إِذَا أُخِذْنَا غَدًا بِالنَّوَاصِي[٥] وَالْأَقْدَامِ ؟! ...

---

(١) الْوَجَل : الخوف والقلق .
(٢) الإشفاق : الحذر .
(٣) الملامح : مظاهر الوجه وما يبدو عليه .
(٤) بشقه : بطرفه .
(٥) أخذنا غدًا بالنواصي والأقدام : جُررْنا يوم القيامة من رؤوسنا وأرجلنا .

وَمَا يَنْفَعُونَنِي إِذَا أُلْقِيتُ فِي النَّارِ؟!.

ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَىٰ رَبِّهِ وَجَعَلَ يَقُولُ:

اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَغْفِرُكَ مِنْ كُلِّ مَقَامِ[1] سُوءٍ قُمْتُهُ...

وَمِنْ كُلِّ مَقْعَدِ سُوءٍ قَعَدْتُهُ...

وَمِنْ كُلِّ مَدْخَلِ سُوءٍ دَخَلْتُهُ...

وَمِنْ كُلِّ مَخْرَجِ سُوءٍ خَرَجْتُهُ...

وَمِنْ كُلِّ عَمَلِ سُوءٍ عَمِلْتُهُ...

وَمِنْ كُلِّ قَوْلِ سُوءٍ قُلْتُهُ...

اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَغْفِرُكَ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ؛ فَاغْفِرْهُ لِي...

وَأَتُوبُ لَكَ مِنْهُ؛ فَتُبْ عَلَيَّ...

وَأُلْقِي إِلَيْكَ بِالسَّلَامِ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ لِزَامًا[2]...

ثُمَّ فَاضَتْ رُوحُهُ (*)...

---

(١) مقام سوء قمته: موقف سوء وقفته.

(٢) قبل أن يكون لزامًا: قبل أن أحاسَب وأُحمَّل علىٰ ذلك حملاً.

(*) للاستزادة من أخبار مُحَمَّدِ بْنِ وَاسِعٍ الأَزْدِيِّ انظر:

١ - تاريخ البخاري: ١/ ٢٥٥.
٢ - التاريخ الصغير: ٣١٨/١ - ٣١٩.
٣ - الجرح والتعديل: ٨/ ١١٣.
٤ - حلية الأولياء: ٣٤٥/٢ - ٣٥٧.
٥ - الوافي بالوفيات: ٥/ ٢٧٢.
٦ - تهذيب التهذيب: ٤٩٩/٩ - ٥٠٠.
٧ - شذرات الذهب: ١/ ١٦١.
٨ - طبقات خليفة: ٢١٥.
٩ - تهذيب الكمال: ١٢٨٣.
١٠ - صفة الصفوة «الطبعة الحلبية»: ٣/ ٢٦٦.
١١ - تاريخ الإسلام للذهبي: ٥/ ١٩٥.
١٢ - وفيات الأعيان: ٦/ ٣٠٨.

عُمَرُ بنُ عَبدِ العَزيزِ
لَمحاتٌ رائِعَةٌ مِن حَياتِهِ

« عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ مَعْدُودٌ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْعَامِلِينَ وَالْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ »

[الذَّهَبِيُّ]

الْحَدِيثُ عَنِ الْخَلِيفَةِ الْعَبَّادِ الزَّهَّادِ خَامِسِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينِ ؛ حَدِيثٌ أَطْيَبُ مِنْ نَشْرِ[1] الْمِسْكِ ، وَأَزْهَى[2] مِنْ قِطَعِ الرَّوْضِ ...

وَسِيرَتُهُ الْفَذَّةُ[3] الْغَرَّاءُ ؛ وَاحَةٌ[4] مِعْطَارٌ ؛ أَيْنَمَا حَلَلْتَ مِنْهَا أَلْفَيْتَ نَبْتًا طَرِيًّا ...

وَزَهْرًا بَهِيًّا ...

وَثَمَرًا جَنِيًّا[5] ...

وَإِذَا لَمْ يَكُنْ فِي وُسْعِنَا أَنْ نَسْتَوْعِبَ الْآنَ تِلْكَ السِّيرَةَ الَّتِي ازْدَانَ بِهَا هَامُ[6] التَّارِيخِ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَمْنَعُنَا مِنْ أَنْ نَقْطِفَ مِنْ رَوْضِهَا زَهْرَةً ...

وَأَنْ نَقْبِسَ[7] مِنْ نُورِهَا وَمْضَةً[8] ...

ذَلِكَ لِأَنَّ مَا لَا يُدْرَكُ كُلُّهُ لَا يُتْرَكُ بَعْضُهُ .

فَإِلَيْكَ ثَلَاثَ صُوَرٍ مِنْ حَيَاةِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ ، تَتْبَعُهَا صُوَرٌ أُخْرَى فِي كِتَابٍ تَالٍ إِذَا أَذِنَ اللَّهُ وَيَسَّرَ .

* * *

(١) نشر المسك : ريح المسك .
(٢) أزهى : أجمل .
(٣) الفذة : الفريدة الرائعة .
(٤) واحة معطار : حديقة خصبة عطرة .
(٥) جنيا : جُنِيَ لِساعتِهِ .
(٦) هام التاريخ : قمة التاريخ .
(٧) نقبس : نأخذ .
(٨) وَمْضَة : لمعة .

أَمَّا أُولَىٰ هَٰذِهِ الصُّوَرِ ؛ فَرَوَاهَا لَنَا سَلَمَةُ بْنُ دِينَارٍ[1] عَالِمُ الْمَدِينَةِ وَقَاضِيهَا وَشَيْخُهَا ، فَقَالَ :

قَدِمْتُ عَلَىٰ خَلِيفَةِ الْمُسْلِمِينَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَهُوَ « بِخُنَاصِرَةَ » مِنْ أَعْمَالِ « حَلَبَ » ، وَكَانَتْ قَدْ تَقَدَّمَتْ بِيَ السِّنُّ ، وَبَعُدَ بَيْنِي وَبَيْنَ لِقَائِهِ الْعَهْدُ فَوَجَدْتُهُ فِي صَدْرِ الْبَيْتِ ...

غَيْرَ أَنِّي لَمْ أَعْرِفْهُ لِتَغَيُّرِ حَالِهِ عَمَّا عَهِدْتُهُ عَلَيْهِ يَوْمَ كَانَ وَالِيًا عَلَىٰ الْمَدِينَةِ ؛ فَرَحَّبَ بِي وَقَالَ :

أُدْنُ مِنِّي يَا أَبَا حَازِمٍ .

فَلَمَّا دَنَوْتُ مِنْهُ قُلْتُ : أَلَسْتَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ ؟ .

فَقَالَ : بَلَىٰ ...

فَقُلْتُ : مَا الَّذِي حَلَّ بِكَ ؟!! ... أَلَمْ يَكُنْ وَجْهُكَ بَهِيًّا ...

وَإِهَابُكَ[2] طَرِيًّا ... وَعَيْشُكَ رَخِيًّا[3] ...

فَقَالَ : بَلَىٰ ...

فَقُلْتُ : فَمَا الَّذِي غَيَّرَ مَا بِكَ بَعْدَ أَنْ غَدَوْتَ تَمْلِكُ الْأَصْفَرَ[4] وَالْأَبْيَضَ ، وَأَصْبَحْتَ أَمِيرًا لِلْمُؤْمِنِينَ ؟ .

فَقَالَ : وَمَا الَّذِي تَغَيَّرَ بِي يَا أَبَا حَازِمٍ ؟! .

فَقُلْتُ : جِسْمُكَ الَّذِي نَحَلَ[5] ...

وَجِلْدُكَ الَّذِي اخْشَوْشَنَ[6] ...

(١) سَلَمَةُ بْنُ دِينَارٍ : انظره ص ١٨٧ .
(٢) إهابك : بشرتك وجلدك .
(٣) رخيًا : ناعمًا .
(٤) الأصفر والأبيض : الذهب والفضة .
(٥) نحل : هزل .
(٦) اخشوشن : خشن .

وَوَجْهُكَ الَّذِي اصْفَرَّ...

وَعَيْنَاكَ اللَّتَانِ خَبَا وَمْضُهُمَا[١].

فَبَكَىٰ وَقَالَ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَيْتَنِي فِي قَبْرِي بَعْدَ ثَلَاثٍ؟!...

وَقَدْ سَالَتْ حَدَقَتَايَ[٢] عَلَىٰ وَجْنَتَيَّ...

وَتَفَسَّخَ بَطْنِي وَتَشَقَّقَ...

وَانْطَلَقَ الدُّودُ يَرْتَعُ[٣] فِي بَدَنِي.

إِنَّكَ لَوْ رَأَيْتَنِي آنَذَاكَ - يَا أَبَا حَازِمٍ - لَكُنْتَ أَشَدَّ إِنْكَارًا[٤] لِي مِنْ يَوْمِكَ هَٰذَا...

ثُمَّ رَفَعَ بَصَرَهُ إِلَيَّ وَقَالَ:

أَمَا تَذْكُرُ حَدِيثًا كُنْتَ حَدَّثْتَنِي بِهِ فِي الْمَدِينَةِ يَا أَبَا حَازِمٍ؟.

فَقُلْتُ: لَقَدْ حَدَّثْتُكَ بِأَحَادِيثَ كَثِيرَةٍ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ...

فَأَيُّهَا تَقْصِدُ؟.

فَقَالَ: إِنَّهُ حَدِيثٌ رَوَاهُ أَبُو هُرَيْرَةَ.

فَقُلْتُ: نَعَمْ... أَذْكُرُهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ.

فَقَالَ: أَعِدْهُ عَلَيَّ، فَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْكَ.

فَقُلْتُ: سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:

(١) خبا وَمْضهما: خمد لمعانهما.
(٢) حدقتاي: عيناي.
(٣) يَرْتَع: يتقلب ويتمتع أكلًا وشربًا.
(٤) أشدَّ إنكارًا لي: أشدَّ جهلًا بي واستغرابًا.

(إِنَّ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ عَقَبَةً كَؤُودًا[1]، مُضَرِّسَةً[2]، لَنْ يَجُوزَهَا[3] إِلَّا كُلُّ ضَامِرٍ[4] مَهْزُولٍ) .

فَبَكَىٰ عُمَرُ بُكَاءً شَدِيدًا خَشِيتُ مَعَهُ أَنْ تَنْشَقَّ مَرَارَتُهُ[5].

ثُمَّ كَفْكَفَ[6] دُمُوعَهُ ، وَالْتَفَتَ إِلَيَّ وَقَالَ :

فَهَلْ تَلُومُنِي يَا أَبَا حَازِمٍ إِذَا أَنَا أَهْزَلْتُ نَفْسِي لِتِلْكَ الْعَقَبَةِ ؛ رَجَاءَ أَنْ أَنْجُوَ مِنْهَا ... وَمَا أَظُنُّنِي بِنَاجٍ ...

* * *

أَمَّا الصُّورَةُ الثَّانِيَةُ مِنْ صُوَرِ حَيَاةِ عُمَرَ ؛ فَيَرْوِيهَا لَنَا الطَّبَرِيُّ عَنِ الطُّفَيْلِ بْنِ مِرْدَاسٍ ، فَيَقُولُ :

إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ حِينَ وَلِيَ الْخِلَافَةَ كَتَبَ إِلَىٰ سُلَيْمَانَ ابْنِ أَبِي السَّرِيِّ وَالِيهِ عَلَىٰ « الصُّغْدِ »[7] كِتَابًا قَالَ فِيهِ :

اتَّخِذْ فِي بِلَادِكَ فَنَادِقَ لِاسْتِضَافَةِ الْمُسْلِمِينَ ؛ فَإِذَا مَرَّ بِهَا أَحَدٌ مِنْهُمْ فَاسْتَضِيفُوهُ يَوْمًا وَلَيْلَةً ... وَأَصْلِحُوا شَأْنَهُ[8]، وَتَعَهَّدُوا دَوَابَّهُ .

فَإِذَا كَانَ يَشْكُو نَصَبًا[9] فَاسْتَضِيفُوهُ يَوْمَيْنِ وَلَيْلَتَيْنِ ...

وَوَاسُوهُ[10].

فَإِذَا كَانَ مُنْقَطِعًا لَا مَؤُونَةَ عِنْدَهُ وَلَا دَابَّةَ تَحْمِلُهُ ؛ فَأَعْطُوهُ مَا يَسُدُّ حَاجَتَهُ ، وَأَوْصِلُوهُ إِلَىٰ بَلَدِهِ .

---

(١) كؤودًا : شاقة المصعد ، صعبة المرتقى .
(٢) مُضَرِّسَة : شَدِيدَة مُهلِكَة .
(٣) لن يجوزها : لن يتخطاها .
(٤) الضَّامر : الهزيل الجسم من العبادة والجهاد .
(٥) مرارته : جوف كبده .
(٦) كفكف دموعه : مسح دموعه مرّة بعد مرّة .
(٧) الصُّغْد : منطقة في أواسط آسيا .
(٨) شأنه : حاله .
(٩) نَصَبًا : عناءً .
(١٠) واسوه : أعينوه .

فَصَدَعَ الْوَالِي بِأَمْرِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَقَامَ الْفَنَادِقَ الَّتِي أَمَرَهُ بِإِعْدَادِهَا فَسَرَتْ أَخْبَارُهَا فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَطَفِقَ النَّاسُ فِي مَشَارِقِ الْبِلَادِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَمَغَارِبِهَا يَتَحَدَّثُونَ عَنْهَا، وَيُشِيدُونَ بِعَدْلِ الْخَلِيفَةِ وَتَقْوَاهُ...

فَمَا كَانَ مِنْ وُجُوهِ أَهْلِ «سَمَرْقَنْدَ»[1] إِلَّا أَنْ وَفَدُوا عَلَىٰ وَالِيهَا سُلَيْمَانَ ابْنِ أَبِي السَّرِيِّ وَقَالُوا:

إِنَّ سَلَفَكَ قُتَيْبَةَ بْنَ مُسْلِمٍ الْبَاهِلِيَّ قَدْ دَهَمَ[2] بِلَادَنَا مِنْ غَيْرِ إِنْذَارٍ، وَلَمْ يَسْلُكْ فِي حَرْبِنَا مَا تَسْلُكُونَهُ، مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ...

فَقَدْ عَرَفْنَا أَنَّكُمْ تَدْعُونَ أَعْدَاءَكُمْ إِلَىٰ الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ...

فَإِنْ أَبَوْا؛ دَعَوْتُمُوهُمْ إِلَىٰ دَفْعِ الْجِزْيَةِ[3]...

فَإِنْ أَبَوْا؛ أَعْلَنْتُمْ عَلَيْهِمُ الْقِتَالَ...

وَإِنَّا قَدْ رَأَيْنَا مِنْ عَدْلِ خَلِيفَتِكُمْ وَتُقَاهُ مَا أَغْرَانَا[4] بِشَكْوَىٰ جَيْشِكُمْ إِلَيْكُمْ... وَالِاسْتِنْصَارِ بِكُمْ عَلَىٰ مَا أَنْزَلَهُ بِنَا قَائِدٌ مِنْ قُوَّادِكُمْ.

فَأْذَنْ - أَيُّهَا الْأَمِيرُ - لِوَفْدٍ مِنَّا بِأَنْ يَفِدَ[5] عَلَىٰ خَلِيفَتِكُمْ، وَأَنْ يَرْفَعَ ظُلَامَتَنَا[6] إِلَيْهِ...

فَإِنْ كَانَ لَنَا حَقٌّ أُعْطِينَاهُ... وَإِنْ لَمْ يَكُنْ؛ عُدْنَا مِنْ حَيْثُ ذَهَبْنَا.

فَأَذِنَ سُلَيْمَانُ لِوَفْدٍ مِنْهُمْ بِالْقُدُومِ عَلَىٰ الْخَلِيفَةِ فِي «دِمَشْقَ»، فَلَمَّا صَارُوا فِي دَارِ الْخِلَافَةِ رَفَعُوا أَمْرَهُمْ إِلَىٰ خَلِيفَةِ الْمُسْلِمِينَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ.

---

(١) سَمَرْقَنْد: أصبحت اليوم إحدىٰ مدن الجمهورية السوفياتية وذلك بعد أن احتلتها روسيا.
(٢) دَهَم: غشيَ واحتلَّ.
(٣) الجزية: ما يؤخذ من أهل الذمّة.
(٤) أغرانا: شجعنا.
(٥) يَفِد: يذهب.
(٦) ظُلَامَتَنَا: ما لَحِق بنا من ظلم.

فَكَتَبَ الْخَلِيفَةُ كِتَابًا إِلَىٰ وَالِيهِ سُلَيْمَانَ بْنِ أَبِي السَّرِيِّ يَقُولُ فِيهِ:

أَمَّا بَعْدُ ... فَإِذَا جَاءَكَ كِتَابِي هَٰذَا فَأَجْلِسْ إِلَىٰ أَهْلِ «سَمَرْقَنْدَ» قَاضِيًا يَنْظُرُ فِي شَكْوَاهُمْ ...

فَإِنْ قَضَىٰ لَهُمْ؛ فَمُرْ جَيْشَ الْمُسْلِمِينَ بِأَنْ يُغَادِرَ مَدِينَتَهُمْ ...

وَادْعُ الْمُسْلِمِينَ الْمُقِيمِينَ بَيْنَهُمْ إِلَىٰ التُّزُوحِ[1] عَنْهُمْ ... وَعُودُوا كَمَا كُنْتُمْ وَكَانُوا؛ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ دِيَارَهُمْ قُتَيْبَةُ بْنُ مُسْلِمٍ الْبَاهِلِيُّ.

فَلَمَّا قَدِمَ الْوَفْدُ عَلَىٰ سُلَيْمَانَ بْنِ أَبِي السَّرِيِّ، وَدَفَعَ إِلَيْهِ كِتَابَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ... بَادَرَ[2] فَأَجْلَسَ لَهُمْ قَاضِيَ الْقُضَاةِ جُمَيْعَ بْنَ حَاضِرٍ النَّاجِيَّ.

فَنَظَرَ فِي شَكْوَاهُمْ، وَاسْتَقْصَىٰ[3] خَبَرَهُمْ ...

وَاسْتَمَعَ إِلَىٰ شَهَادَةِ طَائِفَةٍ مِنْ جُنْدِ الْمُسْلِمِينَ وَقَادَتِهِمْ ...

فَاسْتَبَانَ لَهُ صِحَّةُ مُدَّعَاهُمْ ...

وَقَضَىٰ لَهُمْ ...

عِنْدَ ذَٰلِكَ أَمَرَ الْوَالِي جُنْدَ الْمُسْلِمِينَ بِأَنْ يُخْلُوا لَهُمْ دِيَارَهُمْ، وَأَنْ يَعُودُوا إِلَىٰ مُعَسْكَرَاتِهِمْ، وَأَنْ يُنَابِذُوهُمْ[4] كَرَّةً أُخْرَىٰ ...

فَإِمَّا أَنْ يَدْخُلُوا بِلَادَهُمْ صُلْحًا ...

وَإِمَّا أَنْ يَظْفَرُوا بِهَا حَرْبًا ...

وَإِمَّا أَلَّا يُكْتَبَ لَهُمُ الْفَتْحُ.

---

(١) التُّزوح عنهم: مغادرة بلادهم.
(٢) بادر: أسرع.
(٣) استقصىٰ خبرَهم: بلغ الغاية في البحث عن خبرهم.
(٤) ينابذونهم: يحاربونهم.

فَلَمَّا سَمِعَ وُجُوهُ[1] الْقَوْمِ حُكْمَ قَاضِي قُضَاةِ الْمُسْلِمِينَ لَهُمْ، قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ:

وَيْحَكُمْ[2]... لَقَدْ خَالَطْتُمْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ وَأَقَمْتُمْ مَعَهُمْ، وَرَأَيْتُمْ مِنْ سِيرَتِهِمْ وَعَدْلِهِمْ وَصِدْقِهِمْ مَا رَأَيْتُمْ...

فَاسْتَبْقُوهُمْ عِنْدَكُمْ...

وَطِيبُوا[3] بِمُعَاشَرَتِهِمْ نَفْسًا...

وَقَرُّوا[4] بِصُحْبَتِهِمْ عَيْنًا...

* * *

وَأَمَّا الصُّورَةُ الثَّالِثَةُ مِنْ صُوَرِ حَيَاةِ عُمَرَ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ؛ فَيَرْوِيهَا لَنَا ابْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ فِي كِتَابِهِ النَّفِيسِ الْمُسَمَّىٰ «سِيرَةَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ» فَيَقُولُ:

لَمَّا حَضَرَتْ عُمَرَ الْوَفَاةُ دَخَلَ عَلَيْهِ مَسْلَمَةُ[5] بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ وَقَالَ:

إِنَّكَ - يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - قَدْ فَطَمْتَ[6] أَفْوَاهَ أَوْلَادِكَ عَنْ هَٰذَا الْمَالِ.

فَحَبَّذَا لَوْ أَوْصَيْتَ بِهِمْ إِلَيَّ أَوْ إِلَىٰ مَنْ تُفَضِّلُهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ...

فَلَمَّا انْتَهَىٰ مِنْ كَلَامِهِ قَالَ عُمَرُ: أَجْلِسُونِي...

فَأَجْلَسُوهُ فَقَالَ: قَدْ سَمِعْتُ مَقَالَتَكَ يَا مَسْلَمَةُ، أَمَّا قَوْلُكَ:

إِنِّي قَدْ فَطَمْتُ أَفْوَاهَ أَوْلَادِي عَنْ هَٰذَا الْمَالِ...

---

(١) وجوه القوم: سادة القوم.
(٢) ويحكم: ما أعجب أمركم؟.
(٣) طيبوا نفسًا: استريحوا.
(٤) قروا عينًا: اطمئنوا واسعدوا.
(٥) هو مَسْلَمَةُ بْن عَبْد الْمَلِكِ بن مروان، أحد كبار أمراء بني أُمَيَّة وعقلائهم وقادة جيوشهم.
(٦) فطمت أفواه أولادك: منعتهم من اغتنام الفرص، وامتلاك الأموال.

فَإِنِّي وَاللَّهِ مَا مَنَعْتُهُمْ حَقًّا هُوَ لَهُمْ، وَلَمْ أَكُنْ لِأُعْطِيَهُمْ شَيْئًا لَيْسَ لَهُمْ ...

وَأَمَّا قَوْلُكَ: لَوْ أَوْصَيْتَ بِهِمْ إِلَيَّ أَوْ إِلَىٰ مَنْ تُفَضِّلُهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ ... فَإِنَّمَا وَصِيِّي وَوَلِيِّي فِيهِمُ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ، وَهُوَ يَتَوَلَّى(١) الصَّالِحِينَ.

وَاعْلَمْ يَا مَسْلَمَةُ أَنَّ أَبْنَائِي أَحَدُ رَجُلَيْنِ:

إِمَّا رَجُلٌ صَالِحٌ مُتَّقٍ، فَسَيُغْنِيهِ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ، وَيَجْعَلُ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ مَخْرَجًا(٢) ...

وَإِمَّا رَجُلٌ طَالِحٌ(٣) مُكِبٌّ عَلَىٰ الْمَعَاصِي، فَلَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ يُعِينُهُ بِالْمَالِ عَلَىٰ مَعْصِيَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ.

ثُمَّ قَالَ: ادْعُوا لِي بَنِيَّ ...

فَدَعَوْهُمْ، وَهُمْ بِضْعَةَ(٤) عَشَرَ وَلَدًا.

فَلَمَّا رَآهُمْ تَرَقْرَقَتْ(٥) عَيْنَاهُ وَقَالَ:

بِنَفْسِي فِتْيَةٌ تَرَكْتُهُمْ عَالَةً لَا شَيْءَ لَهُمْ ...

وَبَكَىٰ بُكَاءً صَامِتًا ... ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيْهِمْ وَقَالَ: أَيْ بَنِيَّ(٦) ...

إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ لَكُمْ خَيْرًا كَثِيرًا ...

فَإِنَّكُمْ لَا تَمُرُّونَ بِأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَوْ أَهْلِ ذِمَّتِهِمْ إِلَّا رَأَوْا أَنَّ لَكُمْ عَلَيْهِمْ حَقًّا.

---

(١) يتولَّى الصَّالحين: يحفظ الصَّالحين ويعينهم.
(٢) مخرجًا: سبيلًا يسلكه.
(٣) طالح: الطَّالح ضدُّ الصَّالح، تقول هَذَا خيِّرٌ صالح وذاك شريرٌ طالح.
(٤) بضعة عَشَرَ: نحو من تسعة عشر.
(٥) ترقرقت عيناه: دمعت عيناه.
(٦) أي بَنِيَّ: يا أبنائي.

يَا بَنِيَّ ، إِنَّ أَمَامَكُمْ خِيَارًا بَيْنَ أَمْرَيْنِ :

فَإِمَّا أَنْ تَسْتَغْنُوا ، وَيَدْخُلَ أَبُوكُمُ النَّارَ ...

وَإِمَّا أَنْ تَفْتَقِرُوا ، وَيَدْخُلَ الْجَنَّةَ ...

وَلَا أَحْسَبُ إِلَّا أَنَّكُمْ تُؤْثِرُونَ[1] إِنْقَاذَ أَبِيكُمْ مِنَ النَّارِ عَلَىٰ الْغِنَىٰ .

ثُمَّ نَظَرَ إِلَيْهِمْ فِي رِفْقٍ وَقَالَ : قُومُوا عَصَمَكُمُ اللَّهُ ...

قُومُوا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ...

فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ مَسْلَمَةُ وَقَالَ :

عِنْدِي مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .

فَقَالَ : وَمَا هُوَ ؟؟ .

قَالَ : لَدَيَّ ثَلَاثُمِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ ... وَإِنِّي أَهَبُهَا لَكَ فَفَرِّقْهَا فِيهِمْ ... أَوْ تَصَدَّقْ بِهَا إِذَا شِئْتَ .

فَقَالَ لَهُ عُمَرُ : أَوَ خَيْرٌ[2] مِنْ ذَلِكَ يَا مَسْلَمَةُ ؟ .

فَقَالَ : وَمَا هُوَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ .

فَقَالَ : تَرُدُّهَا إِلَىٰ مَنْ أُخِذَتْ مِنْهُ ؛ فَإِنَّهَا لَيْسَتْ لَكَ بِحَقٍّ ...

فَتَرَقْرَقَتْ عَيْنَا مَسْلَمَةَ وَقَالَ :

رَحِمَكَ اللَّهُ - يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - حَيًّا وَمَيِّتًا ...

فَقَدْ أَلَنْتَ مِنَّا قُلُوبًا قَاسِيَةً ...

(١) تُؤْثِرُونَ : تفضلون .

(٢) أَوَ خَيْرٌ مِن ذَلِكَ : بل عندي ما هو خير مما عندك .

وَذَكَّرْتَهَا، وَقَدْ كَانَتْ نَاسِيَةً ...

وَأَبْقَيْتَ لَنَا فِي الصَّالِحِينَ ذِكْرًا ...

* * *

ثُمَّ تَتَبَّعَ النَّاسُ أَخْبَارَ أَبْنَاءِ عُمَرَ مِنْ بَعْدِهِ ...

فَرَأَوْا أَنَّهُ مَا احْتَاجَ أَحَدٌ مِنْهُمْ وَلَا افْتَقَرَ ...

وَصَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ إِذْ يَقُولُ:

﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ ...

وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾[1] ... (*).

(1) سورة النساء: آية ٩.

(*) للاستزادة من أخبار عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ انظر:
١ - سيرة عُمَر بن عَبْد العَزيز لابن عَبْد الحكم.
٢ - سيرة عُمَر بن عَبْد العَزيز لابن الجوزي.
٣ - سيرة عُمَر بن عَبْد العَزيز للآجري.
٤ - الطبقات الكبرى لابن سَعْد: ٥/ ٣٣٠.
٥ - تاريخ خليفة: ٣٢١ - ٣٢٢.
٦ - التاريخ الكبير: ٦/ ١٧٤.
٧ - تاريخ الفسوي: ١/٥٦٨، ٦٢٠.
٨ - الطبري: ٦/٥٦٥ - ٥٧٣.
٩ - الجرح والتعديل: ٦/ ١٢٢.
١٠ - الطبقات للشيرازي: ٦٤.

الكتاب الرابع

مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنَفِيَّةِ

مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ

« لَا أَعْلَمُ أَحَدًا أَخَذَ عَنْ عَلِيٍّ وَأَفَادَ مِنْهُ أَكْثَرَ مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنَفِيَّةِ »

[ابْنُ الْجُنَيْدِ]

وَقَعَتْ بَيْنَ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنَفِيَّةِ وَأَخِيهِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ جَفْوَةٌ(١)، فَأَرْسَلَ ابْنُ الْحَنَفِيَّةِ إِلَى الْحَسَنِ يَقُولُ:

إِنَّ اللَّهَ فَضَّلَكَ عَلَيَّ...

فَأُمُّكَ فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ.

وَأُمِّي امْرَأَةٌ مِنْ بَنِي « حَنِيفَةَ ».

وَجَدُّكَ لِأُمِّكَ رَسُولُ اللَّهِ، وَصَفْوَةُ خَلْقِهِ...

وَجَدِّي لِأُمِّي جَعْفَرُ بْنُ قَيْسٍ.

فَإِذَا جَاءَكَ كِتَابِي هَٰذَا؛ فَتَعَالَ إِلَيَّ وَصَالِحْنِي، حَتَّىٰ يَكُونَ لَكَ الْفَضْلُ عَلَيَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ.

فَمَا إِنْ بَلَغَتْ رِسَالَتُهُ الْحَسَنَ... حَتَّىٰ بَادَرَ إِلَىٰ بَيْتِهِ وَصَالَحَهُ...

فَمَنْ هَٰذَا الْأَدِيبُ الْأَرِيبُ(٢) اللَّبِقُ(٣) مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنَفِيَّةِ؟.

تَعَالَ نَسْتَعْرِضْ قِصَّةَ حَيَاتِهِ مِنْ أَوَّلِهَا.

* * *

(١) الجفوة: الإعراض، وجفا فلان فلانًا: أعرض عنه وثقل عليه.

(٢) الأريب: الذكي الماهر. (٣) اللّبق: ذو الأخلاق الليّنة.

تَبْدَأُ هَٰذِهِ الْقِصَّةُ مُنْذُ أَوَاخِرِ حَيَاةِ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ.

فَفِي ذَاتِ يَوْمٍ كَانَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فِي جَلْسَةٍ مَعَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ...

أَرَأَيْتَ إِنْ وُلِدَ لِي وَلَدٌ مِنْ بَعْدِكَ أَفَأُسَمِّيهِ بِاسْمِكَ...

وَأُكَنِّيهِ بِكُنْيَتِكَ؟.

فَقَالَ: نَعَمْ.

ثُمَّ دَارَتِ الْأَيَّامُ دَوْرَتَهَا...

فَلَحِقَ النَّبِيُّ الْكَرِيمُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ بِالرَّفِيقِ[1] الْأَعْلَىٰ...

وَتَلَتْهُ بَعْدَ أَشْهُرٍ مَعْدُودَاتٍ ابْنَتُهُ وَرَيْحَانَتُهُ فَاطِمَةُ الْبَتُولُ[2] أُمُّ الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ.

فَأَصْهَرَ[3] عَلِيٌّ إِلَىٰ بَنِي «حَنِيفَةَ».

وَتَزَوَّجَ خَوْلَةَ بِنْتَ جَعْفَرِ بْنِ قَيْسٍ الْحَنَفِيَّةَ، فَوَلَدَتْ لَهُ مَوْلُودًا ذَكَرًا.

فَدَعَاهُ مُحَمَّدًا.

وَكَنَّاهُ[4] بِأَبِي الْقَاسِمِ بِإِذْنٍ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

غَيْرَ أَنَّ النَّاسَ طَفِقُوا يُنَادُونَهُ مُحَمَّدَ بْنَ الْحَنَفِيَّةِ؛ تَفْرِيقًا لَهُ عَنْ أَخَوَيْهِ الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ ابْنَيْ فَاطِمَةَ الزَّهْرَاءِ[5].

(١) يُقال لحق بالرفيق الأعلَىٰ: أي انتقل إلَىٰ جوار ربه.
(٢) البتول: التقية النقية.
(٣) أصْهَر إلَىٰ القوم: تقرب إليهم وتزوج ابنتهم.
(٤) كنّاه: سمّاه بأبي كذا.
(٥) فاطمة الزهراء: انظرها في كتاب «صور من حياة الصحابيات» للمؤلف، الناشر دار الأدب الإسلامي.

ثُمَّ عُرِفَ فِي التَّارِيخِ بِذَلِكَ .

* * *

وُلِدَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنَفِيَّةِ فِي أَوَاخِرِ خِلَافَةِ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

وَنَشَأَ وَتَرَبَّىٰ فِي كَنَفِ[1] أَبِيهِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، وَتَخَرَّجَ عَلَىٰ يَدَيْهِ .

فَأَخَذَ عَنْهُ عِبَادَتَهُ وَزَهَادَتَهُ ...

وَوَرِثَ مِنْهُ قُوَّتَهُ وَشَجَاعَتَهُ ...

وَتَلَقَّىٰ مِنْهُ فَصَاحَتَهُ وَبَلَاغَتَهُ ...

فَإِذَا هُوَ مِسْعَرُ[2] حَرْبٍ فِي سَاحَاتِ الْقِتَالِ ...

وَفَارِسُ مِنْبَرٍ فِي مَحَافِلِ الرِّجَالِ ...

وَرَاهِبٌ مِنْ رُهْبَانِ اللَّيْلِ إِذَا أَسْدَلَ الظَّلَامُ سُدُولَهُ عَلَىٰ الْكَوْنِ ، وَنَامَتِ الْعُيُونُ .

* * *

وَلَقَدْ أَقْحَمَهُ[3] أَبُوهُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي حُرُوبِهِ الَّتِي خَاضَهَا .

وَحَمَّلَهُ مِنْ أَعْبَائِهَا مَا لَمْ يُحَمِّلْهُ لِأَخَوَيْهِ الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ .

فَمَا لَانَتْ لَهُ قَنَاةٌ[4]، وَلَا وَهَنَ[5] لَهُ عَزْمٌ .

وَلَقَدْ قِيلَ لَهُ ذَاتَ مَرَّةٍ :

مَا لِأَبِيكَ يُقْحِمُكَ فِي الْمَهَالِكِ ، وَيُولِجُكَ[6] فِي الْمَضَايِقِ ؛ دُونَ أَخَوَيْكَ الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ ؟ .

---

(١) في كنف : في رعاية .
(٢) مسعر الحرب : بطلها وموقد نارها .
(٣) أقحمه : رماه .
(٤) القناة : الرمح ، وما لانت له قناة : ما غُلِبَ .
(٥) وَهَن : ضَعُفَ ولان .
(٦) يولجك : يدخلك ويحمّلك ما لا يطاق .

فَقَالَ : ذَلِكَ لِأَنَّ أَخَوَيَّ يَنْزِلَانِ مِنْ أَبِي مَنْزِلَةَ عَيْنَيْهِ ...

وَأَنْزِلُ أَنَا مِنْهُ مَنْزِلَةَ يَدَيْهِ ...

فَهُوَ يَقِي[1] عَيْنَيْهِ بِيَدَيْهِ .

* * *

وَفِي مَعْرَكَةِ « صِفِّينَ » الَّتِي دَارَتْ رَحَاهَا بَيْنَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَمُعَاوِيَةَ ابْنِ أَبِي سُفْيَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، كَانَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنَفِيَّةِ يَحْمِلُ رَايَةَ أَبِيهِ .

وَفِيمَا كَانَتْ رَحَى الْحَرْبِ[2] دَائِرَةً تَطْحَنُ النَّاسَ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ طَحْنًا وَقَعَتْ لَهُ قِصَّةٌ رَوَاهَا بِنَفْسِهِ فَقَالَ :

لَقَدْ رَأَيْتُنَا فِي « صِفِّينَ » ، وَقَدِ الْتَقَيْنَا مَعَ أَصْحَابِ مُعَاوِيَةَ ، فَاقْتَتَلْنَا حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ لَنْ يَبْقَى مِنَّا وَمِنْهُمْ أَحَدٌ ، فَاسْتَفْظَعْتُ الْأَمْرَ وَاسْتَكْبَرْتُهُ .

ثُمَّ مَا لَبِثْتُ أَنْ سَمِعْتُ صَائِحًا مِنْ خَلْفِي يَصِيحُ :

يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ ، اللَّهَ اللَّهَ ، يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ ...

مَنْ لِلنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ ؟ .

مَنْ لِلدِّينِ وَالْأَعْرَاضِ ؟ .

مَنْ لِلرُّومِ وَالدَّيْلَمِ[3] ؟ .

يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ ...

اللَّهَ ، اللَّهَ وَالْبُقْيَا[4] ، يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ .

---

(١) يقي : يصون .
(٢) رحى الحرب : حَوْمة الحرب .
(٣) الدَّيْلَم : شعب كبير شمالي قزوين حاربه المسلمون ثُمَّ اعتنق الإسلَام .
(٤) اللَّهَ اللَّهَ والبُقْيا : احذروا اللَّه ، وأبقوا علَى المسلمين .

فَعَاهَدْتُ نَفْسِي أَلَّا يُرْفَعَ لِي سَيْفٌ فِي وَجْهِ مُسْلِمٍ بَعْدَ ذَلِكَ الْيَوْمِ .

* * *

ثُمَّ اسْتُشْهِدَ عَلِيٌّ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ بِيَدِ آثِمَةٍ ظَالِمَةٍ[١]...

وَآلَ الْأَمْرُ إِلَىٰ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ ، فَبَايَعَهُ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنَفِيَّةِ عَلَىٰ السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي الْمَنْشَطِ[٢] وَالْمَكْرَهِ ، رَغْبَةً فِي رَأْبِ[٣] الصَّدْعِ ...

وَجَمْعِ الشَّمْلِ ...

وَعِزَّةِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ ...

وَلَقَدِ اسْتَشْعَرَ مُعَاوِيَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صِدْقَ هَٰذِهِ الْبَيْعَةِ وَصَفَاءَهَا ، وَاطْمَأَنَّ إِلَىٰ صَاحِبِهَا أَشَدَّ الِاطْمِئْنَانِ ؛ مِمَّا جَعَلَهُ يَسْتَزِيرُ[٤] مُحَمَّدَ بْنَ الْحَنَفِيَّةِ .

فَزَارَهُ فِي « دِمَشْقَ » أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ ...

وَلِأَكْثَرَ مِنْ سَبَبٍ ...

* * *

مِنْ ذَلِكَ أَنَّ مَلِكَ « الرُّومِ » كَتَبَ إِلَىٰ مُعَاوِيَةَ يَقُولُ :

إِنَّ الْمُلُوكَ عِنْدَنَا تُرَاسِلُ الْمُلُوكَ ، وَيُطْرِفُ[٥] بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِغَرَائِبِ مَا عِنْدَهُمْ ...

وَيُنَافِسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِعَجَائِبِ مَا فِي مَمَالِكِهِمْ .

فَهَلْ تَأْذَنُ لِي بِأَنْ يَكُونَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ مَا يَكُونُ بَيْنَهُمْ ؟ .

فَأَجَابَهُ مُعَاوِيَةُ بِالْإِيجَابِ وَأَذِنَ لَهُ .

---

(١) هي يَدُ عَبْد الرَّحْمَٰن بْن ملجم .

(٢) المنشط والمكره : ما تحبه النفس وما تكرهه .

(٣) رأب الصَّدْع : إصلاح الأمر وجمع الكلمة .

(٤) يَسْتَزِير فلانًا : يدعوه لزيارته .

(٥) يطرف : يمتع ويَسُر .

فَوَجَّهَ إِلَيْهِ مَلِكُ « الرُّومِ » رَجُلَيْنِ مِنْ عَجَائِبِ الرِّجَالِ :

أَحَدُهُمَا طَوِيلٌ مُفْرِطٌ فِي الطُّولِ ، جَسِيمٌ مُوغِلٌ[1] فِي الْجَسَامَةِ .

حَتَّىٰ لَكَأَنَّهُ دَوْحَةٌ[2] بَاسِقَةٌ فِي غَابَةٍ ، أَوْ بِنَاءٌ مَبْنِيٌّ .

وَالثَّانِي قَوِيٌّ غَايَةَ الْقُوَّةِ ، صُلْبٌ مَتِينٌ كَأَنَّهُ وَحْشٌ مُفْتَرِسٌ ...

وَبَعَثَ إِلَيْهِ مَعَهُمَا رِسَالَةً يَقُولُ فِيهَا :

أَفِي مَمْلَكَتِكَ مَنْ يُسَاوِي هَٰذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ طُولًا وَقُوَّةً ؟ .

فَقَالَ مُعَاوِيَةُ لِعَمْرِو بْنِ الْعَاصِ[3]:

أَمَّا الطَّوِيلُ فَقَدْ وَجَدْتُ مَنْ يُكَافِئُهُ[4] وَيَزِيدُ عَلَيْهِ ...

وَهُوَ قَيْسُ بْنُ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ .

وَأَمَّا الْقَوِيُّ فَقَدِ احْتَجْتُ إِلَىٰ رَأْيِكَ فِيهِ .

فَقَالَ عَمْرٌو : هُنَاكَ رَجُلَانِ لِهَٰذَا الْأَمْرِ غَيْرَ أَنَّ كِلَيْهِمَا عَنْكَ بَعِيدٌ ...

هُمَا : مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنَفِيَّةِ .

وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ .

فَقَالَ مُعَاوِيَةُ : إِنَّ مُحَمَّدَ بْنَ الْحَنَفِيَّةِ لَيْسَ عَنَّا بِبَعِيدٍ .

فَقَالَ عَمْرٌو : وَلَكِنْ ، أَتَظُنُّ أَنَّهُ يَرْضَىٰ عَلَىٰ جَلَالَةِ قَدْرِهِ ، وَسُمُوِّ مَنْزِلَتِهِ أَنْ يُقَاوِيَ[5] رَجُلًا مِنَ « الرُّومِ » عَلَىٰ مَرْأًى مِنَ النَّاسِ ؟ .

(١) موغل : عميق مُبعِد .

(٢) دوحة باسقة : شجرة مفرطة في الطّول .

(٣) عمرو بن العاص : انظره في كتاب « صور من حياة الصّحابة » للمؤلف ، النّاشر دار الأدب الإسلامي ، الطّبعة الشرعية .

(٤) يكافئه : يماثله .

(٥) يقاوي : يغالب رجلا بالقوة .

فَقَالَ مُعَاوِيَةُ :

إِنَّهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ وَأَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ ؛ إِذَا وَجَدَ فِيهِ عِزًّا لِلْإِسْلَامِ .

* * *

ثُمَّ إِنَّ مُعَاوِيَةَ دَعَا كُلًّا مِنْ قَيْسِ بْنِ سَعْدٍ وَمُحَمَّدِ بْنِ الْحَنَفِيَّةِ .

فَلَمَّا انْعَقَدَ الْمَجْلِسُ قَامَ قَيْسُ بْنُ سَعْدٍ فَنَزَعَ سَرَاوِيلَهُ وَرَمَىٰ بِهَا إِلَىٰ الْعِلْجِ[١] الرُّومِيِّ وَأَمَرَهُ أَنْ يَلْبِسَهَا ، فَلَبِسَهَا ... فَغَطَّتْ إِلَىٰ مَا فَوْقَ ثَدْيَيْهِ فَضَحِكَ النَّاسُ مِنْهُ .

وَأَمَّا مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنَفِيَّةِ فَقَالَ لِلتَّرْجُمَانِ : قُلْ لِلرُّومِيِّ ...

إِنْ شَاءَ أَنْ يَجْلِسَ وَأَكُونَ أَنَا قَائِمًا ثُمَّ يُعْطِينِي يَدَهُ .

فَإِمَّا أَنْ أُقِيمَهُ وَإِمَّا أَنْ يُقْعِدَنِي ...

وَإِنْ شَاءَ فَلْيَكُنْ هُوَ الْقَائِمُ وَأَنَا الْقَاعِدُ ...

فَاخْتَارَ الرُّومِيُّ الْقُعُودَ .

فَأَخَذَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنَفِيَّةِ بِيَدِهِ ، وَأَقَامَهُ ... وَعَجَزَ الرُّومِيُّ عَنْ إِقْعَادِهِ ...

فَدَبَّتِ الْحَمِيَّةُ[٢] فِي صَدْرِ الرُّومِيِّ ، وَاخْتَارَ أَنْ يَكُونَ هُوَ الْقَائِمُ وَمُحَمَّدٌ الْقَاعِدُ ، فَأَخَذَ مُحَمَّدٌ بِيَدِهِ وَجَذَبَهُ[٣] جَذْبَةً كَادَتْ تَفْصِلُ سَاعِدَهُ عَنْ كَتِفِهِ ...

وَأَقْعَدَهُ إِلَىٰ الْأَرْضِ .

فَانْصَرَفَ الْعِلْجَانِ الرُّومِيَّانِ إِلَىٰ مَلِكِهِمَا مَغْلُوبَيْنِ مَخْذُولَيْنِ .

* * *

(١) الْعِلْج : الرجل القوي الضخم من كفار العجم .
(٢) الحمية : الأنفة .
(٣) جذبه : ضِدُّ دفعه .

ثُمَّ دَارَتِ الْأَيَّامُ دَوْرَتَهَا كَرَّةً أُخْرَىٰ ...

وَلَحِقَ مُعَاوِيَةُ وَابْنُهُ يَزِيدُ ، وَمَرْوَانُ بْنُ الْحَكَمِ بِجِوَارِ رَبِّهِمْ ... وَآلَتْ زَعَامَةُ بَنِي « أُمَيَّةَ » إِلَىٰ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ ، فَنَادَىٰ بِنَفْسِهِ خَلِيفَةً لِلْمُسْلِمِينَ ، فَبَايَعَهُ أَهْلُ الشَّامِ .

وَكَانَ أَهْلُ الْحِجَازِ وَالْعِرَاقِ قَدْ بَايَعُوا لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ(١) .

وَطَفِقَ كُلٌّ مِنْهُمَا يَدْعُو مَنْ لَمْ يُبَايِعْهُ لِبَيْعَتِهِ ...

وَيَزْعُمُ لِلنَّاسِ أَنَّهُ أَحَقُّ بِالْخِلَافَةِ مِنْ صَاحِبِهِ ...

فَانْشَقَّ صَفُّ الْمُسْلِمِينَ كَرَّةً(٢) أُخْرَىٰ ...

وَهُنَا طَلَبَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنَفِيَّةِ أَنْ يُبَايِعَهُ كَمَا بَايَعَهُ أَهْلُ الْحِجَازِ .

غَيْرَ أَنَّ ابْنَ الْحَنَفِيَّةِ لَمْ يَكُنْ يَخْفَىٰ عَلَيْهِ أَنَّ الْبَيْعَةَ تَجْعَلُ فِي عُنُقِهِ لِمَنْ يُبَايِعُهُ حُقُوقًا كَثِيرَةً ...

مِنْهَا سَلُّ سَيْفِهِ دُونَهُ(٣) ، وَقِتَالُ مُخَالِفِيهِ .

وَمَا مُخَالِفُوهُ إِلَّا مُسْلِمِينَ قَدِ اجْتَهَدُوا ؛ فَبَايَعُوا لِغَيْرِ مَنْ بَايَعَ ...

وَلَمْ يَكُنِ الرَّجُلُ الْعَاقِلُ الْكَامِلُ قَدْ نَسِيَ يَوْمَ « صِفِّينَ » .

وَلَمْ تَكُنِ السُّنُونَ(٤) الطَّوِيلَةُ قَدْ مَحَتْ مِنْ مَسْمَعَيْهِ ذَلِكَ الصَّوْتَ الْأَجَشَّ الرَّصِينَ الْحَزِينَ وَهُوَ يُنَادِي مِنْ خَلْفِهِ :

---

(١) عبد اللَّه بن الزّبير : ابن أسماء بنت الصّدّيق تمّ فتح إفريقيا علىٰ يديه ، اقرأ طرفًا من أخباره في كتاب « صور من حياة الصّحابيات » للمؤلف .

(٢) كرّة أخرىٰ : مرّة ثانية .

(٣) دونه : دفاعًا عنه وتأييدًا له .

(٤) السّنون : السّنوات .

يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ ...

اللَّهَ ... اللَّهَ ... يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ.

مَنْ لِلنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ ؟.

مَنْ لِلدِّينِ وَالْأَعْرَاضِ ؟.

مَنْ لِلرُّومِ وَالدَّيْلَمِ ؟.

نَعَمْ لَمْ يَكُنْ قَدْ نَسِيَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ قَطُّ.

فَقَالَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ:

إِنَّكَ لَتَعْلَمُ عِلْمَ الْيَقِينِ أَنَّهُ لَيْسَ لِي فِي هَذَا الْأَمْرِ أَرَبٌ[1] وَلَا مَطْلَبٌ ...

وَإِنَّمَا أَنَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ.

فَإِذَا اجْتَمَعَتْ كَلِمَتُهُمْ عَلَيْكَ أَوْ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ، بَايَعْتُ مَنِ اجْتَمَعَتْ كَلِمَتُهُمْ عَلَيْهِ.

أَمَّا الْآنَ فَلَا أُبَايِعُكَ ...

وَلَا أُبَايِعُهُ.

فَجَعَلَ عَبْدُ اللَّهِ يُعَاشِرُهُ وَيُلَايِنُهُ[2] تَارَةً، وَيُعْرِضُ[3] عَنْهُ وَيُجَافِيهِ[4] تَارَةً أُخْرَى.

* * *

غَيْرَ أَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ الْحَنَفِيَّةِ مَا لَبِثَ أَنِ انْضَمَّ إِلَيْهِ رِجَالٌ كَثِيرُونَ رَأَوْا رَأْيَهُ، وَأَسْلَمُوا قِيَادَهُمْ[5] إِلَيْهِ.

---

(١) أرب: غرض وغاية.
(٢) يلاينه: يعامله باللين والحسنى.
(٣) يُعرض عنه: يصدُّ عنه.
(٤) يجافيه: يغلظ عليه في المعاشرة.
(٥) قيادهم: قيادتهم وزعامتهم.

حَتَّىٰ بَلَغُوا سَبْعَةَ آلَافِ رَجُلٍ مِمَّنْ آثَرُوا اعْتِزَالَ الْفِتْنَةِ.

وَأَبَوْا أَنْ يَجْعَلُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ حَطَبًا لِنَارِهَا الْمُتَّقِدَةِ.

وَكَانَ كُلَّمَا ازْدَادَ أَتْبَاعُ ابْنِ الْحَنَفِيَّةِ عَدَدًا؛ ازْدَادَ ابْنُ الزُّبَيْرِ مِنْهُ غَيْظًا وَأَلَحَّ عَلَيْهِ فِي طَلَبِ الْبَيْعَةِ.

فَلَمَّا يَئِسَ مِنْ ذَلِكَ أَمَرَهُ هُوَ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ بَنِي «هَاشِمٍ» وَغَيْرِهِمْ أَنْ يَلْزَمُوا شِعْبَهُمْ[١] بِمَكَّةَ، وَجَعَلَ عَلَيْهِمُ الرُّقَبَاءَ.

ثُمَّ قَالَ لَهُمْ:

وَاللَّهِ لَتُبَايِعُنَّ أَوْ لَأُحَرِّقَنَّكُمْ بِالنَّارِ...

ثُمَّ حَبَسَهُمْ فِي بُيُوتِهِمْ، وَجَمَعَ لَهُمُ الْحَطَبَ، وَأَحَاطَ بِهِ الْمَنَازِلَ إِلَىٰ أَنْ بَلَغَ رُؤُوسَ الْجُدْرَانِ.

حَتَّىٰ إِنَّهُ لَوْ أَشْعَلَ مِنْهُ حَطَبَةً وَاحِدَةً لَأَحْرَقَهُمْ جَمِيعًا.

عِنْدَ ذَلِكَ قَامَ إِلَيْهِ جَمَاعَةٌ مِنْ أَتْبَاعِهِ وَقَالُوا:

دَعْنَا نَقْتُلِ ابْنَ الزُّبَيْرِ وَنُرِحِ النَّاسَ مِنْهُ.

فَقَالَ: أَفَنُوقِدُ بِأَيْدِينَا نَارَ الْفِتْنَةِ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا اعْتَزَلْنَا[٢]...

وَنَقْتُلُ رَجُلًا مِنْ صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَبْنَاءِ صَحَابَتِهِ؟!...

لَا، وَاللَّهِ لَا نَفْعَلُ شَيْئًا يُغْضِبُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ.

* * *

وَلَمَّا بَلَغَ عَبْدَ الْمَلِكِ بْنَ مَرْوَانَ مَا يُعَانِيهِ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنَفِيَّةِ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ

(١) الشِّعب: مكانٌ منفرجٌ بين جبلين.

(٢) اعتزلْنا: تنحينا.

بَأْسِ[1] عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ ، رَأَىٰ الْفُرْصَةَ سَانِحَةً[2] لِاسْتِمَالَتِهِمْ إِلَيْهِ .

فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ كِتَابًا مَعَ رَسُولٍ مِنْ عِنْدِهِ لَوْ كَتَبَهُ لِأَحَدِ أَبْنَائِهِ لَمَا كَانَ أَرَقَّ لَهْجَةً ، وَلَا أَلْطَفَ خِطَابًا .

وَكَانَ مِمَّا جَاءَ فِيهِ :

لَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ ابْنَ الزُّبَيْرِ قَدْ ضَيَّقَ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ مَنْ مَعَكَ الْخِنَاقَ[3]...

وَقَطَعَ رَحِمَكَ ...

وَاسْتَخَفَّ بِحَقِّكَ ...

وَهَٰذِهِ بِلَادُ الشَّامِ مَفْتُوحَةٌ أَمَامَكَ تَسْتَقْبِلُكَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَىٰ الرَّحْبِ وَالسَّعَةِ ... فَانْزِلْ فِيهَا حَيْثُ تَشَاءُ تَلْقَ بِالْأَهْلِ أَهْلًا ، وَبِالْجِيرَانِ أَحْبَابًا .

وَسَتَجِدُنَا عَارِفِينَ لِحَقِّكَ ...

مُقَدِّرِينَ لِفَضْلِكَ ...

وَاصِلِينَ لِرَحِمِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ...

* * *

سَارَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنَفِيَّةِ وَمَنْ مَعَهُ مُيَمِّمِينَ[4] وُجُوهَهُمْ شَطْرَ[5] بِلَادِ الشَّامِ ... فَلَمَّا بَلَغُوا «أَيْلَةَ»[6]، اسْتَقَرُّوا فِيهَا .

فَأَنْزَلَهُمْ أَهْلُهَا أَكْرَمَ مَنْزِلٍ ، وَجَاوَرُوهُمْ أَحْسَنَ جِوَارٍ .

(١) بأس عبد الله : قسوة عبد الله .
(٢) سانحة : مواتية .
(٣) الخناق : ما يُخنقُ به كالحبل .
(٤) ميممين : مُوَجِّهين وقاصدين .
(٥) شطر : نحوَ .
(٦) أيلة : بلدة شمالي العقبة وهذا هو اسمها الروماني ، وهي الآن إيلات .

وَأَحَبُّوا مُحَمَّدَ بْنَ الْحَنَفِيَّةِ وَعَظَّمُوهُ ؛ لِمَا رَأَوْا مِنْ عُمْقِ عِبَادَتِهِ ، وَصِدْقِ زَهَادَتِهِ(١).

فَطَفِقَ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ، وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ .

وَيُقِيمُ فِيهِمُ الشَّعَائِرَ ، وَيُصْلِحُ لَهُمْ ذَاتَ الْبَيْنِ(٢).

وَلَا يَدَعُ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ يَظْلِمُ أَحَدًا .

فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ عَبْدَ الْمَلِكِ بْنَ مَرْوَانَ شَقَّ عَلَيْهِ الْأَمْرُ ، وَاسْتَشَارَ خَاصَّتَهُ فَقَالُوا لَهُ :

مَا نَرَىٰ أَنْ تَسْمَحَ لَهُ بِأَنْ يُقِيمَ فِي مُلْكِكَ ، وَسِيرَتُهُ كَمَا عَلِمْتَ ...

فَإِمَّا أَنْ يُبَايِعَ لَكَ ...

وَإِمَّا أَنْ يَعُودَ مِنْ حَيْثُ جَاءَ .

فَكَتَبَ إِلَيْهِ عَبْدُ الْمَلِكِ يَقُولُ :

إِنَّكَ قَدِمْتَ بِلَادِي فَنَزَلْتَ فِي طَرَفٍ مِنْهَا ، وَهَٰذِهِ الْحَرْبُ قَائِمَةٌ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ ...

وَأَنْتَ رَجُلٌ لَكَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ ذِكْرٌ وَمَكَانٌ(٣)، وَقَدْ رَأَيْتُ أَلَّا تُقِيمَ فِي أَرْضِي إِلَّا إِذَا بَايَعْتَنِي ...

فَإِنْ بَايَعْتَنِي ، فَلَكَ مِنِّي مِائَةُ سَفِينَةٍ قَدِمَتْ عَلَيَّ أَمْسِ مِنَ « الْقُلْزُمِ »(٤) فَخُذْهَا بِمَا فِيهَا وَمَنْ فِيهَا .

---

(١) زَهادَتِه : زهده .
(٢) ذات الْبين : الْفرقة والخصومة .
(٣) مكان : منزلة ومقام .
(٤) الْقُلْزُم : مرفأ قديم عند مصب النّيل رمّمه عُمَر بن الخطّاب لنقل جيوش المسلمين بين الْفسطاطِ ومَكّة .

وَلَكَ مَعَهَا أَلْفَا أَلْفِ دِرْهَمٍ مَعَ مَا تَفْرِضُهُ مِنْ فَرِيضَةٍ لِنَفْسِكَ ، وَلِأَوْلَادِكَ ، وَلِذَوِي قَرَابَتِكَ ، وَمَوَالِيكَ ، وَمَنْ مَعَكَ ...

وَإِنْ أَبَيْتَ فَتَحَوَّلْ عَنِّي إِلَىٰ مَكَانٍ لَا سُلْطَانَ لِي عَلَيْهِ .

فَكَتَبَ إِلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنَفِيَّةِ يَقُولُ :

مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ إِلَىٰ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ ؛ سَلَامٌ عَلَيْكَ .

وَإِنِّي أَحْمَدُ اللَّهَ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْكَ ، أَمَّا بَعْدُ ...

فَلَعَلَّكَ تَتَخَوَّفُ مِنِّي ، وَكُنْتُ أَحْسَبُ أَنَّكَ عَارِفٌ بِحَقِيقَةِ مَوْقِفِي مِنْ هَٰذَا الْأَمْرِ .

وَوَاللَّهِ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَيَّ هَٰذِهِ الْأُمَّةُ كُلُّهَا ، إِلَّا أَهْلَ قَرْيَةٍ وَاحِدَةٍ مَا قَبِلْتُهُ ، وَلَا قَاتَلْتُهُمْ عَلَيْهِ .

وَلَقَدْ نَزَلْتُ بِمَكَّةَ فَأَرَادَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ أَنْ أُبَايِعَهُ ، فَلَمَّا أَبَيْتُ أَسَاءَ جِوَارِي .

ثُمَّ كَتَبْتَ إِلَيَّ تَدْعُونِي إِلَىٰ الْإِقَامَةِ بِبِلَادِ الشَّامِ ، فَنَزَلْتُ بِبَلْدَةٍ فِي أَطْرَافِ أَرْضِكَ لِرُخْصِ أَسْعَارِهَا وَبُعْدِهَا عَنْ مَرْكَزِ سُلْطَانِكَ .

فَكَتَبْتَ إِلَيَّ بِمَا كَتَبْتَ بِهِ ...

وَنَحْنُ مُنْصَرِفُونَ عَنْكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

* * *

انْصَرَفَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنَفِيَّةِ بِرِجَالِهِ وَأَهْلِهِ عَنْ بِلَادِ الشَّامِ ، وَطَفِقَ[١] كُلَّمَا نَزَلَ بِمَنْزِلٍ يُزْعَجُ[٢] عَنْهُ ، وَيُدْعَىٰ إِلَىٰ الرَّحِيلِ مِنْهُ .

(١) طفق : جعل .
(٢) يُزعج عنه : يُخرج منه .

وَكَأَنَّهُ لَمْ تَكْفِهِ هُمُومُهُ كُلُّهَا ؛ فَشَاءَ اللَّهُ أَنْ يَخْتَبِرَهُ بِهُمُومٍ أُخْرَىٰ أَشَدَّ وَقْعًا وَأَثْقَلَ وَطْأَةً ...

ذَلِكَ أَنَّ جَمَاعَةً مِنْ أَتْبَاعِهِ مِمَّنْ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ(١)، وَآخَرُونَ مِمَّنْ فِي عُقُولِهِمْ غَفْلَةٌ جَعَلُوا يَقُولُونَ :

إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَوْدَعَ صَدْرَ عَلِيٍّ وَآلِهِ كَثِيرًا مِنْ أَسْرَارِ الْعِلْمِ ، وَقَوَاعِدِ الدِّينِ ، وَكُنُوزِ الشَّرِيعَةِ .

وَأَنَّهُ خَصَّ آلَ الْبَيْتِ بِمَا لَمْ يُطْلِعْ غَيْرَهُمْ عَلَيْهِ ...

فَأَدْرَكَ الرَّجُلُ الْعَالِمُ الْعَاقِلُ الْأَرِيبُ مَا يَحْمِلُهُ هَٰذَا الْكَلَامُ فِي طَيَّاتِهِ مِنَ انْحِرَافٍ ، وَمَا يُمْكِنُ أَنْ يَجُرَّهُ عَلَى الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ مِنْ مَخَاطِرَ وَأَضْرَارٍ .

فَجَمَعَ النَّاسَ وَقَامَ فِيهِمْ خَطِيبًا ... فَحَمِدَ اللَّهَ جَلَّ وَعَزَّ وَأَثْنَىٰ عَلَيْهِ ، وَصَلَّىٰ عَلَىٰ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ... ثُمَّ قَالَ :

يَزْعُمُ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ عِنْدَنَا مَعْشَرَ آلِ الْبَيْتِ عِلْمًا خَصَّنَا بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، وَلَمْ يُطْلِعْ عَلَيْهِ أَحَدًا غَيْرَنَا ...

وَإِنَّا - وَاللَّهِ - مَا وَرِثْنَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَّا مَا بَيْنَ هَٰذَيْنِ اللَّوْحَيْنِ ، وَأَشَارَ إِلَى الْمُصْحَفِ .

وَإِنَّ مَنْ زَعَمَ أَنَّ عِنْدَنَا شَيْئًا نَقْرَؤُهُ إِلَّا كِتَابَ اللَّهِ ؛ فَقَدْ كَذَبَ .

* * *

وَكَانَ بَعْضُ أَتْبَاعِهِ يُسَلِّمُونَ عَلَيْهِ فَيَقُولُونَ :

السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا مَهْدِيُّ .

---

(١) في قلوبهم مرض : في دينهم ضعف ونقص .

فَيَقُولُ : نَعَمْ أَنَا مَهْدِيٌّ إِلَىٰ الْخَيْرِ ...

وَأَنْتُمْ مَهْدِيُّونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ...

وَلَكِنْ إِذَا سَلَّمَ عَلَيَّ أَحَدُكُمْ ، فَلْيُسَمِّنِي بِاسْمِي ، وَلْيَقُلْ :

السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ .

* * *

لَمْ تَطُلْ حِيرَةُ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنَفِيَّةِ فِي الْمَكَانِ الَّذِي يَسْتَقِرُّ فِيهِ هُوَ وَمَنْ مَعَهُ ... فَقَدْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقْضِيَ الْحَجَّاجُ[١] بْنُ يُوسُفَ الثَّقَفِيُّ عَلَىٰ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ ...

وَأَنْ يُبَايِعَ النَّاسُ جَمِيعًا لِعَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ .

فَمَا كَانَ مِنْهُ إِلَّا أَنْ كَتَبَ إِلَىٰ عَبْدِ الْمَلِكِ يَقُولُ :

إِلَىٰ عَبْدِ اللَّهِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ .

مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ .

أَمَّا بَعْدُ ... فَإِنِّي لَمَّا رَأَيْتُ هَٰذَا الْأَمْرَ أَفْضَىٰ[٢] إِلَيْكَ ، وَبَايَعَكَ النَّاسُ ، كُنْتُ كَرَجُلٍ مِنْهُمْ ؛ فَبَايَعْتُكَ لِوَالِيكَ فِي الْحِجَازِ .

وَبَعَثْتُ إِلَيْكَ بِبَيْعَتِي هَٰذِهِ مَكْتُوبَةً .

وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ .

فَلَمَّا قَرَأَ عَبْدُ الْمَلِكِ الْكِتَابَ عَلَىٰ أَصْحَابِهِ قَالُوا :

---

(١) اقرأ خبر عبد الله بن الزُّبَيْر مع الحجّاج في كتاب « صور من حياة الصحابيات » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي .

(٢) أفضَىٰ إليك : آلَ إليك .

لَوْ أَرَادَ أَنْ يَشُقَّ عَصَا[1] الطَّاعَةِ وَيُحْدِثَ فِي الْأَمْرِ فَتْقًا[2] لَقَدَرَ عَلَىٰ ذَٰلِكَ، وَلَمَا كَانَ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ سَبِيلٍ...

فَاكْتُبْ إِلَيْهِ بِالْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ وَالْأَمَانِ وَذِمَّةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ أَلَّا يُزْعَجَ، أَوْ يُهَاجَ[3] هُوَ أَوْ أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِهِ.

فَكَتَبَ إِلَيْهِ بِذَٰلِكَ.

وَكَتَبَ إِلَىٰ الْحَجَّاجِ يَأْمُرُهُ بِتَعْظِيمِهِ، وَرِعَايَةِ حُرْمَتِهِ، وَالْمُبَالَغَةِ فِي إِكْرَامِهِ.

غَيْرَ أَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ الْحَنَفِيَّةِ لَمْ يَعِشْ بَعْدَ ذَٰلِكَ طَوِيلًا...

فَقَدِ اخْتَارَهُ اللَّهُ إِلَىٰ جِوَارِهِ رَاضِيًا مَرْضِيًّا.

* * *

نَوَّرَ اللَّهُ لِمُحَمَّدِ بْنِ الْحَنَفِيَّةِ فِي قَبْرِهِ، وَنَضَّرَ فِي الْجَنَّةِ رُوحَهُ...

فَقَدْ كَانَ مِمَّنْ لَا يُرِيدُونَ فَسَادًا فِي الْأَرْضِ...

وَلَا عُلُوًّا بَيْنَ النَّاسِ (*).

---

(١) يشق عصا الطاعة: يخرج علينا.
(٢) فتقًا: انشقاقًا.
(٣) يُهاج: يعكّر.

(*) للاستزادة من أخبار مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنَفِيَّةِ انظر:
١ - حِلية الأولياء لِأبي نُعَيم: ٣/ ١٧٤.
٢ - تهذيب التَّهذيب: ٩/ ٣٥٤.
٣ - صفة الصَّفوة لِابن الجوزي «طبعة حلب»: ٢/٧٧ - ٧٩.
٤ - الطَّبقات الكبرىٰ لِابن سعد: ٥/ ٩١.
٥ - الوافي بالوفيات «الترجمة»: ١٥٨٣.
٦ - وفيات الأعيان لِابن خلكان: ٤/ ١٦٩.
٧ - الكامل: ٣/ ٣٩١ و٤/ ٢٥٠، وانظر حوادث سنة ٦٦.
٨ - شذرات الذَّهب: ١/ ٨٩.
٩ - تهذيب الأسماء واللّغات: ١/ ٨٨ - ٨٩.
١٠ - البدء والتَّاريخ: ٥/ ٧٥ - ٧٦.
١١ - المعارف لِابن قتيبة: ١٢٣.
١٢ - العقد الفريد لِابن عبد ربه - «تحقيق العريان» انظر الأجزاء: ٢، ٣، ٥، ٧.

طاووس بن كيسان

حكايته مع الوالي محمد بن يوسف الثقفي

«مَا رَأَيْتُ أَحَدًا قَطُّ مِثْلَ طَاوُوسِ بْنِ كَيْسَانَ»

[عَمْرُو بْنُ دِينَارٍ]

بِخَمْسِينَ نَجْمًا مِنْ نُجُومِ الْهِدَايَةِ اسْتَضَاءَ ، فَغَمَرَهُ السَّنَا[1] وَتَدَفَّقَ عَلَيْهِ النُّورُ ... فَنُورٌ فِي قَلْبِهِ ...

وَنُورٌ فِي لِسَانِهِ ...

وَنُورٌ يَسْعَىٰ بَيْنَ يَدَيْهِ ...

* * *

وَعَلَىٰ خَمْسِينَ عَلَمًا مِنْ أَعْلَامِ مَدْرَسَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ تَخَرَّجَ ؛ فَإِذَا هُوَ صُورَةٌ لِصَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ فِي رُسُوخِ الْإِيمَانِ ...

وَصِدْقِ اللَّهْجَةِ ...

وَالتَّعَالِي عَلَىٰ عَرَضِ الدُّنْيَا[2] ... وَالتَّفَانِي فِي مَرْضَاةِ اللَّهِ ...

وَالْجَهْرِ بِكَلِمَةِ الْحَقِّ مَهْمَا كَانَ ثَمَنُ كَلِمَةِ الْحَقِّ غَالِيًا .

فَلَقَدْ عَلَّمَتْهُ الْمَدْرَسَةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ أَنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ ... النَّصِيحَةُ لِلَّهِ ، وَكِتَابِهِ ، وَرَسُولِهِ ﷺ ، وَأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ ، وَعَامَّتِهِمْ .

وَهَدَتْهُ التَّجْرِبَةُ إِلَىٰ أَنَّ الصَّلَاحَ كُلَّهُ يَبْدَأُ عِنْدَ وَلِيِّ الْأَمْرِ[3] ...

---

(١) السَّنا : النُّور .

(٢) عَرَض الدُّنيا : فانيها.

(٣) ولي الأمر : من يلي أمور المسلمين من خليفة أو والٍ أو أمير.

وَيَنْتَهِي عِنْدَهُ .

فَإِذَا صَلَحَ الرَّاعِي[1] صَلَحَتِ الرَّعِيَّةُ ...

وَإِذَا فَسَدَ فَسَدَتْ ...

ذَلِكُمْ هُوَ ذَكْوَانُ بْنُ كَيْسَانَ الْمُلَقَّبُ بِطَاوُوسٍ[2].

وَهُوَ لَقَبٌ خُلِعَ عَلَيْهِ لِأَنَّهُ كَانَ طَاوُوسَ الْفُقَهَاءِ ...

وَالْمُقَدَّمَ عَلَيْهِمْ فِي عَصْرِهِ .

* * *

كَانَ طَاوُوسُ بْنُ كَيْسَانَ مِنْ أَهْلِ « الْيَمَنِ » ... وَكَانَتِ الْوِلَايَةُ فِي « الْيَمَنِ » إِذْ ذَاكَ لِمُحَمَّدِ بْنِ يُوسُفَ الثَّقَفِيِّ أَخِي الْحَجَّاجِ بْنِ يُوسُفَ .

فَقَدْ أَرْسَلَهُ الْحَجَّاجُ وَالِيًا عَلَيْهَا بَعْدَ أَنْ عَظُمَ أَمْرُهُ ، وَقَوِيَتْ شَوْكَتُهُ ، وَاشْتَدَّتْ هَيْبَتُهُ ؛ إِثْرَ قَضَائِهِ عَلَى حَرَكَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ[3].

وَكَانَ مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ يَجْمَعُ فِي ذَاتِهِ كَثِيرًا مِنْ سَيِّئَاتِ أَخِيهِ الْحَجَّاجِ ، وَلَكِنَّهُ مَا كَانَ يَتَحَلَّى بِشَيْءٍ مِنْ حَسَنَاتِهِ .

* * *

وَفِي غَدَاةِ يَوْمٍ بَارِدٍ مِنْ أَيَّامِ الشِّتَاءِ دَخَلَ عَلَيْهِ طَاوُوسُ بْنُ كَيْسَانَ وَمَعَهُ وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ[4].

فَلَمَّا أَخَذَا مَجْلِسَيْهِمَا عِنْدَهُ ؛ طَفِقَ طَاوُوسٌ يَعِظُهُ وَيُرَغِّبُهُ وَيُرَهِّبُهُ ، وَالنَّاسُ جُلُوسٌ بَيْنَ يَدَيْهِ ... فَقَالَ الْوَالِي لِأَحَدِ حُجَّابِهِ :

---

(١) الرَّاعِي : من يَرْعَى أمور المسلمين ويتولاها ، والرَّعِيَّةُ : من يرعاهم ويتولى أمورهم .

(٢) الطَّاوُوس : طائر حسن الشكل طويل العنق جميل القنبرة ، وقد سمي به كثير من العلماء والصلحاء .

(٣) اقرأ خبر عبد الله بن الزُّبَيْر رَضِيَ اللَّهُ عنه مع الحجاج في كتاب « صور من حياة الصحابيات » للمؤلف .

(٤) وَهْبُ بن مُنَبِّه : تابعي يمني فارسي الأصل عارف بأخبار أهل الكتاب .

يَا غُلَامُ أَحْضِرْ طَيْلَسَانًا[١]، وَأَلْقِهِ عَلَىٰ كَتِفَيْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَٰنِ.

فَعَمَدَ الْحَاجِبُ إِلَىٰ طَيْلَسَانٍ ثَمِينٍ، وَأَلْقَاهُ عَلَىٰ كَتِفَيْ طَاوُوسٍ.

فَظَلَّ طَاوُوسٌ مُتَدَفِّقًا فِي مَوْعِظَتِهِ، وَجَعَلَ يُحَرِّكُ كَتِفَيْهِ فِي تُؤَدَةٍ[٢] حَتَّىٰ أَلْقَىٰ الطَّيْلَسَانَ عَنْ عَاتِقِهِ[٣]، وَهَبَّ وَاقِفًا، وَانْصَرَفَ...

فَغَضِبَ مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ غَضَبًا ظَهَرَ فِي احْمِرَارِ عَيْنَيْهِ، وَاحْتِقَانِ[٤] وَجْهِهِ... غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَقُلْ شَيْئًا...

فَلَمَّا صَارَ طَاوُوسٌ وَصَاحِبُهُ خَارِجَ الْمَجْلِسِ، قَالَ وَهْبٌ لِطَاوُوسٍ:

وَاللَّهِ لَقَدْ كُنَّا فِي غِنًى عَنْ إِثَارَةِ غَضَبِهِ عَلَيْنَا...

فَمَاذَا كَانَ يَضِيرُكَ[٥] لَوْ أَخَذْتَ الطَّيْلَسَانَ مِنْهُ، ثُمَّ بِعْتَهُ، وَتَصَدَّقْتَ بِثَمَنِهِ عَلَىٰ الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ؟!.

فَقَالَ طَاوُوسٌ: هُوَ مَا تَقُولُ...

لَوْلَا أَنَّنِي خَشِيتُ أَنْ يَقُولَ الْعُلَمَاءُ مِنْ بَعْدِي:

نَأْخُذُ كَمَا أَخَذَ طَاوُوسٌ... ثُمَّ لَا يَصْنَعُونَ فِيمَا أَخَذُوهُ مَا تَقُولُ.

* * *

وَكَأَنَّمَا أَرَادَ مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ أَنْ يَرُدَّ لِطَاوُوسٍ الْحَجَرَ مِنْ حَيْثُ جَاءَ[٦]، فَنَصَبَ لَهُ شَرَكًا مِنْ شِرَاكِهِ[٧]... حَيْثُ أَعَدَّ صُرَّةً فِيهَا سَبْعُمِائَةِ دِينَارٍ ذَهَبًا... وَاخْتَارَ رَجُلًا حَاذِقًا مِنْ رِجَالِ حَاشِيَتِهِ وَقَالَ لَهُ:

---

(١) الطَّيلسان: كساء أخضر اللَّون غالي الثَّمن تلبسه الخاصَّة.
(٢) تؤدة: هُدوء.
(٣) العاتق: ما بين المنكِب والعنق، والمراد به الكتف.
(٤) احتقان وجهه: احتباس الدَّم في وَجْهِه.
(٥) يضيرك: يؤذيك ويحط من قدرك.
(٦) يرد الحجر من حيث جاء: يقابلَ الأمر بمثله، وينتقم منه.
(٧) شَرَكًا من شِرَاكه: حبلًا من حبال صَيْدِه.

اِمْضِ بِهَٰذِهِ الصُّرَّةِ إِلَىٰ طَاوُوسِ بْنِ كَيْسَانَ ، وَاحْتَلْ عَلَيْهِ فِي أَخْذِهَا ...

فَإِنْ أَخَذَهَا مِنْكَ أَجْزَلْتُ(١) عَطِيَّتَكَ ... وَكَسَوْتُكَ ، وَقَرَّبْتُكَ .

فَخَرَجَ الرَّجُلُ بِالصُّرَّةِ ؛ حَتَّىٰ أَتَىٰ طَاوُوسًا فِي قَرْيَةٍ كَانَ يُقِيمُ بِهَا بِالْقُرْبِ مِنْ « صَنْعَاءَ » يُقَالُ لَهَا « الْجَنَدُ » .

فَلَمَّا صَارَ عِنْدَهُ حَيَّاهُ ، وَآنَسَهُ(٢)، وَقَالَ لَهُ :

يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَٰنِ ، هَٰذِهِ نَفَقَةٌ بَعَثَ بِهَا الْأَمِيرُ إِلَيْكَ .

فَقَالَ : مَا لِي بِهَا مِنْ حَاجَةٍ .

فَاحْتَالَ عَلَيْهِ بِكُلِّ طَرِيقٍ لِيَقْبَلَهَا ؛ فَأَبَىٰ ...

وَأَدْلَىٰ(٣) لَهُ بِكُلِّ حُجَّةٍ ؛ فَرَفَضَ .

فَمَا كَانَ مِنْهُ إِلَّا أَنِ اغْتَنَمَ(٤) غَفْلَةً مِنْ طَاوُوسٍ ... وَرَمَىٰ بِالصُّرَّةِ فِي كُوَّةٍ(٥) كَانَتْ بِجِدَارِ الْبَيْتِ ، وَعَادَ رَاجِعًا إِلَىٰ الْأَمِيرِ وَقَالَ :

لَقَدْ أَخَذَ طَاوُوسٌ الصُّرَّةَ أَيُّهَا الْأَمِيرُ .

فَسُرَّ لِذَلِكَ مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ ، وَسَكَتَ عَلَيْهِ .

فَلَمَّا مَضَتْ عَلَىٰ ذَلِكَ أَيَّامٌ عِدَّةٌ ، أَرْسَلَ اثْنَيْنِ مِنْ أَعْوَانِهِ(٦)، وَمَعَهُمَا الرَّجُلُ الَّذِي حَمَلَ إِلَيْهِ الصُّرَّةَ ، وَأَمَرَهُمَا أَنْ يَقُولَا لَهُ :

إِنَّ رَسُولَ الْأَمِيرِ قَدْ أَخْطَأَ فَدَفَعَ إِلَيْكَ الْمَالَ ، وَهُوَ مُرْسَلٌ لِغَيْرِكَ ...

وَقَدْ أَتَيْنَا لِنَسْتَرِدَّهُ مِنْكَ ، وَنَحْمِلَهُ إِلَىٰ صَاحِبِهِ .

---

(١) أجزلت عطيتك : أكرمتك وأكثرت هبتك.
(٢) آنسه : لاطفه .
(٣) أدْلَىٰ بالحجة : أحضر الحجة وأقنع بها .
(٤) اغتنم : انتهز .
(٥) الكوّة : النافذة الصغيرة في الجدار .
(٦) من أعوانه : من رجاله .

فَقَالَ طَاوُوسٌ : مَا أَخَذْتُ مِنْ مَالِ الْأَمِيرِ شَيْئًا حَتَّىٰ أَرُدَّهُ إِلَيْهِ .

فَقَالَا : بَلْ أَخَذْتَهُ .

فَالْتَفَتَ إِلَىٰ الرَّجُلِ الَّذِي حَمَلَ إِلَيْهِ الصُّرَّةَ ، وَقَالَ لَهُ :

هَلْ أَخَذْتُ مِنْكَ شَيْئًا ؟! .

فَأَصَابَ الرَّجُلَ ذُعْرٌ[1] وَقَالَ : كَلَّا ...

وَإِنَّمَا وَضَعْتُ الْمَالَ فِي هَٰذِهِ الْكُوَّةِ فِي غَفْلَةٍ مِنْكَ .

فَقَالَ طَاوُوسٌ : دُونَكُمَا[2] الْكُوَّةَ ، فَانْظُرَا فِيهَا .

فَنَظَرَا فِي الْكُوَّةِ ، فَوَجَدَا فِيهَا الصُّرَّةَ كَمَا هِيَ ، وَقَدْ ضَرَبَ عَلَيْهَا الْعَنْكَبُوتُ بِنَسْجِهِ[3]... فَأَخَذَاهَا ، وَعَادَا بِهَا إِلَىٰ الْأَمِيرِ .

* * *

وَكَأَنَّمَا أَرَادَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَقْتَصَّ مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ يُوسُفَ عَلَىٰ فَعْلَتِهِ هَٰذِهِ ، وَأَنْ يَجْعَلَ قِصَاصَهُ مِنْهُ عَلَىٰ مَرْأًى مِنَ النَّاسِ وَمَشْهَدٍ ... فَكَيْفَ وَقَعَ ذَٰلِكَ ؟! .

حَدَّثَ طَاوُوسُ بْنُ كَيْسَانَ قَالَ :

بَيْنَا أَنَا فِي مَكَّةَ حَاجًّا بَعَثَ إِلَيَّ الْحَجَّاجُ بْنُ يُوسُفَ الثَّقَفِيُّ ، فَلَمَّا دَخَلْتُ عَلَيْهِ رَحَّبَ بِي ... وَأَدْنَىٰ[4] مَجْلِسِي مِنْهُ ...

وَطَرَحَ لِي وِسَادَةً[5]، وَدَعَانِي لِأَنْ أَتَّكِئَ عَلَيْهَا ...

(١) الذّعر : الخوف والقلق .
(٢) دون : اسم فعل بمعنىٰ خذ ، ودونكما الكوّة : انظرا فيها .
(٣) بنسجه : بخيوطه .
(٤) أدنىٰ مجلسي : قرّب مقامي منه .
(٥) وسادة : مخدّة ومتكأ .
(٦) مناسك الحج : عبادات الحج وأركانه

ثُمَّ رَاحَ يَسْأَلُنِي عَمَّا أَشْكَلَ عَلَيْهِ مِنْ مَنَاسِكِ[٦] الْحَجِّ، وَغَيْرِهَا.

وَفِيمَا نَحْنُ كَذَلِكَ، سَمِعَ الْحَجَّاجُ مُلَبِّيًا يُلَبِّي حَوْلَ الْبَيْتِ، وَيَرْفَعُ صَوْتَهُ بِالتَّلْبِيَةِ، وَلَهُ نَبْرَةٌ[١] تَهُزُّ الْقُلُوبَ هَزًّا... فَقَالَ: عَلَيَّ بِهَذَا الْمُلَبِّي.

فَأُتِيَ لَهُ بِهِ، فَقَالَ لَهُ: مِمَّنِ الرَّجُلُ؟.

فَقَالَ: مِنَ الْمُسْلِمِينَ.

فَقَالَ: لَمْ أَسْأَلْكَ عَنْ هَذَا، وَإِنَّمَا سَأَلْتُكَ عَنِ الْبَلَدِ.

فَقَالَ: مِنْ أَهْلِ «الْيَمَنِ».

فَقَالَ: كَيْفَ تَرَكْتَ أَمِيرَكُمْ [يَعْنِي أَخَاهُ]؟.

فَقَالَ: تَرَكْتُهُ عَظِيمًا، جَسِيمًا[٢]...

لَبَّاسًا، رَكَّابًا...

خَرَّاجًا، وَلَّاجًا[٣]...

فَقَالَ: لَيْسَ عَنْ هَذَا سَأَلْتُكَ.

فَقَالَ: عَمَّ سَأَلْتَنِي إِذَنْ؟.

فَقَالَ: سَأَلْتُكَ عَنْ سِيرَتِهِ فِيكُمْ.

فَقَالَ: تَرَكْتُهُ ظَلُومًا غَشُومًا[٤]...

مُطِيعًا لِلْمَخْلُوقِ، عَاصِيًا لِلْخَالِقِ.

فَاحْمَرَّ وَجْهُ الْحَجَّاجِ خَجَلًا مِنْ جُلَسَائِهِ، وَقَالَ لِلرَّجُلِ:

---

(١) النبرة: رفع الصوت بعد خفضه للتأثير في السامعين.

(٢) جسيمًا: بدينًا ممتلئ الجسم.

(٣) خرّاجًا ولّاجًا: كثير المداخل والمخارج.

(٤) غشومًا: شديد الظلم.

مَا حَمَلَكَ عَلَىٰ أَنْ تَقُولَ فِيهِ مَا قُلْتَهُ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ مَكَانَهُ مِنِّي ؟! .

فَقَالَ : أَتَرَاهُ بِمَكَانِهِ مِنْكَ أَعَزَّ مِنِّي بِمَكَانِي مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ؟! .

وَأَنَا وَافِدُ بَيْتِهِ[1]...

وَمُصَدِّقُ نَبِيِّهِ ...

وَقَاضِي دَيْنِهِ[2].

فَسَكَتَ الْحَجَّاجُ، وَلَمْ يُحِرْ[3] جَوَابًا .

قَالَ طَاوُوسٌ :

ثُمَّ مَا لَبِثَ الرَّجُلُ أَنْ قَامَ، وَانْصَرَفَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَسْتَأْذِنَ أَوْ يُؤْذَنَ لَهُ .

فَقُمْتُ فِي إِثْرِهِ[4]، وَقُلْتُ فِي نَفْسِي :

إِنَّ الرَّجُلَ صَالِحٌ، فَاتْبَعْهُ وَاظْفَرْ[5] بِهِ قَبْلَ أَنْ تُغَيِّبَهُ عَنْ عَيْنَيْكَ جُمُوعُ النَّاسِ ... فَتَبِعْتُهُ، فَوَجَدْتُهُ قَدْ أَتَىٰ الْبَيْتَ وَتَعَلَّقَ بِأَسْتَارِهِ[6]، وَوَضَعَ خَدَّهُ عَلَىٰ جِدَارِهِ، وَجَعَلَ يَقُولُ :

اللَّهُمَّ بِكَ أَعُوذُ[7]... وَبِجَنَابِكَ أَلُوذُ[8]...

اللَّهُمَّ اجْعَلْ لِي فِي الاطْمِئْنَانِ إِلَىٰ جُودِكَ، وَالرِّضَا بِضَمَانِكَ[9] مَنْدُوحَةً[10] عَنْ مَنْعِ الْبَاخِلِينَ[11]، وَغِنًى عَمَّا فِي أَيْدِي الْمُسْتَأْثِرِينَ[12]...

اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ فَرَجَكَ الْقَرِيبَ ... وَمَعْرُوفَكَ الْقَدِيمَ ...

---

(١) وافد بيته : مقبل عَلَىٰ بيت اللّٰه، نازل في رحابه.
(٢) قاضي دينه : مُؤدٍ لدَيْنه.
(٣) لم يحر جوابًا : لم ينطق بجواب.
(٤) إثره : وراءه.
(٥) أظفر به : أجده وألحقْ به.
(٦) بأستاره : بكساء الكعبة.
(٧) أعوذ : أعتصم.
(٨) ألوذ : ألتجئ وأتحصن.
(٩) بضمانك : بكفالتك.
(١٠) مندوحة : سَعة وخلاصًا.
(١١) الباخلين : البخلاء الأشحاء.
(١٢) المستأثرين : محبي أنفسهم.

وَعَادَتَكَ الْحَسَنَةَ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

ثُمَّ ذَهَبَتْ بِهِ مَوْجَةٌ مِنَ النَّاسِ وَأَخْفَتْهُ عَنْ عَيْنِي؛ فَأَيْقَنْتُ أَنَّهُ لَا سَبِيلَ إِلَىٰ لِقَائِهِ بَعْدَ ذَلِكَ...

فَلَمَّا كَانَتْ عَشِيَّةُ «عَرَفَةَ»، رَأَيْتُهُ وَقَدْ أَفَاضَ[1] مَعَ النَّاسِ، فَدَنَوْتُ مِنْهُ فَإِذَا هُوَ يَقُولُ:

اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ لَمْ تَقْبَلْ حَجِّي، وَتَعَبِي، وَنَصَبِي... فَلَا تَحْرِمْنِي الْأَجْرَ عَلَىٰ مُصِيبَتِي؛ بِتَرْكِكَ الْقَبُولَ مِنِّي.

ثُمَّ ذَهَبَ فِي النَّاسِ، وَسَتَرَهُ الظَّلَامُ عَنِّي...

فَلَمَّا يَئِسْتُ مِنْ لِقَائِهِ قُلْتُ:

اللَّهُمَّ اقْبَلْ دُعَائِي وَدُعَاءَهُ...

وَاسْتَجِبْ رَجَائِي وَرَجَاءَهُ...

وَثَبِّتْ قَدَمَيَّ وَقَدَمَيْهِ يَوْمَ تَزِلُّ الْأَقْدَامُ[2]...

وَاجْمَعْنِي مَعَهُ عَلَىٰ حَوْضِ الْكَوْثَرِ[3] يَا أَكْرَمَ الْأَكْرَمِينَ.

* * *

وَإِلَىٰ لِقَاءٍ آخَرَ مَعَ التَّابِعِيِّ الْجَلِيلِ ذَكْوَانَ بْنِ كَيْسَانَ.

الْمُلَقَّبِ بِطَاوُوسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ...

وَجَعَلَ جَنَّاتِ الْخُلْدِ مَثْوَاهُ[4].

(١) أفاض الناس: انطلقوا وتفرقوا.
(٢) تزل الأقدام: تزلق الأقدام، وتسقط الأجسام.
(٣) الكوثر: نهر في الجنة.
(٤) مثواه: مقره ومقامه.

طَاوُوسُ بْنُ كَيْسَانَ
الوَاعِظُ المُرْشِدُ

« رَأَيْتُكَ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَـٰنِ فِي الْحُلْمِ ، وَأَنْتَ تُصَلِّي فِي الْكَعْبَةِ وَالنَّبِيُّ عَلَىٰ بَابِهَا وَهُوَ يَقُولُ لَكَ : اكْشِفْ قِنَاعَكَ وَبَيِّنْ قِرَاءَتَكَ يَا طَاوُوسُ »

[مُجَاهِدٌ]

مَا كَادَ خَلِيفَةُ الْمُسْلِمِينَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ يُلْقِي رِحَالَهُ[1] فِي أَكْنَافِ[2] الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ...

وَيَبُلُّ أَشْوَاقَهُ إِلَىٰ الْكَعْبَةِ الْمُعَظَّمَةِ حَتَّىٰ الْتَفَتَ إِلَىٰ حَاجِبِهِ وَقَالَ :

ابْتَغِ[3] لَنَا عَالِمًا يُفَقِّهُنَا فِي الدِّينِ ، وَيُذَكِّرُنَا فِي هَـٰذَا الْيَوْمِ الْأَغَرِّ مِنْ أَيَّامِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .

فَمَضَىٰ الْحَاجِبُ إِلَىٰ وُجُوهِ أَهْلِ الْمَوْسِمِ[4]، وَطَفِقَ يَسْأَلُهُمْ عَنْ بُغْيَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ... فَقِيلَ لَهُ :

هَـٰذَا طَاوُوسُ بْنُ كَيْسَانَ سَيِّدُ فُقَهَاءِ عَصْرِهِ ...

وَأَصْدَقُهُمْ لَهْجَةً فِي الدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللَّهِ ... فَعَلَيْكَ بِهِ .

فَأَقْبَلَ الْحَاجِبُ عَلَىٰ طَاوُوسٍ وَقَالَ :

أَجِبْ دَعْوَةَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَيُّهَا الشَّيْخُ .

فَاسْتَجَابَ طَاوُوسٌ لَهُ مِنْ غَيْرِ إِبْطَاءٍ .

---

(١) الرَّحل : ما يجعل عَلَىٰ ظهر الْبعير عند السفر ، ويلقي رحاله : يصل ويستقر .
(٢) أكناف الْبيت : أطرافه .
(٣) ابتغ لنا : اطلب لنا .
(٤) الموسم : مجتمع النَّاس للحج أو للبيع والشراء .

ذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ يُؤْمِنُ بِأَنَّ عَلَىٰ الدُّعَاةِ إِلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ أَلَّا تَعْرِضَ لَهُمْ فُرْصَةٌ إِلَّا اغْتَنَمُوهَا ...

وَأَلَّا تَسْنَحَ(١) لَهُمْ بَادِرَةٌ(٢) إِلَّا ابْتَدَرُوهَا(٣)...

وَكَانَ يُوقِنُ أَنَّ أَفْضَلَ كَلِمَةٍ تُقَالُ هِيَ كَلِمَةُ حَقٍّ ؛ أُرِيدَ بِهَا تَقْوِيمُ اعْوِجَاجِ ذَوِي السُّلْطَانِ ...

وَتَجْنِيبُهُمُ الْحَيْفَ(٤) وَالْجَوْرَ ...

وَتَقْرِيبُهُمْ مِنَ اللَّهِ تَعَالَىٰ ...

* * *

مَضَىٰ طَاوُوسٌ مَعَ الْحَاجِبِ ...

فَلَمَّا دَخَلَ عَلَىٰ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ حَيَّاهُ ، فَرَدَّ الْخَلِيفَةُ التَّحِيَّةَ بِأَحْسَنَ مِنْهَا ...

وَأَكْرَمَ اسْتِقْبَالَ زَائِرِهِ ، وَأَدْنَىٰ مَجْلِسَهُ .

ثُمَّ أَخَذَ يُسَائِلُهُ عَمَّا أَشْكَلَ عَلَيْهِ مِنْ مَنَاسِكِ الْحَجِّ ، وَيَنْصِتُ إِلَيْهِ فِي تَوْقِيرٍ وَإِجْلَالٍ .

قَالَ طَاوُوسٌ :

فَلَمَّا شَعَرْتُ أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ بَلَغَ بُغْيَتَهُ(٥)، وَلَمْ يَبْقَ لَدَيْهِ مَا يَسْأَلُ عَنْهُ ، قُلْتُ فِي نَفْسِي :

إِنَّ هَٰذَا الْمَجْلِسَ لَمَجْلِسٌ يَسْأَلُكَ اللَّهُ عَنْهُ يَا طَاوُوسُ ...

ثُمَّ تَوَجَّهْتُ إِلَيْهِ وَقُلْتُ :

(١) تَسْنح لهم : تلوح لهم .
(٢) بادرة : فرصة .
(٣) ابتدروها : عجلوا إليها وأفادوا منها .
(٤) الْحَيْف : الظُّلم .
(٥) بُغيته : غايته وغرضه .

يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّ صَخْرَةً كَانَتْ عَلَىٰ شَفِيرِ[1] بِئْرٍ فِي قَعْرِ جَهَنَّمَ ... وَقَدْ ظَلَّتْ تَهْوِي فِي هَـٰذِهِ الْبِئْرِ سَبْعِينَ خَرِيفًا[2] حَتَّىٰ بَلَغَتْ قَرَارَهَا ... أَتَدْرِي لِمَنْ أَعَدَّ اللَّهُ هَـٰذِهِ الْبِئْرَ مِنْ آبَارِ جَهَنَّمَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ .

فَقَالَ مِنْ غَيْرِ رَوِيَّةٍ : لَا ... ثُمَّ عَادَ إِلَىٰ نَفْسِهِ ، وَقَالَ :

وَيْلَكَ ، لِمَنْ أَعَدَّهَا ؟! .

فَقُلْتُ : أَعَدَّهَا اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ لِمَنْ أَشْرَكَهُ[3] فِي حُكْمِهِ ، فَجَارَ ...

فَأَخَذَتْ سُلَيْمَانَ لِذَلِكَ رَعْدَةٌ ، ظَنَنْتُ مَعَهَا أَنَّ رُوحَهُ سَتَصْعَدُ مِنْ بَيْنِ جَنْبَيْهِ ... وَجَعَلَ يَبْكِي ؛ وَلِبُكَائِهِ نَشِيجٌ[4] يُقَطِّعُ نِيَاطَ[5] الْقُلُوبِ ...

فَتَرَكْتُهُ وَانْصَرَفْتُ ...

وَهُوَ يُجَزِّينِي[6] خَيْرًا .

* * *

وَلَمَّا وَلِيَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ[7] الْخِلَافَةَ ؛ بَعَثَ إِلَىٰ طَاوُوسِ بْنِ كَيْسَانَ يَقُولُ : أَوْصِنِي يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَـٰنِ .

فَكَتَبَ إِلَيْهِ طَاوُوسٌ رِسَالَةً فِي سَطْرٍ وَاحِدٍ قَالَ فِيهَا :

« إِذَا أَرَدْتَ أَنْ يَكُونَ عَمَلُكَ خَيْرًا كُلُّهُ ، فَاسْتَعْمِلْ أَهْلَ الْخَيْرِ ، وَالسَّلَامُ » .

(١) شفير بئر : فوق بئر .
(٢) خريفًا : عامًا .
(٣) أشركه في حكمه : وَلَّاهُ أمور النّاس .
(٤) النشيج : الغصّة بالبكاء من غير صوت .
(٥) النياط : جمعٌ مفردُهُ نَوْط ، وهو عرق غليظ معلق بالقلب إذا انقطع مات صاحبه .
(٦) يجزيني خيرًا : يقول لي : جزيت خيرًا ويكرر ذلك .
(٧) عُمَر بْن عَبْد الْعَزِيز : انظره ص ٨٧، ٢٥٧، ٣٢٩.

فَلَمَّا قَرَأَ عُمَرُ الرِّسَالَةَ قَالَ :

كَفَىٰ بِهَا مَوْعِظَةً ...

كَفَىٰ بِهَا مَوْعِظَةً ...

* * *

وَلَمَّا آلَتِ[1] الْخِلَافَةُ إِلَىٰ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ كَانَتْ لِطَاوُوسِ بْنِ كَيْسَانَ مَعَهُ مَوَاقِفُ مَشْهُورَةٌ مَأْثُورَةٌ[2].

مِنْ ذَٰلِكَ أَنَّ هِشَامًا قَدِمَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ حَاجًّا ... فَلَمَّا صَارَ فِي الْحَرَمِ ، قَالَ لِخَاصَّتِهِ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ :

الْتَمِسُوا[3] لَنَا رَجُلًا مِنْ صَحَابَةِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

فَقَالُوا لَهُ : إِنَّ الصَّحَابَةَ - يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - قَدْ تَلَاحَقُوا بِرَبِّهِمْ وَاحِدًا إِثْرَ[4] آخَرَ حَتَّىٰ لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ أَحَدٌ .

فَقَالَ : إِذَنْ ؛ فَمِنَ التَّابِعِينَ ... فَأُتِيَ بِطَاوُوسِ بْنِ كَيْسَانَ .

فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ ، خَلَعَ نَعْلَيْهِ بِحَاشِيَةِ[5] بِسَاطِهِ ...

وَسَلَّمَ عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَدْعُوَهُ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ...

وَخَاطَبَهُ بِاسْمِهِ دُونَ أَنْ يُكَنِّيَهُ[6]...

وَجَلَسَ قَبْلَ أَنْ يَأْذَنَ لَهُ بِالْجُلُوسِ ...

فَاسْتَشَاطَ[7] هِشَامٌ غَضَبًا حَتَّىٰ بَدَا الْغَيْظُ فِي عَيْنَيْهِ .

---

(١) آلت الخلافة : انتقلت الخلافة .
(٢) مأثورة : مرويّة معروفة .
(٣) التمسوا : ابحثوا .
(٤) إثْر : بَعْد .
(٥) حاشية بساطه : طرف بساطه .
(٦) يكنيه : الكنية ما صُدِّرت بأب أو أم كأبي القاسم وأم المؤمنين .
(٧) استشاط : اشتعل .

ذَلِكَ أَنَّهُ رَأَىٰ فِي تَصَرُّفَاتِهِ تِلْكَ اجْتِرَاءً عَلَيْهِ، وَنَيْلًا مِنْ هَيْبَتِهِ أَمَامَ جُلَسَائِهِ، وَرِجَالِ حَاشِيَتِهِ...

بَيْدَ أَنَّهُ مَا لَبِثَ أَنْ تَذَكَّرَ أَنَّهُ فِي حَرَمِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ...

فَرَجَعَ إِلَىٰ نَفْسِهِ وَقَالَ لِطَاوُوسٍ:

مَا حَمَلَكَ يَا طَاوُوسُ عَلَىٰ مَا صَنَعْتَ؟!.

فَقَالَ: وَمَا الَّذِي صَنَعْتُهُ؟!.

فَعَادَ إِلَىٰ الْخَلِيفَةِ غَضَبُهُ وَغَيْظُهُ، وَقَالَ:

خَلَعْتَ نَعْلَيْكَ بِحَاشِيَةِ بِسَاطِي...

وَلَمْ تُسَلِّمْ عَلَيَّ بِإِمْرَةِ[1] الْمُؤْمِنِينَ...

وَسَمَّيْتَنِي بِاسْمِي، وَلَمْ تُكَنِّنِي...

ثُمَّ جَلَسْتَ مِنْ غَيْرِ إِذْنِي...

فَقَالَ طَاوُوسٌ بِهُدُوءٍ:

أَمَّا خَلْعُ نَعْلَيَّ بِحَاشِيَةِ بِسَاطِكَ، فَأَنَا أَخْلَعُهُمَا بَيْنَ يَدَيْ رَبِّ الْعِزَّةِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ... فَلَا يُعَاتِبُنِي، وَلَا يَغْضَبُ عَلَيَّ...

وَأَمَّا قَوْلُكَ إِنِّي لَمْ أُسَلِّمْ عَلَيْكَ بِإِمْرَةِ الْمُؤْمِنِينَ...

فَلِأَنَّ جَمِيعَ الْمُؤْمِنِينَ لَيْسُوا رَاضِينَ بِإِمْرَتِكَ...

وَقَدْ خَشِيتُ أَنْ أَكُونَ كَاذِبًا إِذَا دَعَوْتُكَ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ...

وَأَمَّا مَا أَخَذْتَهُ عَلَيَّ مِنْ أَنِّي نَادَيْتُكَ بِاسْمِكَ، وَلَمْ أُكَنِّكَ...

فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ نَادَىٰ أَنْبِيَاءَهُ بِأَسْمَائِهِمْ، فَقَالَ:

---

(١) إِمْرَةُ المؤمنين: الخلافة.

يَا دَاوُودُ ... يَا يَحْيَىٰ ... يَا عِيسَىٰ ...

وَكَنَّىٰ أَعْدَاءَهُ فَقَالَ :

﴿ تَبَّتْ[١] يَدَآ أَبِي لَهَبٍ[٢]، وَتَبَّ ﴾[٣]...

وَأَمَّا قَوْلُكَ إِنِّي جَلَسْتُ قَبْلَ أَنْ تَأْذَنَ لِي ... فَإِنِّي سَمِعْتُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ يَقُولُ :

« إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَنْظُرَ إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَانْظُرْ إِلَىٰ رَجُلٍ جَالِسٍ ، وَحَوْلَهُ قَوْمٌ قِيَامٌ بَيْنَ يَدَيْهِ » .

فَكَرِهْتُ أَنْ تَكُونَ ذَلِكَ الرَّجُلَ الَّذِي عُدَّ مِنْ أَهْلِ النَّارِ ...

فَأَطْرَقَ[٤] هِشَامٌ إِلَىٰ الْأَرْضِ خَجَلًا ... ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَقَالَ :

عِظْنِي يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَٰنِ .

فَقَالَ : إِنِّي سَمِعْتُ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ :

« إِنَّ فِي جَهَنَّمَ حَيَّاتٍ كَالْقِلَالِ[٥]... وَعَقَارِبَ كَالْبِغَالِ ...

تَلْدَغُ كُلَّ رَاعٍ لَا يَعْدِلُ فِي رَعِيَّتِهِ » .

ثُمَّ قَامَ وَانْصَرَفَ .

* * *

وَكَمَا كَانَ طَاوُوسٌ يُقْبِلُ عَلَىٰ بَعْضِ أُولِي الْأَمْرِ تَذْكِيرًا لَهُمْ وَتَوْجِيهًا ...

فَقَدْ كَانَ يُعْرِضُ[٦] عَنْ بَعْضِهِمُ الْآخَرِ تَبْكِيتًا[٧] وَتَأْنِيبًا ...

---

(١) تَبَّتْ : خَسِرَتْ .

(٢) أبو لهب : عمّ الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأحد عُتاة المشركين ، آذىٰ النبي أشدَّ الإيذاء هو وزوجته .

(٣) سورة المسد : ١ .

(٤) أطرق : نظر إلى الأرض ولم يتكلم .

(٥) القلال : الأعمدة الطويلة الغليظة .

(٦) يُعرض : يبتعد ويتعالىٰ .

(٧) تبكيتًا : استهانة بهم ، وتحقيرًا لهم .

حَدَّثَ ابْنُهُ قَالَ :

خَرَجْنَا ذَاتَ سَنَةٍ مَعَ أَبِي حُجَّاجًا مِنَ « الْيَمَنِ » ، فَنَزَلْنَا فِي بَعْضِ الْمُدُنِ وَعَلَيْهَا عَامِلٌ يُقَالُ لَهُ « ابْنُ نَجِيحٍ » ... وَكَانَ مِنْ أَخْبَثِ الْعُمَّالِ ، وَأَكْثَرِهِمْ جُرْأَةً عَلَىٰ الْحَقِّ ، وَأَشَدِّهِمْ إِيغَالًا(١) فِي الْبَاطِلِ ...

فَأَتَيْنَا مَسْجِدَ الْبَلَدِ نُرِيدُ أَدَاءَ الْمَكْتُوبَةِ(٢)، فَإِذَا « ابْنُ نَجِيحٍ » قَدْ عَلِمَ بِقُدُومِ أَبِي ، فَجَاءَ إِلَىٰ الْمَسْجِدِ ، وَقَعَدَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَسَلَّمَ عَلَيْهِ ...

فَلَمْ يُجِبْهُ أَبِي ، وَأَدَارَ لَهُ ظَهْرَهُ ...

فَأَتَاهُ عَنْ يَمِينِهِ وَكَلَّمَهُ ؛ فَأَعْرَضَ عَنْهُ ...

فَعَدَلَ إِلَىٰ يَسَارِهِ وَكَلَّمَهُ ؛ فَأَعْرَضَ عَنْهُ أَيْضًا ...

فَلَمَّا رَأَيْتُ ذَلِكَ قُمْتُ إِلَيْهِ ، وَمَدَدْتُ يَدِي نَحْوَهُ ، وَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ، وَقُلْتُ لَهُ : إِنَّ أَبِي لَمْ يَعْرِفْكَ ...

فَقَالَ : بَلْ إِنَّ أَبَاكَ يَعْرِفُنِي ...

وَإِنَّ مَعْرِفَتَهُ بِي هِيَ الَّتِي جَعَلَتْهُ يَصْنَعُ مَا رَأَيْتَ ...

ثُمَّ مَضَىٰ وَهُوَ سَاكِتٌ لَا يَقُولُ شَيْئًا .

فَلَمَّا عُدْنَا إِلَىٰ الْمَنْزِلِ الْتَفَتَ إِلَيَّ أَبِي وَقَالَ :

يَا لُكَعُ(٣)... تَسْلِقُ(٤) هَؤُلَاءِ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ فِي غَيْبَتِهِمْ ...

فَإِذَا حَضَرُوا خَضَعْتَ لَهُمْ بِالْقَوْلِ !! ...

---

(١) إيغالًا : دخولًا وتعمقًا .

(٢) المكتوبة : الفريضة .

(٣) يا لُكَع : يا أحمق .

(٤) تَسْلِقهم : تبالغ في ذمّهم .

وَهَلِ النِّفَاقُ غَيْرُ هَٰذَا ؟! .

* * *

هَٰذَا ، وَإِنَّ طَاوُوسَ بْنَ كَيْسَانَ لَمْ يَخُصَّ الْخُلَفَاءَ وَالْوُلَاةَ بِمَوَاعِظِهِ ، وَإِنَّمَا بَذَلَهَا لِكُلِّ مَنْ آنَسَ[1] بِهِ حَاجَةً إِلَيْهَا أَوْ رَغْبَةً فِيهَا .

مِنْ ذَٰلِكَ مَا رَوَاهُ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ[2] قَالَ :

رَآنِي طَاوُوسُ بْنُ كَيْسَانَ فِي مَوْقِفٍ لَمْ يَرْتَحْ لَهُ ، فَقَالَ :

يَا عَطَاءُ ، إِيَّاكَ أَنْ تَرْفَعَ حَوَائِجَكَ إِلَىٰ مَنْ أَغْلَقَ فِي وَجْهِكَ بَابَهُ ...

وَأَقَامَ دُونَكَ حُجَّابَهُ[3] ...

وَإِنَّمَا اطْلُبْهَا مِمَّنْ أَشْرَعَ[4] لَكَ أَبْوَابَهُ ...

وَطَالَبَكَ بِأَنْ تَدْعُوَهُ ... وَوَعَدَكَ بِالْإِجَابَةِ ...

* * *

وَكَانَ يَقُولُ لِابْنِهِ :

يَا بُنَيَّ ، صَاحِبِ الْعُقَلَاءَ تُنْسَبْ إِلَيْهِمْ ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ مِنْهُمْ ... وَلَا تُصَاحِبِ الْجُهَّالَ ، فَإِنَّكَ إِنْ صَحِبْتَهُمْ نُسِبْتَ إِلَيْهِمْ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ مِنْهُمْ ...

وَاعْلَمْ أَنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ غَايَةً[5] ...

وَأَنَّ غَايَةَ الْمَرْءِ تَمَامُ دِينِهِ ، وَكَمَالُ خُلُقِهِ .

وَقَدْ نَشَأَ ابْنُهُ عَبْدُ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَبَّاهُ عَلَيْهِ أَبُوهُ ، وَتَخَلَّقَ بِأَخْلَاقِهِ ، وَسَارَ بِسِيرَتِهِ ... مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الْخَلِيفَةَ الْعَبَّاسِيَّ أَبَا جَعْفَرٍ الْمَنْصُورَ اسْتَدْعَىٰ وَلَدَهُ

(١) آنس : شعر .
(٢) عطاء بن أبي رباح : انظره ص ١٣.
(٣) حجّابه : الواقفين علىٰ بابه من عمّاله وجنده .
(٤) أشرع أبوابه : فتحها علىٰ مصاريعها .
(٥) الغاية : القصد والثمرة .

عَبْدَ اللَّهِ بْنَ طَاوُوسٍ ، وَمَالِكَ بْنَ أَنَسٍ[1] لِزِيَارَتِهِ ، فَلَمَّا دَخَلَا عَلَيْهِ ، وَأَخَذَا مَجْلِسَيْهِمَا عِنْدَهُ ؛ الْتَفَتَ الْخَلِيفَةُ إِلَىٰ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاوُوسٍ وَقَالَ :

ارْوِ لِي شَيْئًا مِمَّا كَانَ يُحَدِّثُكَ بِهِ أَبُوكَ .

فَقَالَ : « حَدَّثَنِي أَبِي أَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلٌ أَشْرَكَهُ[2] اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُلْطَانِهِ ، فَأَدْخَلَ الْجَوْرَ فِي حُكْمِهِ » .

قَالَ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ :

فَلَمَّا سَمِعْتُ مَقَالَتَهُ هَٰذِهِ ؛ ضَمَمْتُ عَلَيَّ ثِيَابِي خَوْفًا مِنْ أَنْ يُصِيبَنِي شَيْءٌ مِنْ دَمِهِ ... بَيْدَ أَنَّ أَبَا جَعْفَرٍ أَمْسَكَ[3] سَاعَةً لَا يَتَكَلَّمُ .

ثُمَّ صَرَفَنَا بِسَلَامٍ .

* * *

وَقَدِ امْتَدَّتِ الْحَيَاةُ بِطَاوُوسِ بْنِ كَيْسَانَ حَتَّىٰ بَلَغَ الْمِائَةَ ، أَوْ جَاوَزَهَا قَلِيلًا ... غَيْرَ أَنَّ الْكِبَرَ وَالشَّيْخُوخَةَ لَمْ يَنَالَا شَيْئًا مِنْ صَفَاءِ ذِهْنِهِ ، وَحِدَّةِ خَاطِرِهِ[4] ، وَسُرْعَةِ بَدِيهَتِهِ[5] .

حَدَّثَ عَبْدُ اللَّهِ الشَّامِيُّ قَالَ :

أَتَيْتُ طَاوُوسًا فِي بَيْتِهِ لِآخُذَ عَنْهُ ، وَأَنَا لَا أَعْرِفُهُ ... فَلَمَّا طَرَقْتُ الْبَابَ خَرَجَ إِلَيَّ شَيْخٌ كَبِيرٌ ، فَحَيَّيْتُهُ وَقُلْتُ : آأَنْتَ طَاوُوسُ بْنُ كَيْسَانَ ؟ .

فَقَالَ : بَلْ أَنَا ابْنُهُ ...

---

(١) مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ : هو أحد تابعي التّابعين ، وعلم من أعلام المسلمين ، وصاحب مذهب مالك .
(٢) أشركه في سلطانه : وَلَّاه أمرًا من أمور المسلمين .
(٣) أمسك : توقَّف وصَمَت .
(٤) حِدَّة خاطره : دقَّة فكره .
(٥) سُرْعَة الْبَدِيهة : الإجابة من غير جهد فِكر .

فَقُلْتُ : إِنْ كُنْتَ ابْنَهُ ؛ فَلَا آمَنُ أَنْ يَكُونَ الشَّيْخُ قَدْ هَرِمَ وَخَرِفَ(١)، وَإِنِّي قَصَدْتُهُ مِنْ أَمَاكِنَ بَعِيدَةٍ لِأُفِيدَ مِنْ عِلْمِهِ ...

فَقَالَ : وَيْحَكَ ...

إِنَّ حَمَلَةَ كِتَابِ اللَّهِ لَا يَخْرَفُونَ ... ادْخُلْ عَلَيْهِ ...

فَدَخَلْتُ عَلَىٰ طَاوُوسٍ وَسَلَّمْتُ ، وَقُلْتُ :

لَقَدْ أَتَيْتُكَ طَالِبًا عِلْمَكَ رَاغِبًا فِي نُصْحِكَ .

فَقَالَ : سَلْ وَأَوْجِزْ(٢).

فَقُلْتُ : سَأُوجِزُ مَا وَسِعَنِي الْإِيجَازُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ...

فَقَالَ : أَتُرِيدُ أَنْ أَجْمَعَ لَكَ صَفْوَةَ(٣) مَا فِي التَّوْرَاةِ ، وَالزَّبُورِ(٤)، وَالْإِنْجِيلِ ، وَالْقُرْآنِ ؟ .

فَقُلْتُ : نَعَمْ ...

فَقَالَ : خَفِ اللَّهَ تَعَالَىٰ خَوْفًا بِحَيْثُ لَا يَكُونُ شَيْءٌ أَخْوَفَ لَكَ مِنْهُ ...

وَارْجُهُ رَجَاءً أَشَدَّ مِنْ خَوْفِكَ إِيَّاهُ ...

وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ ...

* * *

وَفِي لَيْلَةِ الْعَاشِرِ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ سَنَةَ سِتٍّ وَمِائَةٍ ، أَفَاضَ(٥) الشَّيْخُ الْمُعَمَّرُ طَاوُوسُ بْنُ كَيْسَانَ مَعَ الْحَجِيجِ مِنْ «عَرَفَاتٍ» إِلَىٰ «الْمُزْدَلِفَةِ» لِلْمَرَّةِ الْأَرْبَعِينَ .

---

(١) خرِف : فسد عقله من الكبر.
(٢) أوجز : اختصر.
(٣) صَفوَة الشّيء: خلاصته وأعمقه وأثمنه.
(٤) الزّبور : كتاب نبي الله داود عليه السّلام.
(٥) أفاض : انطلق.

فَلَمَّا حَطَّ رِحَالَهُ فِي رِحَابِهَا الطَّاهِرَةِ، وَأَدَّىٰ الْمَغْرِبَ مَعَ الْعِشَاءِ...

وَأَسْلَمَ جَنْبَهُ إِلَىٰ الْأَرْضِ؛ يَلْتَمِسُ[1] شَيْئًا مِنَ الرَّاحَةِ...

أَتَاهُ الْيَقِينُ[2]...

فَلَقِيَهُ بَعِيدًا عَنِ الْأَهْلِ وَالْوَطَنِ؛ تَقَرُّبًا لِلَّهِ...

مُلَبِّيًا مُحْرِمًا؛ رَجَاءَ لِثَوَابِ اللَّهِ...

خَارِجًا مِنْ ذُنُوبِهِ كَمَا وَلَدَتْهُ أُمُّهُ؛ بِفَضْلِ اللَّهِ...

فَلَمَّا طَلَعَ عَلَيْهِ الصُّبْحُ، وَأَرَادُوا دَفْنَهُ... لَمْ يَتَمَكَّنُوا مِنْ إِخْرَاجِ جَنَازَتِهِ لِكَثْرَةِ مَا ازْدَحَمَ عَلَيْهَا مِنَ النَّاسِ.

فَوَجَّهَ إِلَيْهِمْ أَمِيرُ مَكَّةَ حَرَسًا لِيَذُودُوا[3] النَّاسَ عَنِ الْجَنَازَةِ حَتَّىٰ يُتَاحَ[4] لَهُمْ دَفْنُهَا...

وَقَدْ صَلَّىٰ عَلَيْهِ خَلْقٌ كَثِيرٌ لَا يُحْصِي عَدَدَهُمْ إِلَّا اللَّهُ...

وَكَانَ فِي جُمْلَةِ الْمُصَلِّينَ خَلِيفَةُ الْمُسْلِمِينَ...

هِشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ (*).

---

(١) يلتمس: يبتغي.
(٢) اليقين: الموت.
(٣) ليذودوا: ليدفعوا.
(٤) يتاح لهم: يسهل لهم.

(*) للاستزادة مِنْ أخبار طَاوُوسِ بْنِ كَيْسَانَ انظر:
١ - الطبقات الكبرىٰ لابن سعد: ٥/ ٥٣٧.
٢ - طبقات خليفة بن خياط: ٢٨٧.
٣ - تاريخ خليفة بن خياط: ٣٣٦.
٤ - التاريخ الكبير: ٤/ ٣٦٥.
٥ - تاريخ الفسوي: ١/ ٧٠٥.
٦ - الجرح والتعديل ٤/ ٥٠٠.
٧ - حلية الأولياء: ٤/ ٣، ٢٣.
٨ - طبقات الفقهاء للشيرازي: ٧٣.
٩ - اللباب: ١/ ٢٤١.
١٠- تهذيب التهذيب: ٢/ ١٠١.
١١- تاريخ الإسلام: ٤/ ١٢٦.
١٢- تذكرة الحفاظ: ١/ ٩٠.
١٣- العبر: ١/ ١٣٠.
١٤- طبقات القراء: ١/ ٣٤١.
١٥- النجوم الزاهرة: ١/ ٢٦.
١٦- شذرات الذهب: ١/ ١٣٣.

الْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ

« لَوْ كَانَ لِي مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ لَوَلَّيْتُ الْقَاسِمَ بْنَ مُحَمَّدٍ الْخِلَافَةَ »

[عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ]

هَلْ أَتَاكَ نَبَأُ هَـٰذَا التَّابِعِيِّ الْجَلِيلِ ؟ .

إِنَّهُ فَتًى جَمَعَ الْمَجْدَ مِنْ أَطْرَافِهِ كُلِّهَا ؛ حَتَّىٰ لَمْ يَفُتْهُ مِنْهُ شَيْءٌ ...

فَأَبُوهُ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ...

وَأُمُّهُ بِنْتُ كِسْرَىٰ « يَزْدَجُرْدَ » آخِرِ مُلُوكِ « الْفُرْسِ » ...

وَعَمَّتُهُ عَائِشَةُ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ ...

وَهُوَ فَوْقَ ذَٰلِكَ كُلِّهِ قَدْ تَوَّجَ هَامَتَهُ(١) بِتَاجِ التُّقَىٰ وَالْعِلْمِ .

أَفَتَحْسَبُ أَنَّ فَوْقَ هَـٰذَا الْمَجْدِ مَجْدًا يَتَنَافَسُ فِيهِ الْمُتَنَافِسُونَ(٢)؟ .

ذَٰلِكُمْ هُوَ الْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ .

أَحَدُ فُقَهَاءِ الْمَدِينَةِ السَّبْعَةِ(٣)... وَأَفْضَلُ أَهْلِ زَمَانِهِ عِلْمًا ...

وَأَحَدُّهُمْ(٤) ذِهْنًا ... وَأَشَدُّهُمْ وَرَعًا ...

فَتَعَالَ نَبْدَأْ قِصَّةَ حَيَاتِهِ مِنْ أَوَّلِهَا ...

* * *

(١) هامته: رأسه .

(٢) يتنافس فيه المتنافسون : يتفاخر فيه المتفاخرون .

(٣) فقهاء المدينة السبعة هُمْ : سعيد بن المسيّب ، وعُروة بن الزّبير ، وأبو بكر بن عبد الرّحمٰن المخزومي ، وخارجة ابن زيد ، وسُليمان بن يسار ، وعُبيد الله بن عبد الله بن عُتبة ، والقاسم بن مُحمّد بن أبي بكر .

(٤) أحدُهم ذهنًا : أنفذهم قريحة .

وُلِدَ الْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ فِي أَوَاخِرِ خِلَافَةِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَىٰ عَنْهُ ... لَكِنَّ الطِّفْلَ الصَّغِيرَ مَا كَادَ يَدْرُجُ[1] فِي عُشِّهِ، حَتَّىٰ عَصَفَتْ[2] فِي دِيَارِ الْمُسْلِمِينَ رِيحُ الْفِتْنَةِ الْهَوْجَاءِ[3]...

فَاسْتُشْهِدَ الْخَلِيفَةُ الْعَبَّادُ الزَّهَّادُ ذُو النُّورَيْنِ[4] وَهُوَ مُنْحَنٍ بِصُلْبِهِ[5] عَلَىٰ أَجْزَاءِ الْقُرْآنِ.

وَنَشِبَ[6] الْخِلَافُ الْكَبِيرُ بَيْنَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَمُعَاوِيَةَ ابْنِ أَبِي سُفْيَانَ أَمِيرِ بِلَادِ الشَّامِ...

وَفِي سِلْسِلَةٍ مُفْزِعَةٍ مُذْهِلَةٍ مِنَ الْأَحْدَاثِ الْمُتَلَاحِقَةِ...

وَجَدَ الطِّفْلُ الصَّغِيرُ نَفْسَهُ يُحْمَلُ مَعَ أُخْتِهِ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَىٰ «مِصْرَ»...

فَقَدْ كَانَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَلْحَقَا بِأَبِيهِمَا؛ بَعْدَ أَنْ غَدَا وَالِيًا عَلَيْهَا مِنْ قِبَلِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ.

ثُمَّ رَأَىٰ أَظَافِرَ الْفِتْنَةِ الْحُمْرَ تَمْتَدُّ إِلَىٰ أَبِيهِ؛ فَتَقْتُلُهُ شَرَّ قِتْلَةٍ.

ثُمَّ أَلْفَىٰ[7] نَفْسَهُ يُنْقَلُ مَرَّةً أُخْرَىٰ مِنْ «مِصْرَ» إِلَىٰ الْمَدِينَةِ؛ بَعْدَ أَنِ اسْتَوْلَىٰ عَلَيْهَا أَنْصَارُ مُعَاوِيَةَ ... وَقَدْ أَصْبَحَ يَتِيمًا لَطِيمًا[8]...

* * *

حَدَّثَ الْقَاسِمُ نَفْسُهُ عَنْ رِحْلَةِ الْعَذَابِ هَٰذِهِ وَمَا تَلَاهَا، فَقَالَ:

---

(١) يدرج: يمشي.
(٢) عصفت: هبّت واشتدت.
(٣) الرّيح الهوجاء: الرّيح الشّديدة الّتي تقلع البيوت.
(٤) ذو النّورين: هو عثمان بن عفّان رضي الله عنه ... انظره في كتاب «صور من حياة الصّحابة» للمؤلف، النّاشر دار الأدب الإسلامي، الطّبعة الشرعية.
(٥) صُلْبه: عظم ظهره.
(٦) نشب الخلاف: ثار الخلاف.
(٧) ألفىٰ نفسه: وجد نفسه.
(٨) اللّطيم: الغلام الّذي مات أبواه.

لَمَّا قُتِلَ أَبِي بِمِصْرَ جَاءَ عَمِّي عَبْدُ الرَّحْمَٰنِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ، فَاحْتَمَلَنِي أَنَا وَأُخْتِي الصَّغِيرَةَ ... وَمَضَىٰ بِنَا إِلَىٰ الْمَدِينَةِ.

فَمَا إِنْ بَلَغْنَاهَا حَتَّىٰ بَعَثَتْ إِلَيْنَا عَمَّتِي عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَحَمَلَتْنَا مِنْ مَنْزِلِ عَمِّي إِلَىٰ بَيْتِهَا ... وَرَبَّتْنَا فِي حِجْرِهَا[1].

فَمَا رَأَيْتُ وَالِدَةً قَطُّ وَلَا وَالِدًا أَكْثَرَ مِنْهَا بِرًّا ...

وَلَا أَوْفَرَ[2] شَفَقَةً ...

كَانَتْ تُطْعِمُنَا بِيَدَيْهَا، وَلَا تَأْكُلُ مَعَنَا ...

فَإِذَا بَقِيَ مِنْ طَعَامِنَا شَيْءٌ أَكَلَتْهُ.

وَكَانَتْ تَحْنُو عَلَيْنَا حُنُوَّ الْمُرْضِعَاتِ عَلَىٰ الْفَطِيمِ[3]، فَتَغْسِلُ أَجْسَادَنَا ... وَتُمَشِّطُ شُعُورَنَا ...

وَتُلْبِسُنَا الْأَبْيَضَ النَّاصِعَ مِنَ الثِّيَابِ.

وَكَانَتْ لَا تَفْتَأُ تَحُضُّنَا عَلَىٰ الْخَيْرِ، وَتُمَرِّسُنَا[4] بِفِعْلِهِ ...

وَتَنْهَانَا عَنِ الشَّرِّ، وَتَحْمِلُنَا عَلَىٰ تَرْكِهِ.

وَقَدْ دَأَبَتْ عَلَىٰ تَلْقِينِنَا مَا نُطِيقُهُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ...

وَتَرْوِيَتِنَا[5] مَا نَعْقِلُهُ مِنْ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

وَكَانَتْ تَزِيدُنَا بِرًّا وَإِتْحَافًا[6] فِي الْعِيدَيْنِ ...

فَإِذَا كَانَتْ عَشِيَّةُ «عَرَفَةَ» حَلَقَتْ لِي شَعْرِي ...

---

(١) الحِجْر: الحضن، وفي حِجْرِها: في كنفها ورعايتها.
(٢) أوفَرَ شفقة: أكثر حنانًا.
(٣) الفطيم: الصغير المفطوم عن الرضاع.
(٤) تُمَرِّسنا: تدرِّبنا.
(٥) تَرويتنا: جعلتنا نروي الحديث.
(٦) إتحافًا: إهداءً.

وَغَسَّلَتْنِي أَنَا وَأُخْتِي ...

فَإِذَا أَصْبَحْنَا أَلْبَسَتْنَا الْجَدِيدَ ...

وَبَعَثَتْ بِنَا إِلَىٰ الْمَسْجِدِ لِنُؤَدِّيَ صَلَاةَ الْعِيدِ .

فَإِذَا عُدْنَا مِنْهُ جَمَعَتْنِي أَنَا وَأُخْتِي وَضَحَّتْ بَيْنَ أَيْدِينَا .

* * *

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ أَلْبَسَتْنَا ثِيَابًا بِيضًا ، ثُمَّ أَجْلَسَتْنِي عَلَىٰ إِحْدَىٰ رُكْبَتَيْهَا ...
وَأَجْلَسَتْ أُخْتِي عَلَىٰ رُكْبَتِهَا الْأُخْرَىٰ .

وَكَانَتْ قَدْ دَعَتْ عَمِّي عَبْدَ الرَّحْمَٰنِ ... فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهَا حَيَّتْهُ ، ثُمَّ تَكَلَّمَتْ : فَحَمِدَتِ اللَّهَ جَلَّ وَعَزَّ ، وَأَثْنَتْ عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ[1] .

فَمَا رَأَيْتُ مُتَكَلِّمًا قَطُّ مِنْ رَجُلٍ أَوِ امْرَأَةٍ قَبْلَهَا وَلَا بَعْدَهَا ؛ أَفْصَحَ مِنْهَا لِسَانًا ... وَلَا أَعْذَبَ[2] بَيَانًا ...

ثُمَّ قَالَتْ : أَيْ أَخِي[3] ...

إِنِّي لَمْ أَزَلْ أَرَاكَ مُعْرِضًا[4] عَنِّي مُنْذُ أَخَذْتُ هَٰذَيْنِ الصَّبِيَّيْنِ مِنْكَ ، وَضَمَمْتُهُمَا إِلَيَّ ...

وَوَاللَّهِ مَا فَعَلْتُ ذَٰلِكَ تَطَاوُلًا[5] عَلَيْكَ ...

وَلَا سُوءَ ظَنٍّ بِكَ ...

وَلَا اتِّهَامًا لَكَ بِالتَّقْصِيرِ فِي حَقِّهِمَا ...

---

(١) بما هو أهله : بما يليق بذاته .
(٢) أعذب بيانًا : أحلى كلامًا وأبلغ قولًا .
(٣) أي أخي : يا أخي .
(٤) معرضًا عني : مباعدًا لي .
(٥) تطاولًا عليك : اعتلاءً عليك .

وَلَٰكِنَّكَ رَجُلٌ ذُو نِسَاءٍ[1]...

وَهُمَا صَبِيَّانِ صَغِيرَانِ لَا يَقُومَانِ بِأَمْرِ[2] نَفْسَيْهِمَا .

فَخَشِيتُ أَنْ يَرَىٰ نِسَاؤُكَ مِنْهُمَا مَا يَتَقَذَّرْنَهُ[3]؛ فَلَا يَطِبْنَ بِهِمَا نَفْسًا .

وَوَجَدْتُ أَنِّي أَحَقُّ مِنْهُنَّ بِالْقِيَامِ عَلَىٰ أَمْرِهِمَا فِي هَٰذِهِ الْحَالِ ...

وَهَا هُمَا الْآنَ قَدْ شَبَّا ، وَأَصْبَحَا قَادِرَيْنِ عَلَىٰ الْقِيَامِ بِأَمْرِ نَفْسَيْهِمَا ...

فَخُذْهُمَا وَضُمَّهُمَا[4] إِلَيْكَ .

فَأَخَذَنَا عَمِّي عَبْدُ الرَّحْمَٰنِ ، وَضَمَّنَا إِلَىٰ بَيْتِهِ .

* * *

بَيْدَ أَنَّ الْغُلَامَ الْبَكْرِيَّ ظَلَّ مُعَلَّقَ الْقَلْبِ بِبَيْتِ عَمَّتِهِ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهَا ... فَعَلَىٰ أَرْضِ بَيْتِهَا الْمُضَمَّخَةِ[5] بِطُيُوبِ النُّبُوَّةِ دَرَجَ[6]...

وَفِي أَكْنَافِ[7] صَاحِبَتِهِ تَرَبَّىٰ وَتَرَعْرَعَ ...

وَمِنْ حَنَانِهَا الْمُتَدَفِّقِ نَهَلَ[8] وَارْتَوَىٰ .

فَصَارَ يُوَزِّعُ وَقْتَهُ بَيْنَ بَيْتِهَا وَبَيْتِ عَمِّهِ .

* * *

وَقَدْ ظَلَّتْ ذِكْرَيَاتُ مَنْزِلِ عَمَّتِهِ الشَّذِيَّةُ[9] النَّدِيَّةُ الرَّفَّافَةُ[10] تَحْيَا فِي خَاطِرِهِ مَا امْتَدَّتْ بِهِ الْحَيَاةُ ...

فَاسْتَمِعْ إِلَىٰ بَعْضِ حَدِيثِهِ عَنْ تِلْكَ الذِّكْرَيَاتِ حَيْثُ يَقُولُ :

---

(١) ذو نساء : مُتعدِّدُ الزّوجات .
(٢) بأَمْرِ نفسيهما : بخدمة ذاتيهما .
(٣) ما يتقذّرنَهُ : ما لا يتحمّلنه من أوساخهما .
(٤) ضمهما إليك : أمسكهما عندك .
(٥) المضمخة : المعطّرة .
(٦) دَرَجَ : نشأ وتربّى .
(٧) أكناف : رحاب .
(٨) نهل : استقى .
(٩) الشّذية : العَبقة بريح المسك .
(١٠) الرّفّافة : المتلألئة .

قُلْتُ ذَاتَ يَوْمٍ لِعَمَّتِي عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا:

يَا أُمَّهْ[1]، اِكْشِفِي لِي عَنْ قَبْرِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَقَبْرَيْ صَاحِبَيْهِ... فَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَرَاهَا.

وَكَانَتِ الْقُبُورُ الثَّلَاثَةُ مَا زَالَتْ دَاخِلَ بَيْتِهَا، وَقَدْ غَطَّتْهَا بِمَا يَسْتُرُهَا عَنِ الْعَيْنِ... فَكَشَفَتْ لِي عَنْ ثَلَاثَةِ قُبُورٍ لَا مُشْرِفَةٍ[2] وَلَا وَاطِئَةٍ.

قَدْ مُهِّدَتْ بِصِغَارِ الْحَصَىٰ الْحُمْرِ مِمَّا كَانَ فِي بَاحَةِ الْمَسْجِدِ.

فَقُلْتُ: أَيْنَ قَبْرُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟.

فَأَشَارَتْ بِيَدِهَا وَقَالَتْ: هَٰذَا.

ثُمَّ تَحَدَّرَتْ[3] عَلَىٰ خَدَّيْهَا دَمْعَتَانِ كَبِيرَتَانِ...

فَبَادَرَتْ[4]، فَمَسَحَتْهُمَا حَتَّىٰ لَا أَرَاهُمَا.

وَكَانَ قَبْرُ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُقَدَّمًا عَلَىٰ قَبْرَيْ صَاحِبَيْهِ.

فَقُلْتُ: وَأَيْنَ قَبْرُ جَدِّي أَبِي بَكْرٍ؟!.

فَقَالَتْ: هَا هُوَ ذَا.

وَكَانَ مَدْفُونًا عِنْدَ رَأْسِ النَّبِيِّ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ.

فَقُلْتُ: وَهَٰذَا قَبْرُ عُمَرَ؟.

فَقَالَتْ: نَعَمْ.

---

(١) يا أُمَّهْ: يا أمي.
(٢) لا مشرفة: ما هي مُرتفعة عالية.
(٣) تحدّرت: انسكبت.
(٤) بادرت: أسرعت، وعاجلت.

وَكَانَ رَأْسُ عُمَرَ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ عِنْدَ خَصْرِ جَدِّي ، قَرِيبًا مِنْ رِجْلِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

* * *

وَلَمَّا شَبَّ الْفَتَىٰ الْبَكْرِيُّ كَانَ قَدْ حَفِظَ كِتَابَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ...

وَأَخَذَ عَنْ عَمَّتِهِ عَائِشَةَ مِنْ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَأْخُذَ .

ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَىٰ الْحَرَمِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ ، وَانْقَطَعَ إِلَىٰ حَلَقَاتِ الْعِلْمِ الَّتِي كَانَتْ تَنْتَثِرُ(١) فِي كُلِّ رُكْنٍ مِنْ أَرْكَانِهِ كَمَا تَنْتَثِرُ النُّجُومُ الزُّهْرُ(٢) عَلَىٰ صَفْحَةِ السَّمَاءِ ...

فَرَوَىٰ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ ، وَعَبْدِ اللَّهِ ابْنِ الزُّبَيْرِ(٣) ...

وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ خَبَّابٍ ، وَرَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ ، وَأَسْلَمَ مَوْلَىٰ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ، وَغَيْرِهِمْ وَغَيْرِهِمْ ...

حَتَّىٰ غَدَا إِمَامًا مُجْتَهِدًا ...

وَأَصْبَحَ مِنْ أَعْلَمِ أَهْلِ زَمَانِهِ بِالسُّنَّةِ(٤).

وَكَانَ الرَّجُلُ لَا يُعَدُّ رَجُلًا عِنْدَهُمْ حَتَّىٰ يُتْقِنَ السُّنَّةَ ...

* * *

وَلَمَّا اكْتَمَلَتْ لِلشَّابِّ الْبَكْرِيِّ أَدَوَاتُ الْمَعْرِفَةِ ؛ أَقْبَلَ النَّاسُ عَلَيْهِ يَلْتَمِسُونَ(٥) عِنْدَهُ الْعِلْمَ بِشَغَفٍ(٦) ...

---

(١) تنتثر : تتفرّق .
(٢) النّجوم الزّهر : النّجوم الزّاهية المضيئة .
(٣) انظرهم في كتاب « صور من حياة الصّحابة » للمؤلف ، النّاشر دار الأدب الإسلامي ، الطّبعة الشرعية .
(٤) السُّنة : ما صح من حديث رسول الله ﷺ .
(٥) يلتمسون : يطلبون وينشدون.
(٦) بشغف : بشوق ورغبة .

وَأَقْبَلَ هُوَ عَلَيْهِمْ يَبْذُلُهُ لَهُمْ بِسَخَاءٍ ...

فَكَانَ يَأْتِي مَسْجِدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ غَدَاةَ كُلِّ يَوْمٍ فِي مَوْعِدٍ لَا يُخْلِفُهُ ... فَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ يُحَيِّي بِهِمَا الْمَسْجِدَ ...

ثُمَّ يَأْخُذُ مَكَانَهُ أَمَامَ خَوْخَةِ[1] عُمَرَ فِي الرَّوْضَةِ الْغَرَّاءِ بَيْنَ قَبْرِ النَّبِيِّ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَبَيْنَ مِنْبَرِهِ[2].

فَيَجْتَمِعُ عَلَيْهِ طُلَّابُ الْعِلْمِ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ...

وَيَنْهَلُونَ مِنْ مَوَارِدِهِ الْعَذْبَةِ الْمُصَفَّاةِ مَا يَمْلَأُ النُّفُوسَ الْعَطْشَىٰ رِيًّا.

وَلَمْ يَمْضِ طَوِيلُ وَقْتٍ حَتَّىٰ أَصْبَحَ الْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ وَابْنُ خَالَتِهِ سَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ[3] إِمَامَيِ الْمَدِينَةِ الْمَوْثُوقَيْنِ[4] ...

وَسَيِّدَيْهَا الْمُطَاعَيْنِ، وَرَجُلَيْهَا النَّافِذَيْنِ[5] ...

عَلَىٰ الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ لَمْ تَكُنْ فِي أَيْدِيهِمَا وَلَايَةٌ وَلَا سُلْطَانٌ.

فَقَدْ سَوَّدَهُمَا[6] النَّاسُ لِمَا كَانَا يَتَحَلَّيَانِ بِهِ مِنَ التُّقَىٰ وَالْوَرَعِ ...

وَمَا يَحْمِلَانِهِ فِي صَدْرَيْهِمَا مِنَ الْعِلْمِ وَالْفِقْهِ ...

وَمَا يَزْدَانَانِ بِهِ مِنَ الزَّهَادَةِ بِمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ، وَالرَّغْبَةِ بِمَا عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ...

* * *

(١) الخوخة: نافذة صغيرة في البيت تؤدي إليه الضوء، وهي الباب الصغير في الباب الكبير.

(٢) بين قبر النبي ومنبره: وهو مكان مبارك حيث يقول النبي عليه الصلاة والسلام «بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة» وقد أصبح بيته هو قبره عليه الصلاة والسلام.

(٣) سالم بن عبد الله بن عمر: انظره ص ٣٦٩، ٣٧٩.

(٤) الموثوقين: اللذين يثق بهما الناس.

(٥) النافذين: المسموعي الكلمة.

(٦) سودهما الناس: أمّرهما الناس عليهم.

وَقَدْ بَلَغَ مِنْ مَكَانَتِهِمَا فِي النُّفُوسِ أَنَّ خُلَفَاءَ بَنِي «أُمَيَّةَ» وَوُلَاتَهُمْ كَانُوا لَا يَقْطَعُونَ أَمْرًا ذَا بَالٍ(١) فِي شَأْنٍ مِنْ شُؤُونِ الْمَدِينَةِ إِلَّا بِرَأْيَيْهِمَا .

مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الْوَلِيدَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ قَدْ عَقَدَ الْعَزْمَ عَلَىٰ تَوْسِعَةِ الْحَرَمِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ .

وَلَمْ يَكُنْ فِي وُسْعِهِ أَنْ يُحَقِّقَ هَـٰذِهِ الْأُمْنِيَةَ(٢) الْغَالِيَةَ إِلَّا إِذَا هَدَمَ الْمَسْجِدَ الْقَدِيمَ مِنْ جِهَاتِهِ الْأَرْبَعِ ...

وَأَزَالَ بُيُوتَ زَوْجَاتِ النَّبِيِّ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ، وَضَمَّهَا إِلَىٰ الْمَسْجِدِ .

وَهِيَ أُمُورٌ تَشُقُّ(٣) عَلَىٰ النَّاسِ ...

وَلَا تَطِيبُ(٤) نُفُوسُهُمْ بِهَا ...

فَكَتَبَ إِلَىٰ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَالِيهِ عَلَىٰ الْمَدِينَةِ يَقُولُ :

لَقَدْ رَأَيْتُ أَنْ أُوَسِّعَ مَسْجِدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّىٰ يُصْبِحَ مِائَتَيْ ذِرَاعٍ فِي مِائَتَيْ ذِرَاعٍ .

فَاهْدِمْ جُدْرَانَهُ الْأَرْبَعَةَ ، وَأَدْخِلْ فِيهِ حُجَرَ(٥) زَوْجَاتِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ...

وَاشْتَرِ مَا فِي نَوَاحِيهِ مِنَ الْبُيُوتِ ...

وَقَدِّمِ الْقِبْلَةَ إِنْ قَدَرْتَ .

---

(١) ذا بال : ذا شأن .
(٢) الأمنية : ما يبتغيه الإنسان ويتمناه .
(٣) تشق عَلَىٰ النّاس : تصعب عليهم .
(٤) لَا تطيب نفوسهم بها : لَا يسرون بها ، ولَا يرتاحون إليها .
(٥) حُجَر : غُرَف .

وَ إِنَّكَ تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ لِمَكَانِ[1] أَخْوَالِكَ آلِ الْخَطَّابِ، وَمَنْزِلَتِهِمْ فِي قُلُوبِ النَّاسِ.

فَإِذَا أَبَىٰ عَلَيْكَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ ذَلِكَ؛ فَاسْتَعِنْ بِالْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ وَسَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، وَأَشْرِكْهُمَا مَعَكَ فِي الْأَمْرِ...

وَادْفَعْ إِلَىٰ النَّاسِ أَثْمَانَ بُيُوتِهِمْ بِسَخَاءٍ...

وَ إِنَّ لَكَ فِي ذَلِكَ سَلَفَيْ صِدْقٍ...

هُمَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَعُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ.

* * *

فَدَعَا عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْقَاسِمَ بْنَ مُحَمَّدٍ وَسَالِمَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ وَطَائِفَةً مِنْ وُجُوهِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، وَقَرَأَ عَلَيْهِمْ كِتَابَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ... فَسُرُّوا بِمَا عَزَمَ عَلَيْهِ الْخَلِيفَةُ، وَهَبُّوا لِإِنْفَاذِهِ[2].

فَلَمَّا رَأَىٰ النَّاسُ عَالِمَي الْمَدِينَةِ وَ إِمَامَيْهَا الْكَبِيرَيْنِ؛ يُبَاشِرَانِ هَدْمَ الْمَسْجِدِ بِأَيْدِيهِمَا، قَامُوا مَعَهُمَا قَوْمَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ...

وَأَنْفَذُوا مَا جَاءَ فِي كِتَابِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ...

وَكَانَتْ جُيُوشُ الْمُسْلِمِينَ الْمُظَفَّرَةُ تَدُقُّ آنَئِذٍ أَبْوَابَ الْحُصُونِ الْمُفْضِيَةِ[3] إِلَىٰ مَدِينَةِ «الْقِسْطَنْطِينِيَّةِ»...

وَتَسْتَوْلِي عَلَيْهَا وَاحِدًا بَعْدَ آخَرَ بِقِيَادَةِ الْأَمِيرِ الْبَاسِلِ مَسْلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ[4]... وَذَلِكَ تَمْهِيدًا لِفَتْحِ «الْقِسْطَنْطِينِيَّةِ» نَفْسِهَا.

(١) لمكان أخوالك: لمقامهم ومنزلتهم.
(٢) هبُّوا لإنفاذه: انطلقوا للقيام به.
(٣) المفضية: الموصلة.
(٤) هو أحد كبار قادة المسلمين، غزا بلاد أرمينيا كما غزا بلاد الرُّوم حتَّىٰ بلغ خليج القسطنطينية.

فَلَمَّا عَلِمَ مَلِكُ « الرُّومِ » بِعَزْمِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ تَوْسِعَةِ الْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ ، أَحَبَّ أَنْ يُصَانِعَهُ[١]، وَيَتَقَرَّبَ إِلَيْهِ بِمَا يَسُرُّهُ ...

فَبَعَثَ إِلَيْهِ بِمِائَةِ أَلْفِ مِثْقَالٍ مِنَ الذَّهَبِ ...

وَأَرْسَلَ مَعَهَا مِائَةَ عَامِلٍ مِنْ أَمْهَرِ الْبَنَّائِينَ فِي بِلَادِ « الرُّومِ » ...

وَزَوَّدَ الْعُمَّالَ بِأَرْبَعِينَ حِمْلًا مِنَ الْفُسَيْفِسَاءِ[٢]...

فَأَرْسَلَ الْوَلِيدُ ذَلِكَ كُلَّهُ إِلَىٰ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ ؛ لِيَسْتَعِينَ بِهِ عَلَىٰ بِنَاءِ الْمَسْجِدِ ... فَأَنْفَقَهُ عُمَرُ بِمَشُورَةِ الْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ وَصَاحِبِهِ .

* * *

وَلَقَدْ كَانَ الْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ أَشَدَّ النَّاسِ تَأَسِّيًا[٣] بِجَدِّهِ الصِّدِّيقِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، حَتَّىٰ قَالَ النَّاسُ :

لَمْ يَلِدْ أَبُو بَكْرٍ وَلَدًا أَشْبَهَ بِهِ مِنْ هَٰذَا الْفَتَىٰ .

فَلَقَدْ أَشْبَهَهُ فِي كَرَمِ شَمَائِلِهِ[٤]، وَنُبْلِ خَصَائِلِهِ[٥]...

وَصَلَابَةِ إِيمَانِهِ ، وَشِدَّةِ وَرَعِهِ ...

وَسَمَاحَةِ نَفْسِهِ[٦]، وَسَخَاءِ يَدِهِ ...

وَقَدْ أُثِرَ عَنْهُ كَثِيرٌ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ تَشْهَدُ لَهُ بِهَٰذَا .

مِنْ ذَلِكَ أَنَّ أَعْرَابِيًّا جَاءَهُ إِلَىٰ الْمَسْجِدِ فَقَالَ :

أَيُّمَا أَعْلَمُ أَنْتَ أَمْ سَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ؟ .

---

(١) يصانعه : يداريه ويداهنه .

(٢) الْفُسَيْفِسَاء : قطع صغيرة من الرخام زاهية الألوان يؤلَّف بعضها مع بعض في أشكال رائعة بديعة ، وتزين بها جدران القصور .

(٣) تأسّيًا بفلان : تشبهًا به ، وجريًا عَلَىٰ منهجه .

(٤) كرم شمائله : سمُوّ أخلاقه .

(٥) نبل خصائله : رفعة صفاته .

(٦) سماحة نفسه : جود نفسه وسخاء يده .

فَتَشَاغَلَ عَنْهُ .

فَأَعَادَهَا عَلَيْهِ ...

فَقَالَ : سُبْحَانَ اللَّهِ .

فَأَعَادَهَا كَرَّةً ثَالِثَةً ، فَقَالَ لَهُ : ذَاكَ سَالِمٌ يَا بْنَ أَخِي يَجْلِسُ هُنَاكَ .

فَقَالَ مَنْ فِي الْمَجْلِسِ :

لِلَّهِ أَبُوهُ[1]... لَقَدْ كَرِهَ أَنْ يَقُولَ : أَنَا أَعْلَمُ مِنْهُ ؛ فَيُزَكِّيَ نَفْسَهُ[2]...

وَكَرِهَ أَنْ يَقُولَ : هُوَ أَعْلَمُ مِنِّي ؛ فَيَكْذِبَ ...

وَكَانَ أَعْلَمَ مِنْ سَالِمٍ .

* * *

وَلَقَدْ رُئِيَ ذَاتَ مَرَّةٍ « بِمِنًى » ، وَأَهْلُ الْأَمْصَارِ مِنْ حُجَّاجِ بَيْتِ اللَّهِ يُطْبِقُونَ[3] عَلَيْهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ؛ وَهُمْ يَسْأَلُونَهُ .

فَكَانَ يُجِيبُهُمْ بِمَا يَعْلَمُ ، وَيَقُولُ لَهُمْ فِيمَا لَا يَعْلَمُهُ :

لَا أَدْرِي ... لَا أَعْلَمُ ... لَا أَدْرِي ... فَأَخَذَهُمْ مِنْهُ الْعَجَبُ .

فَقَالَ لَهُمْ : مَا نَعْلَمُ كُلَّ مَا تَسْأَلُونَ عَنْهُ ...

وَلَوْ عَلِمْنَاهُ مَا كَتَمْنَاهُ ...

وَلَا يَحِلُّ لَنَا أَنْ نَكْتُمَهُ ...

وَلَأَنْ يَعِيشَ الرَّجُلُ جَاهِلًا ـ بَعْدَ أَنْ يَعْرِفَ حَقَّ اللَّهِ عَلَيْهِ ـ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَقُولَ مَا لَا يَعْلَمُ .

* * *

(١) للّه أبوه : كلمة تقال في مجال المدح والتعظيم.
(٢) يزكي نفسه : يمدح نفسه.
(٣) يطبقون عليه : يتكاثرون عليه ويلتفون حوله.

وَفِي ذَاتِ مَرَّةٍ ، عُهِدَ[1] إِلَيْهِ بِقِسْمَةِ الصَّدَقَاتِ[2] بَيْنَ مُسْتَحِقِّيهَا ؛ فَاجْتَهَدَ فِي ذَلِكَ مَا وَسِعَهُ الِاجْتِهَادُ ...

وَأَعْطَىٰ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ ...

غَيْرَ أَنَّ أَحَدَهُمْ لَمْ يَرْضَ عَنْ نَصِيبِهِ الَّذِي أُعْطِيَ لَهُ .

فَأَتَاهُ إِلَىٰ الْمَسْجِدِ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي ، وَجَعَلَ يَتَكَلَّمُ فِي أَمْرِ الصَّدَقَةِ .

فَقَالَ لَهُ ابْنُهُ :

وَاللَّهِ إِنَّكَ لَتَتَكَلَّمُ فِي رَجُلٍ مَا نَالَ مِنْ صَدَقَتِكُمْ دِرْهَمًا وَلَا دَانِقًا[3] ...

وَلَا أَصَابَ مِنْهَا تَمْرَةً وَاحِدَةً .

فَأَوْجَزَ[4] الْقَاسِمُ صَلَاتَهُ ، وَالْتَفَتَ إِلَىٰ ابْنِهِ وَقَالَ :

يَا بُنَيَّ ، لَا تَتَكَلَّمْ بَعْدَ الْيَوْمِ فِيمَا لَا تَعْلَمُ .

فَقَالَ النَّاسُ : صَدَقَ ابْنُهُ ...

وَلَكِنَّهُ أَرَادَ أَنْ يُرَبِّيَهُ ، وَأَنْ يَحْفَظَ لِسَانَهُ مِنَ التَّوَسُّعِ[5] فِي الْكَلَامِ .

* * *

وَقَدْ عُمِّرَ الْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ حَتَّىٰ نَيَّفَ[6] عَلَىٰ الثَّانِيَةِ وَالسَّبْعِينَ ...

لَكِنَّهُ كُفَّ بَصَرُهُ وَهُوَ شَيْخٌ كَبِيرٌ .

وَفِي آخِرِ سَنَةٍ مِنْ حَيَاتِهِ ، قَصَدَ مَكَّةَ يُرِيدُ الْحَجَّ ... وَفِيمَا هُوَ فِي بَعْضِ طَرِيقِهِ أَتَاهُ الْيَقِينُ[7] ...

---

(١) عُهِد إليه : أُوكِلَ إليه .
(٢) الصَّدقات : أموال الزَّكاة .
(٣) الدَّانق : سُدُس الدِّرهم .
(٤) أوْجز : قصَّر .
(٥) التوسُّع في الكلام : قول ما لا فائدة منه .
(٦) نيَّف : زاد .
(٧) اليَقين : الانتقال إلى الآخرة .

فَلَمَّا أَحَسَّ بِالْأَجَلِ(١) الْتَفَتَ إِلَىٰ ابْنِهِ وَقَالَ :

إِذَا أَنَا مِتُّ ؛ فَكَفِّنِّي بِثِيَابِي الَّتِي كُنْتُ أُصَلِّي فِيهَا :

قَمِيصِي ...

وَإِزَارِي ...

وَرِدَائِي ...

فَذَلِكَ كَانَ كَفَنُ جَدِّكَ أَبِي بَكْرٍ .

ثُمَّ سَوِّ عَلَيَّ لَحْدِي .

وَالْحَقْ بِأَهْلِكَ .

وَإِيَّاكُمْ أَنْ تَقِفُوا عَلَىٰ قَبْرِي ، وَتَقُولُوا :

كَانَ ...

وَكَانَ ...

فَمَا كُنْتُ شَيْئًا (*) .

---

(١) الْأَجَلِ : الْوَفَاة .

(*) للاستزادة من أخبار الْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ انظر :
١ - حلية الأولياء : ٢/ ١٨٣.
٢ - صفة الصفوة «الطبعة الحلبية» : ٢/ ٨٨.
٣ - تهذيب التهذيب : ٨/ ٣٣٣.
٤ - وفيات الأعيان لابن خلكان : ٤/ ٥٩ - ٦٠، و«انظر الفهارس في الجزء الثامن» .
٥ - الطبقات الكبرى لابن سعد : ٥/ ١٨٧.
٦ - شذرات الذهب للعماد الحنبلي : ١/ ١٣٥.
٧ - نكت الهميان للصفدي : ٢٣٠.
٨ - الكامل في التاريخ : ٥/ ١١٤.
٩ - تاريخ الطبري «طبعة دار المعارف» : ٣/ ٤٢٢ و«انظر الفهارس» .
١٠ - الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني «طبعة صادر» : ٢٠/ ٢٧٩.

صِلَةُ بْنُ أَشْيَمَ العَدَوِيُّ

« تَلَقَّىٰ صِلَةُ بْنُ أَشْيَمَ عَنْ جِلَّةِ الصَّحَابَةِ ،
وَاقْتَبَسَ مِنْ خِلَالِهِمْ ، وَتَخَلَّقَ بِأَخْلَاقِهِمْ »

[الأَصْبَهَانِيُّ]

صِلَةُ بْنُ أَشْيَمَ الْعَدَوِيُّ عَابِدٌ مِنْ عُبَّادِ اللَّيْلِ ...

وَفَارِسٌ مِنْ فُرْسَانِ النَّهَارِ ...

كَانَ إِذَا نَشَرَ الظَّلَامُ أَسْتَارَهُ عَلَىٰ الْكَوْنِ ، وَأُسْلِمَتِ[1] الْجُنُوبُ إِلَىٰ الْمَضَاجِعِ ... قَامَ فَأَسْبَغَ الْوُضُوءَ[2] ، ثُمَّ صَفَّ فِي مِحْرَابِهِ ، وَدَخَلَ فِي صَلَاتِهِ ، وَهَامَ وَجْدًا بِرَبِّهِ .

فَيُشْرِقُ فِي نَفْسِهِ سَنًا[3] إِلَهِيٌّ ؛ يُنِيرُ لِبَصِيرَتِهِ أَرْجَاءَ الْكَوْنِ ...

وَيُرِيهِ آيَاتِ اللَّهِ فِي الْآفَاقِ .

وَكَانَ إِلَىٰ ذَلِكَ مُولَعًا بِقُرْآنِ الْفَجْرِ ...

فَإِذَا أَقْبَلَ الْهَزِيعُ[4] الْأَخِيرُ مِنَ اللَّيْلِ ؛ انْحَنَىٰ بِصُلْبِهِ عَلَىٰ أَجْزَاءِ الْقُرْآنِ ...

وَانْطَلَقَ يُرَتِّلُ آيَاتِ اللَّهِ الْبَيِّنَاتِ بِصَوْتٍ نَدِيٍّ ، وَجَرْسٍ شَجِيٍّ ...

فَتَارَةً يَجِدُ لِلْقُرْآنِ حَلَاوَةً تَأْخُذُ بِمَجَامِعِ[5] قَلْبِهِ ، وَتَسْتَأْثِرُ بِمَكَامِنِ لُبِّهِ[6] مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ...

---

(١) أُسْلِمت الجنوب إلى المضاجع : غرق النَّاس في النوم .
(٢) أسبغ الوضوء : أتَمّ الوضوء وأتقنه .
(٣) السَّنا : النور .
(٤) الهزيع الأخير : الثلث الأخير .
(٥) مجامع قلبه : جوانب فؤاده كلها .
(٦) اللُّب : العقل الصافي .

وَأُخْرَىٰ يَسْتَشْعِرُ لِلْقُرْآنِ خَشْعَةً تُصَدِّعُ فُؤَادَهُ ...

* * *

وَلَمْ يَكُنْ صِلَةُ بْنُ أَشْيَمَ يَفْتُرُ عَنْ عِبَادَتِهِ هَٰذِهِ قَطُّ ...

لَا فَرْقَ فِي ذَٰلِكَ بَيْنَ حِلِّهِ وَتَرْحَالِهِ ، وَشُغْلِهِ وَفَرَاغِهِ .

حَكَىٰ جَعْفَرُ بْنُ زَيْدٍ قَالَ :

خَرَجْنَا مَعَ جَيْشٍ مِنْ جُيُوشِ الْمُسْلِمِينَ فِي غَزَاةٍ[1] إِلَىٰ مَدِينَةِ « كَابُلَ »[2] رَجَاءَ أَنْ يَفْتَحَهَا اللَّهُ لَنَا ؛ وَكَانَ فِي الْجَيْشِ صِلَةُ بْنُ أَشْيَمَ .

فَلَمَّا أَرْخَىٰ اللَّيْلُ سُدُولَهُ[3] ـ وَنَحْنُ فِي بَعْضِ الطَّرِيقِ ـ حَطَّ الْجُنْدُ رِحَالَهُمْ ، وَأَصَابُوا شَيْئًا مِنَ الطَّعَامِ ، وَأَدَّوُا الْعِشَاءَ الْأَخِيرَةَ ...

ثُمَّ مَضَوْا إِلَىٰ رِحَالِهِمْ يَلْتَمِسُونَ عِنْدَهَا حَظًّا مِنَ الرَّاحَةِ ...

فَرَأَيْتُ صِلَةَ بْنَ أَشْيَمَ يَمْضِي إِلَىٰ رَحْلِهِ كَمَا مَضَوْا ...

وَيُسْلِمُ جَنْبَهُ إِلَىٰ الرُّقَادِ كَمَا فَعَلُوا .

فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : أَيْنَ الَّذِي يَرْوُونَهُ مِنْ صَلَاةِ الرَّجُلِ وَعِبَادَتِهِ ، وَيُشِيعُونَهُ مِنْ قِيَامِهِ حَتَّىٰ تَتَوَرَّمَ قَدَمَاهُ ؟! .

وَاللَّهِ لَأَرْمُقَنَّهُ[4] اللَّيْلَةَ حَتَّىٰ أَرَىٰ مَا يَكُونُ مِنْهُ .

فَمَا إِنْ غَرِقَ الْجُنْدُ فِي نَوْمِهِمْ ... حَتَّىٰ رَأَيْتُهُ يَسْتَيْقِظُ مِنْ رَقْدَتِهِ ، وَيَنْحَازُ[5] عَنِ الْعَسْكَرِ مُسْتَتِرًا بِالْعَتْمَةِ ، وَيَدْخُلُ فِي غَابَةٍ لَفَّاءَ[6]، بَاسِقَةِ

(١) غزاة : غزوة .
(٢) كَابُل : عاصمة أفغانستان ، وهي واقعة علىٰ نهر كَابُل .
(٣) أرخىٰ سُدوله : أسْدَل ظلامه علىٰ الكون .
(٤) لأَرْمُقَنَّه : لأَنظُرنَّ إليه .
(٥) ينحاز عن المسكر : يميل إلىٰ جهة بعيدة عن العسكر .
(٦) لَفَّاء : ملتفة الأشجار ، متعانقة الأغصان .

الْأَشْجَارِ ، وَحْشِيَّةِ الْأَعْشَابِ ، كَأَنَّهَا لَمْ تَطَأْهَا قَدَمَانِ مُنْذُ دَهْرٍ طَوِيلٍ .

فَمَضَيْتُ فِي إِثْرِهِ[١] ...

فَلَمَّا بَلَغَ مِنْهَا مَكَانًا قَصِيًّا ؛ الْتَمَسَ[٢] الْقِبْلَةَ وَاتَّجَهَ إِلَيْهَا ، وَكَبَّرَ لِلصَّلَاةِ ، وَاسْتَغْرَقَ فِيهَا ... فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ مِنْ بُعْدٍ ؛ فَرَأَيْتُهُ مُشْرِقَ الْوَجْهِ ...

سَاكِنَ الْأَعْضَاءِ ...

هَادِئَ النَّفْسِ ...

كَأَنَّمَا يَجِدُ فِي الْوَحْشَةِ أُنْسًا ...

وَفِي الْبُعْدِ قُرْبًا ...

وَفِي الظُّلْمَةِ ضِيَاءً مُنِيرًا ...

وَفِيمَا هُوَ كَذَلِكَ ... طَلَعَ عَلَيْنَا أَسَدٌ مِنَ الْجَانِبِ الشَّرْقِيِّ لِلْغَابَةِ ، فَمَا إِنْ أَثْبَتُّهُ[٣] حَتَّى انْخَلَعَ فُؤَادِي هَلَعًا[٤] مِنْهُ ، فَعَلَوْتُ شَجَرَةً بَاسِقَةً[٥] لِوَاذًا[٦] مِنْ شَرِّهِ .

فَمَا زَالَ الْأَسَدُ يَدْنُو مِنْ صِلَةَ بْنِ أَشْيَمَ ، وَهُوَ غَارِقٌ فِي صَلَاتِهِ حَتَّى أَصْبَحَ عَلَى قِيدِ[٧] خُطُوَاتٍ مِنْهُ ... فَوَاللَّهِ مَا الْتَفَتَ إِلَيْهِ ...

وَلَا حَفَلَ[٨] بِهِ ...

فَلَمَّا سَجَدَ قُلْتُ : الْآنَ يَفْتَرِسُهُ .

فَلَمَّا نَهَضَ مِنْ سُجُودِهِ ، وَجَلَسَ ؛ وَقَفَ الْأَسَدُ بِإِزَائِهِ[٩] كَأَنَّهُ يَتَأَمَّلُهُ .

---

(١) فِي إِثْرِهِ : وراءه .
(٢) التمس القِبلة : بحث عنها .
(٣) أَثْبَتُّه : تأكدت منه .
(٤) هَلَعًا : جزعًا وخوفًا .
(٥) باسقة : مرتفعة الأغصان .
(٦) لِوَاذًا : وقاية .
(٧) عَلَى قيد : عَلَى بعد .
(٨) ما حفل به : ما اهتم به .
(٩) بإزائه : أمامه .

فَلَمَّا سَلَّمَ نَظَرَ إِلَىٰ الْأَسَدِ فِي سُكُونٍ ...

وَحَرَّكَ شَفَتَيْهِ بِكَلَامٍ لَمْ أَسْمَعْهُ ...

فَإِذَا بِالْأَسَدِ يَنْصَرِفُ عَنْهُ فِي هُدُوءٍ، وَيَعُودُ مِنْ حَيْثُ جَاءَ ...

* * *

وَلَمَّا انْبَلَجَ[1] الْفَجْرُ، نَهَضَ فَأَدَّىٰ الْمَكْتُوبَةَ.

ثُمَّ طَفِقَ[2] يَحْمَدُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بِمَحَامِدَ لَمْ أَسْمَعْ مِثْلَهَا قَطُّ.

ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ أَنْ تُجِيرَنِي مِنَ النَّارِ ...

وَهَلْ يَجْتَرِئُ عَبْدٌ خَاطِئٌ مِثْلِي أَنْ يَسْأَلَكَ الْجَنَّةَ ؟!.

وَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّىٰ بَكَىٰ وَأَبْكَانِي.

ثُمَّ رَجَعَ إِلَىٰ الْجَيْشِ دُونَ أَنْ يَفْطَنَ لَهُ أَحَدٌ ...

وَبَدَا لِعُيُونِ الْقَوْمِ كَأَنَّهُ بَاتَ عَلَىٰ الْحَشَايَا[3]، وَعُدْتُ أَنَا فِي إِثْرِهِ وَبِي مِنْ سَهَرِ اللَّيْلِ ... وَفُتُورِ الْجِسْمِ ... وَخَوْفِ الْأَسَدِ ... مَا اللَّهُ بِهِ عَلِيمٌ ...

* * *

وَلَقَدْ كَانَ صِلَةُ بْنُ أَشْيَمَ إِلَىٰ هَٰذَا كُلِّهِ لَا يَدَعُ سَانِحَةً[4] مِنْ سَوَانِحِ الْمَوْعِظَةِ وَالتَّذْكِيرِ، إِلَّا اغْتَنَمَهَا ...

وَكَانَ أُسْلُوبُهُ فِي ذَٰلِكَ أَنْ يَدْعُوَ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّهِ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، فَيَسْتَمِيلَ النُّفُوسَ النَّافِرَةَ ...

وَيَسْتَلِينَ الْقُلُوبَ الْقَاسِيَةَ ...

* * *

(١) انبلج: أشرق وأضاء.
(٢) طفق: أخذ.
(٣) الحشايا: الفرش.
(٤) لا يدع سانحة: لا يترك فرصة.

مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ يَخْرُجُ إِلَىٰ الْبَرِّيَّةِ فِي ظَاهِرِ «الْبَصْرَةِ» لِلْخَلْوَةِ وَالتَّعَبُّدِ...

فَكَانَتْ تَمُرُّ بِهِ طَائِفَةٌ مِنَ الشَّبَابِ أَرْخَتْ لِلصِّبَا عِنَانَهُ[1]...

فَتَلْهُو وَتَلْعَبُ... وَتَسْرَحُ وَتَمْرَحُ...

فَكَانَ يُحَيِّيهِمْ بِأُنْسٍ...

وَيُخَاطِبُهُمْ فِي رِفْقٍ وَيَقُولُ لَهُمْ:

مَا تَقُولُونَ فِي قَوْمٍ أَزْمَعُوا[2] سَفَرًا لِأَمْرٍ عَظِيمٍ؛ غَيْرَ أَنَّهُمْ كَانُوا فِي النَّهَارِ يَحِيدُونَ عَنِ الطَّرِيقِ لِيَلْهُوا وَيَلْعَبُوا...

وَفِي اللَّيْلِ يَبِيتُونَ لِيَسْتَرِيحُوا...

فَمَتَىٰ تَرَوْنَهُمْ يُنْجِزُونَ رِحْلَتَهُمْ...

وَيَبْلُغُونَ غَايَتَهُمْ؟!.

وَدَأَبَ عَلَىٰ قَوْلِ ذَلِكَ الْمَرَّةَ تِلْوَ الْمَرَّةِ...

فَلَقِيَهُمْ ذَاتَ مَرَّةٍ وَقَالَ لَهُمْ مَقَالَتَهُ تِلْكَ...

فَنَهَضَ شَابٌّ مِنْهُمْ وَقَالَ:

إِنَّهُ - وَاللَّهِ - مَا يَعْنِي بِذَلِكَ أَحَدًا غَيْرَنَا؛ فَنَحْنُ بِالنَّهَارِ نَلْهُو...

وَبِاللَّيْلِ نَنَامُ...

ثُمَّ انْحَازَ الشَّابُّ عَنْ رِفَاقِهِ.

وَاتَّبَعَ صِلَةَ بْنَ أَشْيَمَ مُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ...

(١) أرخت للصِّبا عنانه: أطلقت للشباب رغباته.
(٢) أزمعوا: عزموا، وأزمع علَى الأمر: عزم عليْهِ.

وَمَا زَالَ فِي صُحْبَتِهِ حَتَّىٰ أَتَاهُ الْيَقِينُ[١].

* * *

وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضًا أَنَّهُ كَانَ يَمْضِي ذَاتَ نَهَارٍ فِي ثُلَّةٍ[٢] مِنْ أَصْحَابِهِ إِلَىٰ غَايَةٍ لَهُمْ، فَمَرَّ بِهِمْ شَابٌّ رَائِعُ الشَّبَابِ ... رَيَّانُ الصِّبَا.

قَدْ أَطَالَ إِزَارَهُ حَتَّىٰ جَعَلَ يَجُرُّهُ عَلَىٰ الْأَرْضِ جَرَّ الْخُيَلَاءِ[٣]...

فَهَمَّ أَصْحَابُهُ بِالشَّابِّ ...

وَأَرَادُوا أَنْ يَأْخُذُوهُ[٤] بِأَلْسِنَتِهِمْ وَأَيْدِيهِمْ أَخْذًا شَدِيدًا.

فَقَالَ لَهُمْ صِلَةُ: دَعُونِي أَكْفِكُمْ أَمْرَهُ.

ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَىٰ الشَّابِّ، وَقَالَ فِي رِفْقِ الْأَبِ الشَّفِيقِ ...

وَنَبْرَةِ[٥] الصَّدِيقِ الْحَمِيمِ:

يَا بْنَ أَخِي، إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً.

فَتَوَقَّفَ الْفَتَىٰ، وَقَالَ: وَمَا هِيَ يَا عَمُّ؟.

فَقَالَ: أَنْ تَرْفَعَ إِزَارَكَ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَنْقَىٰ لِثَوْبِكَ ...

وَأَتْقَىٰ لِرَبِّكَ ...

وَأَدْنَىٰ لِسُنَّةِ نَبِيِّكَ.

فَقَالَ الْفَتَىٰ فِي خَجَلٍ: نَعَمْ، وَنِعْمَةَ عَيْنٍ[٦]...

ثُمَّ بَادَرَ وَرَفَعَ إِزَارَهُ.

(١) الْيَقِين: الموت.
(٢) ثُلَّة: جماعة.
(٣) الخيلاء: الإعجاب بالنفس، والتبختر بالمشي.
(٤) أن يأخذوه: أن يتناولوه ويؤذوه.
(٥) نبرة الصديق الحميم: لهجة الصديق الصدوق.
(٦) نِعمة عين: مسرّة عين.

فَقَالَ صِلَةُ لِأَصْحَابِهِ : إِنَّ هَٰذَا أَمْثَلُ[1] مِمَّا أَرَدْتُمْ ...

وَلَوْ أَنَّكُمْ ضَارَبْتُمُوهُ وَشَاتَمْتُمُوهُ لَضَارَبَكُمْ وَشَاتَمَكُمْ ...

وَأَبْقَىٰ إِزَارَهُ مُسْدَلًا[2] يَمْسَحُ بِهِ الْأَرْضَ .

* * *

وَلَقَدْ جَاءَهُ مَرَّةً فَتًى مِنْ فِتْيَانِ « الْبَصْرَةِ » فَقَالَ :

عَلِّمْنِي يَا أَبَا الصَّهْبَاءِ مِمَّا عَلَّمَكَ اللَّهُ ...

فَهَشَّ لَهُ صِلَةُ وَبَشَّ[3] وَقَالَ :

لَقَدْ أَذْكَرْتَنِي يَا بْنَ أَخِي مَاضِيًا لَا أَنْسَاهُ ...

حَيْثُ كُنْتُ إِذْ ذَاكَ شَابًّا مِثْلَكَ ...

فَأَتَيْتُ مَنْ بَقِيَ مِنْ صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَقُلْتُ لَهُمْ : عَلِّمُونِي مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ .

فَقَالُوا لِي : اجْعَلِ الْقُرْآنَ عِصْمَةَ[4] نَفْسِكَ ، وَرَبِيعَ[5] قَلْبِكَ ...

وَانْتَصِحْ لَهُ ، وَانْصَحِ الْمُسْلِمِينَ بِهِ .

وَأَكْثِرْ مِنْ دُعَاءِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مَا اسْتَطَعْتَ .

فَقَالَ لَهُ الْفَتَىٰ : أُدْعُ لِي ، جُزِيتَ خَيْرًا .

فَقَالَ : رَغَّبَكَ اللَّهُ تَعَالَىٰ فِيمَا يَبْقَىٰ ...

وَزَهَّدَكَ فِيمَا يَفْنَىٰ ...

---

(١) أمثل : أحسن وأجود .
(٢) مُسْدَلًا : مُرْسَلًا ومرخيًا على الأرض .
(٣) هَشَّ وبَشَّ : تبسم وأطلق وجهه .
(٤) عِصْمَة نفسك : حماية نفسك .
(٥) ربيع قلبك : متعة فؤادك .

وَوَهَبَ لَكَ الْيَقِينَ(١) الَّذِي تَسْكُنُ إِلَيْهِ النُّفُوسُ، وَيُعَوَّلُ عَلَيْهِ فِي الدِّينِ...

* * *

وَلَقَدْ كَانَتْ لِصِلَةَ بنِ أَشْيَمَ ابْنَةُ عَمٍّ تُدْعَىٰ مُعَاذَةَ الْعَدَوِيَّةَ...

وَكَانَتْ هِيَ الأُخْرَىٰ تَابِعِيَّةً مِثْلَهُ... حَيْثُ لَقِيَتْ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهَا، وَأَخَذَتْ عَنْهَا...

ثُمَّ لَقِيَهَا الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ(٢) نَضَّرَ اللَّهُ رُوحَهُ، وَسَمِعَ مِنْهَا.

وَكَانَتْ تَقِيَّةً نَقِيَّةً... عَابِدَةً زَاهِدَةً.

وَكَانَ مِنْ عَادَتِهَا إِذَا أَقْبَلَ عَلَيْهَا اللَّيْلُ أَنْ تَقُولَ:

قَدْ تَكُونُ هَٰذِهِ آخِرَ لَيْلَةٍ لِي؛ فَلَا تَنَامُ حَتَّىٰ تُصْبِحَ...

وَإِذَا أَقْبَلَ عَلَيْهَا النَّهَارُ أَنْ تَقُولَ:

قَدْ يَكُونُ هَٰذَا آخِرَ يَوْمٍ لِي؛ فَلَا يَطْمَئِنُّ لَهَا جَنْبٌ حَتَّىٰ تُمْسِيَ.

وَكَانَتْ تَلْبَسُ رَقِيقَ الثِّيَابِ فِي فَصْلِ الشِّتَاءِ حَتَّىٰ يَمْنَعَهَا الْبَرْدُ مِنَ الرُّكُونِ إِلَىٰ النَّوْمِ، وَالِانْقِطَاعِ عَنِ الْعِبَادَةِ.

وَكَانَتْ تُحْيِي اللَّيْلَ صَلَاةً وَاقْتِرَاءً(٣).

فَإِذَا غَلَبَهَا النُّعَاسُ قَامَتْ فَجَالَتْ فِي الدَّارِ وَهِيَ تَقُولُ:

أَمَامَكِ يَا نَفْسُ نَوْمٌ طَوِيلٌ...

غَدًا تَطُولُ رَقْدَتُكِ فِي الْقَبْرِ...

---

(١) الْيَقِين: الاطمئنان.

(٢) الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: انظره ص ١٠١.

(٣) الاقْتِرَاءُ: التعبد بكثرة قراءة القُرآن.

إِمَّا عَلَىٰ حَسْرَةٍ ، وَإِمَّا عَلَىٰ سُرُورٍ .

فَاخْتَارِي يَا مُعَاذَةُ لِنَفْسِكِ الْيَوْمَ مَا تُحِبِّينَ أَنْ تَكُونِي عَلَيْهِ غَدًا .

* * *

وَلَمْ يَكُنْ صِلَةُ بْنُ أَشْيَمَ عَلَىٰ الرَّغْمِ مِنْ شِدَّةِ عِبَادَتِهِ ، وَفَرْطِ زَهَادَتِهِ[1] ؛ لِيَرْغَبَ عَنْ سُنَّةِ نَبِيِّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ، فَخَطَبَ ابْنَةَ عَمِّهِ مُعَاذَةَ لِنَفْسِهِ .

فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ إِهْدَائِهَا إِلَيْهِ ؛ قَامَ ابْنُ أَخٍ لَهُ بِشَأْنِهِ ، فَمَضَىٰ بِهِ إِلَىٰ الْحَمَّامِ ، ثُمَّ أَدْخَلَهُ عَلَيْهَا فِي بَيْتٍ مُطَيَّبٍ ...

فَلَمَّا صَارَا مَعًا ، قَامَ يُصَلِّي الرَّكْعَتَيْنِ الْمَسْنُونَتَيْنِ ، فَقَامَتْ تُصَلِّي بِصَلَاتِهِ وَتَقْتَدِي بِهِ .

ثُمَّ اجْتَذَبَهُمَا سِحْرُ الصَّلَاةِ ؛ فَمَضَيَا يُصَلِّيَانِ مَعًا حَتَّىٰ بَرَقَ[2] الْفَجْرُ .

فَلَمَّا كَانَتِ الْغَدَاةُ[3] جَاءَهُ ابْنُ أَخِيهِ وَقَالَ :

يَا عَمِّ ، لَقَدْ أُهْدِيَتْ إِلَيْكَ ابْنَةُ عَمِّكَ ؛ فَقُمْتَ تُصَلِّي اللَّيْلَ كُلَّهُ وَتَرَكْتَهَا .

فَقَالَ : يَا بْنَ أَخِي ... إِنَّكَ أَدْخَلْتَنِي أَمْسِ بَيْتًا أَذْكَرْتَنِي بِهِ النَّارَ ...

ثُمَّ أَدْخَلْتَنِي آخَرَ أَذْكَرْتَنِي بِهِ الْجَنَّةَ ...

فَمَا زَالَتْ فِكْرَتِي فِيهِمَا حَتَّىٰ أَصْبَحْتُ .

فَقَالَ الْفَتَىٰ : وَمَا ذَاكَ يَا عَمِّ ؟! .

فَقَالَ : لَقَدْ أَدْخَلْتَنِي الْحَمَّامَ ؛ فَأَذْكَرَنِي حَرُّهُ حَرَّ جَهَنَّمَ ...

(١) زهادته : إعراضه عن الدّنيا .
(٢) بَرَقَ الْفَجْرُ : لمع وتلألأ .
(٣) الغداة : أوّل النّهار .

ثُمَّ أَدْخَلَتْنِي بَيْتَ الْعُرْسِ ؛ فَأَذْكَرَنِي طِيبُهُ طِيبَ الْجَنَّةِ ...

* * *

وَلَمْ يَكُنْ صِلَةُ بْنُ أَشْيَمَ أَوَّاهًا[1] أَوَّابًا[2]، عَابِدًا زَاهِدًا فَحَسْبُ ...

وَ إِنَّمَا كَانَ إِلَىٰ ذَٰلِكَ فَارِسًا مُجَالِدًا[3]، وَبَطَلًا مُجَاهِدًا ...

قَلَّمَا عَرَفَتْ سَاحَاتُ الْقِتَالِ كَمِيًّا[4] أَشَدَّ مِنْهُ بَأْسًا[5]...

أَوْ أَقْوَىٰ نَفْسًا ...

أَوْ أَمْضَىٰ سَيْفًا ...

حَتَّىٰ غَدَا قُوَّادُ الْمُسْلِمِينَ يَتَنَافَسُونَ فِي اجْتِذَابِهِ إِلَيْهِمْ ...

كُلٌّ مِنْهُمْ يُرِيدُ أَنْ يَظْفَرَ بِهِ فِي عَسْكَرِهِ ؛ لِيَقْطِفَ بِفَضْلِ شَجَاعَتِهِ النَّصْرَ الْكَبِيرَ الَّذِي يَطْمَحُ إِلَيْهِ .

* * *

رَوَىٰ جَعْفَرُ بْنُ زَيْدٍ قَالَ :

خَرَجْنَا فِي غَزْوَةٍ ، وَمَعَنَا صِلَةُ بْنُ أَشْيَمَ ، وَهِشَامُ بْنُ عَامِرٍ ... فَلَمَّا لَقِينَا الْعَدُوَّ ؛ انْبَرَىٰ صِلَةُ وَصَاحِبُهُ مِنْ صُفُوفِ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَوْغَلَا[6] فِي جُمُوعِ الْأَعْدَاءِ طَعْنًا بِالرِّمَاحِ وَضَرْبًا بِالسُّيُوفِ ، حَتَّىٰ أَثَّرَا فِي مُقَدِّمَةِ الْجَيْشِ أَبْلَغَ الْأَثَرِ ... فَقَالَ بَعْضُ قَادَةِ الْعَدُوِّ لِبَعْضٍ :

رَجُلَانِ مِنْ جُنْدِ الْمُسْلِمِينَ أَنْزَلَا بِنَا هَـٰذَا كُلَّهُ ، فَكَيْفَ لَوْ قَاتَلُونَا جَمِيعًا ؟! .

---

(١) أوَّاهًا : كثير التأوه من خشية الله .
(٢) أوَّابًا : صادق التوبة والرجوع إلى الله .
(٣) مجالدًا : قويًا صلبًا .
(٤) كميًّا : شجاعًا .
(٥) بأسًا : قوة .
(٦) أوْغَلَا : دخلا وأبعدا .

اِنْزِلُوا عَلَىٰ حُكْمِ الْمُسْلِمِينَ، وَدِينُوا(١) لَهُمْ بِالطَّاعَةِ.

* * *

وَفِي سَنَةِ سِتٍّ وَسَبْعِينَ لِلْهِجْرَةِ خَرَجَ صِلَةُ بْنُ أَشْيَمَ فِي غَزَاةٍ لَهُ مَعَ جُيُوشِ الْمُسْلِمِينَ الْمُتَوَجِّهَةِ إِلَىٰ بِلَادِ(٢) مَا وَرَاءَ النَّهْرِ، وَكَانَ بِصُحْبَتِهِ ابْنٌ لَهُ ...

فَلَمَّا الْتَقَىٰ الْجَمْعَانِ، وَحَمِيَ وَطِيسُ(٣) الْمَعْرَكَةِ، قَالَ صِلَةُ لِابْنِهِ:

أَيْ بُنَيَّ ... تَقَدَّمْ وَجَاهِدْ أَعْدَاءَ اللَّهِ حَتَّىٰ أَحْتَسِبَكَ(٤) عِنْدَ الَّذِي لَا تَضِيعُ عِنْدَهُ الْوَدَائِعُ.

فَانْطَلَقَ الْفَتَىٰ إِلَىٰ قِتَالِ الْعَدُوِّ كَمَا يَنْطَلِقُ السَّهْمُ عَنِ الْقَوْسِ، وَمَا زَالَ يُقَاتِلُ حَتَّىٰ خَرَّ صَرِيعًا شَهِيدًا.

فَمَا كَانَ مِنْ أَبِيهِ إِلَّا أَنْ مَضَىٰ عَلَىٰ إِثْرِهِ، وَظَلَّ يُجَاهِدُ حَتَّىٰ ثَوَىٰ(٥) شَهِيدًا إِلَىٰ جَنْبِهِ...

* * *

فَلَمَّا بَلَغَ نَعْيُهُمَا «الْبَصْرَةَ» اتَّجَهَتِ النِّسَاءُ إِلَىٰ مُعَاذَةَ الْعَدَوِيَّةِ لِيُوَاسِينَهَا(٦)... فَقَالَتْ لَهُنَّ:

إِنْ كُنْتُنَّ جِئْتُنَّ لِتَهْنِئَتِي؛ فَمَرْحَبًا بِكُنَّ...

أَمَّا إِذَا كُنْتُنَّ قَدْ جِئْتُنَّ لِغَيْرِ ذَلِكَ؛ فَارْجِعْنَ وَجُزِيتُنَّ خَيْرًا...

* * *

(١) دينوا لهم: اخضعوا لهم.
(٢) بلاد ما وراء النّهر: الْبلاد الْواقعة الْيوم في تركستان.
(٣) حَمِيَ الْوطِيس: اشتدت الحرب.
(٤) أحتسبك: أضحّي بك مرضاة للّه.
(٥) ثَوَىٰ: مات ودفن.
(٦) يُواسينَها: يعزينها ويُصبِّرنها.

نَضَّرَ اللَّهُ هَٰذِهِ الْوُجُوهَ النَّبِيلَةَ الْكَرِيمَةَ ...

وَجَزَاهَا عَنِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ خَيْرًا ...

فَمَا عَرَفَ تَارِيخُ الْإِنْسَانِيَّةِ أَتْقَىٰ مِنْهَا وَلَا أَنْقَىٰ (*) ...

(*) للاستزادة من أخبار صِلَةَ بْنِ أَشْيَمَ انْظُر:
١ - الطّبقات الكبرىٰ لابن سعد: ٧/ ١٣٤.
٢ - التّاريخ الكبير: ٤/ ٣٢١.
٣ - الكُنىٰ: ٢/ ١٣.
٤ - الجرح والتعديل: ٤/ ٤٤٧.
٥ - حلية الأولياء: ٢/ ٢٣٧.
٦ - أسْدُ الغابة: ٤/ ٣٤.
٧ - تاريخ الإسلام: ٣/ ١٩.
٨ - البداية والنهاية: ٩/ ١٥.
٩ - الإصابة: ٢/ ٢٠٠ أو «الترجمة» ٤١٣٢.
١٠- وانظر في طبقات خليفة، وصفة الصفوة لابن الجوزي.

عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ
وَقَفَاتٌ ثَلَاثٌ مَعَهُ

«كَانَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ حَسَنَ الْخَلْقِ وَالْخُلُقِ،
وَافِرَ الْعِلْمِ، فَقِيهَ النَّفْسِ أَوَّاهًا مُنِيبًا»

[الذَّهَبِيُّ]

الْحَدِيثُ عَنِ الْخَلِيفَةِ التَّابِعِيِّ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ حَدِيثٌ ذُو شُجُونٍ[١].

فَأَنْتَ لَا تَكَادُ تُلِمُّ بِصُورَةٍ مِنْ صُوَرِ حَيَاتِهِ الْفَذَّةِ حَتَّىٰ تُسْلِمَكَ[٢] إِلَىٰ أُخْرَىٰ أَكْثَرَ بَهَاءً...

وَأَغْنَىٰ رُوَاءً[٣]... وَأَبْعَدَ تَأْثِيرًا.

وَلَقَدْ كُنَّا رَأَيْنَا فِي الْكِتَابِ السَّابِقِ[٤] ثَلَاثًا مِنْ صُوَرِ حَيَاةِ خَامِسِ الرَّاشِدِينَ...

فَتَعَالَ نَنْعَمِ الْآنَ بِثَلَاثٍ أُخَرَ لَا تَقِلُّ عَنْ سَابِقَاتِهَا تَأَلُّقًا[٥] وَوَضَاءَةً.

* * *

أَمَّا الصُّورَةُ الْأُولَىٰ؛ فَيَرْوِيهَا لَكَ «دُكَيْنُ بْنُ سَعِيدٍ الدَّارِمِيُّ» أَحَدُ الشُّعَرَاءِ الرُّجَّازِ الْبُدَاةِ فَيَقُولُ:

امْتَدَحْتُ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ يَوْمَ كَانَ وَالِيًا عَلَىٰ الْمَدِينَةِ، فَأَمَرَ لِي بِخَمْسَ عَشْرَةَ نَاقَةً مِنْ كَرَائِمِ الْإِبِلِ.

---

(١) ذو شجون: ذو ألوان وفنون.
(٢) تُسْلِمُك: تنقلك.
(٣) رُواءً: بهاءً.
(٤) تألقًا: نورًا وتأثيرًا.
(٥) كتب المؤلف - رحمه الله - هذا الكتاب في سلسلة صدرت تباعًا حتىٰ وصلت إلىٰ ستة كتب منفصلة - في طبعته الأولىٰ - وقد قمنا بجمعها في كتاب واحد تسهيلًا علىٰ القارئ من عناء البحث عن بقية الأجزاء الناشر.

فَلَمَّا صِرْنَ فِي يَدِي تَأَمَّلْتُهُنَّ ؛ فَرَاعَنِي[1] مَنْظَرُهُنَّ ، وَكَرِهْتُ أَنْ أَمْضِيَ بِهِنَّ وَحْدِي فِي فِجَاجِ[2] الْأَرْضِ خَوْفًا عَلَيْهِنَّ ، وَلَمْ تَطِبْ[3] نَفْسِي بِبَيْعِهِنَّ .

وَفِيمَا أَنَا كَذَلِكَ ، قَدِمَتْ عَلَيْنَا رُفْقَةٌ تَبْتَغِي السَّفَرَ نَحْوَ دِيَارِنَا فِي « نَجْدٍ » .

فَسَأَلْتُهُمُ الصُّحْبَةَ ، فَقَالُوا :

مَرْحَبًا بِكَ ، وَنَحْنُ نَخْرُجُ اللَّيْلَةَ ، فَأَعِدَّ نَفْسَكَ لِلْخُرُوجِ مَعَنَا .

فَمَضَيْتُ إِلَىٰ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ مُوَدِّعًا ، فَأَلْفَيْتُ[4] فِي مَجْلِسِهِ شَيْخَيْنِ لَا أَعْرِفُهُمَا ... فَلَمَّا هَمَمْتُ بِالِانْصِرَافِ ؛ الْتَفَتَ إِلَيَّ عُمَرُ وَقَالَ :

يَا دُكَيْنُ ، إِنَّ لِي نَفْسًا تَوَّاقَةً[5]...

فَإِنْ عَرَفْتَ أَنَّنِي بَلَغْتُ أَكْثَرَ مِمَّا أَنَا فِيهِ الْآنَ ؛ فَأْتِنِي ، وَلَكَ مِنِّي الْبِرُّ وَالْإِحْسَانُ .

فَقُلْتُ : أَشْهِدْ لِي بِذَلِكَ أَيُّهَا الْأَمِيرُ .

فَقَالَ : أُشْهِدُ اللَّهَ تَعَالَىٰ عَلَىٰ ذَلِكَ .

فَقُلْتُ : وَمِنْ خَلْقِهِ .

فَقَالَ : هَٰذَيْنِ الشَّيْخَيْنِ .

فَأَقْبَلْتُ عَلَىٰ أَحَدِهِمَا وَقُلْتُ :

بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي ، قُلْ لِي مَا اسْمُكَ حَتَّىٰ أَعْرِفَكَ ؟ .

(١) راعني : أدهشني .
(٢) فجاج الأرض : الفجاج جمع مفرده فج ، وهو الطريق الضيق بين جبلين .
(٣) لم تطب نفسي : لم تسمح نفسي ببيعهن ولم ترغ لذلك .
(٤) ألفيت : وجدت .
(٥) تواقة : رغابة عالية المطامح .

فَقَالَ : سَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ[1].

فَالْتَفَتُّ إِلَىٰ الْأَمِيرِ وَقُلْتُ : لَقَدِ اسْتَسْمَنْتُ الشَّاهِدَ[2]...

ثُمَّ نَظَرْتُ إِلَىٰ الشَّيْخِ الْآخَرِ، وَقُلْتُ :

وَمَنْ أَنْتَ جُعِلْتُ فِدَاكَ ؟.

فَقَالَ : أَبُو يَحْيَىٰ مَوْلَىٰ الْأَمِيرِ.

فَقُلْتُ : وَهَـٰذَا شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهِ.

ثُمَّ حَيَّيْتُ وَانْصَرَفْتُ بِالنُّوقِ إِلَىٰ دِيَارِ قَوْمِي فِي « نَجْدٍ »...

فَرَمَىٰ اللَّهُ فِيهِنَّ الْبَرَكَةَ حَتَّىٰ اقْتَنَيْتُ مِنْ نِتَاجِهِنَّ[3] الْإِبِلَ وَالْعَبِيدَ.

* * *

ثُمَّ دَارَتِ الْأَيَّامُ دَوْرَتَهَا...

فَبَيْنَا أَنَا بِصَحْرَاءِ فَلْجٍ مِنْ أَرْضِ الْيَمَامَةِ فِي « نَجْدٍ » إِذَا نَاعٍ يَنْعِي أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ سُلَيْمَانَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ، فَقُلْتُ لِلنَّاعِي :

وَمَنِ الْخَلِيفَةُ الَّذِي قَامَ بَعْدَهُ ؟.

فَقَالَ : عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ.

فَمَا إِنْ سَمِعْتُ مَقَالَتَهُ حَتَّىٰ شَدَدْتُ رِحَالِي نَحْوَ بِلَادِ الشَّامِ.

فَلَمَّا بَلَغْتُ « دِمَشْقَ » لَقِيتُ جَرِيرًا[4] مُنْصَرِفًا مِنْ عِنْدِ الْخَلِيفَةِ...

فَحَيَّيْتُهُ وَقُلْتُ :

---

(١) سالم بن عبد الله بن عمر انظره : ص ٣٦٩، ٣٧٩.
(٢) استسمنتُ الشّاهِد : ظفرت بشاهد مسموع الكلمة.
(٣) من نتاجهن : مما توالد منهن.
(٤) جرير : أحد الشعراء الثلاثة الكبار في العصر الأموي، وهم جرير، والفرزدق، والأخطل.

مِنْ أَيْنَ يَا أَبَا حَزْرَةَ ؟ .

فَقَالَ : مِنْ عِنْدِ خَلِيفَةٍ يُعْطِي الْفُقَرَاءَ ، وَيَمْنَعُ الشُّعَرَاءَ ...

اِرْجِعْ مِنْ حَيْثُ أَتَيْتَ ؛ فَذَلِكَ خَيْرٌ لَكَ .

فَقُلْتُ : إِنَّ لِي شَأْنًا(١) غَيْرَ شَأْنِكُمْ .

فَقَالَ : أَنْتَ وَمَا تُرِيدُ .

فَانْطَلَقْتُ حَتَّىٰ بَلَغْتُ دَارَ الْخَلِيفَةِ ... فَإِذَا هُوَ فِي بَاحَةِ الدَّارِ ، وَقَدْ أَحَاطَ بِهِ الْيَتَامَىٰ ، وَالْأَرَامِلُ ، وَأَصْحَابُ الظُّلَامَاتِ(٢) ...

فَلَمْ أَجِدْ سَبِيلًا إِلَيْهِ مِنْ تَزَاحُمِهِمْ(٣) عَلَيْهِ .

فَرَفَعْتُ صَوْتِي قَائِلًا :

يَا عُمَرَ الْخَيْرَاتِ وَالْمَكَارِمِ   وَعُمَرَ الدَّسَائِعِ(٤) الْعَظَائِمِ

إِنِّي امْرُؤٌ مِنْ قَطَنٍ(٥) مِنْ دَارِمِ(٦)   طَلَبْتُ دَيْنِي مِنْ أَخِي الْمَكَارِمِ

فَنَظَرَ إِلَيَّ مَوْلَاهُ أَبُو يَحْيَىٰ نَظْرَةً طَوِيلَةً ، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيْهِ وَقَالَ :

يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّ عِنْدِي لِهَٰذَا الْبَدَوِيِّ شَهَادَةً عَلَيْكَ .

فَقَالَ عُمَرُ : أَعْرِفُهَا ...

ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيَّ وَقَالَ : أُدْنُ مِنِّي يَا دُكَيْنُ .

فَلَمَّا صِرْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ مَالَ عَلَيَّ وَقَالَ :

---

(١) شأنًا : منزلةً ومقامًا .
(٢) أصْحابُ الظُّلامات : الذين أخذت أموالهم ظلمًا بغير حق .
(٣) تزاحمهم : تدافعهم .
(٤) الدّسائع : جمعٌ مفرده دَسيعة ، وهي الجفنة العظيمة التي يستعملها الأجواد .
(٥) قطن : مدينة ذات شأن في وادي حضرموت .   (٦) من دارم : بنو دارم من عرب الحجاز .

أَتَذْكُرُ مَا قُلْتُهُ لَكَ فِي الْمَدِينَةِ مِنْ أَنَّ نَفْسِي مَا نَالَتْ شَيْئًا قَطُّ إِلَّا تَاقَتْ(1) إِلَىٰ مَا هُوَ أَعْلَىٰ مِنْهُ .

فَقُلْتُ : نَعَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .

فَقَالَ : وَهَا أَنَا ذَا قَدْ نِلْتُ غَايَةَ مَا فِي الدُّنْيَا ...

وَهُوَ الْمُلْكُ .

فَنَفْسِي تَتُوقُ إِلَىٰ غَايَةِ مَا فِي الْآخِرَةِ ...

وَهُوَ الْجَنَّةُ ...

وَتَسْعَىٰ إِلَىٰ الْفَوْزِ بِرِضْوَانِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .

وَلَئِنْ كَانَ الْمُلُوكُ يَجْعَلُونَ الْمُلْكَ سَبِيلًا لِبُلُوغِ عِزِّ الدُّنْيَا ...

فَلْأَجْعَلَنَّهُ سَبِيلًا إِلَىٰ بُلُوغِ عِزِّ الْآخِرَةِ ...

ثُمَّ قَالَ : يَا دُكَيْنُ ، إِنِّي ـ وَاللَّهِ ـ مَا رَزَأْتُ(2) الْمُسْلِمِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ دِرْهَمًا وَلَا دِينَارًا مُنْذُ وَلِيتُ هَٰذَا الْأَمْرَ ...

وَ إِنَّنِي لَا أَمْلِكُ إِلَّا أَلْفَ دِرْهَمٍ ، فَخُذْ نِصْفَهَا ... وَاتْرُكْ لِي نِصْفَهَا ...

فَأَخَذْتُ الْمَالَ الَّذِي أَعْطَانِيهِ .

فَوَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ أَعْظَمَ مِنْهُ بَرَكَةً .

* * *

أَمَّا الصُّورَةُ الثَّانِيَةُ ؛ فَيَرْوِيهَا قَاضِي الْمُوصِلِ يَحْيَىٰ بْنُ يَحْيَىٰ الْغَسَّانِيُّ فَيَقُولُ :

---

(1) تاقت : اشتاقت ورغبت .

(2) رزأت المسلمين : أخذت شيئًا من مالهم .

بَيْنَمَا عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ يَطُوفُ ذَاتَ يَوْمٍ فِي أَسْوَاقِ « حِمْصَ »[1] لِيَتَفَقَّدَ الْبَاعَةَ وَيَتَعَرَّفَ عَلَىٰ الْأَسْعَارِ ، إِذْ قَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ عَلَيْهِ بُرْدَانِ[2] أَحْمَرَانِ قَطَرِيَّانِ وَقَالَ :

يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ...

لَقَدْ سَمِعْتُ أَنَّكَ أَمَرْتَ مَنْ كَانَ مَظْلُومًا أَنْ يَأْتِيَكَ .

فَقَالَ : نَعَمْ ...

فَقَالَ : وَهَا قَدْ أَتَاكَ رَجُلٌ مَظْلُومٌ بَعِيدُ الدَّارِ .

فَقَالَ عُمَرُ : وَأَيْنَ أَهْلُكَ ؟ .

فَقَالَ الرَّجُلُ : فِي « عَدَنَ » .

فَقَالَ عُمَرُ : وَاللَّهِ ، إِنَّ مَكَانَكَ مِنْ مَكَانِ عُمَرَ لَبَعِيدٌ .

ثُمَّ نَزَلَ عَنْ دَابَّتِهِ ، وَوَقَفَ أَمَامَهُ وَقَالَ : مَا ظُلَامَتُكَ[3]؟ .

فَقَالَ : ضَيْعَةٌ لِي وَثَبَ[4] عَلَيْهَا رَجُلٌ مِمَّنْ يَلُوذُونَ[5] بِكَ ، وَانْتَزَعَهَا مِنِّي .

فَكَتَبَ عُمَرُ كِتَابًا إِلَىٰ عُرْوَةَ بْنِ مُحَمَّدٍ وَالِيهِ عَلَىٰ « عَدَنَ » يَقُولُ فِيهِ :

أَمَّا بَعْدُ ... فَإِذَا جَاءَكَ كِتَابِي هَٰذَا فَاسْمَعْ بَيِّنَةَ[6] حَامِلِهِ ، فَإِنْ ثَبَتَ لَهُ حَقٌّ ، فَادْفَعْ إِلَيْهِ حَقَّهُ .

ثُمَّ خَتَمَ الْكِتَابَ وَنَاوَلَهُ لِلرَّجُلِ .

---

(١) حمص : مدينة من كبرىٰ مدن سورية وأوسطها مكانًا ، فيها ضريح خالد بن الوليد رضي الله عنه .
(٢) بُردان : مثنّىٰ برد ، وهو ثوب مخطط .
(٣) ما ظلامتك : ما الظّلم الّذي وقع عليك ؟ .
(٤) وثَب عليها : عدا عليها وامتلكها .
(٥) يلوذون بك : ينتسبون إليك .
(٦) البيّنةُ : الدّليل والحجّة .

فَلَمَّا هَمَّ الرَّجُلُ بِالِانْصِرَافِ قَالَ لَهُ عُمَرُ:

عَلَىٰ رِسْلِكَ[1]...

إِنَّكَ قَدْ أَتَيْتَنَا مِنْ بَلَدٍ بَعِيدٍ...

وَلَا رَيْبَ فِي أَنَّكَ اسْتَنْفَدْتَ[2] فِي رِحْلَتِكَ هَٰذِهِ زَادًا كَثِيرًا...

وَأَخْلَقْتَ[3] ثِيَابًا جَدِيدَةً...

وَلَعَلَّهُ نَفَقَتْ[4] لَكَ دَابَّةٌ.

ثُمَّ حَسَبَ ذَٰلِكَ كُلَّهُ؛ فَبَلَغَ أَحَدَ عَشَرَ دِينَارًا، فَدَفَعَهَا إِلَيْهِ وَقَالَ:

أَشِعْ ذَٰلِكَ فِي النَّاسِ حَتَّىٰ لَا يَتَثَاقَلَ[5] مَظْلُومٌ عَنْ رَفْعِ ظُلَامَتِهِ بَعْدَ الْيَوْمِ مَهْمَا كَانَ بَعِيدَ الدَّارِ.

* * *

وَأَمَّا الصُّورَةُ الثَّالِثَةُ؛ فَيَرْوِيهَا لَنَا الْعَابِدُ الزَّاهِدُ زِيَادُ بْنُ مَيْسَرَةَ الْمَخْزُومِيُّ بِالْوَلَاءِ فَيَقُولُ:

أَرْسَلَنِي مَوْلَايَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَيَّاشٍ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَىٰ «دِمَشْقَ» لِلِقَاءِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ فِي حَوَائِجَ لَهُ.

وَكَانَتْ بَيْنِي وَبَيْنَ عُمَرَ صِلَةٌ قَدِيمَةٌ تَرْجِعُ إِلَىٰ عَهْدِ وِلَايَتِهِ عَلَى الْمَدِينَةِ، فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ فَإِذَا عِنْدَهُ كَاتِبٌ يَكْتُبُ لَهُ.

فَلَمَّا صِرْتُ فِي عَتَبَةِ الْحُجْرَةِ قُلْتُ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَقَالَ:

وَعَلَيْكُمُ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ يَا زِيَادُ.

---

(١) عَلَىٰ رِسْلِكَ: عَلَىٰ مهلك، أي لا تعجل.
(٢) استنفدْتَ: أنفقت واستهلكت.
(٣) أخلقْتَ: أبليتَ.
(٤) نفقت الدابة: هلكت وماتت.
(٥) يتثاقل: يتباطأ ويهمل.

ثُمَّ مَضَيْتُ نَحْوَهُ خَجِلًا لِأَنِّي لَمْ أُسَلِّمْ عَلَيْهِ بِإِمْرَةِ الْمُؤْمِنِينَ.

فَلَمَّا انْتَهَيْتُ إِلَيْهِ قُلْتُ:

السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَرَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَبَرَكَاتُهُ.

فَقَالَ: يَا زِيَادُ...

إِنَّنَا لَمْ نُنْكِرْ[1] عَلَيْكَ السَّلَامَ الْأَوَّلَ؛ فَمَا الْحَاجَةُ إِلَىٰ الثَّانِي؟.

وَكَانَ كَاتِبُهُ إِذْ ذَاكَ يَقْرَأُ عَلَيْهِ مَظَالِمَ[2] جَاءَتْهُ مِنَ «الْبَصْرَةِ» مَعَ الْبَرِيدِ فَقَالَ لِي:

اجْلِسْ يَا زِيَادُ حَتَّىٰ نَفْرُغَ لَكَ.

فَجَلَسْتُ عَلَىٰ خَشَبَةِ الْبَابِ، وَالْكَاتِبُ يَقْرَأُ عَلَيْهِ، وَعُمَرُ يَتَنَفَّسُ الصُّعَدَاءَ[3] مِنَ الْهَمِّ.

فَلَمَّا فَرَغَ كَاتِبُهُ مِنْ قِرَاءَةِ الرِّقَاعِ[4] الَّتِي مَعَهُ، وَانْطَلَقَ إِلَىٰ شَأْنِهِ، قَامَ عُمَرُ مِنْ مَجْلِسِهِ، وَمَشَىٰ إِلَيَّ حَتَّىٰ جَلَسَ بَيْنَ يَدَيَّ عِنْدَ الْبَابِ، وَوَضَعَ يَدَيْهِ عَلَىٰ رُكْبَتَيَّ ثُمَّ قَالَ:

هَنِيئًا لَكَ يَا زِيَادُ...

لَقَدِ اسْتَدْفَأْتَ بِمِدْرَعَتِكَ[5]، وَاسْتَرَحْتَ مِمَّا نَحْنُ فِيهِ.

وَكَانَتْ عَلَيَّ مِدْرَعَةُ صُوفٍ.

ثُمَّ طَفِقَ يَسْأَلُنِي عَنْ صُلَحَاءِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ: رِجَالِهِمْ، وَنِسَائِهِمْ وَاحِدًا وَاحِدًا... فَمَا تَرَكَ مِنْهُمْ أَحَدًا إِلَّا سَأَلَنِي عَنْهُ...

---

(١) لم نُنكر عليك: لم نأخذ عليك.

(٢) المَظالِم: ما وقع على النّاس من ظلم.

(٣) الصُّعداء: النّفس الطّويل من الهَمّ والكَرْب.

(٤) الرِّقاع: الرّسائل.

(٥) المدرعة: جُبّة مفتوحة من مقدمها.

ثُمَّ سَأَلَنِي عَنْ أَشْيَاءَ كَانَ أَمَرَ بِهَا بِالْمَدِينَةِ حِينَ كَانَ وَالِيًا عَلَيْنَا .

فَأَخْبَرْتُهُ عَنْ كُلِّ مَا سَأَلَ .

ثُمَّ تَنَهَّدَ[١] وَقَالَ :

يَا زِيَادُ ، أَلَا تَرَىٰ إِلَىٰ مَا وَقَعَ فِيهِ عُمَرُ ؟ .

فَقُلْتُ : إِنِّي لَأَرْجُو لَكَ فِي ذَلِكَ خَيْرًا وَأَجْرًا .

فَقَالَ : هَيْهَاتَ[٢]...

ثُمَّ بَكَىٰ حَتَّىٰ رَثَيْتُ لَهُ وَقُلْتُ :

ارْفِقْ بِنَفْسِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ فَإِنِّي لَأَرْجُو لَكَ خَيْرًا .

فَقَالَ : مَا أَبْعَدَ مَا تَرْجُوهُ يَا زِيَادُ ...

لَقَدْ أَصْبَحَ فِي وُسْعِي أَنْ أَشْتِمَ وَلَا أُشْتَمُ ...

وَأَنْ أَضْرِبَ وَلَا أُضْرَبُ ...

وَأَنْ أُوذِيَ النَّاسَ وَلَا يُؤْذِينِي أَحَدٌ .

ثُمَّ بَكَىٰ كَرَّةً[٣] أُخْرَىٰ حَتَّىٰ جَعَلْتُ أَرْثِي[٤] لَهُ .

وَلَقَدْ أَقَمْتُ عِنْدَهُ أَيَّامًا ثَلَاثَةً حَتَّىٰ قَضَىٰ مَا أَرْسَلَنِي بِهِ مَوْلَايَ .

فَلَمَّا هَمَمْتُ بِالِانْصِرَافِ ، زَوَّدَنِي[٥] بِكِتَابٍ إِلَىٰ سَيِّدِي يَسْأَلُهُ فِيهِ : أَنْ يَبِيعَنِي مِنْهُ ...

ثُمَّ أَخْرَجَ مِنْ تَحْتِ فِرَاشِهِ عِشْرِينَ دِينَارًا ، وَقَالَ :

---

(١) تَنَهَّدَ : مدَّ نفسه حزنًا .
(٢) هَيْهات : اسم فعل بمعنىٰ بَعُدَ .
(٣) كرَّة أخرىٰ : مرَّة ثانية .
(٤) أرثي له : أرق له وأحزن عليه .
(٥) زوَّدني بكتاب : حمَّلني كتابًا .

اِسْتَعِنْ بِهَٰذَا الْمَالِ عَلَىٰ دُنْيَاكَ ...

وَلَوْ كَانَ لَكَ حَقٌّ فِي الْفَيْءِ[1] لَأَعْطَيْنَاكَ حَقَّكَ .

فَأَبَيْتُ أَنْ آخُذَ الْمَالَ مِنْهُ .

فَقَالَ : خُذْهُ ؛ فَمَا هُوَ مِنْ مَالِ الْمُسْلِمِينَ ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ نَفَقَتِي .

فَامْتَنَعْتُ عَنْ أَخْذِهِ ...

وَلَٰكِنَّهُ مَا زَالَ بِي حَتَّىٰ أَخَذْتُهُ مِنْهُ ، وَمَضَيْتُ .

فَلَمَّا بَلَغْتُ الْمَدِينَةَ ؛ دَفَعْتُ بِكِتَابِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَىٰ مَوْلَايَ ، فَفَضَّهُ[2] وَقَالَ :

إِنَّمَا سَأَلَنِي أَنْ أَبِيعَكَ لَهُ لِيُعْتِقَكَ ...

فَلِمَ لَا أَكُونُ أَنَا الْمُعْتِقَ لَكَ ؟! .

ثُمَّ أَعْتَقَنِي ...(*) .

---

(١) الْفيء : الخراج .

(٢) فضَّه : فتحه .

(*) للاستزادة من أخبار عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ انظر :

١ - سيرة عُمَرَ بْن عَبْدِ الْعَزِيز لابن عبد الحكيم .

٢ - سيرة عُمَرَ بْن عَبْدِ الْعَزِيز لابن الجوزي .

٣ - سيرة عُمَرَ بْن عَبْدِ الْعَزِيز للآجري .

٤ - الطَّبقات الْكبرىٰ لابن سعد : ٥/ ٣٣٠ .

٥ - صفة الصَّفوة لابن الجوزي : ٢/١١٣ ـ ١٢٦ .

٦ - وفيات الأعيان لابن خلكان : المجلدات ٢، ٣، ٤، ٥، وانظر الْفهارس الملحقة بالجزء الْعاشر .

٧ - الْعقد الْفريد لابن عبد ربه : الأجزاء ١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٧، ٨، وانظر الْفهارس .

٨ - الْبيان والتّبيين للجاحظ : انظر فهارس الأجزاء ١، ٢، ٣، ٤ .

٩ - تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر : ٢/١١٥ ـ ١٢٧ .

الكتاب الخامس عشر

زَيْنُ العَابِدِينَ

عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ

« مَا رَأَيْتُ قُرَشِيًّا أَفْضَلَ مِنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ »

[الزُّهْرِيُّ]

لَقَدْ طُوِيَتْ فِي ذَلِكَ الْعَامِ الْأَغَرِّ(١) آخِرُ صَفْحَةٍ مِنْ صَفَحَاتِ الْأَكَاسِرَةِ .

فَلَقَدْ مَاتَ « يَزْدَجُرْدُ » آخِرُ مُلُوكِ الْفُرْسِ شَرِيدًا طَرِيدًا ...

وَسَقَطَ أَسَاوِرَتُهُ(٢)، وَحَرَسُهُ ، وَأَهْلُ بَيْتِهِ أَسَارَىٰ فِي أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ ...

وَسِيقَتِ الْغَنَائِمُ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ ...

وَقَدْ كَانَ سَبْيُ(٣) ذَلِكَ النَّصْرِ الْكَبِيرِ كَثِيرًا ، وَفِيرًا ، ثَمِينًا ، لَمْ تَشْهَدِ الْمَدِينَةُ أَكْثَرَ مِنْهُ عَدَدًا ، وَلَا أَعْظَمَ خَطَرًا(٤).

وَكَانَ بَيْنَ السَّبَايَا بَنَاتُ « يَزْدَجُرْدَ » الثَّلَاثُ ...

* * *

أَقْبَلَ النَّاسُ عَلَىٰ السَّبْيِ ؛ فَشَرَوْهُ فِي سَاعَاتٍ مَعْدُودَاتٍ ، وَرَدُّوا ثَمَنَهُ إِلَىٰ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ إِلَّا بَنَاتُ كِسْرَىٰ « يَزْدَجُرْدَ » .

وَكُنَّ مِنْ أَجْمَلِ النِّسَاءِ جَمَالًا ...

وَأَبْهَاهُنَّ طَلْعَةً ...

وَأَنْضَرِهِنَّ(٥) شَبَابًا ...

---

(١) الأَغَرّ : المشرق الطَّلعة .

(٢) أساورته : قادته .

(٣) السَّبي : ما يستولي عليه المحاربون من النِّساء ، والرِّجال ، والْولدان .

(٤) خطر : رِفْعَةُ مقام ، وعلو منزلة .

(٥) أنضرهن : أزهاهنّ .

وَلَمَّا عُرِضْنَ لِلْبَيْعِ أَطْرَقْنَ[1] إِلَى الْأَرْضِ ذِلَّةً، وَمَهَانَةً ...

وَفَاضَتْ عُيُونُهُنَّ حَسْرَةً، وَانْكِسَارًا ...

فَرَقَّ لَهُنَّ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ، وَتَمَنَّى لَوْ شَرَاهُنَّ مَنْ يُحْسِنُ الْقِيَامَ عَلَيْهِنَّ.

وَلَا غَرْوَ[2]، فَالرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ يَقُولُ:

(ارْحَمُوا عَزِيزَ قَوْمٍ ذَلَّ) ...

فَمَالَ عَلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ وَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ...

إِنَّ بَنَاتِ الْمُلُوكِ لَا يُعَامَلْنَ مُعَامَلَةَ غَيْرِهِنَّ ...

فَقَالَ عُمَرُ: صَدَقْتَ ... وَلَكِنْ كَيْفَ؟.

فَقَالَ عَلِيٌّ: يُقَوَّمْنَ[3] وَيُغَالَى بِأَثْمَانِهِنَّ[4]، ثُمَّ تُتْرَكُ لَهُنَّ الْحُرِّيَّةُ فِي اخْتِيَارِ مَنْ يَشَأْنَ مِمَّنْ يَدْفَعُ الثَّمَنَ.

فَارْتَاحَ عُمَرُ لِذَلِكَ، وَرَضِيَ بِهِ، وَأَنْفَذَهُ ...

فَاخْتَارَتْ إِحْدَاهُنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ.

وَاخْتَارَتِ الثَّانِيَةُ مُحَمَّدَ بْنَ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ.

أَمَّا الثَّالِثَةُ وَكَانَتْ تُدْعَى شَاهِ زِنَانَ، فَاخْتَارَتِ الْحُسَيْنَ بْنَ عَلِيٍّ سِبْطَ[5] الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ...

* * *

أَسْلَمَتْ شَاهُ زِنَانُ وَحَسُنَ إِسْلَامُهَا ...

---

(١) أَطْرَقْنَ: خفضن عيونهن ونظرن إلى الأرض.
(٢) لَا غَرْوَ: لا عجب.
(٣) يُقَوَّمْنَ: تجعل لهن قيمة محددة.
(٤) يُغَالَى بأثمانهن: تُرفع أسعارهن.
(٥) سبط الرجل: ابن بنته.

فَفَازَتْ بِدِينِ الْقَيِّمَةِ[1]... وَأُعْتِقَتْ مِنَ الرِّقِّ ؛ فَصَارَتْ زَوْجَةً بَعْدَ أَنْ كَانَتْ أَمَةً ، وَظَفِرَتْ بِالْحُرِّيَّةِ .

ثُمَّ إِنَّهَا رَأَتْ أَنْ تَقْطَعَ كُلَّ صِلَةٍ لَهَا بِمَاضِيهَا الْوَثَنِيِّ ، فَتَخَلَّتْ عَنِ اسْمِهَا شَاهْ زِنَانَ وَمَعْنَاهُ مَلِكَةُ النِّسَاءِ ، وَأَصْبَحَتْ تُدْعَىٰ غَزَالَةُ ...

وَقَدْ سَعِدَتْ غَزَالَةُ بِخَيْرِ الْأَزْوَاجِ ، وَأَلْيَقِهِمْ[2] بِبَنَاتِ الْمُلُوكِ .

وَلَمْ يَبْقَ مِنْ أَمَانِيِّهَا إِلَّا أَنْ تَنْعَمَ بِالْوَلَدِ .

فَأَكْرَمَهَا اللَّهُ ، فَوَلَدَتْ لِلْحُسَيْنِ غُلَامًا وَسِيمَ الْمُحَيَّا ، بَهِيَّ الطَّلْعَةِ ؛ فَسَمَّتْهُ عَلِيًّا تَيَمُّنًا بِاسْمِ جَدِّهِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ .

لَكِنَّ فَرْحَةَ غَزَالَةَ لَمْ تَدُمْ سِوَىٰ لَحَظَاتٍ ...

ذَلِكَ لِأَنَّهَا لَبَّتْ نِدَاءَ رَبِّهَا إِثْرَ حُمَّىٰ نِفَاسٍ[3] عَاجَلَتْهَا ؛ فَلَمْ تَتْرُكْ لَهَا فُرْصَةً لِلتَّمَتُّعِ بِمَوْلُودِهَا .

* * *

تَوَلَّتْ رِعَايَةَ الصَّبِيِّ الصَّغِيرِ مَوْلَاةٌ[4] لَهُ ، فَأَحَبَّتْهُ فَوْقَ مَا تُحِبُّ أُمٌّ وَلَدَهَا ... وَرَعَتْهُ أَكْثَرَ مِمَّا تَرْعَىٰ وَالِدَةٌ وَحِيدَهَا ...

فَنَشَأَ وَهُوَ لَا يَعْرِفُ لَهُ أُمًّا غَيْرَهَا ...

* * *

مَا كَادَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ يَبْلُغُ سِنَّ التَّمْيِيزِ[5]، حَتَّىٰ أَقْبَلَ عَلَىٰ طَلَبِ الْعِلْمِ بِشَغَفٍ[6] وَشَوْقٍ ... وَكَانَتْ مَدْرَسَتُهُ الْأُولَىٰ بَيْتَهُ ، أَكْرِمْ بِهِ مِنْ بَيْتٍ ...

---

(١) دين القَيِّمَة : دينُ الله المستقيم.
(٢) أَلْيَقهم : أجدرهم وأولاهم.
(٣) حُمَّىٰ النِّفاس : حُمَّىٰ الولادة التي تصيب بعض النِّساء.
(٤) مَوْلَاة له : أَمَة له ، والمولاة تطلق علىٰ السيِّدة والأَمَة.
(٥) سن التَّمييز : سن الوعي والقدرة علىٰ طلب العلم.
(٦) بشغف : برغبة وتعلق.

وَكَانَ مُعَلِّمُهُ الْأَوَّلُ وَالِدَهُ الْحُسَيْنَ بْنَ عَلِيٍّ، أَعْظِمْ بِهِ مِنْ مُعَلِّمٍ.

أَمَّا مَدْرَسَتُهُ الثَّانِيَةُ، فَمَسْجِدُ الرَّسُولِ الْأَعْظَمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَكَانَ الْمَسْجِدُ النَّبَوِيُّ الشَّرِيفُ - يَوْمَئِذٍ - يَمُوجُ[1] بِالْبَقِيَّةِ الْبَاقِيَةِ مِنْ صَحَابَةِ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ، وَيَزْخَرُ[2] بِالطَّبَقَةِ الْأُولَى مِنْ كِبَارِ التَّابِعِينَ.

وَكَانَ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ؛ يَفْتَحُونَ قُلُوبَهُمْ لِهَذِهِ الْأَكْمَامِ[3] الْمُزْدَهِرَةِ مِنْ أَبْنَاءِ الصَّحَابَةِ الْكِرَامِ، فَيُقْرِئُونَهُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ... وَيُفَقِّهُونَهُمْ فِيهِ...

وَيَرْوُونَ لَهُمْ حَدِيثَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ... وَيَقِفُونَهُمْ عَلَى مَرَامِيهِ[4]...

وَيَقُصُّونَ عَلَيْهِمْ سِيرَةَ الرَّسُولِ الْأَعْظَمِ ﷺ وَمَغَازِيهِ[5]...

وَيُنْشِدُونَهُمْ شِعْرَ الْعَرَبِ، وَيُبَصِّرُونَهُمْ بِمَوَاطِنِ جَمَالِهِ...

وَيَمْلَأُونَ قُلُوبَهُمُ الْغَضَّةَ بِحُبِّ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَخَشْيَتِهِ، وَتَقْوَاهُ...

فَإِذَا هُمْ عُلَمَاءُ عَامِلُونَ، وَهُدَاةٌ مَهْدِيُّونَ.

* * *

لَكِنَّ عَلِيَّ بْنَ الْحُسَيْنِ لَمْ يَتَعَلَّقْ قَلْبُهُ بِشَيْءٍ كَمَا تَعَلَّقَ بِكِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ... وَلَمْ تَهْتَزَّ مَشَاعِرُهُ لِأَمْرٍ كَمَا كَانَتْ تَهْتَزُّ لِوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ[6]...

فَإِذَا قَرَأَ آيَةً فِيهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ؛ طَارَ فُؤَادُهُ شَوْقًا إِلَيْهَا...

وَإِذَا سَمِعَ آيَةً فِيهَا ذِكْرُ النَّارِ؛ زَفَرَ[7] زَفْرَةً كَأَنَّ لَهِيبَ جَهَنَّمَ فِي أَحْشَائِهِ.

* * *

(١) يموج: يقَالُ ماج المكان بالنَّاس أي تداخل بعضهم في بعض لشدَّة الزّحام.
(٢) يزخر: يجيش.
(٣) الأكمام: جمعٌ مفردُه كِم بكسر الكاف، وهو الغلاف الّذي يحيط بالزّهر والورد.
(٤) مراميه: مقاصده وأهدافه.
(٥) مغازيه: غزواته.
(٦) وَعْدِهِ ووعيده: الْوعد بما يَسُرّ، والْوعيد بما يخيف.
(٧) زفر: أخرج نفسًا طويلًا حارًا [متصعدًا].

وَمَا إِنِ اكْتَمَلَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ شَبَابًا وَعِلْمًا، حَتَّىٰ ظَفِرَ الْمُجْتَمَعُ الْمَدَنِيُّ الأَمْثَلُ بِفَتًى مِنْ أَعْمَقِ فِتْيَانِ بَنِي «هَاشِمٍ» عِبَادَةً وَتُقًى ...

وَأَعْظَمِهِمْ فَضْلًا وَخُلُقًا ...

وَأَكْثَرِهِمْ إِحْسَانًا وَبِرًّا ...

وَأَوْسَعِهِمْ مَعْرِفَةً وَعِلْمًا ...

فَلَقَدْ بَلَغَ مِنْ عِبَادَتِهِ وَتَقْوَاهُ؛ أَنَّهُ كَانَتْ تَأْخُذُهُ رِعْدَةٌ[1] بَيْنَ وُضُوئِهِ وَصَلَاتِهِ، فَتَنْتَفِضُ جَسَدُهُ نَفْضًا.

فَلَمَّا كُلِّمَ فِي ذَٰلِكَ قَالَ: وَيْحَكُمْ!! ...

كَأَنَّكُمْ لَا تَدْرُونَ إِلَىٰ مَنْ أَقُومُ ...

وَلَا تَعْلَمُونَ مَنْ أُرِيدُ أَنْ أُنَاجِيَ[2]...

* * *

وَقَدْ بَلَغَ مِنْ إِحْسَانِ الْفَتَىٰ الْهَاشِمِيِّ لِعِبَادَتِهِ وَإِتْقَانِهِ لِشَعَائِرِهِ؛ أَنْ دَعَاهُ النَّاسُ: زَيْنَ الْعَابِدِينَ ... حَتَّىٰ نَسِيَ قَوْمُهُ اسْمَهُ أَوْ كَادُوا، وَآثَرُوا[3] لَقَبَهُ هَٰذَا عَلَىٰ اسْمِهِ.

وَقَدْ بَلَغَ مِنْ إِطَالَتِهِ لِسُجُودِهِ، وَاسْتِغْرَاقِهِ[4] فِيهِ أَنْ نَادَاهُ أَهْلُ الْمَدِينَةِ بِالسَّجَّادِ[5]...

وَقَدْ بَلَغَ مِنْ صَفَاءِ نَفْسِهِ وَنَقَاءِ قَلْبِهِ أَنْ نَعَتُوهُ بِالزَّكِيِّ[6].

* * *

(١) رِعْدَةٌ: هزة تحصل من الانفعال.
(٢) أُنَاجي: أفضي بما في فؤادي.
(٣) آثروا: فضّلوا.
(٤) استغراقه: غيبته عن الدّنيا.
(٥) السَّجَّاد: المغرق في السجود، المطيل له.
(٦) الزّكي: التّقي الخالص من الذّنوب.

وَكَانَ زَيْنُ الْعَابِدِينَ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ يُوقِنُ أَنَّ مُخَّ(١) الْعِبَادَةِ الدُّعَاءُ ...

وَكَانَ يَطِيبُ لَهُ الدُّعَاءُ أَكْثَرَ مَا يَطِيبُ وَهُوَ مُتَعَلِّقٌ بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ.

فَلَكَمِ الْتَزَمَ الْبَيْتَ الْعَتِيقَ، وَجَعَلَ يَقُولُ:

رَبِّ لَقَدْ أَذَقْتَنِي مِنْ رَحْمَتِكَ مَا أَذَقْتَنِي ...

وَأَوْلَيْتَنِي(٢) مِنْ إِنْعَامِكَ مَا أَوْلَيْتَنِي ...

فَصِرْتُ أَدْعُوكَ آمِنًا مِنْ غَيْرِ وَجَلٍ(٣) ...

وَأَسْأَلُكَ مُسْتَأْنِسًا مِنْ غَيْرِ خَوْفٍ ...

رَبِّ إِنِّي أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ تَوَسُّلَ مَنِ اشْتَدَّتْ فَاقَتُهُ(٤) إِلَىٰ رَحْمَتِكَ ...

وَضَعُفَتْ قُوَّتُهُ عَنْ أَدَاءِ حُقُوقِكَ ...

فَاقْبَلْ مِنِّي دُعَاءَ الْغَرِيقِ الْغَرِيبِ الَّذِي لَا يَجِدُ لِإِنْقَاذِهِ إِلَّا أَنْتَ يَا أَكْرَمَ الْأَكْرَمِينَ.

* * *

وَلَقَدْ رَآهُ طَاوُوسُ بْنُ كَيْسَانَ(٥) ذَاتَ مَرَّةٍ يَقِفُ فِي ظِلَالِ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ وَهُوَ يَتَمَلْمَلُ تَمَلْمُلَ السَّلِيمِ(٦) ...

وَيَبْكِي بُكَاءَ السَّقِيمِ ... وَيَدْعُو دُعَاءَ الْمُضْطَرِّ(٧).

فَوَقَفَ يَنْتَظِرُهُ حَتَّىٰ إِذَا كَفَّ عَنْ بُكَائِهِ، وَفَرَغَ مِنْ دُعَائِهِ، تَقَدَّمَ نَحْوَهُ

(١) مُخّ الْعِبادة: روحُها، وأعظم ما فيها.
(٢) أوليْتني: أسبغت عَلَيَّ وأفضْت.
(٣) وجَل: خوف.
(٤) فاقته: فقره واحتياجه.
(٥) طَاوُوس بْن كَيْسَان: انظره ص ٢٨٣، ٢٩١.
(٦) السَّليمُ: المشرف عَلَى الْهلاك، وقد سُمّي بذلك تفاؤلاً.
(٧) المضطر: اللَّاجئ المحتاج.

وَقَالَ لَهُ : يَا بْنَ رَسُولِ اللَّهِ[١] رَأَيْتُكَ عَلَىٰ حَالَتِكَ هَٰذِهِ ، وَلَكَ فَضَائِلُ ثَلَاثٌ أَرْجُو أَنْ تُؤَمِّنَكَ[٢] مِنَ الْخَوْفِ .

فَقَالَ زَيْنُ الْعَابِدِينَ : وَمَا هُنَّ يَا طَاوُوسُ ؟ .

فَقَالَ : إِحْدَاهُنَّ أَنَّكَ ابْنُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ...

وَالثَّانِيَةُ : شَفَاعَةُ جَدِّكَ لَكَ ...

وَالثَّالِثَةُ : رَحْمَةُ اللَّهِ ...

فَقَالَ لَهُ : يَا طَاوُوسُ إِنَّ انْتِسَابِي إِلَىٰ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَا يُؤَمِّنُنِي بَعْدَ أَنْ سَمِعْتُ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ :

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ[٣] فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ ﴾[٤].

وَأَمَّا شَفَاعَةُ جَدِّي لِي فَإِنَّ اللَّهَ عَلَتْ كَلِمَتُهُ يَقُولُ :

﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ[٥] ﴾[٦].

وَأَمَّا رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَىٰ فَهُوَ يَقُولُ :

﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾[٧].

* * *

وَلَقَدْ أَفَاضَتِ[٨] التَّقْوَىٰ عَلَىٰ زَيْنِ الْعَابِدِينَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تُفِيضَ مِنْ شَمَائِلِ[٩] الْفَضْلِ ، وَالنُّبْلِ ، وَالْحِلْمِ ...

---

(١) يا بن رسول الله : هو ابن الحسين ، والحسين ابن بنت رسول الله ﷺ .
(٢) تؤمّنك : تحميك .
(٣) نُفخ في الصّور : قامت القيامة ، والصّور : أداة ينفخ فيها فتخرج صوتًا عاليًا .
(٤) سورة المؤمنون : آية ١٠١.
(٥) لمن ارتضى : للذي قبله الله وحظي عنده.
(٦) سورة الأنبياء : آية ٢٨.
(٧) سورة الأعراف : آية ٥٦.
(٨) أفاضت : أسبغت عليه .
(٩) الشّمائل : الخلال والخصال والصّفات .

حَتَّىٰ ازْدَانَتْ[1] كُتُبُ السِّيَرِ بِرَوَائِعِ أَخْبَارِهِ، وَزَهَتْ[2] صَفَحَاتُهَا بِنَبِيلِ مَوَاقِفِهِ... مِنْ ذَٰلِكَ مَا رَوَاهُ الْحَسَنُ بْنُ الْحَسَنِ قَالَ:

وَقَعَتْ بَيْنِي وَبَيْنَ ابْنِ عَمِّي زَيْنِ الْعَابِدِينَ جَفْوَةٌ[3]؛ فَذَهَبْتُ إِلَيْهِ وَأَنَا أَتَمَيَّزُ غَيْظًا مِنْهُ - وَكَانَ مَعَ أَصْحَابِهِ فِي الْمَسْجِدِ - فَمَا تَرَكْتُ شَيْئًا إِلَّا قُلْتُهُ لَهُ، وَهُوَ سَاكِتٌ لَا يَتَكَلَّمُ...

ثُمَّ انْصَرَفْتُ...

فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ إِذَا طَارِقٌ[4] عَلَىٰ الْبَابِ يَقْرَعُهُ، فَقُمْتُ إِلَيْهِ لِأَرَىٰ مَنْ هُوَ...

فَإِذَا زَيْنُ الْعَابِدِينَ...

فَمَا شَكَكْتُ أَنَّهُ جَاءَ يَرُدُّ إِلَيَّ الْأَذَىٰ... وَلَكِنَّهُ قَالَ:

يَا أَخِي إِنْ كُنْتَ صَادِقًا فِيمَا قُلْتَ لِي؛ فَغَفَرَ اللَّهُ لِي...

وَإِنْ كُنْتَ غَيْرَ صَادِقٍ؛ فَغَفَرَ اللَّهُ لَكَ.

ثُمَّ أَلْقَىٰ عَلَيَّ السَّلَامَ وَمَضَىٰ...

فَلَحِقْتُ بِهِ وَقُلْتُ لَهُ: لَا جَرَمَ[5]، لَا عُدْتُ إِلَىٰ أَمْرٍ تَكْرَهُهُ.

فَرَقَّ لِي وَقَالَ: وَأَنْتَ فِي حِلٍّ مِمَّا قُلْتَ لِي.

* * *

وَرَوَىٰ أَحَدُ أَبْنَاءِ الْمَدِينَةِ قَالَ:

كَانَ زَيْنُ الْعَابِدِينَ خَارِجًا مِنَ الْمَسْجِدِ فَتَبِعْتُهُ، وَجَعَلْتُ أُلْوِحُ[6] لَهُ

---

(١) ازدانت: تزينت.
(٢) زهت: أشرقت.
(٣) الجفوة: الخصومة وسوء المعاشرة.
(٤) الطَّارق: الآتي ليلًا.
(٥) لا جرم: أُقْسِم.
(٦) ألوح له بالشتم: أشتمه وأقول له سيِّئ الكلام.

بِالشَّتْمِ ، وَلَسْتُ أَدْرِي سَبَبًا لِذَلِكَ ، فَهَجَمَ عَلَيَّ النَّاسُ يُرِيدُونَ أَخْذِي(١) ...

وَلَوْ أَخَذُونِي لَمْ يُفْلِتُونِي حَتَّىٰ أُحَطَّمَ .

فَالْتَفَتَ إِلَىٰ النَّاسِ وَقَالَ : كُفُّوا عَنِ الرَّجُلِ ...

فَكَفُّوا عَنِّي ...

وَلَمَّا رَأَىٰ مَا أَصَابَنِي مِنَ الذُّعْرِ(٢) أَقْبَلَ عَلَيَّ بِوَجْهِهِ الطَّلْقِ ؛ وَجَعَلَ يُؤَمِّنُنِي وَيُهَدِّئُ مِنْ رَوْعِي(٣) ثُمَّ قَالَ لِي :

لَقَدْ سَبَبْتَنَا بِمَا عَلِمْتَ ، وَمَا سُتِرَ عَنْكَ مِنْ أَمْرِنَا أَكْبَرُ .

ثُمَّ قَالَ لِي : أَلَكَ حَاجَةٌ نُعِينُكَ عَلَيْهَا ؟ .

فَاسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ ، وَلَمْ أَقُلْ شَيْئًا ...

فَلَمَّا رَأَىٰ حَيَائِي أَلْقَىٰ عَلَيَّ كِسَاءً(٤) كَانَ عَلَيْهِ ...

وَأَمَرَ لِي بِأَلْفِ دِرْهَمٍ .

فَجَعَلْتُ أَقُولُ كُلَّمَا رَأَيْتُهُ ـ بَعْدَ ذَلِكَ ـ أَشْهَدُ أَنَّكَ مِنْ أَبْنَاءِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

وَرَوَىٰ أَحَدُ مَوَالِيهِ قَالَ :

كُنْتُ غُلَامًا لِعَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ ، فَأَرْسَلَنِي فِي حَاجَةٍ فَأَبْطَأْتُ عَلَيْهِ ، فَلَمَّا جِئْتُهُ خَفَقَنِي(٥) بِالسَّوْطِ ... فَبَكَيْتُ وَاشْتَدَّ غَيْظِي مِنْهُ ؛ لِأَنَّهُ مَا خَفَقَ أَحَدًا قَبْلِي قَطُّ ، وَقُلْتُ لَهُ : اللَّهَ ، اللَّهَ(٦) ، يَا عَلِيَّ بْنَ الْحُسَيْنِ ...

---

(١) أخذي : النَّيل مِنِّي .
(٢) الذُّعر : الخوف والهلع .
(٣) روعي : فزعي .
(٤) كساءً : ثوبًا .
(٥) خفقني : ضربني ، والسوط : جلد مضفور .
(٦) اللَّهَ ، اللَّهَ : اتَّقِ اللَّهَ .

أَتَسْتَخْدِمُنِي فِي حَاجَةٍ فَأَقْضِيهَا لَكَ ، ثُمَّ تَضْرِبُنِي ؟! .

فَبَكَىٰ وَقَالَ : اِذْهَبْ إِلَىٰ مَسْجِدِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَصَلِّ رَكْعَتَيْنِ ، ثُمَّ قُلْ : اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِعَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ ...

فَإِذَا ذَهَبْتَ وَفَعَلْتَ ، فَأَنْتَ حُرٌّ لِوَجْهِ اللَّهِ تَعَالَىٰ .

فَذَهَبْتُ وَصَلَّيْتُ وَدَعَوْتُ ...

وَلَمْ أَعُدْ إِلَىٰ دَارِهِ إِلَّا وَأَنَا حُرٌّ .

* * *

وَلَقَدْ وَسَّعَ(١) اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَىٰ زَيْنِ الْعَابِدِينَ ، وَأَفَاضَ(٢) عَلَيْهِ الرِّزْقَ فَيْضًا ...

فَكَانَتْ لَهُ تِجَارَةٌ رَابِحَةٌ ...

وَزِرَاعَةٌ نَامِيَةٌ ...

وَكَانَ يَنْهَضُ بِهِمَا غِلْمَانُهُ .

وَكَانَتْ زِرَاعَتُهُ وَتِجَارَتُهُ تُدِرَّانِ(٣) عَلَيْهِ الْخَيْرَ الْوَفِيرَ(٤)، وَالْمَالَ الْكَثِيرَ ...

لَكِنَّ زَيْنَ الْعَابِدِينَ لَمْ يَزْهُهُ(٥) الْغِنَىٰ ...

وَلَمْ تُبْطِرْهُ النِّعْمَةُ ...

وَإِنَّمَا جَعَلَ مَالَ الدُّنْيَا مَطِيَّةً(٦) لِلْفَوْزِ فِي الْآخِرَةِ .

---

(١) وَسَّعَ اللَّهُ عليه : أغدق عليه المال .
(٢) أفاض : أكثر .
(٣) تُدِرَّان : تغدقان وتكثران .
(٤) الوفير : الكثير .
(٥) لم يزهُهُ الغِنَىٰ : لم يدفعه المالُ إِلَىٰ التكبر عَلَىٰ النَّاس . (٦) مطية : وسيلة ومركبًا .

فَكَانَ ثَرَاؤُهُ(1) نِعْمَ الثَّرَاءُ الصَّالِحُ لِلْعَبْدِ الصَّالِحِ .

وَكَانَ أَكْثَرَ مَا حُبِّبَ إِلَيْهِ مِنْ أَعْمَالِ الْبِرِّ صَدَقَةُ السِّرِّ(2).

فَكَانَ إِذَا جَنَّ(3) اللَّيْلُ يَحْمِلُ أَكْيَاسَ الدَّقِيقِ عَلَىٰ ظَهْرِهِ النَّاحِلِ(4)، وَيَخْرُجُ بِهَا فِي عَتَمَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ ...

وَكَانَ يَجُوبُ(5) بِهَا أَحْيَاءَ الْمَدِينَةِ لِيَتَصَدَّقَ عَلَىٰ ذَوِي الْحَاجَاتِ مِمَّنْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا(6).

فَكَانَتْ جَمَاعَاتٌ كَثِيرَةٌ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ تَعِيشُ وَهْيَ لَا تَدْرِي مِنْ أَيْنَ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا(7).

فَلَمَّا مَاتَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ ؛ فَقَدَ هَؤُلَاءِ مَا كَانَ يَأْتِيهِمْ مِنْ رِزْقٍ ، فَعَرَفُوا مَصْدَرَهُ .

وَلَمَّا وُضِعَ زَيْنُ الْعَابِدِينَ عَلَىٰ الْمُغْتَسَلِ ؛ نَظَرَ غَاسِلُوهُ ... فَوَجَدُوا فِي ظَهْرِهِ آثَارَ سَوَادٍ ، فَقَالُوا : مَا هَٰذَا ؟ .

فَقِيلَ لَهُمْ : إِنَّهُ مِنْ آثَارِ حَمْلِ أَكْيَاسِ الدَّقِيقِ(8) إِلَىٰ مِائَةِ بَيْتٍ فِي الْمَدِينَةِ فَقَدَتْ عَائِلَهَا(9) بِفَقْدِهِ .

* * *

أَمَّا أَخْبَارُ عِتْقِ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ لِلْأَرِقَّاءِ فَقَدْ شَرَّقَتْ بِهَا الرُّكْبَانُ(10) وَغَرَّبَتْ ... لِأَنَّ صَنِيعَهُ هَٰذَا فَاقَ خَيَالَ الْمُتَخَيِّلِينَ ...

---

(1) ثراؤه : غناه .
(2) صدقة السّر : الصّدقة الّتي لا يعلم بها أحد إلّا الله .
(3) جنّ اللّيل : أظلم اللّيل .
(4) النّاحل : الضّعيف الهزيل .
(5) يجوب : يطوف .
(6) إلحافًا : إلحاحًا .
(7) رغدًا : طيبًا واسعًا .
(8) الدّقيق : الطّحين .
(9) عائلها : من ينفق عليها ويعولها .
(10) الرّكبان : المسافرون المتنقلون في البلاد .

وَجَاوَزَ تَطَلُّعَ الْمُتَطَلِّعِينَ[1].

فَكَانَ يُعْتِقُ الْعَبْدَ إِذَا أَحْسَنَ ؛ مُكَافَأَةً لَهُ عَلَىٰ إِحْسَانِهِ ...

وَكَانَ يُعْتِقُ الْعَبْدَ إِذَا أَسَاءَ وَتَابَ ؛ جَزَاءً لَهُ عَلَىٰ تَوْبَتِهِ ...

حَتَّىٰ رَوَىٰ الرَّاوُونَ أَنَّهُ أَعْتَقَ أَلْفَ عَبْدٍ ...

وَأَنَّهُ لَمْ يَسْتَخْدِمْ أَحَدًا مِنْ غِلْمَانِهِ وَإِمَائِهِ[2] أَكْثَرَ مِنْ عَامٍ وَاحِدٍ.

وَكَانَ عِتْقُهُ لِعَبِيدِهِ يَقَعُ أَكْثَرَ مَا يَقَعُ لَيْلَةَ عِيدِ الْفِطْرِ ... حَيْثُ كَانَ يُحَرِّرُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ الْمُبَارَكَةِ مَا يُقَدِّرُهُ اللَّهُ عَلَىٰ تَحْرِيرِهِ مِنْ رِقَابِ الْأَرِقَّاءِ.

وَيَسْأَلُهُمْ أَنْ يَتَوَجَّهُوا إِلَىٰ الْقِبْلَةِ ، وَأَنْ يَقُولُوا :

اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِعَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ.

ثُمَّ يُزَوِّدُهُمْ[3] بِمَا يَجْعَلُ عِيدَهُمْ عِيدَيْنِ ، وَفَرْحَتَهُمْ فَرْحَتَيْنِ.

* * *

وَلَقَدْ حَلَّ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ مِنْ قُلُوبِ النَّاسِ مَنْزِلَةً لَمْ يَرِدْ عَلَيْهَا إِنْسَانٌ فِي عَصْرِهِ ...

فَلَقَدْ أَحَبَّهُ النَّاسُ أَصْدَقَ مَا يَكُونُ الْحُبُّ ...

وَأَجَلُّوهُ[4] أَعْظَمَ مَا يَكُونُ الْإِجْلَالُ ...

وَتَعَلَّقُوا[5] بِهِ أَشَدَّ مَا يَكُونُ التَّعَلُّقُ ...

وَاشْتَاقُوا إِلَىٰ رُؤْيَتِهِ أَعْمَقَ مَا يَكُونُ الشَّوْقُ ...

---

(١) المتطلعين : العارفين.
(٢) الإماء : جمع أَمَة ، وهي المسترقة من النساء.
(٣) يزوّدهم : يعطيهم ويكرمهم.
(٤) أجلوه : عظموه.
(٥) تعلقوا به : أحبوه ، وارتبطوا به.

فَكَانُوا يَتَرَقَّبُونَهُ لِيَنْعَمُوا[1] بِرُؤْيَاهُ خَارِجًا مِنَ الْبَيْتِ أَوْ دَاخِلًا إِلَيْهِ ...

أَوْ غَادِيًا[2] إِلَىٰ الْمَسْجِدِ أَوْ رَائِحًا مِنْهُ .

* * *

رُوِيَ أَنَّ هِشَامَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ وَفَدَ عَلَىٰ مَكَّةَ حَاجًّا ، وَكَانَ يَوْمَئِذٍ وَلِيًّا لِلْعَهْدِ ... فَأَقْبَلَ يُرِيدُ الطَّوَافَ ، وَيَبْتَغِي اسْتِلَامَ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ ...

وَأَخَذَ الْجُنْدُ الْحَافُّونَ[3] بِهِ يُنَبِّهُونَ النَّاسَ إِلَيْهِ ، وَيُوَسِّعُونَ الطَّرِيقَ لَهُ ...

لَكِنَّ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ لَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِمْ ، وَلَمْ يُوَسِّعْ لَهُمْ .

فَالْبَيْتُ بَيْتُ اللَّهِ ...

وَالنَّاسُ جَمِيعًا عَبِيدُهُ ...

وَفِيمَا هُمْ كَذَلِكَ سُمِعَتْ أَصْوَاتُ التَّهْلِيلِ[4] وَالتَّكْبِيرِ آتِيَةً مِنْ بَعِيدٍ ...

فَاشْرَأَبَّتْ[5] نَحْوَهَا الْأَعْنَاقُ ...

فَإِذَا رَجُلٌ فِي كَوْكَبَةٍ[6] مِنَ النَّاسِ ، قَسِيمٌ[7] وَسِيمٌ ، ضَامِرُ[8] الْجِسْمِ ، وَضِيءُ الْوَجْهِ عَلَيْهِ سَكِينَةٌ وَوَقَارٌ ...

قَدْ مَشَىٰ فِي إِزَارٍ وَرِدَاءٍ[9] ...

وَبَدَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ أَثَرُ السُّجُودِ ...

---

(١) لينعموا : ليسعدوا .
(٢) غاديًا : عائدًا .
(٣) الحافون به : المحيطون به .
(٤) التهليل : قول لَا إِلَٰه إِلَّا اللَّه .
(٥) اشرأبت الأعناق : تطاولت الرقاب وامتدت .
(٦) كوكبة من النّاس : جماعة من النّاس ملتفة حوله .
(٧) قسيم وسيم : بهي الطّلعة حلو المنظر .
(٨) ضامر الجسم : رقيق الجسم هزيله .
(٩) الإزار : ما يستر أسفل الجسم ، والرّداء : ما يستر الجزء الأعلى من الجسم .

فَجَعَلَتْ كُتَلُ النَّاسِ تَنْفَرِجُ[1] لَهُ ، وَتَغْدُو صُفُوفًا صُفُوفًا ، وَهْيَ تَسْتَقْبِلُهُ بِنَظَرَاتِ الشَّوْقِ وَالْحُبِّ حَتَّىٰ بَلَغَ الْحَجَرَ الْأَسْوَدَ ، وَاسْتَلَمَهُ .

وَهُنَا الْتَفَتَ أَحَدُ رِجَالِ الْحَاشِيَةِ إِلَىٰ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، وَقَالَ لَهُ :

مَنْ هَٰذَا الَّذِي أَكْرَمَهُ النَّاسُ كُلَّ هَٰذَا الْإِكْرَامِ ، وَأَجَلُّوهُ كُلَّ هَٰذَا الْإِجْلَالِ ؟! .

فَقَالَ هِشَامٌ : لَا أَعْرِفُهُ .

وَكَانَ « الْفَرَزْدَقُ »[2] حَاضِرًا ؛ فَقَالَ :

إِنْ كَانَ هِشَامٌ لَا يَعْرِفُهُ فَأَنَا أَعْرِفُهُ ... وَالدُّنْيَا كُلُّهَا تَعْرِفُهُ ...

هَٰذَا عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَىٰ عَنْهُ وَعَنْ أَبِيهِ وَعَنْ جَدِّهِ .

ثُمَّ أَنْشَدَ :

هَٰذَا الَّذِي تَعْرِفُ الْبَطْحَاءُ[3] وَطْأَتَهُ
وَالْبَيْتُ يَعْرِفُهُ وَالْحِلُّ وَالْحَرَمُ

هَٰذَا ابْنُ خَيْرِ عِبَادِ اللَّهِ كُلِّهِمُ
هَٰذَا التَّقِيُّ النَّقِيُّ الطَّاهِرُ الْعَلَمُ

هَٰذَا ابْنُ فَاطِمَةٍ[4] ـ إِنْ كُنْتَ جَاهِلَهُ ـ
بِجَدِّهِ أَنْبِيَاءُ اللَّهِ قَدْ خُتِمُوا

---

(١) تنفرج له : تفسح له الطريق .
(٢) الفرزدق : أحد شعراء الطبقة الأولى في العصر الأموي .
(٣) البطحاء : مكان سيل الماء ، بالقرب من البيت الحرام .
(٤) فاطمة : هي السيدة فاطمة الزهراء بنت الرسول ﷺ . انظرها في كتاب « صور من حياة الصحابيات » للمؤلف .

فَلَيْسَ قَوْلُكَ «مَنْ هَـٰذَا» بِضَائِرِهِ[1]
الْعُرْبُ تَعْرِفُ مَنْ أَنْكَرْتَ وَالْعَجَمُ
كِلْتَا يَدَيْهِ غِيَاثٌ[2] عَمَّ نَفْعُهُمَا
يَسْتَوْكِفَانِ[3]، وَلَا يَعْرُوهُمَا[4] عَدَمُ
سَهْلُ الْخَلِيقَةِ[5]، لَا تُخْشَىٰ بَوَادِرُهُ[6]
يَزِينُهُ اثْنَانِ: حُسْنُ الْخُلْقِ وَالشِّيَمُ
مَا قَالَ «لَا» قَطُّ إِلَّا فِي تَشَهُّدِهِ[7]
لَوْلَا التَّشَهُّدُ كَانَتْ لَاءَهُ نَعَمُ
عَمَّ الْبَرِيَّةَ بِالْإِحْسَانِ فَانْقَشَعَتْ[8]
عَنْهَا الْغَيَاهِبُ[9] وَالْإِمْلَاقُ[10] وَالْعَدَمُ
إِذَا رَأَتْهُ قُرَيْشٌ قَالَ قَائِلُهَا
إِلَىٰ مَكَارِمِ هَـٰذَا يَنْتَهِي الْكَرَمُ
يُغْضِي[11] حَيَاءً وَيُغْضَىٰ[12] مِنْ مَهَابَتِهِ
فَمَا يُكَلَّمُ إِلَّا حِينَ يَبْتَسِمُ

(١) بضائره: بمنقص منه.
(٢) غياث: مغدقة كثيرة العطاء.
(٣) يستوكفان: يطلب الناس غيثهما.
(٤) لا يعروهما: لا يصيبهما.
(٥) الخليقة: الطبيعة.
(٦) البوادر: جمع مفرده بادرة، وهي الحدّة والقسوة.
(٧) في تشهده: في كلمة «لا إله إلّا الله».
(٨) انقشعت: زالت.
(٩) الغياهب: الظلمات.
(١٠) الإملاق: الفقر.
(١١) يغضي: يغض طرفه حياءً.
(١٢) يُغضَىٰ من مهابته: يغض الناس أعينهم فلا ينظرون إليه إجلالاً له.

بِـكَـفِّـهِ خَـيْـزُرَانٌ رِيـحُـهُ عَـبِـقٌ(١)

مِنْ كَفِّ أَرْوَعَ(٢)، فِي عِرْنِينِهِ(٣) شَمَمُ(٤)

مُـشْـتَـقَّـةٌ مِـنْ رَسُـولِ الـلَّـهِ نَـبْـعَـتُـهُ(٥)

طَابَتْ مَغَارِسُهُ(٦) وَالْـخِيـمُ(٧) وَالشِّـيَـمُ

* * *

رَضِيَ اللَّهُ عَنْ سِبْطِ رَسُولِ اللَّهِ وَأَرْضَاهُ...

فَقَدْ كَانَ صُورَةً فَذَّةً لِلَّذِي يَخْشَى اللَّهَ فِي السِّرِّ وَالْعَلَنِ...

وَيُضْنِي النَّفْسَ خَوْفًا مِنْ عِقَابِ اللَّهِ.

وَطَمَعًا فِي ثَوَابِهِ (*)...

(١) الْعبق: الَّذي تفوح منه رائحة الطِّيب.
(٢) الأروع: الشَّهم الذَّكي.
(٣) الْعرنين: الأنف.
(٤) الشَّمم: ارتفاع قصبة الأنف وحُسنُها، وفي عرنينه شمم: فيه عزة وأنفة.
(٥) النَّبعه: الأصل الْكريم.
(٦) مَغَارِسه: منابته وأصوله.
(٧) الخيم: السَّجية والطَّبيعة.

(*) للاستزادة من أخبار زَيْنِ الْعَابِدِينَ انظر:
١ - الطَّبقات الْكبرىٰ لابن سعد: ٥/ ٢١١.
٢ - تاريخ الْبخاري: ٦/ ٢٦٦.
٣ - الأسماء واللّغات: الْقسم الأول من الجزء الأول: ٣٤٣.
٤ - الجرح والتعديل: الْقسم الأول من المجلد الثَّالث: ١٧٨.
٥ - المعرفة والتَّاريخ: ١/ ٣٦٠، ٥٤٤.
٦ - طبقات الْفقهاء للشيرازي: ٦٣.
٧ - تاريخ ابن عساكر: ١٢/ ٥١٥.
٨ - المعارف: ٢١٤.
٩ - وفيات الأعيان: ٣/ ٢٦٦.
١٠ - تاريخ الْإسلام: ٤/ ٣٤.
١١ - الْعبر: ١/ ١١١.
١٢ - الْبداية والنّهاية: ٩/ ١٠٣.
١٣ - النّجوم الزّاهرة: ١/ ٢٢٩.

أَبُو مُسْلِمٍ الْخَوْلَانِيُّ

عَبْدُ اللهِ بْنُ ثُوَبٍ

« لَقَدْ تَفَانَىٰ أَبُو مُسْلِمٍ فِي الْعِبَادَةِ حَتَّىٰ صَارَ يَقُولُ :
لَوْ رَأَيْتُ الْجَنَّةَ عِيَانًا أَوِ النَّارَ عِيَانًا مَا كَانَ عِنْدِي مُسْتَزَادٌ »

[عُثْمَانُ بْنُ أَبِي عَاتِكَةَ]

طَارَتِ الْأَخْبَارُ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ ثَقُلَ عَلَيْهِ الْمَرَضُ بَعْدَ عَوْدَتِهِ مِنْ حَجَّةِ الْوَدَاعِ .

فَسَوَّلَ الشَّيْطَانُ لِلْأَسْوَدِ الْعَنْسِيِّ أَنْ يَعُودَ لِلْكُفْرِ بَعْدَ الْإِيمَانِ ...

وَأَنْ يَفْتَرِيَ عَلَىٰ اللَّهِ الْكَذِبَ ، فَيَزْعُمَ لِقَوْمِهِ فِي « الْيَمَنِ » أَنَّهُ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ .

* * *

كَانَ الْأَسْوَدُ الْعَنْسِيُّ رَجُلًا شَدِيدَ الْمِرَّةِ[1] ، قَوِيَّ الْبِنْيَةِ ، أَسْوَدَ النَّفْسِ ، مُسْتَطِيرَ[2] الشَّرِّ .

قَدْ أَتْقَنَ الْكَهَانَةَ[3] فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَحَذَقَ الشَّعْبَذَةَ[4] عَلَىٰ النَّاسِ ...

وَكَانَ إِلَىٰ ذَلِكَ فَصِيحَ اللِّسَانِ ، رَائِعَ الْبَيَانِ ، ذَكِيَّ الْفُؤَادِ ، قَادِرًا عَلَىٰ اللَّعِبِ بِعُقُولِ الْعَامَّةِ بِأَبَاطِيلِهِ ، وَكَسْبِ وَلَاءِ الْخَاصَّةِ بِهِبَاتِهِ وَعَطَايَاهُ .

وَكَانَ لَا يَظْهَرُ لِلنَّاسِ إِلَّا مُقَنَّعًا[5] بِقِنَاعٍ أَسْوَدَ ؛ لِيُحِيطَ نَفْسَهُ بِهَالَةٍ مِنَ الْغُمُوضِ وَالْهَيْبَةِ .

* * *

(١) الْمِرَّة : الطَّاقة والقوة .
(٢) مستطير الشَّرّ : سريع الشّر كثير السّوء .
(٣) الْكَهانَة : ادعاء معرفة الْغيب .
(٤) الشَّعْبذة والشعوذة : خفة الْيد ، وأعمال كالسّحر لا حقيقة لها .
(٥) مقنّعًا : متغشيًا بثوب يضعه عَلَىٰ وَجْهِهِ .

وَقَدِ انْتَشَرَتْ دَعْوَةُ الْأَسْوَدِ الْعَنْسِيِّ فِي «الْيَمَنِ» انْتِشَارَ النَّارِ فِي الْهَشِيمِ[1] وَقَدْ سَاعَدَهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ اتِّبَاعُ قَبِيلَتِهِ مِنْ بَنِي «مَذْحِجٍ» لَهُ.

وَكَانَتْ يَوْمَئِذٍ مِنْ أَكْثَرِ قَبَائِلِ «الْيَمَنِ» عَدَدًا، وَأَوْسَعِهَا نُفُوذًا، وَأَشَدِّهَا بَأْسًا[2].

كَمَا سَاعَدَتْهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قُدْرَتُهُ عَلَىٰ اخْتِرَاعِ الْكَذِبِ وَتَلْفِيقِهِ، وَاسْتِعَانَتُهُ بِالْأَذْكِيَاءِ مِنْ أَتْبَاعِهِ عَلَىٰ ذَٰلِكَ.

فَقَدْ زَعَمَ لِلنَّاسِ أَنَّ مَلَكًا مِنَ السَّمَاءِ يَنْزِلُ عَلَيْهِ بِالْوَحْيِ، وَيُخْبِرُهُ بِالْمُغَيَّبَاتِ.

وَسَلَكَ لِإِقْنَاعِ النَّاسِ بِصِحَّةِ زَعْمِهِ هَٰذَا؛ مَسَالِكَ شَتَّىٰ.

فَكَانَ يَبُثُّ عُيُونَهُ[3] فِي كُلِّ مَكَانٍ؛ لِيَقِفُوا لَهُ عَلَىٰ شُئُونِ النَّاسِ وَشُجُونِهِمْ[4]... وَيَكْشِفُوا عَنْ أَسْرَارِهِمْ وَأَخْبَارِهِمْ.

وَيَنْفُذُوا إِلَىٰ مَا يَعْتَلِجُ[5] فِي خَبَايَا نُفُوسِهِمْ[6] مِنَ الْآمَالِ وَالْآلَامِ.

وَكَانُوا فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ يُغْرُونَ هَؤُلَاءِ النَّاسَ بِاللُّجُوءِ إِلَيْهِ، وَطَلَبِ الْعَوْنِ مِنْهُ.

فَكَانُوا إِذَا جَاءُوهُ؛ وَاجَهَ كُلَّ ذِي حَاجَةٍ بِحَاجَتِهِ، وَبَدَأَ كُلَّ صَاحِبِ مُشْكِلَةٍ بِمُشْكِلَتِهِ.

وَأَرَاهُمْ أَنَّهُ مُطَّلِعٌ عَلَىٰ مَا خَفِيَ مِنْ أَسْرَارِهِمْ، وَاقِفٌ عَلَىٰ مَا اسْتَتَرَ مِنْ خَبَايَا نُفُوسِهِمْ.

---

(١) الْهَشِيم: النبات اليابس السريع الاشتعال.
(٢) أشدها بأسًا: أعظمها قوة.
(٣) يَبُثُّ عيونه: ينشر رقباءه.
(٤) شُجُونهم: أحداثهم ومشكلاتهم.
(٥) يَعْتَلِج: يتلاطم.
(٦) خبايا نفوسهم: خفايا نفوسهم.

وَأَتَىٰ أَمَامَهُمْ مِنَ الْعَجَائِبِ وَالْغَرَائِبِ مَا يُذْهِلُ عُقُولَهُمْ، وَيُحَيِّرُ أَلْبَابَهُمْ[1].

فَمَا لَبِثَ أَنْ عَظُمَ أَمْرُهُ...

وَاسْتَطَارَتْ[2] شُهْرَتُهُ...

وَكَثُرَ أَتْبَاعُهُ...

فَوَثَبَ بِهِمْ عَلَىٰ «صَنْعَاءَ»، ثُمَّ وَثَبَ مِنْ «صَنْعَاءَ» عَلَىٰ الْمَنَاطِقِ الْأُخْرَىٰ...

حَتَّىٰ دَانَتْ[3] لَهُ الْبِلَادُ الْوَاقِعَةُ مَا بَيْنَ «حَضْرَمَوْتَ» وَ«الطَّائِفِ».

وَمَا بَيْنَ «الْبَحْرَيْنِ» وَ«عَدَنَ»...

* * *

وَلَمَّا اسْتَتَبَّ[4] الْأَمْرُ لِلْأَسْوَدِ الْعَنْسِيِّ، وَدَانَتْ لَهُ الْبِلَادُ وَالْعِبَادُ.

نَشِطَ[5] فِي تَتَبُّعِ مُعَارِضِيهِ، وَمِمَّنْ آتَاهُمُ اللَّهُ إِيمَانًا رَاسِخًا بِدِينِهِ الْقَوِيمِ...

وَيَقِينًا ثَابِتًا بِنَبِيِّهِ الْكَرِيمِ ﷺ...

وَوَلَاءً[6] صَادِقًا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ...

وَجَهْرًا بِالْحَقِّ، وَتَصَدِّيًا[7] لِلْبَاطِلِ...

فَجَعَلَ يَبْطِشُ بِهِمْ فِي قَسْوَةٍ قَاسِيَةٍ، وَيُنْزِلُ بِهِمْ أَشَدَّ النَّكَالِ[8].

---

(١) أَلْبَابهم: أفكارهم.
(٢) استطارت: انتشرت.
(٣) دانت له: خضعت له.
(٤) اسْتَتَبَّ: استقرّ واستقام.
(٥) نَشِط: خفَّ وأسرع.
(٦) ولاءً: انقيادًا وطاعةً.
(٧) تصدِّيًا: مُقاوَمَة.
(٨) النكال: البطش الشديد.

وَكَانَ فِي طَلِيعَةِ هَؤُلَاءِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ ثُوَبٍ الْمُكَنَّى بِأَبِي مُسْلِمٍ الْخَوْلَانِيِّ.

* * *

كَانَ أَبُو مُسْلِمٍ الْخَوْلَانِيُّ رَجُلًا صُلْبًا فِي دِينِهِ ...

قَوِيًّا فِي إِيمَانِهِ ...

عَنِيدًا فِي الْجَهْرِ بِالْحَقِّ ...

قَدْ أَخْلَصَ نَفْسَهُ لِلَّهِ، فَأَعْرَضَ عَنِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا ...

وَزَهِدَ فِي زُخْرُفِ الْعَيْشِ وَمَتَاعِهِ ...

وَنَذَرَ حَيَاتَهُ لِطَاعَةِ اللَّهِ، وَالدَّعْوَةِ إِلَيْهِ ...

وَبَاعَ الْفَانِيَةَ بِالْبَاقِيَةِ[1] بَيْعَ السَّمَاحِ ...

فَأَحَلَّهُ النَّاسُ مِنْ نُفُوسِهِمْ مَنْزِلَةً رَفِيعَةً، وَرَأَوْا فِيهِ رَجُلًا طَاهِرَ النَّفْسِ وَالنَّفَسِ[2]، مُسْتَجَابَ الدَّعْوَةِ عِنْدَ اللَّهِ.

* * *

وَقَدْ أَرَادَ الْأَسْوَدُ الْعَنْسِيُّ أَنْ يَبْطِشَ بِأَبِي مُسْلِمٍ بَطْشَةً جَبَّارَةً ...

تَبُثُّ الْهَلَعَ[3] وَالْجَزَعَ فِي نُفُوسِ مُعَارِضِي دَعْوَتِهِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَنِ، وَتَقْمَعُهُمْ[4] قَمْعًا.

فَأَمَرَ بِالْحَطَبِ بِأَنْ يُكَدَّسَ فِي سَاحَةٍ مِنْ سَاحَاتِ «صَنْعَاءَ»، وَأَنْ تُضْرَمَ[5] فِيهِ النَّارُ ...

---

(١) بَاعَ الْفَانِيَةَ بِالْبَاقِيَةِ: بَاعَ الدُّنْيَا الْفَانِيَةَ بِالْآخِرَةِ الْبَاقِيَةِ.
(٢) طَاهِرَ النَّفْسِ وَالنَّفَسِ: نَقِيَّ الرُّوحِ، وَثِيقَ الصِّلَةِ بِاللَّهِ.
(٣) تَبُثُّ الْهَلَعَ: تَنْشُرُ الرُّعْبَ.
(٤) تَقْمَعُهُمْ: تَقْهَرُهُمْ وَتَرُدُّهُمْ.
(٥) تُضْرَمُ: تُوقَدُ وَتُشْعَلُ.

وَدَعَا النَّاسَ إِلَىٰ أَنْ يَشْهَدُوا اسْتِتَابَةَ(١) فَقِيهِ «الْيَمَنِ» وَعَابِدِهَا أَبِي مُسْلِمٍ الْخَوْلَانِيِّ، وَإِقْرَارِهِ بِنُبُوَّتِهِ.

وَفِي الْوَقْتِ الْمُحَدَّدِ أَقْبَلَ الْأَسْوَدُ الْعَنْسِيُّ عَلَىٰ السَّاحَةِ الَّتِي اكْتَظَّتْ(٢) بِالنَّاسِ اكْتِظَاظًا.

وَكَانَ يَحُفُّ بِهِ طَوَاغِيتُهُ(٣)، وَكِبَارُ أَتْبَاعِهِ.

وَيَحُوطُهُ حَرَسُهُ وَقَادَةُ جُنْدِهِ.

فَجَلَسَ عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ الْعَظِيمِ الَّذِي نُصِبَ لَهُ قُبَالَةَ(٤) النَّارِ.

وَقِيدَ إِلَيْهِ أَبُو مُسْلِمٍ الْخَوْلَانِيُّ عَلَىٰ مَرْأًى مِنَ النَّاسِ وَمَسْمَعٍ...

فَلَمَّا صَارَ بَيْنَ يَدَيْهِ نَظَرَ إِلَيْهِ الطَّاغِيَةُ(٥) الْكَذَّابُ فِي خُيَلَاءَ(٦)...

ثُمَّ نَظَرَ إِلَىٰ النَّارِ الَّتِي تَتَأَجَّجُ أَمَامَهُ فِي ضَرَاوَةٍ(٧)...

ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيْهِ وَقَالَ: أَتَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ؟.

قَالَ: نَعَمْ أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ...

وَأَنَّهُ سَيِّدُ الْمُرْسَلِينَ، وَأَنَّهُ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ أَيْضًا.

فَقَطَّبَ(٨) الْأَسْوَدُ الْعَنْسِيُّ وَجْهَهُ، وَزَمَّ(٩) حَاجِبَيْهِ وَقَالَ:

وَتَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ؟.

فَقَالَ: إِنَّ فِي أُذُنَيَّ صَمَمًا، فَلَا أَسْمَعُ مَا تَقُولُ...

---

(١) الاستتابة: الدّعوة إلىٰ التوبة.

(٢) اكتظّت بالنّاس: امتلأت بهم حتىٰ ضاقت.

(٣) يحفّ به طواغيته: يحيط به شياطينه.

(٤) قُبالَة النّار: تجاه النّار.

(٥) الطّاغية: الجبار المتكبر من النّاس.

(٦) في خُيَلاء: في عجب وتكبر.

(٧) في ضراوة: في قسوة وشدّة.

(٨) قطّب وجهه: زوىٰ بين عينيه.

(٩) زمّ: شدّ.

فَقَالَ الْأَسْوَدُ : إِذَنْ أَقْذِفُكَ فِي هَٰذِهِ النَّارِ .

فَقَالَ أَبُو مُسْلِمٍ : إِنْ فَعَلْتَ اتَّقَيْتُ بِهَٰذِهِ النَّارِ الَّتِي وَقُودُهَا الْحَطَبُ ؛ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ ، لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ ، وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ .

فَقَالَ الْأَسْوَدُ : لَنْ أَعْجَلَ عَلَيْكَ ، وَسَأُتِيحُ لَكَ الْفُرْصَةَ لِتُرَاجِعَ عَقْلَكَ .

ثُمَّ أَعَادَ عَلَيْهِ السُّؤَالَ فَقَالَ : أَتَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ؟ .

فَقَالَ : نَعَمْ أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ ، وَأَنَّهُ أَرْسَلَهُ بِدِينِ الْهُدَىٰ وَالْحَقِّ ، وَخَتَمَ بِرِسَالَتِهِ الرِّسَالَاتِ .

فَازْدَادَ الْأَسْوَدُ حَنَقًا(١) وَقَالَ : وَتَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ .

فَقَالَ أَبُو مُسْلِمٍ : أَمَا أَخْبَرْتُكَ أَنَّ فِي أُذُنَيَّ صَمَمًا ، فَلَا أَسْمَعُ مَقَالَتَكَ هَٰذِهِ ؟! .

فَاسْتَشَاطَ(٢) الْأَسْوَدُ الْعَنْسِيُّ غَيْظًا مِنْ صَرَامَةِ إِجَابَتِهِ ، وَهُدُوءِ نَفْسِهِ ، وَسَكِينَةِ جَوَارِحِهِ ...

وَهَمَّ بِأَنْ يَأْمُرَ بِهِ فَيُلْقَىٰ فِي النَّارِ .

عِنْدَ ذَٰلِكَ تَقَدَّمَ مِنْهُ كَبِيرُ طَوَاغِيتِهِ(٣) وَهَمَسَ فِي أُذُنِهِ قَائِلًا :

إِنَّ الرَّجُلَ - كَمَا عَرَفْتَ - طَاهِرُ النَّفْسِ ، مُسْتَجَابُ الدَّعْوَةِ ...

وَإِنَّ اللَّهَ لَنْ يَخْذُلَ(٤) مُؤْمِنًا لَمْ يَخْذُلْهُ فِي سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ الشِّدَّةِ ...

---

(١) الحنق : شدة الاغتياظ .

(٢) استشاط غيظًا : التهب غيظًا .

(٣) طواغيته : رؤوس الضلال عنده .

(٤) لن يخذل مؤمنًا : لن يترك نصرة مؤمن .

وَ إِنَّكَ إِنْ أَلْقَيْتَهُ فِي النَّارِ وَنَجَّاهُ اللَّهُ مِنْهَا ؛ هَدَمْتَ كُلَّ مَا بَنَيْتَهُ فِي لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ .

وَدَفَعْتَ النَّاسَ إِلَىٰ الْكُفْرِ بِنُبُوَّتِكَ دَفْعًا ...

وَ إِنْ أَحْرَقَتْهُ النَّارُ ازْدَادَ النَّاسُ بِهِ إِعْجَابًا ، وَلَهُ إِكْبَارًا ...

وَرَفَعُوهُ إِلَىٰ مَصَافِّ الشُّهَدَاءِ ...

فَمُنَّ عَلَيْهِ[1] بِإِطْلَاقِ سَرَاحِهِ ، وَانْفِهِ مِنَ الْبِلَادِ ، وَأَرِحْ مِنْهُ ، وَاسْتَرِحْ .

فَأَخَذَ الْأَسْوَدُ بِمَشُورَةِ طَاغُوتِهِ ، وَأَمَرَهُ بِمُغَادَرَةِ الْبِلَادِ لِسَاعَتِهِ[2] .

* * *

يَمَّمَ[3] أَبُو مُسْلِمٍ الْخَوْلَانِيُّ وَجْهَهُ شَطْرَ[4] الْمَدِينَةِ .

وَكَانَ يُمَنِّي نَفْسَهُ بِلِقَاءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

فَهُوَ قَدْ آمَنَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَكْتَحِلَ عَيْنَاهُ[5] بِرُؤْيَتِهِ ، وَتَفْرَحَ نَفْسُهُ بِصُحْبَتِهِ .

لَكِنَّهُ مَا كَادَ يَبْلُغُ حَوَاشِيَ[6] « يَثْرِبَ » حَتَّىٰ بَلَغَهُ نَعْيُ[7] النَّبِيِّ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ .

وَقِيَامُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ عَلَىٰ خِلَافَةِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ بَعْدِهِ .

فَحَزِنَ عَلَىٰ وَفَاةِ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ ﷺ حُزْنًا خَالَطَ سُوَيْدَاءَ قَلْبِهِ[8] .

* * *

---

(١) فمُنَّ عليه : فأَنعم عليه .

(٢) تشير جُلُّ المصادر الَّتي بين أيدينا إلىٰ أنَّه قذفه في النَّار فكانت بردًا وسلامًا عليه كما كانت علىٰ إبراهيم ، والله أعلم .

(٣) يمم وجهه : توَجَّهَ .

(٤) شطر : جهة .

(٥) تكتحل عيناه برؤيته : ينعم بلقائه والنَّظر إليه .

(٦) حواشي يثْرِب : أطراف المدينة المنوَّرة .

(٧) نعي النَّبي ﷺ : خبر وفاة النَّبي ﷺ

(٨) سُوَيْداء قلبه : أعماق فؤاده وحبة قلبه .

بَلَغَ أَبُو مُسْلِمٍ «الْمَدِينَةَ»، وَقَصَدَ مَسْجِدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

فَلَمَّا أَقْبَلَ عَلَىٰ الْمَسْجِدِ عَقَلَ[1] نَاقَتَهُ قَرِيبًا مِنْ بَابِهِ، وَدَخَلَ إِلَىٰ الْحَرَمِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ، وَسَلَّمَ عَلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ.

ثُمَّ وَقَفَ إِلَىٰ سَارِيَةٍ[2] مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ وَجَعَلَ يُصَلِّي...

فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ صَلَاتِهِ، تَوَجَّهَ نَحْوَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ حَتَّىٰ صَارَ أَمَامَهُ وَقَالَ لَهُ:

مِمَّنْ الرَّجُلُ؟.

فَقَالَ: مِنَ «الْيَمَنِ».

فَقَالَ: مَا فَعَلَ اللَّهُ بِصَاحِبِنَا الَّذِي سَجَرَ[3] لَهُ عَدُوُّ اللَّهِ النَّارَ؛ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنْهَا؟.

فَقَالَ: هُوَ بِخَيْرٍ مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةٍ...

فَقَالَ عُمَرُ: نَشَدْتُكَ[4] اللَّهَ أَلَسْتَ هُوَ؟!.

فَقَالَ: بَلَىٰ.

فَقَبَّلَ عُمَرُ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَقَالَ:

أَتَدْرِي مَا فَعَلَ اللَّهُ بِعَدُوِّ اللَّهِ وَعَدُوِّكَ؟.

فَقَالَ: كَلَّا، فَقَدِ انْقَطَعَتْ أَخْبَارُهُ عَنِّي مُنْذُ غَادَرْتُ «الْيَمَنَ».

فَقَالَ: قَتَلَهُ اللَّهُ عَلَىٰ أَيْدِي الْبَقِيَّةِ الْبَاقِيَةِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ، وَأَدَالَ[5] دَوْلَتَهُ...

---

(١) عَقَل ناقته: ربط ناقته.
(٢) السّارية: الأسطوانة.
(٣) سجرَ النّارَ: أوقد النّار.
(٤) نشدتك الله: أستحلفك بالله.
(٥) أَدَال دَوْلَته: أزال ملكه.

وَرَدَّ أَتْبَاعَهُ إِلَىٰ دِينِ اللَّهِ...

فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يُخْرِجْنِي مِنَ الدُّنْيَا حَتَّىٰ قَرَّتْ[1] عَيْنِي بِمَصْرَعِهِ، وَعَوْدَةِ الْمَخْدُوعِينَ[2] مِنْ أَهْلِ «الْيَمَنِ» إِلَىٰ أَكْنَافِ[3] الْإِسْلَامِ.

فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: وَأَنَا أَحْمَدُ اللَّهَ الَّذِي أَرَانِي فِي أُمَّةِ مُحَمَّدٍ مَنْ فُعِلَ بِهِ كَمَا فُعِلَ بِخَلِيلِ الرَّحْمَٰنِ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ثُمَّ أَخَذَهُ مِنْ يَدِهِ، وَمَضَىٰ بِهِ إِلَىٰ أَبِي بَكْرٍ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ سَلَّمَ عَلَيْهِ بِالْخِلَافَةِ وَبَايَعَهُ.

فَأَجْلَسَهُ الصِّدِّيقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عُمَرَ...

وَطَفِقَ الشَّيْخَانِ[4] يَسْتَعِيدَانِ مَعَ أَبِي مُسْلِمٍ خَبَرَهُ مَعَ الْأَسْوَدِ الْعَنْسِيِّ.

* * *

أَقَامَ أَبُو مُسْلِمٍ الْخَوْلَانِيُّ زَمَنًا فِي الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ؛ لَزِمَ خِلَالَهُ مَسْجِدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ...

وَصَلَّىٰ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يُصَلِّيَ فِي رَوْضَتِهِ الْمُطَهَّرَةِ، وَأَخَذَ مَا وَسِعَهُ الْأَخْذُ عَنْ جِلَّةِ الصَّحَابَةِ مِنْ أَمْثَالِ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ، وَأَبِي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ، وَعُبَادَةَ ابْنِ الصَّامِتِ، وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، وَعَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الْأَشْجَعِيِّ.

ثُمَّ بَدَا لِأَبِي مُسْلِمٍ أَنْ يَرْحَلَ إِلَىٰ بِلَادِ «الشَّامِ»، وَأَنْ يَتَّخِذَهَا لَهُ مُقَامًا.

وَكَانَتْ غَايَتُهُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا مِنَ الثُّغُورِ[5] الشَّامِيَّةِ؛ لِيُشَارِكَ

---

(١) قرت عيني: سُرِرْت.
(٢) المخدوعين: الذين كُذِبَ عليهم وأوهموا بأن الباطل حق.
(٣) أكناف الإسلام: حِرْز الإسلام.
(٤) الشَّيْخَان: أبو بَكْر وعُمَر.
(٥) الثغور: المناطق الفاصلة بين بلاد المسلمين وبلاد أعدائهم.

جُيُوشَ الْمُسْلِمِينَ فِي غَزْوِ «الرُّومِ» ، وَيَفُوزَ بِأَجْرِ الْمُرَابَطَةِ(١) فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

وَلَمَّا آلَتِ الْخِلَافَةُ إِلَىٰ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أَكْثَرَ أَبُو مُسْلِمٍ مِنَ التَّرَدُّدِ عَلَيْهِ وَشُهُودِ مَجَالِسِهِ ... فَكَانَتْ لَهُ مَعَهُ مَوَاقِفُ مَذْكُورَةٌ مَشْهُورَةٌ ؛ تَشْهَدُ لِلرَّجُلَيْنِ بِسُمُوِّ الْمَنْزِلَةِ ...

وَتُنْبِئُ عَمَّا يَتَحَلَّيَانِ بِهِ مِنْ جَلِيلِ الشَّمَائِلِ(٢)...

مِنْ ذَلِكَ أَنَّ أَبَا مُسْلِمٍ دَخَلَ عَلَىٰ مُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ؛ فَرَآهُ يَتَصَدَّرُ(٣) مَجْلِسًا مِنْ مَجَالِسِهِ الْعَامِرَةِ .

وَقَدْ حَفَّ(٤) بِهِ رِجَالُ دَوْلَتِهِ ، وَقَادَةُ جَيْشِهِ ، وَوُجُوهُ قَوْمِهِ ...

وَرَأَىٰ النَّاسَ يُبَالِغُونَ فِي إِعْظَامِهِ وَإِجْلَالِهِ ، فَخَشِيَ عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ أَشَدَّ الْخَشْيَةِ ، وَبَادَرَهُ(٥) قَائِلًا :

السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا أَجِيرَ(٦) الْمُؤْمِنِينَ .

فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ النَّاسُ وَقَالُوا : أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ... يَا أَبَا مُسْلِمٍ ...

فَلَمْ يَأْبَهْ(٧) لَهُمْ وَقَالَ : السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا أَجِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .

فَقَالَ النَّاسُ : أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَا أَبَا مُسْلِمٍ .

فَلَمْ يُعِرْهُمْ(٨) سَمْعَهُ ، وَلَمْ يَرْمِ نَحْوَهُمْ بِطَرْفِهِ(٩) وَقَالَ :

السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا أَجِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .

---

(١) المرابطة : الملازمة لثغور الأعداء .
(٢) جليل الشمائل : سامي الصفات .
(٣) يتصدَّر : يجلس في الصدر .
(٤) حفَّ به : أحاط به .
(٥) بادره : عاجَلَه .
(٦) الأجير : الذي يخدم بأجره .
(٧) لم يأبه : لم يهتم .
(٨) لم يعرهم سمعه : لم يستمع لكلامهم .
(٩) لم يرم نحوهم بطرفه : لم يلتفت إليهم .

فَلَمَّا هَمَّ النَّاسُ بِمُرَاجَعَتِهِ ؛ الْتَفَتَ إِلَيْهِمْ مُعَاوِيَةُ وَقَالَ :

دَعُوا أَبَا مُسْلِمٍ ، فَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُ .

فَمَالَ أَبُو مُسْلِمٍ إِلَىٰ مُعَاوِيَةَ وَقَالَ لَهُ :

إِنَّمَا مَثَلُكَ - بَعْدَ أَنْ وَلَّاكَ اللَّهُ أَمْرَ النَّاسِ - كَمَثَلِ مَنِ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا وَأَوْكَلَ إِلَيْهِ أَمْرَ غَنَمِهِ ، وَجَعَلَ لَهُ الْأَجْرَ عَلَىٰ أَنْ يُحْسِنَ رَعْيَهَا ، وَيَحْفَظَ أَبْدَانَهَا ، وَيُوَفِّرَ أَصْوَافَهَا وَأَلْبَانَهَا ...

فَإِنْ هُوَ قَامَ بِمَا عُهِدَ إِلَيْهِ حَتَّىٰ تَكْبُرَ الصَّغِيرَةُ وَتَسْمَنَ الْعَجْفَاءُ[1] وَتَصِحَّ السَّقِيمَةُ ... أَعْطَاهُ أَجْرَهُ ، وَزَادَهُ .

وَإِنْ هُوَ لَمْ يُحْسِنْ رَعْيَهَا وَغَفَلَ عَنْهَا حَتَّىٰ هَلَكَتْ عِجَافُهَا ، وَهَزِلَتْ سِمَانُهَا ، وَضَاعَتْ أَصْوَافُهَا وَأَلْبَانُهَا ... مَنَعَ الْأَجْرَ عَنْهُ ، وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَعَاقَبَهُ .

فَاخْتَرْ لِنَفْسِكَ مَا فِيهِ خَيْرُكَ وَأَجْرُكَ .

فَرَفَعَ مُعَاوِيَةُ رَأْسَهُ وَكَانَ مُطْرِقًا إِلَىٰ الْأَرْضِ ، وَقَالَ :

جَزَاكَ اللَّهُ عَنَّا وَعَنِ الرَّعِيَّةِ خَيْرًا يَا أَبَا مُسْلِمٍ ، فَمَا عَلِمْنَاكَ إِلَّا نَاصِحًا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ ، وَلِعَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ .

* * *

وَشَهِدَ أَبُو مُسْلِمٍ صَلَاةَ الْجُمُعَةِ فِي جَامِعِ « دِمَشْقَ » ، وَكَانَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مُعَاوِيَةُ يَخْطُبُ النَّاسَ ، وَيَذْكُرُ لَهُمْ مَا أَمَرَ بِهِ مِنْ كَرْيِ[2] نَهْرِ « بَرَدَىٰ » حَتَّىٰ تَصْفُوَ لَهُمْ مَشَارِبُهُ[3] .

فَنَادَاهُ أَبُو مُسْلِمٍ مِنْ بَيْنِ الْجُمُوعِ وَقَالَ :

---

(١) العجفاء : الهزيلة .

(٢) كرىٰ النهر يكريه كريًا : حفر فيه حفرة جديدة.

(٣) تصفو مشاربه : تنقى مياهه .

تَذَكَّرْ يَا مُعَاوِيَةُ أَنَّكَ هَامَةُ الْيَوْمِ[1] أَوْ غَدٍ، وَأَنَّ دَارَكَ قَبْرٌ مِنَ الْقُبُورِ...

فَإِنْ جِئْتَهَا بِشَيْءٍ كَانَ لَكَ فِيهَا شَيْءٌ... وَإِنْ جِئْتَهَا صِفْرَ الْيَدَيْنِ[2] وَجَدْتَهَا قَاعًا صَفْصَفًا[3].

وَإِنِّي أُعِيذُكَ بِاللَّهِ يَا مُعَاوِيَةُ أَنْ تَظُنَّ أَنَّ الْخِلَافَةَ كَرْيُ الْأَنْهَارِ...

وَجَمْعُ الْأَمْوَالِ...

وَإِنَّمَا الْخِلَافَةُ عَمَلٌ بِالْحَقِّ...

وَقَوْلٌ بِالْمَعْدَلَةِ[4]...

وَأَخْذٌ لِلنَّاسِ بِمَا يُرْضِي اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ...

يَا مُعَاوِيَةُ، إِنَّا لَا نُبَالِي بِكَدَرِ الْأَنْهَارِ إِذَا صَفَتْ رَأْسُ عَيْنِنَا، وَإِنَّكَ رَأْسُ عَيْنِنَا...

فَاجْتَهِدْ فِي أَنْ تَظَلَّ صَافِيًا...

يَا مُعَاوِيَةُ، إِنَّكَ إِنْ تَحِفْ[5] عَلَى رَجُلٍ وَاحِدٍ؛ يَذْهَبْ حَيْفُكَ عَلَيْهِ بِعَدْلِكَ.

فَإِيَّاكَ وَالظُّلْمَ...

فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

فَلَمَّا انْتَهَى أَبُو مُسْلِمٍ مِنْ كَلَامِهِ؛ نَزَلَ إِلَيْهِ مُعَاوِيَةُ عَنِ الْمِنْبَرِ وَأَقْبَلَ عَلَيْهِ

---

(١) هامة اليوم أو غد: تموت اليوم أو غدًا.

(٢) صفر اليدين: خالي اليدين من المال وغيره.

(٣) قاعًا صَفْصَفًا: خالية من كل شيء، والصفصف: المستوي من الأرض.

(٤) المَعْدَلَة: الإنصاف والصدق.

(٥) حاف عَلَى فلان: ظلمه وجار عليه.

وَقَالَ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ يَا أَبَا مُسْلِمٍ، وَيَجْزِيكَ عَنَّا خَيْرَ الْجَزَاءِ.

* * *

وَفِي مَرَّةٍ أُخْرَىٰ صَعِدَ مُعَاوِيَةُ الْمِنْبَرَ وَشَرَعَ فِي خُطْبَتِهِ؛ وَكَانَ قَدْ حَبَسَ عَنِ النَّاسِ عَطَايَاهُمْ[1] شَهْرَيْنِ.

فَنَادَاهُ أَبُو مُسْلِمٍ وَقَالَ:

يَا مُعَاوِيَةُ، إِنَّ هَٰذَا الْمَالَ لَيْسَ بِمَالِكَ وَلَا مَالِ أَبِيكَ وَأُمِّكَ...

فَبِأَيِّ حَقٍّ تَحْبِسُهُ عَنِ النَّاسِ؟!.

فَبَدَا الْغَضَبُ عَلَىٰ وَجْهِ مُعَاوِيَةَ، وَجَعَلَ النَّاسُ يَتَرَقَّبُونَ مَا عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنْهُ.

فَمَا كَانَ مِنْهُ إِلَّا أَنْ أَشَارَ إِلَىٰ النَّاسِ أَنِ امْكُثُوا فِي أَمَاكِنِكُمْ وَلَا تَبْرَحُوهَا[2].

ثُمَّ نَزَلَ عَنِ الْمِنْبَرِ وَتَوَضَّأَ، وَأَرَاقَ عَلَىٰ نَفْسِهِ شَيْئًا مِنَ الْمَاءِ.

ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ؛ فَحَمِدَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَأَثْنَىٰ عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، وَقَالَ:

إِنَّ أَبَا مُسْلِمٍ قَدْ ذَكَرَ أَنَّ هَٰذَا الْمَالَ لَيْسَ بِمَالِي وَلَا مَالِ أَبِي وَأُمِّي...

وَقَدْ صَدَقَ أَبُو مُسْلِمٍ فِيمَا قَالَ...

وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:

(الْغَضَبُ مِنَ الشَّيْطَانِ...

وَالشَّيْطَانُ مِنَ النَّارِ...

---

(١) حبس عطاياهم: منع عنهم حقوقهم.

(٢) لا تبرحوها: لا تغادروها.

وَالْمَاءُ يُطْفِئُ النَّارَ ؛ فَإِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَغْتَسِلْ) ...

أَيُّهَا النَّاسُ : اغْدُوا عَلَىٰ أَعْطِيَاتِكُمْ[١] عَلَىٰ بَرَكَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .

* * *

جَزَىٰ اللَّهُ أَبَا مُسْلِمٍ الْخَوْلَانِيَّ خَيْرَ الْجَزَاءِ ؛ فَقَدْ كَانَ مَثَلًا فَذًّا فِي الصَّدْعِ[٢] بِكَلِمَةِ الْحَقِّ .

وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ أَجْزَلَ الرِّضَىٰ ؛ فَقَدْ كَانَ نَمُوذَجًا رَائِعًا فِي الِانْصِيَاعِ[٣] لِكَلِمَةِ الْحَقِّ .

وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ الْقَائِلِ :

أَقِلُّوا عَلَيْهِمْ لَا أَبَا لِأَبِيكُمُ[٤]

مِنَ اللَّوْمِ ، أَوْ سُدُّوا الْمَكَانَ الَّذِي سَدُّوا[٥] (*) .

---

(١) اغدوا عَلَىٰ أُعطياتكم : انطلقوا لأخذ حقوقكم .
(٢) الصَّدْع بكلمة الحق : الجهر بكلمة الحق .
(٣) الانصياع : الرجوع .
(٤) لا أبا لأبيكم : كلمة تستعمل للذم والمدح ، وهنا استعملت للذم .
(٥) سدُّوا المكان الَّذي سَدُّوا : قوموا مقامهم وافعلوا فعلهم .

(*) للاستزادة من أخبار أَبِي مُسْلِمٍ الْخَوْلَانِيِّ انظر :
١ - طبقات ابن سعد : ٧/ ٤٤٨.
٢ - تاريخ البخاري : ٥/ ٥٨.
٣ - المعرفة والتاريخ : ٢/ ٣٠٨، ٣٨٢.
٤ - الاستيعاب : ت/ ١٤٧٩.
٥ - تاريخ ابن عساكر : ٩/ ١٢.
٦ - أسد الغابة : ٣/ ١٢٩.
٧ - اللباب : ١/ ٣٩٥.
٨ - تذكرة الحفاظ : ١/ ٤٩.
٩ - البداية والنهاية : ٨/ ١٤٦
١٠ - الإصابة : ت/ ٦٣٠٢.
١١ - شذرات الذهب : ١/ ٧٠

سَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ
حَفِيدُ الْفَارُوقِ

« كَانَ سَالِمٌ ثِقَةً ، كَثِيرَ الْحَدِيثِ ، عَالِيًا فِي الرِّجَالِ ، وَرِعًا »

[ابْنُ سَعْدٍ]

هَا نَحْنُ أُولَاءِ فِي خِلَافَةِ الْفَارُوقِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ ...

وَهَا هِيَ ذِي مَدِينَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَعِجُّ(١) بِغَنَائِمِ الْحَرْبِ الَّتِي أَحْرَزَهَا الْمُسْلِمُونَ مِنْ أَسْلَابِ « يَزْدَجُرْدَ » آخِرِ مُلُوكِ « الْفُرْسِ » ...

فَلَقَدْ كَانَ فِيهَا مِنْ تِيجَانِ « الْأَكَاسِرَةِ » الْمُرَصَّعَةِ بِالْجَوْهَرِ ...

وَمَنَاطِقِهِمُ(٢) الْمَرْصُوفَةِ بِاللُّؤْلُؤِ ...

وَسُيُوفِهِمُ الْمُحَلَّاةِ بِالْيَاقُوتِ وَالْمَرْجَانِ ؛ مَا لَمْ تَقَعْ عَلَيْهِ عَيْنٌ مِنْ قَبْلُ ...

وَقَدْ كَانَ مَعَ هَذِهِ الْكُنُوزِ الطَّائِلَةِ الْهَائِلَةِ حَشْدٌ كَبِيرٌ مِنْ سَبَايَا(٣) « الْفُرْسِ » ...

وَكَانَ بَيْنَهُنَّ بَنَاتُ « يَزْدَجُرْدَ » الثَّلَاثُ ...

فَشَرَاهُنَّ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِثَمَنٍ جَزْلٍ(٤)، وَعَرَضَ عَلَيْهِنَّ طَائِفَةً مِنْ أَلْمَعِ شَبَابِ الْمُسْلِمِينَ.

فَاخْتَارَتْ إِحْدَاهُنَّ الْحُسَيْنَ بْنَ عَلِيٍّ سِبْطَ(٥) رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ...

وَأَنْجَبَتْ لَهُ زَيْنَ الْعَابِدِينَ(٦)...

---

(١) تعج : تقوم وتقعد.

(٢) جمع منطق ، وهو ما يشد به الوسط .

(٣) السبايا : النساء الأسيرات .

(٤) جزل : وافر كثير .

(٥) سبط الرجل : ابن بنته ، وحفيده : ابن ابنه .

(٦) زين العابدين : انظره ص ٣٣٩.

وَاخْتَارَتِ الثَّانِيَةُ مُحَمَّدَ بْنَ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ...

وَأَنْجَبَتْ لَهُ الْقَاسِمَ[1] أَحَدَ فُقَهَاءِ الْمَدِينَةِ السَّبْعَةِ.

وَاخْتَارَتِ الثَّالِثَةُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ خَلِيفَةِ الْمُسْلِمِينَ ...

وَأَنْجَبَتْ لَهُ سَالِمًا حَفِيدَ الْفَارُوقِ، وَأَشْبَهَ النَّاسِ سَمْتًا[2] بِهِ ...

فَتَعَالَوْا نَقِفْ عَلَىٰ صُوَرٍ وَضَّاءَةٍ مِنْ حَيَاةِ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَعَنْ أَبِيهِ وَعَنْ جَدِّهِ.

* * *

وُلِدَ سَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ فِي رِحَابِ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ مَثْوَىٰ[3] رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَدَارِ هِجْرَتِهِ.

وَفِي أَجْوَائِهَا الْعَبِقَةِ بِطُيُوبِ النُّبُوَّةِ، الْمُتَأَلِّقَةِ بِسَنَا الْوَحْيِ، دَرَجَ[4] وَشَبَّ ...

وَفِي كَنَفِ أَبِيهِ الْعَبَّادِ الزَّهَّادِ صَوَّامِ الْهَوَاجِرِ قَوَّامِ الْأَسْحَارِ تَرَبَّىٰ ...

وَبِأَخْلَاقِهِ الْعُمَرِيَّةِ تَخَلَّقَ ...

وَلَقَدْ رَأَىٰ فِيهِ أَبُوهُ مِنْ مَخَايِلِ[5] التُّقَىٰ، وَعَلَائِمِ الْهُدَىٰ ... وَأَبْصَرَ فِي سُلُوكِهِ مِنْ شَمَائِلِ الْإِسْلَامِ، وَأَخْلَاقِ الْقُرْآنِ فَوْقَ مَا كَانَ يَرَاهُ فِي إِخْوَتِهِ ...

فَأَحَبَّهُ حُبًّا مَلَكَ عَلَيْهِ شِغَافَ[6] قَلْبِهِ، وَخَالَطَ مِنْهُ حَبَّاتِ[7] فُؤَادِهِ، حَتَّىٰ لَامَهُ اللَّائِمُونَ فِي ذَٰلِكَ فَقَالَ:

---

(١) القاسم بن محمد بن أبي بكر: انظره ص ٣٠٣.
(٢) سَمْتًا: هيئة.
(٣) مَثْوىٰ الرسول ﷺ: مقامه ومدفنه.
(٤) دَرَجَ: نشأ وترعرع.
(٥) مخايل التُّقَىٰ: مظاهر الصلاح.
(٦) شغاف قلبه: غلاف قلبه.
(٧) حبّات فؤاده: أعماق لُبّه.

يَـلُـومُـونَـنِـي فِـي سَـالِمٍ وَأَلُـومُـهُـمْ
وَجِـلْـدَةُ بَـيْنَ الْـعَـيْنِ وَالْأَنْـفِ سَـالِمُ

وَأَقْبَلَ عَلَيْهِ يَبُثُّهُ مَا وَعَاهُ صَدْرُهُ مِنْ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ...

وَيُفَقِّهُهُ فِي دِينِ اللَّهِ ...

وَيُمَلِّيهِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ...

ثُمَّ دَفَعَ بِهِ إِلَى الْحَرَمِ الشَّرِيفِ .

* * *

وَكَانَ مَسْجِدُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا زَالَ مَعْمُورًا بِطَائِفَةٍ كَبِيرَةٍ مِنْ جِلَّةِ الصَّحَابَةِ .

فَحَيْثُمَا أَلَمَّ الْفَتَى بِرُكْنٍ مِنْ أَرْكَانِهِ ؛ أَلْفَى أَمَامَهُ نَجْمًا فِيهِ أَلَقٌ[1] مِنْ سَنَا[2] النُّبُوَّةِ ، وَعَبَقٌ مِنْ طُيُوبِ الرِّسَالَةِ الْغَرَّاءِ .

وَأَيْنَمَا رَمَى بِطَرْفِهِ أَوْ أَلْقَى بِسَمْعِهِ ؛ أَبْصَرَ خَيْرًا وَسَمِعَ بِرًّا .

وَبِذَلِكَ أُتِيحَ لَهُ أَنْ يَأْخُذَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْ جِلَّةِ الصَّحَابَةِ عَلَى رَأْسِهِمْ أَبُو أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيُّ ، وَأَبُو هُرَيْرَةَ[3]...

وَأَبُو رَافِعٍ ، وَأَبُو لُبَابَةَ ، وَزَيْدُ بْنُ الْخَطَّابِ .

وَذَلِكَ بِالْإِضَافَةِ إِلَى وَالِدِهِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ .

فَمَا لَبِثَ أَنْ غَدَا عَلَمًا مِنْ أَعْلَامِ الْمُسْلِمِينَ ...

---

(١) ألق : نور وضياء.
(٢) من سنا النبوة : من نور النبوة.
(٣) أبو أيوب ، وأبو هريرة : انظرهما في كتاب «صور من حياة الصحابة» للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة الشرعية.

وَسَيِّدًا جَلِيلًا مِنْ سَادَةِ التَّابِعِينَ...

وَأَحَدَ فُقَهَاءِ الْمَدِينَةِ الَّذِينَ يَفْزَعُ[١] إِلَيْهِمُ الْمُسْلِمُونَ فِي دِينِهِمْ...

وَيَأْخُذُونَ عَنْهُمْ شَرِيعَةَ رَبِّهِمْ...

وَيَرْجِعُونَ إِلَيْهِمْ فِي مُعْضِلَاتِ[٢] الدِّينِ وَالدُّنْيَا.

وَكَانَ الْوُلَاةُ يَأْمُرُونَ قُضَاتَهُمْ إِذَا عُرِضَتْ عَلَيْهِمُ الْقَضَايَا أَنْ يَدْفَعُوا بِهَا إِلَيْهِمْ.

فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْمَسْأَلَةُ اجْتَمَعُوا جَمِيعًا وَنَظَرُوا فِيهَا، ثُمَّ لَا يَقْضِي الْقُضَاةُ إِلَّا بِرَأْيِهِمْ.

* * *

وَكَانَ أَسْعَدَ الْوُلَاةِ حَظًّا، وَأَطْيَبَهُمْ أُحْدُوثَةً، وَأَقْرَبَهُمْ إِلَىٰ قُلُوبِ النَّاسِ، وَأَوْثَقَهُمْ عِنْدَ الْخُلَفَاءِ؛ مَنْ يَأْخُذُ بِمَشُورَةِ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ وَيَلْتَزِمُ بِتَوْجِيهِهِ.

أَمَّا الَّذِينَ يُخَالِفُونَ أَمْرَهُ، فَقَدْ كَانَتِ الْمَدِينَةُ تَنْبُو[٣] بِهِمْ، وَلَا تَتَحَمَّلُ وَلَايَتَهُمْ.

مِنْ ذَلِكَ أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَٰنِ بْنَ الضَّحَّاكِ وَلِيَ الْمَدِينَةَ فِي خِلَافَةِ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ.

وَكَانَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ الْحُسَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَنَضَّرَ فِي الْجَنَّةِ رُوحَهُ؛ قَدْ تَرَمَّلَتْ، وَانْقَطَعَتْ إِلَىٰ أَوْلَادِهَا.

فَتَقَدَّمَ إِلَيْهَا ابْنُ الضَّحَّاكِ وَخَطَبَهَا لِنَفْسِهِ.

---

(١) يفزع إليهم المسلمون: يلجأ إليهم المسلمون.
(٢) المعضلات: المشكلات.
(٣) تنبو بهم: تضيق بهم ولا يجدون فيها قرارًا.

فَقَالَتْ : وَاللَّهِ مَا أَبْغِي الزَّوَاجَ ، وَلَقَدْ قَعَدْتُ عَلَىٰ بَنِيَّ ، وَوَقَفْتُ نَفْسِي عَلَيْهِمْ .

فَجَعَلَ يُلِحُّ عَلَيْهَا وَهْيَ تَحْتَالُ فِي الِاعْتِذَارِ إِلَيْهِ ؛ مِنْ غَيْرِ مُخَاشَنَةٍ خَوْفًا مِنْ شَرِّهِ .

فَلَمَّا وَجَدَهَا تَأْبَاهُ ، قَالَ لَهَا :

وَاللَّهِ لَئِنْ لَمْ تَرْضَيْنِي لَكِ زَوْجًا لَآخُذَنَّ أَكْبَرَ بَنِيكِ ، وَلَأَجْلِدَنَّهُ بِتُهْمَةِ شُرْبِ الْخَمْرِ .

فَاسْتَشَارَتْ سَالِمَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ فِي أَمْرِهَا ؛ فَأَشَارَ عَلَيْهَا بِأَنْ تَكْتُبَ لِلْخَلِيفَةِ كِتَابًا تَشْكُو فِيهِ الْوَالِيَ ، وَتَذْكُرُ قَرَابَتَهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ، وَرَحِمَهَا[1] فِي آلِ الْبَيْتِ .

فَكَتَبَتِ الْكِتَابَ ، وَأَنْفَذَتْهُ[2] مَعَ رَسُولٍ لَهَا إِلَىٰ « دِمَشْقَ » .

* * *

مَا كَادَ الرَّسُولُ يَمْضِي بِالْكِتَابِ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ الْخَلِيفَةِ إِلَىٰ ابْنِ هُرْمُزَ عَامِلِهِ عَلَىٰ دِيوَانِ الْمَالِ فِي الْمَدِينَةِ بِأَنْ يَقْدَمَ عَلَيْهِ لِيَرْفَعَ إِلَيْهِ حِسَابَهُ .

فَقَامَ ابْنُ هُرْمُزَ يُوَدِّعُ أَصْحَابَ الْحُقُوقِ عَلَيْهِ ؛ فَاسْتَأْذَنَ عَلَىٰ فَاطِمَةَ بِنْتِ الْحُسَيْنِ مُوَدِّعًا وَقَالَ :

إِنِّي مَاضٍ إِلَىٰ « دِمَشْقَ » فَهَلْ لَكِ مِنْ حَاجَةٍ ؟ .

فَقَالَتْ : نَعَمْ ...

تُخْبِرُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَلْقَىٰ مِنِ ابْنِ الضَّحَّاكِ وَمَا يَتَعَرَّضُ بِهِ إِلَيَّ ...

---

(١) رحمها : صلتها .
(٢) أنفذته : أوصلته .

وَأَنَّهُ لَا يَرْعَىٰ حُرْمَةً لِعُلَمَاءِ الْمَدِينَةِ، وَخَاصَّةً سَالِمَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ.

فَلَامَ ابْنُ هُرْمُزَ نَفْسَهُ عَلَىٰ زِيَارَتِهَا؛ إِذْ مَا كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَحْمِلَ شَكْوَاهَا مِنَ ابْنِ الضَّحَّاكِ إِلَىٰ الْخَلِيفَةِ.

* * *

وَصَلَ ابْنُ هُرْمُزَ إِلَىٰ «دِمَشْقَ» فِي نَفْسِ الْيَوْمِ الَّذِي وَصَلَ فِيهِ الرَّسُولُ الَّذِي يَحْمِلُ كِتَابَ فَاطِمَةَ بِنْتِ الْحُسَيْنِ.

فَلَمَّا دَخَلَ عَلَىٰ الْخَلِيفَةِ، اسْتَخْبَرَهُ عَنْ أَحْوَالِ الْمَدِينَةِ، وَسَأَلَهُ عَنْ سَالِمِ ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ وَصَحْبِهِ مِنَ الْفُقَهَاءِ، وَقَالَ لَهُ:

هَلْ هُنَاكَ أَمْرٌ ذُو شَأْنٍ[1] جَدِيرٌ بِأَنْ يُعْلَمَ، أَوْ خَبَرٌ ذُو خَطَرٍ[2] حَرِيٌّ بِأَنْ يُذْكَرَ؟.

فَلَمْ يَذْكُرْ لَهُ شَيْئًا مِنْ قِصَّةِ فَاطِمَةَ بِنْتِ الْحُسَيْنِ.

وَلَمْ يُشِرْ بِشَيْءٍ إِلَىٰ مَوْقِفِ الْوَالِي مِنْ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ.

وَفِيمَا هُوَ جَالِسٌ عِنْدَهُ يَرْفَعُ لَهُ حِسَابَهُ، إِذْ دَخَلَ الْحَاجِبُ وَقَالَ:

أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ...

إِنَّ بِالْبَابِ رَسُولَ فَاطِمَةَ بِنْتِ الْحُسَيْنِ.

فَتَغَيَّرَ وَجْهُ ابْنِ هُرْمُزَ وَقَالَ: أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَ الْأَمِيرِ إِنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ الْحُسَيْنِ حَمَّلَتْنِي رِسَالَةً إِلَيْكَ، وَأَخْبَرَهُ الْخَبَرَ...

فَمَا إِنْ سَمِعَ الْخَلِيفَةُ مَقَالَتَهُ حَتَّىٰ نَزَلَ عَنْ سَرِيرِهِ وَقَالَ:

لَا أُمَّ لَكَ...

(١) ذو شأنٍ: ذو أهمية. (٢) ذو خطرٍ: ذو شأن وقيمة.

أَلَمْ أَسْأَلْكَ عَنْ شُؤُونِ الْمَدِينَةِ وَأَخْبَارِهَا ؟! ...

أَيَكُونُ لَدَيْكَ مِثْلُ هَٰذَا الْخَبَرِ وَتَكْتُمُهُ عَنِّي ؟!! .

فَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ بِالنِّسْيَانِ .

ثُمَّ أَذِنَ لِلرَّسُولِ فَأُدْخِلَ عَلَيْهِ ، فَأَخَذَ الْكِتَابَ مِنْهُ وَفَضَّهُ ، وَجَعَلَ يَقْرَؤُهُ وَالشَّرَرُ يَتَطَايَرُ مِنْ عَيْنَيْهِ ، وَأَخَذَ يَضْرِبُ الْأَرْضَ بِخَيْزُرَانٍ كَانَ فِي يَدِهِ وَهُوَ يَقُولُ :

لَقَدِ اجْتَرَأَ ابْنُ الضَّحَّاكِ عَلَىٰ آلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ...

وَلَمْ يُصِخْ[1] لِنُصْحِ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ فِيهِمْ !!! ...

هَلْ مِنْ رَجُلٍ يُسْمِعُنِي صَوْتَهُ وَهُوَ يُعَذَّبُ فِي الْمَدِينَةِ ، وَأَنَا عَلَىٰ فِرَاشِي هَٰذَا فِي « دِمَشْقَ » ؟ [يَعْنِي صَوْتَ ابْنِ الضَّحَّاكِ] .

فَقِيلَ لَهُ : نَعَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ...

لَيْسَ لِلْمَدِينَةِ إِلَّا عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ بِشْرٍ النَّضْرِيُّ ...

فَوَلِّهِ إِيَّاهَا ... وَهُوَ مُقِيمٌ الْآنَ فِي « الطَّائِفِ » .

فَقَالَ : نَعَمْ ... وَاللَّهِ نَعَمْ ... إِنَّهُ لَهَا ...

ثُمَّ دَعَا بِقِرْطَاسٍ وَكَتَبَ بِيَدِهِ :

مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ إِلَىٰ عَبْدِ الْوَاحِدِ بْنِ بِشْرٍ النَّضْرِيِّ .

السَّلَامُ عَلَيْكَ ...

أَمَّا بَعْدُ ... فَإِنِّي قَدْ وَلَّيْتُكَ الْمَدِينَةَ ، فَإِذَا جَاءَكَ كِتَابِي هَٰذَا فَتَوَجَّهْ إِلَيْهَا ، وَاعْزِلْ عَنْهَا ابْنَ الضَّحَّاكِ ...

---

(١) لم يُصِخْ : لم يستمع ولم يستجب .

وَافْرِضْ عَلَيْهِ غَرَامَةً مِقْدَارُهَا أَرْبَعُونَ أَلْفَ دِينَارٍ ...

وَعَذِّبْهُ حَتَّىٰ أَسْمَعَ صَوْتَهُ مِنَ الْمَدِينَةِ .

* * *

أَخَذَ صَاحِبُ الْبَرِيدِ الْكِتَابَ ، وَمَضَىٰ يَحُثُّ[1] الْخُطَا نَحْوَ الطَّائِفِ عَنْ طَرِيقِ الْمَدِينَةِ .

فَلَمَّا بَلَغَ الْمَدِينَةَ لَمْ يَدْخُلْ عَلَىٰ وَالِيهَا ابْنِ الضَّحَّاكِ وَلَمْ يُسَلِّمْ عَلَيْهِ ؛ فَأَوْجَسَ[2] الْوَالِي خِيفَةً فِي نَفْسِهِ .

وَأَرْسَلَ إِلَيْهِ وَدَعَاهُ إِلَىٰ بَيْتِهِ ، وَسَأَلَهُ عَنْ سَبَبِ قُدُومِهِ فَلَمْ يَبُحْ لَهُ بِشَيْءٍ ؛ فَرَفَعَ ابْنُ الضَّحَّاكِ طَرَفَ فِرَاشِهِ وَقَالَ :

انْظُرْ ... فَنَظَرَ فَإِذَا كِيسٌ قَدْ مُلِئَ دَنَانِيرَ .

فَقَالَ : هَٰذِهِ أَلْفُ دِينَارٍ ...

وَلَكَ عَلَيَّ عَهْدُ اللَّهِ وَمِيثَاقُهُ إِنْ أَنْتَ أَخْبَرْتَنِي عَنْ وِجْهَتِكَ[3] وَمَا فِي يَدِكَ لَأَدْفَعَنَّهَا إِلَيْكَ ، وَلَأَكْتُمَنَّ ذَٰلِكَ ...

فَأَخْبَرَهُ ... فَدَفَعَ إِلَيْهِ الْمَالَ ، وَقَالَ لَهُ :

تَرَيَّثْ هُنَا ثَلَاثَ لَيَالٍ حَتَّىٰ أَصِلَ إِلَىٰ « دِمَشْقَ » ، ثُمَّ امْضِ إِلَىٰ مَا أُمِرْتَ بِهِ ...

* * *

زَمَّ[4] ابْنُ الضَّحَّاكِ رَكَائِبَهُ ، وَغَادَرَ الْمَدِينَةَ لِتَوِّهِ ، وَمَضَىٰ يَحُثُّ الْمَطَايَا نَحْوَ « دِمَشْقَ » .

---

(١) يحث الخطا : يمضي مسرعًا .
(٢) أوجس خيفة : دبَّ فيه الفزع .
(٣) وجهتك : اتجاهك ومقصدك .
(٤) زمَّ ركائبه : شدَّ علَى راحلته .

فَلَمَّا بَلَغَهَا دَخَلَ عَلَىٰ أَخِي الْخَلِيفَةِ مَسْلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ، وَكَانَ سَيِّدًا أَرْيَحِيًّا[1] صَاحِبَ نَجْدَةٍ...

فَلَمَّا صَارَ بَيْنَ يَدَيْهِ قَالَ لَهُ:

أَنَا فِي جِوَارِكَ أَيُّهَا الأَمِيرُ.

فَقَالَ: أَبْشِرْ بِخَيْرٍ... وَمَا شَأْنُكَ ؟!.

فَقَالَ: إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ نَاقِمٌ عَلَيَّ لِهَنَةٍ[2] بَدَرَتْ مِنِّي.

فَغَدَا مَسْلَمَةُ عَلَىٰ يَزِيدَ وَقَالَ: إِنَّ لِي لَدَىٰ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ حَاجَةً.

فَقَالَ يَزِيدُ: كُلُّ حَاجَةٍ لَكَ مَقْضِيَّةٌ مَا لَمْ تَكُنْ فِي ابْنِ الضَّحَّاكِ.

فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا جِئْتُكَ إِلَّا مِنْ أَجْلِهِ.

فَقَالَ: وَاللَّهِ لَا أُعْفِيهِ أَبَدًا...

فَقَالَ: وَمَا ذَنْبُهُ ؟!.

فَقَالَ: لَقَدْ تَعَرَّضَ لِفَاطِمَةَ بِنْتِ الْحُسَيْنِ وَهَدَّدَهَا وَتَوَعَّدَهَا وَأَرْهَقَهَا...

وَلَمْ يُصِخْ لِنُصْحِ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ فِي أَمْرِهَا؛ فَهَبَّ شُعَرَاءُ الْمَدِينَةِ جَمِيعًا يَهْجُونَهُ... وَطَفِقَ صُلَحَاؤُهَا وعُلَمَاؤُهَا طُرًّا[3] يَعِيبُونَهُ...

فَقَالَ مَسْلَمَةُ:

أَنْتَ وَشَأْنُكَ مَعَهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ.

فَقَالَ يَزِيدُ:

(١) أريحيًا: سامي الخلق وافر المعروف.
(٢) لِهَنَة: لزلَّة.
(٣) طُرًّا: جميعًا.

مُرْهُ أَنْ يَعُودَ إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُنَفِّذَ وَالِيهَا الْجَدِيدُ أَمْرِي فِيهِ ...

وَيَجْعَلَهُ عِبْرَةً[1] لِغَيْرِهِ مِنَ الْوُلَاةِ ...

* * *

فَرِحَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ أَعْظَمَ الْفَرَحِ بِوَالِيهِمُ الْجَدِيدِ .

وَسَرَّهُمْ حَزْمُهُ فِي تَنْفِيذِ أَمْرِ الْخَلِيفَةِ بِابْنِ الضَّحَّاكِ .

وَازْدَادُوا تَعَلُّقًا بِهِ حِينَ وَجَدُوهُ يَذْهَبُ مَذَاهِبَ الْخَيْرِ ، وَلَا يَقْطَعُ أَمْرًا مِنْ أُمُورِهِمْ إِلَّا إِذَا اسْتَشَارَ فِيهِ الْقَاسِمَ بْنَ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ ، وَسَالِمَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ .

فَمَرْحَى لِخَلِيفَةِ الْمُسْلِمِينَ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ...

وَتَحِلَّةً لِلْإِسْلَامِ الْعَظِيمِ الَّذِي أَبْدَعَ هَذِهِ الْمُثُلَ ، وَصَنَعَ أُولَئِكَ الرِّجَالَ ...

وَإِلَى لِقَاءٍ آخَرَ مَعَ التَّابِعِيِّ الْجَلِيلِ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ .

(١) عِبْرَة : عظة .

سَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنُ عُمَرَ
العَالِمُ العَامِلُ

«لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ فِي زَمَانِ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللهِ أَشْبَهَ مِنْهُ بِمَنْ مَضَىٰ مِنَ الصَّالِحِينَ فِي الزُّهْدِ ، وَالْفَضْلِ ، وَالْعَيْشِ»

[الْإِمَامُ مَالِكٌ]

كَانَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ طَائِفَةٌ مِنَ الْأَبْنَاءِ ، لَكِنَّ ابْنَهُ عَبْدَ اللَّهِ كَانَ أَشَدَّهُمْ شَبَهًا بِهِ ...

وَكَانَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ عَدَدٌ مِنَ الْأَبْنَاءِ أَكْثَرُ مِمَّا كَانَ لِأَبِيهِ ... لَكِنَّ ابْنَهُ سَالِمًا كَانَ أَشَدَّهُمْ شَبَهًا بِهِ .

فَتَعَالَوْا نُتَابِعْ قِصَّةَ حَيَاةِ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ، حَفِيدِ الْفَارُوقِ ، وَأَشْبَهِ النَّاسِ بِهِ خُلُقًا ، وَخِلْقَةً ، وَدِينًا ، وَسَمْتًا[١] .

* * *

عَاشَ سَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ فِي رِحَابِ «طَيْبَةَ»[٢] الْمُطَيَّبَةِ ...

وَكَانَتْ «طَيْبَةُ» إِذْ ذَاكَ تَرْفُلُ فِي أَثْوَابٍ مِنَ الْغِنَىٰ وَالنِّعْمَةِ لَمْ تَشْهَدْ لَهَا مَثِيلًا مِنْ قَبْلُ .

فَقَدْ كَانَ رِزْقُهَا يَأْتِيهَا رَغَدًا[٣] مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ، وَكَانَ خُلَفَاءُ بَنِي «أُمَيَّةَ» يُتِيحُونَ لَهَا مِنْ أَسْبَابِ الثَّرَاءِ مَا لَمْ يَخْطُرْ بِبَالٍ .

لَكِنَّ سَالِمَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ لَمْ يُقْبِلْ عَلَىٰ الدُّنْيَا كَمَا أَقْبَلَ عَلَيْهَا غَيْرُهُ ، وَلَمْ

---

(١) سمتًا : هيئة وسلوكًا .

(٢) طيبة : المدينة المنورة .

(٣) رغدًا : كثيرًا وفيرًا .

يَحْفَلْ بِعَرَضِهَا الْفَانِي كَمَا حَفِلَ بِهِ سِوَاهُ ؛ وَإِنَّمَا زَهِدَ بِمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ رَغْبَةً بِمَا عِنْدَ اللَّهِ ، وَأَعْرَضَ عَنِ الْعَاجِلَةِ رَجَاءَ الْفَوْزِ بِالْآجِلَةِ(١).

وَلَقَدْ جَرَّبَ خُلَفَاءُ بَنِي « أُمَيَّةَ » أَنْ يُغْدِقُوا(٢) عَلَيْهِ الْخَيْرَ كَمَا أَغْدَقُوهُ عَلَىٰ غَيْرِهِ ؛ فَوَجَدُوهُ زَاهِدًا بِمَا فِي أَيْدِيهِمْ ... مُسْتَصْغِرًا لِلدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ...

* * *

فَفِي ذَاتِ سَنَةٍ قَدِمَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ مَكَّةَ حَاجًّا ... فَلَمَّا أَخَذَ يَطُوفُ طَوَافَ الْقُدُومِ ؛ أَبْصَرَ سَالِمَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ يَجْلِسُ قُبَالَةَ الْكَعْبَةِ فِي خُضُوعٍ ... وَيُحَرِّكُ لِسَانَهُ بِالْقُرْآنِ فِي تَبَتُّلٍ(٣) وَخُشُوعٍ ...

وَعَبَرَاتُهُ تَسُحُّ(٤) عَلَىٰ خَدَّيْهِ سَحًّا ، حَتَّىٰ لَكَأَنَّ وَرَاءَ عَيْنَيْهِ بَحْرًا مِنَ الدُّمُوعِ .

فَلَمَّا فَرَغَ الْخَلِيفَةُ مِنْ طَوَافِهِ ، وَصَلَّىٰ رَكْعَتَيْنِ سُنَّةَ الطَّوَافِ ؛ تَوَجَّهَ إِلَىٰ حَيْثُ يَجْلِسُ سَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ .

فَأَفْسَحَ النَّاسُ لَهُ الطَّرِيقَ حَتَّىٰ أَخَذَ مَكَانَهُ بِجَانِبِهِ ، وَكَادَ يَمَسُّ بِرُكْبَتِهِ رُكْبَتَهُ .

فَلَمْ يَتَنَبَّهْ لَهُ سَالِمٌ وَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِ ، لِأَنَّهُ كَانَ مُسْتَغْرِقًا بِمَا هُوَ فِيهِ ، مَشْغُولًا بِذِكْرِ اللَّهِ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ ... وَطَفِقَ(٥) الْخَلِيفَةُ يَرْقُبُ سَالِمًا بِطَرْفٍ خَفِيٍّ ...

وَيَلْتَمِسُ فُرْصَةً يَتَوَقَّفُ فِيهَا عَنِ التِّلَاوَةِ وَيَكُفُّ عَنِ النَّحِيبِ(٦) حَتَّىٰ يُكَلِّمَهُ .

فَلَمَّا وَاتَتْهُ الْفُرْصَةُ مَالَ عَلَيْهِ ، وَقَالَ : السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا أَبَا عُمَرَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ .

---

(١) الْآجلة : الآخرة ، والعاجلة : الدّنيا .
(٢) أن يغدقوا عليه الخير : أن يغرقوه بالمال .
(٣) التَّبتُّل : الانقطاع عن الدّنيا .
(٤) تسح سحًا : تنصب انصبابًا .
(٥) طفق : أخذ .
(٦) النّحيب : شدّة البكاء .

فَقَالَ: وَعَلَيْكَ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَبَرَكَاتُهُ.

فَقَالَ الْخَلِيفَةُ بِصَوْتٍ خَفِيضٍ: سَلْنِي حَاجَةً أَقْضِهَا لَكَ يَا أَبَا عُمَرَ.

فَلَمْ يُجِبْهُ سَالِمٌ بِشَيْءٍ.

فَظَنَّ الْخَلِيفَةُ أَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْهُ، فَمَالَ عَلَيْهِ أَكْثَرَ مِنْ ذِي قَبْلٍ وَقَالَ:

رَغِبْتُ بِأَنْ تَسْأَلَنِي حَاجَةً لِأَقْضِيَهَا لَكَ.

فَقَالَ سَالِمٌ:

وَاللَّهِ إِنِّي لَأَسْتَحِي أَنْ أَكُونَ فِي بَيْتِ اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ؛ ثُمَّ أَسْأَلَ أَحَدًا غَيْرَهُ.

فَخَجِلَ الْخَلِيفَةُ وَسَكَتَ، لَكِنَّهُ ظَلَّ جَالِسًا فِي مَكَانِهِ.

فَلَمَّا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ، نَهَضَ سَالِمٌ يُرِيدُ الْمُضِيَّ إِلَىٰ رَحْلِهِ.

فَلَحِقَتْ بِهِ جُمُوعُ النَّاسِ...

هَٰذَا يَسْأَلُهُ عَنْ حَدِيثٍ مِنْ أَحَادِيثِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ.

وَذَاكَ يَسْتَفْتِيهِ فِي أَمْرٍ مِنْ أُمُورِ الدِّينِ...

وَثَالِثٌ يَسْتَنْصِحُهُ فِي شَأْنٍ مِنْ شُؤُونِ الدُّنْيَا...

وَرَابِعٌ يَطْلُبُ مِنْهُ الدُّعَاءَ...

وَكَانَ فِي جُمْلَةِ مَنْ لَحِقَ بِهِ خَلِيفَةُ الْمُسْلِمِينَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ، فَلَمَّا رَآهُ النَّاسُ؛ وَسَّعُوا لَهُ حَتَّىٰ حَاذَىٰ مَنْكِبُهُ مَنْكِبَ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ... فَمَالَ عَلَيْهِ وَهَمَسَ فِي أُذُنِهِ قَائِلًا:

هَا نَحْنُ أُولَاءِ قَدْ غَدَوْنَا خَارِجَ الْمَسْجِدِ، فَسَلْنِي حَاجَةً أَقْضِهَا لَكَ.

فَقَالَ سَالِمٌ: مِنْ حَوَائِجِ الدُّنْيَا أَمْ مِنْ حَوَائِجِ الْآخِرَةِ؟.

فَارْتَبَكَ الْخَلِيفَةُ وَقَالَ : بَلْ مِنْ حَوَائِجِ الدُّنْيَا ...

فَقَالَ لَهُ سَالِمٌ : إِنَّنِي لَمْ أَطْلُبْ حَوَائِجَ الدُّنْيَا مِمَّنْ يَمْلِكُهَا ؛ فَكَيْفَ أَطْلُبُهَا مِمَّنْ لَا يَمْلِكُهَا ؟.

فَخَجِلَ الْخَلِيفَةُ مِنْهُ وَحَيَّاهُ ، وَانْصَرَفَ عَنْهُ وَهُوَ يَقُولُ :

مَا أَعَزَّكُمْ آلَ الْخَطَّابِ بِالزَّهَادَةِ وَالتُّقَىٰ ؟ ...

وَمَا أَغْنَاكُمْ بِاللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ !! ...

بَارَكَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ مِنْ آلِ بَيْتٍ .

* * *

وَفِي السَّنَةِ الَّتِي قَبْلَهَا حَجَّ الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ .

فَلَمَّا أَفَاضَ[1] النَّاسُ مِنْ « عَرَفَاتٍ » ، لَقِيَ الْخَلِيفَةُ سَالِمَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ فِي « الْمُزْدَلِفَةِ » وَهُوَ مُحْرِمٌ ؛ فَحَيَّاهُ وَبَيَّاهُ[2]، ثُمَّ نَظَرَ إِلَىٰ جَسَدِهِ الْمَكْشُوفِ فَوَجَدَهُ تَامَّ الْبِنْيَةِ ، بَادِيَ الْقُوَّةِ ، كَأَنَّهُ بِنَاءٌ مَبْنِيٌّ ؛ فَقَالَ لَهُ :

إِنَّكَ لَحَسَنُ الْجِسْمِ يَا أَبَا عُمَرَ ...

فَمَا أَكْثَرُ طَعَامِكَ ؟! .

فَقَالَ : الْخُبْزُ وَالزَّيْتُ ...

وَإِذَا وَجَدْتُ اللَّحْمَ ـ أَحْيَانًا ـ أَكَلْتُهُ .

فَقَالَ : الْخُبْزُ وَالزَّيْتُ ؟! .

فَقَالَ : نَعَمْ .

فَقَالَ : أَوَ تَشْتَهِيهِ ؟! .

---

(١) أفاض النَّاس : انطلق النَّاس.

(٢) بياه : دعا له قائلًا : رفع الله مقامك.

فَقَالَ : إِذَا لَمْ أَشْتَهِهِ أَتْرُكُهُ حَتَّىٰ أَجُوعَ فَأَشْتَهِيَهُ .

* * *

وَكَمَا أَشْبَهَ سَالِمٌ جَدَّهُ الْفَارُوقَ فِي الْإِعْرَاضِ عَنِ الدُّنْيَا وَالزَّهَادَةِ[1] بِعَرَضِهَا الْفَانِي ، فَقَدْ أَشْبَهَهُ أَيْضًا فِي الْجَهْرِ بِكَلِمَةِ الْحَقِّ مَهْمَا كَانَتْ ثَقِيلَةَ الْوَطْأَةِ شَدِيدَةَ التَّبِعَاتِ ...

مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ دَخَلَ عَلَىٰ الْحَجَّاجِ ذَاتَ مَرَّةٍ فِي حَاجَةٍ مِنْ حَوَائِجِ الْمُسْلِمِينَ .

فَرَحَّبَ بِهِ الْحَجَّاجُ وَأَدْنَىٰ[2] مَجْلِسَهُ وَبَالَغَ فِي إِكْرَامِهِ ...

وَفِيمَا هُمَا كَذَلِكَ ؛ إِذْ أُتِيَ الْحَجَّاجُ بِطَائِفَةٍ مِنَ الرِّجَالِ ؛ شُعْثِ[3] الشُّعُورِ ، غُبْرِ الْأَجْسَامِ ، صُفْرِ الْوُجُوهِ ، مُقَرَّنِينَ[4] فِي الْأَصْفَادِ .

فَالْتَفَتَ الْحَجَّاجُ إِلَىٰ سَالِمٍ وَقَالَ :

هَؤُلَاءِ بُغَاةٌ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ؛ مُسْتَبِيحُونَ لِمَا حَرَّمَ اللَّهُ مِنَ الدِّمَاءِ .

ثُمَّ أَعْطَاهُ سَيْفَهُ ، وَأَشَارَ إِلَىٰ أَوَّلِهِمْ وَقَالَ :

عَلَيْكَ بِهِ ... فَقُمْ إِلَيْهِ وَاضْرِبْ عُنُقَهُ ...

فَأَخَذَ سَالِمٌ السَّيْفَ مِنْ يَدِ الْحَجَّاجِ ، وَمَضَىٰ نَحْوَ الرَّجُلِ ... وَقَدْ شَخَصَتْ[5] أَبْصَارُ الْقَوْمِ نَحْوَهُ تَنْظُرُ مَاذَا يَفْعَلُ ؟! .

فَلَمَّا وَقَفَ عَلَىٰ الرَّجُلِ قَالَ لَهُ : أَمُسْلِمٌ أَنْتَ ؟ .

فَقَالَ : نَعَمْ ...

وَلَكِنْ مَا أَنْتَ وَهَذَا السُّؤَالُ ؟ ... اِمْضِ لِإِنْفَاذِ مَا أُمِرْتَ بِهِ .

---

(١) الزَّهادة : الزّهد .

(٢) أدنىٰ مجلسه : قرّب مجلسه منه توقيرًا له وإكرامًا .

(٣) شُعْثِ الشُّعور : متلبّدي الشّعور .

(٤) مقرنين في الأصفاد : مقيدين بالحديد .

(٥) شخصت : نظرت .

فَقَالَ لَهُ سَالِمٌ: وَهَلْ صَلَّيْتَ الصُّبْحَ ؟.

فَقَالَ الرَّجُلُ: قُلْتُ لَكَ إِنِّي مُسْلِمٌ، ثُمَّ تَسْأَلُنِي: إِنْ كُنْتُ صَلَّيْتُ الصُّبْحَ !! ... وَهَلْ تَظُنُّ أَنَّ هُنَاكَ مُسْلِمًا لَا يُصَلِّي ؟.

فَقَالَ سَالِمٌ: أَسْأَلُكَ أَصَلَّيْتَ صُبْحَ هَٰذَا الْيَوْمِ ؟.

فَقَالَ الرَّجُلُ: هَدَاكَ اللَّهُ، قُلْتُ لَكَ نَعَمْ ...

وَسَأَلْتُكَ أَنْ تُنَفِّذَ مَا أَمَرَكَ بِهِ هَٰذَا الظَّالِمُ، وَإِلَّا عَرَّضْتَ نَفْسَكَ لِسَخَطِهِ.

فَرَجَعَ سَالِمٌ إِلَىٰ الْحَجَّاجِ، وَرَمَىٰ السَّيْفَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَقَالَ:

إِنَّ الرَّجُلَ يُقِرُّ بِأَنَّهُ مُسْلِمٌ، وَيَقُولُ: إِنَّهُ صَلَّىٰ صُبْحَ هَٰذَا الْيَوْمِ، وَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (مَنْ صَلَّىٰ صَلَاةَ الصُّبْحِ فَهُوَ فِي ذِمَّةِ[1] اللَّهِ).

وَإِنِّي لَا أَقْتُلُ رَجُلًا دَخَلَ فِي ذِمَّةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

فَقَالَ لَهُ الْحَجَّاجُ مُغْضَبًا: إِنَّنَا لَا نَقْتُلُهُ عَلَىٰ تَرْكِ صَلَاةِ الصُّبْحِ ...

وَإِنَّمَا نَقْتُلُهُ لِأَنَّهُ مِمَّنْ أَعَانَ عَلَىٰ قَتْلِ الْخَلِيفَةِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ[2].

فَقَالَ لَهُ سَالِمٌ: إِنَّ فِي النَّاسِ مَنْ هُوَ أَوْلَىٰ مِنِّي وَمِنْكَ بِدَمِ عُثْمَانَ.

فَسَكَتَ الْحَجَّاجُ، وَلَمْ يُحِرْ[3] جَوَابًا.

ثُمَّ إِنَّ أَحَدَ شُهُودِ الْمَجْلِسِ قَدِمَ عَلَىٰ الْمَدِينَةِ وَأَخْبَرَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ بِمَا طَلَبَهُ الْحَجَّاجُ مِنِ ابْنِهِ سَالِمٍ.

فَلَمْ يَتَرَيَّثْ[4] حَتَّىٰ يَسْمَعَ بَقِيَّةَ الْخَبَرِ ...

---

(١) ذِمَّة اللَّهِ: حفظ اللَّه.

(٢) عثمان بن عفان: انظره في كتاب «صور من حياة الصحابة» للمؤلف، الناشر دار الأدب الإسلامي، الطبعة الشرعية.

(٣) لم يُحِرْ جوابًا: لم يردّ جوابًا.

(٤) لم يتريَّث: لم ينتظر.

وَإِنَّمَا بَادَرَ[1] مُحَدِّثَهُ قَائِلًا : وَمَا صَنَعَ سَالِمٌ بِأَمْرِ الْحَجَّاجِ ؟ .

فَقَالَ لَهُ : صَنَعَ كَذَا وَكَذَا .

فَسُرِّيَ[2] عَنْهُ ، وَقَالَ : كَيِّسٌ كَيِّسٌ[3]... عَاقِلٌ عَاقِلٌ ...

* * *

وَلَمَّا آلَتِ الْخِلَافَةُ إِلَىٰ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ[4] كَتَبَ إِلَىٰ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ : أَمَّا بَعْدُ ... فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ ابْتَلَانِي بِمَا ابْتَلَانِي بِهِ مِنْ وَلَايَةِ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ عَنْ غَيْرِ مَشُورَةٍ مِنِّي وَلَا طَلَبٍ .

فَأَسْأَلُ اللَّهَ الَّذِي ابْتَلَانِي بِهَٰذَا الْأَمْرِ أَنْ يُعِينَنِي عَلَيْهِ .

فَإِذَا جَاءَكَ كِتَابِي هَٰذَا ؛ فَابْعَثْ لِي بِكُتُبِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ، وَأَقْضِيَتِهِ ، وَسِيرَتِهِ ... فَإِنِّي عَازِمٌ عَلَىٰ أَنْ أَتَّبِعَ سِيرَتَهُ ...

وَأَسِيرَ عَلَىٰ نَهْجِهِ إِنْ أَعَانَنِي اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ ... وَالسَّلَامُ .

فَكَتَبَ إِلَيْهِ سَالِمٌ يَقُولُ : أَمَّا بَعْدُ ... فَقَدْ جَاءَنِي كِتَابُكَ الَّذِي تَذْكُرُ فِيهِ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ ابْتَلَاكَ بِإِمْرَةِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ غَيْرِ طَلَبٍ مِنْكَ وَلَا مَشُورَةٍ ... وَأَنَّكَ تُرِيدُ أَنْ تَسِيرَ بِسِيرَةِ عُمَرَ ...

فَلَا يَفُتْكَ أَنَّكَ فِي زَمَانٍ غَيْرِ زَمَانِ عُمَرَ ...

وَأَنَّهُ لَيْسَ فِي رِجَالِكَ مَنْ يُمَاثِلُ رِجَالَ عُمَرَ ...

وَلَكِنِ اعْلَمْ أَنَّكَ إِنْ نَوَيْتَ الْحَقَّ وَأَرَدْتَهُ ؛ أَعَانَكَ اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَأَتَاحَ[5] لَكَ عُمَّالًا يَقُومُونَ لَكَ بِهِ ...

وَأَتَاكَ بِهِمْ مِنْ حَيْثُ لَا تَحْتَسِبُ[6]...

---

(١) بادر : عاجل.
(٢) سُرِّيَ عنه : زال عنه الهمُّ والقلق.
(٣) كيِّس كيِّس : حسن حسن.
(٤) عمر بن عبد العزيز : انظره ص ٨٧، ٢٥٧، ٣٢٩.
(٥) أتاح : هيَّأ.
(٦) لا تحتسب : لا تظن ولا ترقب.

فَإِنَّ عَوْنَ اللَّهِ لِلْعَبْدِ عَلَىٰ قَدْرِ نِيَّتِهِ ...

فَمَنْ تَمَّتْ نِيَّتُهُ فِي الْخَيْرِ تَمَّ عَوْنُ اللَّهِ لَهُ ، وَمَنْ قَصَّرَتْ نِيَّتُهُ نَقَصَ مِنْ عَوْنِ اللَّهِ لَهُ بِقَدْرِ نَقْصِ نِيَّتِهِ ...

وَإِذَا نَازَعَتْكَ[1] نَفْسُكَ إِلَىٰ شَيْءٍ مِمَّا لَا يُرْضِي اللَّهَ جَلَّ وَعَزَّ ؛ فَاذْكُرْ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِنْ ذَوِي السُّلْطَانِ الَّذِينَ سَبَقُوكَ إِلَىٰ الرَّحِيلِ عَنْ هَٰذِهِ الدُّنْيَا ...

وَسَلْ نَفْسَكَ كَيْفَ تَفَقَّأَتْ[2] عُيُونُهُمُ الَّتِي كَانُوا يَشْهَدُونَ بِهَا اللَّذَّاتِ ، وَكَيْفَ تَمَزَّقَتْ بُطُونُهُمُ الَّتِي كَانُوا لَا يَشْبَعُونَ بِهَا مِنَ الشَّهَوَاتِ ...

وَكَيْفَ صَارُوا جِيَفًا لَوْ تُرِكَتْ إِلَىٰ جَانِبِ مَسَاكِنِنَا وَلَمْ تُوَارِهَا آكَامُ[3] الْأَرْضِ ؛ لَضَجَجْنَا مِنْ رِيحِهَا .

وَلَمَسَّنَا الضُّرُّ مِنْ نَتْنِهَا .

وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَبَرَكَاتُهُ .

* * *

وَبَعْدُ ...

فَقَدْ عَاشَ سَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ عُمْرًا مَدِيدًا حَافِلًا[4] بِالتُّقَىٰ ... عَامِرًا بِالْهُدَىٰ ...

أَعْرَضَ فِيهِ عَنْ زِينَةِ الدُّنْيَا وَزُخْرُفِهَا ...

وَأَقْبَلَ خِلَالَهُ عَلَىٰ مَا يُرْضِي اللَّهَ ...

فَأَكَلَ مِنَ الطَّعَامِ مَا غَلُظَ ...

وَلَبِسَ مِنَ الثِّيَابِ مَا خَشُنَ ...

---

(١) نازعتك : مالت بك .
(٢) تفقأت : قُلِعَت .
(٣) الآكام : المرتفعات .
(٤) حافلًا : ممتلئًا .

وَغَزَا «الرُّومَ» مَعَ جُيُوشِ الْمُسْلِمِينَ جُنْدِيًّا ...

وَقَضَىٰ حَوَائِجَ الْمُسْلِمِينَ، وَحَنَا(١) عَلَيْهِمْ حُنُوَّ الْأُمَّهَاتِ ...

فَلَمَّا أَتَاهُ الْيَقِينُ(٢) سَنَةَ سِتٍّ وَمِائَةٍ لِلْهِجْرَةِ؛ ارْتَجَّتِ الْمَدِينَةُ حُزْنًا عَلَيْهِ ... وَتَرَكَ نَعْيُهُ فِي كُلِّ قَلْبٍ لَوْعَةً ...

وَعَلَىٰ كُلِّ خَدٍّ دَمْعَةً ...

وَهَبَّ النَّاسُ، كُلُّ النَّاسِ يُشَيِّعُونَ جَنَازَتَهُ، وَيَشْهَدُونَ دَفْنَهُ ...

وَكَانَ هِشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ يَوْمَئِذٍ مَوْجُودًا فِي الْمَدِينَةِ؛ فَخَرَجَ لِلصَّلَاةِ عَلَيْهِ وَتَشْيِيعِهِ.

فَلَمَّا رَأَىٰ تَزَاحُمَ النَّاسِ وَتَدَفُّقَهُمْ؛ هَالَتْهُ كَثْرَتُهُمْ، وَأَثَارَتْ فِي صَدْرِهِ شَيْئًا مِنَ الْحَسَدِ، فَسَاءَلَ نَفْسَهُ قَائِلًا: تُرَىٰ كَمْ يَخْرُجُ مِنْ هَؤُلَاءِ النَّاسِ لَوْ أَنَّ خَلِيفَةَ الْمُسْلِمِينَ مَاتَ فِي بَلَدِهِمْ هَٰذَا؟.

ثُمَّ قَالَ لِإِبْرَاهِيمَ بْنِ هِشَامٍ الْمَخْزُومِيِّ وَالِيهِ عَلَىٰ الْمَدِينَةِ:

اِفْرِضْ عَلَىٰ أَهْلِ الْمَدِينَةِ أَنْ يَبْعَثُوا أَرْبَعَةَ آلَافِ رَجُلٍ إِلَىٰ الثُّغُورِ.

فَسُمِّيَ ذَٰلِكَ الْعَامُ عَامَ أَرْبَعَةِ الْآلَافِ (*) ...

---

(١) حَنَا عليهم: مال إليهم وعطف عليهم.

(٢) الْيقين: الموت.

(*) للاستزادة من أخبار سَالِم بْنِ عَبْدِ اللَّهِ انظر:

١ - الطبقات الكبرىٰ لابن سعد: ٥/ ١٩٥.

٢ - تهذيب الأسماء واللغات، القسم الأول من الجزء الأول: ٢٠٧.

٣ - الجرح والتعديل، القسم الأول من المجلد الثاني: ١٨٤.

٤ - المعرفة والتاريخ: ١/ ٥٥٤.

٥ - حلية الأولياء: ٢/ ١٩٢.

٦ - طبقات الفقهاء للشيرازي: ٦٢.

٧ - تاريخ البخاري: ٤/ ١١٥.

٨ - وفيات الأعيان: ٢/ ٣٤٩.

٩ - تاريخ الإسلام: ٤/ ١١٥.

١٠ - طبقات الحفاظ للسيوطي: ٣٣.

١١ - شذرات الذهب: ١/ ١٣٣.

عَبْدُ الرَّحْمَنِ الغَافِقِيُّ
أَمِيرُ الأَنْدَلُسِ

« الْغَافِقِيُّ صُورَةٌ صَادِقَةٌ لِمُوسَىٰ بْنِ نُصَيْرٍ ، وَطَارِقِ بْنِ زِيَادٍ ، فِي عُلُوِّ الْهِمَّةِ وَسُمُوِّ الْمَقْصِدِ »

[الْمُؤَرِّخُونَ]

مَا كَادَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَخَامِسُ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ[١] عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ[٢] يَنْفُضُ يَدَيْهِ مِنْ تُرَابِ سَلَفِهِ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، حَتَّىٰ بَادَرَ يُعِيدُ النَّظَرَ فِي أُمَرَاءِ الْأَمْصَارِ[٣] ، وَيَعْزِلُ وَيُوَلِّي .

وَكَانَ فِي طَلِيعَةِ مَنِ اسْتَعْمَلَهُ السَّمْحُ بْنُ مَالِكٍ الْخَوْلَانِيُّ .

فَلَقَدْ أَسْنَدَ إِلَيْهِ وَلَايَةَ « الْأَنْدَلُسِ » وَمَا جَاوَرَهَا مِنَ الْمُدُنِ الْمَفْتُوحَةِ مِنْ بِلَادِ « فَرَنْسَا » .

* * *

أَلْقَىٰ الْأَمِيرُ الْجَدِيدُ رِحَالَهُ فِي بِلَادِ « الْأَنْدَلُسِ » ، وَانْطَلَقَ يُفَتِّشُ عَنْ أَعْوَانِ الصِّدْقِ وَالْخَيْرِ ؛ فَقَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ :

أَبَقِيَ فِي هَٰذِهِ الدِّيَارِ أَحَدٌ مِنَ التَّابِعِينَ ؟ .

فَقَالُوا : نَعَمْ أَيُّهَا الْأَمِيرُ .

إِنَّهُ مَا يَزَالُ فِينَا التَّابِعِيُّ الْجَلِيلُ عَبْدُ الرَّحْمَٰنِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْغَافِقِيُّ .

ثُمَّ ذَكَرُوا لَهُ مِنْ عِلْمِهِ بِكِتَابِ اللَّهِ ، وَفَهْمِهِ لِحَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ،

---

(١) الخلفاء الراشدون أربعة ، وقد أُضيف إليهم عمر بن عبد العزيز رضوان الله عليهم وعليه .

(٢) عمر بن عبد العزيز : انظره ص ٨٧ ، ٢٥٧ ، ٣٢٩ .

(٣) الأمصار : الأصقاع والولايات .

وَبَلَائِهِ[١] فِي مَيَادِينِ الْجِهَادِ ، وَتَشَوُّقِهِ إِلَىٰ الِاسْتِشْهَادِ ، وَزُهْدِهِ بِعَرَضِ[٢] الدُّنْيَا الشَّيْءَ الْكَثِيرَ .

ثُمَّ قَالُوا لَهُ :

إِنَّهُ لَقِيَ الصَّحَابِيَّ الْجَلِيلَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَعَنْ أَبِيهِ ، وَأَنَّهُ أَخَذَ عَنْهُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَأْخُذَ .

وَتَأَسَّىٰ بِهِ[٣] أَعْظَمَ التَّأَسِّي .

* * *

دَعَا السَّمْحُ بْنُ مَالِكٍ الْخَوْلَانِيُّ عَبْدَ الرَّحْمَٰنِ الْغَافِقِيَّ إِلَىٰ لِقَائِهِ ، فَلَمَّا جَاءَهُ رَحَّبَ بِهِ أَكْرَمَ التَّرْحِيبِ وَأَدْنَىٰ[٤] مَجْلِسَهُ مِنْهُ ، ثُمَّ قَعَدَ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ يَسْأَلُهُ عَنْ كُلِّ مَا عَنَّ لَهُ[٥] ...

وَيَسْتَشِيرُهُ فِي كَثِيرٍ مِمَّا أَشْكَلَ عَلَيْهِ ...

وَيَزُورُهُ[٦] لِيَقِفَ عَلَىٰ طَاقَاتِهِ ...

فَإِذَا هُوَ فَوْقَ مَا أُخْبِرَ عَنْهُ ، وَأَعْظَمُ مِمَّا ذُكِرَ لَهُ ؛ فَعَرَضَ عَلَيْهِ أَنْ يُوَلِّيَهُ عَمَلًا مِنْ كَبِيرِ أَعْمَالِهِ فِي « الْأَنْدَلُسِ » .

فَقَالَ لَهُ : أَيُّهَا الْأَمِيرُ ، إِنَّمَا أَنَا رَجُلٌ مِنْ عَامَّةِ النَّاسِ ...

وَلَقَدْ وَفَدْتُ إِلَىٰ هَٰذِهِ الدِّيَارِ لِأَقِفَ عَلَىٰ ثَغْرٍ مِنْ ثُغُورِ[٧] الْمُسْلِمِينَ ...

وَنَذَرْتُ نَفْسِي لِمَرْضَاةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ...

---

(١) بلائه : خبرته .
(٢) عَرَضِ الدّنيا : ما لا دوام له ولا بقاء .
(٣) تأسّىٰ به : اقتدىٰ به وسلك مسلكه .
(٤) أدنىٰ مجلسه : قرّب مجلسه منه تقديرًا له .
(٥) عَنّ له : خطر علىٰ باله .
(٦) يروزه : يقدّره ويقوّمه .
(٧) ثغور المسلمين : المنافذ بين حدود المسلمين وحدود أعدائهم .

وَحَمَلْتُ سَيْفِي لِإِعْلَاءِ كَلِمَتِهِ فِي الْأَرْضِ ...

وَسَتَجِدُنِي ـ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَىٰ ـ أَلْزَمَ لَكَ مِنْ ظِلِّكَ مَا لَزِمْتَ الْحَقَّ ...

وَأَطْوَعَ لَكَ مِنْ بَنَانِكَ(١) مَا أَطَعْتَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ...

مِنْ غَيْرِ وَلَايَةٍ وَلَا إِمَارَةٍ .

* * *

لَمْ يَمْضِ غَيْرُ قَلِيلٍ حَتَّىٰ عَزَمَ السَّمْحُ بْنُ مَالِكٍ الْخَوْلَانِيُّ عَلَىٰ غَزْوِ « فَرَنْسَا » كُلِّهَا ، وَضَمِّهَا إِلَىٰ عِقْدِ(٢) دَوْلَةِ الْإِسْلَامِ الْعُظْمَىٰ .

وَأَنْ يَتَّخِذَ مِنْ دِيَارِهَا الرَّحْبَةِ طَرِيقًا إِلَىٰ دُوَلِ « الْبَلْقَانِ »(٣) ...

وَأَنْ يُفْضِيَ مِنْ دُوَلِ « الْبَلْقَانِ » إِلَىٰ « الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ » ، تَحْقِيقًا لِبِشَارَةِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَأَزْكَىٰ السَّلَامِ(٤) .

وَكَانَتِ الْخُطْوَةُ الْأُولَىٰ لِتَحْقِيقِ هَٰذَا الْهَدَفِ الْكَبِيرِ ، إِنَّمَا تَتَوَقَّفُ عَلَىٰ احْتِلَالِ مَدِينَةِ « أَرْبُونَةَ »(٥) .

ذَلِكَ أَنَّ « أَرْبُونَةَ » كَانَتْ مِنْ أَكْبَرِ الْمُدُنِ « الْفَرَنْسِيَّةِ » الَّتِي تُجَاوِرُ بِلَادَ « الْأَنْدَلُسِ » .

وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ كُلَّمَا انْحَدَرُوا(٦) مِنْ جِبَالِ « الْبِرِنِيهْ »(٧) ؛ وَجَدُوهَا

(١) بنانك : إصبعك ، يقال : فلان أطوع من بناني : [أي إنه يفعل كل ما آمره به] .
(٢) عِقْد : القلادة الثمينة .
(٣) دُوَل البلقان : شبه جزيرة واقعة جنوب شرق أوربا ، تقتسمها اليوم رومانيا ، وألبانيا ، ويوغوسلافيا ، وبلغاريا ، وتركيا ، واليونان .
(٤) قال عليه الصلاة والسلام : (لتفتحن عليكم القسطنطينية ، فنعم الجيش جيشها ، ونعم الأمير أميرها) .
(٥) NARBONNE : مدينة في جنوب فرنسا قرب المتوسط بسهل لنغودوك .
(٦) انحدروا : نزلوا .
(٧) PYRENEES . سلسلة جبال بين فرنسا وإسبانيا تمتد من خليج غاسكونيا في الأطلسي حتى خليج ليون في المتوسط ٤٣٠ كم عرفها المسلمون باسم برانس .

تَنْتَصِبُ أَمَامَهُمْ كَمَا يَنْتَصِبُ الْمَارِدُ[1] الْجَبَّارُ.

وَهِيَ فَوْقَ ذَٰلِكَ مِفْتَاحُ «فَرَنْسَا» الْكُبْرَىٰ...

وَمَطْمَحُ الطَّامِحِينَ[2] إِلَيْهَا...

* * *

حَاصَرَ السَّمْحُ بْنُ مَالِكٍ الْخَوْلَانِيُّ مَدِينَةَ «أَرْبُونَةَ»، ثُمَّ عَرَضَ عَلَىٰ أَهْلِهَا الْإِسْلَامَ أَوِ الْجِزْيَةَ... فَعَزَّ عَلَيْهِمْ ذَٰلِكَ وَأَبَوْهُ.

فَهَبَّ يُهَاجِمُهُمُ الْهَجْمَةَ تِلْوَ الْأُخْرَىٰ، وَيَقْذِفُهُمْ بِالْمَنْجَنِيقَاتِ[3] حَتَّىٰ سَقَطَتِ الْمَدِينَةُ الْعَرِيقَةُ الْحَصِينَةُ فِي أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ بَعْدَ أَرْبَعَةِ أَسَابِيعَ مِنَ الْجِهَادِ الْبُطُولِيِّ الَّذِي لَمْ تَشْهَدْ «أُورُبَّا» نَظِيرًا لَهُ مِنْ قَبْلُ.

ثُمَّ بَادَرَ الْقَائِدُ الْمُظَفَّرُ الْمُنْتَصِرُ؛ فَتَوَجَّهَ بِجَيْشِهِ الْجَرَّارِ[4] إِلَىٰ مَدِينَةِ «تُولُوزَ» عَاصِمَةِ مُقَاطَعَةِ «أُوكْتَانْيَةَ».

فَنَصَبَ حَوْلَهَا الْمَنْجَنِيقَاتِ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ.

وَقَذَفَهَا بِآلَاتِ الْحَرْبِ الَّتِي لَمْ تَعْرِفْ لَهَا «أُورُبَّا» نَظِيرًا مِنْ قَبْلُ.

حَتَّىٰ أَوْشَكَتِ الْمَدِينَةُ الْمَنِيعَةُ الْحَصِينَةُ أَنْ تَخِرَّ بَيْنَ يَدَيْهِ.

عِنْدَ ذَٰلِكَ وَقَعَ مَا لَمْ يَكُنْ فِي حُسْبَانِ أَحَدٍ.

فَلْنَتْرُكِ الْحَدِيثَ لِلْمُسْتَشْرِقِ الْفَرَنْسِيِّ «رِينُو» لِيَسُوقَ لَنَا خَبَرَ تِلْكَ الْمَعْرَكَةِ.

قَالَ «رِينُو»:

---

(١) المارد: القوي الجبار الذي لا يقهر.

(٢) مطمح الطامحين: سبيل الراغبين.

(٣) المنجنيقات: آلات حربية تُرمَى بها القذائف.

(٤) الجرار: الكثير الذي يجر وراءه الغبار لكثرته.

لَمَّا أَصْبَحَ النَّصْرُ قَابَ قَوْسَيْنِ[١] مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَوْ أَدْنَىٰ، هَبَّ «دُوقُ أُوكُتَانْيَةَ» يَسْتَنْفِرُ[٢] لِحَرْبِهِمُ الْبِلَادَ وَالْعِبَادَ.

وَأَرْسَلَ رُسُلَهُ فَطَافُوا «أُورُبَّا» مِنْ أَقْصَاهَا إِلَىٰ أَقْصَاهَا.

وَأَنْذَرُوا مُلُوكَهَا وَأُمَرَاءَهَا بِاحْتِلَالِ دِيَارِهِمْ، وَسَبْيِ نِسَائِهِمْ وَوِلْدَانِهِمْ.

فَلَمْ يَبْقَ شَعْبٌ فِي «أُورُبَّا» إِلَّا أَسْهَمَ مَعَهُ بِأَشَدِّ مُقَاتِلِيهِ بَأْسًا، وَأَكْثَرِهِمْ عَدَدًا...

وَقَدْ بَلَغَ مِنْ وَفْرَةِ[٣] الْجَيْشِ، وَعُنْفِ حَرَكَتِهِ، وَثِقَلِ وَطْأَتِهِ، مَا لَمْ تَعْرِفْ لَهُ الدُّنْيَا نَظِيرًا مِنْ قَبْلُ... حَتَّىٰ إِنَّ الْغُبَارَ الْمُتَطَايِرَ تَحْتَ أَقْدَامِهِ قَدْ حَجَبَ عَنْ مِنْطَقَةِ «الرُّونِ»[٤] عَيْنَ الشَّمْسِ...

وَلَمَّا تَدَانَىٰ[٥] الْجَمْعَانِ خُيِّلَ لِلنَّاسِ أَنَّ الْجِبَالَ تُلَاقِي الْجِبَالَ، ثُمَّ دَارَتْ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ رَحَىٰ مَعْرَكَةٍ ضَرُوسٍ[٦] لَمْ يَعْرِفِ التَّارِيخُ لَهَا مَثِيلًا مِنْ قَبْلُ.

وَكَانَ السَّمْحُ أَوْ «ذَامَا» كَمَا كُنَّا نُسَمِّيهِ؛ يَظْهَرُ أَمَامَ جُنُودِنَا فِي كُلِّ مَكَانٍ.

وَيَتَوَاثَبُ أَمَامَ عَسْكَرِهِ فِي كُلِّ اتِّجَاهٍ.

وَفِيمَا هُوَ كَذَلِكَ أَصَابَتْهُ رَمْيَةٌ مِنْ سَهْمٍ، فَخَرَّ صَرِيعًا عَنْ جَوَادِهِ.

---

(١) قاب قوسين: شديد القرب.
(٢) يستنفر: يستعين.
(٣) وفرة الجيش: كثرة الجيش وكثافته.
(٤) RHONE : نهر في سويسرا وفرنسا ٨١٢ كم من أغزر أنهار فرنسا، يروي جنيف، وليون LYON، وڤالنس، وافينيون، وآرل ARLES ويصب في المتوسط غرب مرسيليا.
(٥) تدانى الجمعان: اقترب الجيشان.
(٦) معركة ضروس: معركة شديدة مهلكة.

فَلَمَّا رَآهُ الْمُسْلِمُونَ مُجَنْدَلًا[١] فَوْقَ الثَّرَىٰ، فَتَّ الْمَوْقِفُ فِي عَضُدِهِمْ[٢]...

وَبَدَأَتْ صُفُوفُهُمْ تَتَدَاعَىٰ[٣]...

وَأَصْبَحَ فِي وُسْعِ جَيْشِنَا الْجَرَّارِ أَنْ يُبِيدَهُمْ عَنْ بَكْرَةِ أَبِيهِمْ[٤]...

لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَتْهُمُ الْعِنَايَةُ الرَّبَّانِيَّةُ بِقَائِدٍ عَبْقَرِيٍّ عَرَفَتْهُ « أُورُبَّا » فِيمَا بَعْدُ، هُوَ: عَبْدُ الرَّحْمَٰنِ الْغَافِقِيُّ.

فَتَوَلَّىٰ أَمْرَ انْسِحَابِهِمْ بِأَقَلِّ قَدْرٍ مِنَ الْخَسَائِرِ، وَعَادَ بِهِمْ إِلَىٰ « إِسْبَانِيَا ».

لَكِنَّهُ عَقَدَ الْعَزْمَ عَلَىٰ أَنْ يُعِيدَ الْكَرَّةَ عَلَيْنَا مِنْ جَدِيدٍ...

* * *

وَبَعْدُ...

فَهَلْ رَأَيْتَ الْغُيُومَ كَيْفَ تَنْقَشِعُ[٥] عَنِ الْبَدْرِ فِي اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاءِ.

فَيَسْتَضِيءُ بِنُورِهِ التَّائِهُونَ...

وَيَهْتَدِي بِسَنَاهُ الْحَيَارَىٰ[٦]؟.

هَكَذَا انْقَشَعَتْ مَعْرَكَةُ « تُولُوزَ » عَنْ بَطَلِ الْإِسْلَامِ الْفَذِّ عَبْدِ الرَّحْمَٰنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْغَافِقِيِّ...

وَهَلْ أَبْصَرْتَ الْعِطَاشَ الْمُوفِينَ[٧] عَلَىٰ الْهَلَاكِ فِي جَوْفِ الصَّحْرَاءِ كَيْفَ يَلُوحُ لَهُمُ الْمَاءُ.

---

(١) مجندلًا: صريعًا.
(٢) فتّ في عضدهم: مزّق قواهم وأضعف مشاعرهم.
(٣) تتداعىٰ: تتصدّع.
(٤) بكرة أبيهم: جميعًا.
(٥) تنقشع: تنكشف.
(٦) الحيارىٰ: التائهون، والّذين لا يعرفون الطّريق.
(٧) الموفين علىٰ الهلاك: المقبلين علىٰ الموت.

فَيَمُدُّونَ أَيْدِيَهُمْ إِلَيْهِ ؛ لِيَغْتَرِفُوا مِنْهُ غَرْفَةً تَرُدُّ إِلَيْهِمُ الْحَيَاةَ ؟ .

هَكَذَا مَدَّ جُنْدُ الْمُسْلِمِينَ أَيْدِيَهُمْ إِلَىٰ الْقَائِدِ الْعَظِيمِ يَنْشُدُونَ عِنْدَهُ النَّجَاةَ ... وَيُبَايِعُونَهُ عَلَىٰ السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ ...

وَلَا غَرْوَ فَقَدْ كَانَتْ مَعْرَكَةُ « تُولُوزَ » أَوَّلَ جُرْحٍ غَائِرٍ[1] أُصِيبَ بِهِ الْمُسْلِمُونَ مُنْذُ وَطِئَتْ أَقْدَامُهُمْ « أُورُبَّا » .

وَكَانَ عَبْدُ الرَّحْمَٰنِ الْغَافِقِيُّ بَلْسَمَ[2] هَٰذَا الْجُرْحِ ...

وَالْيَدَ الْحَانِيَةَ الَّتِي أَحَاطَتْهُ بِالْعِنَايَةِ وَالرِّعَايَةِ ...

وَالْقَلْبَ الْكَبِيرَ الَّذِي أَفَاضَ عَلَيْهِ الْحَنَانَ ...

* * *

أَرْمَضَتْ[3] أَنْبَاءُ النَّكْسَةِ الْكُبْرَىٰ الَّتِي مُنِيَ بِهَا الْمُسْلِمُونَ فِي « فَرَنْسَا » فُؤَادَ الْخِلَافَةِ فِي « دِمَشْقَ » .

وَأَجَّجَ[4] مَصْرَعُ الْبَطَلِ الْكَمِيِّ[5] السَّمْحِ بْنِ مَالِكٍ الْخَوْلَانِيِّ فِي صَدْرِهَا نَارَ الْحَمِيَّةِ لِلْأَخْذِ بِالثَّأْرِ .

فَأَصْدَرَتْ أَوَامِرَهَا بِإِقْرَارِ الْجُنْدِ عَلَىٰ مُبَايَعَتِهِمْ لِعَبْدِ الرَّحْمَٰنِ الْغَافِقِيِّ .

وَعَهِدَتْ إِلَيْهِ بِإِمَارَةِ « الْأَنْدَلُسِ » مِنْ أَقْصَاهَا إِلَىٰ أَقْصَاهَا .

وَضَمَّتْ إِلَيْهِ مَا جَاوَرَهَا مِنَ الْأَرَاضِي « الْفَرَنْسِيَّةِ » الْمَفْتُوحَةِ .

وَأَطْلَقَتْ يَدَهُ فِي الْعَمَلِ كَيْفَمَا يَشَاءُ .

لَا غَرْوَ فَقَدْ كَانَ الْغَافِقِيُّ حَازِمًا صَارِمًا ، تَقِيًّا نَقِيًّا ، حَكِيمًا مِقْدَامًا ...

* * *

---

(١) غائر : عميق.
(٢) بلسم الجرح : دواء النكبة.
(٣) أرمضت : أوجعت.
(٤) أجّج : أوقد.
(٥) الكَمِيّ : الشجاع.

بَادَرَ عَبْدُ الرَّحْمَٰنِ الْغَافِقِيُّ مُنْذُ أُسْنِدَتْ إِلَيْهِ إِمَارَةُ «الْأَنْدَلُسِ» ؛ يَعْمَلُ عَلَىٰ اسْتِعَادَةِ ثِقَةِ الْجُنْدِ بِأَنْفُسِهِمْ ...

وَاسْتِرْدَادِ شُعُورِهِمْ بِالْعِزَّةِ ، وَالْقُوَّةِ ، وَالْغَلَبِ .

وَتَحْقِيقِ الْهَدَفِ الْكَبِيرِ الَّذِي طَمَحَ[1] إِلَيْهِ قَادَةُ الْمُسْلِمِينَ فِي «الْأَنْدَلُسِ» .

ابْتِدَاءً مِنْ مُوسَىٰ بْنِ نُصَيْرٍ[2]...

وَانْتِهَاءً بِالسَّمْحِ بْنِ مَالِكٍ الْخَوْلَانِيِّ .

فَلَقَدِ انْعَقَدَتْ هِمَمُ هَؤُلَاءِ الْأَبْطَالِ عَلَىٰ الِانْطِلَاقِ مِنْ «فَرَنْسَا» إِلَىٰ «إِيطَالِيَا» وَ«أَلْمَانِيَا» .

وَالْإِفْضَاءِ[3] مِنْهُمَا إِلَىٰ «الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ» .

وَجَعْلِ الْبَحْرِ الْأَبْيَضِ الْمُتَوَسِّطِ بُحَيْرَةً إِسْلَامِيَّةً ، وَتَسْمِيَتِهِ بِبَحْرِ الشَّامِ ...

بَدَلًا مِنْ بَحْرِ «الرُّومِ» ...

* * *

لَكِنَّ عَبْدَ الرَّحْمَٰنِ الْغَافِقِيَّ كَانَ يُوقِنُ بِأَنَّ الْإِعْدَادَ لِلْمَعَارِكِ الْكُبْرَىٰ إِنَّمَا يَبْدَأُ بِإِصْلَاحِ النُّفُوسِ ، وَتَزْكِيَتِهَا ...

وَيَعْتَقِدُ أَنَّهُ مَا مِنْ أُمَّةٍ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُحَقِّقَ غَايَاتِهَا فِي النَّصْرِ إِذَا كَانَتْ حُصُونُهَا مُصَدَّعَةً[4]، مُهَدَّدَةً مِنَ الدَّاخِلِ ...

(١) طَمح إليه : تطلع إليه وعمل عَلَىٰ نيله .
(٢) مُوسَىٰ بْن نُصَير : فاتح المغرب الأقصىٰ والأندلس .
(٣) الإفضاء منها : الانتقال منها .
(٤) مصدَّعة : مشقَّقة .

لِذَلِكَ هَبَّ يَطُوفُ بِلَادَ «الْأَنْدَلُسِ» بَلَدًا إِثْرَ بَلَدٍ، وَيَأْمُرُ الْمُنَادِينَ أَنْ يُنَادُوا فِي النَّاسِ:

مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ[1] عِنْدَ وَالٍ مِنَ الْوُلَاةِ، أَوْ قَاضٍ مِنَ الْقُضَاةِ، أَوْ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ؛ فَلْيَرْفَعْهَا إِلَى الْأَمِيرِ.

وَأَنَّهُ لَا فَرْقَ فِي ذَلِكَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْمُعَاهَدِينَ[2].

ثُمَّ طَفِقَ يَنْظُرُ فِي الْمَظَالِمِ[3] مَظْلَمَةً مَظْلَمَةً.

فَيَقْتَصُّ لِلضَّعِيفِ مِنَ الْقَوِيِّ... وَيَأْخُذُ لِلْمَظْلُومِ مِنَ الظَّالِمِ.

ثُمَّ جَعَلَ يُحَقِّقُ فِي أَمْرِ الْكَنَائِسِ الْمُغْتَصَبَةِ، وَالْمُسْتَحْدَثَةِ.

فَيَرُدُّ مَا قَضَتْ بِهِ الْعُهُودُ إِلَى أَصْحَابِهِ...

وَيَهْدِمُ مَا بُنِيَ مِنْهَا بِالرِّشْوَةِ...

ثُمَّ نَظَرَ فِي أَمْرِ عُمَّالِهِ وَاحِدًا وَاحِدًا...

فَعَزَلَ مَنْ ثَبَتَتْ لَهُ خِيَانَتُهُ وَانْحِرَافُهُ.

وَوَلَّى مَكَانَهُ مَنِ اسْتَوْثَقَ مِنْ حِكْمَتِهِ، وَحُنْكَتِهِ، وَصَلَاحِهِ.

وَكَانَ كُلَّمَا أَمَّ[4] بَلَدًا مِنَ الْبُلْدَانِ دَعَا النَّاسَ إِلَى صَلَاةٍ جَامِعَةٍ، ثُمَّ وَقَفَ فِيهِمْ خَطِيبًا، وَانْطَلَقَ يَحُضُّهُمْ عَلَى الْجِهَادِ...

وَيُرَغِّبُهُمْ فِي الِاسْتِشْهَادِ...

وَيُمَنِّيهِمْ بِرِضْوَانِ اللَّهِ، وَالْفَوْزِ بِثَوَابِهِ.

* * *

(١) مظلمة: أمر فيه ظلم.
(٢) المعاهدون: الذين بينهم وبين المسلمين عهد.
(٣) المظالم: الشكاوى.
(٤) أمَّ بلدًا: دخل بلدًا وزاره.

وَقَدْ قَرَنَ عَبْدُ الرَّحْمَٰنِ الْقَوْلَ بِالْفِعْلِ، وَدَعَّمَ الْآمَالَ بِالْأَعْمَالِ.

فَطَفِقَ مُنْذُ اللَّحْظَةِ الْأُولَىٰ لِوِلَايَتِهِ؛ يُعِدُّ الْعَتَادَ، وَيَسْتَكْمِلُ السِّلَاحَ.

وَيُرَمِّمُ(١) الْمَعَاقِلَ، وَيَبْنِي الْحُصُونَ.

وَيُشَيِّدُ الْجُسُورَ، وَيُقِيمُ الْقَنَاطِرَ(٢)...

وَكَانَ مِنْ أَعْظَمِ مَا بَنَاهُ قَنْطَرَةُ «قُرْطُبَةَ» عَاصِمَةِ «الْأَنْدَلُسِ».

وَقَدْ شَادَهَا عَلَىٰ نَهْرِ «قُرْطُبَةَ» الْعَظِيمِ؛ لِيَعْبُرَ عَلَيْهَا النَّاسُ وَالْجُنْدُ...

وَتَقِيَ الْبِلَادَ، وَتَصُونَ الْعِبَادَ مِنْ شَرِّ الْفَيَضَانِ(٣).

وَتُعَدُّ هَٰذِهِ الْقَنْطَرَةُ مِنْ أَعَاجِيبِ الدُّنْيَا.

فَقَدْ بَلَغَ طُولُهَا ثَمَانِمِائَةِ بَاعٍ(٤)...

وَارْتِفَاعُهَا سِتِّينَ بَاعًا...

وَعَرْضُهَا عِشْرِينَ...

وَبَلَغَ عَدَدُ حَنَايَاهَا(٥) ثَمَانِيَ عَشْرَةَ حَنِيَّةً...

وَعَدَدُ أَبْرَاجِهَا(٦) تِسْعَةَ عَشَرَ بُرْجًا...

وَهِيَ مَا تَزَالُ قَائِمَةً تَنْعَمُ بِهَا «إِسْبَانِيَا» حَتَّىٰ يَوْمِنَا هَٰذَا...

* * *

وَقَدْ دَأَبَ عَبْدُ الرَّحْمَٰنِ الْغَافِقِيُّ عَلَىٰ الِاجْتِمَاعِ بِقَادَةِ الْجُنْدِ وَوُجُوهِ الْقَوْمِ فِي كُلِّ بَلَدٍ يَحُلُّهُ.

---

(١) يرمّم المعاقل: يصلح مرابض الجند في الجبال المشرفة علىٰ العدو.
(٢) القناطر: ما يبنىٰ فوق الماء للعبور عليه.
(٣) الفيضان: السّيل.
(٤) الباع: مقدار مدّ اليدين.
(٥) حناياها: أقواسها.
(٦) أبراجها: الحصون التي تحصّنها.

وَكَانَ يُنْصِتُ بِجَوَارِحِهِ إِلَىٰ كُلِّ مَا يَقُولُونَ ...

وَيُدَوِّنُ جَمِيعَ مَا يَقْتَرِحُونَ ...

وَيَتَمَلَّىٰ[1] مِنْ سَائِرِ مَا يَنْصَحُونَ .

وَقَدْ أَخَذَ نَفْسَهُ فِي هَٰذِهِ الْمَجَالِسِ بِأَنْ يَسْمَعَ كَثِيرًا ، وَأَنْ يَتَكَلَّمَ قَلِيلًا .

وَكَمَا كَانَ يَلْتَقِي الْغَافِقِيُّ بِأَعْيَانِ الْمُسْلِمِينَ ...

فَقَدْ كَانَ يَجْتَمِعُ مَعَ كِبَارِ أَهْلِ الذِّمَّةِ مِنَ الْمُعَاهَدِينَ .

وَكَثِيرًا مَا كَانَ يُسَائِلُهُمْ عَمَّا خَفِيَ عَلَيْهِ مِنْ أُمُورِ بِلَادِهِمْ ، وَمَا يَشْغَلُ بَالَهُ مِنْ أَحْوَالِ مُلُوكِهِمْ ، وَقُوَّادِهِمْ .

* * *

وَفِي ذَاتِ مَرَّةٍ اسْتَدْعَىٰ أَحَدَ كِبَارِ الْمُعَاهَدِينَ مِنْ أَبْنَاءِ « فَرَنْسَا » ، وَأَدَارَ مَعَهُ حَدِيثًا مُتَشَعِّبًا[2] ثُمَّ قَالَ لَهُ :

مَا بَالُ مَلِكِكُمُ الْأَكْبَرِ « شَارْلَ » لَا يَتَصَدَّىٰ لِحَرْبِنَا ...

وَلَا يَنْصُرُ مُلُوكَ الْمُقَاطَعَاتِ عَلَيْنَا ؟! .

فَقَالَ : أَيُّهَا الْأَمِيرُ ...

إِنَّكُمْ وَفَيْتُمْ لَنَا بِمَا عَاهَدْتُمُونَا عَلَيْهِ ، فَمِنْ حَقِّكُمْ عَلَيْنَا أَنْ نَصْدُقَكُمُ الْقَوْلَ فِيمَا تَسْأَلُونَنَا عَنْهُ ...

إِنَّ قَائِدَكُمُ الْكَبِيرَ مُوسَىٰ بْنَ نُصَيْرٍ قَدْ أَحْكَمَ قَبْضَتَهُ[3] عَلَىٰ « إِسْبَانِيَا »

(١) يتملَّى : ينتفع .
(٢) متشعّبًا : متنوعًا متعدِّد الموضوعات .
(٣) أحكم قبضته : شدّ يديه .

كُلِّهَا ، ثُمَّ طَمَحَتْ[1] هِمَّتُهُ لِأَنْ يَجْتَازَ جِبَالَ « الْبِرِنيهْ » الَّتِي تَفْصِلُ بَيْنَ دِيَارِ « الْأَنْدَلُسِ » وَبِلَادِنَا الْجَمِيلَةِ .

فَجَفَلَ[2] مُلُوكُ الْمُقَاطَعَاتِ وَقُسُسُهَا إِلَىٰ مَلِكِنَا الْأَعْظَمِ ، وَقَالُوا لَهُ :

مَا هَٰذَا الْخِزْيُ الَّذِي لَصِقَ بِنَا وَبِحَفَدَتِنَا أَبَدَ الدَّهْرِ أَيُّهَا الْمَلِكُ ؟! ...

فَلَقَدْ كُنَّا نَسْمَعُ بِالْمُسْلِمِينَ سَمَاعًا ...

وَنَخَافُ وَثْبَتَهُمْ عَلَيْنَا مِنْ جِهَةِ مَشْرِقِ الشَّمْسِ ، وَهَا هُمْ أُولَاءِ قَدْ جَاءُونَا الْآنَ مِنْ مَغْرِبِهَا ...

فَاسْتَوْلَوْا عَلَىٰ « إِسْبَانِيَا » كُلِّهَا ، وَامْتَلَكُوا مَا فِيهَا مِنَ الْعُدَّةِ وَالْعَتَادِ ، وَاعْتَلَوْا قِمَمَ الْجِبَالِ الَّتِي تَفْصِلُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ .

مَعَ أَنَّ عَدَدَهُمْ قَلِيلٌ ...

وَسِلَاحَهُمْ هَزِيلٌ ...

وَأَكْثَرَهُمْ لَا يَمْلِكُ دِرْعًا تَقِيهِ ضَرَبَاتِ السُّيُوفِ ، أَوْ جَوَادًا يَمْتَطِيهِ إِلَىٰ سَاحَاتِ الْقِتَالِ .

فَقَالَ لَهُمُ الْمَلِكُ :

لَقَدْ فَكَّرْتُ فِيمَا عَنَّ[3] عَلَىٰ بَالِكُمْ كَثِيرًا ...

وَأَنْعَمْتُ[4] النَّظَرَ فِيهِ طَوِيلًا .

فَرَأَيْتُ أَلَّا نَتَعَرَّضَ لِهَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ فِي وَثْبَتِهِمْ هَٰذِهِ ، فَإِنَّهُمُ الْآنَ كَالسَّيْلِ الْجَارِفِ يَقْتَلِعُ كُلَّ مَا يَعْتَرِضُ طَرِيقَهُ ، وَيَحْتَمِلُهُ مَعَهُ ، وَيُلْقِي بِهِ حَيْثُ يَشَاءُ .

---

(١) طمحت : امتدت ، وشمخت.
(٢) جفلَ : لجأ ، واتَّجه.
(٣) عنَّ علَىٰ بالهم : خطر لهم.
(٤) أنعمت النَّظر : أطلت النَّظر وتعمقت في التفكير.

وَوَجَدْتُ أَنَّهُمْ قَوْمٌ لَهُمْ عَقِيدَةٌ وَنِيَّةٌ ؛ تُغْنِيَانِ عَنْ كَثْرَةِ الْعَدَدِ ، وَوَفْرَةِ الْعُدَدِ ...

وَلَهُمْ إِيمَانٌ ، وَصِدْقٌ ؛ يَقُومَانِ مَقَامَ الدُّرُوعِ ، وَالْخُيُولِ ...

وَلَكِنْ أَمْهِلُوهُمْ حَتَّىٰ تَمْتَلِئَ أَيْدِيهِمْ مِنَ الْغَنَائِمِ ...

وَيَتَّخِذُوا لِأَنْفُسِهِمُ الدُّورَ وَالْقُصُورَ ...

وَيَسْتَكْثِرُوا مِنَ الْإِمَاءِ وَالْخَدَمِ ...

وَيَتَنَافَسُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ عَلَىٰ الرِّئَاسَةِ ...

فَعِنْدَ ذَلِكَ تَتَمَكَّنُونَ مِنْهُمْ بِأَيْسَرِ السُّبُلِ ، وَأَقَلِّ الْجُهْدِ .

فَأَطْرَقَ عَبْدُ الرَّحْمَـٰنِ الْغَافِقِيُّ إِطْرَاقَةً حَزِينَةً ، وَتَنَهَّدَ تَنَهُّدًا عَمِيقًا ، وَفَضَّ الْمَجْلِسَ وَقَالَ :

حَيَّ عَلَىٰ الصَّلَاةِ ، فَقَدِ اقْتَرَبَ وَقْتُهَا .

* * *

لَبِثَ عَبْدُ الرَّحْمَـٰنِ الْغَافِقِيُّ عَامَيْنِ كَامِلَيْنِ يُعِدُّ الْعُدَّةَ لِلْغَزْوِ الْكَبِيرِ ...

فَكَتَّبَ[١] الْكَتَائِبَ ، وَعَبَّأَ الْجُنُودَ ...

وَشَحَذَ[٢] الْهِمَمَ ، وَعَمَّرَ الْقُلُوبَ ...

وَاسْتَنْجَدَ بِأَمِيرِ « إِفْرِيقِيَةَ » فَأَمَدَّهُ بِنُخْبَةٍ مِنَ الْجُنْدِ ؛ يَتَلَظَّوْنَ[٣] شَوْقًا إِلَىٰ الْجِهَادِ ...

وَيَتَحَرَّقُونَ لَهْفَةً عَلَىٰ الِاسْتِشْهَادِ ...

---

(١) كَتَّبَ الْكَتَائِبَ : أعد الجيوش .

(٢) شحذ الهمم : قوّى الهمم ، وأحدّها كما تحد السكاكين .

(٣) يتلظّون : يتقدون ويتحرقون .

ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَىٰ عُثْمَانَ بْنِ أَبِي نُسْعَةَ أَمِيرِ الثُّغُورِ بِأَنْ يُشَاغِلَ الْعَدُوَّ بِغَارَاتِهِ إِلَىٰ أَنْ يَقْدَمَ عَلَيْهِ هُوَ بِجَمْهَرَةِ الْجَيْشِ.

لَكِنَّ عُثْمَانَ هَـٰذَا كَانَ يَنْضَوِي عَلَىٰ[1] ضَغِينَةٍ لِكُلِّ أَمِيرٍ بَعِيدِ[2] الْهِمَّةِ عَظِيمِ الطُّمُوحِ؛ يُقْدِمُ عَلَىٰ عَمَلٍ كَبِيرٍ يَرْفَعُ ذِكْرَهُ فِي الْأَنَامِ، وَيُخْمِلُ[3] غَيْرَهُ مِنَ الْوُلَاةِ وَالْعُمَّالِ.

أَضِفْ إِلَىٰ ذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ ظَفِرَ فِي إِحْدَىٰ غَارَاتِهِ السَّابِقَةِ عَلَىٰ «فَرَنْسَا» بِابْنَةِ «دُوقِ أُكْتَانْيَةَ»، وَتُدْعَىٰ: «مِينِينَ».

وَكَانَتْ «مِينِينُ» هَـٰذِهِ فَتَاةً رَيَّانَةَ[4] الشَّبَابِ، بَارِعَةَ الْجَمَالِ.

قَدْ جَمَعَتْ إِلَىٰ فِتْنَةِ الْحُسْنِ عِزَّةَ الْمُلْكِ...

وَمَزَجَتْ بَيْنَ رَوْنَقِ[5] الصِّبَا، وَدَلَالِ بَنَاتِ الْقُصُورِ.

فَشَغَفَتْ[6] فُؤَادَهُ حُبًّا، وَهَامَ بِهَا وَجْدًا، وَحَظِيَتْ[7] عِنْدَهُ كَمَا لَمْ تَحْظَ زَوْجَةٌ.

وَقَدْ زَيَّنَتْ لَهُ أَنْ يُهَادِنَ أَبَاهَا، فَعَقَدَ مَعَهُ مُعَاهَدَةً؛ أَمَّنَهُ فِيهَا مِنْ غَارَاتِ الْمُسْلِمِينَ عَلَىٰ مُقَاطَعَتِهِ الَّتِي كَانَتْ تُتَاخِمُ الثُّغُورَ «الْأَنْدَلُسِيَّةَ».

فَلَمَّا جَاءَهُ أَمْرُ عَبْدِ الرَّحْمَـٰنِ الْغَافِقِيِّ بِالزَّحْفِ عَلَىٰ بِلَادِ حَمِيهِ[8] «دُوقِ أُكْتَانْيَةَ» سُقِطَ فِي يَدِهِ[9]...

وَبَاتَ حَيْرَانَ لَا يَدْرِي مَاذَا يَفْعَلُ؟.

---

(١) ينضوي عَلَىٰ ضغينة: يمتلئ حقدًا.
(٢) بعيد الهمّة: عالي الهمة سامي المقاصد.
(٣) يخمل: يخفي ويُسقط.
(٤) ريّانة الشباب: غضة الشباب.
(٥) رونق الصّبا: بهاء الفتوة.
(٦) شغفت فؤاده: استولت عَلَىٰ قلبه.
(٧) حظيت عنده: أصبحت ذات مكانة مرموقة عنده.
(٨) حميه: أبو زوجته.
(٩) سقط في يده: تحير فما عاد يدري ما يفعل.

لَكِنَّهُ مَا لَبِثَ أَنْ بَادَرَ فَكَتَبَ إِلَىٰ الْأَمِيرِ الْغَافِقِيِّ يُرَاجِعُهُ فِيمَا أَمَرَهُ بِهِ ، وَيَقُولُ لَهُ :

إِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَخْفِرَ[1] عَهْدَ « دُوقِ أُكْتَانْيَةَ » قَبْلَ انْقِضَاءِ أَجَلِهِ ...

فَاسْتَشَاطَ[2] عَبْدُ الرَّحْمَٰنِ الْغَافِقِيُّ مِنْهُ غَضَبًا ...

وَبَعَثَ إِلَيْهِ يَقُولُ :

إِنَّ الْعَهْدَ الَّذِي قَطَعْتَهُ لِلْفِرَنْجَةِ دُونَ عِلْمِ أَمِيرِكَ لَا يُلْزِمُهُ ، وَلَا يُلْزِمُ جُيُوشَ الْمُسْلِمِينَ بِشَيْءٍ .

وَ إِنَّ عَلَيْكَ أَنْ تُبَادِرَ إِلَىٰ إِنْفَاذِ مَا أَمَرْتُكَ بِهِ دُونَ تَرَدُّدٍ وَلَا تَلَكُّؤٍ[3] ...

فَلَمَّا يَئِسَ ابْنُ أَبِي نُسْعَةَ مِنْ حَمْلِ الْأَمِيرِ عَلَىٰ الْإِقْلَاعِ عَنْ عَزْمِهِ ؛ بَعَثَ إِلَىٰ حَمِيهِ رَسُولًا يُخْبِرُهُ بِمَا جَرَىٰ .

وَيَدْعُوهُ لِأَنْ يَأْخُذَ حِذْرَهُ[4] ...

* * *

لَكِنَّ عُيُونَ عَبْدِ الرَّحْمَٰنِ الْغَافِقِيِّ كَانَتْ تَرْصُدُ حَرَكَاتِ ابْنِ أَبِي نُسْعَةَ وَسَكَنَاتِهِ ... فَنَقَلَتْ إِلَىٰ الْأَمِيرِ أَخْبَارَ اتِّصَالِهِ مَعَ الْعَدُوِّ .

فَبَادَرَ الْغَافِقِيُّ وَجَهَّزَ كَتِيبَةً اخْتَارَ رِجَالَهَا مِنْ ذَوِي الشِّدَّةِ وَالْبَأْسِ[5] ...

وَعَقَدَ لِوَاءَهَا لِمُجَاهِدٍ مِنَ الْكُمَاةِ الْمُجَرَّبِينَ .

وَأَمَرَهُ بِأَنْ يَأْتِيَ بِعُثْمَانَ بْنِ أَبِي نُسْعَةَ حَيًّا أَوْ مَيِّتًا .

* * *

(١) يخفر : ينقض العهد .
(٢) استشاط : اتقد واشتعل .
(٣) تلكؤ : توقف .
(٤) يأخذ حذره : يعد نفسه ويحذر من عدوه .
(٥) البأس : القوة والقدرة .

بَاغَتَتِ الْكَتِيبَةُ مُعَسْكَرَ ابْنِ أَبِي نُسْعَةَ، وَأَوْشَكَتْ أَنْ تَظْفَرَ بِهِ لَوْلَا أَنَّهُ نَذِرَ[1] بِهَا فِي آخِرِ لَحْظَةٍ...

فَفَرَّ إِلَىٰ الْجِبَالِ يَصْحَبُهُ عَدَدٌ مِنْ رِجَالِهِ...

وَمَعَهُ زَوْجَتُهُ الْحَسْنَاءُ «مِينِينُ» الَّتِي كَانَ لَا يُفَارِقُهَا أَبَدًا، وَلَا يَرَىٰ الدُّنْيَا إِلَّا بِهَا.

فَمَضَتِ الْكَتِيبَةُ فِي إِثْرِهِ[2]، وَأَحَاطَتْ بِهِ وَبِمَنْ مَعَهُ.

فَدَافَعَ عَنْ نَفْسِهِ وَعَنْ زَوْجَتِهِ دِفَاعَ الْأَسَدِ عَنْ شِبْلِهِ[3]...

وَظَلَّ يُنَاضِلُ دُونَهَا حَتَّىٰ سَقَطَ قَتِيلًا..

وَفِي جِسْمِهِ مَا لَا يُحْصَىٰ مِنْ ضَرَبَاتِ السُّيُوفِ، وَطَعَنَاتِ الرِّمَاحِ...

فَاحْتَزَّ الْجُنُودُ رَأْسَهُ، وَحَمَلُوهُ مَعَ الْأَمِيرَةِ الْحَسْنَاءِ إِلَىٰ عَبْدِ الرَّحْمَٰنِ الْغَافِقِيِّ.

فَلَمَّا صَارَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَرَأَىٰ جَمَالَهَا الْبَاهِرَ؛ غَضَّ مِنْ طَرْفِهِ...

وَأَشَاحَ عَنْهَا بِوَجْهِهِ...

ثُمَّ أَرْسَلَهَا هَدِيَّةً إِلَىٰ دَارِ الْخِلَافَةِ...

فَانْتَهَتْ حَيَاةُ الْأَمِيرَةِ «الْفَرَنْسِيَّةِ» الْحَسْنَاءِ فِي حَرَمِ الْخَلِيفَةِ الْأُمَوِيِّ فِي «دِمَشْقَ».

---

(١) نذِر بها: وقف علىٰ أمرها وعلمته.
(٢) في إثره: وراءه.
(٣) شبله: وَلَدِهِ.

عَبْدُ الرَّحْمنِ الغَافِقيُّ

بَطَلُ مَعْرَكَةِ بَلَاطِ الشُّهَدَاءِ

« لَوْلَا انْتِصَارُ شَارْلَ مَارْتِلَ الْهَمَجِيِّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَقَائِدِهِمُ الْغَافِقِيِّ ، لَظَلَّتْ إِسْبَانِيَا تَنْعَمُ بِسَمَاحَةِ الْإِسْلَامِ ، وَلَمَا تَأَخَّرَ سَيْرُ الْمَدَنِيَّةِ فِي أُورُبَّا ثَمَانِيَةَ قُرُونٍ »

[أَحَدُ مُؤَرِّخِي الْفِرِنْجَةِ]

قَالَ الشَّاعِرُ الْإِنْكِلِيزِيُّ « سُوذِي » يَصِفُ جُيُوشَ الْمُسْلِمِينَ الَّتِي غَزَتْ « أُورُبَّا » بَعْدَ فَتْحِ « الْأَنْدَلُسِ » (*) :

« جُمُوعٌ لَا تُحْصَى ...

« مِنْ عَرَبٍ ، وَبَرْبَرٍ ، وَرُومٍ خَوَارِجَ ...

« وَفُرْسٍ ، وَقِبْطٍ ، وَتَتَرٍ ، قَدِ انْضَوَوْا[1] جَمِيعًا تَحْتَ لِوَاءٍ وَاحِدٍ ...

« يَجْمَعُهُمْ إِيمَانٌ ثَائِرٌ ، رَاسِخُ الْفُتُوَّةِ ...

« وَحَمِيَّةٌ مُتَلَظِّيَةٌ[2] كَالشَّرَرِ ، وَأُخُوَّةٌ مُذْهِلَةٌ لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ الْبَشَرِ ...

* * *

« وَلَمْ يَكُنْ قَادَتُهُمْ أَقَلَّ مِنْهُمْ ثِقَةً بِالنَّصْرِ بَعْدَ أَنْ ثَمِلُوا بِحُمَيَّا[3] الظَّفَرِ ...

« وَاخْتَالُوا بِتِلْكَ الْقُوَّةِ الْقَوِيَّةِ الَّتِي لَا يَقِفُ أَمَامَهَا شَيْءٌ ...

« وَأَيْقَنُوا أَنَّ جُيُوشَهُمْ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُلِمَّ بِهَا الْكَلَالُ[4] ...

(*) من منظومة « سوذي » Southy: Roderic the Last 08 Gorths الخاصّة « برذريك » أو « لوذوريق » آخر مُلوكِ القوط في « إسبانيا ».

(١) انضووا : انضموا.

(٢) متلظية : متقدة.

(٣) ثملوا بحُميا الظفر : سكروا بخمر الغلبة.

(٤) الكلال : العناء والتعب.

« فَهِيَ دَائِمًا فَتِيَّةٌ مَشْبُوبَةٌ[1] كَمَا انْطَلَقَتْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ...

« وَآمَنُوا بِأَنَّهَا حَيْثُمَا تَحَرَّكَتْ مَشَىٰ فِي رِكَابِهَا النَّصْرُ وَالْغَلَبُ ...

« وَأَنَّهَا سَتَنْدَفِعُ دَائِمًا إِلَىٰ الْأَمَامِ ...

« حَتَّىٰ يُصْبِحَ الْغَرْبُ الْمَغْلُوبُ كَالشَّرْقِ ...

« يُطَأْطِئُ الرَّأْسَ إِجْلَالًا لِاسْمِ مُحَمَّدٍ ...

« وَحَتَّىٰ يَنْهَضَ الْحَاجُّ مِنْ أَقَاصِي الْمُتَجَمِّدِ[2] ...

« إِلَىٰ أَنْ يَطَأَ بِأَقْدَامِ الْإِيمَانِ الرِّمَالَ الْمُحْرِقَةَ ...

« الْمُنْتَثِرَةَ[3] عَلَىٰ صَحْرَاءِ الْعَرَبِ ...

« وَيَقِفَ فَوْقَ صُخُورِ مَكَّةَ الصَّلْدَةِ ...» .

* * *

لَمْ تَكُنْ أَيُّهَا الشَّاعِرُ بَعِيدًا عَنِ الْحَقِيقَةِ .

أَوْ هَائِمًا فِي أَوْدِيَةِ الْخَيَالِ فِي كَثِيرٍ مِمَّا قُلْتَ .

فَقَدْ كَانَتِ الْجُيُوشُ الَّتِي قَادَهَا الْمُجَاهِدُونَ لِإِخْرَاجِ آبَائِكَ مِنْ جَاهِلِيَّتِهِمُ الْجَهْلَاءِ[4] كَمَا وَصَفْتَ ...

فَفِيهَا عَرَبٌ أَقْوِيَاءُ بِاللَّهِ هَبُّوا إِلَيْكُمْ .

مِنَ الشَّامِ ...

مِنَ الْحِجَازِ ...

مِنْ نَجْدٍ ...

---

(١) مشبوبة : متقدة.

(٢) المتجمد : القطب الشمالي.

(٣) المنتثرة : المتساقطة.

(٤) الجهلاء : المغرقة في الجهل.

مِنَ الْيَمَنِ ...

مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ ...

كَمَا تَهُبُّ الرِّيحُ الْمُرْسَلَةُ .

وَفِيهَا « بَرْبَرٌ » أَعِزَّةٌ بِالْإِسْلَامِ ؛ تَدَفَّقُوا عَلَيْكُمْ مِنْ فَوْقِ جِبَالِ الْأَطْلَسِ(١) كَمَا يَتَدَفَّقُ السَّيْلُ الْعَرِمُ(٢)...

وَفِيهَا « فُرْسٌ » عَافَتْ(٣) عُقُولُهُمْ وَثَنِيَّةَ الْأَكَاسِرَةِ(٤)، وَفَاءَتْ إِلَىٰ دِينِ التَّوْحِيدِ ...

وَصِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ .

وَفِيهَا « رُومٌ » خَوَارِجُ ، كَمَا قُلْتَ ...

وَلَٰكِنَّهُمْ خَرَجُوا عَلَىٰ الظُّلْمِ ، وَالظُّلُمَاتِ ...

وَانْحَازُوا إِلَىٰ نُورِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ...

وَهُدُوا إِلَىٰ دِينِ الْقَيِّمَةِ(٥).

وَفِيهَا « قِبْطٌ » رَفَعُوا عَنْ رِقَابِهِمْ نِيرَ الْعُبُودِيَّةِ لِلْقَيَاصِرَةِ(٦).

لِيَعِيشُوا كَمَا وَلَدَتْهُمْ أُمَّهَاتُهُمْ أَحْرَارًا فِي أَكْنَافِ(٧) الْإِسْلَامِ ...

نَعَمْ لَقَدْ كَانَ الْجَيْشُ الَّذِي قَادَهُ عَبْدُ الرَّحْمَٰنِ الْغَافِقِيُّ وَأَسْلَافُهُ لِإِنْقَاذِ أَجْدَادِكَ مِنَ الْجَاهِلِيَّةِ ... فِيهِ الْأَبْيَضُ وَالْأَسْوَدُ ، وَالْعَرَبِيُّ وَالْأَعْجَمِيُّ .

---

(١) جبال الأطلس : الجبال الواقعة بين المغرب العربي وإسبانيا .
(٢) السّيل العَرِم : السّيل المتدفق الجارف .
(٣) عَافَتْ : كرهت واشمأزّت .
(٤) الأكاسرة : ملوك الفرس .
(٥) دِين القيِّمة : الدِّين المستقيم الذي لا يأتيه الباطل .
(٦) القياصرة : ملوك الرّوم .
(٧) أكناف الإسلام : حمى الإسلام وحرزه .

لَكِنَّهُمْ انْصَهَرُوا جَمِيعًا فِي بَوْتَقَةِ[1] الْإِسْلَامِ ...

فَأَصْبَحُوا بِنِعْمَةِ اللَّهِ إِخْوَانًا .

وَقَدْ كَانَ هَمُّهُمْ ـ كَمَا ذَكَرْتَ ـ أَنْ يُدْخِلُوا الْغَرْبَ فِي دِينِ اللَّهِ كَمَا أَدْخَلُوا الشَّرْقَ مِنْ قَبْلُ .

وَأَنْ يَجْعَلُوا الْبَشَرِيَّةَ كُلَّهَا تُطَأْطِئُ[2] الرَّأْسَ لِإِلَٰهِ النَّاسِ .

وَأَنْ يَعُمَّ نُورُ الْإِسْلَامِ بِطَاحَكُمْ[3] وَأَوْدِيَتَكُمْ .

وَأَنْ تُشْرِقَ شَمْسُهُ فِي كُلِّ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِكُمْ .

وَأَنْ يُسَوِّيَ عَدْلُهُ بَيْنَ مُلُوكِكُمْ وَسُوقَتِكُمْ[4] .

وَكَانُوا قَدْ عَزَمُوا عَلَىٰ أَنْ يَدْفَعُوا أَرْوَاحَهُمْ ثَمَنًا لِهِدَايَتِكُمْ إِلَىٰ اللَّهِ ...

وَ إِنْقَاذِكُمْ مِنَ النَّارِ ...

* * *

وَبَعْدُ ... فَإِلَيْكُمْ الْقِصَّةَ الْأَخِيرَةَ لِهَٰذَا الْجَيْشِ .

وَخَبَرَ بَطَلِهِ الْفَذِّ عَبْدِ الرَّحْمَٰنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْغَافِقِيِّ .

تَنَاهَتْ إِلَىٰ « دُوقِ أُكْتَانِيَةَ » الْأَخْبَارُ الْمُفْزِعَةُ عَنْ مَصْرَعِ صِهْرِهِ عُثْمَانَ بْنِ أَبِي نُسْعَةَ[5] .

وَبَلَغَتْهُ أَنْبَاءُ النِّهَايَةِ الْحَزِينَةِ الَّتِي صَارَتْ إِلَيْهَا ابْنَتُهُ الْحَسْنَاءُ « مِينِينُ »[6] ...

(١) الْبوتقة : الْوعاء الّذي يذيب فيه الصائغ الذّهب والْفضة .
(٢) تطأطئ : تخفض .
(٣) بطاحكم : سهولكم .
(٤) سوقتكم : عامتكم .
(٥) انظر خبره في : « عبد الرّحمٰن الْغافقي أمير الْأندلس » .
(٦) انظر خبرها في : « عبد الرّحمٰن الْغافقي أمير الأندلس » .

فَأَدْرَكَ أَنَّ طُبُولَ الْحَرْبِ قَدْ دَقَّتْ ...

وَأَيْقَنَ أَنَّ أَسَدَ الْإِسْلَامِ عَبْدَ الرَّحْمَٰنِ الْغَافِقِيَّ مُمْسٍ فِي دِيَارِهِ، أَوْ مُصْبِحٌ ...

فَتَأَهَّبَ لِلدِّفَاعِ عَنْ كُلِّ شِبْرٍ مِنْ أَرْضِهِ؛ دِفَاعَ الْمُسْتَمِيتِ.

وَاسْتَعَدَّ لِلنِّضَالِ دُونَ نَفْسِهِ وَمَمْلَكَتِهِ؛ اسْتِعْدَادَ الْمُسْتَبْسِلِ ...

فَقَدْ كَانَ يَخْشَىٰ أَنْ يُسَاقَ هُوَ الْآخَرُ أَسِيرًا إِلَىٰ دَارِ الْخِلَافَةِ فِي الشَّامِ كَمَا سِيقَتِ ابْنَتُهُ.

أَوْ أَنْ يُحْمَلَ رَأْسُهُ عَلَىٰ طَبَقٍ، وَيُطَافَ بِهِ فِي أَسْوَاقِ «دِمَشْقَ» كَمَا طِيفَ بِرَأْسِ «لُذَرِيقَ» مَلِكِ إِسْبَانِيَا مِنْ قَبْلُ.

* * *

لَمْ يُكَذِّبْ عَبْدُ الرَّحْمَٰنِ الْغَافِقِيُّ ظَنَّ الدُّوقِ ...

فَانْطَلَقَ بِجَيْشِهِ اللَّجِبِ(١) مِنْ شِمَالِ «الْأَنْدَلُسِ» كَمَا يَنْطَلِقُ الْإِعْصَارُ(٢).

وَانْصَبَّ عَلَىٰ جَنُوبِ «فَرَنْسَا» مِنْ فَوْقِ جِبَالِ «الْبِرِنيهْ» كَمَا يَنْصَبُّ السَّيْلُ.

وَكَانَتْ عِدَّةُ جَيْشِهِ مِائَةَ أَلْفِ مُجَاهِدٍ.

بَيْنَ جَوَانِحِ كُلٍّ مِنْهُمْ قَلْبُ أَسَدٍ ...

وَفِي عُرُوقِهِ عَزْمَةُ مَارِدٍ(٣) ...

* * *

(١) اللَّجب: الكثيف الجرار.
(٢) الإعصار: ريح تقذف مياه البحار والتراب. (٣) المارد: القوي الذي لا يُغلب.

يَمَّمَ[1] الْجَيْشُ الْإِسْلَامِيُّ وَجْهَهُ شَطْرَ مَدِينَةِ «آرِلَ»[2] الْوَاقِعَةِ عَلَىٰ ضِفَافِ نَهْرِ «الرُّونِ».

فَلَقَدْ كَانَ لَهُ مَعَهَا حِسَابٌ...

ذَلِكَ أَنَّ «آرِلَ» هَٰذِهِ كَانَتْ قَدْ صَالَحَتِ الْمُسْلِمِينَ عَلَىٰ أَنْ تَدْفَعَ لَهُمُ الْجِزْيَةَ.

فَلَمَّا اسْتُشْهِدَ السَّمْحُ بْنُ مَالِكٍ الْخَوْلَانِيُّ فِي مَعْرَكَةِ «تُولُوزَ»[3]، وَتَضَعْضَعَ الْمُسْلِمُونَ لِمَصْرَعِهِ؛ نَبَذَ[4] أَهْلُ «آرِلَ» الطَّاعَةَ، وَنَكَثُوا الْعَهْدَ، وَامْتَنَعُوا عَنْ دَفْعِ الْجِزْيَةِ.

وَلَمَّا بَلَغَ عَبْدُ الرَّحْمَٰنِ الْغَافِقِيُّ ضَوَاحِيَ الْمَدِينَةِ، وَجَدَ أَنَّ «أُوْدَ» «دُوقَ أُكْتَانْيَةَ» قَدْ عَبَّأَ قُوَّاتِهِ الْكَثِيفَةَ عِنْدَهَا.

وَحَشَدَهَا حَوْلَ تُخُومِهَا...

وَتَصَدَّىٰ[5] لِرَدِّ الزَّحْفِ الْإِسْلَامِيِّ عَلَيْهَا...

ثُمَّ مَا لَبِثَ أَنِ الْتَقَى الْجَيْشَانِ وَجْهًا لِوَجْهٍ.

وَدَارَتْ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ مَعْرَكَةٌ طَحُونٌ[6]...

قَذَفَ خِلَالَهَا عَبْدُ الرَّحْمَٰنِ الْغَافِقِيُّ بِكَتَائِبَ مِنْ جَيْشِهِ تُحِبُّ الْمَوْتَ أَكْثَرَ مِمَّا يُحِبُّ أَعْدَاؤُهَا الْحَيَاةَ، فَزَلْزَلَ أَقْدَامَ الْعَدُوِّ... وَمَزَّقَ صُفُوفَهُ...

وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ فِي هَٰذِهِ الْمَرَّةِ حَرْبًا.

(١) يمّم وجهه: ولّى وجهه، واتجه.
(٢) ARLES: مدينة في جنوب فرنسا على نهر الرون شمالي مرسيليا.
(٣) TOULOUSE: مدينة في جنوب فرنسا على نهر الغارون وهي قاعدة محافظة غارون العليا.
(٤) نبذوا الطّاعة: عصوا وخرجوا على الطّاعة.
(٥) تصدّى: اتجه وتعرّض.
(٦) طحون: طاحنة، قاسية.

فَأَعْمَلَ السَّيْفَ فِي رِقَابِ أَهْلِهَا.

وَأَثْخَنَ[1] فِيهِمْ إِثْخَانًا.

وَغَنِمَ مِنْهُمْ غَنَائِمَ عَزَّتْ عَلَى الْحَصْرِ.

أَمَّا الدُّوقُ «أُودُ» فَقَدْ فَرَّ بِمَنْ بَقِيَ حَيًّا مِنْ جُنُودِهِ...

وَطَفِقَ يُعِدُّ الْعُدَّةَ لِلِقَاءٍ آخَرَ مَعَ جُيُوشِ الْمُسْلِمِينَ.

فَقَدْ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ مَعْرَكَةَ «آرِلَ» كَانَتْ بِدَايَةَ الطَّرِيقِ، وَلَيْسَتْ نِهَايَتَهُ.

* * *

عَبَرَ عَبْدُ الرَّحْمَٰنِ الْغَافِقِيُّ بِجَيْشِهِ الْجَرَّارِ نَهْرَ «الْجَارُونَ»[2]، وَطَفِقَتْ كَتَائِبُهُ الظَّافِرَةُ تَجُوسُ[3] مُقَاطَعَةَ «أُكْتَانْيَةَ» ذَاتَ الْيَمِينِ، وَذَاتَ الشِّمَالِ.

وَأَخَذَتِ الْمُدُنُ وَالْقُرَىٰ تَتَسَاقَطُ تَحْتَ سَنَابِكِ[4] خَيْلِهِ كَمَا تَتَسَاقَطُ أَوْرَاقُ الشَّجَرِ فِي فَصْلِ الْخَرِيفِ إِذَا هَبَّتْ عَلَيْهَا الرِّيَاحُ الْهُوجُ[5].

وَأَضَافَ الْمُسْلِمُونَ إِلَىٰ غَنَائِمِهِمُ السَّابِقَةِ غَنَائِمَ لَاحِقَةً لَمْ تَرَهَا عَيْنٌ مِنْ قَبْلُ...

وَلَمْ تَسْمَعْ بِهَا أُذُنٌ...

وَقَدْ حَاوَلَ دُوقُ «أُكْتَانْيَةَ» أَنْ يَتَصَدَّىٰ لِهَٰذَا الزَّحْفِ الْكَبِيرِ مَرَّةً أُخْرَىٰ فَاشْتَبَكَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ فِي مَعْرَكَةٍ ضَرُوسٍ.

---

(١) أَثْخَنَ: اشتدَّ في قتلهم وبالغ فيه أشدَّ المبالغة.

(٢) GARONNE: نهر في جنوب غربي فرنسا ٦٥٠ كم ينبع من إسبانيا ويروي تولوز، وآجن وبوردو، ويصب في الأطلسي.

(٣) تجوس: تجول وتستقصي.

(٤) سنابك خيله: حوافر جياده.

(٥) الهوج: التي تقلع البيوت.

لَكِنَّ الْمُسْلِمِينَ مَا لَبِثُوا أَنْ هَزَمُوهُ هَزِيمَةً طَاحِنَةً[1]...

وَأَنْزَلُوا بِهِ نَكْبَةً سَاحِقَةً مُدَمِّرَةً...

وَمَزَّقُوا جَيْشَهُ شَرَّ مُمَزَّقٍ...

وَتَرَكُوا جُنْدَهُ بَيْنَ قَتِيلٍ، وَأَسِيرٍ، وَهَزِيمٍ[2].

* * *

ثُمَّ اتَّجَهَ الْمُسْلِمُونَ إِلَىٰ مَدِينَةِ «بُورْدُو»[3] كُبْرَىٰ الْمُدُنِ «الْإِفْرَنْسِيَّةِ» آنَذَاكَ، وَعَاصِمَةِ مُقَاطَعَةِ «أُكْتَانْيَةَ».

وَخَاضُوا مَعَ أَمِيرِهَا مَعْرَكَةً لَا تَقِلُّ هَوْلًا عَنِ الْمَعَارِكِ السَّابِقَةِ...

اسْتَبْسَلَ فِيهَا الْمُهَاجِمُونَ وَالْمُدَافِعُونَ اسْتِبْسَالًا يُثِيرُ الْعَجَبَ وَالْإِعْجَابَ[4]...

لَكِنَّ الْمَدِينَةَ الْكَبِيرَةَ الْخَطِيرَةَ مَا لَبِثَتْ أَنْ سَقَطَتْ فِي أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ كَمَا سَقَطَتْ أَخَوَاتُهَا مِنْ قَبْلُ.

وَمَا لَبِثَ أَمِيرُهَا أَنْ قُتِلَ فِي جُمْلَةِ الْقَتْلَىٰ.

وَأَحْرَزَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ غَنَائِمِ «بُورْدُو» مَا هَوَّنَ[5] فِي أَعْيُنِهِمْ كُلَّ مَا أَحْرَزُوهُ مِنْ غَنَائِمَ.

وَقَدْ كَانَ سُقُوطُ «بُورْدُو» فِي أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ فَاتِحَةً لِسُقُوطِ مُدُنٍ أُخْرَىٰ كَثِيرَةٍ خَطِيرَةٍ.

---

(١) الطّاحنة: الّتي تطحن ما تقع عليه طحنًا.

(٢) هزيم: مهزوم.

(٣) BORDEAUX: مرفأ في فرنسا على نهر الغارون وهي الآن قاعدة محافظة جيرونده.

(٤) الإعجاب: الإكبار والدّهشة.

(٥) ما هوّن في أعينهم: ما جعلهم يستخفّون به ويعتبرونه قليلًا.

أَهَمُّهَا « لِيونُ »[١] وَ« بِيزَانْسُونُ »[٢] وَ« سَانْسُ SENS» .

وَكَانَتْ هَٰذِهِ الْأَخِيرَةُ لَا تَبْعُدُ عَنْ « بَارِيسَ » أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ مِيلٍ .

* * *

اهْتَزَّتْ « أُورُبَّا » مِنْ أَقْصَاهَا إِلَىٰ أَقْصَاهَا لِسُقُوطِ نِصْفِ « فَرَنْسَا » الْجَنُوبِيِّ كُلِّهِ فِي يَدَيْ عَبْدِ الرَّحْمَٰنِ الْغَافِقِيِّ خِلَالَ بِضْعَةِ أَشْهُرٍ ...

وَفَتَحَ الْفِرَنْجَةُ أَعْيُنَهُمْ عَلَىٰ الْخَطَرِ الدَّاهِمِ[٣].

وَدَبَّ الصَّرِيخُ فِي كُلِّ مَكَانٍ يَدْعُو الْعَجَزَةَ وَالْقَادِرِينَ إِلَىٰ الْوُقُوفِ فِي وَجْهِ هَٰذَا الْهَوْلِ[٤] الْقَادِمِ مِنَ الشَّرْقِ .

وَيَحُضُّهُمْ عَلَىٰ التَّصَدِّي لَهُ بِالصُّدُورِ إِذَا عَزَّتِ السُّيُوفُ .

وَيَدْعُوهُمْ إِلَىٰ سَدِّ الطَّرِيقِ أَمَامَهُ بِالْأَجْسَادِ إِذَا انْعَدَمَ الْعَتَادُ[٥].

فَاسْتَجَابَتْ « أُورُبَّا » لِدَعْوَةِ الدَّاعِي .

وَأَقْبَلَ النَّاسُ عَلَىٰ الِانْضِوَاءِ تَحْتَ لِوَاءِ « شَارْلَ مَارْتِلْ » وَمَعَهُمُ الشَّجَرُ ، وَالْحَجَرُ ، وَالشَّوْكُ ، وَالسِّلَاحُ .

* * *

كَانَ الْجَيْشُ الْإِسْلَامِيُّ آنَذَاكَ قَدْ بَلَغَ مَدِينَةَ « تُورَ TOURS» طَلِيعَةَ مُدُنِ « فَرَنْسَا » وَفْرَةً فِي السُّكَّانِ ، وَقُوَّةً فِي الْبُنْيَانِ ، وَعَرَاقَةً[٦] فِي التَّارِيخِ ...

وَكَانَتِ الْمَدِينَةُ ـ فَوْقَ ذَلِكَ ـ تَخْتَالُ[٧] عَلَىٰ أَكْثَرِ مُدُنِ « أُورُبَّا » بِكَنِيسَتِهَا الْفَخْمَةِ ، الضَّخْمَةِ ، الْعَامِرَةِ بِجَلِيلِ الْأَعْلَاقِ[٨]، وَكَرِيمِ النَّفَائِسِ .

---

(١) LYON : مدينة في جنوب شرقي فرنسا على ملتقى الرون والسون وهي قاعدة محافظة الرون.

(٢) BESANCON : مدينة في شرق فرنسا على نهر دو قاعدة محافظة دو.

(٣) الدَّاهم: المفاجئ.

(٤) الْهَوْل: الخطر المرعب.

(٥) الْعَتاد: كل ما أعِدَّ من سلاح ودواب وآلة حرب.

(٦) عَراقة: قِدَمًا ومكانةً وسموًا.

(٧) تختال: تعتز وتتباهى.

(٨) الأعلاق: الآثار القديمة، النفيسة الثمينة.

فَأَحَاطَ بِهَا الْمُسْلِمُونَ إِحَاطَةَ الْغُلِّ[1] بِالْعُنُقِ ...

وَانْصَبُّوا عَلَيْهَا انْصِبَابَ الْمَنُونِ إِذَا جَاءَ الْأَجَلُ ...

وَاسْتَرْخَصُوا فِي سَبِيلِ افْتِتَاحِهَا الْأَرْوَاحَ وَالْمُهَجَ ...

فَمَا لَبِثَتْ أَنْ سَقَطَتْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ عَلَىٰ مَرْأَىٰ « شَارْلَ مَارْتِلْ » وَمَسْمَعِهِ ...

* * *

وَفِي الْعَشْرِ الْأَخِيرَةِ مِنْ شَهْرِ شَعْبَانَ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَمِائَةٍ لِلْهِجْرَةِ ؛ زَحَفَ عَبْدُ الرَّحْمَـٰنِ الْغَافِقِيُّ بِجَيْشِهِ اللَّجِبِ عَلَىٰ مَدِينَةِ « بُوَاتْيِيهْ POITIERS» .

وَهُنَاكَ الْتَقَىٰ مَعَ جُيُوشِ أُورُبَّا الْجَرَّارَةِ بِقِيَادَةِ « شَارْلَ مَارْتِلْ » .

وَوَقَعَتْ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ إِحْدَىٰ الْمَعَارِكِ الْفَاصِلَةِ لَا فِي تَارِيخِ الْمُسْلِمِينَ وَالْفِرَنْجَةِ فَحَسْبُ ...

وَ إِنَّمَا فِي تَارِيخِ الْبَشَرِيَّةِ كُلِّهَا .

وَقَدْ عُرِفَتْ هَـٰذِهِ الْمَعْرَكَةُ بِمَعْرَكَةِ بَلَاطِ الشُّهَدَاءِ .

* * *

كَانَ الْجَيْشُ الْإِسْلَامِيُّ يَوْمَئِذٍ فِي ذُرْوَةِ انْتِصَارَاتِهِ الْبَاهِرَةِ .

لَكِنَّ كَاهِلَهُ[2] كَانَ مُثْقَلًا بِتِلْكَ الْغَنَائِمِ الَّتِي انْصَبَّتْ عَلَيْهِ انْصِبَابَ الْغَيْثِ ...

وَتَكَدَّسَتْ فِي أَيْدِي جُنُودِهِ تَكَدُّسَ السُّحُبِ ...

وَقَدْ نَظَرَ عَبْدُ الرَّحْمَـٰنِ الْغَافِقِيُّ إِلَىٰ هَـٰذِهِ الثَّرْوَةِ الطَّائِلَةِ الْهَائِلَةِ نَظْرَةَ قَلَقٍ وَ إِشْفَاقٍ[3].

(١) الْغُل : الْقيد.
(٢) كَاهِله : ظهره.
(٣) إشفاق : خوف وحذر.

وَتَوَجَّسَ(١) مِنْهَا خِيفَةً عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ.

فَقَدْ كَانَ لَا يَأْمَنُ أَنْ تَشْغَلَ هَٰذِهِ النَّفَائِسُ قُلُوبَهُمْ عِنْدَ اللِّقَاءِ...

وَأَنْ تُوَزِّعَ نُفُوسَهُمْ فِي لَحَظَاتِ الْبَأْسِ(٢)...

وَأَنْ تَجْعَلَ إِحْدَىٰ عَيْنَيِ الْوَاحِدِ مِنْهُمْ عَلَىٰ الْعَدُوِّ الْمُقْبِلِ عَلَيْهِ...

وَعَيْنَهُ الْأُخْرَىٰ عَلَىٰ الْغَنَائِمِ الَّتِي فِي يَدَيْهِ...

وَلَقَدْ هَمَّ بِأَنْ يَأْمُرَ جُنُودَهُ بِالتَّخَلُّصِ مِنْ هَٰذِهِ الثَّرَوَاتِ الطَّائِلَةِ الْهَائِلَةِ...

وَلَٰكِنَّهُ خَشِيَ أَلَّا تَطِيبَ قُلُوبُهُمْ(٣) بِذَٰلِكَ الْقَرَارِ الْخَطِيرِ...

وَأَلَّا تَسْمَحَ نُفُوسُهُمْ بِالتَّخَلِّي عَنْ ذَٰلِكَ الْكَنْزِ الثَّمِينِ.

فَلَمْ يَجِدْ وَسِيلَةً خَيْرًا مِنْ أَنْ يَجْمَعَ هَٰذِهِ الْمَغَانِمَ فِي مُخَيَّمَاتٍ خَاصَّةٍ...

وَأَنْ يَجْعَلَهَا وَرَاءَ الْمُعَسْكَرِ قَبْلَ إِنْشَابِ(٤) الْقِتَالِ.

* * *

وَقَفَ الْجَيْشَانِ الْكَبِيرَانِ بِضْعَةَ أَيَّامٍ كُلٌّ مِنْهُمَا قُبَالَةَ(٥) الْآخَرِ فِي سُكُونٍ، وَتَرَقُّبٍ وَصَمْتٍ، كَمَا تَقِفُ سِلْسِلَتَانِ مِنَ الْجِبَالِ إِحْدَاهُمَا فِي وَجْهِ الْأُخْرَىٰ.

فَقَدْ كَانَ كُلٌّ مِنَ الْجَيْشَيْنِ يَخْشَىٰ بَأْسَ عَدُوِّهِ، وَيَحْسِبُ لِلِقَائِهِ أَلْفَ حِسَابٍ.

فَلَمَّا طَالَ الْوَقْتُ عَلَىٰ هَٰذِهِ الْحَالِ، وَوَجَدَ عَبْدُ الرَّحْمَٰنِ الْغَافِقِيُّ

(١) توجّس خيفة: أحسّ بالفزع.
(٢) البأس: الشدّة.
(٣) تطيب قلوبهم: ترتاح نفوسهم وتجود أيديهم.
(٤) إنشاب القتال: إثارة الحرب.
(٥) قبالة الآخر: في مواجهة الآخر.

مَرَاجِلَ[1] الْحَمِيَّةِ وَالْإِقْدَامِ تَغْلِي فِي صُدُورِ رِجَالِهِ، آثَرَ أَنْ يَكُونَ هُوَ الْبَادِئَ بِالْهُجُومِ مُعْتَمِدًا عَلَىٰ مَنَاقِبِ[2] جُنْدِهِ...

مُتَفَائِلًا بِحُسْنِ طَالِعِهِ[3] فِي النَّصْرِ.

* * *

انْقَضَّ عَبْدُ الرَّحْمَٰنِ الْغَافِقِيُّ بِفُرْسَانِهِ عَلَىٰ صُفُوفِ الْفِرَنْجَةِ انْقِضَاضَ الْأُسُودِ الْكَاسِرَةِ.

وَصَمَدَ لَهُمُ الْفِرَنْجَةُ صُمُودَ الْأَطْوَادِ[4] الرَّاسِخَةِ.

وَانْقَضَىٰ الْيَوْمُ الْأَوَّلُ مِنْ أَيَّامِ الْمَعْرَكَةِ دُونَ أَنْ تَرْجُحَ فِيهِ كَفَّةٌ عَلَىٰ كَفَّةٍ...

وَلَمْ يَحْجِزْ بَيْنَ الْمُتَقَاتِلِينَ غَيْرُ هُبُوطِ الظَّلَامِ عَلَىٰ مَيْدَانِ الْقِتَالِ...

ثُمَّ تَجَدَّدَ النِّزَالُ فِي الْيَوْمِ التَّالِي، وَحَمَلَ الْمُسْلِمُونَ عَلَىٰ الْفِرَنْجَةِ حَمَلَاتٍ بَاسِلَةً، وَلَٰكِنَّهُمْ لَمْ يَنَالُوا مِنْهُمْ وَطَرًا[5].

وَظَلَّتِ الْمَعْرَكَةُ تَدُورُ عَلَىٰ هَٰذِهِ الْحَالِ سَبْعَةَ أَيَّامٍ طَوِيلَةً ثَقِيلَةً.

فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الثَّامِنُ كَرَّ الْمُسْلِمُونَ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ كَرَّةً وَاحِدَةً.

فَفَتَحُوا فِي صُفُوفِهِ ثُغْرَةً كَبِيرَةً لَاحَ لَهُمْ مِنْ خِلَالِهَا النَّصْرُ كَمَا يَلُوحُ ضَوْءُ الصُّبْحِ مِنْ خِلَالِ الظَّلَامِ.

عِنْدَ ذَٰلِكَ أَغَارَتْ فِرْقَةٌ مِنْ كَتَائِبِ الْفِرَنْجَةِ عَلَىٰ مُعَسْكَرَاتِ الْغَنَائِمِ.

فَلَمَّا رَأَىٰ الْمُسْلِمُونَ أَنَّ غَنَائِمَهُمْ قَدْ أَوْشَكَتْ أَنْ تَقَعَ فِي أَيْدِي أَعْدَائِهِمْ.

(١) المراجِلَ: المواقد، والمِرجَلُ: القِدْر أيضًا.
(٢) المناقب: المزايا والخصائص.
(٣) طالعه: حظُّه.
(٤) الأطواد: الجبال.
(٥) وطرًا: بُغْيَةً.

انْكَفَأَ[1] كَثِيرٌ مِنْهُمْ لِاسْتِخْلَاصِهَا مِنْهُ .

فَتَصَدَّعَتْ لِذَٰلِكَ صُفُوفُهُمْ ...

وَتَضَعْضَعَتْ جُمُوعُهُمْ ...

وَذَهَبَتْ رِيحُهُمْ[2] ...

فَهَبَّ الْقَائِدُ الْعَظِيمُ يَعْمَلُ عَلَىٰ رَدِّ الْمُنْكَفِئِينَ ...

وَمُدَافَعَةِ الْمُهَاجِمِينَ ...

وَسَدِّ الثُّغُورِ[3] ...

وَفِيمَا كَانَ بَطَلُ الْإِسْلَامِ عَبْدُ الرَّحْمَٰنِ الْغَافِقِيُّ يَذْرَعُ أَرْضَ الْمَعْرَكَةِ عَلَىٰ صَهْوَةِ[4] جَوَادِهِ الْأَشْهَبِ[5] جِيئَةً وَذَهَابًا ...

وَكَرًّا وَفَرًّا ...

أَصَابَهُ سَهْمٌ نَافِذٌ فَهَوَىٰ عَنْ مَتْنِ فَرَسِهِ كَمَا يَهْوِي الْعُقَابُ[6] مِنْ فَوْقِ قِمَمِ الْجِبَالِ .

وَثَوَىٰ صَرِيعًا شَهِيدًا عَلَىٰ أَرْضِ الْمَعْرَكَةِ .

فَلَمَّا رَأَىٰ الْمُسْلِمُونَ ذَٰلِكَ عَمَّهُمُ الذُّعْرُ وَسَادَهُمُ الِاضْطِرَابُ .

وَاشْتَدَّتْ عَلَيْهِمْ وَطْأَةُ الْعَدُوِّ ، وَلَمْ يُوقِفْ بَأْسَهُ عَنْهُمْ إِلَّا حُلُولُ الظَّلَامِ .

* * *

(١) انكفأ : تراجع .
(٢) ريحهم : قوتهم وغلبتهم .
(٣) الثغور : الأماكن التي ينفذ منها العدو .
(٤) الصهوة : مقعد الفارس من الفرس .
(٥) الأشهب : الذي خالط بياضه سواده .
(٦) العقاب : طائر من الجوارح قوي المخالب ذو منقار أعقف .... انظر كتاب « الصيد عند العرب » للمؤلف

فَلَمَّا أَصْبَحَ الصُّبْحُ وَجَدَ « شَارْلُ مَارْتِلْ » أَنَّ الْمُسْلِمِينَ قَدِ انْسَحَبُوا مِنْ « بُوَاتْيِيهْ » .

فَلَمْ يَجْرُؤْ عَلَىٰ مُطَارَدَتِهِمْ ...

وَلَوْ طَارَدَهُمْ لَأَفْنَاهُمْ .

ذَلِكَ أَنَّهُ خَشِيَ أَنْ يَكُونَ انْسِحَابُهُمْ مَكِيدَةً مِنْ مَكَائِدِ الْحَرْبِ دُبِّرَتْ(١) فِي لَيْلٍ ...

فَآثَرَ الْبَقَاءَ فِي مَوَاقِعِهِ مُكْتَفِيًا بِذَلِكَ النَّصْرِ الْكَبِيرِ .

لَقَدْ كَانَ يَوْمُ بَلَاطِ الشُّهَدَاءِ يَوْمًا حَاسِمًا فِي التَّارِيخِ .

أَضَاعَ فِيهِ الْمُسْلِمُونَ أَمَلًا مِنْ أَعَزِّ الْآمَالِ ...

وَفَقَدُوا خِلَالَهُ بَطَلًا مِنْ أَعْظَمِ الْأَبْطَالِ ...

وَتَكَرَّرَتْ فِيهِ مَأْسَاةُ يَوْمِ « أُحُدٍ »(٢) ...

سُنَّةُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ ...

وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ...

* * *

هَزَّتْ أَنْبَاءُ فَاجِعَةِ يَوْمِ بَلَاطِ الشُّهَدَاءِ نُفُوسَ الْمُسْلِمِينَ فِي كُلِّ مَكَانٍ هَزًّا عَنِيفًا ...

وَزُلْزِلَتْ(٣) لِهَوْلِهَا أَفْئِدَتُهُمْ زِلْزَالًا شَدِيدًا ...

وَعَمَّ الْحُزْنُ بِسَبَبِهَا كُلَّ مَدِينَةٍ ، وَكُلَّ قَرْيَةٍ ، وَكُلَّ بَيْتٍ .

---

(١) دُبِّرت في ليل : حيلة احتيل بها سِرًّا .
(٢) لقد كان الحرص على الغنائم في هذا اليوم وفي يوم « أُحدٍ » سببًا في هزيمة المسلمين .
(٣) زُلزلت : أُرْجِفَتْ .

وَمَا زَالَ جُرْحُهَا الْمُمِضُّ[1] يَنْزِفُ[2] مِنْ قُلُوبِهِمْ دَمًا حَتَّىٰ الْيَوْمِ .

وَسَيَظَلُّ يَنْزِفُ مَا بَقِيَ عَلَىٰ ظَهْرِ الْأَرْضِ مُسْلِمٌ .

* * *

وَلَا تَحْسَبَنَّ أَنَّ هَٰذَا الْجُرْحَ الْعَمِيقَ الْغَائِرَ قَدْ أَمَضَّ أَفْئِدَةَ الْمُسْلِمِينَ وَحْدَهُمْ .

وَإِنَّمَا شَارَكَهُمْ فِي ذَٰلِكَ طَائِفَةٌ مِنْ عُقَلَاءِ الْفِرَنْجَةِ .

رَأَوْا فِي انْتِصَارِ أَجْدَادِهِمْ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ فِي « بُوَاتْيِيهْ » مُصِيبَةً كُبْرَىٰ رُزِئَتْ[3] بِهَا الْإِنْسَانِيَّةُ .

وَخَسَارَةً عُظْمَىٰ أَصَابَتْ « أُورُبَّا » فِي صَمِيمِهَا ...

وَنَكْبَةً جُلَّىٰ نُكِبَتْ بِهَا الْحَضَارَةُ .

وَإِذَا شِئْتَ أَنْ تَقِفَ عَلَىٰ رَأْيِ بَعْضِ هَٰؤُلَاءِ فِي فَجِيعَةِ بَلَاطِ الشُّهَدَاءِ فَاسْتَمِعْ إِلَىٰ « هِنْرِي دِي شَامْبُون » مُدِيرِ مَجَلَّةِ « رِيفْي بَارْلِمِنْتِير » الْفَرَنْسِيَّةِ حَيْثُ قَالَ :

« لَوْلَا انْتِصَارُ جَيْشِ « شَارْلَ مَارْتِلْ » الْهَمَجِيِّ عَلَىٰ الْعَرَبِ الْمُسْلِمِينَ فِي « فَرَنْسَا » لَمَا وَقَعَتْ بِلَادُنَا فِي ظُلُمَاتِ الْقُرُونِ الْوُسْطَىٰ[4] ...

وَلَمَا أُصِيبَتْ بِفَظَائِعِهَا .

وَلَا كَابَدَتِ الْمَذَابِحَ الْأَهْلِيَّةَ الَّتِي دَفَعَ إِلَيْهَا التَّعَصُّبُ الدِّينِيُّ الْمَذْهَبِيُّ ...

---

(١) الْمُمِض : الموجع .

(٢) ينزف : يقطر دمًا .

(٣) رُزِئَتْ : فجعت .

(٤) الْقرون الْوسطىٰ : وهي الْقرون المظلمة الَّتي تمتد من سنة ٤٧٦ إلىٰ سنة ١٥٠٠م .

نَعَمْ ، لَوْلَا ذَلِكَ الِانْتِصَارُ الْوَحْشِيُّ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ فِي « بُوَاتْيِيهْ » لَظَلَّتْ « إِسْبَانِيَا » تَنْعَمُ بِسَمَاحَةِ الْإِسْلَامِ .

وَلَنَجَتْ مِنْ وَصْمَةِ مَحَاكِمِ التَّفْتِيشِ(١).

وَلَمَا تَأَخَّرَ سَيْرُ الْمَدَنِيَّةِ ثَمَانِيَةَ قُرُونٍ .

وَمَهْمَا اخْتَلَفَتِ الْمَشَاعِرُ وَالْآرَاءُ حَوْلَ انْتِصَارِنَا ذَاكَ .

فَنَحْنُ مَدِينُونَ لِلْمُسْلِمِينَ بِكُلِّ مَحَامِدِ حَضَارَتِنَا فِي الْعِلْمِ ، وَالْفَنِّ ، وَالصِّنَاعَةِ .

مَدْعُوُّونَ لِأَنْ نَعْتَرِفَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مِثَالَ الْكَمَالِ الْبَشَرِيِّ .

فِي الْوَقْتِ الَّذِي كُنَّا فِيهِ مِثَالَ الْهَمَجِيَّةِ .

وَافْتِرَاءٌ مَا نَدَّعِيهِ الْيَوْمَ مِنْ أَنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ(٢).

وَأَنَّ الْمُسْلِمِينَ وَصَلُوا فِي هَٰذَا الْعَصْرِ إِلَىٰ مَا كُنَّا عَلَيْهِ فِي الْعُصُورِ الْوُسْطَىٰ » (*) .

---

(١) محاكم التفتيش : هي المحاكم الَّتي عقدها فرديناند والملكة إيزابيلا للمسلمين في الأندلس وارتكبا فيها من الجرائم الإنسانية ما يندىٰ له جبين التاريخ .

(٢) استدار : قد عاد إلىٰ ما كان عليه .

(*) للاستزادة من أخبار عبد الرحمٰن الغافقي ووقعة بُواتييه انظر :

١ — ابن الأثير : ٥/ ٦٤.

٢ — غزوات العرب : ٨٧ - ١٠٢.

٣ — البيان المغرب : ٢/٢٦ - ٢٨.

٤ — نفح الطيب : ١/ ٤٨٠.

٥ — جمهرة الأنساب : ٣٠٩.

٦ — علماء الأندلس لابن الفرضي : ٢١٤.

٧ — جذوة المقتبس : ٢٥٣ - ٢٥٥.

النَّجَاشِيُّ

أَصْحَمَةُ بْنُ أَبْجَرَ

«لَمَّا مَاتَ النَّجَاشِيُّ كُنَّا نَتَحَدَّثُ أَنَّهُ لَا يَزَالُ يُرَىٰ عَلَى قَبْرِهِ نُورٌ ...»

[عائشة أمّ المؤمنين]

عَلِمْنَا هَٰذَا تَابِعِيٌّ إِذَا ذُكِرَ التَّابِعُونَ ...

صَحَابِيٌّ إِذَا عُدَّ الصَّحَابَةُ ...

رَاسَلَ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَرَاسَلَهُ النَّبِيُّ ﷺ...

وَلَمَّا لَحِقَ بِالرَّفِيقِ الْأَعْلَىٰ(١) صَلَّىٰ عَلَيْهِ الرَّسُولُ ﷺ صَلَاةَ الْغَائِبِ؛ مَعَ أَنَّهُ لَمْ يُصَلِّ عَلَىٰ غَائِبٍ سِوَاهُ.

إِنَّهُ أَصْحَمَةُ بْنُ أَبْجَرَ الْمَعْرُوفُ بِالنَّجَاشِيِّ(٢)، فَتَعَالَوْا نَقْضِ هَٰذِهِ اللَّحَظَاتِ الْمُبَارَكَاتِ مَعَ هَٰذَا الْعَلَمِ(٣) الْفَذِّ مِنْ أَعْلَامِ الْمُسْلِمِينَ.

* * *

كَانَ وَالِدُ أَصْحَمَةَ مَلِكًا «لِلْأَحْبَاشِ» وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ سِوَاهُ.

فَقَالَ بَعْضُ زُعَمَاءِ «الْحَبَشَةِ» لِبَعْضٍ:

إِنَّ مَلِكَنَا لَا وَلَدَ لَهُ غَيْرَ هَٰذَا الْغُلَامِ...

وَإِنَّ ذَٰلِكَ سَيَفُتُّ فِي عَضُدِهِ(٤) وَهُوَ حَيٌّ، وَيَقْضِي عَلَىٰ مُلْكِهِ إِذَا مَاتَ، وَيَسُوقُنَا إِلَىٰ مَا لَا تُحْمَدُ عُقْبَاهُ(٥).

---

(١) لحق بالرفيق الأعلىٰ: توفّي.

(٢) أصحمة: اسمه، والنجاشي: لقب له ولملوك الحبشة، مثل كسرى لملك الفرس، وقيصر لملك الروم.

(٣) العلم: سيد القوم، والفذ: الفرد.

(٤) سيفت في عضده: يضعفه.

(٥) لا تحمد عقباه: لا يسرّ.

فَحَبَّذَا لَوْ قَتَلْنَاهُ ، وَمَلَّكْنَا أَخَاهُ ؛ فَإِنَّ لَهُ اثْنَيْ عَشَرَ وَلَدًا يُؤَازِرُونَهُ فِي حَيَاتِهِ ، وَيَرِثُونَهُ بَعْدَ مَمَاتِهِ .

وَمَا زَالَ يُوَسْوِسُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ ، وَيَبُثُّ فِي رَوْعِهِمْ مِنْ رَوْعِهِ[1]، حَتَّىٰ قَتَلُوا مَلِكَهُمْ ، وَبَايَعُوا أَخَاهُ مِنْ بَعْدِهِ .

* * *

نَشَأَ أَصْحَمَةُ فِي كَنَفِ[2] عَمِّهِ ، وَأَخَذَتْ بَرَاعِمُهُ تَتَفَتَّحُ عَنْ ذَكَاءٍ لَامِعٍ ، وَحَزْمٍ رَائِعٍ ، وَبَيَانٍ مُشْرِقٍ ، وَشَخْصِيَّةٍ فَذَّةٍ .

حَتَّىٰ مَلَأَ فُؤَادَ عَمِّهِ إِعْجَابًا بِهِ ، وَتَقْدِيرًا لِمَزَايَاهُ ، وَتَفْضِيلًا لَهُ عَلَىٰ أَبْنَائِهِ .

ثُمَّ وَسْوَسَ[3] الشَّيْطَانُ مَرَّةً أُخْرَىٰ لِسَادَةِ « الْأَحْبَاشِ » فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ :

وَاللَّهِ إِنَّا لَنَخْشَىٰ أَنْ يُفْضِيَ[4] الْمُلْكُ إِلَىٰ هَٰذَا الشَّابِّ .

وَلَئِنْ تَمَّ لَهُ ذَلِكَ ؛ لَيَنْتَقِمَنَّ مِنَّا شَرَّ انْتِقَامٍ ...

وَلَيَقْتُلَنَّنَا أَجْمَعِينَ جَزَاءَ مَا قَتَلْنَا أَبَاهُ .

ثُمَّ مَضَوْا إِلَىٰ الْمَلِكِ وَقَالُوا :

أَيُّهَا الْمَلِكُ إِنَّا لَا تَطِيبُ نُفُوسُنَا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُنَا ، إِلَّا إِذَا قَتَلْتَ أَصْحَمَةَ ، أَوْ أَخْرَجْتَهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِنَا ...

فَهَا هُوَ ذَا قَدْ شَبَّ ، وَ إِنَّا لَنَخْشَىٰ أَنْ يَنْتَقِمَ مِنَّا جَزَاءَ مَا قَتَلْنَا أَبَاهُ .

فَقَالَ لَهُمُ الْمَلِكُ : بِئْسَ الْقَوْمُ أَنْتُمْ ...

---

(١) يبث في رَوعهم من روعه : يثير مخاوفهم .
(٢) في كنف عمّه : في رعاية عمّه وحرزه .
(٣) وَسْوَسَ له : حدثه الشّيطان بالشّرّ وأغراه به .
(٤) يفضي : ينتهي .

لَقَدْ قَتَلْتُمْ أَبَاهُ بِالْأَمْسِ، وَتَطْلُبُونَ مِنِّي أَنْ أَقْتُلَهُ الْيَوْمَ !! ...

وَاللَّهِ لَا أَفْعَلُ.

فَقَالُوا: إِذَنْ نَأْخُذُهُ، وَنَرْمِي بِهِ خَارِجَ بِلَادِنَا ...

فَأَذْعَنَ(١) لَهُمْ عَلَىٰ كُرْهٍ مِنْهُ وَعَجْزٍ.

* * *

لَمْ يَمْضِ عَلَىٰ إِبْعَادِ أَصْحَمَةَ غَيْرُ يَوْمٍ وَبَعْضِ يَوْمٍ حَتَّىٰ وَقَعَ مَا لَمْ يَكُنْ فِي الْحُسْبَانِ.

فَلَقَدْ تَلَبَّدَ(٢) الْأُفُقُ بِالْغُيُومِ الدُّكْنِ ...

وَهَاجَتِ السَّمَاءُ بِالصَّوَاعِقِ وَمَاجَتْ(٣) ...

ثُمَّ سَقَطَتْ إِحْدَاهَا عَلَىٰ عَمِّهِ الْحَزِينِ عَلَىٰ فِرَاقِهِ، فَأَرْدَتْهُ قَتِيلًا ...

فَهَبَّ «الْأَحْبَاشُ» إِلَىٰ أَوْلَادِ الْمَلِكِ ؛ لِيَعْهَدُوا إِلَىٰ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِالْمُلْكِ، فَلَمْ يَجِدُوا فِيهِمْ خَيْرًا.

فَاشْتَدَّ عَلَيْهِمُ الْكَرْبُ(٤)، وَضَاقَ فِي وُجُوهِهِمُ الْأَمْرُ.

وَقَدْ زَادَهُمْ ضِيقًا وَكَرْبًا أَنَّ بَعْضَ الشُّعُوبِ الْمُجَاوِرَةِ «لِلْحَبَشَةِ» ؛ هَمَّتْ بِأَنْ تَغْتَنِمَ الْفُرْصَةَ، وَأَنْ تَغْزُوَ دِيَارَهُمْ ...

فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: وَاللَّهِ إِنَّهُ لَا يُقِيمُ أَمْرَكُمْ(٥)، وَيَحْفَظُ مُلْكَكُمْ أَحَدٌ غَيْرُ ذَلِكَ الْفَتَىٰ الَّذِي رَمَيْتُمْ بِهِ فِي الْأَمْسِ.

فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فِي أَمْرِ «الْحَبَشَةِ» حَاجَةٌ(٦) فَأَدْرِكُوهُ، وَأَعِيدُوهُ ...

---

(١) أذعن: انقاد.

(٢) تلبّد بالغيوم الدّكن: تكاثفت عليه الغيوم.

(٣) هاجت وماجت: ثارت، واضطربت.

(٤) الكرب: الحزن.

(٥) لا يقيم أمركم: لا يحقّق غرضكم.

(٦) حاجة: أرب.

ثُمَّ خَرَجُوا فِي طَلَبِهِ، وَأَعَادُوهُ إِلَىٰ وَطَنِهِ...

وَوَضَعُوا عَلَىٰ رَأْسِهِ التَّاجَ، وَبَايَعُوهُ بِالْمُلْكِ، وَدَعَوْهُ بِالنَّجَاشِيِّ.

فَسَاسَ[1] الْبِلَادَ بِالْحُنْكَةِ[2] وَالْحِكْمَةِ...

وَأَرَاحَ الْعِبَادَ مِنَ الِاضْطِرَابِ وَالْفَوْضَىٰ...

وَمَلَأَ «الْحَبَشَةَ» عَدْلًا وَخَيْرًا؛ بَعْدَ أَنِ امْتَلَأَتْ ظُلْمًا وَشَرًّا...

* * *

لَمْ يَكَدِ النَّجَاشِيُّ يَسْتَقِرُّ عَلَىٰ كُرْسِيِّ مُلْكِهِ حَتَّىٰ بَعَثَ اللَّهُ نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ بِدِينِ الْهُدَىٰ وَالْحَقِّ، وَأَخَذَ الْمَهْدِيُّونَ السَّابِقُونَ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ يَسْتَجِيبُونَ لَهُ وَاحِدًا إِثْرَ[3] آخَرَ...

فَهَبَّتْ قُرَيْشٌ تُلْحِقُ بِهِمُ الْأَذَىٰ، وَتُنْزِلُ بِهِمُ الضُّرَّ[4].

فَلَمَّا ضَاقَتْ عَلَيْهِمْ مَكَّةُ بِمَا رَحُبَتْ[5]، وَأَنْزَلَ بِهِمُ الْمُشْرِكُونَ مِنَ الْأَذَىٰ مَا يُزَلْزِلُ[6] الصُّمَّ الصِّلَابَ[7]، قَالَ لَهُمُ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ:

(إِنَّ فِي أَرْضِ الْحَبَشَةِ مَلِكًا لَا يُظْلَمُ أَحَدٌ عِنْدَهُ...

فَالْحَقُوا بِبِلَادِهِ، وَلُوذُوا بِحِمَاهُ[8]، حَتَّىٰ يَجْعَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ فَرَجًا، وَيُهَيِّئَ لَكُمْ مِنْ ضِيقِكُمْ مَخْرَجًا[9]).

* * *

(١) سَاسَ الْبِلَادَ: دَبَّرَ أُمُورَ الْبِلَادِ.
(٢) الحنكة: الخبرة.
(٣) إثره: بعده.
(٤) الضُّرّ: ضد النفع.
(٥) رحبت: اتسعت.
(٦) يزلزل: يرجف ويهزّ.
(٧) الصُّمّ الصِّلَاب: الجبال الراسية.
(٨) لوذوا بحماه: الجأوا إليه.
(٩) مخرجًا: منفذًا وسبيلًا إلى الخروج.

مَضَىٰ رَكْبُ الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ إِلَىٰ أَرْضِ «الْحَبَشَةِ».

وَكَانُوا ثَمَانِينَ بَيْنَ رِجَالٍ وَنِسَاءٍ.

فَتَذَوَّقُوا لِأَوَّلِ مَرَّةٍ طَعْمَ الْأَمْنِ وَالِاسْتِقْرَارِ...

وَتَمَتَّعُوا بِحَلَاوَةِ التُّقَىٰ وَالْعِبَادَةِ؛ دُونَ أَنْ يُعَكِّرَ صَفْوَ عِبَادَتِهِمْ مُعَكِّرٌ، أَوْ يُكَدِّرَ حَلَاوَةَ إِيمَانِهِمْ مُكَدِّرٌ.

لَكِنَّ قُرَيْشًا مَا كَادَتْ تَعْلَمُ بِرَحِيلِ هَٰذَا النَّفَرِ[1] الثَّمَانِينَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَىٰ أَرْضِ «الْحَبَشَةِ»، وَاسْتِقْرَارِهِمْ فِيهَا... حَتَّىٰ هَبَّتْ تَأْتَمِرُ[2] بِهِمْ لِتَقْضِيَ عَلَيْهِمْ، أَوْ تَسْتَرِدَّهُمْ إِلَىٰ مَكَّةَ.

* * *

أَرْسَلَتْ قُرَيْشٌ إِلَىٰ النَّجَاشِيِّ رَجُلَيْنِ مِنْ أَفْذَاذِ[3] رِجَالِهَا ذَكَاءً وَحُنْكَةً[4].

هُمَا عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ[5]، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ.

وَبَعَثَتْ مَعَهُمَا بِهَدَايَا وَفِيرَةٍ لِلنَّجَاشِيِّ وَبَطَارِقَتِهِ[6] مِمَّا كَانُوا يَسْتَطْرِفُونَهُ[7] مِنْ أَرْضِ الْحِجَازِ.

فَلَمَّا قَدِمَا «الْحَبَشَةَ» بَادَرَا إِلَىٰ لِقَاءِ الْبَطَارِقَةِ قَبْلَ أَنْ يَلْقَوُا النَّجَاشِيَّ.

وَدَفَعَا إِلَىٰ كُلِّ بِطْرِيقٍ هَدِيَّتَهُ، وَقَالَا لَهُ:

(١) النفر: الجماعة.
(٢) تأتمر بهم: يأمر بعضها بعضًا بقتلهم.
(٣) الأفذاذ: سادة القوم ودهاتهم.
(٤) الحُنكة: الحكمة والدّهاء.
(٥) عمرو بن العاص: انظره في كتاب «صور من حياة الصّحابة» للمؤلف، النّاشر دار الأدب الإسلامي، الطّبعة الشرعية.
(٦) البطارقة: جمع بطريق وهو القائد وذو الرّتبة.
(٧) يستطرفونه: يرغبون فيه ويحدونه حديثًا.

إِنَّهُ قَدْ حَلَّ فِي أَرْضِكُمْ غِلْمَانٌ مِنْ سُفَهَائِنَا ؛ صَبَئُوا[1] عَنْ دِينِ آبَائِهِمْ وَأَجْدَادِهِمْ ، وَمَزَّقُوا كَلِمَةَ قَوْمِهِمْ ...

فَإِذَا كَلَّمْنَا الْمَلِكَ فِي أَمْرِهِمْ ؛ فَأَشِيرُوا عَلَيْهِ بِأَنْ يُسْلِمَهُمْ إِلَيْنَا دُونَ أَنْ يَسْأَلَهُمْ عَنْ دِينِهِمْ ، فَإِنَّ أَشْرَافَ قَوْمِهِمْ أَبْصَرُ بِهِمْ ...

وَأَعْلَمُ بِمَا يَدِينُونَ .

* * *

دَخَلَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ عَلَى النَّجَاشِيِّ ، وَسَجَدَا لَهُ كَمَا كَانَ يَسْجُدُ لَهُ قَوْمُهُ .

فَرَحَّبَ بِهِمَا النَّجَاشِيُّ أَجْمَلَ تَرْحِيبٍ لِمَا كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ مِنْ وُدٍّ سَابِقٍ .

ثُمَّ قَدَّمَا لَهُ الْهَدَايَا مَشْفُوعَةً[2] بِتَحِيَّاتِ كِبَارِ رِجَالِ مَكَّةَ ، وَعَلَى رَأْسِهِمْ « أَبُو سُفْيَانَ »[3] زَعِيمُ قُرَيْشٍ .

فَاسْتَطْرَفَ[4] هَدَايَاهُمْ وَأُعْجِبَ بِهَا .

ثُمَّ كَلَّمَاهُ فَقَالَا : أَيُّهَا الْمَلِكُ ، إِنَّهُ قَدْ أَوَى إِلَى مَمْلَكَتِكَ نَفَرٌ مِنْ أَشْرَارِ غِلْمَانِنَا[5] قَدْ فَارَقُوا دِينَنَا ، وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي دِينِكُمْ ...

وَجَاءُوا بِدِينٍ لَا نَعْرِفُهُ نَحْنُ ، وَلَا تَعْرِفُونَهُ أَنْتُمْ ...

وَقَدْ بَعَثَنَا أَشْرَافُ قَوْمِنَا يَسْأَلُونَكَ أَنْ تَرُدَّهُمْ إِلَيْهِمْ ...

فَهُمْ أَعْلَمُ بِمَا ابْتَدَعُوهُ[6] مِنْ دِينٍ ، وَمَا أَحْدَثُوهُ مِنْ فِتْنَةٍ .

(١) صَبَئُوا : خرجوا .
(٢) مشفوعة : مقرونة .
(٣) أبو سُفْيَان : زعيم من زعماء قُرَيْش في الجاهلية ، وسيد من ساداتهم في الإسلام .
(٤) استطرف هداياهم : استحسنها .	(٥) الغلمان : الصّبيان .	(٦) ابتدعوه : اخترعوه .

فَنَظَرَ النَّجَاشِيُّ إِلَىٰ بَطَارِقَتِهِ ؛ فَقَالُوا :

صَدَقَا أَيُّهَا الْمَلِكُ ، فَإِنَّنَا لَمْ نَقِفْ عَلَىٰ دِينِهِمُ الَّذِي اسْتَحْدَثُوهُ ...

وَإِنَّ قَوْمَهُمْ أَدْرَىٰ بِهِمْ مِنَّا ، وَأَعْلَمُ بِمَا ابْتَدَعُوهُ .

فَقَالَ النَّجَاشِيُّ :

لَا وَاللَّهِ لَا أُسْلِمُهُمْ لِأَحَدٍ حَتَّىٰ أَسْمَعَ كَلَامَهُمْ ، وَأَقِفَ عَلَىٰ عَقِيدَتِهِمْ .

فَإِنْ كَانُوا عَلَىٰ شَرٍّ أَسْلَمْتُهُمْ لِقَوْمِهِمْ ...

وَإِنْ كَانُوا عَلَىٰ خَيْرٍ حَمَيْتُهُمْ وَأَحْسَنْتُ جِوَارَهُمْ مَا دَامُوا فِي بِلَادِي ...

ثُمَّ أَرْدَفَ(١) يَقُولُ :

إِنِّي ـ وَاللَّهِ ـ لَا أَنْسَىٰ فَضْلَ اللَّهِ عَلَيَّ ...

فَلَقَدْ رَدَّنِي إِلَىٰ أَرْضِي ، وَحَمَانِي مِنْ كَيْدِ الْكَائِدِينَ لِي ...

وَصَانَنِي مِنْ بَغْيِ الْبَاغِينَ عَلَيَّ .

* * *

دَعَا النَّجَاشِيُّ الصَّحَابَةَ إِلَىٰ لِقَاءِ بَنِي قَوْمِهِمْ عِنْدَهُ ...

فَأَوْجَسُوا(٢) خِيفَةً مِنْ ذَلِكَ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ :

مَا تَقُولُونَ لَهُ إِذَا سَأَلَكُمْ عَنْ دِينِكُمْ ؟ .

فَقَالَ مُقَدَّمُوهُمْ : نَقُولُ مَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي كِتَابِهِ ...

وَنُعْلِنُ مَا جَاءَنَا بِهِ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَنْ رَبِّهِ .

ثُمَّ مَضَوْا إِلَيْهِ ؛ فَوَجَدُوا عِنْدَهُ عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ ...

---

(١) أردف : أتبع.　(٢) أوجسوا خيفة : شعروا بالخوف.

وَأَلْفَوْا بَطَارِقَتَهُ جَالِسِينَ عَنْ يَمِينِهِ ، وَعَنْ شِمَالِهِ .

وَقَدِ اعْتَجَرُوا[١] قَلَانِسَهُمْ ...

ونَشَرُوا كُتُبَهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ .

فَحَيَّوْهُ بِتَحِيَّةِ الْإِسْلَامِ ، وَجَلَسُوا حَيْثُ انْتَهَىٰ بِهِمُ الْمَجْلِسُ .

فَالْتَفَتَ إِلَيْهِمْ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ وَقَالَ :

مَا لَكُمْ لَا تَسْجُدُونَ لِلْمَلِكِ ؟ .

فَقَالُوا : إِنَّنَا لَا نَسْجُدُ إِلَّا لِلَّهِ .

فَهَزَّ النَّجَاشِيُّ رَأْسَهُ إِعْجَابًا بِمَا قَالُوا ، وَنَظَرَ إِلَيْهِمْ فِي رِفْقٍ وَقَالَ :

مَا هَٰذَا الَّذِي اسْتَحْدَثْتُمُوهُ[٢] لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ دِينٍ ، وَفَارَقْتُمْ بِسَبَبِهِ دِينَ قَوْمِكُمْ ، وَلَمْ تَدْخُلُوا فِي دِينِي ؟! .

فَاسْتَأْذَنَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ[٣] وَقَالَ :

أَيُّهَا الْمَلِكُ ، إِنَّنَا لَمْ نَسْتَحْدِثْ لِأَنْفُسِنَا دِينًا ، وَإِنَّمَا جَاءَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ، مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ بِدِينِ الْهُدَىٰ وَالْحَقِّ ، وَأَخْرَجَنَا مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَىٰ النُّورِ ...

فَلَقَدْ كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ[٤] ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ[٥] ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ ، وَيَبْطِشُ الْقَوِيُّ مِنَّا بِالضَّعِيفِ .

وَلَقَدْ بَقِينَا عَلَىٰ حَالِنَا تِلْكَ حَتَّىٰ بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ ،

(١) اعتجروا قلانسهم : تعمّموا بما يضعونه علىٰ رؤوسهم .

(٢) استحدثتموه : ابتدعتموه .

(٣) انظره في كتاب « صور من حياة الصّحابة » للمؤلف ، النّاشر دار الأدب الإسلامي ، الطّبعة الشرعية .

(٤) نقطع الأرحام : نهجر أهلنا ، ونعق آباءنا وأمهاتنا .

(٥) الفواحش : جمع فاحشة ، وهي الكبيرة من الذّنوب .

وَنَثِقُ بِصِدْقِهِ وَأَمَانَتِهِ وَعِفَّتِهِ ؛ فَدَعَانَا إِلَىٰ اللَّهِ ، وَأَمَرَنَا بِعِبَادَتِهِ وَتَوْحِيدِهِ ...

وَحَضَّنَا عَلَىٰ إِقَامِ الصَّلَاةِ ، وَ إِيتَاءِ الزَّكَاةِ ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ ، وَأَنْ نَخْلَعَ[1] مَا كُنَّا نَعْبُدُهُ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ .

كَمَا أَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ ، وَصَوْنِ الدِّمَاءِ ...

وَنَهَانَا عَنْ إِتْيَانِ الْفَوَاحِشِ ، وَقَوْلِ الزُّورِ[2] ، وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ ...

فَصَدَّقْنَاهُ ، وَآمَنَّا بِرِسَالَتِهِ ، وَاتَّبَعْنَا مَا جَاءَ بِهِ ...

وَجَعَلْنَا نَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَحَرَّمْنَا مَا حَرَّمَ عَلَيْنَا ، وَأَحْلَلْنَا مَا أَحَلَّ لَنَا .

فَمَا كَانَ مِنْ قَوْمِنَا إِلَّا أَنْ عَدَوْا[3] عَلَيْنَا ، وَأَنْزَلُوا بِنَا أَشَدَّ الْعَذَابِ ؛ لِيَفْتِنُونَا[4] عَنْ دِينِنَا ، وَيَرُدُّونَا إِلَىٰ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ بَعْدَ أَنْ عَبَدْنَا الْوَاحِدَ الدَّيَّانَ[5] .

فَلَمَّا قَهَرُونَا ، وَظَلَمُونَا ، وَضَيَّقُوا عَلَيْنَا ، وَحَالُوا[6] بَيْنَنَا وَبَيْنَ دِينِنَا .

رَغِبْنَا فِي اللُّجُوءِ إِلَىٰ جِوَارِكَ ، وَالْإِقَامَةِ فِي دِيَارِكَ .

وَاخْتَرْنَاكَ عَلَىٰ مَنْ سِوَاكَ ، وَرَجَوْنَا[7] أَلَّا نُظْلَمَ عِنْدَكَ .

فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ : هَلْ مَعَكَ شَيْءٌ مِمَّا جَاءَ بِهِ نَبِيُّكُمْ عَنْ رَبِّهِ ؟ .

قَالَ : نَعَمْ .

---

(١) نخلع : نتبرأ .
(٢) الزور : الباطل والكذب .
(٣) عدوا علينا : ظلمونا واضطهدونا .
(٤) فتنه عن دينه : أضله .
(٥) الدَّيَّان : اسم من أسماء الله عزَّ وَجلَّ ، وهو المحاسب والمجازي .
(٦) حالوا بيننا : منعونا .
(٧) رجونا : أمَّلنا .

قَالَ : فَاقْرَأْهُ عَلَيَّ .

فَقَرَأَ عَلَيْهِ صَدْرًا مِن سُورَةِ مَرْيَمَ ، وَكَانَ مِمَّا قَرَأَهُ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ[1] مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا[2] *

فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا[3]...

فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا[4] فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا[5] *

قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَـٰنِ[6] مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا *

قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا[7] *

قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ[8] وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا[9] *

قَالَ كَذَٰلِكِ[10] قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا *

فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا *

فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ[11] إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَـٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا *

فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا[12] ﴾[13].

(١) انتبذت : اعتزلَتْ وانفردت .
(٢) شرقيًا : من جهة مشرق الشمس .
(٣) من دونهم حجابًا : من دون أهلها سترًا يسترُها عنهم .
(٤) من روحنا : أي جبريل عليه السّلام .
(٥) فتمثّل لها بشرًا سويًّا : فبدا لها في صورة رجل مُعتدل الخلقة .
(٦) أعوذ بالرّحمٰن : أستجير بالله .
(٧) زكيًّا : طاهرًا مُطهرًا بريئًا من الذّنوب .
(٨) لم يمسسني بشر : لم يقترب مني إنسان .
(٩) ولَمْ أَكُ بغيًا : لم أكن مقارفة للعيب .
(١٠) قال كذلك : قالَ لها جبريل إن الأمر كما تقولين .
(١١) فأجاءها المَخاض : أي ألجأها الطّلق .
(١٢) السّري : صاحب الفضل والسّخاء ، وقيل أنه نهر صغير تشرب منه الماء .
(١٣) سورة مريم : من الآية ١٦ - ٢٤ .

فَبَكَىٰ النَّجَاشِيُّ حَتَّىٰ اخْضَلَّتْ[1] لِحْيَتُهُ ...

وَبَكَىٰ أَسَاقِفَتُهُ حَتَّىٰ بَلَّلُوا مَصَاحِفَهُمْ حِينَ سَمِعُوا مَا تُلِيَ عَلَيْهِمْ ...

وَهُنَا الْتَفَتَ النَّجَاشِيُّ إِلَىٰ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ وَصَاحِبِهِ وَقَالَ :

إِنَّ هَـٰذَا الَّذِي تُلِيَ عَلَيْنَا ، وَالَّذِي جَاءَ بِهِ عِيسَىٰ ؛ لَيَخْرُجَانِ مِنْ مِشْكَاةٍ[2] وَاحِدَةٍ .

ثُمَّ قَالَ لَهُمَا :

وَاللَّهِ لَا أُسْلِمُهُمْ إِلَيْكُمَا أَبَدًا ، وَلَا أُحْمَلُ[3] عَلَىٰ ذَٰلِكَ مَا حَيِيتُ ...

ثُمَّ نَهَضَ قَائِمًا فَنَهَضَ مَنْ كَانَ مَعَهُ ، وَانْفَضَّ الْمَجْلِسُ .

* * *

خَرَجَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ وَهُوَ يَتَمَيَّزُ[4] مِنَ الْغَيْظِ ...

ثُمَّ قَالَ لِصَاحِبِهِ : وَاللَّهِ لَأَلْقَيَنَّ النَّجَاشِيَّ غَدًا ، وَلَأُحَدِّثَنَّهُ عَنْهُمْ حَدِيثًا يَجْتَثُّ[5] شَجَرَتَهُمْ ، وَيَقْضِي عَلَيْهِمْ .

فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ ـ وَكَانَ أَرَقَّ مِنْهُ قَلْبًا ـ : لَا تَفْعَلْ يَا عَمْرُو ...

فَإِنَّ لَهُمْ فِينَا أَرْحَامًا ، وَإِنْ كَانُوا قَدْ خَالَفُونَا .

فَقَالَ : وَاللَّهِ لَأُخْبِرَنَّهُ أَنَّهُمْ قَالُوا فِي عِيسَىٰ بْنِ مَرْيَمَ شَيْئًا ...

وَكَتَمُوا شَيْئًا ... وَأَنَّهُمْ يَنَالُونَ[6] مِنْهُ ، وَيَقُولُونَ عَنْهُ أَنَّهُ عَبْدٌ .

فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ دَخَلَ عَمْرٌو عَلَىٰ النَّجَاشِيِّ ، وَقَالَ :

---

(١) اخضلت : نديت وابتلت .

(٢) المشكاة : كوّة غير نافذة ، أي من مصدر واحد .

(٣) لا أُحمل : لا أُغرى بذلك .

(٤) يتميز : يتقطع .

(٥) يجتث شجرتهم : يقتلع شجرتهم من أصولها .

(٦) ينالون منه : يتهمونه .

أَيُّهَا الْمَلِكُ ، لَقَدْ أَسْمَعُوكَ بِالْأَمْسِ شَيْئًا وَأَخْفَوْا عَنْكَ شَيْئًا ...

فَهُمْ يَقُولُونَ عَنْ عِيسَىٰ بْنِ مَرْيَمَ أَنَّهُ عَبْدٌ ...

فَدَعَاهُمُ النَّجَاشِيُّ وَقَالَ : مَا تَقُولُونَ فِي عِيسَىٰ بْنِ مَرْيَمَ ؟! .

فَقَالَ لَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ :

نَقُولُ فِيهِ مَا جَاءَنَا بِهِ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

فَقَالَ : وَمَا الَّذِي جَاءَكُمْ بِهِ ؟ .

فَقَالَ جَعْفَرٌ :

إِنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ ، وَرَسُولُهُ ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ الْعَذْرَاءِ الْبَتُولِ[1] .

فَقَالَ النَّجَاشِيُّ : وَاللَّهِ مَا خَرَجَ عِيسَىٰ عَمَّا قُلْتَ قِيدَ[2] أُنْمُلَةٍ .

فَتَنَاخَرَ[3] الْبَطَارِقَةُ مِنْ حَوْلِهِ مُسْتَنْكِرِينَ قَوْلَهُ .

فَنَظَرَ إِلَيْهِمْ شَزْرًا[4] وَقَالَ : وَإِنْ تَنَاخَرْتُمْ .

ثُمَّ قَالَ لِجَعْفَرٍ وَمَنْ مَعَهُ :

اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ آمِنُونَ فِي أَرْضِي ...

مَنْ نَالَ مِنْكُمْ غَرِمَ[5] ...

مَنْ نَالَ مِنْكُمْ غَرِمَ ...

وَإِنِّي مَا أُحِبُّ أَنْ أُعْطَىٰ جَبَلًا مِنْ ذَهَبٍ ، وَأُوذِيَ أَحَدًا مِنْكُمْ .

---

(١) الْبتول : الطّاهرة النّقية ، وهو يطلق علىٰ مريم العذراء .

(٢) قيد أنملة : مقدار رأس الإصبع .

(٣) تناخر البطارقة : كلّم بعضهم بعضًا وأخرجوا من أفواههم أصواتًا كريهة .

(٤) شَزْرًا : النّظر بمؤخرة العين حال الغضب أو السّخرية .

(٥) غَرِم : خسر .

ثُمَّ قَالَ لِحُجَّابِهِ :

رُدُّوا عَلَىٰ عَمْرٍو وَصَاحِبِهِ هَدَايَاهُمَا ، فَلَا حَاجَةَ لَنَا بِهَا ، وَإِنَّ اللَّهَ مَا أَخَذَ مِنِّي رِشْوَةً حِينَ رَدَّنِي إِلَىٰ مُلْكِي حَتَّىٰ آخُذَ الرِّشْوَةَ فِيهِ ...

وَمَا أَطَاعَ النَّاسَ فِي أَمْرِي حَتَّىٰ أُطِيعَهُمْ فِي أَمْرِهِ .

* * *

هَبَّ الْبَطَارِقَةُ يُعْلِنُونَ بَيْنَ النَّاسِ أَنَّ النَّجَاشِيَّ قَدْ فَارَقَ دِينَهُ ، وَاسْتَبْدَلَ بِهِ دِينًا آخَرَ ...

وَطَفِقُوا يَدْعُونَهُمْ إِلَىٰ خَلْعِهِ ...

فَتَأَلَّبَ[1] « الْأَحْبَاشُ » عَلَيْهِ ، وَعَزَمُوا عَلَىٰ نَقْضِ بَيْعَتِهِ .

فَأَرْسَلَ إِلَىٰ جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَأَصْحَابِهِ يُخْبِرُهُمْ بِالْأَمْرِ .

وَأَعَدَّ لَهُمْ سُفُنًا .

وَقَالَ لَهُمْ :

ارْكَبُوهَا وَاسْتَعِدُّوا لِمَا سَيَحْدُثُ ...

فَإِنْ هُزِمْتُ ؛ فَامْضُوا حَيْثُ شِئْتُمْ ...

وَإِنْ ظَفِرْتُ ؛ فَاسْتَقِرُّوا كَمَا كُنْتُمْ .

ثُمَّ أَحْضَرَ رَقًّا[2] مِنْ جِلْدِ الْغَزَالِ وَكَتَبَ فِيهِ :

« أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ ، وَخَاتَمُ رُسُلِهِ .

وَأَشْهَدُ أَنَّ عِيسَىٰ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، وَرُوحُهُ ، وَكَلِمَتُهُ الَّتِي أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ » .

(١) تألبوا عليه : تجمعوا عليه ، وحشدوا له .
(٢) الرّق : جلد رقيق يُكتب فيه .

ثُمَّ حَزَمَ الرَّقَّ عَلَىٰ صَدْرِهِ، وَلَبِسَ فَوْقَهُ قِبَاءَهُ[1]، وَمَضَىٰ إِلَىٰ لِقَاءِ الْخَارِجِينَ عَلَيْهِ.

فَلَمَّا غَدَا أَمَامَهُمْ نَادَاهُمْ قَائِلًا:

يَا مَعْشَرَ «الْحَبَشَةِ» كَيْفَ رَأَيْتُمْ سِيرَتِي فِيكُمْ؟.

فَقَالُوا: خَيْرَ سِيرَةٍ.

قَالَ: فَمَا الَّذِي أَثَارَكُمْ عَلَيَّ؟.

فَقَالُوا: لَقَدْ فَارَقْتَ دِينَنَا، وَزَعَمْتَ أَنَّ عِيسَىٰ عَبْدٌ.

قَالَ: مَا تَقُولُونَ أَنْتُمْ فِي عِيسَىٰ؟.

فَقَالُوا: هُوَ ابْنُ اللَّهِ.

فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَىٰ قِبَائِهِ، وَجَعَلَهَا فَوْقَ الرَّقِّ وَقَالَ:

وَأَنَا أَشْهَدُ أَنَّ عِيسَىٰ لَمْ يَزِدْ عَلَىٰ هَٰذَا شَيْئًا [وَهُوَ يَعْنِي مَا كَتَبَهُ فِي الرَّقِّ].

فَسُرُّوا بِمَا قَالَ، وَانْفَضُّوا[2] رَاضِينَ مُطْمَئِنِّينَ.

* * *

وَقَفَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَا كَانَ بَيْنَ النَّجَاشِيِّ وَقَوْمِهِ.

وَأَكْبَرَ رِعَايَتَهُ لِلْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ هَاجَرُوا إِلَىٰ دِيَارِهِ، وَاطْمَأَنُّوا فِي جِوَارِهِ.

وَلَقَدْ سُرَّ بِمَا نُقِلَ إِلَيْهِ مِنَ انْحِيَازِهِ لِلْإِسْلَامِ، وَاعْتِقَادِهِ بِصِحَّةِ مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ.

ثُمَّ أَخَذَتِ الصِّلَاتُ تَتَعَمَّقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَتَتَوَثَّقُ.

وَفِي الشَّهْرِ الْأَوَّلِ مِنْ سَنَةِ سَبْعٍ لِلْهِجْرَةِ، عَزَمَ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ عَلَىٰ

(١) القباء: ثوب يلبس فوق الثياب كالمعطف. (٢) انفضوا: تفرقوا.

دَعْوَةِ سِتَّةٍ مِنْ عُظَمَاءِ مُلُوكِ الْأَرْضِ وَأُمَرَائِهَا ؛ لِلدُّخُولِ فِي دِينِ اللَّهِ .

فَكَتَبَ لِكُلٍّ مِنْهُمْ رِسَالَةً يَحُضُّهُ فِيهَا عَلَىٰ الْإِسْلَامِ .

وَيُزَيِّنُ لَهُ الْإِيمَانَ ، وَيُحَذِّرُهُ مِنَ الْكُفْرِ وَالشِّرْكِ .

وَكَانَ قَدْ أَعَدَّ لِهَٰذَا الْغَرَضِ سِتَّةً مِنْ خِيرَةِ الصَّحَابَةِ .

فَتَعَلَّمَ كُلٌّ مِنْهُمْ لُغَةَ الْقَوْمِ الَّذِينَ سَيَمْضِي إِلَيْهِمْ ...

ثُمَّ خَرَجُوا لِأَدَاءِ هَٰذِهِ الْمُهِمَّةِ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ .

وَكَانَ عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيُّ هُوَ الَّذِي أُوفِدَ إِلَىٰ مَلِكِ « الْحَبَشَةِ » .

* * *

دَخَلَ عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ عَلَىٰ النَّجَاشِيِّ ، وَحَيَّاهُ بِتَحِيَّةِ الْإِسْلَامِ ، فَرَدَّ التَّحِيَّةَ بِأَحْسَنَ مِنْهَا ، وَرَحَّبَ بِهِ أَجْمَلَ تَرْحِيبٍ .

فَلَمَّا اسْتَقَرَّ بِهِ الْمَجْلِسُ قَدَّمَ لِلنَّجَاشِيِّ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَهُ بِهِ مِنْ عِنْدِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

فَبَادَرَ إِلَىٰ فَضِّهِ(١) ... فَوَجَدَ أَنَّ الرَّسُولَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ يَدْعُوهُ فِيهِ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ ، وَيَتْلُو عَلَيْهِ شَيْئًا مِنَ الْقُرْآنِ .

فَوَضَعَ النَّجَاشِيُّ الْكِتَابَ عَلَىٰ عَيْنَيْهِ إِجْلَالًا لَهُ ...

وَنَزَلَ عَنْ سَرِيرِهِ تَوَاضُعًا لِمَا جَاءَ فِيهِ ...

ثُمَّ أَعْلَنَ إِسْلَامَهُ عَلَىٰ مَلَإٍ(٢) مِنْ جُلَّاسِهِ ...

وَشَهِدَ شَهَادَةَ الْحَقِّ ، وَقَالَ :

---

(١) فضه : فتحه .

(٢) علَىٰ ملإٍ : علَىٰ مشهد جماعة .

لَوْ كُنْتُ أَسْتَطِيعُ أَنْ آتِيَ مُحَمَّدًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَذَهَبْتُ إِلَيْهِ ...

وَجَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ ...

وَتَمَرَّغْتُ[1] عَلَىٰ قَدَمَيْهِ ...

ثُمَّ كَتَبَ إِلَىٰ النَّبِيِّ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ رِسَالَةً رَقِيقَةً ؛ يُجِيبُهُ فِيهَا إِلَىٰ دَعْوَتِهِ ...

وَيُعْرِبُ عَنْ إِيمَانِهِ السَّابِقِ بِنُبُوَّتِهِ ...

عِنْدَ ذَٰلِكَ أَخْرَجَ عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ كِتَابًا آخَرَ مِنَ الرَّسُولِ ﷺ إِلَىٰ النَّجَاشِيِّ يَدْعُوهُ فِيهِ إِلَىٰ أَنْ يُزَوِّجَهُ مِنْ رَمْلَةَ بِنْتِ أَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ .

وَلِأُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَمْلَةَ الْمُكَنَّاةِ « بِأُمِّ حَبِيبَةَ » قِصَّةٌ حَزِينَةٌ فِي بِدَايَتِهَا ...

فَرِحَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ فِي نِهَايَتِهَا .

فَتَعَالَوْا نُلِمَّ بِهَا إِلْمَامًا سَرِيعًا[2] ...

* * *

كَفَرَتْ رَمْلَةُ بِنْتُ أَبِي سُفْيَانَ بِآلِهَةِ أَبِيهَا سَيِّدِ قُرَيْشٍ ...

وَآمَنَتْ هِيَ وَزَوْجُهَا عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ جَحْشٍ بِاللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ...

وَصَدَّقَتْ رِسَالَةَ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

فَأَرْهَقَتْهُمَا قُرَيْشٌ مِنْ أَمْرِهِمَا عُسْرًا ...

وَأَنْزَلَتْ بِهِمَا أَشَدَّ الْعَذَابِ حَتَّىٰ بَاتَا لَا يُطِيقَانِ الْبَقَاءَ فِي مَكَّةَ .

فَكَانَا فِي عِدَادِ الْمُهَاجِرِينَ إِلَىٰ اللَّهِ بِدِينِهِمْ ، اللَّاجِئِينَ إِلَىٰ النَّجَاشِيِّ بِإِيمَانِهِمْ .

---

(١) تمرغت : وضعت رأسي عَلَىٰ قدميه .

(٢) للاستزادة من أخبار رَمْلَة وزوجها : انظر كتاب « صور من حياة الصحابيات » للمؤلف .

فَلَقِيَا عِنْدَهُ مَا لَقِيَهُ إِخْوَانُهُمُ الْمُهَاجِرُونَ مِنْ كَرَمِ الْوِفَادَةِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ.

حَتَّىٰ خُيِّلَ لِأُمِّ حَبِيبَةَ أَنَّ الْأَيَّامَ قَدْ صَفَتْ لَهَا بَعْدَ عُبُوسٍ[1].

إِذْ لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ مَا خَبَّأَتْهُ لَهَا الْمَقَادِيرُ.

فَلَقَدْ شَاءَ اللَّهُ تَبَارَكَتْ حِكْمَتُهُ أَنْ يَمْتَحِنَ أُمَّ حَبِيبَةَ امْتِحَانًا قَاسِيًا تَطِيشُ[2] فِيهِ الْعُقُولُ.

ذَلِكَ أَنَّ زَوْجَهَا عُبَيْدَ اللَّهِ بْنَ جَحْشٍ قَدِ ارْتَدَّ عَنْ دِينِهِ وَتَنَصَّرَ، وَجَعَلَ يَهْزَأُ بِالْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ.

ثُمَّ أَكَبَّ[3] عَلَىٰ حَانَاتِ الْخَمَّارِينَ، يُعَاقِرُ أُمَّ الْخَبَائِثِ[4]؛ فَلَا يَرْتَوِي مِنْهَا وَلَا يَشْبَعُ.

وَقَدْ خَيَّرَهَا بَيْنَ أَمْرَيْنِ أَحْلَاهُمَا مُرٌّ...

فَإِمَّا أَنْ تُطَلَّقَ...

وَإِمَّا أَنْ تَتَنَصَّرَ...

* * *

وَجَدَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ نَفْسَهَا بَيْنَ ثَلَاثٍ...

فَإِمَّا أَنْ تَسْتَجِيبَ لِزَوْجِهَا فَتَتَنَصَّرَ؛ وَبِذَلِكَ تَبُوءُ بِخِزْيِ الدُّنْيَا، وَعَذَابِ الْآخِرَةِ...

(١) العبوس: التقطيب والبشاعة.
(٢) تطيش: تذهب.
(٣) أكب على الشيء: أقبل عليه ولزمه.
(٤) يعاقر أم الخبائث: يشرب الخمر، وقد دعيت بأم الخبائث لأنها تقود شاربها إلى ضروب من الشر.

وَ إِمَّا أَنْ تَعُودَ إِلَىٰ بَيْتِ أَبِيهَا فِي مَكَّةَ ، وَهُوَ مَا زَالَ قَلْعَةَ الشِّرْكِ ...

وَ إِمَّا أَنْ تَبْقَىٰ فِي بِلَادِ « الْحَبَشَةِ » وَحِيدَةً شَرِيدَةً ، وَمَعَهَا ابْنَتُهَا الصَّغِيرَةُ حَبِيبَةُ .

فَآثَرَتْ رِضَىٰ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَىٰ كُلِّ أَمْرٍ ...

وَأَزْمَعَتِ[1] الْبَقَاءَ فِي « الْحَبَشَةِ » حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِفَرَجٍ مِنْ عِنْدِهِ .

* * *

لَمْ تَطُلْ مَأْسَاةُ أُمِّ حَبِيبَةَ كَثِيرًا .

فَلَقَدْ قَضَىٰ زَوْجُهَا نَحْبَهُ وَهُوَ سَكْرَانُ مَخْمُورٌ ...

ثُمَّ إِنَّهَا مَا إِنْ أَتَمَّتْ عِدَّتَهَا مِنْهُ حَتَّىٰ أَتَاهَا الْفَرَجُ .

فَفِي ذَاتِ ضُحًى فِضِّيِّ السَّنَا بَهِيِّ الْقَسَمَاتِ ... طُرِقَ عَلَيْهَا الْبَابُ ، فَلَمَّا فَتَحَتْهُ ، فُوجِئَتْ بِأَبْرَهَةَ وَصِيفَةِ[2] النَّجَاشِيِّ وَهِيَ تُحَيِّيهَا وَتَقُولُ لَهَا :

إِنَّ الْمَلِكَ يُهْدِيكِ السَّلَامَ ، وَيَقُولُ لَكِ :

إِنَّ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ خَطَبَكِ لِنَفْسِهِ ...

وَوَكَّلَهُ أَنْ يَعْقِدَ لَهُ عَلَيْكِ ...

فَوَكِّلِي عَنْكِ مَنْ تُرِيدِينَ إِذَا شِئْتِ .

فَاسْتَطَارَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ فَرَحًا ... وَهَتَفَتْ :

بَشَّرَكِ اللَّهُ بِالْخَيْرِ ...

بَشَّرَكِ اللَّهُ بِالْخَيْرِ ...

---

(١) أزمعت : عزمت .

(٢) الوصيفة : المرأة الَّتي تتقن الخدمة .

ثُمَّ قَالَتْ : لَقَدْ وَكَّلْتُ عَنِّي خَالِدَ بْنَ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ[1].

فَهْوَ أَقْرَبُ النَّاسِ إِلَيَّ فِي هَٰذِهِ الدِّيَارِ.

* * *

وَفِي قَصْرِ النَّجَاشِيِّ ، اجْتَمَعَ الصَّحَابَةُ الْمُقِيمُونَ فِي « الْحَبَشَةِ » لِيَشْهَدُوا عَقْدَ أُمِّ حَبِيبَةَ عَلَىٰ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ .

فَلَمَّا اكْتَمَلَ الْجَمْعُ حَمِدَ النَّجَاشِيُّ اللَّهَ وَأَثْنَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ :

أَمَّا بَعْدُ ... فَإِنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ طَلَبَ مِنِّي أَنْ أُزَوِّجَهُ رَمْلَةَ بِنْتَ أَبِي سُفْيَانَ ، فَأَجَبْتُهُ إِلَىٰ مَا طَلَبَ .

وَأَمْهَرْتُهَا[2] نِيَابَةً عَنْهُ أَرْبَعمِائَةِ دِينَارٍ ذَهَبًا عَلَىٰ سُنَّةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ .

ثُمَّ قَامَ خَالِدُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَاسْتَعَانَ بِهِ ، وَصَلَّىٰ وَسَلَّمَ عَلَىٰ نَبِيِّهِ ثُمَّ قَالَ :

أَمَّا بَعْدُ ... فَقَدْ أَجَبْتُ طَلَبَ رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ...

وَزَوَّجْتُهُ مُوَكِّلَتِي رَمْلَةَ بِنْتَ أَبِي سُفْيَانَ ...

فَبَارَكَ اللَّهُ لِرَسُولِهِ فِي زَوْجَتِهِ ...

وَهَنِيئًا لِرَمْلَةَ بِمَا أَحْظَاهَا[3] اللَّهُ بِهِ مِنَ الْخَيْرِ .

* * *

أَعَدَّ النَّجَاشِيُّ سَفِينَتَيْنِ مِنْ سُفُنِهِ ...

---

(١) انظره في كتاب « صور من حياة الصحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة الشرعية .
(٢) أمهرتها : أعطيتها صداقها ، والصَّداق : ما يعطى للمرأة من المال مهرًا لها .
(٣) أحظاها : منحها وأكرمها وخصَّها .

وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ رَمْلَةَ بِنْتَ أَبِي سُفْيَانَ وَابْنَتَهَا حَبِيبَةَ ، وَمَنْ بَقِيَ عِنْدَهُ مِنْ صَحَابَةِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

كَمَا أَرْسَلَ مَعَهُمْ طَائِفَةً مِنَ « الْأَحْبَاشِ » الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ...

وَتَشَوَّقُوا لِلِقَاءِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ ، وَأَزْكَىٰ السَّلَامِ ...

وَالتَّمَلِّي(١) مِنْهُ ...

وَالصَّلَاةِ خَلْفَهُ ...

وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ جَمِيعًا جَعْفَرَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ .

ثُمَّ أَهْدَىٰ إِلَىٰ رَمْلَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ جَمِيعَ مَا عِنْدَ نِسَائِهِ مِنْ نَفِيسِ الطِّيبِ ، وَالْوَرْسِ ، وَالْعُودِ ، وَالْعَنْبَرِ(٢) .

كَمَا حَمَّلَهُمْ بَعْضَ الْهَدَايَا إِلَىٰ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

وَكَانَ فِي جُمْلَةِ مَا أَهْدَاهُ إِلَيْهِ ثَلَاثُ عِصِيٍّ مِنْ رَوَائِعِ عِصِيِّ « الْحَبَشَةِ » .

فَأَمْسَكَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ بِوَاحِدَةٍ مِنْهَا .

أَمَّا الثَّانِيَةُ وَالثَّالِثَةُ ؛ فَأَهْدَاهُمَا لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ، وَعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا .

وَقَدْ كَانَ بِلَالٌ(٣) رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، يَمْشِي بَيْنَ يَدَيِ النَّبِيِّ ﷺ بِالْعَصَا الَّتِي اسْتَبْقَاهَا لِنَفْسِهِ ... وَيَرْكُزُهَا أَمَامَهُ إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ ...

وَذَلِكَ فِي الْأَمَاكِنِ الَّتِي لَا يَكُونُ فِيهَا مَسْجِدٌ وَلَا بِنَاءٌ يُحَدِّدَانِ الْقِبْلَةَ .

---

(١) التَّمَلِّي منه : التمتع به أمدًا طويلًا .
(٢) الورس ، والعود ، والعنبر : أنواع من الطيب .
(٣) بلال بن رباح : انظره في كتاب « صور من حياة الصحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة الشرعية .

وَفِي أَسْفَارِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

وَفِي الْعِيدَيْنِ ، وَفِي صَلَاةِ الِاسْتِسْقَاءِ .

وَقَدْ ظَلَّ بِلَالٌ يَمْشِي بِهَا بَيْنَ يَدَيْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ .

فَلَمَّا آلَتِ الْخِلَافَةُ إِلَىٰ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ، وَإِلَىٰ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ مِنْ بَعْدِهِ ؛ مَشَىٰ بِهَا بَيْنَ أَيْدِيهِمَا سَعْدٌ الْقَرَظِيُّ .

ثُمَّ تَتَابَعَ الْخُلَفَاءُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ زَمَنًا طَوِيلًا .

كَمَا أَهْدَىٰ النَّجَاشِيُّ لِلنَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حِلْيَةً فِيهَا خَاتَمٌ مِنْ ذَهَبٍ ...

فَأَخَذَهُ ، وَإِنَّهُ لَمُعْرِضٌ عَنْهُ .

ثُمَّ أَرْسَلَهُ إِلَىٰ « أُمَامَةَ » ابْنَةِ بِنْتِهِ زَيْنَبَ ، وَقَالَ لَهَا :

(تَحَلَّيْ بِهَٰذَا يَا بُنَيَّةُ) .

* * *

وَقُبَيْلَ فَتْحِ مَكَّةَ بِقَلِيلٍ انْتَقَلَ النَّجَاشِيُّ إِلَىٰ جِوَارِ رَبِّهِ .

فَدَعَا الرَّسُولُ ﷺ الصَّحَابَةَ لِلصَّلَاةِ عَلَيْهِ ، وَقَالَ :

(إِنَّ أَخَاكُمْ أَصْحَمَةَ النَّجَاشِيَّ قَدْ تُوُفِّيَ فَصَلُّوا عَلَيْهِ) .

ثُمَّ أَمَّهُمْ ؛ فَصَلُّوا عَلَيْهِ صَلَاةَ الْغَائِبِ .

مَعَ أَنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمْ يُصَلِّ عَلَىٰ غَائِبٍ قَبْلَ النَّجَاشِيِّ ، وَلَا بَعْدَهُ .

* * *

رَضِيَ اللَّهُ عَنْ أَصْحَمَةَ النَّجَاشِيِّ ، وَأَرْضَاهُ ...

وَجَعَلَ جَنَّاتِ الْخُلْدِ مَثْوَاهُ .

فَلَقَدْ قَوَّى الْمُسْلِمِينَ السَّابِقِينَ مِنْ ضَعْفٍ ...

وَأَمَّنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ...

وَابْتَغَى فِي ذَلِكَ مَرْضَاةَ اللّهِ وَرَسُولِهِ (*) .

(*) للاستزادة من أخبار النّجاشيّ انظر:

١ - السّيرة النّبويّة لابن هشام: ١/٣٥٦، ٣٥٧، ٣٥٨، ٣٥٩، ٣٦٠، ٣٦٣، ٣٦٩ و٢/٣٣ و٤/٣ - ١٠، ٢٩٥.

٢ - أعلام النّبلاء للذّهبي: ٨١، ١٢٣، ٢٥١.

٣ - تاريخ خليفة: ٩٩١.

٤ - أسد الغابة: ١/١١٩.

٥ - تهذيب الأسماء واللّغات: ٩/ ٢٨٧.

٦ - مجمع الزّوائد: ٩/ ٤١٩.

٧ - الإصابة: ١/١٠٩ أو التّرجمة [٤٧٣].

رُفَيْعُ بْنُ مِهْرَانَ

أَبُو الْعَالِيَةِ

«لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ أَحَدٌ أَعْلَمَ بِالْقُرْآنِ بَعْدَ الصَّحَابَةِ مِنْ أَبِي الْعَالِيَةِ ، ثُمَّ يَلِيهِ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ»

[أَبُو بَكْرِ بْنُ دَاوُدَ]

رُفَيْعُ بْنُ مِهْرَانَ الْمُكَنَّىٰ بِأَبِي الْعَالِيَةِ عَلَمٌ مِنْ أَعْلَامِ الْمُسْلِمِينَ ...

وَرَائِعَةٌ مِنْ رَوَائِعِ الْقُرَّاءِ وَالْمُحَدِّثِينَ .

كَانَ مِنْ أَعْلَمِ التَّابِعِينَ بِكِتَابِ اللَّهِ ...

وَأَدْرَاهُمْ بِحَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ...

وَأَقْدَرِهِمْ عَلَىٰ فَهْمِ الْقُرْآنِ الْعَزِيزِ ، وَالنُّفُوذِ إِلَىٰ أَغْوَارِهِ[1] ...

وَأَعْمَقِهِمْ فِي إِدْرَاكِ مَرَامِيهِ[2] وَأَسْرَارِهِ .

فَتَعَالَوْا نَبْدَأْ حَيَاتَهُ مِنْ أَوَّلِهَا .

فَحَيَاتُهُ غَنِيَّةٌ بِرَوَائِعِ الْمَوَاقِفِ وَالصُّوَرِ ...

حَافِلَةٌ بِثَمِينِ الْعِظَاتِ وَالْعِبَرِ ...

* * *

وُلِدَ رُفَيْعُ بْنُ مِهْرَانَ فِي بِلَادِ « فَارِسَ » ، وَعَلَىٰ أَرْضِهَا نَشَأَ وَتَرَعْرَعَ ، وَلَمَّا شَرَعَ الْمُسْلِمُونَ بِغَزْوِ بِلَادِ « الْفُرْسِ » لِيُخْرِجُوا أَهْلَهَا مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَىٰ النُّورِ ...

كَانَ رُفَيْعٌ هَٰذَا أَحَدَ الشُّبَّانِ الأَرِقَّاءِ الَّذِينَ وَقَعُوا فِي أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ الْحَانِيَةِ[3] ، وَآلُوا إِلَىٰ رِحَابِهِمُ الْخَيِّرَةِ الْبَانِيَةِ .

---

(١) أغواره : أعماقه . (٢) مراميه : مقاصده . (٣) الحانية : الرحيمة المشفوقة .

ثُمَّ مَا لَبِثَ أَنْ وَقَفَ هُوَ وَمَنْ مَعَهُ عَلَىٰ سُمُوِّ الْإِسْلَامِ ...

وَوَازَنُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ ...

فَطَفِقُوا يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ...

ثُمَّ أَقْبَلُوا عَلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ ...

وَجَعَلُوا يَتَمَلَّوْنَ[1] مِنْ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ...

* * *

حَدَّثَ رُفَيْعٌ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ وَمَا آلَ إِلَيْهِ، قَالَ:

وَقَعْتُ أَنَا وَنَفَرٌ مِنْ بَنِي قَوْمِي أَسَارَىٰ فِي أَيْدِي الْمُجَاهِدِينَ، ثُمَّ مَا لَبِثْنَا أَنْ غَدَوْنَا مَمْلُوكِينَ لِطَائِفَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي «الْبَصْرَةِ».

فَلَمْ يَمْضِ عَلَيْنَا طَوِيلُ وَقْتٍ حَتَّىٰ آمَنَّا بِاللَّهِ، وَتَعَلَّقْنَا بِحِفْظِ كِتَابِ اللَّهِ ...

وَكَانَ مِنَّا مَنْ يُؤَدِّي الضَّرَائِبَ[2] لِمَالِكِيهِ، وَمِنَّا مَنْ يَقُومُ عَلَىٰ خِدْمَتِهِمْ ...

وَكُنْتُ وَاحِدًا مِنْ هَؤُلَاءِ.

فَكُنَّا نَخْتِمُ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ كُلَّ لَيْلَةٍ مَرَّةً، فَشَقَّ[3] عَلَيْنَا ذَلِكَ ...

فَجَعَلْنَا نَخْتِمُهُ مَرَّةً كُلَّ لَيْلَتَيْنِ، فَشَقَّ عَلَيْنَا أَيْضًا ...

فَجَعَلْنَا نَخْتِمُهُ كُلَّ ثَلَاثٍ، فَشَقَّ عَلَيْنَا لِمَا كُنَّا نُعَانِيهِ مِنْ جُهْدٍ فِي النَّهَارِ ...

---

(١) يتملَّون: يتشبعون.

(٢) الضّرائب: جمع ضريبة وهي مبلغ من المال يدفعه الإنسان نظير خدمة تؤدىٰ له، أو إعفائه من مهمة واجبة عليه.

(٣) شق: صعب.

وَسَهَرٍ فِي اللَّيْلِ ...

فَلَقِينَا بَعْضَ أَصْحَابِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَشَكَوْنَا لَهُمْ مِمَّا نُكَابِدُهُ مِنَ السَّهَرِ فِي قِرَاءَةِ كِتَابِ اللَّهِ .

فَقَالُوا : اخْتِمُوهُ كُلَّ جُمُعَةٍ مَرَّةً ؛ فَأَخَذْنَا بِمَا أَرْشَدُونَا إِلَيْهِ ...

وَجَعَلْنَا نَقْرَأُ الْقُرْآنَ طَرَفًا مِنَ اللَّيْلِ ، وَنَنَامُ طَرَفًا آخَرَ مِنْهُ .

فَلَمْ يَشُقَّ عَلَيْنَا بَعْدَ ذَلِكَ .

* * *

وَلَقَدْ آلَ[1] رُفَيْعُ بْنُ مِهْرَانَ إِلَىٰ امْرَأَةٍ مِنْ بَنِي « تَمِيمٍ » .

وَكَانَتْ هَٰذِهِ الْمَرْأَةُ سَيِّدَةً رَصَانًا رَزَانًا[2] ...

مُفْعَمَةً[3] تُقًى وَإِيمَانًا ...

فَكَانَ يَخْدِمُهَا بَعْضَ النَّهَارِ ، وَيَرْتَاحُ فِي بَعْضِهِ الْآخَرِ .

فَأَتْقَنَ الْقِرَاءَةَ وَالْكِتَابَةَ فِي أَوْقَاتِ فَرَاغِهِ ، وَتَلَقَّىٰ خِلَالَهَا طَرَفًا مِنْ عُلُومِ الدِّينِ ، دُونَ أَنْ يَنَالَ ذَلِكَ شَيْئًا مِنْ حُقُوقِهَا عَلَيْهِ .

* * *

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الْجُمَعِ[4] تَوَضَّأَ رُفَيْعٌ ؛ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ .

ثُمَّ اسْتَأْذَنَ سَيِّدَتَهُ بِالِانْصِرَافِ .

فَقَالَتْ : إِلَىٰ أَيْنَ يَا رُفَيْعُ ؟ .

فَقَالَ : أَبْتَغِي الْمَسْجِدَ .

---

(١) آل : انتهى أمره.

(٢) رصانًا رزانًا : رصينة عاقلة وقورًا.

(٣) مفعمة : ممتلئة.

(٤) أيام الجمع : جمع مفرده جُمُعة.

فَقَالَتْ : أَيَّ الْمَسَاجِدِ تُرِيدُ ؟ .

فَقَالَ : الْمَسْجِدَ الْجَامِعَ[1] .

فَقَالَتْ : هَيَّا بِنَا .

ثُمَّ مَضَيَا مَعًا ، وَدَخَلَا الْمَسْجِدَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ، وَهُوَ لَا يَعْلَمُ مَا تُرِيدُ .

فَمَا إِنِ امْتَلَأَ الْجَامِعُ ، وَارْتَقَىٰ الْإِمَامُ الْمِنْبَرَ حَتَّىٰ أَمْسَكَتْ بِيَدِ رُفَيْعٍ ، وَقَالَتْ :

اشْهَدُوا يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ أَنِّي أَعْتَقْتُ غُلَامِي هَٰذَا رَغْبَةً فِي ثَوَابِ اللَّهِ ...

وَطَمَعًا بِعَفْوِهِ وَرِضَاهُ ...

وَأَنَّهُ لَيْسَ لِأَحَدٍ عَلَيْهِ مِنْ سَبِيلٍ إِلَّا سَبِيلَ الْمَعْرُوفِ .

ثُمَّ نَظَرَتْ إِلَيْهِ وَقَالَتْ :

اللَّهُمَّ إِنِّي أَدَّخِرُهُ عِنْدَكَ لِيَوْمٍ لَا يَنْفَعُ فِيهِ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ...

وَلَمَّا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ ؛ انْطَلَقَ رُفَيْعٌ إِلَىٰ سَبِيلِهِ ، وَانْطَلَقَتْ هِيَ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ سَبِيلِهَا أَيْضًا .

* * *

دَأَبَ رُفَيْعُ بْنُ مِهْرَانَ مُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ عَلَىٰ التَّرَدُّدِ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ .

فَحَظِيَ بِلِقَاءِ الصِّدِّيقِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، وَذَلِكَ قُبَيْلَ وَفَاتِهِ بِقَلِيلٍ .

كَمَا سَعِدَ بِالِاجْتِمَاعِ إِلَىٰ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ، وَقَرَأَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ ، وَصَلَّىٰ خَلْفَهُ .

* * *

(١) الجامع : المسجد الذي تقام فيه صلاة الجمعة .

وَكَمَا أَكَبَّ رُفَيْعٌ الْمُكَنَّىٰ بِأَبِي الْعَالِيَةِ عَلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ؛ فَقَدْ تَعَلَّقَ بِحَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ...

فَجَعَلَ يَسْمَعُ رِوَايَتَهُ مِنَ التَّابِعِينَ الَّذِينَ كَانَ يَلْقَاهُمْ فِي «الْبَصْرَةِ».

لَكِنَّهُ مَا لَبِثَ أَنْ طَمَحَتْ[1] نَفْسُهُ لِمَا هُوَ أَثْبَتُ[2] مِنْ ذَلِكَ.

فَأَخَذَ يَمْضِي إِلَىٰ الْمَدِينَةِ حِينًا بَعْدَ حِينٍ؛ لِيَسْمَعَهُ مِنْ أَفْوَاهِ صَحَابَةِ الرَّسُولِ ﷺ أَنْفُسِهِمْ؛ حَتَّىٰ لَا يَكُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِلَّا شَخْصٌ وَاحِدٌ هُوَ الصَّحَابِيُّ.

فَأَخَذَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، وَأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، وَأَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ[3]، وَغَيْرِهِمْ وَغَيْرِهِمْ...

* * *

وَلَمْ يَقْتَصِرْ أَبُو الْعَالِيَةِ عَلَىٰ رُوَاةِ الْحَدِيثِ فِي الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ.

وَإِنَّمَا كَانَ يَنْشُدُ حَدِيثَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي كُلِّ مَكَانٍ.

فَإِذَا وُصِفَ لَهُ رَجُلٌ بِالْعِلْمِ؛ ضَرَبَ إِلَيْهِ أَكْبَادَ الْإِبِلِ[4] مَهْمَا كَانَ بَعِيدَ الدَّارِ، نَائِيَ الْمَزَارِ.

فَإِذَا وَصَلَ إِلَيْهِ بَادَرَ فَصَلَّىٰ خَلْفَهُ.

فَإِذَا وَجَدَهُ لَا يُتْقِنُ صَلَاتَهُ أَحْسَنَ الْإِتْقَانِ...

وَلَا يُوَفِّيهَا حَقَّهَا أَكْمَلَ التَّوْفِيَةِ؛ أَعْرَضَ عَنْهُ وَقَالَ فِي نَفْسِهِ:

(١) طمحت نفسه: ارتقت نفسه وشمخت.
(٢) أثبت: أشدُّ ثبوتًا وأقوىٰ صِحَّةً.
(٣) انظرهم في كتاب «صور من حياة الصحابة» للمؤلف، الناشر دار الأدب الإسلامي، الطبعة الشرعية.
(٤) ضرب إليه أكباد الإبل: قطع إليه المسافات البعيدة.

إِنَّ الَّذِي يَتَهَاوَنُ فِي صَلَاتِهِ يَكُونُ أَشَدَّ تَهَاوُنًا فِي غَيْرِهَا ...

ثُمَّ يَحْمِلُ عَصَاهُ ، وَيَعُودُ مِنْ حَيْثُ جَاءَ ...

* * *

وَلَقَدْ بَلَغَ أَبُو الْعَالِيَةِ مَنْزِلَةً فِي الْعِلْمِ فَاقَ بِهَا جَمِيعَ أَقْرَانِهِ ...

مِنْ ذَلِكَ أَنَّ أَحَدَ أَصْحَابِهِ قَالَ :

رَأَيْتُ أَبَا الْعَالِيَةِ يَتَوَضَّأُ ، وَالْمَاءُ يَقْطُرُ مِنْ وَجْهِهِ وَيَدَيْهِ .

وَالطَّهَارَةُ تَتَأَلَّقُ[١] عَلَىٰ كُلِّ عُضْوٍ مِنْ أَعْضَائِهِ ...

فَحَيَّيْتُهُ وَقُلْتُ : إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ ، وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ .

فَقَالَ يَا أَخِي :

لَيْسَ الْمُتَطَهِّرُونَ الَّذِينَ يَتَطَهَّرُونَ بِالْمَاءِ مِنَ الدَّرَنِ[٢] ...

وَإِنَّمَا هُمُ الَّذِينَ يَتَطَهَّرُونَ بِالتَّقْوَىٰ مِنَ الذُّنُوبِ .

فَتَأَمَّلْتُ مَا قَالَهُ ، وَأَدْرَكْتُ أَنَّهُ أَصَابَ وَأَخْطَأْتُ ، وَقُلْتُ :

جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا ، وَزَادَكَ عِلْمًا وَفَهْمًا .

* * *

وَلَقَدْ دَأَبَ أَبُو الْعَالِيَةِ عَلَىٰ حَضِّ النَّاسِ عَلَىٰ طَلَبِ الْعِلْمِ ، وَجَعَلَ يَرْسُمُ لَهُمْ سُبُلَ الْوُصُولِ إِلَيْهِ ، فَيَقُولُ :

رَوِّضُوا[٣] أَنْفُسَكُمْ عَلَىٰ تَلَقِّي الْعِلْمِ ، وَأَكْثِرُوا مِنَ السُّؤَالِ عَنْهُ .

وَاعْلَمُوا أَنَّ الْعِلْمَ لَا يَخْفِضُ جَنَاحَيْهِ لِمُسْتَحٍ ، أَوْ مُتَكَبِّرٍ .

فَالْمُسْتَحِي لَا يَسْأَلُ لِحَيَائِهِ ...

(١) تتألق : تلمع ، وتبرق . (٢) الدَّرَن : الوسخ . (٣) روِّضوا : ذلّلوا وطوّعوا .

وَالْمُتَكَبِّرُ لَا يَسْأَلُ لِكِبْرِيَائِهِ .

وَكَانَ يَحُضُّ طُلَّابَهُ عَلَىٰ تَعَلُّمِ الْقُرْآنِ ، وَرِعَايَتِهِ ، وَالِاسْتِمْسَاكِ بِمَا جَاءَ فِيهِ ، وَالْإِعْرَاضِ عَمَّا يَتَقَوَّلُهُ الْمُتَقَوِّلُونَ[1] ...

فَيَقُولُ : تَعَلَّمُوا الْقُرْآنَ ...

فَإِذَا تَعَلَّمْتُمُوهُ ، فَلَا تَرْغَبُوا عَنْهُ ...

وَعَلَيْكُمْ بِالصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ فَإِنَّهُ الْإِسْلَامُ ...

وَإِيَّاكُمْ وَهَٰذِهِ الْأَهْوَاءَ[2] ؛ فَإِنَّهَا تُوقِعُ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ .

وَلَا تَحِيدُوا عَنِ الْأَمْرِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ صَحَابَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ أَنْ يَتَفَرَّقُوا ...

فَنَقَلُوا ذَٰلِكَ إِلَىٰ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ[3] فَقَالَ :

لَقَدْ نَصَحَكُمْ أَبُو الْعَالِيَةِ ـ وَاللَّهِ ـ وَصَدَقَكُمْ .

* * *

كَمَا كَانَ يَرْسُمُ لِطُلَّابِ الْعِلْمِ الطَّرِيقَ الْأَمْثَلَ لِحِفْظِ الْقُرْآنِ ، فَيَقُولُ :

تَعَلَّمُوا الْقُرْآنَ خَمْسَ آيَاتٍ خَمْسَ آيَاتٍ ؛ فَإِنَّهُ أَيْسَرُ عَلَىٰ أَذْهَانِكُمْ ...

وَأَقْوَىٰ عَلَىٰ أَفْهَامِكُمْ ...

فَإِنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَنْزِلُ بِهِ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ خَمْسَ آيَاتٍ ، خَمْسَ آيَاتٍ .

* * *

(١) يتقوله المتقولون : يبتدعه المبتدعون .
(٢) الأهواء : البِدَع وما تميل إليه الأفكار مما لا يوافق ما جاء في كتاب الله ، وحديث رسول الله ﷺ .
(٣) الحسن البصري : انظره ص ١٠١.

وَلَمْ يَكُنْ أَبُو الْعَالِيَةِ مُعَلِّمًا فَحَسْبُ، وَإِنَّمَا كَانَ مُوَجِّهًا أَيْضًا...

ذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ يَمْلأُ عُقُولَ طُلَّابِهِ بِالْمَعْرِفَةِ النَّافِعَةِ...

وَيُغَذِّي أَفْئِدَتَهُمْ بِالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ...

وَيَجْمَعُ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْيَانِ.

مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ لَهُمْ:

إِنَّ اللَّهَ قَضَىٰ عَلَىٰ نَفْسِهِ: أَنَّ مَنْ آمَنَ بِهِ هَدَاهُ...

وَمِصْدَاقُ ذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾(١).

وَأَنَّ مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ كَفَاهُ...

وَمِصْدَاقُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ(٢)﴾(٣).

وَأَنَّ مَنْ أَقْرَضَهُ(٤) جَازَاهُ...

وَمِصْدَاقُ ذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ:

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾(٥).

وَأَنَّ مَنْ دَعَاهُ أَجَابَهُ...

وَمِصْدَاقُ ذَلِكَ قَوْلُهُ عَلَتْ كَلِمَتُهُ:

---

(١) سورة التغابن: آية ١١.
(٢) حسبه: معطيه وكافيه.
(٣) سورة الطلاق: آية ٣.
(٤) أقرضه: تصدّق علىٰ النّاس طمعًا برضاه.
(٥) سورة البقرة: آية ٢٤٥.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[1].

* * *

وَكَانَ يَقُولُ لِتَلَامِيذِهِ:

اعْمَلُوا بِالطَّاعَةِ، وَأَقْبِلُوا عَلَىٰ الْمُطِيعِينَ لِطَاعَتِهِمْ ...

وَاجْتَنِبُوا الْمَعْصِيَةَ، وَعَادُوا الْعُصَاةَ لِمَعْصِيَتِهِمْ ...

ثُمَّ كِلُوا أَمْرَ الْعُصَاةِ إِلَىٰ اللَّهِ؛ فَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُمْ، وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُمْ.

وَإِذَا سَمِعْتُمُ الرَّجُلَ يَرْفَعُ مِنْ شَأْنِ نَفْسِهِ فَيَقُولُ:

إِنَّنِي أُحِبُّ فِي اللَّهِ، وَأَكْرَهُ فِي اللَّهِ ...

وَأُفَضِّلُ كَذَا مَرْضَاةً لِلَّهِ، وَأُعْرِضُ عَنْ كَذَا خَوْفًا مِنَ اللَّهِ ...

فَلَا تَعْتَدُّوا[2] بِهِ.

* * *

وَلَمْ يَكُنْ أَبُو الْعَالِيَةِ عَالِمًا عَامِلًا فَحَسْبُ، وَلَا وَاعِظًا مُرْشِدًا فَقَطْ.

وَإِنَّمَا كَانَ مُجَاهِدًا أَيْضًا ...

فَكَانَ يَقْضِي قَدْرًا مِنْ وَقْتِهِ فِي مَيَادِينِ الْجِهَادِ مَعَ الْمُجَاهِدِينَ ...

أَوْ مُرَابِطًا عَلَىٰ ثُغُورِ الْأَعْدَاءِ مَعَ الْمُرَابِطِينَ ...

وَلَقَدْ آثَرَ[3] أَنْ يُشَرِّقَ فِي جِهَادِهِ وَأَنْ يُغَرِّبَ ... فَحَارَبَ «الرُّومَ» فِي بِلَادِ الشَّامِ، كَمَا حَارَبَ «الْفُرْسَ» فِي بِلَادِ مَا «وَرَاءَ النَّهْرِ»[4] ...

---

(١) سورة البقرة: آية ١٨٦.

(٢) فلا تعتدوا به: فلا تلتفتوا إلىٰ ما يقول.

(٣) آثر: فضَّل ورغب.

(٤) بلاد ما وراء النهر: هي البلاد الواقعة وراء نهر جيحون، وهي من أخصب بلاد الدنيا.

وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ رَفَعَ الْأَذَانَ فِي تِلْكَ الدِّيَارِ .

* * *

وَلَمَّا نَشِبَ الْقِتَالُ بَيْنَ عَلِيٍّ وَمُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ... كَانَ لِأَبِي الْعَالِيَةِ مِنْهُ مَوْقِفٌ حَدَّثَنَا عَنْهُ فَقَالَ :

لَمَّا وَقَعَ مَا وَقَعَ بَيْنَ عَلِيٍّ وَمُعَاوِيَةَ كُنْتُ مُمْتَلِئًا حَيَوِيَّةً وَنَشَاطًا ...

وَكَانَ الْقِتَالُ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنَ الْمَاءِ الْبَارِدِ فِي الْيَوْمِ الْقَائِظِ .

فَتَجَهَّزْتُ بِجِهَازٍ ثُمَّ أَتَيْتُهُمْ ؛ فَإِذَا بِي أَمَامَ صَفَّيْنِ مَا يُدْرَىٰ طَرَفَاهُمَا[1] ...

إِذَا كَبَّرَ هَؤُلَاءِ كَبَّرَ هَؤُلَاءِ ...

وَإِذَا هَلَّلَ[2] هَؤُلَاءِ هَلَّلَ هَؤُلَاءِ .

فَرَجَعْتُ إِلَىٰ نَفْسِي وَقُلْتُ :

أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَعُدُّهُ كَافِرًا وَأَحْمِلُ عَلَيْهِ ؟ ...

وَأَيُّهُمَا أَعُدُّهُ مُؤْمِنًا وَأُجَاهِدُ مَعَهُ ؟ .

ثُمَّ تَرَكْتُهُمَا وَانْصَرَفْتُ ...

* * *

وَلَقَدْ ظَلَّ أَبُو الْعَالِيَةِ طَوَالَ حَيَاتِهِ أَسْوَانَ[3] أَسِفًا لِأَنَّهُ لَمْ يَحْظَ بِلِقَاءِ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ...

وَكَانَ يُحَاوِلُ أَنْ يُعَوِّضَ عَنْ ذَلِكَ بِالتَّقَرُّبِ مِنْ كِرَامِ الصَّحَابَةِ الَّذِينَ تَوَثَّقَتْ صِلَتُهُمْ بِمُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

فَكَانَ يُؤْثِرُهُمْ[4] وَيُحِبُّهُمْ ، وَكَانُوا يُؤْثِرُونَهُ وَيُفَضِّلُونَهُ .

---

(١) ما يُدْرَىٰ طرفاهما : كناية عن بعدهما ، وشدّة طولهما.

(٢) هلّل : قالَ « لَا إِلَه إِلَّا اللَّه ».

(٣) أَسْوَان : حزينًا .

(٤) يؤثرهم : يفضلهم علىٰ نفسه .

وَمِنْ آيَاتِ ذَلِكَ أَنَّ أَنَسًا[1] ـ خَادِمَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ـ أَهْدَىٰ لَهُ تُفَّاحَةً كَانَتْ فِي يَدِهِ .

فَأَخَذَهَا مِنْهُ ، وَجَعَلَ يُقَبِّلُهَا وَيَقُولُ :

تُفَّاحَةٌ مَسَّتْهَا يَدٌ مَسَّتْ يَدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ...

تُفَّاحَةٌ مَسَّتْهَا يَدٌ حَظِيَتْ بِمَسِّ يَدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ...

* * *

ومِنْ ذَلِكَ أَيْضًا أَنَّهُ دَخَلَ ذَات مَرَّةٍ عَلَىٰ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ ، وَكَانَ يَوْمَئِذٍ يَتَوَلَّىٰ إِمَارَةَ « الْبَصْرَةِ » مِنْ قِبَلِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ .

فَرَحَّبَ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ أَجْمَلَ التَّرْحِيبِ ، وَرَفَعَهُ عَلَىٰ سَرِيرِهِ ، وَأَجْلَسَهُ عَنْ يَمِينِهِ .

وَكَانَ فِي الْمَجْلِسِ طَائِفَةٌ مِنْ سَادَةِ قُرَيْشٍ ، فَتَغَامَزُوا[2] بِهِ ، وَتَهَامَسُوا بَيْنَهُمْ ...

وَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ :

أَرَأَيْتُمْ كَيْفَ رَفَعَ ابْنُ عَبَّاسٍ هَذَا الْعَبْدَ عَلَىٰ سَرِيرِهِ ؟! .

وَقَدْ أَدْرَكَ ابْنُ عَبَّاسٍ مَا يَتَغَامَزُونَ بِهِ ؛ فَالْتَفَتَ إِلَيْهِمْ وَقَالَ :

إِنَّ الْعِلْمَ يَزِيدُ الشَّرِيفَ شَرَفًا ، وَيَرْفَعُ قَدْرَ أَهْلِهِ بَيْنَ النَّاسِ ، وَيُجْلِسُ الْمَمَالِيكَ عَلَىٰ الأَسِرَّةِ .

* * *

(١) أنس بن مالك : انظره في كتاب « صور من حياة الصّحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطّبعة الشرعية .

(٢) فتغامزوا : جعل بعضهم يغمز لبعض بعينه .

وَفِي ذَاتِ سَنَةٍ عَزَمَ أَبُو الْعَالِيَةِ عَلَىٰ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ؛ فَأَعَدَّ لِلْأَمْرِ عُدَّتَهُ ، وَحَزَمَ أَمْرَهُ عَلَىٰ الْمُضِيِّ مَعَ الْمُجَاهِدِينَ .

فَلَمَّا طَلَعَ عَلَيْهِ الصُّبْحُ ، فُوجِئَ بِآلَامٍ مُبَرِّحَةٍ[1] فِي إِحْدَىٰ قَدَمَيْهِ .

ثُمَّ مَا زَالَ الْأَلَمُ يَشْتَدُّ سَاعَةً بَعْدَ سَاعَةٍ .

فَلَمَّا عَادَهُ الطَّبِيبُ قَالَ لَهُ : إِنَّهُ مُصَابٌ بِالْأَكَلَةِ .

قَالَ : وَمَا الْأَكَلَةُ ؟ .

قَالَ : دَاءٌ يَأْكُلُ الْعُضْوَ الَّذِي يَحِلُّ بِهِ ، ثُمَّ يَنْتَقِلُ إِلَىٰ مَا فَوْقَهُ حَتَّىٰ يَأْتِيَ عَلَىٰ الْجَسَدِ كُلِّهِ .

ثُمَّ اسْتَأْذَنَهُ بِالْمُبَادَرَةِ إِلَىٰ بَتْرِ سَاقِهِ ...

فَأَذِنَ لَهُ عَلَىٰ كُرْهٍ مِنْهُ .

* * *

أَحْضَرَ الطَّبِيبُ مَبَاضِعَهُ[2] لِشَقِّ اللَّحْمِ ...

وَمَنَاشِيرَهُ لِنَشْرِ الْعَظْمِ ...

ثُمَّ قَالَ لَهُ : أَتُرِيدُ أَنْ نَسْقِيَكَ جُرْعَةً مِنْ مُخَدِّرٍ[3] لِكَيْ لَا تَشْعُرَ بِآلَامِ الشَّقِّ وَالْبَتْرِ ؟ .

فَقَالَ : بَلْ هُنَاكَ مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ .

فَقَالَ الطَّبِيبُ : وَمَا هُوَ ؟ .

فَقَالَ : أَحْضِرُوا لِي قَارِئًا يُتْقِنُ كِتَابَ اللَّهِ ، وَاجْعَلُوهُ يَقْرَأُ عَلَيَّ مَا تَيَسَّرَ مِنْ آيَاتِهِ الْبَيِّنَاتِ .

---

(١) مبرحة : شديدة الوجع .
(٢) المباضع : جمع مبضع ، وهو الآلة التي يشق بها الجلد . (٣) المخدر : ما يجعل العضو يتخدر .

فَإِذَا رَأَيْتُمُونِي قَدِ احْمَرَّ وَجْهِي ، وَاتَّسَعَتْ حَدَقَتَايَ ، وَثَبَتَ نَظَرِي فِي السَّمَاءِ ...

فَافْعَلُوا بِي مَا شِئْتُمْ ...

فَنَفَّذُوا أَمْرَهُ ، وَبَتَرُوا عَظْمَهُ ...

فَلَمَّا أَفَاقَ ، قَالَ لَهُ الطَّبِيبُ : كَأَنَّكَ لَمْ تَشْعُرْ بِآلَامِ الشَّقِّ وَالْبَتْرِ .

فَقَالَ : لَقَدْ شَغَلَنِي بَرْدُ[1] حُبِّ اللَّهِ ...

وَحَلَاوَةُ مَا سَمِعْتُهُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ عَنْ حَرَارَةِ الْمَنَاشِيرِ .

ثُمَّ أَخَذَ رِجْلَهُ بِيَدِهِ ، وَنَظَرَ إِلَيْهَا وَقَالَ :

إِذَا لَقِيتُ رَبِّي يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَسَأَلَنِي : هَلْ مَشَيْتُ بِكِ مُنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً إِلَىٰ مُحَرَّمٍ ؟ ...

أَوْ مَسَسْتُ بِكِ غَيْرَ مُبَاحٍ ؟ ... لَأَقُولَنَّ : لَا .

وَأَنَا صَادِقٌ فِيمَا أَقُولُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

* * *

وَبَعْدُ ...

فَقَدْ بَلَغَ مِنْ تُقَىٰ أَبِي الْعَالِيَةِ ، وَتَرَقُّبِهِ لِلْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَاسْتِعْدَادِهِ لِلِقَاءِ رَبِّهِ ؛ أَنَّهُ أَعَدَّ لِنَفْسِهِ كَفَنًا .

وَأَنَّهُ كَانَ يَلْبَسُ كَفَنَهُ كُلَّ شَهْرٍ مَرَّةً ثُمَّ يَرُدُّهُ إِلَىٰ مَكَانِهِ ...

وَلَقَدْ أَوْصَىٰ سَبْعَ عَشْرَةَ مَرَّةً ؛ وَهُوَ صَحِيحٌ سَلِيمٌ ...

(١) برد حب اللّه : هناءة حب اللّه عزّ وجلّ.

وَكَانَ يُحَدِّدُ لِكُلِّ وَصِيَّةٍ أَجَلًا ، فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهَا نَظَرَ فِيهَا .

فَإِمَّا أَنْ يُعَدِّلَهَا ...

وَإِمَّا أَنْ يُبَدِّلَهَا ...

وَإِمَّا أَنْ يُمْضِيَهَا ...

وَفِي شَهْرِ شَوَّالٍ سَنَةَ ثَلَاثٍ وَتِسْعِينَ لِلْهِجْرَةِ ...

مَضَىٰ أَبُو الْعَالِيَةِ إِلَىٰ لِقَاءِ رَبِّهِ ؛ طَاهِرَ الذَّيْلِ ...

نَقِيَّ النَّفْسِ ...

وَاثِقًا بِرَحْمَةِ رَبِّهِ ...

مُتَشَوِّقًا إِلَىٰ لِقَاءِ نَبِيِّهِ (*) .

(*) للاستزادة من أخبار رُفَيْع بن مِهْرَانَ المكنى بأبي الْعَالِيَةِ انظر :
١ - سير أعلام النبلاء للذهبي : ٤/٢٠٧ وما بعدها .
٢ - الطبقات الكبرىٰ لابن سعد : ٧/ ١١٢.
٣ - حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني : ٢/٢١٧ - ٢٢٤.
٤ - تهذيب التهذيب لابن حجر: ٣/ ٢٨٤.
٥ - المعارف لابن قتيبة : ٤٥٤.
٦ - الإصابة في تمييز الصحابة : ١/٥٢٨ الترجمة ٢٧٤٠.
٧ - التهذيب لابن عساكر.
٨ - تذكرة الحفاظ للذهبي : ١/ ٥٨.

الأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ
يَسُودُ بَنِي تَمِيمٍ

«إِنَّ الْأَحْنَفَ بْنَ قَيْسٍ بَلَغَ مِنَ الشَّرَفِ وَالسُّؤْدَدِ
مَا لَا تَنْفَعُهُ الْوِلَايَةُ وَلَا يَضُرُّهُ الْعَزْلُ»

[زِيَادُ ابْنُ أَبِيهِ]

كَانَتْ «دِمَشْقُ» تَضْحَكُ لِلرَّبِيعِ الطَّلْقِ مُخْتَالَةً بِخَمَائِلِهَا[1] النَّضِرَةِ، مَزْهُوَّةً بِرِيَاضِهَا الْعَطِرَةِ.

وَكَانَ قَصْرُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ قَدْ أَخَذَ أُهْبَتَهُ لِاسْتِقْبَالِ الْوَافِدِينَ عَلَيْهِ.

وَمَا إِنْ أُذِنَ لِأَوَّلِ قَادِمٍ عَلَى الْخَلِيفَةِ؛ حَتَّى بَادَرَتْ أُخْتُهُ أُمُّ الْحَكَمِ بِنْتُ أَبِي سُفْيَانَ فَأَخَذَتْ مَكَانَهَا وَرَاءَ السِّتْرِ؛ لِتَسْتَمِعَ إِلَى مَا يُرْوَى فِي مَجْلِسِ الْخِلَافَةِ مِنْ أَحَادِيثِ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ.

وَلِتَتَمَلَّى مِمَّا يَنْثُرُهُ[2] جُلَسَاءُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ نَوَادِرِ الْأَخْبَارِ، وَرَوَائِعِ الْأَشْعَارِ، وَبَالِغِ الْحِكْمَةِ.

فَقَدْ كَانَتْ سَيِّدَةً رَاجِحَةَ الْعَقْلِ، عَالِيَةَ الْهِمَّةِ، تَصْبُو[3] إِلَى شَرِيفِ الْمَطَالِبِ.

وَكَانَتْ تَعْرِفُ أَنَّ أَخَاهَا يَأْذَنُ لِلنَّاسِ بِالدُّخُولِ عَلَيْهِ حَسَبَ مَرَاتِبِهِمْ.

(١) الخمائل: جمع خميلة، وهي الحديقة الملتفة الأشجار.
(٢) ينثره: يلقيه.
(٣) تصبو: تتطلَّع.

فَيُقَدَّمُ صَحَابَةَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنْ عَدَاهُمْ، ثُمَّ يَلِيهِمْ كِبَارُ التَّابِعِينَ، وَأَهْلُ الْعِلْمِ، وَذَوُو الأَحْسَابِ(١).

* * *

لَكِنَّ أُمَّ الْحَكَمِ وَجَدَتْ أَخَاهَا يَسْتَقْبِلُ زَائِرَهُ الأَوَّلَ اسْتِقْبَالًا يَشُوبُهُ شَيْءٌ مِنَ الْفُتُورِ(٢)، وَسَمِعَتْهُ يَقُولُ لَهُ:

وَاللَّهِ يَا أَحْنَفُ مَا تَمَثَّلْتُ(٣) يَوْمَ «صِفِّينَ»(٤) مَرَّةً، وَتَذَكَّرْتُ انْحِيَازَكَ عَنَّا، وَوُقُوفَكَ إِلَىٰ جَانِبِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ إِلَّا كَانَتْ حَزَازَةٌ فِي قَلْبِي إِلَىٰ أَنْ أَمُوتَ.

فَبَادَرَهُ الرَّجُلُ قَائِلًا:

وَاللَّهِ يَا مُعَاوِيَةُ إِنَّ الْقُلُوبَ الَّتِي أَبْغَضْنَاكَ بِهَا مَا تَزَالُ بَيْنَ جَوَانِحِنَا...

وَإِنَّ السُّيُوفَ الَّتِي قَاتَلْنَاكَ بِهَا مَا فَتِئَتْ(٥) فِي أَيْدِينَا...

وَإِنْ تَدْنُ مِنَ الْحَرْبِ فِتْرًا؛ نَدْنُ مِنْهَا شِبْرًا...

وَإِنْ تَمْشِ إِلَيْهَا مَشْيًا؛ نَمْضِ إِلَيْهَا هَرْوَلَةً.

وَوَاللَّهِ مَا حَمَلَتْنَا إِلَيْكَ رَغْبَةٌ فِي عَطَائِكَ، أَوْ رَهْبَةٌ مِنْ جَفَائِكَ(٦)...

وَإِنَّمَا جِئْنَاكَ لِرَأْبِ(٧) الصَّدْعِ، وَلَمِّ الشَّمْلِ، وَجَمْعِ كَلِمَةِ الْمُسْلِمِينَ...

ثُمَّ اسْتَدَارَ وَخَرَجَ مِنْ حَيْثُ أَتَىٰ.

---

(١) الأحساب: جمع حسب، وهو شرف الأصل.
(٢) الفتور: قلة الاهتمام.
(٣) تمثلت: تصورت.
(٤) يوم صفين: هو اليوم الذي انتصر فيه عليّ علىٰ معاوية، وصفين: موضع قريب من شاطئ الفرات الأيمن.
(٥) ما فتئت: ما زالت.
(٦) جفائك: خصومتك.
(٧) لرأب الصَّدْع: لإصلاح ذات البين.

فَلَمْ تَمْلِكْ أُمُّ الْحَكَمِ إِلَّا أَنْ تُزِيحَ طَرَفَ السِّتْرِ ؛ لِتَرَىٰ هَٰذَا الَّذِي يَرُدُّ إِلَىٰ الْخَلِيفَةِ الْحَجَرَ مِنْ حَيْثُ جَاءَ[1]، وَيَكِيلُ لَهُ الصَّاعَ صَاعَيْنِ[2]...

فَرَأَتْ رَجُلًا قَصِيرَ الْقَامَةِ، ضَئِيلَ الْجِسْمِ، أَصْلَعَ الرَّأْسِ، مُتَرَاكِبَ الْأَسْنَانِ، مَائِلَ الذَّقَنِ، مُنْخَسِفَ الْعَيْنَيْنِ[3]، أَحْنَفَ الرِّجْلَيْنِ[4]، لَيْسَ فِي إِنْسَانٍ عَيْبٌ إِلَّا وَلَهُ مِنْهُ نَصِيبٌ.

فَالْتَفَتَتْ إِلَىٰ أَخِيهَا وَقَالَتْ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، مَنْ هَٰذَا الَّذِي يَتَهَدَّدُ الْخَلِيفَةَ وَيَتَوَعَّدُهُ فِي عُقْرِ[5] بَيْتِهِ؟!.

فَتَنَهَّدَ مُعَاوِيَةُ وَقَالَ: هَٰذَا الَّذِي إِذَا غَضِبَ، غَضِبَ لَهُ مِائَةُ أَلْفٍ مِنْ بَنِي «تَمِيمٍ» لَا يَدْرُونَ فِيمَ غَضِبَ...

إِنَّهُ الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ سَيِّدُ بَنِي «تَمِيمٍ»، وَأَحَدُ أَفْذَاذِ الْعَرَبِ وَأَبْطَالِهِمُ الْفَاتِحِينَ...

فَتَعَالَوْا نَسْتَعْرِضْ قِصَّةَ حَيَاةِ الْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ مِنْ أَوَّلِهَا.

* * *

فِي السَّنَةِ الثَّالِثَةِ قَبْلَ الْهِجْرَةِ، وُلِدَ لِقَيْسِ بْنِ مُعَاوِيَةَ السَّعْدِيِّ مَوْلُودٌ دَعَاهُ الضَّحَّاكَ.

غَيْرَ أَنَّ النَّاسَ مَا لَبِثُوا أَنْ لَقَّبُوهُ بِالْأَحْنَفِ لِاعْوِجَاجٍ فِي رِجْلَيْهِ، ثُمَّ غَلَبَ اللَّقَبُ عَلَىٰ الِاسْمِ.

وَلَمْ يَكُنْ قَيْسٌ وَالِدُ الْأَحْنَفِ فِي الذُّؤَابَةِ[6] مِنْ قَوْمِهِ، وَلَا مِنْ حَوَاشِيهِمْ[7]؛ وَإِنَّمَا كَانَ مِنْ أَوْسَاطِ النَّاسِ.

---

(١) يرد الحجر من حيث جاء: يقابل الشر بالشرّ.
(٢) يكيل له الصّاع صاعين: يربي عليه ويزيد.
(٣) منخسف العينين: غائر العينين.
(٤) أحنف الرجلين: معوج الرجلين إلى الداخل.
(٥) في عقر بيته: في وسط داره.
(٦) في الذؤابة من قومه: في المرتبة العليا من عشيرته.
(٧) من حواشيهم: من صغارهم.

وَكَانَتْ وِلَادَةُ الْأَحْنَفِ فِي مَنَازِلِ قَوْمِهِ غَرْبِيَّ «الْيَمَامَةِ» مِنْ أَرَاضِي «نَجْدٍ».

وَقَدْ نَشَأَ الْفَتَىٰ يَتِيمًا، حَيْثُ قُتِلَ أَبُوهُ وَهُوَ طِفْلٌ لَمْ يَدْرُجْ[1] بَعْدُ.

ثُمَّ غَمَرَتْ أَنْوَارُ الْإِسْلَامِ قَلْبَهُ وَهُوَ غُلَامٌ لَمْ يَطُرَّ[2] شَارِبُهُ.

فَقَدْ بَعَثَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ قُبَيْلَ وَفَاتِهِ بِسَنَوَاتٍ مَعْدُودَاتٍ؛ دَاعِيَةً مِنْ أَصْحَابِهِ إِلَىٰ رَهْطِ[3] الْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ.

فَاجْتَمَعَ الدَّاعِيَةُ إِلَىٰ وُجُوهِ الْقَوْمِ وَأَخَذَ يَحُضُّهُمْ عَلَىٰ الْإِيمَانِ، وَيَعْرِضُ عَلَيْهِمُ الْإِسْلَامَ... فَسَكَتَ الْقَوْمُ، وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَنْظُرُ إِلَىٰ بَعْضٍ، فَبَادَرَهُمُ الْأَحْنَفُ - وَكَانَ حَاضِرًا - وَقَالَ:

يَا قَوْمُ مَا لِي أَرَاكُمْ مُتَرَدِّدِينَ تُقَدِّمُونَ رِجْلًا وَتُؤَخِّرُونَ رِجْلًا؟!...

وَاللَّهِ إِنَّ هَٰذَا الْوَافِدَ عَلَيْكُمْ لَوَافِدُ خَيْرٍ...

وَإِنَّهُ يَدْعُوكُمْ إِلَىٰ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، وَيَنْهَاكُمْ عَنْ مَلَائِمِهَا[4]...

وَوَاللَّهِ مَا سَمِعْنَا مِنْهُ إِلَّا حُسْنًا...

فَأَجِيبُوا دَاعِيَ الْهُدَىٰ، تَفُوزُوا بِخَيْرَيِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

فَمَا لَبِثُوا أَنْ أَسْلَمُوا، وَأَسْلَمَ مَعَهُمُ الْفَتَىٰ.

ثُمَّ وَفَدَ كِبَارُ الْقَوْمِ عَلَىٰ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ.

غَيْرَ أَنَّ الْأَحْنَفَ لَمْ يَفِدْ مَعَهُمْ لِحَدَاثَةِ سِنِّهِ...

---

(١) لم يدرج: لم يمش.
(٢) لم تطر شاربه: لم يطلع شاربه.
(٣) رهط الرجل: قومه وجماعته.
(٤) ملائمها: ما لا يجوز منها.

فَحُرِمَ مِنْ شَرَفِ الصُّحْبَةِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يُحْرَمْ مِنْ رِضَىٰ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ ﷺ عَنْهُ... وَدُعَائِهِ لَهُ...

* * *

حَدَّثَ الأَحْنَفُ قَالَ:

بَيْنَمَا أَنَا أَطُوفُ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ فِي زَمَنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِذْ لَقِيَنِي رَجُلٌ أَعْرِفُهُ، فَأَخَذَ بِيَدِي وَقَالَ:

أَلَا أُبَشِّرُكَ؟.

قُلْتُ: بَلَىٰ...

قَالَ: أَمَا تَذْكُرُ يَوْمَ بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ إِلَىٰ قَوْمِكَ لِأَدْعُوَهُمْ إِلَىٰ الإِسْلَامِ، فَجَعَلْتُ أَدْعُوهُمْ، وَأَعْرِضُ عَلَيْهِمُ الدُّخُولَ فِي دِينِ اللَّهِ، فَقُلْتَ أَنْتَ يَوْمَئِذٍ مَا قُلْتَ؟.

قُلْتُ: بَلَىٰ.

قَالَ: فَإِنِّي رَجَعْتُ إِلَىٰ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَأَخْبَرْتُهُ بِمَقَالَتِكَ، فَقَالَ: (اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلأَحْنَفِ).

فَكَانَ الأَحْنَفُ يَقُولُ: مَا مِنْ شَيْءٍ مِنْ عَمَلِي أَرْجَىٰ[1] لِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ دَعْوَةِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

* * *

وَلَمَّا لَحِقَ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ بِالرَّفِيقِ الأَعْلَىٰ، وَطَلَعَ مُسَيْلِمَةُ الْكَذَّابُ عَلَىٰ النَّاسِ بِإِفْكِهِ[2]، وَارْتَدَّ عَنِ الإِسْلَامِ بِسَبَبِهِ مَنِ ارْتَدَّ؛ مَضَىٰ إِلَيْهِ الأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ مَعَ عَمِّهِ «الْمُتَشَمِّسِ» لِيَلْقَيَاهُ، وَيَسْمَعَا مِنْهُ.

---

(١) أرْجَىٰ: أعظم رجاءً وأكثر أملاً. (٢) بإفكه: بكذبه.

وَكَانَ الْأَحْنَفُ يَوْمَئِذٍ فِي بَوَاكِيرِ[1] شَبَابِهِ ، فَلَمَّا خَرَجَا مِنْ عِنْدِهِ ، قَالَ «الْمُتَشَمِّسُ» لِابْنِ أَخِيهِ :

كَيْفَ رَأَيْتَ الرَّجُلَ يَا أَحْنَفُ ؟ .

فَقَالَ : رَأَيْتُهُ مُبْطِلًا يَفْتَرِي[2] الْكَذِبَ عَلَىٰ اللَّهِ وَالنَّاسِ .

فَقَالَ لَهُ عَمُّهُ مُمَازِحًا :

أَلَا تَخْشَىٰ عَلَىٰ نَفْسِكَ إِنْ أَخْبَرْتُهُ بِتَكْذِيبِكَ إِيَّاهُ ؟! .

فَقَالَ الْأَحْنَفُ :

عِنْدَ ذَلِكَ أُحَالِفُكَ[3] عِنْدَهُ ، فَهَلْ تَحْلِفُ أَنَّكَ لَمْ تُكَذِّبْهُ كَمَا كَذَّبْتُهُ ؟ .

وَتَضَاحَكَ الْفَتَىٰ وَعَمُّهُ وَثَبَتَا عَلَىٰ إِسْلَامِهِمَا .

* * *

وَلَا غَرَابَةَ إِذَا أَخَذَكَ الْعَجَبُ ، وَاسْتَبَدَّتْ بِكَ الدَّهْشَةُ مِنْ هَذِهِ الْمَوَاقِفِ الْحَازِمَةِ الْحَاسِمَةِ الَّتِي يَقِفُهَا الْأَحْنَفُ فِي عَظَائِمِ الْأُمُورِ ؛ عَلَىٰ الرَّغْمِ مِنْ حَدَاثَةِ سِنِّهِ .

لَكِنَّ عَجَبَكَ سَيَنْقَضِي ، وَدَهْشَتَكَ سَتَزُولُ ؛ إِذَا عَرَفْتَ أَنَّ فَتَىٰ بَنِي «تَمِيمٍ» كَانَ نَادِرَةً مِنْ نَوَادِرِ الدَّهْرِ فِي حِدَّةِ[4] الْخَاطِرِ ، وَتَوَقُّدِ الذَّكَاءِ ، وَصِدْقِ النَّظْرَةِ ، وَصَفَاءِ الْفِطْرَةِ .

وَأَنَّهُ كَانَ مُنْذُ نُعُومَةِ[5] أَظْفَارِهِ يُجَالِسُ مَشْيَخَةَ قَوْمِهِ ، وَيَغْشَىٰ[6] أَنْدِيَتَهُمْ ، وَيَشْهَدُ مُؤْتَمَرَاتِهِمْ ، وَيَتَتَلْمَذُ عَلَىٰ أَيْدِي حُكَمَائِهِمْ ، وَحُلَمَائِهِمْ .

حَدَّثَ عَنْ نَفْسِهِ قَالَ :

---

(١) بواكير شبابه : أوائل شبابه .
(٢) يفتري : يختلق الكذب .
(٣) أحالِفُك : أطلب منك أن تحلف .
(٤) حِدَّة الخاطر : نفاذ الذهن وحدَّته .
(٥) نُعومة أظفاره : طفولته وصغر سنه .
(٦) يَغْشَىٰ أنديتهم : يحضر مجتمعاتهم .

كُنَّا نَخْتَلِفُ(١) إِلَىٰ مَجَالِسِ قَيْسِ بْنِ عَاصِمٍ الْمِنْقَرِيِّ(٢) لِنَتَعَلَّمَ مِنْهُ الْحِلْمَ كَمَا نَخْتَلِفُ إِلَىٰ مَجَالِسِ الْعُلَمَاءِ لِنَتَلَقَّىٰ مِنْهُمُ الْعِلْمَ .

فَقِيلَ لَهُ : وَمَا الَّذِي بَلَغَ مِنْ حِلْمِهِ ؟ .

فَقَالَ : جِئْتُهُ مَرَّةً فَرَأَيْتُهُ قَاعِدًا بِفِنَاءِ(٣) بَيْتِهِ ، مُحْتَبِيًا(٤) بِحَمَائِلِ سَيْفِهِ ، يُحَدِّثُ قَوْمَهُ ... فَسَلَّمْتُ وَجَلَسْتُ .

وَمَا هُوَ إِلَّا قَلِيلٌ حَتَّىٰ سَمِعْنَا ضَجَّةً ، فَنَظَرْنَا ... فَإِذَا بِهِ قَدْ أُتِيَ لَهُ بِشَابٍّ مَكْتُوفٍ ، وَآخَرَ مَقْتُولٍ ، وَقِيلَ لَهُ :

هَـٰذَا ابْنُ أَخِيكَ قَدْ قَتَلَ ابْنَكَ فُلَانًا ...

فَوَاللَّهِ مَا حَلَّ حُبْوَتَهُ ، وَلَا قَطَعَ كَلَامَهُ .

ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَىٰ ابْنِ أَخِيهِ وَقَالَ :

يَا بْنَ أَخِي قَتَلْتَ ابْنَ عَمِّكَ ؛ فَقَطَعْتَ رَحِمَكَ بِيَدِكَ ...

وَرَمَيْتَ نَفْسَكَ بِسَهْمِكَ ...

ثُمَّ قَالَ لِابْنٍ لَهُ آخَرَ :

قُمْ يَا بُنَيَّ فَحُلَّ كِتَافَ(٥) ابْنِ عَمِّكَ ... وَوَارِ أَخَاكَ .

ثُمَّ سُقْ(٦) إِلَىٰ أُمِّهِ مِائَةَ نَاقَةٍ دِيَةَ ابْنِهَا ؛ فَإِنَّهَا غَرِيبَةٌ .

* * *

وَلَقَدْ أُتِيحَ لِلْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ أَنْ يَتَتَلْمَذَ عَلَىٰ أَيْدِي جِلَّةِ الصَّحَابَةِ الْكِرَامِ ،

---

(١) نختلف : نتردَّد .

(٢) قَيس بن عاصِم الْمِنْقَريّ : أحد أمراء الْعرب وعقلائهم ، ساد قومه في الجاهلية وحرَّم علىٰ نَفْسِهِ الخمر ، وفد علَىٰ الرَّسُول ﷺ وأسْلَم علَىٰ يديه .

(٣) بفناء بيته : بساحة منزله .

(٤) مُحْتَبِيًا : جامعًا بين ظهره وساقيه بعمامة أو نحوها كما كان يجلس السَّادة من الْعرب .

(٥) الْكتاف : حبل تشد به الْيدان إلىٰ خلف الْكتفين.

(٦) سُق : أعط .

وَفِي قِمَّتِهِمُ الْفَارُوقُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ .

فَشَهِدَ مَجَالِسَهُ ، وَسَمِعَ مَوَاعِظَهُ ، وَوَعَىٰ أَقْضِيَتَهُ[١] وَأَحْكَامَهُ ؛ فَكَانَ مِنْ أَلْمَعِ التَّلَامِيذِ الَّذِينَ أَنْجَبَتْهُمُ الْمَدْرَسَةُ الْعُمَرِيَّةُ ، وَأَعْمَقِهِمْ تَأَثُّرًا بِمُعَلِّمِهَا الْعَبْقَرِيِّ الْفَذِّ .

وَلَقَدْ قِيلَ لَهُ ذَاتَ مَرَّةٍ : بِمَ أُوتِيتَ مَا أُوتِيتَ مِنَ الْوَقَارِ[٢] وَالْحِكْمَةِ ؟ .

فَقَالَ : بِكَلِمَاتٍ سَمِعْتُهُنَّ مِنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ حَيْثُ قَالَ :

مَنْ مَزَحَ اسْتُخِفَّ بِهِ[٣] ...

وَمَنْ أَكْثَرَ مِنْ شَيْءٍ عُرِفَ بِهِ ...

وَمَنْ كَثُرَ كَلَامُهُ كَثُرَ سَقَطُهُ[٤] ...

وَمَنْ كَثُرَ سَقَطُهُ قَلَّ حَيَاؤُهُ ...

وَمَنْ قَلَّ حَيَاؤُهُ قَلَّ وَرَعُهُ ...

وَمَنْ قَلَّ وَرَعُهُ مَاتَ قَلْبُهُ ...

* * *

وَقَدْ تَسَنَّمَ[٥] الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ قَوْمَهُ ؛ عَلَىٰ الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَعْلَاهُمْ حَسَبًا ...

وَلَا أَجَلِّهِمْ أُمًّا وَأَبًا ...

وَلَكَمْ سَأَلَهُ السَّائِلُونَ عَنْ سِرِّ ذَلِكَ ؛ فَقَالَ لَهُ أَحَدُهُمْ :

مَنِ الَّذِي يُسَوِّدُهُ[٦] قَوْمُهُ يَا أَبَا بَحْرٍ ؟ .

فَقَالَ : مَنْ كَانَ فِيهِ أَرْبَعُ خِصَالٍ سَادَ قَوْمَهُ غَيْرَ مُدَافَعٍ[٧] .

---

(١) الأقضية : جمع قضاء ، وهو الحكم .
(٢) الوقار : الحلم والرزانة .
(٣) استُخِفَّ به : استهان النّاسُ به .
(٤) سَقَطه : خطؤه .
(٥) تَسَنَّم : علا ورئس .
(٦) يُسَوِّده قومه : يجعلونه سَيِّدًا عليهم .
(٧) غير مدافع : لا يدافعه أحد عن المنزلة الّتي بلغها .

فَقِيلَ لَهُ : وَمَا هَـٰذِهِ الْخِصَالُ ؟ .

فَقَالَ : مَنْ كَانَ لَهُ دِينٌ يَحْجُزُهُ[١] ...

وَحَسَبٌ[٢] يَصُونُهُ ...

وَعَقْلٌ يُرْشِدُهُ ...

وَحَيَاءٌ يَمْنَعُهُ ...

* * *

وَالأَحْنَفُ بَعْدَ ذَلِكَ أَحَدُ حُلَمَاءِ الْعَرَبِ الَّذِينَ ضُرِبَ بِحِلْمِهِمُ الْمَثَلُ .

وَقَدْ بَلَغَ مِنْ حِلْمِهِ أَنَّ عَمْرَو بْنَ الأَهْتَمِ أَغْرَى[٣] رَجُلًا بِسَبِّهِ سَبًّا مُقْذِعًا[٤] يُثِيرُ الْحَفَائِظَ .

لَكِنَّ الأَحْنَفَ ظَلَّ صَامِتًا مُطْرِقًا ... فَلَمَّا رَأَى الرَّجُلُ أَنَّهُ لَا يُجِيبُهُ ، وَلَا يَأْبَهُ لَهُ ؛ أَخَذَ إِبْهَامَهُ فِي فَمِهِ ، وَجَعَلَ يَعَضُّهُ وَهُوَ يَقُولُ :

وَا سَوْأَتَاهُ[٥] ، وَاللَّهِ مَا مَنَعَهُ مِنْ جَوَابِي إِلَّا هَوَانِي[٦] عَلَيْهِ .

* * *

وَاتَّفَقَ أَنْ كَانَ الأَحْنَفُ يَمْشِي فِي حَوَاشِي[٧] « الْبَصْرَةِ » خَالِيًا بِنَفْسِهِ ، فَتَعَرَّضَ لَهُ رَجُلٌ ، جَعَلَ يَشْتُمُهُ ، وَيَعِيبُهُ ، وَيُسْمِعُهُ قَوَارِصَ[٨] الْكَلَامِ ، وَهُوَ سَاكِتٌ مَاضٍ فِي طَرِيقِهِ .

فَلَمَّا اقْتَرَبَا مِنَ النَّاسِ ؛ الْتَفَتَ إِلَى الرَّجُلِ وَقَالَ :

يَا بْنَ أَخِي إِنْ كَانَ قَدْ بَقِيَ مِنْ كَلَامِكَ فَضْلَةٌ[٩] فَقُلْهَا الآنَ ...

---

(١) يحجزه : يمنعه .
(٢) الحسب : الشَّرف .
(٣) أغرى : حضَّ .
(٤) مقذعًا : مفحشًا .
(٥) وا سوأتاه : وا حزناه .
(٦) هواني عليه : ذلي وحقارتي عنده .
(٧) حواشي البصرة : أطراف البصرة وما حولها .
(٨) قوارص الكلام : الكلام المؤلم .
(٩) فَضْلَةٌ : بقية وزيادة .

فَإِنَّ قَوْمِي إِذَا سَمِعُوا مَا تَقُولُ أَصَابَكَ مِنْهُمْ أَذًى .

* * *

وَكَانَ الْأَحْنَفُ فَوْقَ ذَلِكَ كُلِّهِ عَبَّادًا ، صَوَّامًا ، قَوَّامًا ، زَاهِدًا بِمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ .

وَكَانَ إِذَا جَنَّ[1] عَلَيْهِ اللَّيْلُ أَسْرَجَ[2] مِصْبَاحَهُ ، وَوَضَعَهُ قَرِيبًا مِنْهُ ، وَوَقَفَ فِي مِحْرَابِهِ يُصَلِّي .

وَهُوَ يَتَمَلْمَلُ تَمَلْمُلَ السَّقِيمِ[3]، وَيَبْكِي بُكَاءَ الثَّاكِلِ[4]؛ إِشْفَاقًا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ... وَخَشْيَةً مِنْ غَضَبِهِ ...

وَكَانَ كُلَّمَا اسْتَشْعَرَ ذَنْبًا مِنْ ذُنُوبِهِ ، أَوْ لَاحَ[5] لَهُ عَيْبٌ مِنْ عُيُوبِهِ ، قَرَّبَ إِصْبَعَهُ مِنَ الْمِصْبَاحِ وَقَالَ :

حَسِّ[6] يَا أَحْنَفُ ...

مَا حَمَلَكَ عَلَىٰ أَنْ فَعَلْتَ كَذَا يَوْمَ كَذَا ؟ .

وَيْحَكَ يَا أَحْنَفُ إِذَا كُنْتَ لَا تُطِيقُ الْيَوْمَ لَهَبَ الْمِصْبَاحِ ، وَلَا تَصْبِرُ عَلَىٰ حَرِّهِ ؛ فَكَيْفَ تُطِيقُ غَدًا لَهَبَ جَهَنَّمَ ، وَتَصْبِرُ عَلَىٰ أَذَاهُ ؟! ...

اللَّهُمَّ إِنْ تَغْفِرْ لِي فَأَنْتَ أَهْلٌ لِذَاكَ ...

وَإِنْ تُعَذِّبْنِي فَأَنَا أَهْلٌ لِذَاكَ ...

* * *

رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ وَأَرْضَاهُ .

فَقَدْ كَانَ رَائِعَةً مِنْ رَوَائِعِ الزَّمَانِ ...

وَضَرْبًا فَرِيدًا مِنَ النَّاسِ ...

---

(١) جَنَّ : أَطْبَقَ .
(٢) أَسْرَجَ : أَوْقَدَ .
(٣) السَّقِيم : المريض العليل .
(٤) الثَّاكِل : الفاقد ابنه .
(٥) لاح : ظَهَرَ وبدا .
(٦) حَسِّ : توجعٌ وتألُّم .

الأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ
يَتَتَلْمَذُ عَلَىٰ يَدَيِ الفَارُوقِ

« إِنَّ هَـٰذَا الْغُلَامَ وَاللهِ هُوَ السَّيِّدُ وَإِنَّهُ سَيِّدُ أَهْلِ الْبَصْرَةِ »

[عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ]

نَحْنُ الْآنَ فِي أَوَائِلِ خِلَافَةِ الْفَارُوقِ نَضَّرَ اللَّهُ وَجْهَهُ .

وَهَا هُمْ أَوْلَاءِ الْأَنْجَادُ[١] الْأَمْجَادُ رَهْطُ[٢] الْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ مِنْ بَنِي « تَمِيمٍ » ، يَمْتَطُونَ صَهَوَاتِ الْخُيُولِ الصَّافِنَاتِ[٣]...

وَيَتَقَلَّدُونَ السُّيُوفَ الرِّقَاقَ الْمُرْهَفَاتِ[٤]...

وَيَرْحَلُونَ عَنْ مَنَازِلِهِمْ فِي « الْأَحْسَاءِ » وَ« نَجْدٍ » ، مُيَمِّمِينَ[٥] وُجُوهَهُمْ شَطْرَ « الْبَصْرَةِ » .

يُرِيدُونَ الِانْضِمَامَ إِلَىٰ جُمُوعِ الْمُسْلِمِينَ الْمُحْتَشِدِينَ هُنَاكَ تَحْتَ قِيَادَةِ عُتْبَةَ بْنِ غَزْوَانَ[٦] لِقِتَالِ الْفُرْسِ جِهَادًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ...

وَطَلَبًا لِمَا عِنْدَ اللَّهِ مِنْ حُسْنِ الثَّوَابِ .

وَكَانَ مَعَهُمْ فَتَاهُمُ الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ .

* * *

(١) الأنجاد : جمع نجد ، وهو الشّجاع الّذي يفعل ما يعجز عنه غيره .

(٢) رَهْط الرَّجُل : قومه .

(٣) الصّافِنَات : جمع مفرده صافن ، وهو الّذي يقف علىٰ أقدام ثلاث ويرفع القدم الرّابعة .

(٤) الْمُرْهَفَات : السّيوف المرققة المحدَّدة .

(٥) ميمِّمين : قاصدين .

(٦) عتبة بن غزوان : انظره في كتاب « صور من حياة الصّحابة » للمؤلف ، النّاشر دار الأدب الإسلامي ، الطّبعة الشرعية .

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ تَلَقَّىٰ عُتْبَةُ بْنُ غَزْوَانَ كِتَابًا مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ يَأْمُرُهُ فِيهِ بِأَنْ يُرْسِلَ إِلَيْهِ عَشَرَةً مِنْ صُلَحَاءِ عَسْكَرِهِ ، وَأَحْسَنِهِمْ بَلَاءً فِي الْقِتَالِ لِيَقِفَ مِنْهُمْ عَلَىٰ أَحْوَالِ الْجَيْشِ ، وَلِيَتَمَلَّىٰ[1] مِمَّا عِنْدَهُمْ مِنْ رَأْيٍ وَمَشُورَةٍ .

فَصَدَعَ عُتْبَةُ بِالْأَمْرِ[2] ، وَجَهَّزَ عَشَرَةً مِنْ صَفْوَةِ رِجَالِهِ .

وَجَعَلَ بَيْنَهُمُ الْأَحْنَفَ بْنَ قَيْسٍ .

وَوَجَّهَهُمْ إِلَىٰ « الْمَدِينَةِ » .

* * *

مَثُلَ رِجَالُ الْوَفْدِ بَيْنَ يَدَيْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَرَحَّبَ بِهِمْ وَأَدْنَىٰ مَجَالِسَهُمْ ، ثُمَّ سَأَلَهُمْ عَنْ حَوَائِجِهِمْ وَحَوَائِجِ عَامَّةِ النَّاسِ .

فَنَهَضُوا إِلَيْهِ تِبَاعًا وَقَالُوا :

أَمَّا عَامَّةُ النَّاسِ فَأَنْتَ وَلِيُّهُمْ ، وَصَاحِبُ شُؤُونِهِمْ ، وَأَمَّا نَحْنُ فَنَتَكَلَّمُ عَنْ خَاصَّةِ أَنْفُسِنَا .

ثُمَّ طَلَبَ كُلٌّ مِنْهُمْ حَاجَتَهُ الَّتِي تَعْنِيهِ .

وَكَانَ الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ آخِرَ رِجَالِ الْوَفْدِ كَلَامًا ؛ لِأَنَّهُ كَانَ أَصْغَرَهُمْ سِنًّا .

فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ :

يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّ جُنْدَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ حَلُّوا فِي « مِصْرَ » قَدْ نَزَلُوا فِي الْخُضْرَةِ وَالنُّضْرَةِ[3] وَالْخِصْبِ مِنْ مَنَازِلِ « الْفَرَاعِنَةِ » .

---

(١) يتملّى : يتشبّع ويتملى .
(٢) صَدَعَ بالأمر : بيّنه ، واستجاب له .
(٣) النضرة : الخضْرة المورقة .

وَإِنَّ الَّذِينَ حَلُّوا فِي دِيَارِ «الشَّامِ» قَدْ نَزَلُوا فِي الرَّغَدِ[1]، وَالثِّمَارِ، وَالرِّيَاضِ مِنْ مَنَازِلِ «الْقَيَاصِرَةِ».

وَإِنَّ الَّذِينَ حَلُّوا فِي دِيَارِ «الْفُرْسِ» قَدْ نَزَلُوا عَلَىٰ ضِفَافِ الْأَنْهَارِ الْعَذْبَةِ، وَالْجِنَانِ الْوَارِفَةِ مِنْ مَنَازِلِ «الْأَكَاسِرَةِ».

لَكِنَّ قَوْمَنَا الَّذِينَ حَلُّوا فِي «الْبَصْرَةِ» قَدْ نَزَلُوا فِي أَرْضٍ هَشَّاشَةٍ نَشَّاشَةٍ[2] لَا يَجِفُّ تُرَابُهَا، وَلَا يَنْبُتُ مَرْعَاهَا...

أَحَدُ طَرَفَيْهَا بَحْرٌ أُجَاجٌ[3]، وَطَرَفُهَا الْآخَرُ فَلَاةٌ قَفْرٌ.

فَأَزِلْ - يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - ضُرَّهُمْ، وَأَنْعِشْ حَيَاتَهُمْ، وَمُرْ وَالِيَكَ عَلَىٰ «الْبَصْرَةِ» أَنْ يَحْفِرَ لَهُمْ نَهْرًا يَسْتَعْذِبُونَ مِنْهُ الْمَاءَ وَيَسْقُونَ الْأَنْعَامَ وَالزَّرْعَ...

فَتَحْسُنَ حَالُهُمْ، وَيَصْلُحَ عِيَالُهُمْ، وَتَرْخُصَ أَسْعَارُهُمْ...

وَيَسْتَعِينُوا بِذَٰلِكَ عَلَىٰ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

فَنَظَرَ إِلَيْهِ عُمَرُ فِي إِعْجَابٍ، وَقَالَ لِرِجَالِ الْوَفْدِ:

هَلَّا فَعَلْتُمْ فِعْلَ هَٰذَا...

إِنَّهُ - وَاللَّهِ - لَسَيِّدٌ...

ثُمَّ قَدَّمَ لَهُمْ جَوَائِزَهُمْ، وَقَدَّمَ لِلْأَحْنَفِ جَائِزَتَهُ فَقَالَ:

وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا قَطَعْنَا إِلَيْكَ الْفَلَوَاتِ، وَلَا ضَرَبْنَا لِلِقَائِكَ أَكْبَادَ[4] الْإِبِلِ فِي الْبُكُورِ وَالْعَشِيَّاتِ لِنَيْلِ الْجَوَائِزِ...

وَمَا لِيَ مِنْ حَاجَةٍ لَدَيْكَ إِلَّا حَاجَةَ قَوْمِي الَّتِي ذَكَرْتُ...

---

(١) الرغد: طيب العيش ووفرة الخصب.
(٢) هشاشة نشاشة: الهشاشة: اللّينة المسترخية، والنشاشة: المالحة التي لا تنبت.
(٣) الأجاج: المُرّ من شدّة ملوحته. (٤) أكباد الإبل: أجواف النوق.

فَإِنْ تَقْضِهَا لَهُمْ تَكُنْ قَدْ كَفَيْتَ وَوَفَّيْتَ ...

فَازْدَادَ عُمَرُ إِعْجَابًا بِهِ وَقَالَ : « هَٰذَا الْغُلَامُ سَيِّدُ أَهْلِ الْبَصْرَةِ » .

وَلَمَّا انْفَضَّ الْمَجْلِسُ ، وَهَمَّ رِجَالُ الْوَفْدِ بِالِانْصِرَافِ إِلَىٰ رَوَاحِلِهِمْ[1] لِيَبِيتُوا عِنْدَهَا ، أَجَالَ عُمَرُ بَصَرَهُ عَلَىٰ حَقَائِبِهِمْ ؛ فَرَأَىٰ طَرَفَ ثَوْبٍ خَارِجًا مِنْ إِحْدَاهَا ، فَقَامَ فَلَمَسَهُ بِيَدِهِ وَقَالَ :

لِمَنْ هَٰذَا ؟ .

فَقَالَ الْأَحْنَفُ : لِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .

وَقَدْ أَدْرَكَ أَنَّهُ اسْتَغْلَاهُ[2].

فَقَالَ لَهُ عُمَرُ : بِكَمِ اشْتَرَيْتَهُ ؟ .

فَقَالَ الْأَحْنَفُ : بِثَمَانِيَةِ دَرَاهِمَ .

وَلَمْ يَعْرِفْ عَنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ كَذَبَ فِي حَيَاتِهِ كُلِّهَا غَيْرَ تِلْكَ الْكِذْبَةِ .

ذَٰلِكَ لِأَنَّهُ اشْتَرَاهُ بِاثْنَيْ عَشَرَ دِرْهَمًا .

فَنَظَرَ إِلَيْهِ عُمَرُ فِي رِفْقٍ وَقَالَ :

هَلَّا اكْتَفَيْتَ بِوَاحِدٍ ، وَوَضَعْتَ فَضْلَةَ[3] مَالِكَ فِي مَوْضِعٍ تُعِينُ بِهِ مُسْلِمًا ؟ .

ثُمَّ قَالَ :

خُذُوا مِنْ أَمْوَالِكُمْ مَا يُصْلِحُ شَأْنَكُمْ[4]...

---

(١) رواحلهم : الرّواحل جمع راحلة ، وهي الّتي يُرْحَلُ عليها.

(٢) استغلاه : اعتقد أنه غالي الثّمن.

(٣) فَضْلَة مَالِك : بقية مَالِك.

(٤) يصلح شأنكم : يفي بحاجتكم ويقيم حياتكم.

وَضَعُوا الْفُضُولَ[1] فِي مَوَاضِعِهَا ؛ تُرِيحُوا أَنْفُسَكُمْ وَتَرْبَحُوا ...

فَأَطْرَقَ الْأَحْنَفُ حَيَاءً مِنْهُ ، وَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا .

* * *

أَذِنَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ لِرِجَالِ الْوَفْدِ بِالْعَوْدَةِ إِلَىٰ « الْبَصْرَةِ » غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَسْمَحْ لِلْأَحْنَفِ بِالْبَرَاحِ[2] مَعَهُمْ ، وَاسْتَبْقَاهُ عِنْدَهُ حَوْلًا كَامِلًا .

فَلَقَدْ أَدْرَكَ عُمَرُ بِثَاقِبِ نَظَرِهِ مَا تَوَافَرَ لِلْفَتَىٰ التَّمِيمِيِّ مِنْ حِدَّةِ الذَّكَاءِ ...

وَنَصَاعَةِ الْبَيَانِ ...

وَسُمُوِّ النَّفْسِ ...

وَعُلُوِّ الْهِمَّةِ ...

وَغِنَىٰ الْمَوَاهِبِ ...

فَأَرَادَ أَنْ يُبْقِيَهُ قَرِيبًا مِنْهُ لِيَصْنَعَهُ[3] عَلَىٰ عَيْنِهِ .

وَلِيَلْقَىٰ كِبَارَ الصَّحَابَةِ ؛ فَيَهْتَدِيَ بِهَدْيِهِمْ ...

وَيَتَفَقَّهَ فِي دِينِ اللَّهِ عَلَىٰ أَيْدِيهِمْ ...

ثُمَّ إِنَّهُ كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَخْتَبِرَهُ عَنْ كَثَبٍ[4]، وَأَنْ يَنْفُذَ إِلَىٰ دَخِيلَةِ نَفْسِهِ قَبْلَ أَنْ يُوَلِّيَهُ بَعْضَ شُؤُونِ الْمُسْلِمِينَ .

ذَلِكَ لِأَنَّ عُمَرَ كَانَ يَخْشَىٰ مِنَ الْأَذْكِيَاءِ الْمَقَاوِلِ[5] الْفُصَحَاءِ أَشَدَّ الْخَشْيَةِ .

---

(١) الفضول : الزوائد .

(٢) البراح : المغادرة والذهاب .

(٣) يصنعه علىٰ عينه : يتعهده ويوجهه ويربيه .

(٤) عن كثب : عن قرب .

(٥) المقاول : البلغاء الفصحاء الذين يتفنون الكلام .

فَهُمْ إِذَا صَلُحُوا مَلَأُوا الدُّنْيَا خَيْرًا ...

وَإِذَا فَسَدُوا كَانَ ذَكَاؤُهُمْ وَبَالًا عَلَىٰ النَّاسِ .

وَلَمَّا انْتَهَىٰ الْحَوْلُ ، قَالَ عُمَرُ لِلْأَحْنَفِ :

يَا أَحْنَفُ ، إِنِّي قَدْ بَلَوْتُكَ(١) وَاخْتَبَرْتُكَ فَلَمْ أَرَ إِلَّا خَيْرًا .

وَقَدْ رَأَيْتُ عَلَانِيَتَكَ حَسَنَةً ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ سَرِيرَتُكَ مِثْلَ عَلَانِيَتِكَ .

ثُمَّ وَجَّهَهُ لِحَرْبِ « الْفُرْسِ » ، وَكَتَبَ لِقَائِدِهِ ، أَبِي مُوسَىٰ الْأَشْعَرِيِّ :

أَمَّا بَعْدُ ، فَأَدْنِ(٢) الْأَحْنَفَ بْنَ قَيْسٍ مِنْكَ ، وَشَاوِرْهُ ، وَاسْمَعْ مِنْهُ .

* * *

انْضَوَىٰ(٣) الْأَحْنَفُ تَحْتَ أَلْوِيَةِ(٤) الْمُسْلِمِينَ الْمُشَرِّقَةِ الْمُغَرِّبَةِ فِي بِلَادِ « فَارِسَ » .

وَأَبْدَىٰ مِنْ ضُرُوبِ الْبُطُولَاتِ مَا جَعَلَ سَهْمَهُ يَعْلُو ، وَنَجْمَهُ يَتَأَلَّقُ .

وَأَبْلَىٰ(٥) هُوَ وَقَوْمُهُ بَنُو « تَمِيمٍ » فِي قِتَالِ الْعَدُوِّ أَكْرَمَ الْبَلَاءِ ، وَبَذَلُوا أَسْخَىٰ الْبَذْلِ .

حَتَّىٰ فَتَحَ اللَّهُ عَلَىٰ أَيْدِيهِمْ مَدِينَةَ « تُسْتَرَ » دُرَّةَ التَّاجِ الْكِسْرَوِيِّ ، وَأَوْقَعَ فِي أَسْرِهِمُ « الْهُرْمُزَانَ » .

* * *

كَانَ « الْهُرْمُزَانُ » مِنْ أَشَدِّ قُوَّادِ « الْفُرْسِ » بَأْسًا ، وَأَقْوَىٰ أُمَرَائِهِمْ شَكِيمَةً(٦) ، وَأَمْضَاهُمْ عَزِيمَةً ، وَأَوْسَعِهِمْ مَكِيدَةً فِي الْحُرُوبِ .

---

(١) بلوتك : جرّبتك .
(٢) أدْن : قرّب .
(٣) انضوَىٰ : انضم .
(٤) ألوية المسلمين : رايات المسلمين .
(٥) أبْلَىٰ : أظهر قوته وكشف عن بأسه .
(٦) الشكيمة : الأنفة .

وَلَقَدْ أَلْجَأَتْهُ انْتِصَارَاتُ الْمُسْلِمِينَ إِلَىٰ مُصَالَحَتِهِمْ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ، غَيْرَ أَنَّهُ كَانَ يَغْدِرُ بِهِمْ كُلَّمَا سَنَحَتْ لَهُ الْفُرْصَةُ، وَظَنَّ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَىٰ النَّصْرِ.

فَلَمَّا أَطْبَقُوا(١) عَلَيْهِ فِي «تُسْتَرَ» تَحَصَّنَ مِنْهُمْ فِي بُرْجٍ مِنْ أَبْرَاجِهَا الْمُمَنَّعَةِ وَقَالَ لَهُمْ:

إِنَّ مَعِي مِائَةَ سَهْمٍ.

وَوَاللَّهِ مَا تَصِلُونَ إِلَيَّ مَا دَامَ فِي يَدِي شَيْءٌ مِنْهَا، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَامٍ لَا تُخْطِئُ لَهُ رَمْيَةٌ...

فَمَا جَدْوَىٰ(٢) أَسْرِكُمْ إِيَّايَ بَعْدَ أَنْ أُصِيبَ مِائَةً مِنْكُمْ بَيْنَ قَتِيلٍ وَجَرِيحٍ.

فَقَالُوا: وَمَاذَا تُرِيدُ؟.

فَقَالَ: أُرِيدُ أَنْ أَنْزِلَ عَلَىٰ حُكْمِ خَلِيفَتِكُمْ عُمَرَ، وَلْيَفْعَلْ بِي مَا يَشَاءُ.

فَقَالُوا: لَكَ ذَٰلِكَ.

فَرَمَىٰ بِقَوْسِهِ عَلَىٰ الْأَرْضِ، وَنَزَلَ إِلَيْهِمْ مُسْتَسْلِمًا، فَشَدُّوا وَثَاقَهُ(٣)، وَأُرْسِلَ إِلَىٰ «الْمَدِينَةِ» مَعَ وَفْدٍ مِنْ أَبْطَالِ الْفَتْحِ.

وَكَانَ عَلَىٰ رَأْسِهِمْ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ(٤) خَادِمُ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَالْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ تِلْمِيذُ الْمَدْرَسَةِ الْعُمَرِيَّةِ.

* * *

مَضَىٰ الْوَفْدُ يَحُثُّ الْخُطَىٰ «بِالْهُرْمُزَانِ» نَحْوَ الْمَدِينَةِ؛ لِيُبَشِّرَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْفَتْحِ.

---

(١) أطبقوا عليه: أحاطوا به.
(٢) ما جدوىٰ: ما نفع.
(٣) الوثاق: القيد والحبل.
(٤) انظره في كتاب «صور من حياة الصحابة» للمؤلف، الناشر دار الأدب الإسلامي، الطبعة الشرعية.

وَيَحْمِلَ إِلَىٰ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ خُمُسَ الْغَنَائِمِ، وَلِيُسَلِّمَ نَاكِثَ[1] الْعُهُودِ خَوَّانَ الذِّمَمِ إِلَىٰ الْخَلِيفَةِ؛ لِيَحْكُمَ عَلَيْهِ بِحُكْمِهِ.

فَلَمَّا بَلَغُوا حَوَاشِيَ[2] الْمَدِينَةِ، أَعَدُّوا «الْهُرْمُزَانَ» لِيَعْرِضُوهُ أَمَامَ الْمُسْلِمِينَ عَلَىٰ هَيْئَتِهِ.

فَأَلْبَسُوهُ ثِيَابَهُ الْمَنْسُوجَةَ مِنْ ثَمِينِ الدِّيبَاجِ[3] الْمُوَشَّاةَ بِخُيُوطِ الذَّهَبِ.

وَوَضَعُوا عَلَىٰ رَأْسِهِ تَاجَهُ الْمُرَصَّعَ بِالدُّرِّ وَالْجَوْهَرِ، وَقَلَّدُوهُ صَوْلَجَانَهُ[4] الْمَصْنُوعَ مِنَ الْإِبْرِيزِ، الْمُكَلَّلَ بِالْيَوَاقِيتِ وَاللَّآلِئِ.

فَمَا إِنْ وَطِئَتْ أَقْدَامُهُمْ أَرْضَ «يَثْرِبَ» حَتَّىٰ تَجَمَّعَ النَّاسُ عَلَيْهِمْ شِيبًا وَشُبَّانًا...

وَجَعَلُوا يَنْظُرُونَ إِلَىٰ أَسِيرِهِمْ، وَيَعْجَبُونَ مِنْ هَيْئَتِهِ وَزِيِّهِ أَشَدَّ الْعَجَبِ.

* * *

تَوَجَّهَ الْوَفْدُ «بِالْهُرْمُزَانِ» إِلَىٰ دَارِ عُمَرَ فَلَمْ يَجِدُوهُ، فَسَأَلُوا عَنْهُ...

فَقِيلَ لَهُمْ: إِنَّهُ مَضَىٰ إِلَىٰ الْمَسْجِدِ لِيَسْتَقْبِلَ وَفْدًا قَدِمَ عَلَيْهِ.

فَانْطَلَقُوا إِلَىٰ الْمَسْجِدِ فَلَمْ يَرَوْهُ هُنَاكَ.

وَكَانُوا كُلَّمَا طَالَ بِهِمُ الْبَحْثُ عَنِ الْخَلِيفَةِ تَكَاثَرَ النَّاسُ عَلَيْهِمْ، وَاشْتَدَّ زِحَامُهُمْ.

وَفِيمَا هُمْ فِي حَيْرَتِهِمْ هَٰذِهِ؛ رَآهُمْ صِبْيَةٌ صِغَارٌ يَلْعَبُونَ، فَقَالُوا لَهُمْ: مَا شَأْنُكُمْ؟!...

---

(١) النَّاكث: الرَّاجع عمَّا عاهد عليه.
(٢) حواشي المدينة: أطراف المدينة ومداخلها.
(٣) الدِّيباج: الثَّوب الَّذي سداه ولحمته من الحرير.
(٤) الصَّوْلَجان: العصا المعقوفة الرأس، ومنها صَوْلَجان الملك.

نَرَاكُمْ ذَاهِبِينَ آيِبِينَ ، لَعَلَّكُمْ تُرِيدُونَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .

فَقَالُوا :

نَعَمْ نُرِيدُهُ .

فَقَالُوا : إِنَّهُ نَائِمٌ فِي مَيْمَنَةِ الْمَسْجِدِ ، مُتَوَسِّدٌ بُرْنُسَهُ[1].

وَكَانَ عُمَرُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ قَدْ خَرَجَ لِلِقَاءِ وَفْدٍ مِنْ أَهْلِ « الْكُوفَةِ » فِي بُرْنُسٍ لَهُ ؛ فَلَمَّا انْصَرَفَ الْوَفْدُ خَلَعَ الْبُرْنُسَ ، وَوَضَعَهُ تَحْتَ رَأْسِهِ ، وَأَسْلَمَ جَفْنَيْهِ إِلَىٰ الْكَرَىٰ[2].

فَانْطَلَقَ الْوَفْدُ « بِالْهُرْمُزَانِ » إِلَىٰ مَيْمَنَةِ الْمَسْجِدِ ، فَلَمَّا رَأَوُا الْخَلِيفَةَ نَائِمًا جَلَسُوا دُونَهُ[3]...

وَأَجْلَسُوا أَسِيرَهُمْ مَعَهُمْ ...

* * *

لَمْ يَكُنِ « الْهُرْمُزَانُ » يَفْقَهُ شَيْئًا مِنَ الْعَرَبِيَّةِ .

وَمَا كَانَ يَخْطُرُ بِبَالِهِ أَنَّ هَـٰذَا النَّائِمَ فِي نَاحِيَةِ الْمَسْجِدِ هُوَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ .

حَقًّا إِنَّهُ كَانَ قَدْ سَمِعَ عَنْ تَقَشُّفِ[4] عُمَرَ وَزُهْدِهِ فِي زُخْرُفِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا .

لَكِنَّهُ مَا كَانَ يَتَخَيَّلُ ـ مُجَرَّدَ تَخَيُّلٍ ـ أَنْ يَنَامَ قَاهِرُ « الرُّومِ » ، وَكَاسِرُ « الْأَكَاسِرَةِ » فِي طَرَفِ الْمَسْجِدِ مِنْ غَيْرِ غِطَاءٍ ...

(١) الْبُرْنُس : رداء يكون غطاء الرأس جزءًا منه .
(٢) الْكَرَىٰ : النعاس .
(٣) دُونَه : قريبًا منه .
(٤) التَّقَشُّف : ضيق الْعيش ، وهو ضدُّ التنعم .

وَلَا وِكَاءٍ[١]...

وَلَا حَرَسٍ...

وَلَا حُجَّابٍ...

وَلَمَّا رَأَىٰ الْقَوْمَ يَجْلِسُونَ صَامِتِينَ؛ ظَنَّهُمْ يَتَأَهَّبُونَ لِلصَّلَاةِ.

وَيَتَرَقَّبُونَ قُدُومَ الْخَلِيفَةِ.

لَكِنَّ الأَحْنَفَ بْنَ قَيْسٍ جَعَلَ يُشِيرُ إِلَىٰ النَّاسِ أَنْ يُمْسِكُوا عَنِ الْكَلَامِ، وَيَكُفُّوا عَنِ الْجَلَبَةِ لِكَيْ لَا يُوقِظُوا الْخَلِيفَةَ.

فَقَدْ كَانَ يَعْلَمُ مِنْ صُحْبَتِهِ لَهُ أَنَّهُ قَلَّمَا يَغْتَمِضُ لَهُ جَفْنٌ فِي لَيْلٍ.

فَهُوَ إِمَّا قَائِمٌ فِي مِحْرَابِهِ يَعْبُدُ اللَّهَ...

أَوْ مُتَخَفٍّ فِي ثِيَابِهِ يَجُوبُ[٢] أَحْيَاءَ الْمَدِينَةِ لِيَعْرِفَ أَحْوَالَ الرَّعِيَّةِ...

أَوْ عَاسٌّ[٣] يَحْرُسُ بُيُوتَ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الطُّرَّاقِ.

فَأَثَارَتْ إِشَارَاتُ الأَحْنَفِ لِلنَّاسِ انْتِبَاهَ «الْهُرْمُزَانِ»، فَالْتَفَتَ إِلَىٰ الْمُغِيرَةِ ابْنِ شُعْبَةَ[٤] - وَكَانَ يَعْرِفُ الْفَارِسِيَّةَ - وَقَالَ:

مَنْ هَٰذَا النَّائِمُ ؟!!.

فَقَالَ لَهُ الْمُغِيرَةُ:

إِنَّهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ...

---

(١) الوِكَاء: ما يُتكأ ويُستند عليه.

(٢) يَجُوب: يقطع ويتجوّل.

(٣) العَاسّ: الحارس في اللّيل.

(٤) الْمُغِيرَة بن شُعْبَة: تُوفي سنة ٥٠هـ - ٦٧٠م. صحابي ثقفي من دهاة العرب وولاتهم، ولاه عمر بن الخطاب البصرة والكوفة وعزله عثمان بن عفان، ثم ولاه معاوية بن أبي سفيان البصرة، ومات بها.

فَفَغَرَ[1] «الْهُرْمُزَانُ» فَمَهُ دَهْشَةً وَقَالَ: عُمَرُ؟!!.

أَيْنَ حَرَسُهُ وَحُجَّابُهُ؟!!.

فَقَالَ لَهُ الْمُغِيرَةُ: لَيْسَ لَهُ حَارِسٌ وَلَا حَاجِبٌ.

فَقَالَ «الْهُرْمُزَانُ»: يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا.

فَقَالَ الْمُغِيرَةُ: بَلْ يَفْعَلُ فِعْلَ الْأَنْبِيَاءِ؛ إِذْ لَا نَبِيَّ بَعْدَ مُحَمَّدٍ ﷺ...

ثُمَّ كَثُرَ النَّاسُ، وَارْتَفَعَتِ الْجَلَبَةُ.

فَاسْتَيْقَظَ عُمَرُ، وَاسْتَوَىٰ جَالِسًا، وَنَظَرَ إِلَىٰ النَّاسِ فِي دَهْشَةٍ... فَرَأَىٰ الْأَمِيرَ الْفَارِسِيَّ، وَعَلَىٰ رَأْسِهِ تَاجُهُ الْمُتَوَهِّجُ تَحْتَ أَشِعَّةِ الشَّمْسِ...

وَفِي يَدِهِ صَوْلَجَانُهُ الَّذِي يَخْطِفُ بَرِيقُهُ الْأَبْصَارَ.

فَحَدَّقَ فِيهِ وَقَالَ: «الْهُرْمُزَانُ»؟.

فَقَالَ لَهُ الْأَحْنَفُ: نَعَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ.

فَتَأَمَّلَ عُمَرُ مَا عَلَيْهِ مِنَ الذَّهَبِ، وَاللَّآلِئِ، وَالْيَوَاقِيتِ، وَالْحَرِيرِ.

ثُمَّ أَشَاحَ[2] بِوَجْهِهِ عَنْهُ وَقَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ النَّارِ...

وَأَسْتَعِينُ بِهِ عَلَىٰ الدُّنْيَا...

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذَلَّ هَٰذَا وَأَشْيَاعَهُ لِلْإِسْلَامِ.

ثُمَّ قَالَ:

يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ تَمَسَّكُوا بِهَٰذَا الدِّينِ...

وَاهْتَدُوا بِهَدْيِ نَبِيِّكُمُ الْكَرِيمِ...

---

(١) فَغَر فمه: فتح فاه بدهشة.

(٢) أشاح بوجهه: أمال وجهه وأعرض عنه.

وَلَا تُبْطِرَنَّكُمُ الدُّنْيَا فَإِنَّهَا غَرَّارَةٌ[1]...

فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ كَلَامِهِ بَشَّرَهُ الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ بِالْفَتْحِ ...

وَأَخْبَرَهُ بِمَا أَفَاءَ[2] اللَّهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْغَنَائِمِ وَقَالَ لَهُ: .

يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّ « الْهُرْمُزَانَ » قَدِ اسْتَأْسَرَ[3] لَنَا، وَطَلَبَ أَنْ يَنْزِلَ عَلَى حُكْمِكَ فِيهِ، فَكَلِّمْهُ إِذَا شِئْتَ.

فَقَالَ: لَا أُكَلِّمُهُ حَتَّى تَخْلَعُوا مَا عَلَيْهِ مِنْ مَظَاهِرِ الْبَطَرِ وَالْأَشَرِ[4].

فَخَلَعُوا عَنْهُ حِلْيَتَهُ وَتَاجَهُ، وَأَخَذُوا مِنْهُ صَوْلَجَانَهُ، وَأَلْبَسُوهُ ثَوْبًا صَفِيقًا[5] يَسْتُرُ جَسَدَهُ.

عِنْدَ ذَلِكَ الْتَفَتَ إِلَيْهِ عُمَرُ وَقَالَ:

هِيهِ يَا « هُرْمُزَانُ »، كَيْفَ وَجَدْتَ وَبَالَ[6] الْغَدْرِ، وَعَاقِبَةَ أَمْرِ اللَّهِ ؟!.

فَأَطْرَقَ « الْهُرْمُزَانُ » فِي ذِلَّةٍ ثُمَّ قَالَ:

يَا عُمَرُ، لَقَدْ كُنَّا فِي الْجَاهِلِيَّةِ نَحْنُ وَإِيَّاكُمْ؛ وَلَمْ يَكُنِ اللَّهُ مَعَنَا وَلَا مَعَكُمْ، فَغَلَبْنَاكُمْ ...

فَلَمَّا أَسْلَمْتُمْ وَصَارَ اللَّهُ مَعَكُمْ غَلَبْتُمُونَا ...

فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: لَقَدْ غَلَبْتُمُونَا لِهَذَا الَّذِي ذَكَرْتَ، وَلِأَمْرٍ آخَرَ هُوَ اجْتِمَاعُكُمْ وَتَفَرُّقُنَا ...

ثُمَّ نَظَرَ إِلَيْهِ بِشِدَّةٍ وَقَالَ:

---

(١) غَرَّارة: خدّاعة.
(٢) أَفَاءَ: أعطى ومنح.
(٣) استأسر لنا: استسلم لنا.
(٤) الأَشَر والبطر: بمعنى واحد.
(٥) صَفيقًا: كثيف النسج.
(٦) الوَبَال: العاقبة.

مَا عُذْرُكَ فِي انْتِقَاضِكَ(١) الْمَرَّةَ تِلْوَ الْمَرَّةِ يَا « هُرْمُزَانُ » ؟! .

فَقَالَ « الْهُرْمُزَانُ » : أَخَافُ أَنْ تَقْتُلَنِي .

فَقَالَ عُمَرُ : لَا بَأْسَ عَلَيْكَ حَتَّىٰ تُخْبِرَنِي .

فَلَمَّا سَمِعَ « الْهُرْمُزَانُ » ذَلِكَ مِنْ عُمَرَ هَدَأَ رَوْعُهُ(٢) بَعْضَ الشَّيْءِ .

وَقَالَ : إِنِّي عَطْشَانُ ؛ فَأَمَرَ عُمَرُ أَنْ يَسْقُوهُ ...

فَأُتِيَ لَهُ بِمَاءٍ فِي قَدَحٍ غَلِيظٍ ، فَتَأَمَّلَهُ وَقَالَ :

لَوْ مِتُّ عَطَشًا لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَشْرَبَ فِي مِثْلِ هَـٰذَا الْإِنَاءِ ...

فَأَمَرَ عُمَرُ فَأُتِيَ لَهُ بِمَاءٍ فِي إِنَاءٍ يَرْضَاهُ ...

فَلَمَّا أَخَذَهُ فِي يَدِهِ جَعَلَتْ يَدُهُ تَرْتَجِفُ .

فَقَالَ لَهُ عُمَرُ : مَا بِكَ ؟ .

فَقَالَ : إِنِّي أَخَافُ أَنْ أُقْتَلَ وَأَنَا أَشْرَبُ هَـٰذِهِ الْجُرْعَةَ مِنَ الْمَاءِ .

فَقَالَ لَهُ عُمَرُ : « لَا بَأْسَ عَلَيْكَ حَتَّىٰ تَشْرَبَهَا » .

فَمَا كَانَ مِنَ « الْهُرْمُزَانِ » إِلَّا أَنْ كَفَأَ(٣) الْإِنَاءَ ، وَسَفَحَ(٤) الْمَاءَ .

فَقَالَ عُمَرُ : أَحْضِرُوا لَهُ مَاءً غَيْرَهُ ، وَلَا تَجْمَعُوا عَلَيْهِ الْقَتْلَ وَالْعَطَشَ .

فَقَالَ « الْهُرْمُزَانُ » : لَا حَاجَةَ لِي بِالْمَاءِ ...

وَإِنَّمَا أَرَدْتُ أَنْ أَسْتَأْمِنَ(٥) بِهِ عَلَىٰ نَفْسِي مِنَ الْقَتْلِ .

فَقَالَ لَهُ عُمَرُ : إِنِّي قَاتِلُكَ .

---

(١) انتقاضك : خيانتك لعهدك .
(٢) رَوْعه : خوفه .
(٣) كَفَأَ : أوقع .
(٤) سَفَح الماء : أراقه .
(٥) أستأمن به : أنال الأمان بوساطته .

فَقَالَ «الْهُرْمُزَانُ»: لَقَدْ أَمَّنْتَنِي.

فَقَالَ عُمَرُ: كَذَبْتَ.

فَقَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ: صَدَقَ - يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - فَقَدْ أَمَّنْتَهُ.

فَقَالَ عُمَرُ: وَيْحَكَ[1] يَا أَنَسُ؛ أَأُؤَمِّنُ قَاتِلَ أَخِيكَ الْبَرَاءِ بْنِ مَالِكٍ، وَمَجْزَأَةِ بْنِ ثَوْرٍ[2]؟! ...

هَيْهَاتَ ...

فَقَالَ أَنَسٌ: لَقَدْ قُلْتَ لَهُ: لَا بَأْسَ عَلَيْكَ حَتَّىٰ تُخْبِرَنِي، وَقُلْتَ لَهُ: لَا بَأْسَ عَلَيْكَ حَتَّىٰ تَشْرَبَ الْمَاءَ.

وَأَيَّدَ الْأَحْنَفُ قَوْلَ أَنَسٍ، وَأَقَرَّ الْحَاضِرُونَ بِأَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ أَمَّنَ «الْهُرْمُزَانَ».

فَنَظَرَ عُمَرُ إِلَىٰ «الْهُرْمُزَانِ» مُغْضَبًا وَقَالَ:

لَقَدْ خَدَعْتَنِي[3]، وَإِنِّي - وَاللَّهِ - لَا أَنْخَدِعُ إِلَّا لِمُسْلِمٍ.

فَأَسْلَمَ «الْهُرْمُزَانُ»، وَفَرَضَ لَهُ عُمَرُ أَلْفَيْنِ.

* * *

لَقَدْ كَانَ يُقْلِقُ بَالَ عُمَرَ كَثْرَةُ نَقْضِ «الْفُرْسِ» لِعُهُودِهِمْ مَعَ الْمُسْلِمِينَ، وَانْقِلَابُهُمْ عَلَيْهِمْ.

فَجَمَعَ رِجَالَ الْوَفْدِ الَّذِي قَدِمَ مَعَ «الْهُرْمُزَانِ» وَقَالَ لَهُمْ:

---

(١) ويح: كلمة تستعمل للتعجب.

(٢) البَرَاء بن مَالِك، ومَجْزَأَة بن ثَوْر: من كبار مجاهدي الصحابة، انظرهما في كتاب «صور من حياة الصحابة» للمؤلف، الناشر دار الأدب الإسلامي، الطبعة الشرعية.

(٣) خدعتني: أظهرت لي خلاف ما تخفيه.

أَيُؤْذِي الْمُسْلِمُونَ أَهْلَ الذِّمَّةِ، وَيُسِيئُونَ مُعَامَلَتَهُمْ؛ فَيَنْتَقِضُوا عَلَيْهِمْ؟.

فَقَالَ رِجَالُ الْوَفْدِ: وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا نَعْلَمُ أَنَّ أَحَدًا أَسَاءَ لَهُمْ مُعَامَلَةً.

أَوْ خَفَرَ[1] لَهُمْ ذِمَّةً...

أَوْ غَشَّهُمْ فِي عَقْدٍ...

فَقَالَ عُمَرُ: فَمَا لَهُمْ يَنْقَلِبُونَ عَلَيْكُمْ كُلَّمَا سَنَحَتْ لَهُمُ الْفُرْصَةُ عَلَىٰ الرَّغْمِ مِمَّا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِنْ عُقُودٍ؟.

فَأَجَابَ الْوَفْدُ بِكَلَامٍ لَمْ يُقْنِعْ عُمَرَ، وَلَمْ يَسْتَرِحْ لَهُ.

عِنْدَ ذٰلِكَ قَامَ الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ وَقَالَ:

أَنَا أُخْبِرُكَ بِمَا سَأَلْتَ عَنْهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ.

فَقَالَ: هَاتِ مَا عِنْدَكَ.

فَقَالَ: إِنَّكَ - يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - قَدْ نَهَيْتَنَا عَنِ الِانْسِيَاحِ فِي بِلَادِ «الْفُرْسِ».

وَأَمَرْتَنَا بِالِاقْتِصَارِ عَلَىٰ مَا فِي أَيْدِينَا مِنْ أَرَاضِيهِمْ وَمُدُنِهِمْ.

وَإِنَّ «الْفُرْسَ» مَا دَامَ لَهُمْ مَلِكٌ حَيٌّ، وَمُلْكٌ قَائِمٌ... فَسَيُقَاتِلُونَنَا الْكَرَّةَ تِلْوَ الْكَرَّةِ؛ لِاسْتِرْجَاعِ مَا فِي أَيْدِينَا مِنْ قَوْمِهِمْ وَدِيَارِهِمْ.

وَسَيَنْضَمُّ إِلَيْهِمْ مَنْ عَاهَدَنَا كُلَّمَا دَعَاهُ الدَّاعِي، وَلَاحَتْ لَهُ فُرْصَةُ النَّصْرِ.

وَإِنَّهُ - يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - لَا يَجْتَمِعُ مَلِكَانِ فِي أَرْضٍ وَاحِدَةٍ.

---

(١) خفر ذمتهم: نقض عهدهم.

فَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يُخْرِجَ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ .

فَلَوْ أَذِنْتَ لَنَا بِالِانْسِيَاحِ(١) فِي بِلَادِهِمْ حَتَّىٰ نَقْضِيَ عَلَىٰ مَلِكِهِمْ ، وَنُزِيلَ مُلْكَهُمْ ؛ لَانْقَطَعَ رَجَاؤُهُمْ ، وَسَكَنَ جَأْشُهُمْ(٢)، واسْتَتَبَّ لَنَا الْأَمْرُ .

فَأَطْرَقَ عُمَرُ لَحْظَةً ثُمَّ قَالَ :

لَقَدْ صَدَقَنِي الْأَحْنَفُ ، وَكَشَفَ لِي مَا غَابَ عَنِّي مِنْ شَأْنِ الْقَوْمِ .

* * *

وَبَعْدُ ، فَقَدْ كَانَ لِمَوْقِفِ الْأَحْنَفِ هَٰذَا مَا بَعْدَهُ ...

وَكَانَ مِنْ أَثَرِ هَٰذَا الرَّأْيِ أَنْ غَيَّرَ مَجْرَىٰ التَّارِيخِ (*) ...

---

(١) الانْسِيَاح : الانطلاق .

(٢) سَكَنَ جَأْشُهُم : هدأت حركتهم .

(*) للاستزادة من أخبار الأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ انظر :

١ - طبقات ابن سعد : ٧/ ٩٣.

٢ - طبقات خليفة بن خياط : ٧/ ٩٣.

٣ - المعارف لابن قتيبة : ٤٢٣.

٤ - أخبار أصبهان : ١/ ٢٢٤.

٥ - تهذيب ابن عساكر : ٧/ ١٠.

٦ البداية والنهاية : ٨/ ٣٢٦

٧ - تاريخ الإسلام للذهبي : ٣/ ١٢٩.

٨ - أسْدُ الغابة : ١/ ٥٥.

٩ - شذرات الذهب : ١/ ٧٨.

١٠ - النجوم الزاهرة : ١/ ١٨٤.

١١- العبر : ١/ ٨٠.

١٢- الإصابة : ١/١٠٠ أو الترجمة [٤٢٩] .

أَبُو حَنِيفَةَ النُّعْمَانُ
لَمَحَاتٌ رَائِعَةٌ مِنْ حَيَاتِهِ

«لَمْ أَرَ أَعْقَلَ وَلَا أَفْضَلَ وَلَا أَوْرَعَ مِنْ أَبِي حَنِيفَةَ»

[يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ]

كَانَ حَسَنَ الْوَجْهِ، وَسِيمَ[1] الطَّلْعَةِ، عَذْبَ الْمَنْطِقِ، حُلْوَ الْحَدِيثِ.

لَيْسَ بِالطَّوِيلِ الْبَائِنِ[2]، وَلَا بِالْقَصِيرِ الَّذِي تَنْبُو عَنْهُ الْعُيُونُ[3].

وَهُوَ إِلَىٰ ذَلِكَ لَبَّاسٌ أَنِيقُ الثِّيَابِ، بَهِيُّ الطَّلْعَةِ، كَثِيرُ التَّعَطُّرِ؛ إِذَا طَلَعَ عَلَىٰ النَّاسِ عَرَفُوهُ مِنْ طِيبِهِ قَبْلَ أَنْ يَرَوْهُ.

ذَلِكُمْ هُوَ النُّعْمَانُ بْنُ ثَابِتِ بْنِ الْمَرْزُبَانِ الْمُكَنَّىٰ بِأَبِي حَنِيفَةَ.

أَوَّلُ مَنْ فَتَّقَ أَكْمَامَ[4] الْفِقْهِ، وَاسْتَخْرَجَ أَرْوَعَ مَا فِيهَا مِنْ طُيُوبٍ.

* * *

أَدْرَكَ أَبُو حَنِيفَةَ طَرَفًا مِنْ آخِرِ عَصْرِ بَنِي «أُمَيَّةَ»، وَآخَرَ مِنْ أَوَّلِ عَصْرِ بَنِي «الْعَبَّاسِ».

وَعَاشَ فِي زَمَنٍ أَغْدَقَ فِيهِ الْخُلَفَاءُ وَالْوُلَاةُ عَلَىٰ أَصْحَابِ الْمَوَاهِبِ إِغْدَاقًا حَتَّىٰ صَارَ رِزْقُهُمْ يَأْتِيهِمْ رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ.

بَيْدَ أَنَّ أَبَا حَنِيفَةَ أَكْرَمَ عِلْمَهُ وَنَفْسَهُ عَنْ ذَلِكَ، وَحَزَمَ أَمْرَهُ عَلَىٰ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ كَسْبِ يَمِينِهِ...

---

(١) وسيم الطّلعة: بهي المنظر.

(٢) الطّويل البائن: الشّديد الطّول.

(٣) تنبو عنه العيون: تُعرض عنه الأنظار، ولا ترتاح لرؤيته.

(٤) فتّق أكمام الفقه: أخصب الفقه وكشف عن روائعه.

وَأَنْ تَكُونَ يَدُهُ هِيَ الْعُلْيَا دَائِمًا...

* * *

دَعَاهُ الْمَنْصُورُ ذَاتَ مَرَّةٍ إِلَىٰ زِيَارَتِهِ، فَلَمَّا صَارَ عِنْدَهُ بَالَغَ فِي إِعْظَامِهِ وَإِكْرَامِهِ وَالتَّرْحِيبِ بِهِ، وَأَدْنَىٰ[1] مَجْلِسَهُ مِنْهُ، وَجَعَلَ يُسَائِلُهُ عَنْ كَثِيرٍ مِنْ شُؤُونِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا.

فَلَمَّا أَرَادَ الِانْصِرَافَ؛ دَفَعَ إِلَيْهِ بِكِيسٍ فِيهِ ثَلَاثُونَ أَلْفَ دِرْهَمٍ - عَلَىٰ مَا كَانَ مَعْرُوفًا مِنْ إِمْسَاكِ[2] الْمَنْصُورِ - فَقَالَ لَهُ أَبُو حَنِيفَةَ:

يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنِّي غَرِيبٌ فِي «بَغْدَادَ»...

وَلَيْسَ لِهَٰذَا الْمَالِ مَوْضِعٌ عِنْدِي، وَإِنِّي لَأَخْشَىٰ عَلَيْهِ...

فَاحْفَظْهُ لِي فِي بَيْتِ الْمَالِ حَتَّىٰ إِذَا احْتَجْتُهُ طَلَبْتُهُ مِنْكَ.

فَأَجَابَهُ الْمَنْصُورُ إِلَىٰ رَغْبَتِهِ.

غَيْرَ أَنَّ الْحَيَاةَ لَمْ تَطُلْ بَعْدَئِذٍ بِأَبِي حَنِيفَةَ.

فَلَمَّا وَافَاهُ الْأَجَلُ؛ وُجِدَتْ فِي بَيْتِهِ وَدَائِعُ لِلنَّاسِ تَزِيدُ عَلَىٰ أَضْعَافِ هَٰذَا الْمَبْلَغِ، فَلَمَّا سَمِعَ الْمَنْصُورُ بِذَلِكَ قَالَ:

يَرْحَمُ اللَّهُ أَبَا حَنِيفَةَ، فَقَدْ خَدَعَنَا، وَأَبَىٰ أَنْ يَأْخُذَ شَيْئًا مِنَّا، وَتَلَطَّفَ فِي رَدِّنَا.

وَلَا غَرْوَ[3] فَقَدْ كَانَ أَبُو حَنِيفَةَ يُوقِنُ أَنَّهُ مَا أَكَلَ امْرُؤٌ لُقْمَةً أَزْكَىٰ وَلَا أَعَزَّ مِنْ لُقْمَةٍ يَنَالُهَا مِنْ كَسْبِ يَدِهِ.

---

(١) أدنى: قرَّب.
(٢) الإمساك: ضدُّ الجود.
(٣) لا غرو: لا عجب.

لِذَلِكَ نَجِدُهُ يُخَصِّصُ شَطْرًا مِنْ وَقْتِهِ لِلتِّجَارَةِ .

فَقَدْ جَعَلَ يَتَّجِرُ بِالْخَزِّ[1] وَأَثْوَابِهِ ، وَكَانَتْ تِجَارَتُهُ ذَاهِبَةً آيِبَةً بَيْنَ مُدُنِ « الْعِرَاقِ » .

وَكَانَ لَهُ مَتْجَرٌ مَعْرُوفٌ يَقْصِدُهُ النَّاسُ ؛ فَيَجِدُونَ فِيهِ الصِّدْقَ فِي الْمُعَامَلَةِ ، وَالْأَمَانَةَ فِي الْأَخْذِ وَالْعَطَاءِ ...

وَلَا رَيْبَ فِي أَنَّهُمْ كَانُوا يَجِدُونَ فِيهِ الذَّوْقَ الرَّفِيعَ أَيْضًا .

وَلَقَدْ كَانَتْ تِجَارَتُهُ تُدِرُّ عَلَيْهِ خَيْرًا وَفِيرًا ، وَتَحْبُوهُ[2] - مِنْ فَضْلِ اللَّهِ - مَالًا كَثِيرًا .

فَكَانَ يَأْخُذُ الْمَالَ مِنْ حِلِّهِ ، وَيَضَعُهُ فِي مَحَلِّهِ .

فَلَقَدْ عُرِفَ عَنْهُ أَنَّهُ كُلَّمَا حَالَ عَلَيْهِ الْحَوْلُ ؛ أَحْصَىٰ أَرْبَاحَهُ مِنْ تِجَارَتِهِ ، وَاسْتَبْقَىٰ مِنْهَا مَا يَكْفِيهِ لِنَفَقَتِهِ ، ثُمَّ يَشْتَرِي بِالْبَاقِي حَوَائِجَ الْقُرَّاءِ وَالْمُحَدِّثِينَ ، وَالْفُقَهَاءِ وَطُلَّابِ الْعِلْمِ ، وَأَقْوَاتَهُمْ وَكِسْوَتَهُمْ ...

وَيُخَصِّصُ لِكُلٍّ مِنْهُمْ مَبْلَغًا مِنَ النَّقْدِ الْعَيْنِ ، وَيَدْفَعُ ذَلِكَ كُلَّهُ إِلَيْهِمْ وَيَقُولُ :

هَٰذِهِ أَرْبَاحُ بَضَائِعِكُمْ أَجْرَاهَا[3] اللَّهُ لَكُمْ عَلَىٰ يَدَيَّ ...

وَاللَّهِ مَا أَعْطَيْتُكُمْ مِنْ مَالِي شَيْئًا .

وَإِنَّمَا هُوَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيَّ فِيكُمْ ...

فَمَا فِي رِزْقِ اللَّهِ حَوْلٌ لِأَحَدٍ غَيْرِ اللَّهِ .

* * *

(١) الْخَزّ : ما نُسج من صوف وحرير.
(٢) تَحْبُوه : تعطيه وتهبه.
(٣) أجْرَاهَا : حقَّقها وأفاضها.

وَلَقَدْ شَرَّقَتْ أَخْبَارُ جُودِ أَبِي حَنِيفَةَ وَسَمَاحَتِهِ وَغَرَّبَتْ، وَخَاصَّةً مَعَ جُلَسَائِهِ وَأَصْحَابِهِ.

مِنْ ذَلِكَ أَنَّ أَحَدَ جُلَسَائِهِ جَاءَ إِلَىٰ مَتْجَرِهِ يَوْمًا وَقَالَ:

إِنِّي بِحَاجَةٍ إِلَىٰ ثَوْبِ خَزٍّ يَا أَبَا حَنِيفَةَ.

فَقَالَ لَهُ أَبُو حَنِيفَةَ: مَا لَوْنُهُ؟.

فَقَالَ: كَذَا وَكَذَا.

فَقَالَ: اصْبِرْ حَتَّىٰ يَقَعَ لِي فَآخُذَهُ لَكَ.

فَمَا إِنْ دَارَتِ الْجُمُعَةُ[1] حَتَّىٰ وَقَعَ لَهُ الثَّوْبُ الْمَطْلُوبُ.

فَمَرَّ بِهِ صَاحِبُهُ، فَقَالَ لَهُ أَبُو حَنِيفَةَ:

قَدْ وَقَعَتْ لِي حَاجَتُكَ... وَأَخْرَجَ إِلَيْهِ الثَّوْبَ، فَأَعْجَبَهُ وَقَالَ:

كَمْ أَدْفَعُ لِغُلَامِكَ ثَمَنَهُ؟.

فَقَالَ: دِرْهَمًا[2].

فَقَالَ الرَّجُلُ فِي اسْتِغْرَابٍ: دِرْهَمًا وَاحِدًا؟!.

فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ: نَعَمْ.

فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: مَا كُنْتُ أَظُنُّكَ تَهْزَأُ[3] بِي يَا أَبَا حَنِيفَةَ.

فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ: مَا هَزِئْتُ بِكَ...

وَإِنَّمَا اشْتَرَيْتُ هَذَا الثَّوْبَ وَآخَرَ مَعَهُ بِعِشْرِينَ دِينَارًا ذَهَبًا، وَدِرْهَمٍ مِنَ الْفِضَّةِ...

---

(١) دارت الجمعة: انقضى الأسبوع.

(٢) درهمًا: الدّرهم من الفضّة، والدّينار من الذّهب. (٣) تهزأ بي: تسخر مني.

وَقَدْ بِعْتُ أَحَدَ الثَّوْبَيْنِ بِعِشْرِينَ دِينَارًا ذَهَبًا، وَبَقِيَ عَلَيَّ هَٰذَا بِدِرْهَمٍ وَاحِدٍ.

وَمَا كُنْتُ لِأَرْبَحَ عَلَىٰ جَلِيسِي.

* * *

وَجَاءَتْهُ امْرَأَةٌ عَجُوزٌ تَطْلُبُ ثَوْبَ خَزٍّ...

فَأَخْرَجَ لَهَا الثَّوْبَ الْمَطْلُوبَ، فَقَالَتْ لَهُ:

إِنِّي امْرَأَةٌ عَجُوزٌ...

وَلَا عِلْمَ لِي بِالْأَثْمَانِ...

وَإِنَّهَا الْأَمَانَةُ...

فَبِعْنِي الثَّوْبَ بِمَا قَامَ عَلَيْكَ[1]، وَأَضِفْ إِلَيْهِ قَلِيلًا مِنَ الرِّبْحِ؛ فَإِنِّي ضَعِيفَةٌ.

فَقَالَ لَهَا: إِنِّي اشْتَرَيْتُ ثَوْبَيْنِ اثْنَيْنِ فِي صَفْقَةٍ[2] وَاحِدَةٍ، ثُمَّ إِنِّي بِعْتُ أَحَدَهُمَا بِرَأْسِ الْمَالِ إِلَّا أَرْبَعَةَ دَرَاهِمَ؛ فَخُذِيهِ بِهَا، وَلَا أُرِيدُ مِنْكِ رِبْحًا.

* * *

وَقَدْ رَأَىٰ ذَاتَ يَوْمٍ ثِيَابًا رَثَّةً عَلَىٰ أَحَدِ جُلَسَائِهِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ النَّاسُ، وَلَمْ يَبْقَ فِي الْمَجْلِسِ إِلَّا هُوَ وَالرَّجُلُ قَالَ لَهُ:

ارْفَعْ هَٰذَا الْمُصَلَّىٰ وَخُذْ مَا تَحْتَهُ.

فَرَفَعَ الرَّجُلُ الْمُصَلَّىٰ؛ فَإِذَا تَحْتَهُ أَلْفُ دِرْهَمٍ.

فَقَالَ لَهُ أَبُو حَنِيفَةَ: خُذْهَا وَأَصْلِحْ بِهَا مِنْ شَأْنِكَ[3].

---

(١) بما قام عليك: بالثمن الذي اشتريته به.

(٢) صفقةٌ واحدةٌ: عقدٌ واحدٌ.

(٣) شأنك: حالك ومظهرك.

فَقَالَ الرَّجُلُ: إِنِّي مُوسِرٌ[1]، وَقَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ، وَلَا حَاجَةَ لِي بِهَا.

فَقَالَ لَهُ أَبُو حَنِيفَةَ:

إِذَا كَانَ اللَّهُ قَدْ أَنْعَمَ عَلَيْكَ فَأَيْنَ آثَارُ نِعْمَتِهِ؟! ...

أَمَا بَلَغَكَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ يَقُولُ:

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَىٰ أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَىٰ عَبْدِهِ) ...

فَيَنْبَغِي عَلَيْكَ أَنْ تُصْلِحَ مِنْ شَأْنِكَ حَتَّىٰ لَا تَغُمَّ[2] صَدِيقَكَ.

* * *

وَلَقَدْ بَلَغَ مِنْ جُودِ أَبِي حَنِيفَةَ وَبِرِّهِ بِالنَّاسِ؛ أَنَّهُ كَانَ إِذَا أَنْفَقَ عَلَىٰ عِيَالِهِ نَفَقَةً تَصَدَّقَ بِمِثْلِهَا عَلَىٰ غَيْرِهِمْ مِنَ الْمُحْتَاجِينَ.

وَإِذَا اكْتَسَىٰ ثَوْبًا جَدِيدًا كَسَىٰ الْمَسَاكِينَ بِقَدْرِ ثَمَنِهِ.

وَكَانَ إِذَا وُضِعَ الطَّعَامُ بَيْنَ يَدَيْهِ غَرَفَ مِنْهُ ضِعْفَ مَا يَأْكُلُهُ عَادَةً، وَدَفَعَ بِهِ إِلَىٰ الْفُقَرَاءِ.

* * *

وَمِمَّا يُرْوَىٰ عَنْهُ أَنَّهُ قَطَعَ عَهْدًا عَلَىٰ نَفْسِهِ أَلَّا يَحْلِفَ بِاللَّهِ فِي أَثْنَاءِ كَلَامِهِ إِلَّا تَصَدَّقَ بِدِرْهَمٍ فِضَّةٍ.

ثُمَّ تَدَرَّجَ فِي الْأَمْرِ، فَجَعَلَ عَلَىٰ نَفْسِهِ عَهْدًا إِنْ حَلَفَ بِاللَّهِ لَيَتَصَدَّقَنَّ بِدِينَارٍ مِنْ ذَهَبٍ ...

فَكَانَ إِذَا حَلَفَ صَادِقًا تَصَدَّقَ بِدِينَارٍ.

* * *

(١) موسر: غني.
(٢) تغم: تحزن.

وَلَقَدْ كَانَ حَفْصُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَٰنِ شَرِيكًا لِأَبِي حَنِيفَةَ فِي بَعْضِ تِجَارَتِهِ فَكَانَ أَبُو حَنِيفَةَ يُجَهِّزُ لَهُ أَمْتِعَةَ الْخَزِّ وَيَبْعَثُ بِهَا مَعَهُ إِلَىٰ بَعْضِ مُدُنِ « الْعِرَاقِ » .

فَجَهَّزَ لَهُ ذَاتَ مَرَّةٍ مَتَاعًا كَثِيرًا ، وَأَعْلَمَهُ أَنَّ فِي ثَوْبِ كَذَا وَكَذَا عُيُوبًا ، وَقَالَ لَهُ :

إِذَا هَمَمْتَ بِبَيْعِهَا فَبَيِّنْ لِلْمُشْتَرِي مَا فِيهَا مِنْ عَيْبٍ ...

فَبَاعَ حَفْصٌ الْمَتَاعَ كُلَّهُ ، وَنَسِيَ أَنْ يُعْلِمَ الْمُشْتَرِينَ بِمَا فِي الْأَثْوَابِ الْمَعِيبَةِ مِنْ عُيُوبٍ .

وَلَقَدْ أَجْهَدَ[1] نَفْسَهُ فِي تَذَكُّرِ الرِّجَالِ الَّذِينَ بَاعَهُمُ الثِّيَابَ الْمَعِيبَةَ ؛ فَلَمْ يُفْلِحْ[2] ...

فَلَمَّا عَلِمَ أَبُو حَنِيفَةَ بِالْأَمْرِ ، وَلَمْ يَتَمَكَّنْ مِنْ مَعْرِفَةِ الَّذِينَ وَقَعَ عَلَيْهِمُ الْغَبْنُ[3] لَمْ يَسْتَقِرَّ قَرَارُهُ ، وَلَمْ تَطِبْ نَفْسُهُ حَتَّىٰ تَصَدَّقَ بِأَثْمَانِ الْمَتَاعِ كُلِّهَا .

* * *

وَلَقَدْ كَانَ أَبُو حَنِيفَةَ فَوْقَ ذَلِكَ كُلِّهِ طَيِّبَ الْمُعَاشَرَةِ ، حُلْوَ الْمُؤَانَسَةِ يَسْعَدُ بِهِ جَلِيسُهُ ... وَلَا يَشْقَىٰ[4] بِهِ مَنْ غَابَ عَنْهُ ، وَلَوْ كَانَ عَدُوًّا لَهُ .

حَدَّثَ أَحَدُ أَصْحَابِهِ قَالَ :

سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الْمُبَارَكِ[5] يَقُولُ لِسُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ[6]:

يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ، مَا أَبْعَدَ أَبَا حَنِيفَةَ عَنِ الْغِيبَةِ !! ...

(١) أجهد نفسه : عنّى نفسه وأتعبها .
(٢) لم يفلح : لم ينجح ولم يَصِلْ الى شيء .
(٣) الغبن : الخديعة في البيع والشراء .
(٤) يشقى به : ضد يسعد به ، أي يتعبه ويتعسه .
(٥) عبد الله بن المبارك : أحد أعلام المسلمين ، وواحد من تابعي التابعين تاجر فذ ، ومجاهد معروف .
(٦) سُفيان الثّوري : أحد أئمة المحدّثين ، لم يكن في زمنه من هو أعلم منه بالحلال والحرام .

فَإِنِّي مَا سَمِعْتُهُ يَذْكُرُ عَدُوًّا لَهُ بِسُوءٍ قَطُّ .

فَقَالَ لَهُ سُفْيَانُ :

إِنَّ أَبَا حَنِيفَةَ أَعْقَلُ مِنْ أَنْ يُسَلِّطَ عَلَىٰ حَسَنَاتِهِ مَا يَذْهَبُ بِهَا .

* * *

وَكَانَ أَبُو حَنِيفَةَ كَلِفًا[١] بِاقْتِنَاصِ[٢] وُدِّ النَّاسِ ، حَرِيصًا عَلَىٰ اسْتِدَامَةِ صَدَاقَتِهِمْ ...

فَقَدْ عُرِفَ عَنْهُ أَنَّهُ رُبَّمَا مَرَّ بِهِ الرَّجُلُ مِنَ النَّاسِ ؛ فَقَعَدَ فِي مَجْلِسِهِ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ وَلَا مُجَالَسَةٍ[٣]...

فَإِذَا قَامَ سَأَلَ عَنْهُ ، فَإِنْ كَانَتْ بِهِ فَاقَةٌ[٤] وَصَلَهُ ...

وَإِنْ كَانَ بِهِ مَرَضٌ عَادَهُ ...

وَإِنْ كَانَتْ لَهُ حَاجَةٌ قَضَاهَا ...

حَتَّىٰ يَجُرَّهُ إِلَىٰ مُوَاصَلَتِهِ جَرًّا ...

* * *

وَلَقَدْ كَانَ أَبُو حَنِيفَةَ قَبْلَ ذَلِكَ كُلِّهِ ، وَفَوْقَ ذَلِكَ كُلِّهِ صَوَّامَ نَهَارٍ ...

قَوَّامَ لَيْلٍ ...

خَدِينًا[٥] لِلْقُرْآنِ ...

مُسْتَغْفِرًا فِي الْأَسْحَارِ ...

وَكَانَ مِنْ أَسْبَابِ تَوَغُّلِهِ[٦] فِي الْعِبَادَةِ ، وَانْدِفَاعِهِ فِيهَا ... أَنَّهُ أَقْبَلَ ذَاتَ يَوْمٍ عَلَىٰ جَمَاعَةٍ مِنَ النَّاسِ فَسَمِعَهُمْ يَقُولُونَ :

---

(١) كَلِفًا : مولعًا.
(٢) الاقتناص : الاصطياد.
(٣) المجالسة : الرغبة في القعود.
(٤) الفاقة : الحاجة والفقر.
(٥) الخدين : الصديق المولع بصديقه.
(٦) توغله : تعمقه واستكثاره.

إِنَّ هَٰذَا الرَّجُلَ الَّذِي تَرَوْنَهُ لَا يَنَامُ اللَّيْلَ.

فَمَا إِنْ لَامَسَتْ كَلِمَتُهُمْ هَٰذِهِ مَسْمَعَهُ حَتَّىٰ قَالَ:

إِنِّي عِنْدَ النَّاسِ عَلَىٰ خِلَافِ مَا أَنَا عَلَيْهِ عِنْدَ اللَّهِ...

وَاللَّهِ لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ عَنِّي مُنْذُ السَّاعَةِ بِمَا لَا أَفْعَلُ...

وَلَنْ أَتَوَسَّدَ[١] فِرَاشًا بَعْدَ الْيَوْمِ فِي لَيْلٍ حَتَّىٰ أَلْقَىٰ اللَّهَ.

ثُمَّ دَأَبَ مُنْذُ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ عَلَىٰ قِيَامِ اللَّيْلِ كُلِّهِ، فَكَانَ إِذَا أَرْخَىٰ الظَّلَامُ سُدُولَهُ[٢] عَلَىٰ الْكَوْنِ، وَأَسْلَمَتِ[٣] الْجُنُوبُ إِلَىٰ الْمَضَاجِعِ...

قَامَ فَلَبِسَ أَحْسَنَ ثِيَابِهِ، وَسَرَّحَ لِحْيَتَهُ، وَتَطَيَّبَ، وَتَزَيَّنَ...

ثُمَّ يَصِفُّ فِي مِحْرَابِهِ، وَيَقْطَعُ لَيْلَهُ قَانِتًا[٤]، أَوْ مُنْحَنِيًا[٥] بِصُلْبِهِ عَلَىٰ أَجْزَاءِ الْقُرْآنِ، أَوْ رَافِعًا يَدَيْهِ بِالضَّرَاعَةِ.

فَلَرُبَّمَا قَرَأَ الْقُرْآنَ كُلَّهُ فِي رَكْعَةٍ وَاحِدَةٍ...

وَلَرُبَّمَا قَامَ اللَّيْلَ كُلَّهُ بِآيَةٍ وَاحِدَةٍ...

فَلَقَدْ رُوِيَ أَنَّهُ قَامَ اللَّيْلَ كُلَّهُ وَهُوَ يُرَدِّدُ قَوْلَهُ جَلَّ وَعَزَّ:

﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ، وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾.

﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ، وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾[٦].

وَهُوَ يَبْكِي مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ بُكَاءً يُقَطِّعُ نِيَاطَ[٧] الْقُلُوبِ.

---

(١) أتوسد: أضع وسادة تحت رأسي.
(٢) سدوله: أستار ظلمته.
(٣) أسلمت الجنوب إلى المضاجع: غرقت في نومها.
(٤) قانتًا: قائمًا بطاعة الله.
(٥) منحنيًا بصلبه: مكبًا.
(٦) سورة القمر: آية ٤٦.
(٧) نياط القلوب: عروق الأفئدة.

وَيَنْشُجُ[1] نَشِيجًا مَبْحُوحًا يُفَطِّرُ[2] الْأَفْئِدَةَ .

* * *

وَلَقَدْ عُرِفَ عَنْهُ أَنَّهُ صَلَّى الْفَجْرَ بِوُضُوءِ الْعِشَاءِ ؛ نَحْوًا مِنْ أَرْبَعِينَ عَامًا ... مَا تَرَكَ ذَلِكَ خِلَالَهَا مَرَّةً وَاحِدَةً .

وَأَنَّهُ خَتَمَ الْقُرْآنَ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي تُوُفِّيَ فِيهِ سَبْعَةَ آلَافِ مَرَّةٍ .

وَكَانَ إِذَا قَرَأَ سُورَةَ الزَّلْزَلَةِ اقْشَعَرَّ جِلْدُهُ ...

وَوَجِلَ[3] فُؤَادُهُ ...

وَأَخَذَ لِحْيَتَهُ بِيَدِهِ وَطَفِقَ يَقُولُ :

يَا مَنْ يَجْزِي بِمِثْقَالِ[4] ذَرَّةٍ خَيْرٍ خَيْرًا ...

وَيَا مَنْ يَجْزِي بِمِثْقَالِ ذَرَّةٍ شَرٍّ شَرًّا ...

أَجِرْ عَبْدَكَ النُّعْمَانَ مِنَ النَّارِ ...

وَبَاعِدْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا يُقَرِّبُهُ مِنْهَا ...

وَأَدْخِلْهُ فِي وَاسِعِ رَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ .

---

(١) ينشج : يغص بالبكاء .
(٢) يُفَطِّر : يمزّق .
(٣) وَجِلَ فؤاده : استشعر الخوف .
(٤) مثقالَ ذرة : وزْنَ ذرة ، والذَّرَّة : جزء متناهٍ في الصغر .

أَبُو حَنِيفَةَ النُّعْمَانُ

وَمَضَاتٌ فَذَّةٌ مِنْ عَبْقَرِيَّتِهِ وَذَكَائِهِ

« كَانَ أَبُو حَنِيفَةَ النُّعْمَانُ شَدِيدَ الذَّبِّ عَنْ حُرُمَاتِ اللهِ ...
طَوِيلَ الصَّمْتِ ، دَائِمَ الْفِكْرِ »

[الْإِمَامُ أَبُو يُوسُفَ]

دَخَلَ أَبُو حَنِيفَةَ النُّعْمَانُ عَلَىٰ الْإِمَامِ مَالِكٍ وَعِنْدَهُ ثُلَّةٌ[1] مِنْ أَصْحَابِهِ ؛ فَلَمَّا خَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ الْتَفَتَ مَالِكٌ إِلَىٰ جُلَسَائِهِ ، وَقَالَ :

أَتَدْرُونَ مَنْ هَٰذَا ؟ .

فَقَالُوا : لَا .

فَقَالَ : هَٰذَا النُّعْمَانُ بْنُ ثَابِتٍ .

هَٰذَا الَّذِي لَوْ قَالَ عَنْ هَٰذِهِ السَّارِيَةِ[2]: إِنَّهَا ذَهَبٌ لَاحْتَجَّ لِمَا قَالَ ، وَلَخَرَجَتْ كَذَلِكَ .

* * *

لَمْ يَكُنِ الْإِمَامُ مَالِكٌ مُبَالِغًا فِيمَا وَصَفَ بِهِ أَبَا حَنِيفَةَ مِنْ قُوَّةِ الْحُجَّةِ ، وَسُرْعَةِ الْبَدِيهَةِ ، وَتَوَقُّدِ الذِّهْنِ ، وَحِدَّةِ الْخَاطِرِ .

فَقَدْ طَفِحَتْ كُتُبُ التَّارِيخِ وَالسِّيَرِ بِأَخْبَارِ مَوَاقِفِهِ مَعَ خُصُومِهِ فِي الرَّأْيِ ، وَمُنَاوِئِيهِ فِي الْعَقِيدَةِ ...

وَكُلُّهَا شَوَاهِدُ عَلَىٰ صِحَّةِ مَا نَعَتَهُ بِهِ الْإِمَامُ مَالِكٌ مِنْ أَنَّهُ لَوْ زَعَمَ لَكَ أَنَّ

---

(١) الثُّلَّة : الجماعة الكثيرة.
(٢) السَّارية : الأسطوانة ، وسارية المسجد عمود ينصب فيه .

التُّرَابَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْكَ ذَهَبٌ لَمَا وَسِعَكَ إِلَّا أَنْ تُذْعِنَ لِحُجَّتِهِ ، وَأَنْ تُسَلِّمَ لِدَعْوَاهُ .

فَكَيْفَ إِذَا كَانَ يُنَاضِلُ عَنِ الْحَقِّ ، وَيُجَادِلُ مِنْ أَجْلِهِ .

* * *

مِنْ ذَلِكَ أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ « الْكُوفَةِ » أَضَلَّهُ اللَّهُ .

وَكَانَ ذَا قَدْرٍ فِي عُيُونِ بَعْضِ النَّاسِ ، وَصَاحِبَ كَلِمَةٍ مَسْمُوعَةٍ لَدَيْهِمْ .

وَكَانَ الرَّجُلُ يَزْعُمُ لِلنَّاسِ فِيمَا يَزْعُمُهُ لَهُمْ أَنَّ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ[1] كَانَ يَهُودِيًّا فِي أَصْلِهِ ...

وَأَنَّهُ ظَلَّ عَلَىٰ يَهُودِيَّتِهِ بَعْدَ الْإِسْلَامِ أَيْضًا ...

فَلَمَّا سَمِعَ أَبُو حَنِيفَةَ مَقَالَتَهُ هَٰذِهِ مَضَىٰ إِلَيْهِ وَقَالَ :

لَقَدْ جِئْتُكَ خَاطِبًا ابْنَتَكَ فُلَانَةَ لِأَحَدِ أَصْحَابِي .

فَقَالَ : أَهْلًا بِكَ وَمَرْحَبًا ...

إِنَّ مِثْلَكَ لَا تُرَدُّ لَهُ حَاجَةٌ يَا أَبَا حَنِيفَةَ ...

وَلَكِنْ مَنِ الْخَاطِبُ ؟ .

فَقَالَ : رَجُلٌ مَوْسُومٌ[2] بَيْنَ قَوْمِهِ بِالشَّرَفِ وَالْغِنَىٰ ...

سَخِيُّ الْيَدِ ، مَبْسُوطُ[3] الْكَفِّ ...

حَافِظٌ لِكِتَابِ اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ ...

(١) عثمان بن عفان : انظره في كتاب « صور من حياة الصحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة الشرعية .

(٢) موسوم : موصوف .

(٣) مبسوط الكف : كريم شديد الكرم .

يَقُومُ اللَّيْلَ كُلَّهُ فِي رَكْعَةٍ...

كَثِيرُ الْبُكَاءِ مِنْ خَوْفِ اللَّهِ تَعَالَىٰ...

فَقَالَ الرَّجُلُ: بَخٍ بَخٍ[١]... حَسْبُكَ يَا أَبَا حَنِيفَةَ...

إِنَّ بَعْضَ مَا ذَكَرْتَهُ مِنْ صِفَاتِ الْخَاطِبِ يَجْعَلُهُ، كُفْئًا لِبِنْتِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ.

فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ: غَيْرَ أَنَّ فِيهِ خَصْلَةً لَا بُدَّ مِنْ أَنْ تَقِفَ عَلَيْهَا.

قَالَ: وَمَا هِيَ ؟!.

قَالَ: إِنَّهُ يَهُودِيٌّ.

فَانْتَفَضَ الرَّجُلُ وَقَالَ: يَهُودِيٌّ ؟!...

أَتُرِيدُ مِنِّي أَنْ أُزَوِّجَ ابْنَتِي مِنْ يَهُودِيٍّ يَا أَبَا حَنِيفَةَ ؟!...

وَاللَّهِ لَا أُزَوِّجُهَا مِنْهُ، وَلَوْ جَمَعَ خِصَالَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ...

فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ:

تَأْبَىٰ أَنْ تُزَوِّجَ ابْنَتَكَ مِنْ يَهُودِيٍّ، وَتُنْكِرُ ذَلِكَ أَشَدَّ الْإِنْكَارِ...

ثُمَّ تَزْعُمُ لِلنَّاسِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ زَوَّجَ ابْنَتَيْهِ كِلْتَيْهِمَا مِنْ يَهُودِيٍّ !!.

فَعَرَتِ الرَّجُلَ رِعْدَةٌ[٢] وَقَالَ:

أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْ قَوْلِ سُوءٍ قُلْتُهُ...

وَأَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ فِرْيَةٍ افْتَرَيْتُهَا[٣].

* * *

(١) بخ بخ: كلمة تستعمل للرضىٰ والإعجاب.

(٢) عرته رعدة: ارتعد جسدُه.

(٣) فرية افتريتها: كلمة باطل قلتها.

وَمِنْ ذَٰلِكَ أَيْضًا أَنَّ أَحَدَ الْخَوَارِجِ[١] وَهُوَ الضَّحَّاكُ الشَّارِي جَاءَ إِلَىٰ أَبِي حَنِيفَةَ ذَاتَ يَوْمٍ وَقَالَ :

تُبْ يَا أَبَا حَنِيفَةَ .

فَقَالَ : مِمَّ أَتُوبُ ؟! .

فَقَالَ الْخَارِجِيُّ : مِنْ قَوْلِكَ بِجَوَازِ التَّحْكِيمِ الَّذِي جَرَىٰ بَيْنَ عَلِيٍّ وَمُعَاوِيَةَ .

فَقَالَ لَهُ أَبُو حَنِيفَةَ : أَلَا تَقْبَلُ أَنْ تُنَاظِرَنِي فِي هَٰذَا الْأَمْرِ ؟ .

فَقَالَ الْخَارِجِيُّ : بَلَىٰ .

فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : فَإِنِ اخْتَلَفْنَا فِي شَيْءٍ مِمَّا نَتَنَاظَرُ فِيهِ ؛ فَمَنْ يَحْكُمُ بَيْنَنَا ؟ .

فَقَالَ الْخَارِجِيُّ : حَكِّمْ مَنْ تَشَاءُ .

فَالْتَفَتَ أَبُو حَنِيفَةَ إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ الْخَارِجِيِّ كَانَ مَعَهُ وَقَالَ :

احْكُمْ بَيْنَنَا فِيمَا نَخْتَلِفُ فِيهِ ...

ثُمَّ قَالَ لِلْخَارِجِيِّ : أَنَا رَضِيتُ بِصَاحِبِكَ فَهَلْ تَرْضَىٰ بِهِ أَنْتَ ؟ .

فَسُرَّ الْخَارِجِيُّ وَقَالَ : نَعَمْ .

فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : وَيْحَكَ أَتُجَوِّزُ التَّحْكِيمَ فِيمَا يَشْجُرُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ[٢]، وَتُنْكِرُهُ عَلَىٰ اثْنَيْنِ مِنْ صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؟! .

فَبُهِتَ الْخَارِجِيُّ ، وَلَمْ يُحِرْ جَوَابًا[٣] ...

* * *

(١) الخوارج : هم الّذين خرجوا علَىٰ عليّ ومعاوية رضي الله عنهما .

(٢) يشجر بيني وبينك : يقع بيننا من خلاف .

(٣) لم يُحِرْ جوابًا : سكت ، ولم يجب بشيء .

وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضًا أَنَّ جَهْمَ بْنَ صَفْوَانَ رَأْسَ الْفِرْقَةِ «الْجَهْمِيَّةِ» الضَّالَّةِ الْمُبْتَدِعَةِ، وَزَارِعَ الشَّرِّ فِي أَرْضِ الْإِسْلَامِ جَاءَ مَرَّةً أَبَا حَنِيفَةَ وَقَالَ:

لَقَدْ أَتَيْتُكَ لِأُكَلِّمَكَ فِي أَشْيَاءَ هَيَّأْتُهَا لَكَ...

فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ: الْكَلَامُ مَعَكَ عَارٌ...

وَالْخَوْضُ فِيمَا تَذْهَبُ إِلَيْهِ نَارٌ تَلَظَّىٰ(١).

فَقَالَ جَهْمٌ: كَيْفَ حَكَمْتَ عَلَيَّ بِمَا حَكَمْتَ، وَأَنْتَ لَمْ تَلْقَنِي مِنْ قَبْلُ، وَلَمْ تَسْمَعْ كَلَامِي ؟!.

فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ: لَقَدْ بَلَغَتْنِي عَنْكَ أَقَاوِيلُ لَا تَصْدُرُ عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ(٢).

فَقَالَ جَهْمٌ: أَتَحْكُمُ عَلَيَّ بِالْغَيْبِ ؟.

فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ: لَقَدْ شُهِرَ ذَلِكَ عَنْكَ وَاسْتَفَاضَ(٣)...

وَعَرَفَتْهُ الْعَامَّةُ وَالْخَاصَّةُ؛ فَجَازَ لِي أَنْ أُثْبِتَهُ عَلَيْكَ بِمَا تَوَاتَرَ عَنْكَ.

فَقَالَ جَهْمٌ: أَنَا لَا أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَكَ إِلَّا عَنِ الْإِيمَانِ.

فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ: أَوَ لَمْ تَعْرِفِ الْإِيمَانَ إِلَىٰ هَٰذِهِ السَّاعَةِ حَتَّىٰ تَسْأَلَنِي عَنْهُ ؟!.

فَقَالَ جَهْمٌ: بَلَىٰ، وَلَكِنِّي شَكَكْتُ فِي نَوْعٍ مِنْهُ.

فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ: الشَّكُّ فِي الْإِيمَانِ كُفْرٌ.

---

(١) تلظَّىٰ: تلتهب وتقذف بالشرر.

(٢) أهل القِبْلَة: المسلمون، وقد سموا بذلك لأنهم يستقبلون القبلة في صلواتهم.

(٣) استفاض: شاع بين الناس وذاع.

فَقَالَ جَهْمٌ : لَا يَحِلُّ لَكَ أَنْ تَصِمَنِي بِالْكُفْرِ إِلَّا إِذَا سَمِعْتَ مِنِّي مَا يُكَفِّرُ .

فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : سَلْ عَمَّا بَدَا لَكَ .

فَقَالَ جَهْمٌ : أَخْبِرْنِي عَنْ رَجُلٍ عَرَفَ اللَّهَ بِقَلْبِهِ ، وَعَلِمَ أَنَّهُ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَلَا نِدَّ[1] ...

وَعَرَفَهُ بِصِفَاتِهِ ، وَأَنَّهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ...

ثُمَّ مَاتَ وَلَمْ يُعْلِنِ الْإِيمَانَ بِلِسَانِهِ .

أَفَيَمُوتُ مُؤْمِنًا أَمْ كَافِرًا ؟ .

فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : يَمُوتُ كَافِرًا ، وَيَكُونُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ ؛ إِذَا لَمْ يُصَرِّحْ بِلِسَانِهِ عَمَّا عَرَفَهُ بِجَنَانِهِ[2] مَا لَمْ يَمْنَعْهُ مِنَ التَّصْرِيحِ بِاللِّسَانِ مَانِعٌ .

فَقَالَ جَهْمٌ : كَيْفَ لَا يَكُونُ مُؤْمِنًا وَقَدْ عَرَفَ اللَّهَ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ ؟! .

فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : إِنْ كُنْتَ تُؤْمِنُ بِالْقُرْآنِ وَتَجْعَلُهُ حُجَّةً كَلَّمْتُكَ بِهِ ...

وَإِنْ كُنْتَ لَا تُؤْمِنُ بِالْقُرْآنِ وَلَا تَرَاهُ حُجَّةً كَلَّمْتُكَ بِمَا نُكَلِّمُ بِهِ مَنْ خَالَفَ الْإِسْلَامَ .

قَالَ جَهْمٌ : بَلْ أُومِنُ بِالْقُرْآنِ وَأَجْعَلُهُ حُجَّةً .

فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ جَعَلَ الْإِيمَانَ بِجَارِحَتَيْنِ[3] اثْنَتَيْنِ : بِالْقَلْبِ وَاللِّسَانِ لَا بِوَاحِدَةٍ مِنْهُمَا ...

وَكِتَابُ اللَّهِ وَحَدِيثُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ طَافِحَانِ بِتَقْرِيرِ ذَلِكَ :

---

(١) النِّدُّ : المثيل والشبيه .

(٢) بجنانه : بقلبه .

(٣) بجارحتين : بعضوين .

قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ وَ إِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ * وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ *

فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴾[١].

فَهُمْ عَرَفُوا الْحَقَّ بِجَنَانِهِمْ ، وَنَطَقُوا بِهِ بِلِسَانِهِمْ ؛ فَأَدْخَلَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ .

وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْمَاعِيلَ وَ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾[٢].

فَأَمَرَهُمْ بِالْقَوْلِ ، وَلَمْ يَكْتَفِ مِنْهُمْ بِالْمَعْرِفَةِ وَالْعِلْمِ .

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : (قُولُوا : لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ تُفْلِحُوا[٣]) ...

فَلَمْ يَجْعَلِ الْفَلَاحَ بِالْمَعْرِفَةِ وَحْدَهَا ، وَ إِنَّمَا ضَمَّ إِلَيْهَا الْقَوْلَ .

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : (يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ : لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ) ...

فَلَمْ يَقُلْ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ عَرَفَ اللَّهَ .

وَلَوْ كَانَ الْقَوْلُ لَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ ، وَيُكْتَفَىٰ بِالْمَعْرِفَةِ مِنْ دُونِهِ لَكَانَ إِبْلِيسُ مُؤْمِنًا ...

---

(١) سورة المائدة : من الآية ٨٣ - ٨٥.
(٢) سورة البقرة: الآية ١٣٦.
(٣) تفلحوا : تظفروا برضى الله عزَّ وجلَّ ، وتفوزوا بالجنة.

لِأَنَّهُ عَارِفٌ بِرَبِّهِ ؛ فَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَهُ ، وَهُوَ الَّذِي يُمِيتُهُ ، وَهُوَ الَّذِي يَبْعَثُهُ ، وَهُوَ الَّذِي أَغْوَاهُ(١).

قَالَ تَعَالَىٰ عَلَىٰ لِسَانِهِ :

﴿ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾(٢).

وَقَالَ : ﴿ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي(٣) إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾(٤).

وَقَالَ : ﴿ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ(٥) ﴾(٦).

وَلَوْ كَانَ مَا تَزْعُمُهُ صَحِيحًا لَكَانَ كَثِيرٌ مِنَ الْكُفَّارِ مُؤْمِنِينَ بِمَعْرِفَتِهِمْ لِرَبِّهِمْ مَعَ إِنْكَارِهِمْ لَهُ بِلِسَانِهِمْ .

قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ وَجَحَدُوا(٧) بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا(٨) أَنْفُسُهُمْ ﴾(٩).

فَلَمْ يَجْعَلْهُمْ مُؤْمِنِينَ بِاسْتِيقَانِهِمْ وَإِنَّمَا عَدَّهُمْ كَافِرِينَ لِجُحُودِ أَلْسِنَتِهِمْ .

وَمَضَىٰ أَبُو حَنِيفَةَ يَتَدَفَّقُ عَلَىٰ هَٰذَا النَّسَقِ تَارَةً بِالْقُرْآنِ وَأُخْرَىٰ بِالْحَدِيثِ حَتَّىٰ بَدَا الِانْبِهَارُ وَالْخِذْلَانُ(١٠) عَلَىٰ وَجْهِ جَهْمٍ ...

وَانْسَلَّ مِنْ بَيْنِ يَدَيْ أَبِي حَنِيفَةَ وَهُوَ يَقُولُ :

لَقَدْ أَذْكَرْتَنِي شَيْئًا كُنْتُ نَاسِيَهُ ، وَسَأَرْجِعُ إِلَيْكَ .

ثُمَّ مَضَىٰ إِلَىٰ غَيْرِ عَوْدَةٍ .

* * *

(١) أغواه : أضلَّه.
(٢) الأعراف : آية ١٢.
(٣) أنظرني : أمهلني وأخرني.
(٤) سورة الحجر : آية ٣٦.
(٥) المستقيم : السوي الذي لا عوج فيه.
(٦) سورة الأعراف : آية ١٦.
(٧) جحدوا : كذّبوا وكفروا.
(٨) استيقنتها : علمتها وتحققت منها.
(٩) سورة النمل : آية ١٤.
(١٠) الخذلان : الضعف وفقدان النصير.

وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضًا أَنَّ أَبَا حَنِيفَةَ لَقِيَ طَائِفَةً مِنَ الْمُلْحِدِينَ الَّذِينَ يُنْكِرُونَ وُجُودَ الْخَالِقِ جَلَّ وَعَزَّ، فَقَالَ لَهُمْ:

مَا تَقُولُونَ فِي سَفِينَةٍ مَشْحُونَةٍ[1] بِالْأَثْقَالِ، مَمْلُوءَةٍ بِالْأَمْتِعَةِ وَالْأَحْمَالِ...

قَدْ أَحَاطَتْ بِهَا فِي لُجَّةِ[2] الْبَحْرِ أَمْوَاجٌ مُتَلَاطِمَةٌ، وَعَصَفَتْ بِهَا رِيَاحٌ عَاتِيَةٌ؛ غَيْرَ أَنَّهَا ظَلَّتْ تَجْرِي هَادِئَةً فِي طَرِيقِهَا الْمَرْسُومَةِ، وَتَمْضِي مُطْمَئِنَّةً إِلَىٰ غَايَتِهَا الْمَعْلُومَةِ؛ مِنْ غَيْرِ اضْطِرَابٍ وَلَا خَلَلٍ وَلَا انْحِرَافٍ، وَلَيْسَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مَلَّاحٌ يُحْكِمُ[3] سَيْرَهَا، أَوْ مُوَجِّهٌ يُنَظِّمُ خَطْوَهَا...

أَفَيَصِحُّ ذَلِكَ فِي الْفِكْرِ؟!.

فَقَالُوا: لَا، إِنَّ هَذَا شَيْءٌ لَا يَقْبَلُهُ الْعَقْلُ وَلَا يُجِيزُهُ الْوَهْمُ، أَيُّهَا الشَّيْخُ...

فَقَالَ: يَا سُبْحَانَ اللَّهِ!!.

تُنْكِرُونَ أَنْ تَجْرِيَ سَفِينَةٌ فِي الْبَحْرِ جَرْيًا مُحْكَمًا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ لَهَا رُبَّانٌ يَتَعَهَّدُهَا...

وَتُقِرُّونَ قِيَامَ هَذَا الْكَوْنِ بِبِحَارِهِ الزَّاخِرَةِ، وَأَفْلَاكِهِ السَّائِرَةِ، وَطَيْرِهِ السَّابِحِ، وَحَيَوَانِهِ السَّارِحِ مِنْ غَيْرِ صَانِعٍ يُحْكِمُ صَنْعَتَهُ، وَمُدَبِّرٍ يُحْسِنُ تَدْبِيرَهُ؟!.

تَبًّا[4] لَكُمْ وَلِمَا تَأْفِكُونَ[5]...

* * *

(١) مشحونة: مملوءة.
(٢) اللُّجَّة: أعمق مكان في البحر وأوسعه.
(٣) يُحكم: ينظِّم ويحدِّد.
(٤) تبًّا: هلاكًا وخسرانًا.
(٥) تأفكون: تكذبون.

وَبَعْدُ ، فَقَدْ قَطَعَ أَبُو حَنِيفَةَ رِحْلَةَ الْحَيَاةِ كُلَّهَا ؛ يُنَافِحُ عَنْ دِينِ اللَّهِ بِمَا وَهَبَهُ الْخَالِقُ مِنْ حُجَّةٍ بَالِغَةٍ ...

وَيُجَادِلُ عَنْ شَرْعِهِ بِمَا حَبَاهُ اللَّهُ مِنْ مَنْطِقٍ فَذٍّ .

فَلَمَّا أَتَاهُ الْيَقِينُ ؛ وَجَدُوا فِي وَصِيَّتِهِ أَنَّهُ عَزَمَ عَلَى أَهْلِهِ أَنْ يَدْفِنُوهُ فِي أَرْضٍ طَيِّبَةٍ ، وَأَنْ يُجَنِّبُوهُ كُلَّ مَكَانٍ فِيهِ شُبْهَةُ غَصْبٍ[1].

فَلَمَّا بَلَغَتْ وَصِيَّتُهُ الْمَنْصُورَ قَالَ :

مَنْ يَعْذِرُنَا[2] مِنْ أَبِي حَنِيفَةَ حَيًّا وَمَيِّتًا ؟ .

* * *

وَلَقَدْ أَوْصَى أَبُو حَنِيفَةَ بِأَنْ يَتَوَلَّى غَسْلَهُ الْحَسَنُ بْنُ عُمَارَةَ ، فَلَمَّا غَسَّلَهُ قَالَ :

رَحِمَكَ اللَّهُ يَا أَبَا حَنِيفَةَ ، وَغَفَرَ لَكَ جَزَاءَ مَا قَدَّمْتَ .

فَإِنَّكَ لَمْ تُفْطِرْ مُنْذُ ثَلَاثِينَ سَنَةً ...

وَلَمْ تَتَوَسَّدْ بِاللَّيْلِ يَمِينَكَ مُنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً ...

وَلَقَدْ أَتْعَبْتَ الْفُقَهَاءَ مِنْ بَعْدِكَ ...(*) .

---

(١) شبهة غصب : شك في أنه أُخذ غصبًا .

(٢) من يعذرنا : من يرفع عنا اللوم والعتاب .

(*) للاستزادة من أخبار أبي حنيفة النعمان انظر :

١ - البداية والنهاية : ١٠/١٠٧ .
٢ - وفيات الأعيان : ٥/٤١٥ - ٤٢٣ .
٣ - النجوم الزاهرة : ٢/١٢ .
٤ - شذرات الذهب : ١/٢٢٧ - ٢٢٩ .
٥ - مرآة الجنان : ١/٣٠٩ .
٦ - العبر : ١/ ٢١٤ .
٧ - تاريخ بغداد : ١٣/٣٢٣ - ٣٢٤ .
٨ - تاريخ البخاري : ٨/ ٨١ .
٩ - الجرح والتعديل : ٨/٤٤٩ - ٤٥٠ .
١٠ - ميزان الاعتدال : ٤/ ٢٦٥ .

فهرس ألفبائي للتابعين

(أ)

(ح)

(ذ)

(ر)

(ق)

(م)

(ن)

محتوى الكتاب

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة